المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية
مكة المكرمة

سلسلة الرسائل العلمية الموصي بطبعها
(٢)

الدولة العثمانية والغزو الفكري

حتى عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م

دكتور
خلف بن دبلان بن خضر الوذيناني
الأستاذ في التاريخ الحديث والمعاصر المشارك
بجامعة أم القرى

مكة المكرمة
الطبعة الثانية
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م

al-Dawlah al-'Uthmāniyah wa-al-ghazw al-fikrī...

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي
مكة المكرمة

سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطبعها
" ٢ "

الدولة العثمانية والغزو الفكري
حتى عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م

دكتور
خلف بن دبلان بن خضر الوذيناني
الأستاذ في التاريخ الحديث والمعاصر المشارك
بجامعة أم القرى

مكة المكرمة
الطبعة الثانية
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م

ح جامعة أم القرى ، ١٤١٧ هـ .
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

الوذيناني ، خلف بن دبلان بن خضر

الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ـ مكة المكرمة .

٦٠٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم .

ردمك ١ ـ ١٢٤ ـ ٣ ـ ٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الدولة العثمانية ـ تاريخ ٢ ـ الغزو الفكري أ ـ العنوان

ديوي ٩٥٣,٠٩ ١٧ / ٠١٠٥

رقم الإيداع : ١٧ / ٠١٠٥

ردمك ١ ـ ١٢٤ ـ ٣ ـ ٠ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا العمل هو رسالة دكتوراة في « الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م » .

من جامعة أم القرى بمكة المكرمة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية قسم : التاريخ . أوصت لجنة المناقشة بطبعها ..

وبالله التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الموضوع

الحمد لله الذي هدانا الى الاسلام ، وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وأكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة ، ورضي لنا الإسلام دينا ، وأرسل محمدا بالهدى ودين الحق ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده ، حتى تركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها الا هالك ، فصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ، وبعد:

فإنه بعد حصولي على درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي في (العصر الحديث) ، أخذت أستعرض أحداث التاريخ الاسلامي وتطوراته وذلك لاختيار موضوع منها يكون مناسبا لدراسته في مرحلة الدكتوراه ، ومن خلال تلك الدراسة رأيت أن تاريخ العالم العربي والاسلامي في العصر الحديث يعتبر الجزء الأكبر منه داخلا في تاريخ الدولة العثمانية ، ومن ثم أصبح اختيار موضوع من تاريخنا العربي والاسلامي في العصر الحديث مرتبطا أساسابتاريخ الدولة العثمانية . ومن هذا المنطلق وقع اختياري لموضوع جوهري يمس حياتنا وواقعنا المعاصر ، لأن جذوره ظهرت ونشأت خلال فترة تاريخ العصر الحديث للعالم الاسلامي والعربي وذلك لمعرفة أسبابه ونشأته وتطوره ونتائجه . هذا الموضوع يحمل عنوان (الدولة العثمانية والغزو الفكري) حتى عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م. وقد جاء اختياري لهذا الموضوع لأمور منها :

أولا: لاحظ كثير من الباحثين الذين تناولوا الغزو الفكري أن العالم الاسلامي كان عرضة للغزو الفكري في كل عصوره التاريخية ، وخاصة في العصر الحديث . ولكن فاتهم أن يلاحظوا أن العالم الاسلامي كان غازيا في عصور قوة الدولة الاسلامية. فالدولة العثمانية كانت متقدمة فكريا وسياسيا في عصرها الأول ، ذلك

العصر الذي طبقت فيه النظم الاسلامية تطبيقا شاملا ، ولكنها كانت غير ذلك في عصرها الثاني .

ثانيا : أهمية تناول الغزو الفكري من الجانب التاريخي وبالأسلوب التاريخي التطبيقي في العصر الحديث تناولا ينفرد به قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية وقسم التاريخ الاسلامي بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى لاعداد تخصصات مباشرة ودقيقة للموضوعات التي استحدثت عند تطوير مناهج قسم التاريخ ، ومنها الغزو الفكري .

فموضوع الدولة العثمانية والغزو الفكري من الموضوعات المهمة والجديدة التي لم يتعرض لها أي باحث على المستوى العلمي الدقيق ، ونتيجة لذلك استعنت با لله وسألته التوفيق ، وعزمت على دراسة هذا الموضوع وجمع شتات مادته من الموارد العلمية ذات الصلة بالموضوع.

أما الصعوبات التي واجهتني ، فلاشك أن أي باحث - مهما بلغت درجته العلمية - لابد أن تقابله بعض الصعوبات والمتاهات التي تظهر له أثناء جمع المادة ، ولكن بالعزيمة والاصرار يستطيع الباحث بتوفيق من ا لله تعالى أن يجتاز كل الصعوبات ، الا أن الباحث لايخلو من الخوف والقلق وهذا ماحدث لي ، وخاصة لصعوبة هذا الموضوع ، حيث بدأت رحلتي العلمية الشاقة للبحث عن مادة هذاالموضوع ، بدراسة تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى خلع السلطان عبدالحميد الثاني دراسةً مستفيضة وقفت من خلالها على أحوال الدولة في عصر قوتها حتى دانت لها أوربا ، وجثت أمامها على ركبتيها ، بل وهددت روما حتى كادت تفتحها وتنشر الاسلام فيها ، فاهتزت لهذا الحدث أركان أوربا ، وخافت روما من السقوط . ونتيجة لذلك انكمشت الحركة الصليبية خوفاً من المسلمين ، خاصة بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية التي كانت مركزها ومعبرها الوحيد الى داخل الأراضي الاسلامية ، فوقفت الصليبية تدافع عن نفسها مذهولة ، بعد أن

كانت تهدد العالم الاسلامي وتقيم الأحلاف عقب الأحلاف ، لتنطلق بحروبها الصليبية من جديد الى البلاد الاسلامية ولكن ا لله خذلها ورد كيدها.

لهذا لابد أن أبرز هذه الأحداث التاريخية المشرقة ، التي قام بها العثمانيون فاتحين نحو الغرب للجهاد في سبيل ا لله ونشر الاسلام في أوربا حتى حققوا تلك الانتصارات ، وبناء دولتهم على الأسس الاسلامية ، فتمكنت بفضل ا لله من قهر أعدائها نصارى أوربا ، وأوقفت خطر الحملات الصليبية التي كانت تهدد العالم الاسلامي ، وحولت مركزهم ومنطلق حملاتهم الى عاصمة اسلامية ومنطلق للدعوة الاسلامية في أوربا . لذلك تقدمت الجيوش الاسلامية في فتوحاتها في عصر سليمان الأول (القانوني) حتى بلغت أقصى اتساعها فشملت مناطق عظمى في القارات الثلاث آسيا وأوربا ثم افريقيا ، وبالتالي غدت الدولة العثمانية دولة اسلامية عظمى امتدت أراضيها في قارات ثلاث فانتشرت مع ذلك الدعوة الاسلامية وزاد عدد شعوبها ، إلا أن هذا التحرك الإسلامي العظيم أزعج الدول الأوربية والشعوب النصرانية فأخذت تخطط للنيل من هذه الدولة ومحاربة الإسلام والحد من انتشاره وكان منفذها الوحيد لتحقيق أهدافها وغاياتها هو عن طريق الغزو الفكري وإيهام قادة الدولة بأنها في حاجة الى تطوير نظمها ، وقد تحقق لها ذلك بعد موت السلطان سليمان الأول ، فحل بالدولة الخلل الذي لم يستطع للأسف سلاطينُها وعلماؤها وقادةُ جيشها التغلب عليه خاصة بعد أن سرت بين قادتها حياةُ الترف والانغماس في الملذات وعدم الالتفات الى ادارة الدولة وتطويرها ، فقد كانت الثروة التي جمعها سلاطين آل عثمان في عصرها الأول من الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة ،وما تلا ذلك من الاستقرار الداخلي وزيادة موارد الدولة هي التي أفسدت نظام الدولة وسلاطينها وجيشها ، ونظرا لضعف السلاطين خلال العصر العثماني الثاني للدولة العثمانية وتساهلهم في الحفاظ على ممتلكات وحدود الدولة ووحدتها التي حصلت عليها في عصرها الأول مما هيأ الجو للعناصر

المعادية لأن تعمل في السر والعلانية لغزو الدولة العثمانية فكريا وعسكريا ، فكثرت الإرساليات الأجنبية والبعثات التنصيرية وخاصة إلى بلاد الشام ، وتداخلت الأحزاب السرية من صهيونية وماسونية حتى أغرقت البلاد من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها محاولةً تغيير المفاهيم الإسلامية . ومما يؤسف له أن قادة الدولة أهملوا الداء حتى عم واستشرى شره ، وماعلموا أن الإسلام صالح لكل زمان مكان ، فلم يبحثوا في إيجاد نظم تتمشى مع الشريعة الإسلامية ، بل استبدلوا بالشريعة القوانين الوضعية التي وضعها لهم أعداء الإسلام ، فأضاعوا الإسلام فضاعوا ، وتدخلت الدول الأجنبية في شئون الدولة الداخلية والخارجية ، وحصلت على الامتيازات والحقوق التي رسخت أقدامها في البلاد الإسلامية ، وظهر أعداء الإسلام بمظهر دعاة الإصلاح، فكانت الفرصة سانحة لهم لعمل مايريدون عمله بتوجيه عالمي من زعماء الصهيونية والماسونية والعلمانيةالعالمية، وجاءت جمعية الاتحاد والترقي التي يقودها أذيال الماسونية والعلمانية وتسلطوا على السلطة حتى استطاعوا خلع السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م فأنهوا بذلك الدولة التي أصبحت لقمة سائغة للاستعمار.

وخلال تلك الفترة ظهر في شبه الجزية العربية الزعيم القائد الإمام محمد بن سعود ، فأيد الدعوة الاصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وظهرت في شبه الجزيرة العربية دولة التوحيد ، الدولة السعودية ، فكان الأعداء لها بالمرصاد ، فقاموا بتفتيت تلك الدولة الإسلامية الرائدة أكثر من مرة ونعتوها بالألقاب حتى يظهروها بالمظهر الخارج عن الإسلام ، ولكن الله ينصر من ينصره ، فقد هيأ لهذه الدولة قائداً حكيما لم تنطل عليه الحيل والأقاويل هو الملك عبدالعزيز الذي خشي أن تطأ أقدامُ الكفرة الأراضي المقدسة في الحرمين الشريفين ، فسار في عملية فدائية حتى وحد شبه الجزية العربية ، وأبعد عنها شبح الاستعمار ، وعمل

على توحيد الأمة العربية والإسلامية وأعاد للعالم الإسلامي مكانته وشخصيته البارزة ، كما طبق الشريعة الإسلامية كأساس للحكم والادارة .

وجمع مادة هذا البحث كان لزاما علي أن أقوم برحلة علمية أقف من خلالها على مادة هذا الموضوع من مظانها الأصلية في المكتبات العامة والخاصة ومراكز البحوث والوثائق في داخل المملكة وخارجها.

لهذا قررت السفر أولا الى اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية لوجود الوثائق والمخطوطات هناك. وبعد عناء وجدت في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة مجلس الوزراء في اسطنبول Baskbkanlik Osmanli Arsiv بعض الوثائق والمعاهدات العثمانية الهامة منها مايتعلق بالأمور التالية:

١- وثائق المشروطية الأولى التي صدرت في عهد السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٢٩٤هـ.

٢- معاهدة سان ستيفانو سنة ١٨٧٨م.

٣- معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م.

٤- وثائق المشروطية الثانية التي صدرت في نهاية عهد السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٣٢٦هـ.

إضافةً الى بعض المخطوطات والكتب النادرة التي أثرت البحث في معظم أبوابه .

ثم عرجت في طريق عودتي على سوريا ثم الأردن حيث كانت المحطة الثانية للرحلة . فالقاهرة حيث حصلت منها على مجموعة مهمة من الكتب والمذكرات التي أعانتني في الدراسة وبددت الخوف والقلق الذي كان ينتابني من عدم الحصول على المادة العلمية ، ولكن ما أسعدني حقا هو حصولي - عندما واصلت السير الى لندن ، وعثوري على بعض الوثائق المهمة في أرشيف السجلات البريطانية العام Public Record Office - هذه الوثائق أثرت موضوع الغزو

الفكري وغطت مادته العلمية في كثير من الجوانب المهمة فأغنتني عن بعض المراجع لولا الاستئناس بها ، لأن بريطانيا تتجسس على فرنسا وروسيا، فنقلت نشاط ونفوذ هذه الدول وماكانت تجنده لغرض بسط نفوذها على بلاد الشام وما يملي عليها لتنفيذه ، وهو ماتعرضنا له في متن الرسالة .

فكل تلك الوثائق والمعاهدات والمصادر والمراجع التي سنذكرها في قائمة ثبت المراجع في آخر هذا البحث حصلت عليها من تلك البلاد ، وقد فتحت هذه المادة العلمية أمامي مجال البحث والاستقصاء ودراسة ماتوافر لي من مادة علمية ، فوقفت أمامها ساعات طويلة أقرأها وأحللها وأستنبط الحقائق منها بكل تجرد وبكل حذر واضعا أمامي أن تلك الأمور احدى مهام المؤرخ الفاحص الباحث عن الحقيقة المجردة ، وأخذت بعد جمع المادة الكتابة في الموضوع حسب الخطة الموضوعة له .

وتحتوي خطة الرسالة على مقدمة ، وخمسة فصول تعالج نقاط البحث .

فالمقدمة : تتحدث عن طبيعة الدولة الإسلامية العثمانية وفتوحاتها في آسيا الصغرى وشرق وجنوب أوربا تدفعها الى ذلك روح الجهاد الإسلامي لفتح المدن البيزنطية ونشر الاسلام، لذلك كان استمرار الجهاد أحد أهداف قادة الدولة ، وهذا ماتحقق في الفصل الأول حيث بلغت الدولة العثمانية أوج قوتها وتماسكها بفضل من الله وتوفيقه ثم باعتمادها على تطبيق النظم الإسلامية . وقد عرف المؤرخون هذه الفترة بعصر عظمة الدولة ، أو عصر السلاطين العشرة الأوائل . وكان من ركائز هذه القوة هو صلاح العناصر الثلاثة السلطان والشيخ والجندي واعتمادهم على الإسلام قلبا وقالبا مما جعل الدولة قوية ، وهذا مما جعل السلطان محمد الفاتح يتطلع بنظره لفتح القسطنطينية مركز ومعبر الصليبية الى الأراضي الإسلامية لمحاربة الإسلام .وقد استطاع محمد الفاتح فتح القسطنطينية فثار

غضب الصليبية ، ولم تهدأ إلا عندما دبرت إغتياله بواسطة طبيبه اليهودي الذي اعتنق الإسلام لأجل هدف القضاء على هذا السلطان المجاهد.

أما الفصل الثاني فقدجاء الحديث فيه عن الوسائل التي أدت إلى تسرب الخلل إلى السلاطين وهيئة العلماء وإلى الجيش المحارب (الإنكشارية) في عصر الدولة العثمانية الثاني، مما أدى الى التوقف والركود بعد أن بلغت الدولة شأوا رفيعا من النصر والاتساع ، وبسطت نفوذها في ثلاث قارات ، كما أدى الى انكماش الدولة وتدهورها منذ نهاية السلطان سليـــــمان الأول حيث تعاقبت الهزائم على جيش الدولة في ميادين حربية عديدة مما أعقبه عقد المعاهدات الواحدة تلو الأخرى والتي عجلت في ضعف الدولة ، ففقدت الدولة بعض ممتلكاتها في جنوب أوربا ، وذلك لضعف السلاطين وانغماسهم في حياة الترف ولتعسف الولاة ، وحماقة القادة ، وعدم استطاعتهم حل المشكلات بحكمة ودراية من أجل اخراج الدولة الى بر الأمان وتخليصها من هذه الأزمات ، ولعدم دراسة وضع البلاد وايجاد طرق العلاج لها في الحال . ولكن استمرار الدولة على هذا الوضع جعلها حقلا للغزو الفكري الأوربي بسبب عوامل تناولها الفصل الثالث ، وهي تطورات أو عوامل الغزو الفكري في التاريخ الأوربي الحديث والمتمثلة في العلمانية والقومية والحركة الدستورية ، فقد تسربت هذه الأفكار والأطماع عن طريق الثورة الفرنسية الى ممالك الدولة العثمانية في أوربا ، مما أفقدها بلاد اليونان ، ثم تلتها الحركة الدستورية التي اضطربت بأفكارها دول البلقان : الصرب والافلاق والبغدان والجبل الأسود ، طلبا للاستقلال ، فأخذت في الثورة رغبة في الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وكانت تساندها روسيا حتى نالت استقلالها في معاهدة برلين سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م.

وفي الفصل الرابع تعرضت الخطة لمظاهر الغزو الفكري ، الذي أخذ يتفاقم منذ الحرب الروسية التركية المسماة بحرب القرم (١٢٦٩ - ١٢٧٢ هـ/

١٨٥٣ - ١٨٥٥م) وما انتهت اليه وهو عقد معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م ، تحت اشراف فرنسا وبريطانيا وهي دول معادية للاسلام ، ونتيجة لابرام هذه المعاهدة وقعت الدولة العثمانية في منزلق الاصلاح، ثم ألحقت خط كلخانة سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩ م بالخط الهمايوني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م، وتبعه إنشاء المحاكم المختلطة والمحاكم التجارية ، هذا الحدث هو بداية انهيار العمل بالتشريع الإسلامي ، حيث أخذ الغزو يتفاقم حتى خلع السلطان عبدالحميد الثاني بواسطة حزب الاتحاد والترقي وبالتعاون مع الصهيونية والماسونية ، وتم نفيه الى سلانيك في سنة ١٣٢٧هـ /١٩٠٩م بعد أن أعيت أوربا الحلول العسكرية بسبب القوة والتماسك اللذين أكسبهما الإسلام للدولة العثمانية.

أما الفصل الخامس والأخير فقد جاء بتقييم جديدة لدعوة التوحيد والاصلاح بعد أن هيأ الله لها دعاة صدق ، قاموا بصد الموجات والتيارات الملحدة الوافدة الى شبه الجزيرة العربية وقاوموها بقوة ايمانهم واسلامهم وعقيدتهم بمحاربة أعداء الإسلام ، فجاهدوا في سبيل الله لنشرها في البلاد المفتوحة . وبالرغم من الأزمات التي تعرضوا لها فانها لم تزدهم الا ثباتا على دعوتهم السلفية التي استمرت على مر عصور الدولة السعودية وسوف تظل كذلك الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأخيرا اختتمت الفصول بالخاتمة والنتائج التي توصلت اليها خلال هذا البحث

أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت بتقديم اضافة جديدة للعلم وطلابه اسهاما مني في دراسة جزء من عالمنا الاسلامي ، اسهام المتواضع لخدمة وطنه الوفي الغالي .

وفي هذه المناسبة لايفوتني أن أنوه بجهود المشرف السابق الأستاذ الدكتور محمد عبداللطيف البحراوي ، الذي أشرف على هذه الرسالة مايقارب السنة ،

وقد أعطاني من وقته الكثير في سبيل مناقشة كثير من المواضيع حتى استقر الرأي الأخير على اختيار هذا الموضوع . ولايسعني في هذا المقام الا أن أدعو له بطول العمر والبقاء وأن يجزيه ا لله عنا خير الجزاء . ولاستقالته حُول الإشراف الى سعادة الأستاذ الدكتور ابراهيم صغيرون الذي لم يأل جهدا في متابعة الإشراف وتقديم النصح حتى استقال . ومن ثم حول الأشراف الى أستاذنا الأستاذ الدكتور عبداللطيف عبدا لله بن دهيش .

وختاما أر ى من واجبي في هذه المناسبة أن أتقدم بالشكر الجزيل الى كل من قام بمساعدتي في اجتياز هذه المراحل لإخراج هذا البحث الى حيز الوجود ، فأخص بالذكر جامعة أم القرى ، وكلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، وقسم التاريخ الإسلامي ، وقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، ومكتبة الجامعة المركزية . وكذلك القائمين على الأرشيف العثماني في اسطنبول والقائمين على أرشيف السجلات البريطانية العامة Public Record Office والى كل من مد لي يد المساعدة .

وأخص أستاذي المشرف سعادة الأستاذ الدكتور عبداللطيف عبدا لله بن دهيش الذي قدم لي كل دعم وخصني بعلمه الغزير وتوجيهاته السديدة ، فقد أعطاني من وقته وجهده الكثيرغير مقتصر على المكان والزمان ، ولم يبخل علي ، فقد فتح لي داره رغم مشاغله الكثيرة ، وعلى حساب راحته الشخصية ، وكانت ملاحظاته القيمة خير معين لاخراج هذه الرسالة . فإليه أقدم شكري وتقديري بالجميل والعرفان ، جزاه ا لله عنا خير الجزاء.

كما أقدم شكري الى الأستاذين الفاضلين عضوي لجنة الفحص والمناقشة .

راجيا من ا لله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأسأله أن يوفقنا لخدمة هذا الوطن الغالي الذي نكن له كل حب وتقدير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وهو الهادي الى سواء السبيل.،،،

المقدمة : طبيعة الدولة العثمانية

أ - نشـــأة الدولــــــــــــة .

ب - الجهاد والفتح ونشر الاسلام.

أ- نشأة الدولة :

تؤكد المصادر التاريخية أن أول من فكر في فتح الأناضول هم السلاجقة . ففي سنة ٤٠٦هـ الموافق ١٠١٥م جردسلجوق أوغلو أول حملة على الأناضول ، تعرف فيها على مدى قوة الامبراطورية البيزنطية ، وفي هذه الحملة هزم سلجوق الجيش البيزنطي في باسينلر (Pasinler) قرب مدينة أرض الروم ، وأسر القائد العام لباريد (Liparit) ، فأرسل الامبراطور البيزنطي فدية الى الخاقان الأكبر ارطغرل بك السلجوقي من أجل اطلاق سراح القائد البيزنطي المذكور ، الا أن أرطغرل أعاد الفدية ووعد باطلاق سراح لباريد مقابل اعادة فتح الجامع الذي أغلق في القسطنطينية لإقامة الشعائر الإسلامية للمسلمين المقيمين هناك . وقد استجاب الامبراطور البيزنطي لمطالب أرطغرل بك ، وأمر باعادة فتح الجامع المذكور ، وأصبحت تقام فيه الصلوات ويذكر فيه اسم أرطغرل بك بعد اسم الخليفة العباسي في الخطبة [١] .

وتلا ذلك قيام ملوك السلاجقة وأمراء الأتراك بترتيب الغزوات على الأناضول سنويا على وجه التقريب للتقدم في فتوحاتهم نحو الغرب [٢] للدفاع عن الحدود الاسلامية ضد الامبراطورية البيزنطية ، حتى كانت المعركة الحاسمة التي انتصر فيها المسلمون عام ٤٦٤هـ الموافق ١٠٧١م. على جموع البيزنطيين المحتشدين قرب بحيرة وان (Van) شرقي تركيا والتي عرفت في التاريخ

---

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة عدنان محمود سلمان (تركيا ، استانبول ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل : ١٩٨٨)، ج ١ ، ص ٥٦-٦٦.

(٢) يلماز أوزتونا : المصدر السابق ، ص ٦٦.

باسم معركة (ملازكرد)[1] حيث هزم فيها جيش بيزنطة وأسر امبراطورها رومانوس الرابع (Romanos Diogenes) ، واكتسب الزعيم التركي المسلم ألب أرسلان في هذه المعركة شهرة واسعة عمت كافة أرجاء العالم الاسلامي.

وعلى إثر ذلك استطاعت القبائل التركمانية المسلمة تثبيت أقدامها في بلاد آسيا الصغرى ، فنزلت في شرق ووسط منطقة الأناضول ، وكان من ضمن تلك القبائل التي دخلت الأناضول وسكنته قبيلة (قابي) وهم أسلاف العثمانيين[2] .

وعندما ظهر المغول من الأقصى الشرقي لآسيا بزعامة جنكيزخان ومعه نحو خمسين ألف مقاتل في حوالي عام ٦٢٤هـ/١٢٢٦م أخذوا يتقدمون نحو الغرب ، فاحتلوا في طريقهم عددا من الممالك الاسلامية ، وأذاقوا أهلها ويلات الدمار

---

(١) ملاز كرد : احدى المعارك الحاسمة في التاريخ الاسلامي التي أسفر عنها تحول منطقة الأناضول الى أراضي اسلامية يعيش عليها شعب مسلم ، كما تعد هذه الواقعة أيضا المنطلق الأول لتأسيس الدولة الاسلامية في آسيا الصغرى وبلاد الروم الصليبية . كما يمكن النظر اليها كذلك على أنها كانت الحادثة التي هيأت الأسباب لولادة الدولة العثمانية .

- يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٧.

- زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى ، (الناشر دار الفكر العربي) ، ص٥١ .

(٢) علي حسون : العثمانيون والروس ، (الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م) ، ص ١٧.،

نبيل رضوان : جهود العثمانيون لانقاذ الأندلس واسترداده . (رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة أم القرى ، تحت الطبع ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). ص ٨.

والقتل والنهب ، فقتلوا الأبرياء ، ونهبوا ودمروا المدن والمزارع [1] .

لهذه الأسباب هاجر سليمان شاه أحد ملوك تركستان وجد آل عثمان من وطنه ماهان تحت ضغط المغول ، فاتجه غربا نحو آسيا الصغرى بقبيلته العظيمة (القايي) البالغ عدد محاربيهاألفي فارس ، الى الأناضول في أوائل القرن السابع الهجري ، الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي، فأقام بمدينة أخلاط [2] ، فلما انتشر التتر واقتربوا من المدينة هاجروا منها الى أذربيجان [3] ، فهناك تقاتل مع المغول ، فانتصر عليهم وغنم منهم غنائم كثيرة [4] . ثم عاد سليمان شاه راجعاالى وطنه الأصلي عن طريق حلب ولما وصل في طريقه الى نهر الفرات ، وأمام قلعة جعبر حاول مع أولاده عبور النهر فغلب عليهم الماء فسقط سليمان بالنهر وغرق في الحال وكان ذلك في سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م ، فأخرجه الذين معه

---

(١) - ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، (الطبعة الأولى ، مطبعة عموم الأوقاف : ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م) ، ص ٣٤.

- اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، (الطبعة الأولى ، مصر ، طبع بالمطبعة الأميرية ، ببولاق : ١٣١٢هـ) ، ج ١ ، ص ٤٨٣.

(٢) أخلاط : بلدة في شرق تركيا الحالية بالقرب من بحيرة وآن في هضبة أرمينيا .

- أحمد عبدالرحيم مصطفي: في أصول التاريخ العثماني ، (الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الشروق : ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ، ص ١٧-١٨.

(٣) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ترجمة : عبدالقادر أفندي الدنا ، (بيروت ، طبع في مطبعة جريدة بيروت ، ١٣٠٨هـ) ج ١ ، ص ٣٢ ،

ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٤.

(٤) السيد أحمد بن زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية (القاهرة ، الناشر : مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م) ج ٢ ، ص ١١٠.

ودفنوه حول قلعة جعبر [1] ، وكان لسليمان أربعة أولاد وهم سنقورزنكي ، وكون طوغدي ، وأرطغرل ، وكوندوز اختلفوا بعد وفاة والدهم ، فمنهم من اختار متابعة السير الى بلاده [2] ، ومنهم من فضل البقاء مع أرطغرل بن سليمان شاه الذي اختار السير الى الأناضول مع أربعمائة أسرة من قومه يقدرون بحوالي أربعمائة وأربعين فارسا ، ونزلوا في طريقهم (بسرمه لو وباسين) وضربوا بها خيامهم [3] .

ولما لم تكن تلك المناطق أو الجهات غير صالحة وموافقة لسكناهم أرسل أرطغرل ولده صاروباتي بك [4] ، الى سلطان قونيه علاء الدين السلجوقي يطلب منه الحماية ، ويستسمحه أن يقطعه أو يمنحه هو وعشيرته بعض الأراضي الخصبة ، فأقطعه السلطان أراضي كان بها مايلزمهم من الدفء شتاء والمراعي

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٣. ،
أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢.
ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٣٤.
أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٨ .
أحمد ابراهيم خليل أحمد : تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، (الموصل ، طبع بمطابع جامعة الموصل ، مطبعة الجامعة)، ص ١١.

(٢) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٣٤.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٣ ،
أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٨.

(٤) أو ساوجي ، وقد توفي وهو عائد في الطريق الى أبيه .
- ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٤ ،
- أحمد زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١١٠.

لمواشيهم صيفا في منطقة قريبة من أنقرة [١] .

وبينما هم يسيرون في الأناضول لمحوا جيشين مشتبكين يقتتلان قتالا عنيفا دون أن يعلموا شيئا عن هويتهما ، وكان أحد الجيشين قليل العدد وغير متكافىء مع الآخر ، فما لبثوا أن تدافعوا إلى نجدة الجيش الضعيف بدافع النخوة ونصرة الضعيف الملهوف [٢] ، وتبين فيما بعد أنه جيش الأمير علاء الدين سلطان قونيه إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة آل سلجوق الروم سنة ٤٨٥هـ /١٠٩٢م فعهد اليه بفتح الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى[٣] ، على حين كان الجيش الآخر مغوليا ، وتذهب بعض الروايات الى أنه كان بيزنطيا [٤] .

كما يذكر صاحب كتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية أنه في أواخر القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي ، تصادف وجود فرقة من المغول كانت تحارب عساكر السلطان علاء الدين في أثناء مرور أرطغرل في تحركاته نحو غرب آسيا الصغرى فهجم بفرسانه على الجيش المغولي فهزمهم شر هزيمة ، وربما يعني ذلك أنه كان على معرفة تامة بعلاء الدين ،

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٣ . ، ص ٤٨٣.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٨ ،

اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٣ .

– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقي : (الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ١١٥.

– ابراهيم خليل أحمد : تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، ص ١١ ، ١٢ .

(٣) لما سقطت دولة السلجوقيين تجزأت أملاكهم في بلاد الأناضول الى عشر امارات (قرة سي – صاروخان – ايدين – تكه – الحميد – القرمان – وكرميان – وقسطموني – ومنتشا – وقونيه) ، ضمت فيما بعد الى الدولة العثمانية .

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، حاشية رقم (٢) ص ١١٥.

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٨.

ولذلك نراه ينقض لنجدته ضد المغول [١] .

ومما يؤكد ذلك ، الرواية التي أوردها يلماز أوزتونا والتي نوردها هنا باختصار حيث أشار الى هذه الحادثة بقوله " ان أرطغرل من مواليد سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م وبذلك يكون عمره بحلول سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ، ٤٠ سنةوهي سن النضج. وقد كانت منطقة أذربيجان في تلك الفترة ميدانا فسيحا لإحدى أكبر الحروب في القرون الوسطى ، حيث تقابل جيشان لأخوين سنيين على المذهب الحنفي ، عندها اجتاز السلطان جلال الدين سلطان الترك الشرقيين، والآخر سلطان خرزم - شاهي ، الذي طرده المغول من أراضي أجداده في تركستان التي هي حدود سلطنة تركيا ، ودخل الأناضول التابعة للسلطان علاء الدين ، وأخذيتقدم فيها غير مبال بنصيحة السلطان علاء الدين ، والتقى بجيش علاء الدين الأول قرب أذربيجان حيث انكسر وترك أراضي الدولة التركية وابتعد عنها " [٢]

ومن هنا تبدأ قصة كيفية اتصال أرطغرل بن سليمان شاه بخدمة علاء الدين .

ويظهر أن علاء الدين الأول كان في حاجة الى عدد كبير من المحاربين للانضمام الى الجيش الأناضولي ، ولذلك انضم اليه عددكبير منهم ، وكان من بين هؤلاء الملبين لهذه الدعوة أرطغرل بن سليمان شاه وعشيرته قايي ، حيث

---

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٤.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٨٦

شاركوه في حرب ياصي جمن Yassi Chamen وهي حرب مهمة في التاريخ التركي [١] .

وعلى الرغم من أن هؤلاء المؤرخين استقوا معلوماتهم من الحوليات العثمانية القديمة إلا أنهم لايزالون في خلاف عميق حول قيمة هذه الروايات التاريخية ففريق منهم اعتبر هذه الحوليات حقائق ثابتة دونت بمعرفة رواة معاصرين لأحداثها ، أما الفريق الآخر فقد ألقى عليها ظلالا كثيفة من التشكك فيها [٢] .

وعلى أي حال فقد اتفق المؤرخون جميعا على أن أرطغرل قد أسدى خدمات جليلة للسلطان علاء الدين ، تلبية لدعوته أو الانضمام الى جانبه مصادفة لنصرة الضعيف في حربه مع المغول أو البيزنطيين .

فقد استحق بعدها أن يكافئه علاء الدين على نجدته ومساعدته له بعمله البطولي، فاقطعه عدة أقاليم [٣] تقع بجهتي طومانيج Toumandji واسكشهر [٤] ذلك سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م [٥] . في محاذاة بلاد الروم غربي بلاد

---

(١) يلمازا اوزتونا : تاريخ الدوة العثمانية ، ص ٨٦ .

(٢) عبدالعزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، (القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة : ١٩٨٠) ، ج ١ ، ص ٣٣ .

(٣) محمد فريد بك : الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٥.
زاد عبدالعزيز الشناوي : أن البقعة تشمل المنحدرات الشرقية من جبال طومانيج وأرمني Ermeni يقضي فيها أفراد القبيلة فصل الصيف وسهول سكود Soegud يقضون فيها فترة الشتاء . الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ، ج ١ ، ص ٣٤ . حاشية رقم (١).

(٤) أسكي شهر : أي المدينة القديمة ، وهي مدينة تقع في جهة الغرب لأنقرة ،
أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٨.

(٥) اسماعيل سرهنك : حاتق الأخبار عن دول البحار ، جج ١ ، ص ٤٨٤.

السلاجقة[1] أو بمعنى آخر على الحدود البيزنطية ليتمكن من صيانة الحدود وتوسيعها نحو الغرب، فمنح السلطان السلجوقي أرطغرل غازي لقب أمير بني جوبان أي الأمير الأكبر للقطاع الشمالي من الحدود البيزنطية ، وهكذا استوطن أرطغرل بك وعشيرة قابي في القسم الشمالي - الغربي من الأناضول وذلك في حدود عام ٦٢٩هـ/١٢٣١م. على أرجح الأقوال.

وتقدر مساحة هذه الاقطاعية بحوالي ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ كم ٢ .

وهكذا تم وضع حجر أساس الدولة العثمانية في سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م[2]. وصار السلطان السلجوقي لايعتمد في حروبه مع جيرانه الا عليه وعلى رجاله ، وكان عقب كل انتصار يقطعه أراضي جديدة ويمنحه أموالا جزيلة ، ثم لقب هو وقبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائما في مقدمة الجيوش ، ولتمام النصر على يديه [3] . وفي الوقت نفسه ظهر بلقب "أوج بكي " أي محافظ الحدود ، وكان منح هذا اللقب يتمشى مع التقاليد التي درجت عليها دولة السلاجقة وهو منح أي رئيس من رؤساء العشائر يعظم أمر ، ويلحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب محافظ الحدود [4] ، وهذا مما أتاح لأرطغرل فترة سلام طويلة استطاع خلالها أن

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية (الطبعة الثالثة ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣هـ) ، ص ١٥.
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٨.

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٨٦-٨٧ .

(٣) محمد فريد بك : الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٥

(٤) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٣٤ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول ا لتاريخ العثماني ، ص ٣٦.
، ابراهيم خليل أحمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، ص ١٢.

يوطد حكم العشيرة على الأراضي التي أوكل اليه أن يحكمها [1] .

غير أن أرطغرل بن سليمان شاه كان ذا طموحات واسعة ، فهو لم يقنع بالمنطقة التي أقطعها له السلطان علاء الدين الأول ، ولم يقتنع أيضا باللقب الذي منح له ، ولا ولن يقنع بمهمة المحافظ على الحدود فقط ، بل شرع في تحقيق طموحاته وهي القيام بالفتح الإسلامي ، ومواصلة نشر الاسلام في الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى والتابعة للامبراطورية البيزنطية وذلك لأن تلك المناطق كانت تعاني الأمرين من الهجمات الصليبية المعادية للاسلام من جانب الإمارات المسيحية هناك . وبتوفيق من الله ونصره نجح أرطغرل في تحركاته فضم للمنطقة التي كان يحكمها أسكي شهر [2] مناطق جديدة هي ا لمناطق المسماة آنذاك سلطانية أوصبراجق من ولاية قونية .

وقد تعددت فيما بعد الحروب بين السلطان علاء ا لدين والمغول الذين استولوا على قلعة كوتاهية ، فقام السلطان بتفويض أمر محافظة هذه القلعة المذكورة الى أرطغرل ، فاستردها بعد حروب شديدة وقتال عنيف مع المغول ، وبعد هذه المعركة علا وسما نجم أرطغرل عند السلطان علاء الدين ، ولم يزل في خدمة السلطان وطاعته مما جعل السلطان يزداد به اعجابا حتى توفي أرطغرل سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م بمنطقة سكود[3] التي اتخذها مقرا له فدفن فيها [4] .

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٦.

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ص ٣٤. ،
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٦.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٤.

(٤) عبدالعزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٤ .

ولما بلغ السلطان علاء الدين خبر وفاته حزن حزنا شديدا ، وعين مكانه في الحال أكبر أولاده وهو عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه [١] ، مؤسس الدولة العثمانية [٢] ، والذي اليه تنسب الدولة والأمة فسميتا باسمه [٣] ، ولكي يصبح قائدا مستقلا على منطقة الحدود السلجوقية فقد اقتضت التقاليد الحدودية أن يحرز عثمان نصرا كبيرا على المسيحيين يؤهله لأن يتلقى لقب البكوية من السلطان السلجوقي ، وفي سبيل ذلك سارع عثمان وسار بقواته غربا وحقق انتصارات كبيرة على البيزنطيين فاستولى على قلعة قرة فيون [٤] وحينما رآه علاء الدين في حزمه وجهاده مقتفياً سيرة والده في الفتح والجهاد مده بالأموال والإمدادات وحفه بالرعاية السلطانية حيث أرسل إليه تعظيماً لشأنه وكفاءته الحربية شارات السلاجقة وهي الراية البيضاء والخلعة والطبل [٥] ، وكتابا تركي العبارة معلنا فيه استقلال عثمان ، ثم أقطعه كل مافتحه من الأراضي وكل ماسيفتحه من أراض جديدة وكان ذلك عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م . ولما ضرب الطبل بين يدي الأمير عثمان بك نهض قائما على قدميه تعظيما للسلطان علاء الدين .

---

(١) شاه : معناها ملك ، ولكن اذا جاءت بعد الاسم يصبح معناها السيد .
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٥ ، حاشية رقم (١) .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٤.

(٣) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٤٠.

(٤) Halil Inalcik : The Otoman Empire , p. 55.

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٤.
Halil Inalcik : op.cit., p. 55.

وقد جرت هذه العادة بأن يقوم السلطان عند سماعه الطبلة تعظيما وتذكارا حتى أمر السلطان محمود الثاني في سلطنته بابطال هذه العادة [١]، ولقبه السلطان علاء الدين بلقب بك، وسمح له بأن يضرب السكة باسمه ويذكر اسمه على المنابر بعد اسم السلطان [٢] في خطبة الجمعة. وهذا العمل من علاء الدين يعتبر بمثابة اظهار شرعية امارة عثمان على الحدود الإسلامية المسيحية[٣] .

فصار عثمان بهذه الامتيازات يملك صلاحية السلطان ولا ينقصه منه الا اللقب [٤] ، ونظرا لانتصاراته العسكرية الباهرة على البيزنطيين فيما بعد فقد منحه السلطان علاء الدين لقب " عثمان الغازي حضرتكرمرزبان عاليجاه عثمان باشا " أي " حضرة عثمان الغازي ، حارس الحدود ، العالي الجاه ، عثمان باشا " [٥] . ولاشك أن هذه الانتصارات كان لها في الواقع أعظم الأثر الذي جعل عثمان يظهر على مسرح الأضواء التاريخية[٦] .

وبينما كان شأن العثمانيين يسير في الصعود والارتقاء ، اذ أغار غازان التتار سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م بمجموعه على سلطنة قونيه ، وفي هذه الغارة قتل

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٤ . .
Halil Inalcik : op.cit. ,p.55.
(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .
(٣) Halil Inalcik :op.cit. , p. 55.
(٤) محمد فريد بك : الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٨ .
(٥) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمـــانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٣٩-٤٠.
(٦) Halil Inalcik : op. cit. p.55.

سلطانَها الأمير علاء الدين آخر ملوك السلجوقيين [١] فانقرضت السلطنة السلجوقية ولم يكن للسلطان ذرية فاجتمع وزراء الدولة وأعيانها وقرروا بالاجماع أنه لايليق للسلطنة سوى عثمان الغازي ليحفظ للاسلام عزته[٢] . فعرضوا عليه هذاالأمر فأجاب طلبهم [٣] . ويذكر أحمد جودت باشا في تاريخه أن الدولة السلجوقية انقرضت عام ٦٩٩ هـ حيث قام أمراؤها وولاتها بالاستقلال ، الا أن عثمان استطاع أن يؤلف قلوبهم عليه ، فخطب له باسمه في يكي شهر التابعة له [٤] .

فانفتح المجال أمام عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه ، فقام بالاستنثار بمعظم المقاطعات والأراضي التي كانت تحت حكم السلطان علاء الدين [٥] ، فأعلن قيام إمارته [٦] ولقب نفسه (بادشاه آل عثمان) ، معلنا بذلك ولادة امارة بني

---

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٤-٤٨٥.،
محمد فريد بك : الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٨.
عبدالعزيز الشناوي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩-٤٠.

(٣) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٤.

(٤) أحمد جودت باشا :تارخ جودت ، ج ١ ، ص ٣٧.

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١١٨.
زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك (الطبعة الثانية ، عمان ، دار الفرقان للنشر والتوزيع : ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ، ص ١٩.

(٦) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٥.
اورخان محمد علي : ا لسلطان عبدالحميد الثاني حياته واحداث عهده ، (الطبعة الأول ، الكويت . دار الوثائق ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م) ، ص ١٦ .

عثمان ، وجعل مقر حكمه يكي شـهر[1]، فقام بتحسينها وتحصينها[2] ، ثـم اتخذ الرايـة البيضاء(راية السـلاجقة) واضـعا عليها الشارات التي لاتـزال حتى اليوم تشكل العلـم التركي المؤلـف مـن الهـلال والنجمـة[3] . ولهـذا اعتـبر استقلال الدولـة أو نشـوءها مـن نهايـة انقـراض الدولـة السـلجوقية سـنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩/٩/٢٨م [4] . وهكذا يعتبر عثمان بـن أرطغـرل بـن سـلميان شاه المؤسس الأول للدولة العثمانية [5] .

وعندما أعلن السلطان عثمان استقلال دولته في سنة ٦٩٩ هـ أتاه علمـاء وأعيان وأمراء الدولة السلجوقية التي انهارت فانضموا اليه بدافع الجهاد تحت لوائه [6] ، لتصبح هذه الدولة المتنفس الوحيـد للحماس الديني للاسلام،فجاء كل راغب في الجهاد في سبيل ا لله لنشر الاسلام ، فاجتذبت هذه الإمارة أعدادا من المتحمسين لنصرة الدين الإسلامي ضد المسيحية .

---

(١) يكي شهر : تلفظ الكاف هنا نونا فهي اذن : يني شهر ومعناها البلد الحديث ويكتبها الأتراك هكـذا Yenisenir وتقع الى الشمال الشرقي من بروسه .
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٨ ، حاشية رقم (٤).

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق نفسه ، ص ١١٨ .

(٣) على حسون : تاريخ الدولةالعثمانية ، ص ١٥ .

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٥.،
أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ١٦.

(٥) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريـخ العثمانيين الأتراك ، ص ١٨-١٩.

(٦) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٦.

وهذا مايؤكد أن الدولة العثمانية كانت اسلامية المنطلق والهدف [١] ، فكان الغزو والجهاد عاملين مهمين في تأسيس وتطوير هذه الدولة العثمانية الفتية.

فالمجتمع في امارات الحدود قد صاغه اطار فكري خاص أشبعه بفكرة الجهاد المستمروالفتح الدائم في سبيل إعلاء كلمة ا لله حتى تشمل العالم بأسره [٢] . فقد كان التركمان الرحل القادمون الى الأناضول القلب النابض في المقاطعات الحدودية العثمانية. هؤلاء التركمان جاهدوا بتلهف في سبيل النصر أو الشهادة . وقد تربوا تربية اسلامية مليئة بالقيم الروحية المبنية على حب الجهاد والعمل على نشر الاسلام في البلاد المسيحية وصد الغارات الصليبية المعادية للاسلام والأمة الإسلامية [٣] .

ويتجلى هذا الاتجاه الديني في سياسة العثمانيين وتشجيعهم الجهاد لنشر الإسلام .

ولقد كان السلطان عثمان بعيد النظر ، حيث وجه فتوحاته نحو الغرب الى بيزنطه المتهالكة باعتبار أن كل فتح يناله منهم سيزيد من قوته ، وفي الوقت نفسه تحاشى التصادم مع جيرانه أمراء الأناضول المحيطين به ، وخصوصا

---

(١) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ١٩-٢١.

(٢) ابراهيم شحاته حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية . (الاسكندرية ، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية : ١٩٨١) ، ص ٧٨-٧٩.

(٣) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٨٨.

امارة القرمان القوية [1] ، نظرا لأن تلك البلاد وصل اليها الإسلام ، وقد بدأت فتوحاته الفعلية في القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي ، حين حل الانهيار النهائي بدولة السلاجقة مما أدى الى استيلاء عثمان بك على قلعتي اسكيشهر وقرجه حصار. وفي اسكيشهر بنى مسجدا وعين الموظفين لاقامة شعائر الإسلام وتطبيق الشريعة [2] ، ثم أخذ يفتح مناطق جديدة ، فزحف على أزميد ثم أزنيك ، فلما لم يتمكن من فتحها عاد الى عاصمته [3] ، وشرع في توطيد سلطته على أساس العدالة ، ثم مالبث أن سير الجيوش للفتح حتى أصبحت على مرمى البصر من بروسه ونيقيه وهما أهم المدن البيزنطية في غرب الأناضول . ومن يكي شهر التي أصبحت عاصمة لبلاده، فقد توفرت له فيها قاعدة الانطلاق نحو بروسه ثم الى القسطنطينية ، فمن موقعه الحصين في يكى شهر أرسل عثمان حملاته ضد ا لمدن البيزنطية المجاورة لاستكمال الفتح ، فاستولى على كثير من الحصون قبل أن تتحرك جيوش الدولة البيزنطية للدفاع عنها ، وبعد أن دحر الجيش البيزنطي لم يجرؤ البيزنطيون على الخروج من أسوار نيقيه (ازنيك) [4] ، وذلك لأن الأراضي التي يسيطر عليها عثمان من اسكي شهر الى السهول المجاورة لينقية وبروسه أصبحت بها إمارته والتي تعتبر من أقوى الامارات في المنطقة .

ونتيجة لذلك شعرت بيزنطه بتهديد تلك القوة النامية ، فقرر الامبراطور اليزنطي تركيز اهتمامه وقوته في الجانب البحري ليمنع وصول العثمانيين الى أراضيه الأوربية . في حين أن عثمان كان يخشى أن يتوقف الفتح العثماني بسبب

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٧.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٦-٣٧.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٨ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ٣٧

اغلاق البيزنطيين طريق البحر ، وخاصة لتفوق بيزنطه البحري ، في الوقت الذي لاتملك فيه الدولة العثمانية أسطولا بحريا ، أو بمعنى آخر انحصار عثمان في منطقة محدودة ، وربما سيؤدي هذا الانحصار الى ترك أتباعه له للبحث عن أراض جديدة ، فبدأ عثمان بالفتح في المناطق البيزنطية المجاورة ، فهاجم نيقية وهزم الجيش البيزنطي في بافيون [1] .

وقبيل أن يعزم السلطان على فتح بروسه ، أقام قلعتين بجوارها وعلى مسافة ربع ساعة، وعين على هاتين القلعتين ابنه الغازي أورخان [2] ليتمكن من حصار المدينة [3] ، فأرسل الى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخيرهم بين ثلاثة أمور : الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب . فأسلم بعضهم وانضم اليه ، وقبل البعض دفع الجزية ، أما بعضهم الآخر فقد استعان على السلطان بالتتار [4]، وطلبوا منهم النجدة ، فلبوا لهم ذلك واجتمعوا لحرب السلطان عثمان، لكن السلطان لم يعبأ بهم ، فأرسل لهم جيشا جرارا بقيادة ابنه أورخان ، وبعد صدام عنيف بين القوتين استطاع الأخير تشتيت شمل التتار ومن استنجد بهم ، ثم عاد مسرعا لمحاصرة مدينة بروسه سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م [5] .

---

(١) زبيدى عطا : بلاد الترك في العصور الوسطي ، ص ٥٤ – ٥٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٩٩.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٧ .

(٤) يبدو أن هذه الموقعة تمخض عنها اتفاق بين اوربا الصليبية والمغول ظهرت نتائجه في موقعة أنقره بين تيمورلنك والسلطان بايزيد الأول كما سيأتي.

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٩٩.

ومما ساعد أيضا في فتح بروسه بسهولة هجوم أورخان على حصن اردنوس الواقع على قمة جبل أولمب [(١)] ، فدخله عنوة ، وبعد ذلك دخل مدينة بروسه بعد فتح كافة ماحولها من الحصون والقلاع ونشر الاسلام بها ، وقد دام هذا الحصار مدة من الزمن ، حتى أرسل امبراطور القسطنطينية أوامره لعامله على هذه المدينة بالانسحاب ، فانسحب منها ودخلها أورخان دخول الفاتحين من غير حرب ولا قتال ، وأسلم حاكمها (افرينوس) وأعطى لقب بك، وصار افرينوس بك من مشاهير قادة المسلمين فأسندت اليه قيادة المعارك فيما بعد[(٢)] .

لقد توج السلطان عثمان فتوحاته بفتح مدينة بورسه سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م [(٣)] .

وعقب ذلك الفتح بلغ أورخان مرض والده فهرول مسرعا اليه ، ولم يلبث السلطان عثمان أن توفي في سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م[(٤)] ، فدفن في مدينة بروسه العاصمة الجديدة للدولة العثمانية بعد أن أوصى بنقل جثمانه الى

---

(١) أولمب : اسمه بالتركية (اناطولي طاغ) أو (كشيش طاغ) وطاغ بالتركية معناه الجبل ، وقد كتب داغ لأن الأتراك يلفظون الطاء بين (الطاء والضاد والدال) وكشيش : لفظ فارسي معناه القسيس ويسمى هذا الجبل اليوم أولوطاغ (Uludag) أي الجبل الكبير.

– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٠ ، حاشية رقم (١).

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق نفسه ، ص ١١٩-١٢٠.

– عبداللطيف عبدا لله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية (الطبعة الأولى ، مكة المكرمة، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة : ١٤٠٩هـ) ، ص ٢٨.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٧.

– عبداللطيف عبدا لله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ص ٢٨.

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٧.

هناك [1] ويعتبر السلطان عثمان من الرواد الذين أرسوا قواعد دولة اسلامية مترامية الأطراف ، وبدأ السير في طريق النصر ، حتى قيض ا لله لأبنائه وأحفاده أن ينتهجوا خطواته [2] .

وهكذا حاولنا أن نوردالقرائن في كيفية نشأة الدولة العثمانية منذ هجرتها الأولى حتى استقرارها في الأناضول ، كما تبين أن تأسيس امارة آل عثمان انما تم بعد موت ملك قونيه السلطان علاء ا لدين آخر ملوك السلاجقة شهيدا وذلك في عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩/٩/٢٨م على يد التتار .

ولاحظنا ماصاحب نشأة الدولة في صراعها مع الروم وقوتها التي تحركها روح الجهاد الإسلامي لنشر الاسلام ، وسحق من يقف أمامهم من الروم حتى تم لهم فتح أهم المدن البيزنطية في آسيا الصغرى ونشر الاسلام بها .

وبماأن عثمان كان شخصية محبوبة وجذابة فقد اتصف بالتسامح ، فعندما أرسل الى الروم يخيرهم بين الاسلام والجزية والحرب اختار قسم منهم الدخول في الاسلام طوعا ، والقسم الثاني اختار دفع الجزية دليلا على أنه دخل طاعة السلطان الاسمية . أما القسم الثالث فقد امتنع ورفع راية العصيان والرغبة في القتال فرأيناه ينهزم بسهولة . وقد حسن اسلام من دخل فيه من رجال الروم كما أسندت الى بعضهم قيادة الجيش كما مر معنا وكما سيأتي .

---

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٤٣.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٨.

ب – الجهاد والفتح ونشر الإسلام :

عقب وفاة السلطان عثمان بن أرطغرل اوصى بالملك من بعده لابنه أورخان ثاني أولاده ، لشجاعته واقدامه في الحرب ، ولم يوص به لابنه الكبير علاء الدين ، لميله الى الورع والعزلة ، ومن حسن حظ هذه الدولة عدم معارضة علاء الدين في هذه الوصية ، بل أقدم على قبولها وتنفيذها مقدما الصالح العام على الخاص ، واكتفى بوزارة المملكة (الصدارة العظمى) التي قلدها له أخوه أورخان (١) ، بالرغم من الحاح أورخان عليه بأن يقاسمه السلطة فيما بينهما، فلم يقبل علاء الدين احتراما لمشيئة ورغبة والده (٢) ، فأصبح علاء الدين مختصا بتدبير الأمور الداخلية ، واشتغل في اعداد وتأسيس الأنظمة والقوانين وبناء الجيش للدولة ، كما تفرغ أورخان للفتوحات ونشر راية الجهاد على كل البلدان المجاورة اليه (٣). فالدولة العثمانية منذ تأسيسهادولة اسلامية في المنطلق والراية والهدف (٤) .

ويتضح هذا جليا من وصية عثمان لابنه أورخان عند وفاته والتي جاء فيها : " اعلم يابني أن نشر الإسلام ، وهداية الناس اليه ، وحماية أعراض

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٢.

(٢) حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، (القاهرة ، مطبعة الواعظ ، بمصر : ١٣٣٥/١٩١٧م) ج١، ص ٩.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٢. ،
أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١، ص ٣٨ .

(٤) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٢١ .

المسلمين وأموالهم أمانة في عنقك سيسألك ا لله عـز وجـل عنـه "[1] . ثـم قـال: " يابني انني أنتقل الى جوار ربي وأنا فخور بأنك ستكون عادلا في الرعيـة مجـاهدا في سـبيل ا لله لنشـر ديـن الاسـلام " . وقـال أيضـا : " أوصيـك بعلمـاء الأمـة ، أدم رعايتهم وأكثر تبجيلهم وانزل على مشـورتهم فـإنهم لايـأمرون الا بخير .. يـابني إياك أن تفعل مالايرضي ا لله عز وجل . وإذا صعـب أمـر فاسـأل علمـاء الشـريعة فإنهم سيدلونك على الخير ، واعلـم يـابني أن طريقنـا الوحيـد في هـذه الدنيـا هـو طريق ا لله ، وأن مقصدنا الوحيد هو نشـر ديـن ا لله ، وأننـا لسـناطلاب جـاه ولا دنيا".

وفي هذه الوصية حث عثمان الأبناء والمسئولين علـى الجهـاد في سـبيل ا لله حيث قال : " وصيتي الأولى لأبنائي ، ولجميع الأعزاء على أن لايتركوا الجهاد في سبيل اعلاء كلمة ا لله ، ونشر دين الاسلام الجليـل ورفـع رايـة الإسـلام عاليـا في ربوع العالمين ، وانني أقول لكم : انني أدعـو ا لله عـز وجـل أن يحـرم مـن شـفاعة محمد صلـى ا لله عليـه وسـلم يـوم القيامـة ، كـل واحـد فيكـم يبتعـد عـن طريـق الاسلام، ويظلم الناس ، ويترك الجهاد"[3] .

بعد هذه الوصايا التي صاحبت تكوين هذه الدولى والتي تـدل علـى الحـث على الجهاد في سبيل ا لله والعدل بين الرعية ، اسـتلم السلطان أورخان عن والده دولة ليس لها قوانين ولا عملة أو حدود واضحة يحيط بها جيران أقوى منهـا[4].

---

(١) زياد أبوغنمية : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٢١ .
- كامل باشـا : تاريخ سياسـي دولت عليه عثمانية ، (مطبعة أحمـد حسـان : ١٣٢٧ هـ) ج ١ ، ص ١٠.

(٣) زياد أبوغنيمة : المصدر السابق ، ص ٢١-٢٣ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٨.

الا أن التزامه بوصية والده بمواصلة الجهاد بعد فتح بروسه جعلـه يفكـر في نقل تخت السلطنة اليها ، فـأصبحت عاصمـة الدولـة الجديـدة للعثمـانيين ، والـتي صارت من ضمن العواصم التي انتقل العثمـانيون اليهـا عـبر تـاريخهم[(١)] ، بعـد أن كانت عاصمتهم ولمدة خمس وثلاثين سـنة في مدينـة يـني شـهر [(٢)] . ومـن بروسـه انطلقت الجيوش العثمانية لفتـح منـاطق جديـدة ونشـر الإسـلام بهـا وتحويلهـا الى مناطق اسلامية [(٣)] . ذلك لأن الدولة العثمانية دولة قامت علـى الجهـاد في سـبيل ا لله ، فبدأت ثغراً ، ثـم تحولـت الى سـلطنة بـدأت تكتـلاً عشـائرياً ، ثـم تطـورت بسرعة لتتحول الى دولة إسلامية شعارها الجهاد في سـبيل ا لله ، وقـد أصبـح هـذا واضحا منذ بـدء قيامهـا دولـة متفرغـة لتـأييد سـلطة الإسـلام وعقيدتـه ، متأهبـة للدفاع عنه ، لتأكيد الشـعور العثمـاني بـأنهم أمـة نـذروا أنفسـهم لنشـر الدعـوة الإسلامية ، وأن نشر الإسلام هو الهدف الأساسي لسلاطين بني عثمان [(٤)] .

وما ان استقرت قواعد الدولة ببناء النظم الجديدة المستمدة من النظـم الاسلامية حتى التفت أورخان الى الفتوحات [(٥)] ، فزحفت جيوشه لفتـح مابقي

---

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٤٣.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٨.

(٤) عبدالكريم مشهداني : العلمانـية وآثارها على الأوضاع الاسـلامي في تركيا ، (الطبعة الأولى ، منشـورات المكتـبة الدوليـة ، الريـاض ، ومكتبـة الخـافقين ، دمشـق : ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ص ٣٤.

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٩.

من بلاد آسيا الصغرى وبلاد الروم ، ففي سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م انطلقت الجيوش العثمانية بقيادة الغازي عبدالرحمن واتجهت الى أزميد التي آل الحكم فيها الى ابنه حاكمها ، وكانت هذه المدينة تتلقى الامدادات المالية والعسكرية من القسطنطينية ، ولما حاصر الغازي عبدالرحمن قلعة ايدوس كاتبته البنت سرا [١] ، وقامت بارشاده الى الطرق السهلة لفتح القلعة المسماة ايدوس ، وتم فتح القلعة بسببها [٢] ، وقام الغازي عبدالرحمن بجمع الغنائم وارسال البنت مع الغنائم الى السلطان أورخان الذي عقد نكاحها على الغازي عبدالرحمن لكونها خدمت وأعانت الدولة .

ومازال السلطان يتقدم في فتوحاته حتى حضر بنفسه في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م وحاصر مدينة نيقوميديا (أزميد الحالية) وأرسل قرة على والغازي عبدالرحمن وقورا الب لفتح قيون حصار ، وفي أثناء الحرب أصيب قلايون حاكم قيون حصار برصاصة سقط على اثرها ميتا من سور القلعة ، فاستولت الجنود العثمانية على القلعة المذكورة ، وخلال ذلك أيضا سلمت بلاقونية حاكمة أزميد المدينة الى السلطان أورخان ، فأركبها مع جنودها ومن يريد من أهل المدينة السفن ، وأرسل الكل الى القسطنطينية وذلك بناء على رغبتها[٣] .

وبهذا العمل جذب اليه قلوب الأهالي لمعاملته لهم باللين والرفق ولم يعارض الأهالي الذين رغبوا في اقامة شعائرهم الدينية وأذن كذلك لمن أراد أن يهاجر

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٤.

(٢) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٨ .

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٩. ،
ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ١٢٤.

بأخذ كافة منقولاته وبيع عقاراته مع تمام الحرية في اجراءاته [1] . وبهذا الفتح صارت حدود الدولة قريبة من خليج القسطنطينية [2] ، ولم يبق من مدن الروم المهمة في آسيا سوى مدينة نيقية (أزنيك الحالية) فحاصرها السلطان وضيق الحصار عليها وعلى أهلها حتى تم فتحها فدخلها بعد سنتين من الحصار وذلك في سنة ٧٣١هـ/١٣٢٩م فسقط بسقوطها نفوذ الروم [3] .

وخلال هذه المعارك غنم العثمانيون غنائم كثيرة ، وكان امبراطور القسطنطينية قد اجتهد من أجل خلاصها [4] حيث سار بجيشه لاسترجاعها فالتقى بالجيش العثماني في بلكانون [5] ، وكانت النتيجة انتصار الأتراك الذين طاردوا الجيش البيزنطي حتى اسكدار [6] الواقعة في آسيا [7] على الشاطىء الآسيوي لمضيق القسطنطينية ، وقد كانت هذه المدينة من المدن المقدسة لدى المسيحيين ، ومن أهم مدن تلك الجهات ولذلك اتخذها السلطان أورخان مركزا لتجمع قواته [8] .

ونتيجة للانتصارات الكبيرة للقوات العثمانية فقد تخلت بيزنطة عن بذل الجهود الخاصة بتنظيم المقاومة العسكرية في الأناضول ، أو تزويد حاميات ماتبقى

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٤.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٤.

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩.

(٥) بلكانون : هذا المكان يدعى الآن " مالتبه " .
انظر : أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، حياته وأحداثه ، ص ١٦.

(٦) اسكدار : هي احدى المناطق الآسيوية لمدينة القسطنطينية .
انظر : أورخان محمد علي : المصدر السابق ، ص ١٦-١٧.

(٧) أورخان محمد علي: المصدر السابق نفسه ، ص ١٦-١٧.

(٨) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ج ١ . ص ٤٨٩.

لها من المدن هناك ضد الدولة العثمانية ، وهذا ماجعل دولة السلطان أورخان من أقوى الإمارات التركمانية حتى تم اعتبارها زعيمة الجهاد الإسلامي ضد المسيحيين(١) .

وفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٠م توفى الوزير علاء الدين بن أورخان ، وحل مكانه الأمير سليمان بن أورخان وزيراً للدولة ، وفاتح مدينة أزنيك المقدسة (٢) ، وتلى ذلك بأن استولى أورخان على ماتبقى من البلاد البيزنطية الواقعة شمال غربي الأناضول دون صعوبة (٣) ،ومنها بلاد مدرني وكمليك .

وخلال تلك المعارك أرسل قيصر الروم جملة من الهدايا للسلطان أورخان طالبا منه عقد الصلح بين الطرفين ، وايقاف المعارك ، وبعد المفاوضات عقدت هدنة بين الطرفين ولمدة عشرين سنة في عام ٧٣٢هـ/١٢٣٠م (٤) .

وعلى الرغم من تلك الهدنة فان السلطان أورخان كان يطمح لنشر الاسلام في مناطق أوسع ، ولذلك قام في عام ٧٣٦هـ/١٢٣٦م بفتح امارة قرة سي (٥) ، وضمها الى دولته وذلك لوقوع الخلاف بين ولدي أميرها (٦) ، عجلان بك بعد موته.

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .

(٥) قرة سي : امارة صغيرة تقع غرب الأناضول جنوب بحر مرمره والى الشرق من بحر ايجه.
- محمد فريد بك : تاريخ الدولةالعلية العثمانية ، ص ١٢٤ ، حاشية رقم (١) .

(٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
- اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٩.
- علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦ .

وهي أول مملكة اسلامية من الأناضول [١] ، تعزز بها مركزه وحركة الفتح الاسلامي على شواطئ بحر مرمره كما سهل فتحها للعثمانيين الوصول الى قلعة الدردنيل في شبه جزيرة غاليبولي فأصبح العبور الى شرق أوربا ميسورا حين تسنح أول فرصة له [٢] .

وما ينبغي ملاحظته أن سلاطين بني عثمان الأول لم يشنوا الحرب تلو الحرب من أجل الانتصارات المتوالية والتوسع المستمر ، بل كانت حروبهم من أجل الفتح ونشر الاسلام وبناء حضارة اسلامية عالية ، فما ان ينتهوا من فتح مدينة أو منطقة حتى يسارعوا الى تنظيمها ونشر الاسلام والعدل والأمن والمساواة بها، بحيث تكون الأراضي الجديدة جزءا لايتجزأ من الدولة بكل مقوماتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية وغيرها من الجوانب الحضارية .

وعلى هذا المنوال جعلوا من آسيا الصغرى قوة فريدة في نظامها ووحدتها بعد أن كانت مناطق تعيش فيها طوائف متفرقة . وبهذا العمل ضمنت استمرارها في آسيا الصغرى وشرق أوربا فترة طويلة من الزمن [٣] وكان اعتمادها بالدرجة الأولى على صهر عناصر السكان في وحدة واحدة ، وذلك من أجل تماسك الدولة وجعل السكان يعملون يدا واحدة من أجل البناء والتطور على حسب أسس اسلامية قيمة [٤] .

وتلت فتح قرة سي فترة عشرين سنة انقضت من غير حرب وفتوح [٥] .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٦ .

(٣) حسين لبيب : الأتراك العثمانيون ، ج ١ ، ص ١٤ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧ .

(٥) حسين لبيب : الأتراك العثمانيون ، ج ١ ، ص ١٤ .

وقد استفاد أورخان من فترة الهدنة ، فعمل على الاصلاح الداخلي ، وذلك بسن الأنظمة ونشر الاسلام والسلام في ربوع البلاد [1] عن طريق بناء المساجد والمدارس وتخصيص الأوقاف للصرف على المنشآت والمرافق العامة وهذا ماشهد بعظمة عصر السلطان أورخان وحبه للخير والاحسان والنظام [2] .

وفي سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م جددت الدولة المعاهدة السلمية مع قيصر الروم ، فزاد ذلك من جو الصفاء والمودة بين الدولتين [3] ، وارتبط السلطان أورخان برباط الصداقة والود مع الامبراطور اندرونيكوس ومن أتى بعده [4] ، ولم يدرك السلطان أورخان أن وراء تلك الهدنة مخططا من جانب قيصر الروم ، وأن عقده لتلك الهدنة هو من أجل تدعيم موقفه وتقوية صفوفه ، وهذا ماحدث فعلا. فماكاد قيصر الروم يعقد تلك الهدنة حتى أخذ يعمل في الخفاء من أجل تدعيم مركزه وبناء قوته . وكان يبطن العداء الشديد للدولة العثمانية وسلطانها ويتحين الفرص للايقاع بالدولة العثمانية ، لكن لم يجرء على إعلان ذلك إلا بعد عشر سنوات من عقد تلك المعاهدة ، وذلك بعد أن اتحد القيصر مع البنادقةالذين كانوا يهاجمون أطراف الدولة العثمانية من الجهة البحرية [5] ، فلقد كانت الحروب التي نشبت بين الجمهوريتين البحريتين البندقية والجنوية وشهدها البحر الأبيض

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩.
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٤ .

(٢) حسين لبيب : المصدر السابق ، ص ١٤.

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٠.

(٤) حسين لبيب : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤-٢٥ .

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٩.
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٤.

المتوسط سببا مباشرا لتجديد العداوة بين قوى أورخان وصهره كنتاكوزينوس ، والتي أدت الى استقرار العثمانيين في شرق أوربا ، لأن الجنويين كانوا يملكون الضاحية الأوربية للقسطنطينية وهي المعروفة بغلطة ، فكان البوسفور احدى الجهات التي شهدت اشتباكهم مع أعدائهم البنادقة في القتال ، وكان أورخان يكره البنادقة لأن أساطيلهم عبثت بأملاكه الواقعة على البحار ، كما احتقروا المفاوضة معه كأمير ولكنهم كانوا حلفاء لصهره المذكور ، فأرسل أورخان جنودا مساعدة الى غلطة لتعضيد الجنويين ونصرهم على البنادقة العدو المشترك.. وفي الوقت نفسه مد أورخان يد المساعدة الى يوحنا بولوجوز في الحرب الأهلية التي نشبت بينه وبين صهره الامبراطور [١] للمطالبة بأحقية عرش القسطنطينية .

ففي وسط هذه الاضطرابات ، تمكن السلطان أورخان من اصدار أمره الى ابنه سليمان بالاستعداد والعبور لبلاد الروملي ، فتقدم سليمان بالجيش في سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م حتى وصل الى مدينة جناق قلعة بالساحل الغربي لآسيا على مضيق الدردنيل ، ثم عقد هناك مجلسا مع أشهر قواده ، فاتفقوا على عمل عبارات (اكلارك) للعبور بها ، وبعد انشائها عبروا بها الى الدردنيل ليلاً الى ساحل روم ايلي . واستولى سليمان بن أورخان على قلعة جمنك (Tzyme) وذلك في سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م [٢] وتسمى أيضا حصن (Zampe)زمبه في الوقت الذي كان فيه كونتاكوزينوس مشغولا بصراعه مع صهره يوحنا بولوجوز . ولهذا السبب لم يستطع التصدي للقوات العثمانية وحماية هذا الموقع المهم [٣] . ويعتبرهذا العبور بداية للتاريخ البحري للدولة العثمانية .

---

(١) حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٢) اسماعيل سرهنك :حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ،ص ٤٩٠ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧.

ففي تلك الأثناء ظهرت بعض الاضطرابات والمنازعات بين أعضاء العائلة الامبراطورية في القسطنطينية ، بعد وفاة اندرنيكوس الثالث امبراطور دولة الروم في سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م . فكان الوارث لعرش الدولة هو يوانيس يوحنا باليولوجوس (١) وكان حديث السن عند ذلك قام ناظر قصر الامبراطور المدعو كانتاكوزينوس (٢) وآخرون يطلبون الاستئثار بالملك ، فطلب انتاكوزينوس من السلطان أورخان المساعدة وزوجه بابنته تيودورا لتقوية أواصر المساعدة ، وعلى ذلك أرسل السلطان أورخان قوة من جيوشه عدة مرات لمساعدته ونجدته حتى مكنه من السيطرة على منافسيه والفوزبعرش القسطنطينية (٣) متحديا في ذلك قوى الغرب (٤) .

---

(١) يوحنا بولوجوز : هو يوحنا الخامس امبراطور بيزنطة من سنة ١٣٤١- ١٣٩٠ م . وكان ابن تسع سنين حينما توفى والده الامبراطور اندرونيكوس الثالث ، فحصل صراع على السلطة ففاز من جراء ذلك رئيس وزراء والده يوحنا كانتاكوزين وبالرغم من زواج بولوجوز من ابنة رئيس وزراء والده كانتاكوزين المذكور ، الا أنه كان يعمل ضده لاجباره على التنازل عن وصاية العرش ، فطلب مساعدة الغرب بعد فتح غاليبولي من قبل العثمانيين ، واعترف بروما وتعهد بانهاء الخلاف بين البيزنطيين واللاتين ، مقابل وعود البابوية بحملة صليبية لدعمه ، ولكن بقي ذلك حبرا على ورق ، وحينما حاول تحصين القسطنطينية ، منعه العثمانيون وهددوه ، وتوفى سنة ١٣٩١م.

- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٩ ، حاشية رقم (٢) .

(٢) كنتاكوزينوس : هو يوحنا كانتاكوزينوس من السلالات الاستقراطية البيزنطية . كان له دور بارز في قيادة الامبراطورية ، فاز من بين المتنافسين على وصاية العرش الامبراطوري البيزنطي ، وذلك بمساعدة العثمانيين بعد وفاة الامبراطور اندرونيكوس الثالث .

- على حسون : المصدر السابق ، ص ١٩ ، حاشية رقم (١) .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٠.

ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٩.

(٤) على حسون : المصدر السابق ، ص ٩١ .

من أجل ذلك قام الروم بعقد حلـف صليبي مع المجر والصرب والبلغار والافلاق والبغدان في سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م لقتال سليمان لفتوحاته في أوربا أولا وتدخله في أحوال الدولة الرومية ثانيا ، فاستعد سليمان لهذا الحلف الصليبي المتحد وانقض عليهم بجنوده من جبال البلقان وأوقع بجمعهم الهزيمة . ثم قصد جهة بلاد البلغار لتسكين ثورتها واضطرابها (١) .

وفي خلال ذلك حصلت أيضا منافسات كبيرة بين ملوك الصرب والمجر والبلغار والافلاق والبغدان أدت الى منازعات عديدة (٢) ، ذلك لأن ملك الصرب (دوشان) جمع قبائل الصقالبة تحت سلطانه ، وسار بهم الى بلاد البلغار فاستولى عليها وزحف على مدينة القسطنطينية ، فأرسل امبراطور الروم بالقسطنطينية (٣) وفدا الى السلطان أورخان يطلب منه الاغاثة والاعانة مرة ثانية

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩٠ .
ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٩.

(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٠.

(٣) كانت مدينة رومه وما استولت عليه من الأقاليم المتسعة مشكلة بهيئة جمهورية من ابتداء وجودها الى سنة ٢٩ قبل المسيح فجعلها القائد الشهير (اكتافيوس Octavius) حكومة امبراطورية وأطلق على نفسه لقب (أوغسطس) أي السامي القدر . واستمرت هذه المملكة الى سنى ٣٩٥ حيث قسمها الامبراطور (طيودوس) بين ولديه الى مملكة رومانية شرقية وجعل مقرها بيزنطة التي سميت فيما بعد بالقسطنطينية وأقام عليها ابنه أركاديوس Arcadius ومملكة رومانية غربية جعل عاصمتها مدينة رومه وأقام عليها ابنه الثاني (انوريوس Honorius) ثم سقطت الدولة الغربية سنة ٤٧٦ م بسبب اغارة المتبربرين عليها ، واستمرت الشرقية الى أن فتحها العثمانيون عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٥ حاشية رقم (١) .

فأمده السلطان وأرسل له جيشا عظيما بقيادة ابنه سليمان باشا لصد غارة ملك الصرب [١] فسار حتى عسكر تحت أسوار القسطنطينية وسكن ذلك الاضطراب[٢] بموت ملك الصرب قبل وصوله الى القسطنطينية وبذلك تخلصت القسطنطينية من شره [٣] .

ولما نزل العثمانيون بساحل أوربا تأكدوا من ضعف مملكة الروم وما آلت أليه من الانحلال ، فأخذ السلطان أورخان سرا تجهيز واعداد الكتائب لاجتياز البحر واحتلال بعض نقاطه المهمة على شاطنه الأوربي لتكون مركزا لانطلاق أعمال العثمانيين نحو أوربا ، حتى اذا حانت الفرصة انقضوا لحصار القسطنطينية برا وبحرا ودخلوها فاتحين غانمين [٤] .

يظهر من هذا خطة أورخان في اتباع سياسة دقيقة مع بيزنطة تسندها القوة العسكرية ، ولاتميل الى البدء بالاعتداء ، والمعروفة بسياسة النفاذ الى البحار المفتوحة والوصول الى المضايق [٥] .

ففي سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٧م سنحت الفرصة فاجتاز سليمان باشا أكبر أولاد السلطان أورخان وولي عهده وصدر مملكته مضيق الدردنيل ومعه أربعون من أشجع جنوده تحت أستار الظلام حتى وصلوا الى الضفة الأخرى ، فقضوا على ماكان بها من القوارب ، وعادوا بها الى معسكرهم ، فانتقل الجيش العثماني الىضفة أوربا وكان عدده ثلاثين ألفا ، واحتل ميناء (تزنب) وساعدهم ا لله بأن

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٥ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩٠.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٢٥ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٢٦.

(٥) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٩٤ .

أصاب مدن تراقيا زالزال شديد أسقط جزءا من أسوار غاليبولي [١] فدخلها العثمانيون بدون قتال [٢] . وكان ذلك في سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م فاحتج الامبراطور البيزنطي على ذلك دون جدوى ، فكان رد السلطان أورخان أن العناية الالهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قواته [٣] . وما لبثت غاليبولي أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوربا .

وحين انفرد باليولوس (حنا الخامس) بحكم بيزنطه قام باقرار فتوح أورخان في أوربا ، وذلك مقابل تسهيل وصول المؤن الغذائية وغيرها الى القسطنطينية [٤] . وفي هذا العام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م تم فتح عدة مدن منها ابسالا[٥] و(رودستو) [٦] وغيرها من المدن وأصبحت الدولة العثمانية ذات مكانة عالية تهابها وتحسب لها ألف حساب جميع الدول الأوربية رغم عهدها الحديث .

وبينما كان الروم يطلبون من العثمانيين أن يعيدوا لهم هذه المناطق في مقابل مايريدون من المال ، كانت عساكر السلطان مهتمة بالفتوحات المتواصلة في

---

(١) كليبولي : مما يكسب هذه المدينة أهمية عظمى وقوعها على ضفة بوغاز (مضيق) الدردنيل الذي هو الممر الوحيد بين بحار اوربا وبحر مرمرة . وهي تبعد عن مدينة أدرنة بمائة وأربعين كيلو متراً تقريبا. وتقع في آخر مضيق الدردنيل في الجانب الأوربي .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٦ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفي : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٥) أبسالا : تقع في شمال مضيق الدردنيل في الجانب الأوربي .

(٦) رودستو : Rodosto ويسميها الأتراك تكرطاغ أو تكفور طاغ وتقع على بحر مرمره من الجانب الغربي .
– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، حاشية رقم (١) و (٢).

أراضي الروم التي كانت منشغلة بالمنازعات الداخلية [١] ، فكانت هذه المنازعات فرصة لتقوية مركز السلطان أورخان في أور با لأن كل فريق من المتحاربين كان يطلب ود المسلمين ليستعين بهم على الفريق الآخر [٢] .

ثم أرسل أورخان أعدادا كبيرة من التركمان الى تراقيا لتدعيم مركزالدولة العثمانية هناك [٣] . وبينما كان سليمان يقود الجيوش لتحقيق النصر على أعداء الاسلام وافاه الأجل المحتوم فعين لقيادة الجيش أخوه مراد الأول مكانه [٤] . ولما بلغ هذا الخبر والده أسف عليه أسفا شديدا ولم يلبث الا قليلا حتى توفي من كدره[٥] .

وهكذا توفي السلطان أورخان بعد أن أتم خلال حكمه إقامة أهم النظم المدنية والعسكرية ، وخفق الهلال راية الدولة على القارة الأوربية ، فمنذ أول يوم ثبت فيه العثمانيون أقدامهم على الأرض الأوربية وأعداؤهم يحاولون عبثا زحزحتهم عنها دون جدوى [٦] . فانطلقت من غاليبولي قاعدتهم في أوربا الحملات الأولى التي كان من نتاجها فتح كامل لشبه جزيرة البلقان على يد خلفائه [٧] .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٠-٤٩١ .
ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٩ .

(٢) حسين لبيب : تاريخ الأتراك اعثمانيين ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧ .

(٤) أحمد جودت باشا :تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩١ .
- ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٦) حسن لبيب : المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٧) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٧-٤٨ .

واذا كان السلطان عثمان هو مؤسس دولة آل عثمان ، فان السلطان أورخان يعتبر المؤسس الحقيقي لأركان هذه الدولة على أساس مقومات الدولة الحقيقية ، فقد حمل لقب سلطان وقام بسك أول عملة عثمانية [١] .

وعندما تربع السلطان مراد الأول على كرسي الحكم اتبع خطوات والده في الجهاد والفتوحات الاسلامية [٢] ، وبينما هو مهتم ببناء أمور دولته الداخلية اذ بأولاد القرمان [٣] المتاخمين لدولته يتحدون مع الحكام المسيحيين ضد السلطان مراد الأول [٤] . ذلك لأن سلطان هذا الاقليم علاء الدين أراد انتهاز فرصة انتقال الملك الى السلطان مراد الأول بعد وفاة والده فأثار حمية هؤلاء الأمراء المستقلين وحرضهم على قتال العثمانيين ليدك صرح مجدهم وليوقف عجلة تقدمهم [٥] ، فهجم هذا الحلف على بروسه عاصمة الدولة العثمانية ثم ازنيق ، فاستعد السلطان لقتالهم وهزمهم ، ثم استولى على قلعة أنقرة في سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م [٦] أهم مدنهم ومقر سلطنة القرمان . فلما رأى القرمان انهزامهم أمام القوات العثمانية سارعوا الى ابرام الصلح مع السلطان ليحفظ مابقي لهم من الأملاك [٧]. وفي تلك اللحظة سار البنادقة فارتدوا بأسطول بحري مؤلف من ستين

---

(١) Halil Inalcik , The Ottoman Empire , p.56 .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق أخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩١ .

(٣) أمراء شبه ملوك الطوائف بالأناضول الذين استقلوا باماراتهم عقب سقوط دولة السلاجقة في بلاد قونية .
- Halil Inalcik , Op.cit., p. 56 .

(٤) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤١ .

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩ .

(٦) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٧) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

سفينة انقسمت الى فرقتين ، تقدمت احداهما الى غاليبولي ، والثانية دخلت جون المعارض كل منهما تحمل مائة ألف جندي والتحق بهذا العدد بعض من أهالي الصرب قوة اضافية لطرد العثمانيين من أوربا ، ثم تقدمت هذه القوات وهجمت على العثمانيين الموجودين في الروملي ، فتصدى لهم الجيش العثماني بكل ثبات فأجلاهم عند الهجمة الأولى فارتدوا على أعقابهم يجرون أذيال الهزيمة والعار .

ولم يكن للعثمانيين في ذلك الحين قوة بحرية ماعدا بعض الزوارق التي يستعملونها داخل بحر مرمرة ، ولكن السلطان رأى في سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م زيادة عدد تلك الزوارق لتساعد الجيش في نقل مهامه البحرية . وعلى أثر ذلك عبر بجيشه الى روملي [١] ، وفتح جملة من البلاد والقلاع [٢] .

وفي سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م فتحت مدينة أدرنة [٣] . وعين عليها شاهين بك لاله [٤] ، سلمها قائدها الرومي لما داخله اليأس في استخلاصها .

وقد نقل السلطان مراد الأول عاصمته من بروسه الى أدرنة لأهمية موقعها الاستراتيجي لوقوعها على ملتقى ثلاثة أنهار ، فأصبحت عاصمة للدولة حتى تم فتح القسطنطية على يد السلطان محمد الفاتح الثاني سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م [٥]

---

(١) الروملي : بالمصطلح الجديد (مقدونيا ، وتراقيا) .
- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٨ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩١ .

(٣) أدرنه : اسمها بالرومية (أدريانا بوليس) نسبة للامبراطور أدريان الرومي الذي أجرى فيها عدة تحسينات أوجبت طلاق اسمه عليها وتوفي الامبراطور سنة ١٣٨ م.
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩ ، حاشية رقم (١) .

(٤) لاله شاهين : (أي مربي السلطان ، وهو مربي السلطان في صغره) .
- ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٨ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٩-١٣٠.
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٢ .

وأصبحت أدرنة مركز الروملي وعاصمة للدولة بعد بروسه وتحولت من مدينة بيزنطية الى مدينة اسلامية [١] .

وفي سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م عين السلطان مراد الأول القائد أورنوس بك على سواحل الروملي الجنوبية [٢] وأناط به مهمة فتح كوملجنة [٣] ووادار وماجاورها من البلاد [٤] .

وفي سنة ٧٦٥ هـ/١٣٦٣ م فتح القائد العثماني شاهين باشا فيلبه [٥] ، عاصمة الروملي الشرقية ، وما حولها ، وفتح القائد العثماني أورنوس بك جهات سيروز ومناستر وبهشتنه وموشنه وماحولها أيضا [٦] ، وصارت أعمال هذه الجهات الأربع وتوابعها ولاية واحدة عين عليها أورنوس بك حاكما لها [٧] .

وبذلك صارت مدينة القسطنطينية محاطة من الجهة الأوربية بأملاك آل عثمان ، وأصبحت الدولة العثمانية بهذا الفتح مجاورة لامارات الصرب

---

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٢) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤١ .

(٣) كوملجنة : وتسمى (Komotini) وتقع في الجنوب الغربي من أدرنه وعلى بعد نحو ٢٥ كم شمال بحر ايجه .. وتقع واردار Vardar الى غرب كوملجنة وعلى نهر يعرف بهذا الاسم .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٠ حاشية رقم (٢) .

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩١ .

(٥) فيلبه : اسمها بالروميه فيلبو بولس أي مدينة فيليب نسبة لمؤسسها فيليب والد الاسكندر الأكبر .. وتقع Philippolis الى الجنوب الشرقي من صوفيا وأدرنه .
– محمد فريد بك : المصدر السابق ،ص ١٣٠ ، حاشية رقم (١) .

(٦) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩١،٤٩٢ .
أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ١٧ .

(٧) ابراهيم بك حليم : المرجع السابق ، ص ٤١ .
اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٢ .

والبلغار وألبانيا المستقلة [1] .

ونتيجة لذلك اضطرب المسيحيون الصليبيون المتاخمون للدولة العلية العثمانية وطلبوا من البابا (أوربانوس) [2] الخامس أن يدعو ملوك أوربا الغربيين ليساعدوهم على حرب العثمانيين المسلمين واخراجهم من أوربا خوفا من امتداد الفتوح الاسلامية ونشر الاسلام الى ماوراء جبال البلقان ، اذ لو اجتازوها بدون معارضة أو مقاومة فلن يقوى أحد بعد ذلك على ايقاف وصد تيار فتوحاتهم ، ويخشى بعدها على ممالك أوربا من العثمانيين [3] الذين سيتقدمون للاستيلاء عليها ونشر الاسلام فيها ، وهذا ماكان يزعجهم ويقلق بالهم . وقد استجاب البابا فدعا المسيحيين الأوربيين الى حملة صليبية ضد الأتراك العثمانيين [4] وحرض القوى الصليبية على محاربتهم محاربة دينية حفظا للدين المسيحي من الفتوحات الاسلامية[5] .

وفي سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م تم اتفاق الدول ا لمسيحية على اخراج العثمانيين من الأقاليم الأوربية بناء على دعوة البابا التي استجاب اليها كل من

---

(١) محمد فريد بك : تارخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٠ .

(٢) اوربانوس : يلفظ بالفرنسية Vrbain واسمه الأصلي قبل أن يكون بابا هوكيوم ده كريموار Guillaume de Grimoare وهو فرنسي المولد ولد في سنة ١٣١٠م ومات في سنة ١٣٧٠م انتخب بابا في سنة ١٣٦٢م .

– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٠ حاشية رقم (٣) .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٠.

عبداللطيف عبدا لله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ص ٣١ .

(٤) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

ملوك المجر وبوسنه والصرب مع أمير الفلاخ (الافلاق)[١] .

ولكن (أوروك) الخامس ، الذي عين ملكا على الصرب لم ينتظر وصول المدد اليه من أوربا واكتفى بما قدمه له أمراء البوسنة والأفلاخ [٢] من مساعدات وبعدد كبير من فرسان المجر، وسار بهم لمهاجمة مدينة (أدرنة)عاصمة الدولة العثمانية ، منتهزا فرصة انشغال السلطان مراد بمحاصرة مدينة (بيجا)[٣] بيغا بالقرب من مدينة بورسه بآسيا الصغرى . ولما علم السلطان بأمرهم استعد لهم وقابلهم على شاطىء نهر (ماريتزا)[٤] فجأة في ليلة مظلمة وكان معه قوة عظيمة، فاندهش العدو وداخله الفزع ودار قتال عنيف بين القوتين انتهى باندحار القوات الصليبية الذين ولوا على أدبارهم وملأ الرعب قلوبهم (٥) .

وتمكن العثمانيون بذلك النصر من ضم جنوب جبال البلقان الى بلادهم. وتعد هذه المعركة من المعارك المهمة في تاريخ المسلمين العثمانيين ،اذ لوكتب لهذه

---

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤١ .
يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٢) البوسنة : احدى جمهوريات الاتحاد اليوكسلافي الآن وعاصمتها سراجيفوا واكثرية أهلها من المسلمين .
أما الافلاخ : فكان يسميها الأتراك (افلاق) فهي امارة من امارات الدانوب أصبحت تابعة للدولة العثمانية من سنة ١٣٩٥ م واستقلت سنة ١٨٥٦م واتحدت مع مولدافيا سنة ١٨٥٨م وكونتا معا الدولة الرومانية الحاضرة .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، حاشية رقم (٤) .

(٣) بيجا (Bija) : تقع الى الجنوب من بحر مرمره وبالقرب من مضيق الدردنيل .
– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣١ حاشية رقم (١).

(٤) نهر ماريتسا : Maritza , Marica ينبع من غرب بلغاريه وبحر اليونان ويصب في بحر ايجه .
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣١ ، حاشية رقم (٣) .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٠-١٣١ .
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢.

الحملة الصليبية النجاح في اخراج المسلمين من أوربا لواصلوا زحفهم باتجاه المشرق الى آسيا الصغرى ولتكررت مأساة الحملة الصليبية الأولى [1] ، اذ أن فكرة احتلال بيت المقدس كانت ولاتزال قائمة باستمرار في أذهان زعماء أوربا[2] ، ولأن هذه الحملة الصليبية تعد الأولى التي نفذت ضد الدولة العثمانية[3]، بعد الحملة الثامنة التي أسر فيها لويس التاسع في المنصورة وانتهت بالفشل والهزيمة للصليبيين ، وقد بذل لويس وهو ملك فرنسا فدية كبيرة للمسلمين حتى فك من الأسر[4] .

بعد ذلك عاد السلطان مراد الى مقر سلطته لتنظيم مافتحه من الأقاليم متبعا في ذلك سياسة أسلافه ليستريح من عناء الفتح ، وليعيد ترتيب جيوشه ويوطد أركان بلاده [5] .

فعظم شأن الدولة العثمانية وخافها خصومها خصوصا الضعفاء منهم ، فأرسلت جمهورية (راجوزه)[6] في عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م رسلا عقدوا مع

---

(١) احتلت أنطاكية والرها وبيت المقدس حتى تم تخليصه على يد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣م .

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢.

(٣) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ , ص ٩٨ .
أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ١٧ .

(٤) علي محمد جريشه وآخرون : أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي ، ص ١٩ .

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣١.

(٦) راكوز : Raguse هي الآن بلدة يوكوسلافية وتسمى اليوم دوبرفنيك Dubrounik وتقع على شاطئ البحر الادرياتيكي ، وكانت هذه المدينة من سنة ١٤٠٣م-١٨٠٩م عاصمة لجمهورية ارستقراطية وقد أثرت ثراءا كبيرا من تجارتها مع الدولة العثمانية ، وهي شبه جزيرة مبنية على شاطئ البحر .
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣١ ، حاشية رقم (٣) .

السلطان مراد الأول معاهدة تجارية تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية مقدارها خمسمائة دوكا من ذهب ، وهذه المعاهدة هي أولى المعاهدات التي عقدت بين العثمانيين والدول المسيحية [1] .

وفي سنة ٧٧٥ هـ/١٣٧٣م عين خير الدين باشا الصدر الأعظم لحفظ الجهات الغربية للروملي وأخذ بلاد من يتعدى أو يتحرش بالحدود العثمانية ، ففتح قواله وما حولها ثم عاد بجيشه .

وفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م ذهب السلطان والصدر الأعظم خير الدين باشا الى بروسه لإقامة بعض الاصلاحات الداخلية وتفقد أحوالها، واذ بملك الصرب لازار الذي خلف ملك الصرب اودوك بعد وفاته يتحرش بقوات الدولة العثمانية [2] ، فقد اتحد مع سيسمات أمير البلغار على حرب الدولة العثمانية[3] لمحو ما لحق بهم من العار في الحملة الصليبية الأولى وطرد الدولة من أملاكها . وعندما بلغ السلطان هذا الأمر غضب منه ، وذهب بنفسه في سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م اليه ، فهرب لازار الى الجبال ، فدعاه الى الحرب والا فانه سوف يستولى على بلاده تأديبا له ،فلم يستطع مقابلته ، فاستولى على قلعة نيش[4] ، فطلب منه لازار الأمان وعاهده بأن لايتعرض لممالك الدولة مرة أخرى، فقبل السلطان منه عهده ، وسحب جيشه عائدا الى بروسه مع العلم بأن الجيش العثماني كان غير راغب في الانسحاب، بل كان قادرا علىالاستيلاء على

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٢.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٢.

(٤) نيش : مدينة في شرقي يوغسلافيا قرب الحدود البلغارية .
علي حسون : تاريخ الدولة العثانية ، ص ٢٢ ، حاشية رقم (٤).

بلاد الصرب بسهولة [١] . وقيل احتل صوفيا [٢] وسلانيك[٣] لهذه الأمور أبرم الصلح بين الطرفين على أن يتزوج السلطان بنت أمير البلغار ، وعلى أن يدفع ملكا الصرب والبلغار الجزية سنويا [٤] ، فدفعاها صاغرين خوفا من تصفية أملاكهما .

وفي سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م سلم حاكم سلستره المدينة الى السلطان مراد ، ومن ذلك التاريخ حتى سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م كان السلطان مهتما بسن التنظيمات والإصلاحات الداخلية في المناطق المفتوحة ليكمل بذلك بناء دولته[٥] فبدأ يفكر في توثيق العلاقات مع جيرانه حتى يكون له حلفاء من بين من بقي مستقلا بأمارته من أمراء آسيا الصغرى ، فقام بزواج ولده "بايزيد" من بنت أمير كرمان [٦] ، وجهزها للسلطان بمدينة كوتاهية [٧] ، مهرا لابنته كما هي عادة الافرنج [٨]، وذلك لتقوية عرى الصداقة بهذه الروابط الأسرية وكسب

---

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٢-٤٣.

(٢) صوفيا : عاصمة بلغاريا اليوم .

(٣) سلانيك : مدينة في اليونان تقع اليوم على الخليج المسمى باسمها ، كانت بؤرة الحركات المعادية للدولة العثمانية .

- علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢ حاشيى رقم (١-٢).

(٤) محمدفريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ .

وابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٥) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٦) كرمان : تقع هذه البلاد في غرب الأناضول مابين اسكي شهر شمالا وأفيون قره حصارى جنوبا .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٢ حاشية رقم (١) .

(٧) كوتاهية : تقع الى الشرق من اليقيصر وغرب اسكي شهر .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٣ حاشية رقم (٢) .

(٨) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٨-٤٩ .

هذه المناطق بجانبها ، وتبادل المحبة والمودة بين الدولة العثمانية وهذه المناطق الاسلامية المستقلة .

الا أن أولاد كرمان كانوا لايزالون يتحرشون بالحدود العثمانية من جهة قونية ، فأرسل السلطان الى حسين بن حميد سفيرا من عنده للمفاوضة معه في بيع[1] امارة حميد [2] ، من حاكمها المذكور ، وبذلك أدمج في أملاكه أربعا من دول التركمان ، سلطانوني ، قرة سي ، كرميان ، حميد .

وما لبث ابنه بايزيد أن اكتسح ماتبقى من الامارات التركمانية فضم الى دولته أراضي سلاجقة قونية المسلمة [3] .

أما الصليبيون فمنذ فشل حملتهم الأولى وهم ينظرون الى الدولة ويخططون للخلاص منها ، ففي عام ٧٨٩هـ/١٣٨٧ م قرر ألسلاف تكوين حملة لطرد العثمانيين من أوربا ، فتزعمت الصرب والبوسنة وبلغاريا هذه الحملة الصليبية لتنفيذ هذه المؤامرة ، وانضمت اليها ألبانيا وولاشيا والمجر وبولندة ، على حين انشغلت أوربا الغربية بشئونها الخاصة ، ولم تشترك في هذه الحملة الصليبية الثانية، فحينئذ قام الحلفاء بحشد قواتهم التي هاجموا بها قوات الدولة العثمانية في البوسنة فأبادوا ثلاثة أرباعها [4] ، الا أن السلطان مراد الأول أرسل قوات أرغمت ملك بلغاريا سيسمان، الذي كان يتأهب للانضمام الى لازار ملك

---

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٣ .

(٢) الحميد : اقليم يقع جنوب الأناضول غرب كرمان وشرق منتشا وشمال تكن .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٣. حاشية رقم (٣).

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٩ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٩–٥٠.

الصرب ، فاحتلت الجيوش العثمانية ترنوه [1] وشومله [2] ، واضطر سيسمان الى الفرار والاحتماء في مدينة نيكوبلى [3] ، وأعاد شمل وشتات مابقي من عسكره لحرب الدولة العثمانية ، وخرج من نيكوبلي (نيكوبوليس)وهاجم الجيوش العثمانية الاسلامية هجوم اليائس ، فانهزم هزيمة نكراء ووقع أسيرا بعد حصاره في نيكوبلي، فضم السلطان مراد نصف بلاده الى الدولة ، وعفى عنه ولم يقتله بل عينه حاكما مستقلا على النصف الباقي من بلاده ، مراعيا مقامه السابق وتم ذلك في سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م[4] . وبذلك أصبح نهر الدانوب حد الدولة العثمانية الشمالي [5] .

لقد كان للانتشار السريع للمسلمين في أوربا الممثل في ا لدولة العثمانية أثره البالغ في بث الفزع والرعب في قلوب الحكام الصليبيين الذين قرروا أن يجمعوا قواتهم ويسيروا بها في حملة صليبية ثالثة ، وكان منعقدا على هذه الحملة آمال المسيحيين في طرد ا لمسلمين من أوربا [6] .

فتزعم هذا الحلف ملك الصرب لازار أيضا الذي لم يعتبر بانسحاب حليفه ملك بلغاريا وما جرى له ، بل نراه يجمع قواته ويتحدى السلطان مراد الأول ،

---

(١) ترنوه : هي تورنوفو Turnovo وتقع في الجانب الشرقي من بلغاريا .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ص ١٣٤ حاشية (٤).

(٢) شومله : Shumen وتقع شمال تورنوفو .
- محمد فريد بك: المصدرالسابق ، ص ١٣٤ ، حاشية رقم (٥) .

(٣) نيكوبلي : اسمها بالرومية نيكوبوليس ، ومعناها مدينة النصر . أسسها الامبراطور الروماني تراجانوس المتوفي سنة ١١٧ بعد المسيح عقب انتصاره على أعدائه .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٥. حاشية رقم (١).

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٤-١٣٥.

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٤٩ .

(٦) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ١٨ .

ويسعى لهذا الأمر في سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م لدى حكام وملوك المجر وبولونيه والبوسنه وألبانيا وغيرها من سائر الحكومات المسيحية المجاورة لتكوين الحملة الصليبية الثالثة ضد العثمانيين المسلمين وطردهم من أوربا فجمعوا جيشا من تلك الأقوام بلغ نحو المائتي ألف [١] ، فلم يمكنه السلطان مراد من ذلك بل جد السير في طلبه حتى لحق به في سهل (قوصوه) [٢] سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م ، فأحرز نصرا باهرا على هذاالحلف الصليبي بعد قتال شديد شاب من هوله الولدان ، ودافع خلاله الصربيون وأحزابهم دفاعا جعل الحرب بين الفريقين سجالا تناثرت فيها الرؤوس وزهقت فيها النفوس [٣] وقد استبسل العثمانيون حتى وقعت الهزيمة فيه على الأعداء وأسر من جيش العدو كثيرون ، وقتل ملك الصرب زعيم العصابة [٤] ، بعد أن جرح وأسر . وبهذه الواقعة فقدت الصرب استقلالها كما فقدت البلغار والروملي والأناضول (آسيا الصغرى) استقلالها من قبل [٥] .

ولكن أعقب هذا النصر أسف شديد ، وذلك أنه حينما كان السلطان مراد الأول يمر بين القتلى والجرحى ليتعرف على رجاله منهم اذ قام جندي

---

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٥.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٢.

(٢) قوص : معناها كبير أو واسع . أوه : معناها السهل ويسمى هذاالسهل باليوكسلافي (Kosov Polje) ومركزه بلدة ترتستينا . وتقع في جنوب يوكوسلافيا بين بلغاريا وألبانيا واليونان .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٥ حاشيى رقم (٢).

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(٤) ابراهيم بك حليم : المرجع السابق ، ص ٤٥ .
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ج ١ ، ص ٤٩٢.

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٢ .
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٥ .
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٩.

صربي جريح من بين القتلى اسمه (مليوك كوبلوفتش) وأظهر حركة يرى منها أن مراده تقبيل قدمي السلطان بعد أن أعلن اسلامه واذا به قد أسرع باخراج خنجر كان معه، وطعن به السلطان مراد الأول طعنة كانت القاضية على السلطان في الحال[1] فسقط القاتل قتيلا تحت السيوف الانكشارية ، وكانت وفاته سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م ودفن في بروسه [2] .

والحقيقة أن عثمان أوجد جنسا ، وأورخان بنى دولة ، الا أن مراد الأول هو الذي أرسى قواعد الدولة العثمانية [3] .

وبوفاة السلطان مراد الأول بويع ابنه السلطان بايزيد الأول في ميدان حرب قوصوه ، يوم وفاة والده ٧٩٢هـ/١٣٨٩م فخطى خطى والده وسيرته في الفتح والجهاد [4] كماهو ديدن سلاطين الدولة منذ تكوينها .

وقد استهل بايزيد حكمه بالقضاء على الارستقراطية الصربية ، وحل القضية القومية الصربية ، ثم تقدم بالجيوش العثمانية ، داخل بلاد الصرب ، فعرض عليه ستيفن بن لازار ملك الصرب الصلح ، فقبل ذلك ووافقه عليه [5].

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٣.
ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٥ .
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٥.
عبداللطيف عبدالله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ص ٣٦ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٥-١٣٦.
علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٩ . ،
عبداللطيف عبدالله بن دهيش ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٠.

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥٠-٥١.

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

وعين حاكما على الصرب وتزوج السلطان من أخته [١] ، المسماة مليحة [٢] ، وترك له استقلال حكم بلاده على أنظمتهم وقوانينهم بشرط دفع الجزية للدولة ، وتقديم عدد معين من الجنود ينضمون الى الجيوش العثمانية وقت الحاجة [٣] ، وأن يقوم بنفسه بقيادة هؤلاء الجنود [٤] ، وقد اتبع السلطان بايزيد هذه السياسة وهي الاكتفاء بدخول منطقة الصرب تحت طاعته [٥] وذلك ليهدىء بال الصربيين، لأن الصربيين قوم يحبون الاستقلال [٦] ، وخاصة أنهم قبلوا دفع الجزية فتتم معاملتهم معاملة أهل الذمة .

ومن منطقة الصرب سار بايزيد الأول الى ولاشيا فدخلها سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م وقد وافق أميرها على دفع الجزية والولاء للسلطان العثماني [٧].

ولما ساد الأمن في اوربا في منتصف سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م انتهز بايزيد الأول هذه الفرصة وسار بنفسه الى قلعة الأشهر بآسيا الصغرى المسماة عندالافرنج (فيلادلفيا) [٨] ففتحها فكانت آخر مدينة مهمة بقيت للقسطنطينية

---

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٧ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٧.
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠.
اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٥.

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥١.

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٥.

(٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٧) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٨) فيلادلفيا : تقع غرب الأناضول الى الشرق من مدينة أزمير .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٧ .حاشية رقم (١)

بآسيا الصغرى [1] .

عند ذلك هابه أمير (آيديـن)[2] ، فـترك لـه أملاكـه وغادرهـا ليعيـش في احدى المدن الخارجة عن النفـوذ العثمـاني ، ثـم تـلا ذلـك قيـام كـل مـن أميري منتشا[3] وصاروخان [4] بترك ولايتهما واحتمائهما بأمـير (قسـطموني)[5] كمـا قام حالكم بلاد القرمان الأمير علاء الدين بالتنازل للسلطان عن جـزء عظيـم مـن أملاكه ليؤمن له ماتبقى من أملاكه [6] .

وبعد هذه ا لفتوحات العثمانية بآسيا الصغرى عاود السلطان بايزيد الأول حرب أوربا فبدأ بحصار القسطنطينية ، وبعد أن ضيق عليهـا الخنـاق وتـرك حولهـا جيشا ليتولى مهمة حصارها ، انتقل لغزو أمير الفلاخ (الفلاق) دوك مانيـس ،

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩٥ .
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧ - حاشية رقم (٢).
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠ .

(٢) ايدين : تقع في جنوب غرب تركيا جنوب فيلادلفيا .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧ . حاشية رقم (٢).

(٣) منتشا : جنوب ايدين على بحر ايجة .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، حاشية رقم (١).

(٤) صاروخان : شمال أزمير على بحر ايجه .
- محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٣٨ ، حاشية رقم (٢).

(٥) قسطموني : في شمال الأناضول على بعد نحو مائة كم عن البحر الأسود .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، حاشية رقم (٣).

(٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧-١٣٨ .

فقهر أميرها وأخذ منه الجزية [1] ، شريطة الاعتراف بالسيادة العثمانية مع بقاء بلاده يحكمها بما ألفوه من قوانين وكان ذلك في سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م [2] .

واستغل علاء الدين أمير القرمان انشغال السلطان بحرب أمير الفلاخ وقام باسترداد ماتنازل عنه للدولة سابقا ، فهاجم مدينة أنقرة ، واستطاع أن يهزم أميرها تيمور طاش وأن يأسره [3] .

فلما علم السلطان بالخبر قاد بنفسه الجيش الى بلاد الأناضول مسرعا في طلب علاء الدين فتقابل الجيشان في مكان يسمى (آق جاي) فانهزم علاء الدين أمام السلطان بايزيد وأسره مع ابنه محمد علي ، وضم بلاده الى دولته ، وكل ماتبقى له من أملاك [4] ، فتعجب الناس من سرعة وصوله لبعد المسافة فلقبوه (يلدرم) أي الصاعقة [5] ، بسبب سرعة حركته .

ثم واصل السلطان بايزيد فتوحاته ففتح امارات سيواس ، وتوقات[6]،وكان آخر أمرائها برهان الدين [7] . ولم يبق في الأناضول من بقايا أطلال دولة السلاجقة إلا إمارة قسطموني [8] ، وكانت خارجة عن أملاك

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠ .
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٩ .
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
– علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٠.
(٤) محمد فريدبك : المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
(٥) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٧ .
(٦) سيواس وتوقات : مدينتان تقعان في شمال شرق تركيا .
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٩ حاشية رقم (٤).
(٧) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
(٨) على حسون : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

الدولة العثمانية وحاكمها اسمه بايزيد أيضا ، وقد احتمى ببلاده كثيرمن أولاد الأمراء الذين ضم السلطان بلادهم ، فأرسل السلطان اليه يطلب منه تسليم أولاد أميرآيدين وصاروخان ، فامتنع عن ذلك ، فسار اليه السلطان بنفسه وتم ضم مدن سامسون [١] وقيصريه [٢] وجنابك وعثمانجق [٣] فلجأ بايزيد صاحب قسطموني الى تيمورلنك سلطان المغول [٤] ، وبذلك انقرضت جميع الامارات السلجوقية القائمة بالأناضول وصار العلم العثماني يخفق فوق صروحها [٥] .

وقد أخطأ بايزيد الأول حين أدخل سياسة جديدة لفرض سيطرته المباشرة على هذه المناطق التي قام بضمها في آسيا الصغرى ، وذلك عندما طرد أسرهـا

---

(١) مدينة صغيرة شمال تركيا على ساحل البحر الأسود.
– علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٠ حاشية (٥).

(٢) مدينة في الأناضول وهي عقدة مواصلات برية .
– علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٠ حاشية رقم (٦).

(٣) تقع الى الجنوب الغربي من سامسون .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٠ حاشية رقم (١).

(٤) أي تيمور الأعرج : ولد سنة ١٣٣٦ ميلادية تقريبا ببلدة بالقرب من سمرقند ويتصل نسبه بجنكيزخان التتري من جهة النساء وخلف عمه سيف الدين في امارة كيش سنة ١٣٦٠ واخذ في الاستيلاء على ماحوله من الامارات والقبائل ثم استولى على بلاد خوارزم وكشغر وبلاد ايران ومنها سار الى جنوب الروسية واحتل اقليم آزاق ثم قصد بلاد الهند فانتصر على صاحب (دهلي) وضم معظم بلاد الهند ومنها عاد الى الغرب ، فاحتل بلاد الشام ومدينة بغداد التي خربها عن آخرها وقبل أن ينظم هذه التحركات العديدة قصد بلاد الصين في جيش يجل عن الحصر بعد أن حارب السلطان بايزيد العثماني، وأخذه أسيرا فعاجلته المنون قبل أن يصل الصين في اقليم خوقند في ١٧ شعبان ٨٠٧ هـ (١٨ فبراير سنة ١٤٠٥م) وبموته تفرقت مملكته بين ولده شامرخ وأحفاده وأولاد أحفاده.
– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٠ ، حاشية رقم (٢) .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٩–١٤٠.

الحاكمة وأخضعها لسلطته المباشرة (ذلك لأن هذه السياسة لقيت مقاومة شديدة في الدولة العثمانية خاصة ، وفي البلدان التي تم الاستيلاء عليها عامة ، وكانت هذه المقاومة موجهة ضد التسرع في ضم البلاد التي تم الاستيلاء عليها حيث اعتبرت هذه السياسة خروجا على القاعدة العثمانية .

وقد كانت هذه السياسة من أهم العوامل التي أدت الى نكبة أنقرة وعودة الأسرة الحاكمة في القرمان على أثرها ، مما يدل على أن آل عثمان لم يحكموا قبضتهم على الدولة القرمانية الا بعد فتح القسطنطينية [١] .

وعاد بايزيد بعد ذلك لمتابعة حروبه في أوربا ، واستكمال فرض الحصار الذي كان قد فرضه على القسطنطينية ، ومع استمرار الحصار قام باستكمال فتح بلاد البلغار وضمها الى أملاك الدولة ، فأصبحت تلك المناطق ولاية عثمانية خاصة بعد مقتل حاكمها سيسمان ، وإسلام ابنه الذي عين حاكما لمدينة سمسون[٢] في سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م[٣] .

ولتدعيم مركزه في تلك المناطق قام بايزيد بتزويد سلستريا ونيكوبوليس ودين وقلاع أخرى من قلاع الدانوب بحاميات قوية ، بعد تحصينها . وعلى أثر اعتناق عدد كبير من البلقانيين للاسلام تعززت مكانة السكان المسلمين على طول الحدود الشمالية للدولة ، وزاد نتيجة لذلك هجرة عدد من مسلمي الأناضول الى البلقان [٤] ، مما ساعد على انتشار الاسلام في مناطق البلقان كلها،

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٩-١٤٠.

(٢) سمسون : مدينة تركية في شمال شرق البلاد على البحر الاسود.
– محمد فريدبك : المصدر السابق ، ص ٤٠ حاشية رقم (٣).

(٣) محمد فرد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٠.

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٣ .

وهذا يدل على قوة الدولة في نشر الاسلام في أوربـا . وهـذا ماحققه العثمـانيون على طول جهادهم المستمر داخل القارة الأوربية .

وقد أعقب ذلـك قيـام بـايزيد الأول بتشـديد الحصـار علـى القسـطنطينية وطلب من امبراطورها أن يعين قاضيا في القسطنطينية للفصل في شئون المسلمين ، فقبل الامبراطور ذلك الشرط بايجـاد محكمـة اسـلامية ، وبنـاء مسـجد وتخصيـص سبعمائة منزل داخل المدينة للجالية الاسلامية ، كمـا تنـازل لبـايزيد عـن نصـف غلطة التي وضعت فيها حامية عثمانية قوامها ستمائة جنـدي ، ثـم زيـدت الجزيـة التي كانت الامبراطورية البيزنطية تدفعها للسلطان ، وزيد على ذلك فرض رسـوم علـى الكـروم ومـزارع الخضـروات الواقعـة خـارج المدينـة تدفـع لخزينـة الدولـة العثمانية وأخذت مـن تلـك السـاعة المـآذن تنقـل الآذان مـن العاصمـة البيزنطيـة (القسطنطينية)[١] .

وكان من نتائج هذه الانتصارات العثمانية أن قامت دول أوربية بتحريـض من البابا بونيفاسيوس التاسع واتفقت على شن حرب صليبية رابعة اشتركت فيهـا حوالي خمسة عشر دولة أوربية كان من بينها دول انكلترا وفرنسا والمجر(٢).

وكان المحرك الأول لتلك الحرب الصليبية الجديدة وزعيمها هو ملك المجر سجمند الذي سمع ماحل ببلاد البلغار ، فداخله الخوف على فقـد مملكتـه اذ صـار متاخما في عدة نقاط للدولة العثمانية ، فدعا حكام أوربا مـن المسيحيين مستنجدا بهم وساعده في ذلك البابا ، الذي أعلن الحرب الدينية بين أقوام أوروباالغربية [٣]

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٣.

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، حياته وأحداث عهده ، ص ١٨ .
كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : نبيه فارس ومنير البعلبكي (الطبعة السادسة، بيروت ، دار العلم للملايين : ١٩٧٤م) ، ص ٤١٩.

(٣) محمد فريد بك : تارخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٠-١٤١.

فشكلت في مجموعها جيشا صليبيا اشتركت فيه كل دول أوربا الغربية، وكذلك دول المواجهة التي تواجه مناطق السيطرة ا لعثمانية [١] .

وتفصيل ذلك أن دوك (بورغونيا)[٢] أجاب دعوة البابا ،وأرسل ابنه الكونت دي نيفر [٣] ، ومعه ستة آلاف محارب أغلبهم من نبلاء فرنسا وكان من بين هؤلاء المحاربين أقارب ملك فرنسا نفسه كما انضم اليهم حين مسيرتهم الى بلاد المجر بافاريا [٤] وولاشيا وبلغاريا مجموعة من الخارجين عن طاعة الدولة العثمانية من الذين خلعوا ولاءهم للعثمانيين [٥] . كما وفد عليهم أشخاص من النمسا (استيريا) وشواليه [٦] فرسان القديس حنا الأورشليمي وكثير من

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٣ .

(٢) بورغونيا : كانت ولاية عظيمة في شرق فرنسا شبه مستقله لم يكن للملوك فرنسا عليها الا السيادة وحق طلب الجنود للحرب عند الضرورة حتى توفى أهم امرائها شارل الجسور في سنة ١٤٧٧م من غير عقب وضمت الى فرنسا من ذلك التاريخ ، واسمها بوركوني Bourgogne .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤١ حاشية رقم (١).

(٣) نيفر Denevers مركز ولاية نيفر وتقع جانب نهر لوار وتبعد ٢٣٢ كم الى الجنوب الشرقي من باريس .
– محمد فريد بك : المصدر السابق ص ١٤١ حاشية رقم (٢) .

(٤) مملكة مستقلة بألمانيا يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة وعاصمتها مدينة مونيخ أو (مونكن) كما يسميها الألمان وهي داخلة الآن ضمن الدولة الألمانية التي تشكلت سنة ١٨٧١م ، عقب تغلب الروسيا علىفرنسا مع بقاء استقلالها وحكومتها وملوكها ، وهي الآن جزء من جمهورية ألمانيا الاتحادية .
– محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤١ ، حاشية رقم (٣) .

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٦) شواليه : هم طائفة الرهبان الذين ذهبوا الى فلسطين في القرن الحادي عشر الميلادي أثناء الحروب الصليبية التي أثارها المسيحيون علىا لمسلمين لامتلاك القدس الشريف لخدمة حجاج النصارى . ولما استولى السلطان صلاح الدين الأيوبي على مدينة أورشليم سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧ م انتقلت (=)

الألمان [1] . وتوافد أيضا الصليبيون الى بودا من الانجليز واسكتلنده وبولنده وبوهيميا والنمسا وايطاليا وسويسرا ، وكذلك من بلدان جنوبي شرقي أوربا ، وعبر الحلفاء أراضي الصرب التي حافظ أميرها اسطفن (استيفين) بن لازار على ولائه للعثمانيين،مما دعا هذاالحلف الصليبي الى تخريب أراضيه [2] ، وأخيرا وصلت قوات الحلفاء الى نيكوبوليس ، عن طريق نهر الدانوب لمحاصرتها [3] ، الا أن الصاعقة او البرق السلطان بايزيد كما يسميه معاصريه ، لقوة بأسه ، عاد مسرعا من آسيا الصغرى [4] وكان محاصرا للقسطنطينية فتخلى عن حصارها وعاد لمواجهة هذاالتحالف الصليبي [5] ، وبصحبته مائتا ألف مقاتل ، كان من ضمنهم أهل الصرب تحت قيادة أميرها اسطفن بن لازار المذكور وغيرهم من الأمم المسيحية الخاضعة لولاء السلطان العثماني ، جاءوا جميعا لقتال هؤلاء الصليبيين ، فدارت معركة بين القوتين انتهت بانتصار العثمانيين انتصارا باهرا ألحق بالحلف الصليبي هزيمة نكراء وذلك في ٢٣ من ذي القعدة سنة ٧٩٨ هـ

(=) هذه الطائفة الى عكا ، ثم الى جزيرة رودوس واتخذتها مركزا لمحاربة المسلمين وتعطيل تجارتهم ونهب مراكبهم وأسر من بها. ولما فتح السلطان سليمان القانوني هذه الجزيرة سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٢م رحلت هذه الطغمة الى جزيرة مالطة التي أعطاها لهم الامبراطور شارلكان فاحتلوها الى أن احتلها بونابرت سنة ١٧٩٨ أثناء قدومه الى مصر فانقرضت هذه الطائفة تقريبا ولم يبق الا اسمها .

– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤١ حاشية رقم (٥).

(١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤١–١٤٢.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٤ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٤.

– أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥٤.

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥٤.

(٥) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٥.

الموافق ٢٧ من سبتمبر سنة ١٣٩٦م [1] .

وكان هدف هذه الحملة الصليبية الرابعة هو هزيمة الدولة العثمانية في أوربا ومحاولة الوصول الى البقاع المسيحية المقدسة في بيت المقدس بفلسطين [٢] .

ومعنى ذلك أن الروح او الفكرة الصليبية التي نسيها الناس في الظاهر منذ أمد طويل تعود الى الظهور مرة أخرى [٣] .

وبمعنى آخر ان الحملات الصليبية على المسلمين لازالت الشغل الشاغل في ذلك الوقت للصليبيين بهدف الوصول الى بيت المقدس وهذا ماتحقق لهم الابعد الحرب العالمية الأولى ، مرورا بالمسألةالشرقية في القرن الثالث عشر الهجري الموافق للتاسع عشر الميلادي .

وفي هذه المعركة الحاسمة أحرز بايزيد الأول قمة مجده ، فأرسل من ميدان المعركة الى قاضي بروسه بأنباء النصر ، وأعلن أنه سيفتح ايطاليا وأن حصانه سيتناول طعامه على مذبح كنيسة القديس بطرس .

كما بعث من أدرنه برسائل الى كبار حكام الشرق الاسلامي يزف اليهم بشرى انتصاره في نيكوبوليس ، واتخذ لنفسه لقب (سلطان الروم) كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على شبه جزيرة الأناضول كلها [٤] .

وأرسل السلطان بايزيد الى الخليفة العباسي المتوكل المقيم في القاهرة طالبا منه أن يخلع عليه أويمنحه لقب " سلطان الروم " كي يضيف على سلطنته التي يتمتع بها هو وأجداده من قبل الطابع الشرعي الرسمي فتزداد هيبته لدىالعالمين الاسلامي والمسيحي .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٤..

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠.

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٤٩.

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٤ .

ولم يكن في استطاعة السلطان برقوق ، حامي الخليفة ، الا أن وافق على طلب السلطان ، اذ كان يرى فيه حليفه الأوحد ضد الخطر المغولي الذي كان يهدد العالم الاسلامي بأكمله [١] فخلع عليه الخليفة لقب (سلطان أقاليم الروم)[٢].

عاد السلطان بايزيد الأول بعد ذلك لمواصلة حصاره للقسطنطينية فشد عليها الحصار ، ولولا غارة المغول على بلاد آسيا الصغرى لتمكن السلطان هذه المرة من فتحها [٣] ، لنقض صاحبها العهد حين تعاهد أو تحالف مع ملك الصرب والمجر وفرنسا لحرب الدولة قبيل الحلف الصليبي الرابع [٤] .

ولكن استفحال أمر تيمورلنك الأعرج سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م جعل السلطان يترك حصار القسطنطينية ويكتفي بالصلح مع ملكها مانويل [٥] ، بعد حصار دام ست سنوات أشرفت فيها على السقوط [٦] .

وكان تيمور لنك قد سار الى بلاد الاسلام بآسيا الوسطى لسلبها من أيدى ملوكها حتى وصل إلى بغداد والعراق ، فهرب حاكمها السلطان أحمد جلاير خشية من بطشه ، وكذلك هرب حاكم اذربيجان قرة يوسف والتجأ بعائلتيهما الى السلطان بايزيد ، فأرسل تيمور لنك سفيرا الى السلطان بايزيد الأول ليطلب

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤٢٠.

(٢) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٤.

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٥.

(٥) ابراهيم بك حليم : المرجع السابق ، ص ٤٩ .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٤.

(٦) احمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٥ .

تسليمهما ، ولكن السلطان رفض هذا الطلب واستهجنه ، وعاد ا لسفير الى تيمورلنك [١] .

وكما لجأ أمراء العراق وأذربيجان الى السلطان بايزيد فقد لجأ من قبل الى تيمورلنك بعض أمراء آسيا الصغرى وكان آخرهم بايزيد أمير قسطموني كما سبق أن ذكره ، وفي كلا الجانبين كان اللاجئون يحرضون ويحركون كل طرف لشن الحرب ضد الآخر ، وربما لم تجد هذه التحريضات آذانا صاغية من تيمورلنك ، الا أنه خشي من تحركات الدولة العثمانية ضده وضربه من الخلف ، في الوقت الذي كان يفكر فيه بغزو الهند لتوسيع رقعة ملكه ، وقد أدرك بايزيد هو الآخر حتمية الصراع مع تيمورلنك ، ولهذا السبب سعى الى تقوية مركزه الحربي في آسيا الصغرى عن طريق القضاء على الامارات التي قامت على أنقاض دولة السلاجقة (٢) كما مر بنا .

وقد أشيع أن الصليبيين عمدوا هذه المرة إلى تحريض المغول على هجوم العالم الإسلامي من جهة الشرق وذلك عن طريق بناتهم اللواتي كن في قصور أمراء وحكام المغول عن طريق السياسة والمفاوضة [٣] . وبمعنى آخر أن الصليبيين زوجوا بناتهم وأهدوا بعض الجواري الحسان للعمل في قصور وأمراء وحكام المغول لاستمالة قلوبهم وتحريكهم لغزو الدولة العثمانية واشغالها من الخلف حتى تتوقف حركة جهادهم عن الفتح في أوربا وهم يواصلون الهجوم على الدولة من الغرب حتى يستطيعوا ابعاد العثمانيين عن أوربا كلها ، وبالتالي

---

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩.
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٦.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٥٧.
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٣.

(٣) على حسون : المرجع السابق ، ص ٢١ .

يزحفون الى آسيا للاستيلاء على القدس الشريف في فلسطين ، وقد نميل الى هذا الرأي لأنه من أهم أسباب غارة المغول على الدولة الاسلامية ، اضافة الى ماسبق من أطماع المغول منذ موجاتهم الأولى ، وقد تكون هذه الحملة استمرارا للغارات والهجرات المغوليةالتي قامت في وسط آسيا السابقة .

ومهما تكن المبررات ، فقد أعد تيمورلنك العدة فأغار بجيوشه على بلاد آسيا الصغرى ، وفتح مدينة سيواس بأرمينا وأسر حاكمها أورخان ابن السلطان بايزيد ، وقطع رأسه . حينئذ اضطرب السلطان بايزيد فجمع الجيش وسار به لمحاربة هذا المغولي ، فتقابل الجيشان في سهل أنقرة ، فاقتتل الجيشان قتالا عنيفا أظهر السلطان خلاله من الشجاعة ما أبهر العقول وأدهش الأذهان من قبيل شروق الشمس حتى المغيب ، ولكن نتيجة لضعف جيشه وفرار فرق آيدين ومنتشا وصاروخان وكرميان وانضمامهم الى جيوش تيمورلنك لوجود أمرائهم الأصليين وأبنائهم وكبار رجالهم في صفوف المغول ، فلم يبق مع السلطان سوى عشرة آلاف جندي انشكاري ، وبعض العساكر الصربية الذين أثبتوا ولاءهم للدولة في الحملة الصليبية الرابعة .

ولم يثنه ذلك النقص فقد استمر في الحرب والقتال حتى سقط آخر النهار أسيرا في أيدى المغول ومعه ابنه موسى [١]

لكن على حسون يذكر أن جيوش النصارى التي كانت تحت قيادة بايزيد لم تدخل المعركة الا وهي مكرهة ولعلهم كانوا يعلمون مدىالتحالف القائم بين صليبي أوربا والمغول والذي أبرم بين الطرفين ، فقد سعى هؤلاء قبل تقدمهم نحو العالم الإسلامي أن يكون هجومهم

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٦ .

والتتار معا ، مع العلم أن التتار في ذلك الوقت كانوا قد دخلوا الاسلام ، الا أن الصليبيين استغلوا الخلاف المذهبي بين العثمانيين السنة وما كان عليه تيمورلنك من التشيع ، فأقنعوه بوسائلهم الخاصة - كما سبق - بغزو العثمانيين من المشرق وقدومهم من المغرب في آن واحد [١] .

وقد أسر أيضا ابنه مصطفى الذي أرسله تيمورلنك الى سمرقند ، وقد أطلق سراحه بعد عدة سنوات [٢] ، وهرب أولاده سليمان ومحمد وعيسى ، وكانت هذه الموقعة في ١٩ من ذي القعدة سنة ٨٠٤هـ/ ٢٠ من يوليو سنة ١٤٠٢م[٣]. ولكن تيمورلنك لم يقتل أسيره بايزيد بل أكرم مثواه . وفي رواية أنه أهانه [٤] . بعد أن شرع في الهرب ثلاث مرات [٥] ، ولكن السلطان مات بعد سنة من أسره أي سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٣م [٦] . وكانت هذه الهزيمة هي سبب موته كمدا وهو في الأسر ، وصرح تيمورلنك لابنه موسى بأن يدفن أباه في مقابر سلاطين آل عثمان في بروسه ، وهذا دليل على احترام تيمورلنك للسلطان بايزيد الثاني[٧].

وقد أخذ تيمورلنك بعد ذلك في الاستيلاء على الأناضول وعمد الى احياء الامارات القديمة من أجل تفتيت وتقسيم الدولة العثمانية [٨] ، وألا يقوم لها قائمة بعد اليوم .

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٣.

(٢) يلمازاوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٨.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٦.

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ١٩٦.

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

(٦) أورخان محد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته واحداث عهده ، ص ١٨ .

(٧) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٦.

(٨) اورخان محمد علي :ا لمرجع السابق، ص ١٨ .

ويذكر المؤرخ أحمدجودت باشا : أنه قد تهيأ لبايزيد الأول ماكـان مطمح أنظار العثمانيين منذ زمن الغازي عثمان بن أرطغـرل مؤسـس الدولـة العثمانيـة ، وهو فتح القسطنطينية ، لكن من سوء طالعه استولت عليه أهواء النفـس في أمره فتهافت على مالايتفق من الاسراف والتبذير والميل مع هوى النفـس والاسترسـال في اللهو والخلاعة ، وغير ذلك من دواعـي التـأخر ، اغتنمهـا تيمورلنـك لصالحه فوقع له ماوقع ، ففرحت دول أوربا بما وقع للسلطان بايزيد ، فأرسل ملك فرنسا تهنئة الى تيمورلنك بهذه المناسبة ، فأجابه تيمورلنك على التهنئة [1] .

وعلى أثر موقعة أنقرة اكتسح تيمورلنك آسـيا الصغـرى ، واسـتولى علـى نيقيه وبروسه وغيرهمـا مـن المدن السـاحلية [2] ، وكـان تيمورلنـك يريـد تمزيـق وحدة الدولة العثمانيــة ، وتفريـق كلمتهـم وألا يقـوم لهـم بعـد تلـك المعركـة أي قائمة، كما أنه كان يحرض بعضهم على قتـال بعـض [3] ، لهـذا دب الخـلاف بـين أبناء بايزيد فكل منهم يريد أخذ مكان والده ليحكم الدولة [4] .

وكادت الدولة أن تفلت منهم بسبب هذه الخلافات حول السلطنة وهـذا ماسمى بفترة فاصلة في التاريخ العثماني ، " أي منفصلة عن محورهـا الأصلـي" [5] . وقد دام هذا الخلاف حوالي احدى عشرة ســـــــنة من ٨٠٥-٨١٦هـ/ ١٤٠٢-١٤١٣م حتى استطا ع السلطان محمد الأول ابن السلطان بايزيد الأول أن يتولى زمام السلطنة بعد اسقاط اخوته ، وأن يجمع الكلمة في يده ، وأن يوحد

---

(١) تاريخ جودت : ج ١ ، ص ٤٠.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٩.

(٣) اماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٧.

(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١٩.

(٥) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج١ ، ص ٤٠.

الدولة العثمانية من جديد ، وينفرد بسلطتها [١]

ولذلك تعتبر معركة أنقرة من أكبر الكوارث التي أخرت الدولة العثمانية عن فتوحاتها الجهادية في أوربا حوالي نصف قرن [٢] .

وان كارثة كهذه لو وقعت على أية دولة لمحتها عن آخرها ، الا أن الأساس الذي قامت عليه الدولة العثمانية كان متينا فاستقر أمرها بتغلب السلطان محمد الأول الملقب بـ (جلبي) على اخوته فتهيأت له بذلك أسباب الاستقلال بالملك كما مر بنا ، فرفع شأن الدولة العلية ، وعادت في زمن قليل الى سابق عزها ومجدها ووحدتها ، ثم توفي في سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م [٣] .

ويعود ذلك الى التوفيق الكبير من الله الذي صادف السلطان محمد جلبي لتوحيد ملكه ، لذلك اعتبر هو المؤسس الثاني للدولة العثمانية بعد كارثة أنقرة[٤] .

ثم تقلد الملك من بعده ابنه السلطان مراد الثاني الذي قوى أركان الدولة ووسع نطاق المملكة بما يزيد على ماكانت عليه . ولما توفى رحمه الله في سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م تولى مكانه ابنه محمد الثاني (الفاتح) [٥] ، كما سيأتي في بابه.

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني . حياته وأحداث عهده ، ص ١٩.

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١١.

(٣) احمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٤٠.

(٤) يلماز اوزتونا ": المصدر السابق ، ص ١١٦.

(٥) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ٤٠.

الفصل الأول : الدولة في عصرها الأول

(أ) تطبيق النظم الاسلامية ، فضل الإسلام في قوة الدولة وتماسكها والحصانة الفكرية .

(ب) الانكشارية والتربية الاسلامية .

(ج) انتشار الإسلام في أوربا في عصر عظمة الدولة ، فتح القسطنطينية وتهديد روما .

أ- تطبيق النظم الاسلامية :

ان العصر العثماني الأول هو عصر قوة الدولة ، ذلك العصر الذي طبقت فيه النظم الاسلامية ، وخاصة فيما يتعلق بأهل الذمة [1] ،ففي ظرف مائة عام تبلورت شخصية الدولة ومعالم قوتها ، وعظم أمرها وشاع صيتها ، وصارت دولة عظيمة تهابها أوربا ، بعد أن كانت قبل ذلك امارة صغيرة ، وهذا يعود في المقام الأول الى تطبيق احكام الشريعة الاسلامية ونظمها ، والتمسك بوصية الغازي عثمان بك مؤسس الدولة العثمانية ، عند وفاته حيث أوصى ابنه وولي عهده أورخان بوصايا ثلاث أوجزها فيما يلي :

أولا : تمسك في كل أمورك بالشريعة الغراء وشاور في المهمات أهل الرأي والدهاء.

ثانيا : اعط كل ذي حق حقه من التكريم والإنعام من الخواص والعوام ، لاسيما العلماء الأعلام الذين هم ركائز دين الاسلام لتكون مظهراً لما قيل " خير الناس من ينفع الناس " .

ثالثا: وبما أنك خليفتي من بعدي فتنبه لما هو أعظم من أركان هذا المقام وهو التعظيم " لأوامر الله ، والشفقة على خلق الله " واطلب الأعمال الخيرية من اعلاء كلمة الله ، والغزو لوجه الله .

وقد عمل أورخان بهذه الوصية وسلك بنوه مسلكه القويم [2] ، وقال لأحدهم : يابني لايغرنك المال والجاه من مخافة الله ، واحرص على الدين فانه سر انتصارنا [3] ، فانتهجوا جادة العدل وتطبيق الشرع من غير افراط ولا تفريط

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، العدد الرابع ، السنة الثالثة عشر ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص ٢١١-٢١٢.

(٢) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت باشا ، ج ١ ، ص ٣٨-٣٩ .

(٣) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٣٨ .

فعدلوا بين رعاياهم ، فوصلت دولتهم بهذه السياسة الاسلامية الحكيمة الى قمة مجدها [1] .

وحين جلس السلطان أورخان على سرير الحكم نقل عاصمته الى مدينة بروسة بعد أن كانت في يكيشهر [2] .

فورث أورخان عن والده عثمان دولة ليس لها قوانين أو عملة وكذلك ليس لها حدود واضحة [3] ، لهذا التفت السلطان الى التنظيمات الضرورية، وسن القوانين والأنظمة بمساعدة رجال حكومته وعلى رأسهم علاء الدين بن عثمان وقره خليل ، فكان أول شيء بدأه أن ضرب السكة العثمانية [4] . ولما رأى جيوشه لانظام لها ينعت بالاستقرار قام بانشاء طائفة يني جرى " الانكشارية " التي سنتناول الحديث عنهاباسهاب في الفقرة التالية ، كما نظر الى أراضي البلاد المفتوحة فقسمها الى قسمين خاص وتيمار [5] ، فكانت الايرادات من الأراضي الخاصة للخزينة السلطانية والأمراء والأعيان في الحكومة [6] .

وقد اكتسب العلماء نفوذا كبيرا بسبب طبيعة مراكزهم الدينية والتعليمية والقضائية ، وكان المفتي هو رأس العلماء والذي سمي مؤخرا شيخ الاسلام ، ويعتبر في المرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان . فالدولة تطبق النظم الاسلامية،

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت باشا ، ص ٣٩ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٠.

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .

(٥) تعريف الخاص : ايراداتها للخزينة السلطانية ولأمراء العائلة المالكة ولأعيان الحكومة .
تعريف التيمار : هي الحقول التي يتصرف فيها أربابها بالحرث والزرع ويعطون ماعليها من العشور الشرعية ، وما يخصها من خراج للدولة .
- اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩.

(٦) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .

وتستقي تشريعاتها من دستور المسلمين وهو الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة [١] .

وفي ضوء هذه السياسة الإسلامية انطلق العثمانيون في جميع حروبهم الهجومية والدفاعية ، فاعتبروا نشر دين ا لله وهدايةالناس في الأرض من أهم الواجبات المقدسة ، كما حرصواعلى القيام بهذاالواجب على حسب ما أقره التشريع الاسلامي [٢] .

فعندما قام السلطان عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة بفتح البلاد المسيحية جعل نصب عينيه تطبيق النظم الاسلامية كما كانت تطبق في عصرها الاسلامي الاول ، فأرسل الى جميع أمراء الروم ببلادآسيا الصغرى يخيرهم بين ثلاثة أمور :

- الاسلام - او دفع الجزية - أو الحرب .

متبعا في ذلك المنهج الاسلامي وسائراعلى حسب الخطوات التي سار عليها الرسول صلى ا لله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون رضوان ا لله عليهم ومن تبعهم من الحكام ، فقبل من أعلن اسلامه ، وأخذ الجزية ممن قبل الانضمام الى الأمة الاسلامية من المسيحيين ، وحارب من أعلن الحرب على الاسلام أو الخروج عن طاعة المسلمين [٣] .

وقد كان الهدف من تلك الحروب الجهادية هو اخضاع عالم الكفر (دار الحرب) وليس تدميره ، لهذا أقام العثمانيون دولتهم على أساس توحيد الأناضول الاسلامية والبلقان المسيحية تحت حكمهم ، كما ظهرت في الوقت نفسه حامية

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، (الدارة : ع:٤ ، س ١٣ ، ١٤٠٨هـ، ص ٢٠٦) .

(٢) زياد أبوغنمية : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٧٦.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٨-١٢٠ .

للكنيسة الارثوذكسية وملايين المسيحيين الأورثوذكس . فقد ضمن الاسلام حياة وممتلكات المسيحيين واليهود في مقابل استسلامهم ودفع الخراج ، وسمح لهؤلاء بحرية ممارسة شعائرهم الدينية الخاصة بكل فئة منهم .

ومع وجود العثمانيين في مجتمع الحدود واختلاطهم مع غير المسلمين طبقوا مبادئ الاسلام بأقصى درجة من التسامح ، وخاصة خلال السنوات الأولى من تاريخ الدولة العثمانية حيث اتبعوا سياسة استهدفت تحقيق النهج الإسلامي في معاملة أهل الديانات الأخرى لكسب ثقة المسيحيين وغيرهم وذلك قبل اللجوء الى الحروب [1] .

هذا التسامح اتضح من التزام السلاطين بالشريعة ، حيال الديانات الأخرى وخاصة فيما يتعلق بأهل الذمة ، حيث عاش الرعايا المسيحيون واليهود في أمن وسلام [2] ، جنبا الى جنب داخل الدولة .

ومن أمثلة ذلك أن ارطغرل عهد الى ابنه عثمان مؤسس الدولة بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد أن تم فتحها سنة ٦٨٤هـ الموافق ١٢٨٥م، فحكم عثمان لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي ، فأبدى هذا البيزنطي استغرابه ، وسأل عثمان .كيف تحكم لصالحي وأنا لست من أهل دينك أو ملتك؟ فأجابه عثمان قائلا : بل كيف لا أحكم لك ، والذي نعبده يقول لنا : " ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل "[3] ، فكان تطبيق الشريعة الاسلامية سببا في اسلام هذا الرجل [4] .

ولقد طبق العثمانيون المبادئ الشرعية في حماية الفلاحة باعتبارها احدى

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٧٩-٨٠.

(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، ص ٥١.

(٣) سورة النساء : الآية (٥٨).

(٤) زياد أبوغنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٧٥-٧٦.

مصادر الدخل الضريبي ، أو الموارد الاقتصادية للدولة ، لذلك اتخذت دولة الكفالة الاسلامية موقف التسامح لتشجيع الفلاحين فشكل الخراج أو الجزية جزءاكبيرا من ايرادات الدولة [١] . كما أن الوارد من العشور والرسوم التي كانت تجبى لخزينة الدولة تعتبر مشروعة ومتمشية مع نظام الشريعة ، وهذه العشور هي ماكان يفضله العلماء ويحثون على اقتصار السلاطين عليه [٢] .

وكان نظام الملل قد صنف هؤلاء الرعايا تصنيفا لايقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة ، بل على أساس المذهب الديني الذي يدينون به . لذلك أصبح لكل ملة رئيس ديني يمارس الحكم الذاتي في المسائل الدينية ويقوم بالفصل في قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بأهل ملته كالارث والزواج والطلاق والتبني ، كما سمح هذا النظام لكل ملة باستخدام لغتها في السنة التي فتحت فيها القسطنطينية وممارسة عقيدتها ، وتطور نظمها الثقافية ، وجمع الضرائب ودفع مايخصها الى بيت مال الدولة .

وكان من بين النظم السائدة في الدولة العثمانية النظم الخاصة بالأجانب من رعايا الدول الأوربية ، وعلى الخصوص التجار الأجانب المقيمين بالقسطنطينية، فلقد وضعت الدولة نظاما خاصا بهم يعرف بـ " نظام الامتيازات" وعاشت كل مجموعة من هؤلاء طبقا لما نص عليه في المعاهدات الرسمية التي أبرمتها الدولة مع حكام الدول التي تنتمي اليها هذه المجموعة [٣] .

---

(١) – ابراهيم شحاته حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٨٠.

– نبيل رضوان : جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس واسترداده ، ص ١٠.

(٢) هاملتون جب : المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبدالرحيم مصطفى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م) ج ٣ ، ص ١٣ .

(٣) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، (بيروت ، دار النهضة العربية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ٦٠-٦١.

وراعى العثمانيون العدالة في القضاء بين المسلمين والمسيحيين الى درجة أن صدرت فتوى قيل فيها بأنه اذا قتل ألف من المسلمين مسيحيا واحدا مخلصا للسلطان دون حق يجب قتلهم .

ولكي يسهل السلطان للمسيحيين قبول الحكم الاسلامي الجديد سمح لهم باستمرار كنائسهم الأرثوذكسية والاغريقية [١] .

وهذا نموذج من النماذج الأخرى الكثيرة حول تطبيق الدولة للنظم الاسلامية في معاملة الذميين كما عاملهم الدين الحنيف .

رأى السلطان سليم الأول عدد أهل الكتاب من النصارى واليهود في الدولة قد زاد على بضعة ملايين وأن هذا العدد يزداد عاما بعد عام ، ففكر في طريقة للخلاص منهم فخيرهم بين اعتناق الاسلام ، أو الطرد من أراضي الدولة العثمانية ، ولكن عندما وصل هذا الخبر الى مسامع شيخ الاسلام علي أفندي انبرى للسلطان معترضا على هذا الاجراء الذي يتنافى وطبيعة الاسلام وماكان عليه السلف الصالح ، فقال للسلطان سليم : ليس لنا على هؤلاء النصارى واليهود الا الجزية فماداموا يؤدونها فقد عصموا منا دماءهم وأعراضهم وعباداتهم فيما يعتقدون ، فلا يحق لك أن تزعجهم في دينهم ، ولايحق لك أن تخرجهم من ديارهم ، فأعلن السلطان سليم رضوخه لحكم الاسلام [٢] ، وهذا دليل على تمسك العثمانيين بالنظم الاسلامية وتطبيقها ، حتى تمتع أصحاب الديانات الأخرى غير الاسلامية بكامل حريتهم في معتقداتهم وعباداتهم [٣] .

ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية دولة قامت على الشريعة الاسلامية

---

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، (الرياض ، منشورات الفاخرية)، ص ١٨٢-١٨٣.

(٢) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٧٦.

(٣) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي : ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب ارسلان (الطبعة الرابعة ، بيروت ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م). ص ٢٠٨-٢١٠.

فاتسمت بها تنظيماتها وتشريعاتها ، وأصبحت سمة واضحة في جميع أمور الدولة وتصرفاتها . وكان المفتي أو شيخ الاسلام تخضع لنفوذه الهيئات القضائية أو الهيئات ذات الطابع الديني ، وكان السلاطين حريصين كلما حز بهم أمر أو أقدموا على مشروع خطير [1] على الاستعانة بالمفتى حتى يصدر فتواه وبخاصة في الحروب التي تخوضها الدولة دفاعا أو هجوما أو لعقد الصلح .

وكانت الدولة تهتم اهتماما بالغا بشيخ الاسلام والعلماء لنشر التعبئة الروحية بين أفراد القوات المسلحة ، واثارة روح الجهاد وصولا الى تسخين الجنود روحيا ومعنويا لخوض المعارك في سبيل نشر الاسلام [2] .

وقد تجلى هذا الأمر في حرص الدولة :

أولا : على تطبيق مبادئ الشريعة الاسلامية تطبيقا صادقا وهذا ماكانت تؤكده في شتى المناسبات معلنة أنها تلتزم التزاما دقيقا بمبادئ الشرع .

ونذكر هنانموذجا على سبيل المثال لا الحصر وهو أنها حين أصدرت قانون نامه الذي أكمله السلطان سليمان القانوني ، توجت هذا القانون بجملة معبرة وردت في صدره هذه الجملة هي : " قانوننا مي سلطاني كي شريعي شريفي موافقاني محرر أولوب " أي " القانون نامه السلطاني الذي يتفق مع الشريعة الشريفة ".

ثانيا : المحافظة على التقاليد الاسلامية ، وعلى سبيل المثال أن السلطات العثمانية لم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان ، ولذلك لم يجرؤ أحد

---

(١) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٧٦.
محمد جميل بيهم : العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، (بيروت ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م)، ص ١٢٤ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، (القاهرة ، الناشر: مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٠م)، ج ١ ، ص ٥٤.

مهما كان مركزه ، مسلما كان أو غير مسلم ، أن يأكل أو يشرب في مكان عام أثناء النهار طوال هذا الشهر المبارك ، واذا أقدم على ذلك فانه يعاقب شرعا ويشهر به أمام الناس وفي الشوارع العامة [١] .

من هنا أتى تاريخ العثمانيين في عصرهم الأول تجربة فريدة معتمدا على تطبيق النظم الاسلامية في مطلع العصر الحديث ، وفي دولة مركز الثقل فيها القسطنطينية سيدة البلقان. وقد عرفت أوربا أن المسلمين قوة ثابتة الدعائم في أوربا خلافا لمحاولات الحصار العربي للقسطنطينية في العصور السابقة وعلى مختلف العصور .

الا أنه يجب أن نشير الى دور الاسلام كأهم عامل من عوامل المقاومة ضد الاستعمار الأوربي ، وخلال عصور الاستعمار الطويلة كان للاسلام الفضل الأكبر في تحطيم مشروعات الاستعمار بالنسبة للسكان المسلمين في المستقرات وظلت الشخصية الاسلامية سليمة على الرغم من محاولات الاستعمار المتعددة لهدم هذه الشخصية ، والاسلام هو الذي أعطى للدولة القوة الخارقة وذلك التماسك الذي حير الأوربيين على مدى تاريخهاالطويل ، وليس أدل على قوة الدولة العثمانية وتماسكها من أن الغزو الفكري الأوربي تأخرت نتائجه حتى بدء عصر السلطان عبدالمجيد بن محمود الثاني ، حيث أصبحت الدولة عارية بعد أن قضى السلطان محمود الثاني على الانكشارية [٢] .

وهذا هو سر عظمة السلاطين الأول الذين وضعوا بناءها على أساس مكين عندما تمسكوا بمبادئ دينهم ومحافظتهم على تعاليم الشريعة السمحاء فكان

---

(١) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ج ١ ، ص ٥١.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة (مجلة الدارة ، العدد الثاني ، السنة الحادية عشرة ، ١٤٠٦هـ) ص ٨٠-٨٢ .

المسلمون يطيعون السلطان وليس لبعضهم على البعض الآخر فضل الابالتقوى[١] .

لذلك لم يعرف التاريخ دولة صمدت للزمن ومحنته كدولة آل عثمان في القرون الثلاثة ، القرن العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر الميلادي ، فقد فرضت وحدة شبه عامة للعالم الاسلامي ، أرهبت أوربا وهزتها ، ثم قامت بتحرير شعوب اسلامية كانت قد سقطت في أيدى الصليبيين ، فحررت تونس والجزائر وأجزاء من المغرب و ليبيا ، وأنقذت اجزاء من المشرق من اكتساح صليبي بدأ يستولى على البحار ويطوف العالم الاسلامي [٢] ، فاستطاعت الدولة أن توقف هذا الزحف وتصد هذا المد عن المشرق العربي .

---

(١) حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ٢ ، ص ٩.

(٢) هيئة التحرير : مجلة الدعوة السعودية (العدد ٥٧٠ ، ٢٥ شوال ١٣٩٦هـ)، ص ٤.

ب – الانكشارية نموذج فريد للتربية الاسلامية :

كان العثمانيون عند قدومهم الى آسيا الصغرى لايزالون على البداوة يجاهدون تحت راية أميرهم ، ويقتسمون الغنائم فيما بينهم ، فاذا فرغوا من الحرب عادوا الى شئونهم ، فلم يكونوا جنودا منتظمة بل كانوا يقدمون على الحرب من تلقاء أنفسهم .

فلما وضع عثمان أساس الدولة العثمانية على أنقاض دولة السلاجقة في آسيا الصغرى ، أصبح العثمانيون في حاجة الى من يحارب معهم لبناء دولة اسلامية كبرى تدافع عن الاسلام ، فكان يأتيهم المتطوعون ينضمون اليهم رغبة في الفتح والجهاد ونشر الاسلام ، ولايحاربون الا على ظهور الخيل ، وكانوا يسمون أولئك المحاربين (اكينجي) ، وكانوا يتدربون على الحركات العسكرية تدريبا حسنا ، واشتهروا على الخصوص بانتظامهم في الصفوف ، فاذا مشوا كانت أفراسهم صفا واحدا . وكان عثمان اذا عزم على الحرب بعث المنادين الى القرى والبلاد لاعلان عزمه ودعوة من يريد الاشتراك في الجهاد [١] .

وعندما ورث السلطان اورخان السلطنة عن والده كما سبق ذكره كان لزاما عليه مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين ، فقد رأى أن جيوشه المؤلفة من الفرسان التركمان ، والمتطوعين من الرعية للحرب ليس لهم نظام دائم ولا معرفة بقوانين الضبط والربط ، وبذلك فانهم يشعرون بأنهم ليسوا محكومين لأحد[٢] .

فكان السلطان أورخان يعتمد في حربه التي يشنها ضد البيزنطيين على

---

(١) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني (مجلة الهلال ، القاهرة ، الجزء الثاني ، السنة السابعة عشرة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ص ٤٥٧ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨.

المرابطين في الحدود (مجاهدي النفير) والذين كان يطلق عليهم بالتركية (Akincilar) أي المندفعون ، ويسمون أيضا أهل النفرة [1] وهم الذين يستجيبون لنداء الجهاد تجسيدا لقوله تعالى : ﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ [2]

فهو أيضا لم يمتلك جيشا نظاميا وانما كان لديه منات من فرسان عشيرته ومن المجاهدين ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخلوا الاسلام اثر الفتوحات العثمانية . وحينما كان يريد اعدادا اكثر مما لديه يطلق النفير(حي على الجهاد) فتتوافد عليه جموع المجاهدين من كل صوب [3] فاذا وضعت الحرب أوزارها عاد المجاهدون من حيث أتوا لانتظار دعوة أخرى للجهاد [4] ، وكانت هذه الطريقة غير مجدية لأنها تضيع كثيرا من فرص الفوز وذلك لأنه عندما يعلن النفير العام كان جمع الأفراد يستغرق فترة طويلة من الزمن مما يمكن العدو من تعزيز مواقعه فتفوت بذلك فرص الفوز على قوات العدو [5] ، كذلك فان هذه الطريقة تجعل أفراد المحاربين أكثر ارتباطا بقبائلهم مما يؤدي الى انفصام عرى الوحدة العثمانية داخل قوات الدولة التي تسعى الدولة جاهدة لتحقيقها ، كما أن بعضهم

---

(١) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ١٢.
زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ١٤٤.
حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ١ ، ص ١٠.

(٢) سورةالتوبة : الاية (٤١).

(٣) زياد أبوغنيمة : المرجع السابق ، ص ١٤٥.
- حسين لبيب :المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠
- أحمد رشيد : خريطة لي ورسملي تاريخي عثماني ، ج ١ ، ص ١٤-١٥.

(٤) زياد أبوغنيمة :المصدر السابق ، ص ١٤٥.
- حسين لبيب : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠ .
- كامل باشا :المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢.

(٥) كامل باشا : المصدر السابق ، ص ١٢ .

كان حريصا على جمع المال . ولذلك خشي السلطان أن مثل تلك الأمور قد تصرف قواد المحاربين عن الهدف المنشود ألا وهو الجهاد في سبيل ا لله [1] . خاصة وأن حملات البيزنطيين قد زاد تهديدها للدولة العلية ، فوجد أورخان صعوبة في تجميع المحاربين في الوقت المناسب ، ففكر في طريقة جديدة لتجميع قوة لقتال البيزنطيين الذين اخذ خطرهم يتصاعد يوما بعد آخر .، فاستشار اخاه علاء الدين وزير الدولة وبعض قوادهالآخرين ، فاشاروا عليه وخاصة علاء الدين وقائده قرة خليل بفكرة ايجاد جيش نظامي دائم يكون مستعدا استعداداً كاملا لخوض المعارك ضد أعداء الدولة وأعداء الاسلام ، ويكون موجوداً في حالة الحرب والسلم على حد سواء [2] . على أن يخصص لكل فرد من أفراد ذلك الجيش راتب معين في اليوم وقدره ليرة عثمانية واحدة مقابل هذا التفرغ [3] لأنه ليس من العقل التجاء السلطان الى جيش غير متفرغ ولا منظم ، بعد أن رأى فساد ذلك الاتجاه في الدولة البيزطية وأيضا ليس من المقبول أن يجاهد العثمانيون بقوات غير منظمة[4] .

وبما أن الغزو والجهاد لازال قائما في بلاد الروم ومتتابعا ، فقد أشار على

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العليةالعثمانية ، ص ١٢٢-١٢٣.

- كامل باشا : المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٢) زياد أبوغنيمة : المصدر السابق ، ص ١٤٥-١٤٦.

- كامل باشا : المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٣) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه ، ج ١ ، ص ١٢ .

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي : في خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم (مجلة الدارة، ع ٤ ، س ١٣ م، ١٤٠٦هـ) ص ٢٠٤.

السلطان رجال حكومته بأخذ خمس الأسرى [١] ، وفصلهم عن كل مايذكرهم بجنسهم وأصلهم ، فيربون تربية اسلامية ، بحيث لايعرفون أبا الا السلطان ولا عملا الا ا لجهاد في سبيل ا لله ، ولعدم وجود أقارب لهم يضمن السلطان عدم تحزّبهم أو عصيانهم عليه ، فأعجب السلطان بهذه الفكرة والرأي وأمر بانفاذه في الحال [٢] ، فأسند هذا العمل الى قرة خليل .

والحقيقة أن العثمانيين يومئذ كانوا يواصلون جهادهم في فتح البلاد الواقعة في أملاك الامبراطورية البيزنطية وأكثر أهلها من المسيحيين ، فدخل في حوزتهم الألوف من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم نتيجة تلك الحروب فأصبحوا لانصير لهم ولا مرجع لآمالهم ، ولذلك ارتآى السلطان أن يربي أولئك الغلمان تربية اسلامية [٣] .

وعلى اثر ذلك نشأ هؤلاء الأطفال نشأةً اسلامية لأنهم تربوا في بيئة إسلامية بعيدا عن الوسط المسيحي ، فأثر ذلك في ميولهم وعقليتهم نتيجة لما لهذاالدين الجديد من أمور انسانية عظيمة [٤] ، فاذا صاروا الى حالة حسنة من التربية والانتظام أدخلتهم الدولة في سلك الجيش الجديد[٥] فلا يخشى منهم التمرد

---

(١) أحمد زين دحلان : الفتوحات الاسلامية ،، (القاهرة ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر ، ١٣٨٧هـ)، ج ١ ، ص ١١٧ .

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤١٤.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٢-١٢٣.

(٣) هيئة التحرير : تاريخ الجند (مجلة الهلال ، ج ٨ ، س ١٧ ، ١٩٠٩) ص ٤٥٨.

كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه ، ص ١٣ .

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة الدارة ، ع ٤ ، س ١٣ ، ص ٢٠٥ .

(٥) أحمد زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، ج ١ ، ص ١١٧.

- احمد رشيد : خريطة لي ورسملي تاريخي عثماني ، ج ١ ، ص ١٤-١٥.

لأنهم لايعرفون عصبية غيرالدولة ، ولا عملا غير الجندية ، ولا دينا غير الاسلام[١] .

وقد ارتبطت هذه القوة منذ بداية نشأتها بهيئة العلماء في الدولة العثمانية، وذلك حينما عهد السلطان أورخان الى حاجي بكتاشي أشهر علماء عصره وأكثرهم سلطة دينية في الدولة برعاية هؤلاء الجند ، ووضع أصول تربيتهم تربية إسلامية صحيحة ، فقام الشيخ بكتاشي بوضع مناهج لتعليمهم وتدريبهم على أسس إسلامية سليمة [٢] .

اذا فهم نخبة موظفين يقيمون في ثكناتهم على الدوام ، وهم في غاية الطاعة والانقياد ، مع ماهم عليه من الشجاعة والثبات في المعارك للجهاد في سبيل ا لله واعلاء كلمته [٣] .

وقد شجع السلطان أورخان تحويل الرعايا ا لمسيحيين الى رعايا عثمانيين مسلمين ، ولم يتبع في ذلك الوقت العنف والاكراه [٤] ، بل اتبع الترغيب

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي: المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٢٠٥.
أحمد زيني دحلان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .
أحمد رشيد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤-١٥ .

(٣) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت باشا ، ج ١ ، ص ٣٩ . ،
Stanford J. Shaw,Ezelkural Shaw:Osmanli Imparatorlugu ve modern,Turkiy,p.15.

(٤) يذكر كارل بروكلمان : أن الدولة أكرهت النصارى الذين اختيروا لتأليف الجيش الجديد الانكشاري على الدخول في الدين الاسلامي . وهكذا افتتحت الدولة هذه الحملة بأن انتزعت ألف غلام نصراني من بيوت آبائهم وأكرهتهم على رفض معتقدهم . بيد أن تطلع هؤلاء الى مستقبل باهر جعلتهم يتعلقون بشخص السلطان ويخلصون له . والواقع أن القوة الجديدة الانكشارية نظمت تنظيما دينيا .
- تاريخ الشعوب الاسلآمية ، ص ٤١٤. (=)

والتهذيب ، وكانت الوظائف عامة وخاصة الدينية والعسكرية منها في ذلك الوقت تقتصر على المسلمين (١) ، حتى صار النصارى يطلبون من تلقاء أنفسهم ادخال اولادهم ضمن الانكشارية (٢) .

وكان أهم مصادر الانكشارية هي : أسرى الحرب نتيجة الجهاد على حدود العالم المسيحي ، ثم ماكانت تقدمه العائلات المسيحية طواعية من أبنائهم وليس صحيحا أن هؤلاء الغلمان كانوا يقدمون كجزية أو ضريبة كما يدعي البعض (٣) ، ولاتوجد وثيقة واحدة تشير او تؤيد هذا القول ، بل ان هذه الأسر نفسها كانت تتنافس في تقديم أبنائهم لاعجابهم بالانكشارية . ونظام الانكشارية كنوع آخر من الفروسية ، فاق فروسية أوربا في العصر الوسيط ، وطمعا أن تنفتح أبواب وظائف الدولة أمام أبنائهم ، اضافةً الى نظام أهل الذمة الذي طبقته الدولة كجزء من نظمها الإسلامية قد أبهرت أوربا في وقت ا نعدمت فيه الحرية الدينية في أوربا ذاتها أو كادت ، بل إن اقبال الأسر المسيحية على ذلك هو الذي دفع الدولة الى أن تشترط أن يكون الغلام هو الابن الخامس أو العاشر في الأسرة

(=) وقد نهج على منواله كثير من المؤرخين الأوربيين وأخذ عنهم بعض المؤرخين المسلمين دون تدقيق في الرواية . وهنا نحن بدورنا نطلب الدليل على هذه الفرية ، لأننا نخالفهم هذا الرأي لنظام الدولة ، وطلب النصارى أنفسهم انضمام الى الانكشارية .

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة الدارة، ع ٤ ، س ١٣ ، ص ٢٠٤ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨ .

(٣) هي حسبما ادعاه البعض ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها المسيحيين الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الارثوذكسية الشرقية القائمة في اسطنبول .وكانت تجمع أولادهم وهم في سن غضة ، وتحولهم الى الدين الاسلامي وتنظم لهم دراسات علمية ، مدنية وعسكرية لتجعل منهم في النهاية أدوات اسلامية للحرب والحكم في خدمة الاسلام .

– عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

الواحدة [1] . وكانت عقيدتهم التنادي الى السلاح نحو الجهاد في سبيل ا لله تعالى.

وكان الانكشاريون كتلةً واحدةً تشعر بواجبها الإسلامي العظيم وبالمهمة التي أعدوا من أجلها ، السيف سلاحهم متى ما احتاجوا اليه ، ودعوة الحق شعارهم ، والرحمة والشفقة تملأ قلوبهم ، ذلك لأن الاسلام دينهم وعقيدتهم والسلطان أبوهم وقائدهم ، كانوا مثقفين متدينين بدين الإسلام ، وقبل خوض المعركة كانوا يستعدون للشهادة فيتطهرون ويصلون لربهم ويطيلون سجودهم في صلاتهم خشوعاً لبارئهم بنفوس مفعمة بالإيمان صافية كلها رحمة وعدل [2] .

وعلى العموم كانت أسرة آل عثمان أكبر عائلة عرفها التاريخ الحديث شادت صرح دولتهم ،ودافعت عن الإسلام دفاعا مشهورا، وزادت رقعته ، كما عملت على نشر الإسلام في معظم الأجزاء الأوربية [3] .

ثم إن دخول الأتراك الإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة ، وقيامهم بدور المجاهد الأول في سبيل ا لله أمام الامبراطورية البيزنطية أكسب هذه الدولة العثمانية أصالة وحصانة فكرية في الإسلام ، ومكانة عالية في النفوس،فكانت هذه الدولة تملك قوة روحية كبيرة أصيلة نابعة من القيم والعقيدة الاسلامية الصافية تستطيع أن تعتمد عليها من وقت لآخر لاعادة تنظيم نفسها والوقوف على أقدامها كلما تعرضت لنكسة شديدة، ومعنى ذلك أن الاسلام وحضارته الراقية

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم . مجلة الدارة ، ع ٤ ، س ١٣ ، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية (بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٣) ص ٤٨-٤٩ .

(٣) عبدالعزيز سليمان نوار : المرجع السابق . ص ٦٣-٦٤.

في جميع المجالات طور الفكر التركي العثماني ، ونماه حضاريا ، وهذب أخلاقه ، واقتلع من جذوره البداوة والتعصب ، وغرس فيه روح التنظيم والجهاد ، وعلى هذا الأساس سارت السياسات العليا العثمانية لتكون نبراسا لكل مسئول يعمل بها ويهتدي بنورها حفاظا على تماسك البناء الاسلامي للرعية والأمة الإسلامية ، شعارها الدفاع عن الإسلام [1] في أي موقع وعلى أي اتجاه ، وعلى هذا الأساس أقام السلطان أورخان بن عثمان ووزراؤه هذا الجيش الذي رافق تكوين د ولتهم فكان أداة في انتصاراتها بتوفيق من ا لله وعونه إلى جانب الجيوش الأخرى في الدولة ، حتى فشلت مهمته في الدور الثاني من عصر الدولة.

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ٦٤ .

ج – انتشار الإسلام في أوربا في عصر عظمة الدولة : فتح القسطنطينية وتهديد روما :

قبل أن ندخل في تفاصيل فتح القسطنطينية فلابد من أن نستعرض بإيجاز سلطنة السلطان مراد الثاني الذي استلم العرش سنة ٨٢٤هـ الموافق ١٤٢١م ، كمدخل لحكم السلطان محمد الثاني ، وخصوصا أنه أشركه في الحكم وهو لم يبلغ سن الرشد وقد زاده هذا العمل حنكة سياسية وخبرة بالحروب الصليبية كما سيأتي. وقد افتتح السلطان مراد الثاني أعماله باعادة العاصمة الى أدرنه ، وعقد مصالحة مع أمير القرمان ، وهدنة مع ملك المجر لمدة خمس سنوات، حتى يتفرغ الى إعادة الولايات التي شقت عصا الطاعة بعد وصول تيمورلنك اليها ، فاسترد ولايات قسطموني ، وآيدين ، وصاروخان ، ومنتشا ، وغيرها من الامارات التي استولى عليها تيمورلنك بعد وقبل موقعة أنقرة من السلطان بايزيد الأول ، كما أن السلطان مراد الثاني استرد بلاد القرمان في سنة ٨٣١هـ الموافقة لسنة ١٤٢٨م ، وذلك بعد وفاة أميرها من غير عقب ، فأوصى بالملك من بعده للسلطان مراد الثاني [١] . وتفرغ السلطان بعد ذلك لاستعادة ما استقل من بلاد أوربا وخاصة دول البلقان [٢] . فاتجه نحو أوربا ، فحارب ملك المجر ، وفتح مدينة كولمباز الواقعة على شاطئ نهر الدانوب الأيمن ، حتى يكون هذاالنهر فاصلا بين أملاك المجر والدولة العثمانية [٣] . وفي سنة ٨٣٢هـ الموافقة لسنة

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٥٣-١٥٤.
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٥ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٥٣-١٥٤ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ ا لعثماني ، ص ٦٣.

(٣) . محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٥٤.
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٥ .

١٤٣٠م ، أعاد السلطان فتح سلانيك وعزم على فتح مابقي من بلاد الصرب وألبانيا (الارنؤط) والفلاخ فأخضع بلاد ألبانيا ، ثم الفلاخ في سنة ٨٣٥هـ الموافقة لسنة ١٤٣٣م ، التي سلم أميرها بسيادة الدولة هلعا من الحرب ،ولكنه مالبث أن ثار مع أمير الصرب لتحريض ملك المجر لهما لمحاربة الدولة ، فحاربتهما الدولة وفتحت سمندريه [١] بسبب عصيان أمير الصرب ، وحاصرت مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب ، ولم تتمكن من فتحها [٢] .

ثم واصل السلطان مراد الثاني الغارة على ترنسلفانيا ، فحاصر مدينة (هرمان ستاد)[٣] التابعة لملك المجر وكان حاكم هذه الأقاليم (هونياد) القائد المجري الشهير وقائد عموم جيوش المجر ، فأتى هذا القائد مسرعا ، للدفاع عنها، فاستطاع الانتصار على العثمانيين ، والزمهم الرجوع الى خلف نهر الدانوب ، وخلال هذه المعارك قتل قائد القوة العثمانية شهاب الدين باشا ، فحث القائد المجري جيشه على السير لتخليص بلاد الصرب ، فتغلب على السلطان مراد الثاني الذي تصدى له في مدينة نيش [٤] فأصبحت أملاك العثمانيين في خطر ، لهذا عرض السلطان مراد الصلح [٥] ، وبمقتضاه استرجعت الصرب استقلالها بعودة

---

(١) معناها القديس اندريا مدينة واقعة على نهر الدانوب (الطونة) تبعد ٤٥ كيلو مترا عن بلغراد عاصمة الصرب .
- علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٥ ، حاشية رقم (١) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٥٥-١٥٦.

(٣) تقع هذه المدينة هرمنستاد (Harmannstat) في رومانيا الى الشمال الغربي من العاصمة بخارست . . - محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٥٦. حاشية رقم (٢) .

(٤) ويقال لها نيسا مدينة في جنوب الصرب ، واقعة على الطريق الموصل الى اسطنبول ، وسلانيك ، وهي بلدة يوغوسلافية .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٥٧ ، حاشية رقم (٢) .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٥٦-١٥٧ ،
اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥٠٢-٥٠٣ .

سمندريه ، وضمت المجر ولاشيا ، كما تنازل السلطان لهم عن الأفلاق فاتفق الفريقان على ايقاف الحرب لمدة عشر سنوات ، وتم التوقيع على هذه المعاهدة في سنة ٨٤٨هـ الموافقة لسنة ١٤٤٤م [١] .

عقب ذلك توفي علاء الدين ابن السلطان مراد الثاني ، فحزن عليه السلطان وسئم الحياة ، فتنازل لابنه محمد الثاني البالغ من العمر آنذاك أربع عشرة سنة ، وذهب الى مغنيسيا بايدين في آسيا الصغرى ليتفرغ للعبادة والخلوة هناك [٢] .

وحينما تنازل مراد الثاني عن الحكم لابنه محمد الثاني ، قام المسيحيون بنقض الصلح [٣] ، ونظموا حملة صليبية خامسة للقضاء على الدولة العثمانية ، اشتركت فيها عدة دول أوربية [٤] .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥٠٣-٥٠٤.
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٥٧ .
أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٤ .
علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٦ .

(٢) محمد فريد بك : المصدرالسابق ، ص ١٥٧ .
اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٥٠٤ .
علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٤ .
أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٥.
يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان , ج ٢ , (الطبعة الثالثة ، دمشق ، البصائر ، ١٤٠٥هـ)، ص ٥٤ .

(٣) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤.
أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٥ .
اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٥٠٤.

(٤) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، حياته وأحداث عهده (الطبعة الأولى ، الكويت ، دار الوثائق ، ١٤٠٧هـ) ص ١٩.

ذلك أن ملوك النصارى تنادوا لاعداد هذه الحملة وفعلا تم اعدادها في سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م ،وتوجهت تلك الجموع بعد ذلك نحو أراضي البلغار فاجتازوها ، وهجموا على الحاميات العثمانية ،وهناك أنزلوا بها صنوفا من العذاب ، ثم واصلوا تقدمهم الى البحر الأسود واستولوا على وارنه [١] ، فعاد السلطان من عزلته لصد ا لحملة فأحرز انتصارا حاسما على جيوش التحالف الصليبي ، واسترد مدينة وارنه [٢] ، ثم واصل تقدمه حتى تمكن من اخضاع البوسنه والصرب اللتين اعترفتا من جديد بالسيادة العثمانية خوفاً من التحول القسري إلى الكاثوليكية فيما لو انتصر هونياد زعيم الحلف الصليبي [٣] والعدو التقليدي للدولة العثمانية .

ثم عاد السلطان مراد الثاني بعد ذلك الى خلوته من جديد ، ولم يستمر بها طويلا ، بل انه عندما شاهد تمرد الجيش الانكشاري وثورتهم على السلطان محمد الثاني لصغر سنه شن هجوما كبيرا عليهم حتى استطاع اخماد ثورتهم وذلك سنة ٩٥٢هـ الموافق ١٤٤٥م.

وخوفا من رجوعهم الى الثورات مرة أخرى أشغلهم بحرب الموره حتى استسلم أهلها وقبلوا دفع الجزية [٤] . وخشية من تكرار الثورات والحروب ضد

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٤ .
يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ٥٤ .
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٦ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٠٥ .
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٥٨ .
على حسون : المصدر السابق ، ص ٢٦ .
أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

الدولة العثمانية فانه استمر في ادارة شئون دولته لمدة ست سنوات ، تمكن خلالها من ايقاع هزيمة بهونياد [١] ، عندما اراد هونياد الغارة على بلاد الصرب ليثأر لنفسه ويعيد مافقده من الشرق الأدنى اصطدم بالجيش العثماني في وادي قوصوه في معركة حاسمة انتصر فيها السلطان مراد الثاني نصرا عظيما وذلك في سنة ٨٥٢هـ الموافق ١٤٤٨م ، وكأنه أعاد بذلك انتصارات سلفه مراد الأول من قبل على ملك الصرب سنة ٧٩٢هـ الموافق ١٣٨٩م ، وفي هذا الموقع بالذات .

بعد هذه المعركة بثلاث سنوات وبالتحديد في ٥ من محرم سنة ٨٥٥هـ الموافق ٧ من فبراير سنة ١٤٥١م توفى السلطان مراد الثاني في أدرنه ، ونقل جثمانه الى بروسه . حيث دفن هناك فتولى من بعده ابنه السلطان محمد الثاني [٢]

وما ان تولى السلطان محمد الثاني مقاليد السلطة في الدولة العثمانية حتى سارع الى تأمين حدود دولته من ناحية نهر الدانوب ،كما ألزم الامبراطور البيزنطي قسطنطين دفع الجزية ، ولم يبق آنذاك من ممتلكات الدولة البيزنطية الا القسطنطينية وضواحيها [٣] .

ومن أجل ذلك شرع السلطان محمد الثاني البالغ من العمر عند توليه السلطة تسعة عشر عاما في الاستعداد لإتمام فتح مابقي من بلاد البلقان والقسطنطينية ن حتي يحقق بذلك الحلم الكبير والأمنية العظيمة التي طالما تمناها

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٦٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٥٩.
اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥٠٥ .

(٣) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ١٣ .

أسلافه [١] خاصة وأن والده قد شرع من قبل في حصار القسطنطينية ، لكنه لم يتمكن من فتحها ، لتحالف أوربا والثورات في آسيا الصغرى كما مر بنا [٢] ، فأخذ السلطان محمد الفاتح ينفذ وصية والده مراد الثاني في التحضير لفتح القسطنطينية [٣] ، حيث سبق لأسلافه العثمانيين عدة محاولات لفتحها لشعورهم أنها العاصمة الطبيعية لدولتهم [٤] ،والقاعدة التي يجب أن تنطلق منها الفتوحات الإسلامية لتشمل كامل القارة الأوربية .

وقد أدرك السلطان محمد الثاني أن نجاحه ي فتح هذه المدينة يتطلب منه أن يتفرغ تفرغا كاملا لهذه المهمة ، فعمد الى توثيق علاقاته بالقوى المجاورة،وتجميد الخلافات معهم ، حتى لاتشغله عن هدفه العظيم ، كما كانت القوى المسيحية المجاورة للدولة العثمانية ترغب في عقد اتفاقيات المصالحة ، لهذا انتهز يوانيس كومنيوس الرابع امبراطور طرابزون الكاثوليكي والموالي لبابا روما وملك الصرب جورج برانكوفيش ، وأمراء وحكام الافلاق ، ورودس ، وغلطه ، وغيرها من الامارات الأوربية الأخرى مناسبة تسلم السلطان مقاليد الحكم ، فتسابقوا الى إرسال الوفود اليه للتهنئة وتقديم الهدايا اليه ، وعلى أثر ذلك تم عقد معاهدات جديدة ، كما سارع بعضهم الى تجديد المعاهدات القديمة التي كانت بينهم وبين السلطان مراد الثاني .

وقد أظهر محمد الثاني في هذه المناسبة مرونة فائقة ليضمن بذلك تحييدهم

---

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣ .
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦١ .

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، (دار الكاتب العربي ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، ١٩٦٩م) ، ص ٣٦ .

(٣) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٥ .
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٦١.

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٥ .

وتوقفهم عن تقديم أي مساعدة عندما يقرر توجيه ضربته الفاصلة نحو القسطنطينية ، الا أنه فوجيء في هذا الوقت بعصيان أمير سلطنة القرمان السلجوقية ، فسارع السلطان محمد الثاني الى اخماد هذه الفتنة بعقد الصلح معه .

وبينما كان السلطان في طريقه الى بروسه تواترت اليه الأخبار باعلان عصيان أمراء منتشيا ، وكرميان ، ضد الدولة العثمانية فأرسل قواته إلى تلك المناطق وتم اخماد هذه الثورة المسلحة [١] .

ان مثل هذه الثورات قد أغرت الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر ، فانتهز هذه الفرصة لإبعاد الخطر عن القسطنطينية ، فبعث الى السلطان محمد الثاني يهدده بأنه سيمد يد العون الى الأمير أورخان [٢] لمنازعته على عرش السلطنة [٣] اذا لم يخصص له بعض المخصصات المالية ، فغضب السلطان غضبا شديدا ، وكان هذا أحد الأسباب القوية حول دفع السلطان لاتخاذ القرار اللازم لفتح القسطنطينية [٤] ، اضافة الى ذلك أهمية موقع القسطنطينية لدولته ، نظرا لموقعها الجغرافي عند نقطة اتصال آسيا بأوربا عن طريق مضيقي البوسفور والدردنيل اللذين يصلان البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأسود بواسطة بحر

---

(١) زياد أبوغنيمة : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية (الطبعة الثانية ، عمان ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤هـ) ، ص ٢٩-٣٢.

(٢) أورخان هذا هو حفيد سليمان بن السلطان بايزيد الأول الذي لجأ الى القسطنطينية أثناء الصراع على السلطة عقب موقعة أنقرة .

– ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٦٤ .

(٣) زياد أبوغنيمة : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

– أحمد عبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٥/٦٦.

(٤) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

مرموه ، ولايزيد عرض ذلك الممر المائي عن كيلو متر [1] ، فهـو مركـز الاتصـال البحري والبري بين القارتين أوربا وآسيا وطريق هام للملاحة العالمية [2] .

ولكن الدوافع الحقيقية والكامنة وراء محاولـة هـذا الفتـح لاشـك في أنهـا دوافع إسلامية بحتة حافزها بشارة الرسول صلى ا الله عليه وسلم [3] .

لذلك كان سلاطين الدولة العثمانية موجهين أنظارهم إلى هذا الأمر المهم ، وقد ورد في الحديث الشريف ، عن عبدا لله بن أحمد بن حنبل عـن أبيـه أحمـد بـن حنبل حدثنا عبدا لله بن محمد بن أبي شيبة ، وسمعه أناس عن عبدا لله بن محمـد بـن أبي شيبة قال : حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني الوليد بن المغيرة المعـافري قـال : حدثني عبدا لله بن بشر الخثعمي عن أبيه أنه سمع النبي صلى ا الله عليه وسلم يقول: لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرهـا ، ولنعـم الجيـش ذلـك الجيـش " . قـال فدعاني مسلمة بن عبدالملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية [4] . وهذا الحديث أورده السيوطي في الجامع الصغـير وعـزاه الى الامـام أحمـد بـن حنبـل في المسـند ، والحاكم في المستدرك ، ورمز له بالصحة بشر الغنوى [5] ، الا أنه لم يرد في الكتب الستة ، ولما كانت أحوال القسطنطينية الداخلية في ذلك الوقت مختلفة وسيئة من الناحية الاقتصادية والدينية للاختلاف المذهبي حول توحيـد الكنيسـة في رومـا[6]، ثم ان بقاء القسطنطينية في أيـدي غيرهم من غير المسـلمين سـوف يكـون

---

(١) أضيق نقطة في هذا الممر المائي عند اسطنبول حيث يضيق العرض ليصبح ستمائة وستين مترا.
- يلمازاوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣١.

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣١ .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤) أحمد بن حنبل : مسند الامام أحمد ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٣٥ .

(٥) محمد المدعو بعبدالرؤوف المناوي : فيض القدير شرح الجامع الصغـير (الطبعـة الثانيـة ، لبنـان ، دار المعرفة للطباعة ، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م) ج ٥ ، ص ٢٦٢.

(٦) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥٠٦.

من شأنه تهديد المواصلات مابين أملاكهم الأوربية والآسيوية ، ففتحها وضمها للدولة العثمانية كفيل بتشديد قبضة العثمانيين على الأراضي التي يحكمونها ، ويخلع عليهم المهابة من الدول المسيحية (١) ، ولينال السلطان محمد الثاني وجيشه الشرف النبوي ليكونوا هم المعنيين بهذا الحديث .

وقبل الشروع في هذا الفتح فكر السلطان في تحصين بوغاز مضيق اسطنبول حتى يضمن قطع مدد أهل طرابزون وغيرهم من المسيحيين من مد يد المساعدة الى أهل القسطنطينية (٢) . ومن أجل ذلك شيد السلطان محمد الفاتح على الشاطئ الأوربي من البوسفور قلعة روملي حصار أو " بوغازكسن حصاري" (٣) ، وتقع على بعد سبعة كيلومترات من أسوار القسطنطينية ، مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد الأول ، وفي أضيق نقطة منه حتى يتيسر له اغلاق هذا المضيق عند اللزوم (٤) .

ولما علم قسطنطين بذلك وهو البادئ بالتحرش والتهديد بإطلاق أورخان المذكور أرسل الرسل يتضرع ليصرف السلطان عن بناء هذه ا لقلعة التي أزعجته فعرض عليه الوفد دفع الجزية التي يقررها ، لكن السلطان رفض هذا الاغراء وقال : " لما كنت صغيرا كنتم تظلمون المسلمين ، وكنتم لاترحمونهم ، ووالدى

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦١.

(٣) أي القلعة قاطعة البوغاز .

- يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣١ .

(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ٧٨.

، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٦١ .

، علي حسون : المرجع السابق / ص ٣٣ .

، أحمد عبدالرحيم مصطفي : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٦ .

، عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٣٨ .

حلف بأن يبني قلعة على ساحل الروم عندما كان في غزوة وارنه ، وأنا الآن أنفذ وصية والدي لفتح القسطنطينية ، كما أنني أبني هذه القلعة في أرضي وخارج أرضكم، وليس لكم الحق في التدخل ، ارجعوا الى امبراطوركم وقولوا له : السلطان الحاضر ليس كمثل سلفه ، بل مصمم ومقدم على الفتح ، والآن نسمح لكم بالرجوع لإبلاغه ، أما المرة الثانية سأسلخ جلد من أتاني حيا (١) .

وبعد ثلاثة أشهر من العمل أكمل السلطان بناء القلعة في شكل مثلث سمك جدارها عشرون قدما ، وفي كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص سمكه اثنان وثلاثون قدما (٢) . ثم قام السلطان بتفقد القلعة التي بناها ، وجهزها بالجيش والمعدات الحربية (٣) ، فعين فيروز أغا قائداً للقلعة الجديدة ، وضم اليه أربعمائة جندي من خيرة جنود الانشكارية (٤) ، ثم أصدر أوامره بألا يسمح لأية سفينة أجنبية بعبور المضيق الا بعد خضوعها للتفتيش الدقيق ، مع أخذ الرسوم المحددة لذلك ، وان حاولت المرور بالقوة يطلق عليها النار (٥) . ويعني ذلك أن العثمانيين استطاعوا إحكام سيطرتهم على مدخل البوسفور ومن شاطئيه الآسيوي والأوربي ، كما ضمنوا منع وصول أية امدادات الى القسطنطينية ، وخاصة من مملكة طرابزون النصرانية (٦) ، فأصبح العثمانيون من هاتين القلعتين يسيطرون

---

(١) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ، ج ١ ، ص ٧٨.

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٣٨ ،
زياد أبوغنيمة : السلطان المجاهد محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية ، ص ٣٢ .

(٣) كامل باشا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٩ .

(٤) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٥) كامل باشا : المصدر السابق ، ص ٧٩ ،
عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٦) زياد أبوغنيمة : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

سيطرة كاملة على الطرق الشمالية التي تؤدي الى مدينة القسطنطينية (١) .وبهذه الخطة المحكمة يعد السلطان محمد الثاني بحق مؤسس نظام المضائق والقدرة على التحكم فيها في العصور الحديثة ، وبعد أن اطمأن السلطان محمد الثاني على سلامة خطته الحربية لفتح القسطنطينية عاد الى أدرنه وذلك في أوائل عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م (٢) . فحول مدينة أدرنه الى مصانع هائلة للأسلحة ، وجعلها مركزا لتجمع جيوشه القادمة من كل أقطار دولته ، ومخزنا كبيرا للمعدات والذخائر والآلات النارية والمدافع التي تحتاجها تلك الحرب (٣) .

وعندما أدرك قسطنطين نوايا السلطان محمد الثاني ، لفتح مدينته ، استعد للدفاع عنها ، فامر باغلاق أبوابها (٤) ، ثم بعث الى جميع ملوك الغرب وأمرائه يستصرخهم ويحثهم على نجدته ومساعدته ، كما بعث الى البابا نقولا الخامس يستنصره وفي الوقت نفسه يحذره وينذره اذا سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين فإنهم سيهجمون بعدها لامحالة على إيطاليا نفسها (٥) .

لذلك كثرت البعثات التي أرسلتها القسطنطينية إلى أوربا تطلب الغوث والنجدة ، ولكن كان هناك بعض المصاعب التي عرقلت نجاح هذه البعثات وأهمها الاختلاف المذهبي ، والتعصب الديني بين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية ، ويعني ذلك أن النزاع كان على أشده بين بيزنطة وروما .

---

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح ا لقسطنطينية ، ص ٦٠ .
(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣١-١٣٢.
(٣) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٦٠-٦١.
(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ٧٩ .
، يلماز اوزتونا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٢ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٦ .
(٥) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٣٧ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع ا لسابق ، ص ٦٦ .

ولقد بذلت مساع دبلوماسية أوربية هائلة للتوفيق بين الشرق البيزنطي والغرب الروماني ، رغبةً في اتحاد قوتهم أمام المسلمين العثمانيين [١] .

وقد كانت النتيجة الحتمية لبناء قلعة " روملي حصار " هي محاولة القسطنطينية هدمها ومن ثم الاعتداء على عمالها مما جعل السلطان محمد الثاني يعلن الحرب رسميا على الامبراطور قسطنطين ، فأخذت حامية الحصن تغير بانتظام على الجهات المجاورة ، فأدرك الامبراطور البيزنطي أن محاولته للمحافظة على مركزه بأي ثمن لن يفيده شيئا ، فلا شئ يرضي العثمانيين غير فتح القسطنطينية ونشر الاسلام فيها والقضاء على ملكه نهائيا [٢] ، ولذلك أمر الامبراطور باغلاق أبواب المدينة [٣] ، والقبض على كل العثمانيين الأتراك الموجودين داخل الامبراطورية . عندها أعلن السلطان محمد الثاني الحرب لفتح القسطنطينية ، وخرج معه جيش عظيم يبلغ نحو خمسين ألفا ونزل بهم بجوار أسوار القسطنطينية ، لكنه عندما وصل الى هناك عاد مسرعا إلى أدرنه وكان غرضه من هذه الزيارة التي استغرقت ثلاثة أيام ترتيب بعض أموره في عاصمة ملكه ،كما أنه قام باستكمال دراساته عن موقع القسطنطينية واستعداداتها ، وعلى هذا الأساس بنى السلطان استعداده ، واكتمل تخطيطه لحصار المدينة من كل صوب ، ثم عاد الى مواقع تجمعات جيشه حول أسوار القسطنطينية [٤] .

بدأ السلطان محمد الفاتح تحركه بضرب المواقع القريبة والمجاورة

---

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية , ص ٥١-٥٢ .

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح ا لقسطنطينية ، ص ٤٠ ،
محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٦٤-٦٥.

(٣) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٤٠-٤١.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥١٣ .

(٤) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٦٦-٦٨.
،عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٤١ .

للقسطنطينية بقصد اضعافها حتى فقدت المدينة كل اتصال بالبلاد المجاورة لها ، فكانت عليها أن تعتمد فقط على المؤن والذخائر والرجال الموجودة بداخلها [١] .

وظهر الجيش أمام أسوار القسطنطينية في غرة ربيع الثاني سنة ٨٥٧هـ الموافق للخامس من شهر ابريل سنة ١٤٥٣م ، ويرافقه العلماء الذين يدعون له بالنصر منظمين تنظيما رائعا ، وبدأت الفرق بجانب الفرق في أعلامها وطبولها ومدافعها المكونة من اربع عشرة بطارية واثنين وستين مدفعا ، ونصب السلطان محمد الثاني خيمته على الشاطئ الأيسر ، محيطا بالخنادق ، أمام الباب المشهور بباب القديس رومانوس فسلطت المدافع البعيدة المدى على ذلك الباب [٢] لذلك سور القسطنطينية ، وكان المدفع الكبير يطلق ثماني طلقات في اليوم ، لأن تعبئته تأخذ ساعتين من الوقت [٣] ، ثم اتجه السلطان نحو القبلة وصلى ركعتين ، وصلى معه الجيش كله وبدأ من ذلك الوقت الحصار الفعلي للقسطنطينية [٤] .

وقد أعد السلطان في فترة الاستعداد أسطولا عظيما في مدينة غاليبولي التي هي قاعدة العثمانيين البحرية في أوربا ، وكان مكونا من ثلاثمائة وخمسين سفينة ، فأمر بعبوره الى البوسفور ، حيث ألقى مراسيه هناك في بشكطاش ، وانضمت إليه بعض السفن العثمانية من البحر الأسود ، فأضاف منظره الى منظر الجيوش المحاصرة روعة وقوة بحرية للقوى البرية (٥) .

وهذا أول أسطول عثماني متكامل بالمعنى الصحيح ، وقد كان ظهوره

---

(١) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٤٤ .

(٢) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٧٤-٧٥.

(٣) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ٨٢ .

(٤) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٧٥ .

- عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٤٦ .

(٥) عبالسلام عبدالعزيز فهمي: المرجع السابق ، ص ٤٧ .

مصدر ذعر لسكان المدينة المحاصرة [١] حيث كانت مهمته تنحصر في منع وصول التموين الغذائي والحربي عن طريق البحر إلى المدينة ، ومهاجمة السفن التي تحرس السلسلة المعلقة على القرن الذهبي ، ومحاولة الاقتحام على هذا القرن الذهبي ، والقضاء على السفن الراسية فيه ، والتعاون مع الجيش البري في حصار مدينة القسطنطينية [٢] ، فحوصرت القسطنطينية من جميع الجهات ماعدا ناحية القرن الذهبي الذي كانت تحميه السلسلة والأسطول البيزنطي الموجود في الميناء من خلفها [٣] .

وفي الوقت نفسه قام الأسطول العثماني بمحاولة تحطيم السلسلة الواقعة في مدخل القرن الذهبي لعبوره الى ميناء القسطنطينية ، ولكن السفن الرومية والإيطالية التي كانت تحرس هذاالموقع صبت قذائفها على السفن العثمانية ، فصدتها عن محاولاتها [٤] ، كما لم تنجح المحاولة العثمانية في صد خمس سفن نصرانية كانت تحمل مؤنا وبضائع وسلاحا للقوات المحاصرة حيث ظهرت فجأة في بحر مرمرة ، فاستطاعت بذلك الافلات من قبضة السفن العثمانية ، وهذا يعود الى أن هذه السفن متقدمة في الصنع أكثر من سفن المسلمين ، ولكن السلطان محمد الثاني لم تلن عزيمته أمام تلك العقبات . وهذه من أبرز الصفات التي يتحلى بها العثمانيون ، اذ أن العقبات و المصاعب لم تزدهم الا تصميما جديدا [٥] ففكر

---

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٧٦ .
(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٤٨ .
- محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٧٧ .
(٣) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٧٨.
(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ / ص ٨٣ .
، عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق / ص ٥٧ .
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٦ .
(٥) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

في طـريقة جديدة لادخال سفنه الى داخل القرن الذهبي لاتمام الحصار براوبحـرا ، بعدمـا فشـلت المحـاولات في تحطيـم السلسـلة ، ولاحـت في بـال السلطان فكـرة جديدة وبارعة ، تتلخص في نقل السـفن عـن طريـق الـبر ولمسـافة ميلـين مـن بحـر مرمره (في بشكطاش) حتى مياه القـرن الذهـبي ، ومـن خلـف مسـتعمرة غلطـة الجنوبية ، ولم تكن المنطقة سهلا بل كانت وهـادا وتـلالا ، فـأمر السـلطان بتعبيـد الأرض وتسويتها - ثم أمر بفرشها بألواح الخشب التي دهنـت بـالزيت والشـحم لسهولة انزلاق المراكب عليها ، وبهذه الكيفية أمكـن نقـل نحـو سـبعين سـفينة في ليلة واحدة الى داخل الخليج وتغطية لذلك العمل عن أعين العـدو ظلـت المدفعيـة تطلق قذائفها طوال ذلك اليوم من المرتفعـات خلـف أسـوار غلطـة ، فتقـع هـذه القذائف في القرن الذهبي في عملية تمويهية حتى اندفعت هذه السـفن بسـرعة الى أعلى الميناء حيث يتوفر لها الحماية البرية (١) ، ومن مظاهر هـذا الاعجـاز أن هـذه العملية تمت في ليلة واحدة دون أن يشعر بها العدو (٢) .

أحدثـت هـذه العمليـة انهيـاراً معنويـا للبـيزنطيين ، فقـد أصبحـوا يـوم ٨٥٧/٦/١٥هـ الموافق ١٤٥٣/٥/٢٤ م علـى منظـر الخليـج وهـو يمـوج بقطـع الأسطول العثماني ، وهذا ماعبر عنه المؤرخ البيزنطي الأمير دوكاس حيث قـال : " مارأينا ولاسمعنا من قبل بمثل هذا الشئ الخارق ، محمـد الثـاني يحـول الأرض الى بحار، وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلا من الأمواج ، لقد فاق محمد الثاني بهــذا

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٦٣ .
، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ٥٦ .
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٦ .
،عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح ا لقسطنطينية ، ص ٦٢ .

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

العمل لاسكندر الأكبر " [1].

فانتشرت بين أهل القسطنطينية مقولة جديدة تقول : " ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفنا تمر على اليابسة " [2].

وفي يوم ١٨/٦/٨٥٧هـ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٤٥٣م أمر السلطان الفاتح جنوده بالصيام قبل الهجوم ، تطهيرا لنفوسهم وتقوية لعزيمتهم ، ثم قام بتفقد الأسطول والسور من بحر مرمرة الى القرن الذهبي ، بعين فاحصة، وما أحدثته المدافع من ثغرات ، وماهي المواقع التي لازالت في حاجة الى القصف والهدم [3] ، فقام بتنظيم الفرق التي ستقوم بالهجوم العام والأخير على كل المحاور، ثم أمر مدفعيته بالامعان في تحطيم الأسوار ، ودكها دكا عند وادي ليكوس لأن هذه النقطة هي أهم النقط التي يعتبر الاستيلاء عليها بمثابة تأشيرة دخول الى المدينة.

ثم زار السلطان كل أقسام جيشه ليشجعهم ويحثهم على التضحية ، ويقوى فيهم الثقة بالنفس والنصر ، وأمر كل جندي بالمحافظة على موقعه ، وتوعد كل من تحدثه نفسه بمخالفة الأوامر ، أو الإخلال بالنظام ، أو النكوص عن المعركة بالقتل، وحذر الجنويين المقيمين في غلطة ليلتزموا بالحياد وعدم تقديم أي مساعدة للمدينة المحاصرة [4] .

عند ذلك أعلن السلطان في جيوشه بالاستعداد للهجوم الأخير في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩من مايو سنة ١٤٥٣ م ، وخطب فيهم

---

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣٥.

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٦٣ .

(٣) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٩ .

(٤) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

باعثا فيهم الحماس ووعدهم في تمام النصر باقطاعهم الأراضي وبذل العطايا والمكافآت،وفي الليلة التي سبقت اليوم المحدد للهجوم ، أشعل الجنود العثمانيون الأنوار أمام خيامهم للاحتفال بالنصر المحقق ، وظلوا طوال هذه الليلة يهللون ويكبرون حتى لاح الفجر ، فأدى السلطان صلاة الصبح ، وامتطى جواده ، وتقدم إلى الصف الأمامي ، فأصدر أوامره بالهجوم [1] فتقدمت الجيوش وحاصرت أسوار المدينة ، ووضعوا عليها السلالم ، وأخذوا يتسلقون داخل المدينة، فدخلوا ورفعوا العلم العثماني [2] .

وعندما رأى السلطان محمد الثاني العلم يرفرف فوق أسوار المدينة ترجل عن حصانه وخر ساجدا على الأرض للرحمن ، حامدا وشاكرا لله سبحانه وتعالى على هذا النصر وتحقيق نبوءة الرسول صلى ا لله عليه وسلم ، ومنذ تلك اللحظة نال محمد الثاني شرف " الفاتح " [3] .

لذلك اندفع المهاجمون المسلمون من كل صوب نحو الأسوار المثلومة للإجهاز على البقية الباقية من المدافعين البيزنطيين [4] ، الذين تخلوا عن قسطنطين وانهزموا يبحثون عن طريق النجاة ، فلما رآى الامبراطور قسطنطين هذه الحالة التي حلت بجنده ترجل عن فرسه وسل سيفه ، وهجم على الجنود العثمانيين

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦٤ .
، كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ٨٥ .
(٢) برنارد لويس : اسطنبول . ص ٢٢ .
(٣) يلمازاوتونا : تاريخ الدولة ا لعثمانية ، ج١ ، ص ١٣٩ .
، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٠ .
(٤) برنارد لويس : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

فقاتل حتى مات في ساحة المعركة [1] ، فدخل العثمانيون وفتحت لهم جميع المنافذ والأبواب بعد فرار حاميتها وحماتها [2] .

وهكذا انتهى فتح القسطنطينية ، فوقف الجيش بنظام الصفوف أمام أياصوفيا في انتظار السلطان ، ولم تكن صلاة الظهر قد حانت بعد ، فلم يعتد الجيش على أحد من عشرات ألوف البشر المجتمعين في أيا صوفيا ولم يمسهم بأدنى سوء ، ملتزمين بوصاية سلطانهم ، ولكنهم في انتظاره ، ليتلقوا أوامره بشأن هذا الموقف ، فدخل السلطان محمد الفاتح المدينة وقت الظهر ، واتجه الى أياصوفيا فخورا بأنه أصبح الفاتح للقسطنطينية ، فنال بذلك شرف الفتح العظيم ، كما أنه أصبح بذلك سلطان الروم ، وكان الأهالي في القسطنطينية يستقبلونه بالتصفيق ، أما الجيش فاستقبله بالتهليل والتكبير . وعند وصوله الى أيا صوفيا أمر الرهبان باخلائها [3] ، ثم قام بتفقدها ، وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة إعلانا بجعلها مسجدا جامعا للمسلمين [4] . ثم صلى هو وجيشه الظهر . وفي الوقت نفسه أمر بالبحث عن جثة الامبراطور ، وأحضرها الى الرهبان وأمر بدفنه [5] .

وبعد تمام الفتح على هذه الصورة ، أعلن في كافة الجهات بأنه لايعارض في اقامة شعائر المسيحيين ، بل انه يضمن لهم حرية شعائرهم وحفظ أموالهم وأملاكهم، فلما رأى المسيحيون هذا التسامح عاد من هاجر الى القسطنطينية ،

---

(١) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ٨٦ .
. برنارد لويس : استانبول . ص ٢٢.

(٢) كامل باشا : المصدر السابق ، ص ٨٦ .
. عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٨٣ .

(٣) يلمازا اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٤) محمد فريدبك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦٥.
. برنارد لويس : المرجع السابق . ص ٢٣ .

(٥) يلماز اوزتونا : المصدر السابق ، ص ١٤١.

فأعطاهم نصف الكنائس ، وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين ، ثم جمع رجالات دينهم لينتخبوا بطريقا لهم ، فاختاروا جورج سكولاريوس ، واعتمد السلطان هذا الانتخاب ، ثم جعله رئيسا لطائفةالأرثوذكس ، واحتفل بتثبيته كما كان يعمل البطارقة أيام الروم المسيحيين ، وأعطاه حرسا ، ومنحه حق القضاء بالقضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها ، في مقابل دفع الجزية والخراج [١] ، ثم قام بزيارة غلطة بعد خمسة أيام ، وأمر بتأمين أهلها على أموالهم وحياتهم على أن تدفع الجزية ،وهكذا تم فتح القسطنطينية [٢] ، فسر العالم الاسلامي سرورا لايوصف بهذا الفتح ، وانبرت القاهرة أياما طويلة باقامة الافراح والاحتفالات بهذه المناسبة السعيدة ، فأرسل السلطان المملوكي في مصر وسلطان الهند الجنوبية ، وحكام مسلمون عديدون سفراء خاصين لتهنئة السلطان محمد الفاتح ، واعتبر هذا الفتح أكبر حدث في التاريخ العثماني ، فقد سجل هذا الفتح وبشر العالم الاسلامي بصورة قطعية بأن الدولة العثمانية سائرة في طريق الدولة العظمى .

أما اوربا فقد أصابها نبأ سقوط القسطنطينية في يد المسلمين بصدمة كبرى ، فانتاب المسيحيين الشعور بالذعر والفزع ، وتجسم لهم خطر المسلمين وتهديدهم لأوربا المسيحية ، وأخذ بعضهم يستنفر بعضا على ترك الخلافات وعقد الاجتماعات بين الأمراء والملوك ، فانبعثت فيهم النزعة الصليبية ضد الدولة العثمانية [٣] وماكانت البابوية زعيمة المسيحية لتنصرف الى اليأس ، او

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦٥.
، Halil Inlik : The Ottoman Empire, p. 57
، سيرتوماس . و أرنولد: الدعوة الى الاسلام : ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون ، (الطبعة الثالثة ، القاهرى ،مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠م) ، ص ١٧٠.
(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٠.
(٣) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٩٢ .
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥١١-٥١٢.

تخلد الى السكون ، مهما كانت كارهة للأرثوذكس ، فهي لاتسمح بقضاء المسلمين على الامبراطورية البيزنطية ، وفي الوقت نفسه تخشى اعتداء العثمانيين على البلاد المجاورة لها والتي تتبع النفوذ البابوي الديني ، ومن هنا تحولت فكرة الصليبية في محاولة انتزاع الأراضي المقدسة من المسلمين الى صراع دفاعي يستهدف منه انقاذ أوربا الكاثوليكية من يد الدولة العثمانية المسلمة [1] .

فكان البابا " نيقولا الخامس " أشد الناس تأثرا بنبأ سقوط القسطنطينية فجد في توحيد الدويلات الايطالية ،وتأليبها على قتال العثمانيين ، وترأس مؤتمرا عقد في روما ، أعلنت فيه الدول المشتركة عزمها على التعاون ضد الخطر الإسلامي المشترك ، وكاد الحلف الصليبي أن يتم لولا أن البابا اشتد عليه المرض أثر الصدمة التي أصابته عندما علم بنبأ سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين ، فمات كمدا في سنة ٨٥٩هـ الموافقة لسنة ١٤٥٥م [2] .

لذا حاول البابا " بيوس الثاني " الذي تولى البابوية بعده أن يقوم بكل ما أوتي من مقدرة خطابية ومهارة سياسية بتأييد الفكرة الصليبية الجديدة ، وحاول توحيد أوربا ضد العثمانيين ، فتركزت مجهوداته في خطتين مهمتين[3] أولاهما : أنه حاول أن يقنع العثمانيين باعتناق الدين المسيحي ولم يقم بارسال بعثات تنصيرية ، بل اكتفى بارسال خطاب الى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعضد المسيحية كما عضدها من قبله قسطنطين وكلوفس ، وأن يكفر عن خطاياه باعتناق المسيحية مخلصا ، ولم يكن معقولا نجاح هذه المهمة ، ففشل في خطته الأولى ، عند ذلك لجأ الى خطته الثانية : وهي التهديد والوعيد واستعمال لغة

---

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ١٣٨-١٣٩ .

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٩٢ .

(٣) زياد أبوغنيمة : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية ، ص ١٠٨-١٠٩ .

القوة عن طريق اقناع الدول المسيحية بتكوين حملة صليبية جديدة ضد الدولة العثمانية لنصرة المسيحية [١] .

لكن الدول الأوربية والجمهوريات الايطالية ، ماكانت لتقوم بتنفيذ مثل هذا المشروع ، على الرغم من الخطر الذي يهدد معظم أقطارها ، مع أن فكرة القيام بحملة صليبية مازالت حية ، فقد وعدت الدول الأوربية بالاستعداد لتحقيق فكرة البابا ، وعندما جاء وقت الجد اعتذرت لمتاعبها الداخلية [٢] . وماكانت أوربا التي ذهبت وحدتها تستطيع الوقوف أمام الدولة العثمانية ، ففي القسطنطينية والبوسفور والدردنيل وضع العثمانيون أقدامهم في موقع استراتيجي مهم من العالم ، جعل تقدم روسيا أو نمو النمسا من ناحية الشرق أمرا مستحيلا ، كما سيطروا أيضا بذلك على معظم الطرق البرية والبحرية المهمة بين الشرق والغرب [٣] .

لهذا اعتبرت اوربا هذا الفتح العثماني فاصلا في مصير الدولة البيزنطية ، وفي مصير عاصمتها القسطنطينية ، وتثبيت أقدام الدولة العثمانية كارثة لايضاهيها كارثة ، في ذلك الجزء من العالم . فولدت في تلك اللحظة المسألة الشرقية التي شغلت أوربا في ذلك الوقت ، ولاتزال تشغلها . كيف تستطيع أوربا وقف تقدم الاسلام ونشره في الأقطار الأوربية ؟ .

وماكانت أوربا ستجد لهذا السؤال جوابا نهائيا (٤) ، لقوة المسلمين الجهادية الضاربة المتمثلة في الدولة العثمانية التي أجبرت أوربا عندما وقفت عاجزة عن انقاذ القسطنطينية على أن تجثو على ركبتيها ، فازدادت حيرتها عندما

---

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح ا لقسطنطينية ، ص ١٣٩ .

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ١٣٩ .

(٣) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٩٤-٩٥.

(٤) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

شهر الفاتح سيفه لمواصلة الجهاد نحوها ، على الرغم من استيائها وثورتها العارمة، ومؤامرات باباواتها وأمرائها وقيامهم بتشكيل حلف صليبي جديد ، لصد الدولة عن استمرا ر الفتح في أوربا ونشر الإسلام بها ،والذي كان هدف الدولة منذ تكوينها [1] .

وفي سنة ٨٥٩هـ الموافق ١٤٥٤م أعاد السلطان الكرة لفتح بلاد الصرب ومر من جنوبها الى شمالها دون أن يلقى أي معارضة ، حتى وصل الى مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب ، الواقعة على نهر الدانوب ، فحاصرها من جهة البر والنهر ، وكان هونياد القائد المجري قد دخلها قبل الحصار ودافع عنها دفاعا شديدا حتى يئس السلطان من فتحها ، فرفع الحصار عنها في سنة ٨٥٩هـ الموافقة لسنة ١٤٥٥م ، الا ان العثمانيين استطاعوا اصابة هونياد بجراح بالغة مات بسببها وارتاح المسلمون من شره لقوته وشدة بأسه .

ولما علم السلطان بموته أرسل محمود باشا الصدر الأعظم لاتمام فتح بلاد الصرب ، فأتم فتحها في سنة ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م .

وفي هذه الأثناء تم فتح بلاد المورة في سنة ٨٦٥هـ الموافقة لسنة ١٤٦٠م، ثم بلاد اليونان ، فحول السلطان أنظاره الى آسيا الصغرى لفتح ماتبقى منها [2] ، فسار بجيشه وهاجم ميناء أما ستريس ، وكان مركزا مهما لتجارة أهل جنوه ، ولكون سكانها تجارا فانه لايهمهم الا المحافظة على أموالهم ، فقد فتحوا أبواب المدينة ودخلها العثمانيون بدون حرب ، ثم قصد محمد الفاتح مدينة طرابزون ودخلها بدون مقاومة ، وقبض على ملكها وأولاده ، وأرسلهم الى القسطنطينية

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ ا لدولة العثمانية ، ص ١٦٥ .
. يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٤١.
Halil Inalick : The Ottoman Empire, p. 56. .
(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٦٦-١٦٨ .

ثم ضم بلاد الفلاخ الى الدولة .

وفي سنة ٨٦٦هـ الموافقة لسنة ١٤٦٢م حارب السلطان بلاد البوسنة [١] لامتناعها عن دفع الخراج ، فتدخل ملك المجر لانقاذ البوسنة من العثمانيين ، وكان هذا التدخل من أسباب ضم البوسنة الى الدولة كباقي ولايات الدولة ، وقد دخل أكثر شبابها تطوعا في الجيش الانشكاري ، واسلم أغلب سكانها[٢] .

وعندما أراد السلطان فتح بلاد البغدان في سنة ٨٧٩هـ الموافقة لسنة ١٤٧٥م ، أرسل جيشا الى هناك ، وبعد حرب عنيفة قتل فيها الكثير من الجيشين المتحاربين ، عادت الجيوش العثمانية بدون فتح هذا الاقليم [٣] ، حينئذ عزم السلطان على فتح بلاد القرم حتى يستعين بفرسانها المشهورين في القتال لمحاربة بلاد البغدان ، فأرسل اليها عمارة بحرية ، فاستطاعت جيوش الدولة فتحها ، ثم واصلت العمارة البحرية سيرها ففتحت أق كرمان ، ثم واصلت طريقها لفتح بلاد البغدان ، وبينما كان السلطان يسير بالجيش مجتازا به نهر الدانوب ، اذ تقهقر أمامه جيش البغدان لعدم استطاعته الحرب في البر ، فتبعه الجيش العثماني حتى توغل خلفه في غابة كثيفة يجهل مفاوزها ، عندئذ انقض عليه الجيش البغداني، وهزم الجيش العثماني [٤] .

اتجه السلطان بعد ذلك الى فتح بلاد البنادقة في سنة ٨٨١هـ الموافقة

---

(١) البوسنة : تشكل البوسنة والهرسك اليوم احدى مقاطعات يوغسلافيا التي يتركز فيها المسلمون .
– علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤١ ، حاشية رقم (٢) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٦٩–١٧٠.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .
، علي حسون : المرجع السابق ، ص ٤١.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٧٣–١٧٤ .

لسنة ١٤٧٧م ، فخاف البنادقة على مدينتهم ، وأبرموا الصلح معه تاركين له مدينة كرويا [١] ثم مدينة أشقودره [٢] ، وبعض القلاع الأخرى في المنطقة .

وفي سنة ٨٨٤هـ الموافقة لسنة ١٤٨٠م ، استطاعت الدولة فتح بعض الجزر اليونانية ، ثم واصل الجيش العثماني مسيره لفتح اوترانت [٣] بايطاليا التي عزم السلطان على فتحها مهما تكن الظروف ، وأقسم بأن يربط فرسه في كنيسة القديس بطرس بمدينة روما مقر البابا ففتحت مدينة اوترانت عنوة في ٤/٦/٨٨٥هـ الموافق أغسطس /١٤٨٠م . فاهتزت ايطاليا في الوقت الذي أرسل فيه السلطان عمارة بحرية أخرى لفتح جزيرة رودس [٤] التي كانت مركزا لرهبنة القديس حنا الارشليمي ، وكان رئيسها بيير الفرنساوي الأصل ، وكانت هذه الجزيرة محصنة تحصينا منيعا ، فحاصرها العثمانيون واستمر حصارها ثلاثة أشهر ، حاول خلالها العثمانيون الاستيلاء عليها ، ولكنهم تقهقروا لبسالة أهلها ودفاعهم عنها [٥] .

وفي يوم ٤ من ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ الموافق ٣ من مايو سنة ١٤٨١م،

---

(١) كرويا : الى الجنوب من مدينة اشقودره . وتكتب هكذا (Kruja) .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٧٤ حاشية رقم (١) .

(٢) اشقودره : مدينة قديمة ، كانت تابعة للصرب ثم انتقلت الى البنادقة ويقال ان مؤسسها اسكندر المقدوني ، ثم انتقلت من ذلك اليوم الى العثمانيين .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، حاشية رقم (١) .

(٣) تقع على ساحل ايطاليا في أقرب نقطة الى ساحل البانيا ، وهذه المنطقة الضيقة من بحر الادرياتيك التي تصله بالبحر المتوسط " تعرف باسم مضيق اترانت .
- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤١ ، حاشية رقم (٢) .

(٤) رودس : جزيرة قريبة من شاطئ آسيا الصغرى طيبة الهواء ، فتحها السلطان سليمان القانوني في سنة ١٥٢٢م .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٧٦ ، حاضية رقم (٢) .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٧٤ - ١٧٦ .

توفى السلطان محمد الفاتح بعد أن أكمل مقاصد أجداده بفتح القسطنطينية ، ثم مملكة طرابزون الرومية ، والصرب والبوسنة وألبانيا ، وجميع أقاليم آسيا الصغرى ،ولم يبق في بلاد البلقــان إلا مدينـة بلغـراد التابعـة للمجـر وبعـض الجـزر التابعـة للبنادقة ، وقد دفن محمد الفاتح في اسطنبول [١] ، وبموتـه انقـذت ايطاليـا خاصـة وأوربا بصفة عامة من الخطر العثماني ، غير أن محمد الفـاتح اعتـبر أول مـن ثبـت أركان الدولة في أوربا [٢] .

ويروي يلماز أن الفاتح مات من أثر السم الذي دسـه لـه بصـورة تدريجيـة العميل اليهودي البندقي أحد أطبائه الخاصين المسـمى (Master Lacopo) الـذي ادعى أنه اهتدى الى الاسلام وسمي يعقوب باشا ، وكان مدسوسـا لقتلـه ، فمـزق الأتراك العثمانيون هذا البندقي اليهـودي شـر ممـزق قبـل أن يتسـلم مكافأتـه مـن أسياده ، فعلمت البندقية خبر موت الفاتح بعد ستة عشر يوما من وفاته ،وكـانت الرسالة التي أوصلها حامل البريد السياسـي لسـفارة البندقيـة في اسـطنبول تحتـوي هذه الجملة " مات النسر الكبير " فجرت المراسيم لمـدة ثلاثـة أيـام بلياليهـا بـأمر البابا دقت معها أجراس كافة الكنائس الأوربية [٣] .

لقد أشاد السلطان محمد الفاتح دولة عظيمـة كـانت مـن أقـوى الـدول في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ،واتخذ عاصمة بلاده سيدة البلقان

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٧٦-١٧٧ .
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٠-٤١.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التارخ العثماني ، ص ٧٢ .
، محمد مصطفى صفوت : فتح ا لقسطنطينية ، ص ١٧٠ .

(٣) تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٧٧.

اسطنبول ، التي كـانت تشرف على ممتلكـاتهم الآسيوية والأوربيـة : علـى الـبر والبحر فمهدت فتوحات السـلطان الطريـق لفتـوح العثمـانيين مـن بعـده في المجـر وأواسط أوربا ، وفي الشام والعراق [١] والحجـاز ، فأرسـى بذلـك قواعـد الدولـة العثمانية المتينة [٢] .

...

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ١٧٣ .

(٢) يلمازاوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

الفصل الثاني : الدولة العثمانية في عصرها الثاني

أ - اتساع الدولة وكثرة مشكلاتها .

ب - الخلل - السلاطين - العلماء - الانكشارية- التوقف والركود .

ج - الخطة الجديدة للعالم النصراني نحو الدولة ، فشل الحلول العسكرية - الغزو الفكري - سياسة الرجل المريض .

أ- اتساع الدولة وكثرة مشكلاتها :

هكذا بعد أن بينا قوة الدولة وعظمتها وقهرها لأوربا ، وتراجع أوربا للدفاع عن نفسها ، خوفا على سقوط روما ، مقر البابوية الكاثوليكية أمام جهاد العثمانيين ، فلابد أن نجمل الأحداث التي أعقبت سقوط القسطنطينية وبعض المدن اليونانية والايطالية ، التي قادت الدولة الى العالمية ، على محاور القارات الثلاث ، آسيا وأفريقيا وأوربا ، في عهدي السلطان سليم الأول بن بايزيد الثاني، والسلطان سليمان الأول بن سليم الأول ، لنصل مع القارئ الى اتساع رقعة الدولة مما نتج عنه تعدد مشكلاتها ، مرورا بالسلطان بايزيدالثاني ابن السلطان محمد الفاتح وهو كما يلي :

تسلم بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح مقاليد السلطة في الدولة بعد وفاة والده في سنة٨٦٦هـ الموافقة لسنة ١٤٨١ م ، وكان هذا السلطان ميالا للسلم ، الا أنه اضطر لخوض بعض المعارك الداخلية والخارجية ، ولكن بالرغم من ذلك فانه لم تكن فيه همة الفاتح أو طموحاته [١] .

وفي عهده بدأت العلاقات السياسية مع بعض دول أوربا ، ومنها قيام الاتصالات الودية مع مملكة بولونيا بعقد معاهدة في سنة ٨٩٦هـ الموافقة لسنة ١٤٩٠م ، ولكنها لم تلبث مدةً حتى تكدر الصفو بين الدولتين ، بسبب ادعاء كل منهما حق السيادة على بلاد البغدان [٢] ، فأغار ملك بولونيا عليها ، وقام العثمانيون بطرد المجر منها ، والغارة على حدود بولونيا بمساعدة أمير البغدان

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٢.
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٣ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٨٣-١٨٤.
، على حسون : المرجع السابق ، ص ٤٢ .

الذي قبل حماية الباب العالي [1] . كما وصل الى اسطنبول أول سفير روسي ومعه جملة من الهدايا وذلك في سنى ٨٩٨هـ/١٤٩٢م . وفي الوقت نفسه بدأت بعثات الدول الأوربية تتزاحم في العاصمة العثمانية الكل منهم يجتهد في مخالفة الدولة العثمانية للاستعانة بها على أعدائها ، وقطع العلاقات مع من خالفها [2] .

لهذا تميز عهد السلطان بايزيد الثاني ببدء العلاقات الدبلوماسية مع أوربا ، لكن جنوح السلطان الى السلم كان مرتبطا بالتزام الأطراف الأخرى لهذا لم تمنعه الاتفاقات من قيامه بقمع أي تحرك ضده [3] ، وذلك حينما استطاع الايطاليون ايقاع الفتنة والنفرة بين الدولة العثمانية والبنادقة عندئذ أرسل السلطان جيوشه برا وبحرا لقمع تحركات البنادقة على ساحل البلقان ، فاستولى على مدينة ليبانتو أو " ليبانت " وثغور مودون ، وقورون ، ونافارين من بلاد اليونان ، وكانت كلها تتبع جمهورية البندقية ، فخافت البندقية من تقدم العثمانيين وإسقاط حكومتهم ، فاستغاثت بالدول النصرانية في أوربا ، فأنجدها البابا ،والدول الأخرى بالقوة اللازمة ، وبالرغم من ذلك استطاع العثمانيون الاستيلاء على ميناء رودستو الواقع على بحر الادرياتيك [4] .

وقد كانت المواقع التي احتلها العثمانيون من البنادقة تشكل مراكز استراتيجية مهمة أمكنها أن تساعدهم على التقدم والتوغل في شرق البحر المتوسط، بل أيضا في حوضه الغربي ،وهذا جعل البنادقة يطلبون عقد الصلح بين

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٨٤ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٨٤-١٨٥.
، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٢.

(٣) محمد عبداللطيف الهريدي : الحروب العثمانية الفارسية ، ص ٤١.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

الطرفين [١] ، وكان بامكان السلطان بايزيد عدم قبول الصلح وضم بلاد البنادقة اليه لولا عصيان أولاده عليه [٢] واضطراب الأحوال الداخلية مما أجبره على ابرام الصلح مع البنادقة في سنة ٩٠٧هـ الموافقة لسنة ١٥٠٢ م وفي السنة التي تلتها تم الصلح مع ملك المجر [٣] .

لكن مشاكل بايزيد الثاني ازدادت هي الأخرى من الشرق لحربه مع دولة المماليك حول دولة بني ذي القدر ، ومع الدولة الصفوية في ايران ، التى بدأت تثير القلاقل في الأناضول ، اضافة الى الخلافات الأسرية داخل البيت العثماني خاصة مع أخيه جم الذي كان يطالب بعرش الدولة ، وقدحدثت بينهما عدة حروب حالت دون تقديم المساعدة لاخوانه المسلمين في غرناطة [٤] .

أعقب ذلك عصيان أولاده وتنافسهم على العرش المرتقب ، مما أدى الى الاختلال في أمن البلاد ، وازدياد نشاط الدعاة الذين أثاروا الفتن والقلاقل في

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٣ .

(٢) تكدر صفاء حياة السلطان بايزيد الثاني في السنوات الأخيرة من حكمه بعصيان أولاده الثلاثة : كركود ، وأحمد ، وسليم ، لاختلافهم في المشارب السياسية ، فعين كركود علىاحدى الولايات ، وأرسل أحمد الى أماسيا ، وعين سليم على طرابزون ، ففرق بينهم ، وعين سليمان بن سليم على بلاد القرم، فلم يرض سليم الذي كان محبوب الانكشارية ، فانتقل الى ولده سليمان ، وخاطب والده من هناك بتعيينه في احدى الولايات الأوربية ، فلم يقبل السلطان فعصى الابن ، وقام بحرب الدولة ، فجرد والده عليه جيشا فاستطاع قمعه ، ولكن الأمر انتهى بعفو الوالد عن ولده فأتى بالانكشارية في اسطنبول لوالده ، واستطاعوا اقناع السلطان بالتنازل لابنه عن الملك ، ولمزيد من المعلومات ارجع الى :

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٨٦-١٨٧.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٥ .

الأناضول . ونتيجةً لذلك استمرت هذه الحالة حوالي عامين من (١٥٠٩-١٥١١م) استنزفت قوى الدولة بالسلب والنهب واراقة دماء المسلمين، وهذا ماجعل الأمير سليم الأول حاكم طرابزون في أقصى الأناضول يحسم الموقف لضبط البلاد ، ويطالب والده بالتنازل عن العرش ، وذلك بعدما رآى عن كثب ماخطط له الصفويون وتغلغل خطر الشيعة بين رعايا الدولة في الأناضول [1] .

وقد أدى ذلك الى تنازل بايزيد الثاني لابنه سليم الأول في سنة ٩١٨هـ الموافق لسنة ١٥١٢م عن الحكم وذلك بمساعدة الانكشارية [2] كما سبق ذكره.

فالسلطان سليم الأول الذي تسلم دفة الحكم كان من قبل حاكما لطرابزون ، وبذلك كان على علم بشئون حدوده الشرقية التي كانت تواجه خطر الصفويين [3] الذين تولوا الحكم في ايران [4] .

ونتيجة لذلك وصلت الى السلطان سليم تقارير تقول " ان المبتدعين من الصوفية والشيعة قد استفحل خطرهم، وزاد عددهم ، وباتوا يعبثون في القرى بالسلب والنهب ،حتى انهم لم يتورعوا عن قتل الرجال ، وسبي النساء وأتوا

---

(١) محمد عبداللطيف هريدى :الحروب العثمانية الفارسية (الطبعة الاولى ، القاهرة ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ) ص ٤٧-٤٨.

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٢ .

(٣) تنتسب الى صفي الدين وهو من اردبيل وكان من المتصوفة الزاهدين ومنذ ا لقرن التاسع الهجرى انتقلت الصوفية من التامل الصوفي الى العقيدة الشيعية ، وكانت هذه الأسرة زعيمة لحركة تركمانية صوفية .

- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٦-٧٧ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٧٦-٧٧.

على الأخضر واليابس "[1].

وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تتربع على عرش الأناضول وشبه جزيرة البلقان ، فأصبحت بذلك على مفترق الطرق ، وبين خيارين مهمين هما : هل تستمر فتوحاتها نحو أوربا ؟ أو أنها تتجه نحو الشرق وتصطدم بدولة فارس ثم المماليك ؟ ، وبعد دراسة مستفيضة للموقف على الجبهتين قرر السلطان اختيارالخيار الثاني ، والتوقف المؤقت عن الفتوحات في أوربا للاتجاه نحو بلاد فارس لخطورة الموقف هناك ، ولايقاف التحرك الفارسي الشيعي الذي استهدف الأناضول والعراق ، وبدأ يحرض أقليات الشيعة في تلك البلاد على الثورات ضد الحكم السني [2].

عند ذلك نهض السلطان سليم الأول في وجه هذا التحدي الصفوي ، وسل سيفه ، ورفع راية أهل السنة ، وغزا بلاد فارس ليضع حدا لترهات الشاه ، فهزم الشاه اسماعيل في موقعة جالديران في سنة ٩٢٠هـ الموافقة لسنة ١٥١٤م ، ودخل السلطان مدينة تبريز قاعدة ملك الدولة الصفوية .ولكنه اضطر فيما بعد الى العودة الى بلاده لتنظيم صفوف جيشه ، مما مكن الشاه من العودة الى عرشه من جديد ومحاولة مد نفوذه الديني الى الدولة . والواقع أن السلطان لم يقض على استقلال فارس بل بقيت الدولة العثمانية وفارس على عداء مستمر ، وبذلك فان الدولة العثمانية استطاعت إضعاف نفوذ الدولة الصفوية في العراق وتركستان ، مما مهد للدولة العثمانية امتلاك العراق في عصر السلطان سليمان الأول كما

---

(١) محمد عبداللطيف هريدي: الحروب العثمانية الفارسية ، ص ٤٢،٤٨، نقلا عن (وثيقة رقم ٦٥٢٢ بطوب قابي) .

(٢) محمد كمال الدسوقي : أهمية الحجاز في مطلع العصور الحديثة ، نقلا عن وثيقة رقم ٦٥٢٢ بطوب قابي (مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، العدد الثاني ، السنة الثانية) ص ٤١٦-٤١٧.

سيأتي [1] .

وحين عاد السلطان سليم الأول الى مواقع جيشه ، علم أن دولة المماليك كانت تميل لنصرة الدولة الصفوية أثناء حربها معها [2] . فقد أرسل الشاه وفدا الى سلطان مصر يطلب منه التحالف ضد الدولة العثمانية في حربه معها مبينا انهما اذا لم يتفقا معا ، حاربت الدولة كلا منهم على حدة للاستيلاء على أملاكه[3] .

ومن تلك الأمور التي ظهرت واضحة للسلطان سليم الأول تدخل السلطنة المملوكية أثناء حربه مع الشاه ، فعلى الرغم من اعلان المماليك حيادهم التام حين دعاهم السلطان سليم الأول للاتفاق معه لحرب الشاه اسماعيل فانهم بعثوا بجنودهم ليقطعوا خطوط المواصلات المتجهة لامداد الجيش العثماني في شمال حلب عبر الأراضي المملوكية [4] مما أغضب السلطان سليم الأول ، وأدرك أن المماليك يعملون ضده ، وعليه أن يتخذ الاجراء السليم الذي يكفيه شرهم ، أو انتزاع الأقطار السورية منهم .

لذلك سعت الدولة في التحالف والتفاهم بين الدول الثلاث لتكون هجمتها نحو الغرب موحدة ، ولكن الخلاف المذهبي بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في ايران جعل الدولة تجرد حملة جالديران سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م كما سبق . كما أن حرص المماليك في مصر والشام على زعامة العالم الإسلامي بالرغم من ضعفهم وعدم قدرتهم على مواجهة البرتغاليين وصد حملاتهم ، جعل السلطان سليم الأول يتحرك نحو الشام ، فاستعد له سلطان المماليك قانصوه

---

(١) محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية . ص ١٢٤ .

(٢) احمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٨٩.

(٤) محمد عبداللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية ، ص ٥٤ .

الغوري عند حلب على الحدود الشمالية ، فالتقى الجمعان في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وبعد قتال شديد انهزم الغوري وقتل في ساحة المعركة ، فدخل سليم حلب وجميع المدن السورية [١] .

حينئذ سارع قادةالمماليك في مصر الى تعيين طومان باي نائب الغيبة حاكما على مصر ، ولما علم السلطان سليم بذلك أرسل اليه يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بالسيادة العثمانية ، فرفض ذلك ،فغزا سليم الأول مصر ، وانتهت المعركة بالقضاء على دولة المماليك في موقعة الريدانية سنة ٩٢٢هـ/١٥١٧م[٢].

وبعد ضم مصر للدولة العثمانية أراد سليم الأول ضم الحجاز ، ففي تلك الفترة [٣] حضر أبونمي ابن الشريف بركات شريف مكة الى مصر ، فقدم الطاعة للسلطان سليم الأول وأطلق عليه لقب حامي الحرمين الشريفين [٤] ، وخليفة الاسلام ، زيادة على لقب السلطان ، فجمع للسلطان سليم الأول بين الخلافة والسلطنة وحماية الحرمين الشريفين ، فوصلت الدولة في عهده الى أعلى المراتب، واتحدت كلمة المسلمين على يده ، فأصبحت بذلك الزعامة الاسلامية للعثمانيين [٥] .

وقد ظل السلاطين العثمانيون دائما سلاطين غزاة أو مجاهدين في سبيل الله لحماية العالم الاسلامي ، ولكنهم استثمروا موقف الخلافة بمعنى جديد وبمفهومه

---

(١) محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية ، ص ١٢٥.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٩٢-١٩٣.
. أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٤) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٥٨ .

(٥) أحمد جودت باشا : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٣ .

الخاص على أنهم حماة العالم الاسلامي في جهادهم ضد الصليبيين [١] . وهذا اعلان وجه الى أوربا المسيحية وطلائع الاستعمار الأوربي على الحدود الجنوبية للعالم الاسلامي [٢] .

وبعد ضم مصر والحجاز للدولة العثمانية عاد السلطان سليم الى اسطنبول فوصلها في بداية عام ٩٢٤هـ الموافق لسنة ١٥١٨م بعد أن مكث في دمشق خمسة أشهر ، ثم غادر اسطنبول الى أدرنه بقصدالراحة وهو يفكر في بدء القتال ضدالأعداء في أوربا بعد أن تم له توحيد الجبهة الاسلامية كما أراد وبعد أن سير حملةً الى اليمن لاخضاعها للحكم العثماني [٣] .

ثم أخذ السلطان سليم الأول يعد هذا الأسطول لحصار جزيرة رودس لقتال فرسان القديس يوحنا ، ولكن وافته المنية قبل اتمام مشروعه في ٩ من شوال سنة ٩٢٦هـ الموافقة لسنة ١٥٢٠ م (٤) ، وعندما وصلت اخبار وفاته الى العالم المسيحي شعروا بالفرحة ، وأن الخطر الذي كان يهددهم قد انـزاح لأنهم كانوا يتوقعون في ابنه السلطان سليمان الأول أنه رجل سلام هادئ الطبع ميال للسلم،وأنه لايميل الى الحرب الا فيما ندر [٥] ، فظنوا أن الخطر قد زال، وبحق فقد جانب توقعهم الصواب . ذلك لأنه عندما تولى السلطان سليمان الأول (القانوني أو المنظم) كان العلم العثماني يرفرف فوق مناطق عظيمة من القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوربا .

---

(١) Halil Inalcik: The Ottoman Empire , p. 57.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلةالدارة ، ع ٤ ، س١٣ ، ص ٢٠٣.

(٣) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٥٨

(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٩٧ .

(٥) V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730,p. 95 .

الا أنه في سنة ٩٢٧هـ الموافق ١٥٢١م تغير الموقف وذلك عندما أرسل السلطان سليمان الأول ، بهرام سفيرا لجمع الجزية من أهل المجر لكنهم امتنعوا وتمردوا وثاروا عليه ، فقتلوا بهرام رسول السلطان ، فغضب السلطان ، وبعث بحملة لمحاصرة مدينة سابتس القريبة من بلغراد بقيادة أحمد باشا ، ففتحها عنوة في سنة ٩٢٧هـ الموافقة لسنة ١٥٢١م ودخلها السلطان في اليوم الثاني ثم انطلق منها الى بلغراد عاصمة الصرب ، ففتحهاعنوة بعد حصار شديد وذلك في ٢٥ من رمضان من هذه السنة ، وكانت قد امتنعت على أسلافه من قبل لقوة تحصينها[١] ، فدخلها السلطان وصلى صلاة الجمعة في أكبر كنائسها ، فحولت الى مسجد للمسلمين [٢] ، وكانت هذه المدينة الحصينة معقلا من معاقل المجريين يحتمون وراءها كلما أغاروا على الدولة العثمانية ، ففتحها يعني حرمان المجريين من هذا الدرع الواقي من هجمات الدولة لتوسطها في القارة الأوربية [٣] . ولأهمية موقعها أصبحت بلغراد قاعدة الدولة العثمانية للزحف الى ماوراء نهر الدانوب [٤] ، أو لوسط أوربا ،وقد استغرق حصارها شهرا كاملا وكان ماميز هذا الحصار هو انضمام طلبة المعاهد الدينية التي شيدها العثمانيون في البلقان الى صفوف المقاتلين العثمانيين طلبا للجهاد في سبيل ا لله ، وهذا

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٩٩-٢٠٢.
، هيئة التحرير : سليمان الكبير (مجلة الهلال ، الجزء الأول ، السنة الأولى ١٣١٠هـ/١٨٩٢م) ص ٣٥ .
، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٥-٦٦.

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٢.

(٣) محمد عبداللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية ، ص ٦٠.

(٤) على حسون : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

مايدل على أن الدولة العثمانية بدأت تجني ثمرة جهودها في سبيل نشر الاسـلام في أوربا [١] . فعاد السلطان بعد هذا النصـر العظيـم الى اسـطنبول عاصمـة البـلاد ، فأرسـل اليـه قيصـر الروسـي سـفيرا يهنئـه ، وكذلـك رؤسـاء جمهوريـتي البندقيـة وراجوزة [٢] أصبحوا يتقربون اليه خوفا من غاراته وهجماته على بلادهم [٣] .

ولكن عند أوائـل سـنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م منحـت الدولـة العثمانيـة أولى الامتيازات التجارية في الدولة لجمهورية البندقية ، فوقعت معـاهدة تجاريـة معهـا ، خولت فيها قنصلها في اسطنبول حق حضور المرافعات أمام المحاكم حين الفصل في قضاياها ، اذ كانت الدول الأوربيـة تعتـبر النصـارى كلهـم رعاياهـا بالاضافـة الى بعض البنود الأخرى ، أما الأسباب المباشرة لهذه المعـاهدة التجاريـة ، فقـد كـانت اقتصادية الهدف ، منها محاولة الدولة العثمانية اعادة النشاط ا لتجـاري الى البحـر المتوسط ، بعد الدوران حول رأس الرجاء الصالح بواسـطة البرتغـاليين ، ومنهـا أن السلطان سليمان كان في اعتقاده أنه مادام قويا فانه باستطاعته أن يلغيها متى شاء وفي أي لحظة عندما يحس بخطرها [٤] .

ثم ولي سليمان وجهته لفتح جزيرة رودوس التي ظلت فترة طويلـة حصنـا منيعا أمام الدولة [٥] . وقد اتخذها فرسان القديس يوحنا مملكة لهم بعـــــد

---

(١) محمد عبداللطيف هريدي : الحرب العثمانية الفارسية ، ص ٦٠ .

(٢) راجوزة : ميناء تجاري ببلاد لماسيا على الساحل الشرقي من بحر الادرياتيكي .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٠٢ ، حاشية رقم (١) .

(٣) محمدفريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
، هيئة التحرير : السلطان سليمان الكبير ، مجلة الهلال ، ج ٢ ، س ١ ، ص ٣٥ .

(٤) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ن ص ٦٦ .

(٥) كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودس (مجلة البحـث العلمـي ، كليـة الشـريعة والدراسـات الاسلامية ، العدد الثاني ، ١٣٩٩هـ) ص ١٧٠ .

أن طردهم المسلمون من فلسطين ابان الحروب الصليبية فشنوا منها على المسلمين[١] حروبا متواصلة ، وكانت رودس تناصب ا لدولة العثمانية المترامية الأطراف العداء السافر ، وتقف منها موقف المتحدى لمناعة حصونها ، فلم يجرؤ أحد من سلاطين آل عثمان على حربها قبل السلطان محمد الفاتح الذي حاول حصارها ثلاث مرات ولم يوفق في فتحها [٢] . لذلك أخذ السلطان سليمان الأول يستعد لفتح الجزيرة برا وبحرا ، لأنها نقطة الاتصال بين اسطنبول ومصر[٣] وسوريا والحرمين الشريفين [٤] ، وذلك لكسر شوكة النصارى المتمركزين وسط البلاد العثمانية [٥] باعتبار أن هذه الجزيرة تعد من أقوى المراكز الدفاعية في أوربا، وكان قراصنتها يأسرون أعدادا كبيرة من السفن الاسلامية التي كانت تجلب الحنطة والذهب من الولايات العربية والتي تنقل معها الحجاج الى الأماكن المقدسة عبر البحر الأبيض المتوسط [٦] ، لهذا أراد السلطان الاسراع في اتمام هذا العمل الذي عجز عنه أسلافه [٧] ، فأمر السلطان في الحال بغزوها برا وبحرا ، وبعد أربعة أشهر من حصارها استسلمت ا لجزيرة على شروط

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٤١ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢٦٢.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

، مجلة الهلال ، ج ٢ ، س ١ ، ص ٣٠٥ .

(٤) مجلة الهلال : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٥) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٦ .

(٦) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٨٩ .

، V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730. p. 79.

، كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودس ، (مجلة البحث العلمي ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، ع ٢ ، ١٣٩٩هـ) ص ١٦٩ .

(٧) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

معينة وهي كالتالي :

١ - أن تصان الكنائس النصرانية .

٢ - أن تقام الشعائر الدينية .

٣ - أن لايفرض على الأهالي ضرائب لمدة خمس سنوات .

وكان رئيس الجزيرة فيليب دى ليل آدم قد طلب مقابلة السلطان وقد وافق السلطان على تلك الشروط ، وبعد مدة أبحر ليل آدم ومعه أربعة آلاف من أتباعه وذهبوا الى ايطاليا ، ومنها الى مالطة [١] .

الا أن فتح السلطان سليمان الأول لجزيرة رودس أمن أملاكه ، وتحركاته في شرق البحر المتوسط [٢] .

حينئذ توافدت الى السلطان الوفود من ملوك وأمراء لتهنئته بذلك النصر ، فلقد كان فتح جزيرة رودس ترسيخا لهيبة الدولة وارتقاءً بعظمتها [٣] ، فسعى فرنسوا الأول ملك فرنسا بارسال الرسل للتحالف مع الدولة العثمانية ضد خصمه شارل الخامس ملك النمسا الذي كان يحيط بأملاكه كالسوار بالمعصم عدا البحر [٤] ، فقد كان ملكا لأسبانيا وهولندا وألمانيا ولجزء عظيم من المدن الإيطالية[٥] ، وحين تعزز نفوذ الدولة العثمانية ، ووطدت سيطرتها القوية على البحر الأبيض المتوسط وجد فرنسوا في العثمانيين حليفاً قوياً مهاب الجانب، له كلمة عليا في السياسة ، فأرسل سفيره الى اسطنبول طالبا منه وبكل خضوع

---

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire , p. 80. .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، ص ٨٩ .

(٣) هيئة التحرير : السلطان سليمان الكبير (مجلة الهلال ، ج ٢ ، ١٨٩٢، س ١) ، ص ٣٦ .

(٤) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٧ .

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

مهاجمة ملك المجر أحد حلفاء شارل الخامس [١] ، في محاولة من فرنسوا لاشعال الحرب بين العثمانيين والنمساويين ، وهو يأمل من ذلك تخفيف الضغط الهابسبرجي الذي كان واقفا على أبواب مملكته نفسها ، بعد هزيمته في سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م في بافيا (pavia) ، وكان السلطان سليمان واعيا لذلك ومتفهما حالة العداء بين المسيحيين الفرنسيين وبين الامبراطور شارل الخامس (ملك الامبراطورية المقدسة) وفرنديناد ملك النمسا ، لهذا رحب السلطان سليمان بمطلبه لتحقيق هدفه ورغبته في السيطرة على مملكة المجر [٢] ، فأرسل رسالة الى فرنسوا بالموافقة على تنفيذ طلبه والاستعداد لحرب خصمه [٣] والعدو التقليدي للعثمانيين منذ أن وطئت أقدامهم شبه جزيرة البلقان ، فالمجر ظلت خصمه المباشر أو حليفا لخصمه [٤] .

سار السلطان سليمان الأول ملبيا طلب صديقه فرنسوا يقود الجيش بنفسه الذي كان قوامه مائة ألف جندي ، وثلثمائة مدفع ، وثمانمائة سفينة ، فشق طريقه عن طريق صربستان الى بلاد المجر حتى وصل قلعة بلغراد حيث اتخذها قاعدة لجيشه ثم واصل سيره حتى وصل وادي موهاكس [٥] فاصطدمت القوتان فقتل ملك المجر في ساحة القتال وكثير من نبلائه وكهنته في موقعة موهاكس فسقطت بودا عاصمة المجر في يد العثمانيين ودخلها السلطان وجنوده دخول

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٧ .

(٢) V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 81 .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٤) محمد عبداللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية ، ص ٦١ .

(٥) موهاكس : Mohucs تقع اليوم في جنوب بلاد المجر بالقرب من الحدود اليوغوسلافية .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢١١ ، حاشية رقم (٢) .

الفاتحين [1] .

وبدخول العثمانيين المجر خلق احتكاك مباشر بالنمسا نتج عنه ادعاء ملك النمسا فرديناند الأحقية في ملك بلاد المجر بسبب قرابته لملكها لويس الذي قتل في معركة موهاكس في أواخر سنة ٩٣٤هـ الموافق لسنة ١٥٢٧م [2] . ولكن عليه أولا أن يقضي على منافسه في بودا (Buda) زعيم ترانسلفانيا جون زابولي الذي طالب به النبلاء ليعتلي عرش المجر بناء على موافقة السلطان [3] .

فسار بجيشه لحرب زابولي ملك المجر ، واستطاع ازاحته عن حكم المجر ، فأرسل زابولي الى السلطان يستنجد به . فقاد السلطان بنفسه الجيش في سنة ٩٣٦هـ الموافقة لسنة ١٥٢٩ م ، وتوجه الى بودا عاصمة المجر ، وما ان وصلها السلطان حتى فر منها فرديناند ، وتوجه الى فينا عاصمة النمسا ، ودخل السلطان البلاد ثم أعاد زابولي الى عرش المجر [4] .

ولم يتوقف السلطان سليمان الأول عن تعقب ملك النمسا الفار فلقد توجه معه زابولي ملك ا لمجر صوب فينا وأخذ يضرب حولها الحصار ، كما سلط مدافعه على أسوارها ، وهدم جزءا منها ، فأمر الجنود بالهجوم ، فاندفعوا لدخول المدينة عدةمرات خلال أربعة أيام ، فصمد أهل فينا أمامهم فلم يستطع الجنود العثمانيون دخول المدينة ، فأصدر السلطان أوامره بالرجوع لحلول فصل الشتاء

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢١٠-٢١١ .
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٧ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٠.
، V. J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730, p.81 .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢١٠ - ٢١١ ، ٢١٤ .

(٣) V.J. Parry : A Histry of the Ottoman Empire to 1730, p. 82.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٢١٥-٢١٦.

القارس على أن يعاود الكرة عندما تحين الفرصة [١] .

وفي سنة ٩٣٨ هـ الموافقة لسنة ١٥٣١م قام ملك النمسا مرة أخرى بارسال جيش لمحاصرة بودا عاصمة المجر ، لانتزاعها من زابولي ، ولكن الحامية الاسلامية التي وضعها السلطان لحماية هذه المدينة استطاعت صد هذا الهجوم النمسوي [٢] .

وكعقاب لملك النمسا على تكرار هجومه على عاصمة المجر كرر السلطان غزو فينا في هذه السنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١ م للمرة الثانية وكان في هذه المرة مصمما على فتحها ، ولكنه لما اقترب من فينا ، بلغه استعداد أهلها للدفاع عن المدينة ، وقد جمعوا لهذه الحرب الى جانب الجيوش النمساوية جيوشا المانية وأسبانية الى غير ذلك ، فعاد السلطان الى عاصمته وكانت هذه أول مرة لايحرز فيها السلطان سليمان نصرا [٣] ، والواقع أن اقتراب فصل الشتاء وفشل العثمانيين في نقل مدافعهم الثقيلة عبر الدانوب كل ذلك كان من أهم أسباب رفع الحصار والعودة من سهول فينا [٤] .

وقد انتهزت القوى الصليبية في أوربا انشغال السلطان العثماني بالحروب البرية داخل أوربا فهاجموا البلدان العثمانية بحرا بقيادة الأميرال اندري دوريا

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢١٦-٢١٧ .
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٨ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢١٨ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٠ .
، علي حسون : المصدر السابق ، ص ٦٨ .
، محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ط ١ ، القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م) ص ٩٠ .

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٩١ .

الجنوي ، الذي التحق بخدمة شارلكان ، واحتلوا كورون وباتراس Patras التابعة لبلاد المورة ، ولكن ملك النمسا توقع رد الفعل العثماني ، فأرسل سفيرا الى السلطان سليمان ليطلب الصلح ، فلم يقبل الا بشروط معينة [1] أهمها تسليم مدينة (جران Gran) ، فقبل ملك النمسا وتحررت بين الطرفين معاهدة الصلح في سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٣م ، وأهم مافي المعاهدة هورد مدينة كورون للدولة ، وان ماتتفق عليه النمسا مع زابولي ملك المجر لاينفذ مالم يعتمده السلطان ، وهذه أول معاهدة صلح بين النمسا والدولة العثمانية وقع الطرفان عليها [2] . وقد تكون هذه المعاهدة التي تضمنت صلحا مع المسيحيين علامة واضحة على ما أصاب الدولة من أعياء واجهاد اضطر سليمان الأول الى قبول الصلح مع النمسا ، وأن الخوف الذي سيطر على نفوس الأوربيين بدأ يقل من نفوسهم ، وعرفوا ايضا ان الجيش العثماني من الممكن صده والوقوف في طريقه [3] .

وقد أعقب هذه المعاهدة عدة معاهدات وامتيازات منها أنه في عام ٩٤٢هـ الموافق لسنة ١٥٣٦م قامت الدولة العثمانية بعقد اتفاقا مع ملك فرنسا، وقد خول هذا الاتفاق اعطاء بعض الامتيازات للفرنسيين بالأراضي العثمانية[4] ، وهي تشبه المعاهدة التي منحت للبنادقة ، وهذه الاتفاقية كانت بمثابة الرمز المرئي للصداقة بين الدولتين [5] .

وقد خول هذا الاتفاق الطرفين حق التجول والاتجار والملاحة البحرية ، كما أجاز التبادل الاقتصادي دون ضرائب ، وأصبح للقنصل الفرنسي في

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢١٩ .
، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٨ .
(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٢١٩ .
(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩١ .
(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .
(٥) V.J. Parry : A History ofthe Ottoman Empire to 1730.,p.86.

إسطنبول والاسكندرية حق التقاضي بموجب القوانين الفرنسية لرعاياهم دون تدخل الدولة ، ولايحق للقضاة المسلمين الحكم على تجار ورعايا فرنسا الا في حضور الصدر الأعظم أومن يمثله ، كما أعفى من تبع الرعية الفرنسية من دفع الخراج والضرائب [1] ، واشترط ملك فرنسا بأن يكون للبابا وملك انجلترا أخيه وحليفه الحق في الاستفادة أو الانتفاع من المعاهدة ، واجابه العثمانيون بالقبول[2] مما أثار المشكلات فيما بعد ، وكانت هذه المعاهدة أول مسمار دق في نعش الدولة العثمانية [3] . وهذا الاتفاق من أسباب تدخل فرنسا نفسها وباقي دول أوربا في شئون الدولة العثمانية وخصوصا في عصرها الثاني [4] تحت حماية الامتيازات للدفاع عن نصارى الدولة ، وخاصة في بلاد الشام [5] .

والحقيقة كان هدف السلطان في ذلك الوقت من هذه الامتيازات هو دعم دولة فرنسا ثم الانجليز خلال نضالهما ضد بابا روما وهابسبورج النمسا ، ويتجلى ذلك في عقد الحلف الذي تم بين ملك فرنسا والسلطان في مواجهة أسرة الهابسبورج على أن تبقى هذه المعاهدةسرية بين الطرفين حتى لايتعرضا لسخط شعبيهما في وقت كان يسوده التعصب الديني . هذا الاتفاق جعل الدولة تتجه بفتحها نحو صقلية وأسبانيا بدل النمسا بالتعاون مع ملك فرنسا حسب المعاهدة السرية ، ولكنها لم تنفذ هجومها مع الدولة على ايطاليا حسب اتفاقهما

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٨-٦٩.
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٩٥ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيون عدن ، ص٩٢ .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٦٩ .
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٣٠ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

(٥) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

على الهجوم نظرا لسخط الرأي العام النصراني على ملك فرنسا لتحالفه مع المسلمين.

أما السلطان فانه عاود الهجوم لفتح ايطاليا في سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٨م بالاتفاق مع ملك فرنسا على أن يكون هجوم السلطان من الشرق وملك فرنسا من الغرب الذي تخلى عن مهمته ، وقد نجم عن ذلك فشل الدولة في فتح ايطاليا كما تحالف ملك فرنسا مع شارلكان على الدولة .وهكذا أخذ موقف ملك فرنسا يتذبذب ، وهذا ماجلب عليه الأعداء ، ثم نراه يعود فيطلب العفو من السلطان ويجدد المعاهدة فاستجاب السلطان لطلبه ، وبقي على هذاالموقف حتى توفى [١] . وهكذا اعتاد الفرنسيون التنصل من تعهداتهم ومواثيقهم والتزاماتهم كلما خفت حدة التوتر بينهم وبين الهابسبرج ، أو كلما توصلوا الى أهدافهم وأغراضهم المادية والسياسية [٢] . أماالنمسا العدو التقليدي للدولة العثمانية في هذا الوقت فقد كثرت غاراتها على أملاك الدولة وخاصة على حلفائها المجر وفرنسا ، مما أثار العداء ونقض العهد ، حتى استؤنف القتال من جديد بسبب غارتهم على أملاك المجر التابعين للدولة [٣] . فاشتعلت نيران العثمانيين ، فمازالت تهدم قلاع النمسا وتسقطها حتى اضطر ملك النمسا والامبراطور شارل الخامس والبابا وملك فرنسا وحاكم جمهورية البندقية الى الدخول في مفاوضات مع السلطان لعقد هدنة لمدة خمس سنوات [٤] فعقدت هذه الهدنة في سنة ٩٥٤هـ الموافقة لسنة ١٥٤٧م على شرط أن يدفع ملك النمسا جزية قدرها ثلاثون ألف دوكة نظير مابقي تحت

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٤ ، ٦٩.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩٢ .

(٣) محمد فرد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٣٨ .

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق . ص ٩٣-٩٤ .

يده من بلاد المجر [1] . وأن تبقى بلاد المجر التي توفى واليها زابولي لابنه وتحت وصاية أمه ورعاية الدولة العثمانية [2] ، وهذه هي أول معاهدة قضت على دولة النمسا بأداء الجزية السنوية لسلاطين آل عثمان [3] . في الوقت الذي جاء فيه سفراء الهند يستغيثون بالسلطان سليمان الأول ضد البرتغال[4] .

وبعد أن عقد ا لسلطان الصلح مع دولة النمسا ، تفرغ لمواجهة الغزو البرتغالي والفارسي ، فكان الصفويون في ذلك العصر تحت قيادة طهماسب ابن اسماعيل الصفوى يثيرون القلاقل في أوساط التركمان في الأناضول في الوقت الذي شهد فيه العراق الأوسط والجنوبي - بما في ذلك بغداد والبصرة محاولة لفرض المذهب الشيعي ، والتضييق فيه على أهل السنة ، وقد أثارت هذه الأعمال غضب السلطان سليمان الأول باعتباره زعيم العالم السني ، اضافة الى استيلاء الدولة الصفوية على فارس والعراق . مما عرقل مرور التجارة بين الشرق الأقصى وأوربا حين تحولت سيطرة البرتغاليين على البحار الشرقية الىحصار عام لكل الطرق القديمة بين الشرق والغرب (٥) . وحولت التجارة عبر رأس الرجاء الصالح في محاولة من البرتغاليين لقتل الملاحة العربية في البحار العربية ، وحين سقطت دولة المماليك في يد الدولة العثمانية ، ورثت الدولة العثمانية عنها

---

(١) قد استمرت النمسا على دفع الجزية للدولة العلية حتى أبطلت في معاهدة كارلوفتس .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية. ص ٢٣٨ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٢٣٨-٢٣٩ .

. هيئة التحرير : سليمان الكبير (مجلة الهلال ، ج ٢ ، س ١ ، ١٩٨٢م) . ص ٣٩ .

.V.J. Parry A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 84 . .

(٣) مجلة الهلال : المرجع السابق . ص ٣٩.

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن . ص ٩٤ .

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩١ .

V.J. Parry : Op.cit., p. 85. .

نفوذها في الحرمين ورعايتهما ، كما ورثت عنهـا سيادة النفوذ في البحـر الأحمـر وسواحله اضافة إلى مسئوليتها في محاربة البرتغاليين [1] في عصر الاستعمار الأوربي الحديث عندما وصل التهديـد الصليـبي ولأول مـرة في التـاريخ إلى جنـوب العـالم الإسـلامي أو البحـار الاسـلامية [2] ، وقـد حـاول القـائد البرتغـالي " البوكـرك " دخـول البحـر الأحمـر في سـنة ٩١٩هـ/١٥١٣م للاستيلاء علـى مكـة المكرمـة والمدينة المنورة كاجراء مقابل لوجود الأماكن المقدسة المسيحية في أيدى المسـلمين في فلسطين ، وللقضاء على تجارة البحر الأحمر التي تركزت في جدة ، وقد فشلت هذه الحملة لجهل قائدها بالملاحة في البحر الأحمر [3] ، لذلك اضطر العثمانيون الى فتح الميدان الجنوبي لمواجهة الغزو البرتغالي المسيحي الذي بدأ يهدد البحار العربيـة وذلك لاقامة حزام أمن لحماية الأراضي المقدسة الاسـلامية [4] مكـة والمدينـة مـن التهديد البرتغالي .

ونتيجة لذلك وضعت الدولة لنفسها خطة لحماية الأماكن المقدسة فأرسـل السلطان سليمان أسطولا من السويس قد صنع لهذا الغرض بقيادة سـليمان باشـا لفتح عدن واليمن ، فعبر به البحر الأحمـر واسـتطاع اغـلاق وتـأمين منـافذه أمـام التحدي البرتغالي ، ثم احتل عدن واتخذها قاعدة بحرية لمواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي ، لكن البرتغاليين نجحوا في أخذ مضيق هرمز أهم قاعدة في الخليج العربـي، ومنه هددوا الخليج العربي وما حوله ، ولكـــــــن الدولة العثمانية استطاعت

---

(١) محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية ، ص١٢٥ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩٢ .

(٣) عمر الفاروق السيدرجب : دراسات في جغرافية المملكة العربية السعودية. ا لطبعة الأولى ، جـدة ، دار الشروق ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص ٢١٥ حاشية (١) .

(٤) خلف دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، رسالة ماجستير مقدمـة لجامعـة أم القرى ، ١٤٠٥هـ لم تنشر ، ص ١٤٩-١٥٠ .
، محمد سعيد المسلم : ساحل الذهب الأسود ، ص ١٧١-١٧٢.

صدهم عن التقدم الى الأمام نحو المقدسات الاسلامية عبر الخليج العربي اذ لابد أن تؤمن الدولة ظهرها أثناء حروبها في أوربا بعد أن تحت التحالف الصفوي [1] البرتغالي لحرب الدولة العثمانية ، ولضمان حماية الأماكن المقدسة من التهديد البرتغالي[2] ، وعلى أثر ذلك سار السلطان سليمان الأول في سنة ٩٤٠هـ/١٥٣٣م من عاصمته نحو الشرق ، فاستطاع الاستيلاء في طريقه على المنطقة الواقعة بين أرض روم وبحيرة وان بهدف الاستيلاء على أذربيجان ، ثم زحف بقوة كبيرة على أواسط فارس [3] .

أما الشاه طهماسب فقد تجنب المصادمة في بداية الأمر مع الدولة العثمانية، لأن معركة جالديران التي خاضها والده لازالت عالقة في ذهنه وكانت أكبر درس له ، لهذا انسحب الى تبريز الواقعة في قلب اذربيجان وهي منطقة جبلية بعيدة جدا عن أقرب قاعدة عثمانية ، وان أي محاولة للحاق به هناك تكون ضربا من ضروب المخاطرة أوالجنون ، لهذا أصدر السلطان أمره بالتقهقر حتى يحين الوقت المناسب.

وقبل ذلك ركز السلطان سليمان في الاستيلاء على العراق . فسقطت في يده بغداد وباقي العراق دون مقاومة ، ثم ضم البصرة في عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م ومالبث الحكم العثماني أن امتد الى الاحساء في سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٥م وهكذا استطاع سليمان الأول انقاذ المذهب السني من الخطر الشيعي وحفظ للعراق

---

(١) فقد سعت الدولة الصفوية في التحالف مع الدول الأوربية وقد اتصلت بملك المجر والمانيا ، لأجل عقد حلف دفاعي هجومي ضد الدولة العثمانية .

- محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيون عدن ، ص ١١٥ .

(٢) محمد عبداللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية ، ص ١٣ .

(٣) V.J. Parry : History of the Ottoman Empire to 1730 , p. 85-86.

هويته الاسلامية السنية وتأكدت بذلك زعامة الدولة العثمانية على العالم الاسلامي[١] .

في الوقت الذي أحرزت فيه الحملة نتائج طيبة [٢] في مد نفوذها على العراق والبصرة كما مر بنا وانحسار نفوذ الدولة الصفوية من العراق ، وصد البرتغاليين من الشرق لحماية الأراضي المقدسة من أعداء الإسلام.

ورغم استيلاء السلطان سليمان على كردستان ومعظم أجزاء العراق ، إلا انه لم يوقع الهزيمة بالصفويين الذين احتفظوا بأذربيجان وبعض أجزاء من شرق العراق وجنوب القوقاز [٣] .

وبعد ذلك عاد السلطان سليمان الأول الى اسطنبول لتنظيم شئون دولته الداخلية والخارجية وللاحتياط للطوارئ المتمثلة في التحركات الأوربية على الدولة الاسلامية العثمانية . الا أن السلام مع النمسا لم يضع حدا للعداوات المحلية على حدود الدانوب والمناطق المجاورة ، ذلك أن المحاربين على حدود البوسنة وسمندريا كانوا من المجاهدين المسلمين يغزون دار الحرب لبعض المخالفات الحدودية الواقعة على المسلمين هناك من قبل الأعداء المجريين الذين يقطنون الحدود النمساوية المجرية والذين كانوا مندفعين للدفاع عن المسيحية فكانوا يتحرشون بالمسلمين ، ولم تستطع اسطنبول ولا النمسا ايقاف هذه الحرب للتعصب الديني بين الطرفين [٤] ، وان كنت أرجح بأن النمسا قد دفعت أتباعها لفعل هذه الأعمال وزودتهم بكل مايحتاجون اليه لاضعاف شوكة الإسلام

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩١ .

(٢) V.J. Parry : History of the Ottoman Empire to 1730, p. 86 .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٤) V.J. Parr y : Op.cit ., p. 86 .

في تلك الديار .

وعندما توفى ملك النمسا فردينـاند سـنة ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م خلف ابنه مكسـمليان على عـرش ملكـه فـاحتل مدينـة توكـاي مـن أعمـال المجـر ، وكـان السلطان سليمان في هذا الوقت مريضا ، وكانت المجر تحت السيادة العثمانية منذ ملكها زابولي ، فوعد السلطان اسطفن بن زابولي ملكهاآنذاك باعادة ماسلب منه، فقصد قلعة أرلو من أعمال النمسا وبينما هو في الطريق اذ بلغه أن أمير اسـكدوار أغار على فرقة من جيشه ، فوجه السلطان الغزو الىتلك المدينـة وقـام بحصارهـا ، فاحتلها بعد أسبوعين من الحصار ، وبالرغم من أن السلطان سليمان الأول توفـى أثناء الحصار إلا أن قائد الجيش أخفى خبر وفاته وأرسـل الى ابنـه سـليم الثـاني في مدينة كوتاهية يخبره بما حدث ويستعجله الحضور لاستلام زمام الأمـور خوفـا مـن الفتن والقلاقل .

وبهذه المعركة كانت نهايـة عصـر السـلطان سـليمان الأول ، الـذي كـان يعتبر للدولة العثمانية عصر المجد وأقصى المد [١] .

وفي شمال أفريقية استطاع السـلطان سـليمان القـانوني طـرد الأسـبان مـن طرابلس الغرب وصدهم عن تعقب العرب بعـد سـقوط غرناطـه كمـا هـزم البابـا وامبراطور المانيا ودوقيه البندقيه في سنة ٩٤٥هـ الموافقة لسنة ١٥٣٨م في معركة بحرية بعد أن روعهـم قبطانـه بربروسـا في سـواحل البحـر الأبيـض [٢] ،كمـا نقـل الجهاد الإسلامي إلى الغرب بدلا من البحر المتوسـط وأواسـطه مما مهد للدولة

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٥١ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، ع ٤ ، س ٣ ، ص ١١٢.

السيطرة على شمال أفريقيا باستثناء مراكش [١] ، أما تونس فانها أصبحت قصب السبق بين الأسبان والعثمانيين حتى استقرت أخيرا في يد العثمانيين الذين قضوا على الأسبان والحفصيين معا . وأنقذ المغرب العربي من خطر الأسبان وأصبحت تونس ولاية عثمانية ، كما أصبحت من قبل بلاد الجزائر وطرابلس الغرب . وقد كان النزاع بين الأسبان والعثمانيين لايتمثل في السواحل الافريقية فقط بل كان يجري أيضا حول السيادة على البحر الأبيض المتوسط .

وقد تمكن الأسطول العثماني فرض السيادة على هذا البحر مما جعل الأساطيل النصرانية تتلافى ملاقاته الا مجتمعة ومتحدة ومتحالفة لاسيما بعد أن أصبح خير الدين بربرسا متوليا قيادة الأسطول العام " قبودان باشا " [٢] ، وقد أصبحت أملاك السلطان سليمان الأول تمتد من بودابست على نهر الطونة الى أسوان بالقرب من شلالات النيل ومن نهر الفرات الى مسافة قريبة من مضيق جبل طارق [٣] .

وقد رفض السلطان سليمان الاعتراف بحق شارل الخامس بلقب امبراطور وانما أقر به ملكا فقط على أسبانيا ، وكان يشجع علنا أية قوى تقف في سبيل مطامع شارل الخامس في الحصول على الزعامة في أوربا .

صحيح أن انتصارات سليمان القانوني قد أعطت للعثمانيين أبعد مايمكن من الحدود الصالحة والفتح العظيم . فالحرب بين العثمانيين والفرس سعى بها

---

(١) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، (القاهرة : الناشر دار المعارف ، ١٩٧٢م) ص ٤٤٣-٤٤٤.
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٢ .

(٢) محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٢٧١-٢٧٤ .

(٣) أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق . ص ٤٤٤ .

العثمانيون لضم جورجيا وأرمينيا الفارسية وأذربيجان [1] لتقليص النفوذ الشيعي في المنطقة والذي أصبح خطرا كبيرا يهدد ا لدولة العثمانية السنية كما أن حروب الدولة العثانية مع الفرس قدكبدتها نفقات كبيرة وكان من نتائج ذلك توقف حركة الفتح الاسلامي نحو الغرب ، كما أنه في الوقت نفسه كان من العوامل الأساسية في ضعف الدولة أمام فينا لأن الدولة كانت تقاتل في جبهتين احداهما في أوربا والأخرى في فارس اضافة الى مقاومة البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي لتحركات الأساطيل العثمانية هناك .

---

(١) V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 94 .

ب –الخلل في : السلاطين والعلماء والانكشارية ، والتوقف والركود :

من تتبع الأحداث السابقة يشاهد أن العثمانيين شيدو دولتهم على أسس إسلامية اتصفت بالقوة والتعاون والنظم الراقية ، فتمكنت بتوفيق من ا لله من قهر أعدائها ، فكان ظهور الدولة على مسرح التاريخ أشبه بمعجزة حيث نمت بسرعة فائقة ، فضمت اليها بلدان واسعة في ثلاث قارات هي آسيا وأوربا وأفريقيا [(١)] .

وبما أن الأحكام الأساسية لكل دولة يمكن أن تنقسم الى قسمين رئيسيين هما : احقاق الحق للعباد باجراء العدل في داخل البلاد ، وحماية الحدود من تعرض الأجانب ، فان رفعة شأن كل دولة وبلوغها الى أقصى درجات المنعة والعظمة وحصولها على أرفع مراتب القوة والاجلال إنما يكون على قدر سعيها وإقدامها في هذين القسمين . وقد كانت الدولة العثمانية في الأصل مهتمة غاية الاهتمام بايفاء هذين القسمين المذكورين .

فكان سلاطين آل عثمان يعتنون كل الاعتناء ، ويهتمون بالمصالح المتعلقة بأمور الدين والدولة ، ويحضرون بأنفسهم في الديوان . وكان أمراءالولايات لايتم تعيينهم في الولايات الا بعد تعيينهم مدة من الزمن في امارة السناجق حتى يكون الواحد منهم عارفا مدربا علىأمور الادارة وكذلك أمراء السناجق لايتم تعيينهم الا بعد التأكد من ولائهم للدولة ومعرفتهم بأمور الدين وانحصار أنظارهم فيما فيه عمران البلاد ورفاهية العباد أيام السلم ، فاذا وقعت الحرب ساروا إليها بجنود منظمة وأسلحة تامة [(٢)] .

فتقدمت الفتوحات في عصر السلطان سليمان الأول (القانوني)،وبلغت

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٤ .

(٢) أحمد جودت باشا : تارخ جودت ، ج ١ ، ص ٩٧ .

أوج مجدها ، وأخذت بعده في التوقف تارة والتقهقر تارة أخرى [1]، ولعل السر في ذلك أن الدولة لم تجد فسحة زمنية لدراسة هذه الفرعيات من هذه الأصول وتفهمها[2] .

قيل في المثل " الورد يلازمه الشوك ، والدفينة تأوى اليها الأفاعي " ، فقد كانت الثروة التي جمعت بسبب الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة داعية الى الشهوات والوقوع في الأخطاء التي أفسدت نظام الدولة ، وتساهل السلاطين بالحفاظ عليها [3] ، وكل أمة سادت فيها المفاخرة في المصرف والتعالي في الزهو والترف ، لابد لها من التأخر [4] .

لهذا مرت الدولة العثمانية بعصرين متميزين : أولهما مانسميه بعصر عظمة الدولة ، أوبمعنى آخر عصر السلاطين العشرة الأوائل والأقوياء ، أو عصر قوة الدولة وعصر استقرار النظام فيها ، وقد تشكل هذا وترتب على صلاح العناصر الثلاثة التي ارتكزت عليها الدولة في عصرها الأول وهي السلطان والشيخ، والجندي. فالدولة قوية مالم يتسرب الخلل الى السلاطين أو الى هيئة كبار العلماء ، أو الى القوى المحاربة في الدولة وهم الانكشارية [5] .

وكان العثمانيون قد استلهموا أن الفتح يستلزم عناصر أربعة أيضا هي الرجال والمال والممتلكات ثم القوانين فنقص احداها يسبب ضياعها جميعا ويؤدي

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٥٢.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٤ .

(٣) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(٤) محمد فرد بك : المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

(٥) خلف دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، (رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة أم القرى عام ١٤٠٥هـ ، لم تطبع) ، ص ٦١ .

الى انهيار الدولة بأسرها [1] .

وثانيهما : فقد كان الأمراء من أبناء السلاطين في العصر الأول يقودون الجيوش فيصحبون الانكشارية في ميدان القتال ، أو لادارة حكم احدى الولايات فاذا وصلوا الى عرش السلطنة كان باستطاعتهم قيادة الجيوش وادارة الحكومة ادارة حازمة فيقومون بتطبيق ماتعلموه من علوم على حياتهم العملية[2]، وكان الانكشاريون لايخرجون الى الحرب الا اذا كان السلطان أو أحد أبنائه معهم. ولذا كانت أهم الحروب والغزوات تحت أمرة السلطان وقيادته أو قيادة أحد أبنائه ، لأنه ان لم يخرج بنفسه أو ينيب عنه ابنه فان الانكشارية التي هي الدعامة الأولى في الحرب لاتتحرك من ثكناتها للحرب [3] .

ولذلك نلاحظ أن الخلل تسرب الى الدولة من خلال عناصرها الأساسية وذلك عندما أتى بعد السلاطين الأقوياء سلاطين ضعفاء كانت أوضح صفاتهم الخجل وعدم الكفاءة ، فأسندوا السلطة الى الصدور العظام والوزراء [4] .

وقد ظهر ذلك جليا عندما غير السلطان سليمان الأول هذه السنة الحميدة وأجاز للانكشارية القتال تحت إمرة قائدهم الأكبر ولو لم يكن السلطان موجودا فكان هذا التغيير سببا في تقاعس أغلب من جاء خلفه من السلاطين عن الخروج من قصورهم وتفضيلهم البقاء بين غلمانهم وجواريهم على مختلف الأجناس على الخروج للقتال وتكبد المشاق [5] .

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٤ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٤٠ .

(٣) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٥٢.

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٥٢.

اضافة الى ذلك عندما بلغت قوة الدولة درجة الكمال في عصر السلطان سليمان ، احتجب السلاطين عن الناس وتركوا الحضور الى الديوان مع أنه قبل ذلك كان السلطان يحضر الى الديوان ، ويلقى السمع الى الأمور من وراء حجاب، وكان منصب الصدارة لايوجه الا لمن تثبت لياقته وأهليته بين الوزراء ، واستعمل في السنجق ، ثم في امارة الولايات ثم في امارة أمراء الأناضول ثم في امارة أمراء الروم ايلي ، وجرب أحوال العالم ، لايأخذ هدية ولا رشوة على توجيه المناصب ،بل كان الاستحقاق سائدا والأهلية معمولا بها [١] .

لكن السلطان سليمان الأول خالف أسلافه حينما عين لمقام الصدارة رأسا ابراهيم أغا بعد أن أصبح الوكلاء بمثابة آلات في يده والا لم يكن نصب ابراهيم أغا الذي تربى تحت أنظاره مضرا بالدولة في زمانه ، إلا أن هذا العمل كان مثالا سيئا احتذى من بعده ، حيث أخذ خلفاؤه سلاطين عصر الدولة الثاني هذا العمل سنة وساروا عليه ، حيث أخذوا يعينون في مناصب الوزراء من يرغبون فيه بالرغم من أن بعضهم كان من الشباب غيرالمجرب لأمور الحياة، ولعدم معرفتهم بادارة هذه المناصب السلطانية فانهم كانوا يصدرون أحكامهم عن عدم خبرة أو معرفة بل حسبما يرونه ومن غير أن يقوموا باستشارة أهل العلم والمعرفة، وغير مراعين في ذلك للأحكام القانونية . فاختلت أنظمة الدولة وتبدلت قوتها ضعفا .

ومعروف أن اسناد الأمور لمثل هؤلاء مخالف للقاعدة الكلية المبنية على منطق الآية الكريمة ﴿ ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ [٢] .

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) سورة النساء آية (٥٨).

ومن جملة مالوحظ أيضا على سلاطين هذه الفترة أن السلطان سليم الثـاني الذي خلف والده السلطان سليمان الأول ماكاد يجلس على كرسي السلطنة حتى ولي أحد أغوات الانكشارية قائدا للبحرية ، وحيث أن هذا الرجل كان يجهل أمـر البحر فقد كان سببا في حرق الأسطول الهمايوني في مرسي (ليبانتو)(١) .

وبمـا أن الموضـوع هـو خلـل السـلاطين ، اذ لايهمنـا استعراض أعمـالهم السياسية ، بقدر مايهمنا استعراض أسباب ذلك الخلل ، فانه اضافـة الى ماسبق ، فقد كانت الفترة الواقعة بين وفـاة السـلطان سـليمان الأول (القـانوني) في سـنة ٩٧٤هـ/١٥٦٦م حتى تولية السلطان سليم الثالث في سـنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٧م وهي مايقارب مائتين وثلاثون سنة حكم الدولة خلالهـا سـبعة عشـر سـلطانا كـان منهم ثلاثة سلاطين (٢) على درجة عالية من الكفاءة أما السـلاطين الآخـرون فقـد كانوا يتصفون بالضعف . كما أنهـم كـانوا لايمارسـون الحكـم الا بواسـطة وزراء كانوا مثالا للفساد والانحدار .

وكان بعضهم قد وصل الى الحكم وهم صبيـة صغـار مثـل السـلطان أحمـد الأول ، والسلطان عثمان الثاني ، فانهما وصلا الى السلطة في سن الرابعة عشـرة فكان مصير السلطان عثمان الثاني القتل ، كما تولى محمد الرابع بعد وفـاة والـده في السنة السادسة من عمره (٣) . ومن السلاطين من كان معتوها ، مثل مصطفـى

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ٣ ، ص ١٠٣ .

(٢) { محمـد الثـالث (١٥٩١-١٦٠٣) ، و محمدالـر ابـع (١٦٢٣-١٦٤٠) مصطفـى الثـالث (١٧٥٦-١٧٧٣) } .

عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٣ .

(٣) عبدالعزيز نوار : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

، خلف دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، ص ٦٢ .

الأول ،وكم سلطان عزل عن منصبه بمهانة وتحقير، كما كان عدد من السلاطين قبل أن يتولوا العرش مجردسجناء في ظلمات سوداء انعكست هذه الفترة المظلمة على سلوكهم خلال حكمهم للدولة ، فمنهم من كان شديد الإسراف في المظاهر و المظالم والقتل ، ومنهم من شغل بالقنص والنساء والشراب وسطى على مالية الدولة وأخذ الرشوة وباع المناصب [1] ، والحق انه قد ظهر في نهاية عصر السلطان سليمان الأول (القانوني) إبقاء الأمراء بجانب الحريم بدلا من قيامهم بادارة حكم الأقاليم وقيادة الجيوش وتمرينهم على الحروب [2] ، وبالرغم من أن السلطان سليم الثاني كان يتدخل من وقت لآخر في ادارة شئون الدولة ومحاولة ضبط الأمور ، الا أنه قضى جل سنوات عمره بجانب نساء القصر ، تاركا حكم البلاد في يد الصدر الأعظم محمد صوقللي [3] . وكانت النتيجة هي أنه " بدأت سلطة الحريم " ، كما ذكرت من قبل ، والتي برزت بشكل واضح في هذاالعصر ، عصر الخلل في الدولة العثمانية وضعف السلاطين ، وذلك بعد أن تخلى السلطان عن تدريب أبنائه على الحروب وادارة الولايات ، فركن الأمراء الى حياة الترف والنعيم وقضاء حياتهم بين حريم القصر دون أن يكتسبواعلماً أو خبرة تفيدهم عند توليهم سلطنة البلاد[4] .

وهذا يعني أن الأمراء من أبناء السلاطين قد ركنوا الى الدعة حتى اذا وصلواالى عرش السلطنة فانهم ليسوا على مستوى عرش الخلافة [5] وكان لنساء

---

(١) عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية . ص ١٥٣-١٥٤.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن . ص ٩٤-٩٥ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ١٤٨ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق . ص ١٤٨ .

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٢٧٠.

. محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني . ص ٨٠ .

البلاط تأثير قوي على السلاطين وخاصة السلطانة الوالدة [١] وهؤلاء الحريم كن في غهد السلاطين الأول في شبه عزلة عن بقية الخاصة السلطانية ، وكن قليلات التأثير على تسيير أمور الدولة [٢] .

ولكن منذ عهد السلطان سليمان الأول بدأ تأثير الحريم على السلطان وسياسته اذ وقع تحت تأثير زوجته خرم سلطان المعروفة باسم (روكسلانا) التي تدخلت للتآمر ضد ابنه الأكبر الأمير مصطفى من زوجة أخرى ، وعلى أثر هذا التآمر قتل الأمير لتضمن لابنها سليم الثاني العرش بعد وفاة والده [٣] .

ولكن عندما بدأ الضعف يدب في جسم الدولة أصبح تدخلهن واضحاً ، وكان ذلك يعد من أهم الأسباب في فساد نظام الدولة وانحلالها . فالسلطان مراد الثالث (٩٨٢-١٠٠٤ هـ/١٥٧٤-١٥٩٥م) وقع تحت تأثير حاشيته وندمائه وخضع لسيطرة والدته وزوجاته وكبيرة وصيفات القصر ، وأخذ هؤلاء النسوة في التدخل في شئون الدولة العامة لتحقيق مصالحهن الخاصة ، وعملن على اجبار رجال الدولة بما فيهم الصدر الأعظم على تنفيذ رغباتهن ، وكن يدبرن المؤامرات ضد من يرفض تنفيذ رغباتهن [٤] .

وهذا على سبيل المثال لا الحصر ، بل أكثر النماذج أو الأمثلة الواردة أصبحت أحداثا متكررة تحدث طوال فترة ضعف الدولة العثمانية سواء ماسبق منها أو ماحلق على شاكلة ذلك ، وخاصةً حينما تولى المناصب العليا وزراء جهلة

---

(١) عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٤ .

(٢) أميرة المداح : العثمانيون والامام القاسم بن محمد بن علي في اليمن . (الطبعة الأولى ، جدة ، مطبوعات تهامة ، ١٤٠٢هـ) ص ١٥٠ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٠٢ .

(٤) أميرة المداح : المرجع السابق ، ص١٥٠.

لايعرفون شيئا عن أحوال سياسة الدولة ، وليست لهم تجربة سابقة بأمور الإدارة في الدولة ولايهتمون بشيء من الإصلاح ، وكان بعضهم ينتمون أصلا الى عناصر أجنبية لايهمهم مصلحة الدولة .

كما كانت قصور السلاطين والوزراء وكبار رجال الدولة مملوءة بالأجنبيات من الجواري والسبايا الحسان ، وكان بعضهن عيونا لدولهن لكشف مواقع الضعف في الدولة العثمانية لدولهن [١] ، وأهمل بعض السلاطين عقد الديوان الذي اقتصر على المراسيم والأعمال المظهرية ، وفسد القضاء وأصبحت الأمور تسير فيه بالرشوة لا كما كان بالعدل في عصر سلاطين الدولة العثمانية الأول [٢] .

ونتيجة لذلك تسرب الخلل والفساد الىطبقة العلماء الذين كانوا يأتون في المرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان ، فقد كانت السلطة القضائية في يدهم ، فالكتاب والسنة هما مصدر التشريع ، فاذا قال العلماء في قضية هذا أمر ا لله قال الكل السمع والطاعة فلا يخالفه أحد [٣] .

لهذا كان من حق كل عثماني الانتظام في هيئة العلماء والقيام بتدريس الطلاب في مدارس ملحقة بمساجد المدن الهامة معروفة باسم (صوفت) حيث يدرس فيها الطلاب اللغة العربية والفلسفة والفلك وعلوم الدين ، ثم يعقد لهم امتحان يختار فيه المتقدمون للاستمرار في الدراسة لاعدادهم لمناصب القضاء ، أما البقية الباقية فيلحقون أئمة للمساجد .فيخضع المختارون لبرنامج دراسي مطول ، ويخضعون كذلك لامتحانات متتالية حتى يصل كل منهم الى درجة ملازم ، وهي

---

(١) محمد كمال جمعة : انتشار دعوة الشيخ محمد عبدالوهاب (الرياض ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص ١٢ .

(٢) عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٤ .

(٣) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

أول رتبة في سلك القضاء ، ومن هؤلاء الملازمين يختار القضاة ونوابهم ، أما من يريد رتبة مدرس فعليه أن يواصل دراسته التي تصل مدتها الى سبع سنوات فوق دراسته العادية ، ومن شروطها أن يجتاز الدارس امتحانا صعبا باشراف مفتي الدولة نفسه ، ومن هؤلاء يتم اختيار من يشغلون مراكز القضاء العليا بعد التأكد من اتقانهم لعلوم الشريعة الاسلامية (١) .

وحين اختل نظام العلماء اختلت معه الطرق العلمية للتدريس وبالتالي اختل النظام الأساسي لاختيار الملازمين والقضاة ، فدخل في هذه المهنة أشخاص غير مؤهلين لوظائف الملازمة والقضاء (٢) بعد أن كان العلماء الحقيقيون يصلون الى مراكزهم بعد اجتياز عدة مراحل من التعليم والامتحانات فتسرب الخلل الى هذه الهيئة لأن هذا العصر عصر الخلل ، فكان أولاد العلماء يعفون من الدراسة المنتظمة ، ويمنحون الاجازات العلمية دون أن يعقد لهم الامتحان وهم في بيوت آبائهم ، اضافة الى بعض المناصب العلمية التي كانت تمنح لهم كانعام ، فقد وصل كثير من ذلك الصنف الى قمة هيئة العلماء دون مشقة أو عناء (٣) .

ومن مظاهر ذلك الاختلال في طبقة العلماء أنه أصبح القضاة يبيعون أوراق الملازمة لمن يريدون فيصبحون ملازمين بواسطة الدراهم والدنانير ، وفي مدة قصيرة يصل هؤلاء الى وظائف القضاة والمدرسين ، ونتيجة لذلك امتلأت المدارس بالجهلة (٤) .

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٢٨-١٢٩ .
، محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٤١ .

(٢) أحمد جودت باشا : المصدرالسابق ، ص ١٢٥ .

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٨٠ .
، أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٤) أحمد جودت باشا : المصدر السابق .

ولعل هذا هو السر في وجود مجموعة ضمن هيئة العلماء في ذلك العصر تتصف بالجهل للاسلام وأحكامه (١) وذلك بعد أن أهمل أمرالتقدم والامتياز في العلم والاستحقاق والأهلية في العمل ، واعتبر أمر الأقدم فالأقدم قاعدة استثنائية تعرف باصطلاح المدرسين (بالظفرة) ، وهي أن المنتسبين الى ذوي الشرف والمتذرعين بواسطة ذوي الشفاعة من المقربين كانوا يتقدمون على كثيرمن القدامى، وهذه القاعدة أيضا أخذ بها في تعيين رتبة الصدور والموالي (٢) .

وهنا نورد للقارئ تقريرا لبيان ما آلت اليه هذه الهيئة من فساد . وقد كتب هذا التقرير عبدالله أفندي الحائز على رتبة قاض روم ايلي في نظام الدولة حيث قال مانصه : " ان كثيرا من الذين أدخلوا في سلك التدريس نالوا المولوية، ثم ترقوا الى رتبة قاضي عسكر الرفيعة من دون استحقاق ولا قابلية ولا أهلية ولا فائدة تحصل منهم للدولة ، ومع ذلك فانهم يرون ذلك قليلا عما يستحقونه ، ثم انهم يتفاخرون ببلوغهم الى رتبة قاضي عسكر فيظهرون الجبروتية ويتكبرون ويصرفون أوقاتهم في ذكر مساوئ بعضهم والقيل والقالات في حق بعضهم الآخر، فلاشغل لهم الا هذا ، حيث أن هؤلاء بلغوا الى هذه الرتب السنية، فأصبحت المحافظة على مقامها واعتبارها من واجبات السلطنة السنية ، ولاشك أن ادارة هؤلاء حمل ثقيل على الدولة بلا فائدة ... " (٣) . ومن هذا النص يتضح لنا مدى ذلك الجهل المطبق المنتشر بين هذه الفئة التي فُرضت على المجتمع العثماني وما ينشأ عنها من قرارات وأحكام وفتاوى .

هذه الأمور أدت الى فساد وخلل كلي للبلاد والملة (٤) .

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٠.

(٢) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

(٣) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ١٢٦-١٢٧ .

(٤) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

أما الانكشارية ، فكما تسرب الخلل الى السلاطين ثم العلماء ، فقد لحق هذا الخلل أيضا بالانكشارية ، الذين أقاموا مجد الدولة ، فكان يقيم هؤلاء في الثكنات منذ عهد السلطان أورخان ابن عثمان ، يواظبون على تعلم الفنون الحربية ومتى سار السلطان ساروا معه ، فتسير كل فرقة بلوازمها في مزيد من الرغبة والطاعة والانقياد لضباطهم فكانوا أثناء اقامتهم في الثكن لاتجول أفكارهم الا في كيفية الهجوم وانتظارهم نداء الجهاد في سبيل الله اما النصر واماالشهادة ، لانهم تربوا منذ الصغر على بذل النفوس متعطشين الى الجهاد غير مبالين بالوقوع في المهالك والمخاطر ، بل كانوا يتلقون العدو بصدورهم وقوة ثباتهم ، فكان الظفر والغلبة متلازمين لهم . فاذا عجزوا عن الحرب ، تعطف عليهم الدولة وتمنحهم معاش المتقاعدين وحينئذ يتزوج هؤلاء المتقاعدون [١] .

ويعني ذلك أن هذا العجز إما لكبر سن الانكشاري أو اصابته اصابة بالغة في الحروب ، وبالتالي لايكون لائقا للخدمة العسكرية ، الا انهم كانوا يغذون الانكشارية بابنائهم أيضا ، فكانت الممالك في ذلك الوقت محفوظة ومحروسة من الظلم والاعتداء ، والثغور الاسلامية وحدودها منيعة لايتجاوزها الأعداء ، فكان الشعب العثماني في ذلك راتعا في بحبوحةالراحة والأمن في الحرب والسلم ، فأخذت الممالك في العمران يوما بعد يوم ، فاتسع نطاق الدولة وزادت قواها ، وخاصة في عصر السلطان سليمان الأول (القانوني) .

وكما أخذ الكمال يتدرج في أيام السلطان سليمان المشار اليه ، كذلك أخذ الانحطاط يتكون في الوقت نفسه ، غير أنه لم يشعر بهذا الانحطاط أحد ، لأن الدولة كانت آنذاك في أزهى قوتها ، فأخذت الدولة في تطبيق القوانين على ما استحسنته عقول رجالهم ، وبهذه الأسباب ظهر الاختلال في نظام القوانين شيئا

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٩٧ .

فشينا ،وبعد فترة ظهرت آثاره السيئة [(١)] .

هذه القوانين التي أصدرها سليمان القانوني وطبقها وهي اجازة السلطان للانكشارية القتال تحت إمرة قائدهم الأكبر ولو لم يكن السلطان موجودا. ولقد أعطى هذا ا لنظام تقاعس أغلب من خلف السلطان سليمان من الخروج من قصورهم ، حيث فضلوا البقاء مع الغلمان والجواري [(٢)] .

ومعنى ذلك أن الانكشارية هي أساس قوة الدولة كما ينطق به تاريخ الدولةنفسه ، وسبب عظمتها ، ثم صار سبب توقفها ونكستها وضعفها قعود السلاطين في السراي عن الجهاد كما أشرنا الى ذلك سابقا ، مما أدى الى ضعف الروح العسكرية والقتالية والنظام في الجيش الانكشارى الذى كان رمز قوة الدولة[(٣)] .

لذلك كان هؤلاء الانكشاريون أخطر العناصر التي تسرب اليهاالخلل حينما قاموا بحركات عصيانية ، وتوالت هزائمهم في كافة ميادين الدولة ، وأصبحوا مصدر اضطراب وفوضى في العاصمة [(٤)] .

والحقيقة أن نظام الانكشارية تعرض نتيجة لذلك للتصدع منذ عهد السلطان مراد الثالث حين سمح في سنة ٩٩٠هـ/١٥٨٢م بدخول عدد كبير من المجندين غير المدربين في صفوفهم بالرغم من معارضة أغا الانكشارية ، ويعتقد أن مراد كان راغبا في افساد تنظيم الانكشارية بعد أن لاحظ مدى خطرهم على الدولة لقوة نفوذهم [(٥)] .

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٥٢.

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٢ .

(٤) علاء موسى ، كاظم نورس : مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية، (المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ، العدد ٢٥-٢٦) ١٩٨٢ ، ص ١٠٤ .

(٥) خلف دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجرى ، ص ٨٣ .

وهناك رواية أخرى فحواها أن السلطان مراد الثالث عندما احتفل بختان ابنه محمد ، تزاحمت الاقدام لحضور هذا الختان حتى مات منهم خلق كثيرون دهسا تحت الأرجل بسبب كثرة الحضور ، فأسهم بعض الأجلاف في حفظ النظام ، فألح عليه أقرباؤه وندماؤه بادخال هؤلاء الأجلاف ضمن صفوف الانكشارية كنوع من رد الجميل أو التشريف أو مكافأة لهم لهذاالعمل [1] ، بعد أن كانت الانكشارية منذ نشأتهم سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م الى زمن السلطان مراد الثالث ٩٨٢-١٠٠٥هـ/١٥٧٤-١٥٩٠م لايسمح بالانتظام في سلكها الا للغلمان الأعاجم فصار بعد ذلك عادة جارية يقبلون الاخلاط ، ولوكان طالب الانضمام الى الانكشارية تاجرا او صانعا أو غيرهما ، مما اعتبر نوعا من المفاخرة ،فآل ذلك الى فساد هذاالنظام خاصة بعد أن انتظم فيه الكثير بالهدايا والرشوة [2] مما زودها بعناصر فاسدة ،وذلك عندما سمح للانكشارية بالزواج والاقامة خارج ثكناتهم فأصبحوا لايهتمون بتدريباتهم وواجباتهم العسكرية ، وبهذا فقدوا قدرتهم وفنياتهم العسكرية وقدراتهم القتالية ، فانشغلوا بحركات العصيان والعنف كبديل لهذه الخدمة الشريفة التي حل محلها الشقاق والنفاق والمجاملات والمنفعة وهي الأهم، فأصبح لايأتي الانكشاري الى ثكنته الا لأخذ مرتبه أو الاشتراك في حركة عصيان ضد الدولة [3] .

وقد نتج عن زيادةالانكشارية زيادة في العبء المالي والاجهاد على خزانة

---

(١) أحمدجودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٠٤-١٠٥ .
- هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني (مجلة الهلال ج ٨ ، ١٩٠٨)، ص ٤٦١.

(٢) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، المرجعالسابق ، ص ٤٦١.

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٣ .
ارنولدتوبني: تاريخ البشرية ، نقله الى العربية نقولا زيادة(بيروت ، الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م ، ج ٢) ، ص ١٣٥.

أوصندوق الدولة كثيرا ،مما أوجد بالتالي العجز المالي أو الاقتصادي لرواتب الجند الانكشاري [1] حيث لجأت الدولة الى خفض العملة عدة مرات لكي تواجه تلافي هذه الأزمة المالية من أجل دفع رواتب الجيش التي زادت أعداده بشكل ملفت للنظر للأسباب المشار اليها أعلاه .

وهذه الأزمة أدت الى نشوب ثورات في العاصمة قام بها الانكشارية أولا، ثم تلى ذلك بسنوات قليلة أن انتقلت الثورات الى فرق الخيالة [2] وزاد هذا العجز أيضا فوضى واضطرابات الانكشارية ، ففي عصر السلطان مصطفى الثاني (١١٠٧-١١١٥هـ/١٦٩٥-١٧٠٣م) تعددت ثوراتهم من أجل مرتباتهم [3].

عندها أصبح نظام الانكشارية نظاما للارتزاق ، حتى صار لكل ضابط أو جندي تذكرة يحصل بمقتضاها على رواتب (علوفة)نقدية أو عينية ، ولما ضعفت الدولة وقصرت في دفع رواتبهم تولىهؤلاء تحصيل حقوقهم بالقوة ، أو بيع تذاكرهم لمن يدفع قيمتها ، والشاري يصبح صاحب التذكرة وبالتالي يصبح انكشاريا ، حتى وجد في قوائم أسماء الانكشارية آلاف من أصحاب الحرف والسيدات بسبب ذلك [4] .

وهكذا بُذرت بذور الفساد ، ودخل الانكشارية عناصر لايعرف أصلهم

---

(١) عبدالعزيز الشناوي : في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٧٥٥ .
. أميرة المداح : العثمانيون والامام القاسم ، ص ١٤٤ .

(٢) علاء موسى كاظم نورس : مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ، (المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ، العدد ٢٥ ، ٢٦ ، ١٩٨٢ م) . ص ١٠٤ .

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٤ .

(٤) عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٦ .
. علاء كاظم نورس ، مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ، المرجع السابق ، ص ١٠٨.

ولا منشأهم ، فكانوا بذلك علة خراب ، فتزايدت أسماء الانكشارية يوما بعد يوم،ولكن الأشخاص الذين يعول عليهم في الحرب تناقصوا وحل محلهم هؤلاء الصعاليك [١] ، فكان هؤلاء الرجال حين يطلبون التسجيل رسميا يجدون الاجراء مغريا ، فقد يحلفون يمين الانضمام ، ثم بعد ذلك يلبسون شعار كتيبتهم (أورطتهم) الموشوم على أذرعتهم وسيقانهم ، وحينما يتم ذلك فانهم يتمتعون بمركز ممتاز، فمثلا كانوا يشبهون الانكشارية الأصليين في اعفائهم من عقاب السلطات المدنية ، وكانوا يستطيعون أن يسخروا نفوذ الفرقة لمصالحهم كما أن الانكشاريين الأصليين قد حصلوا بهذه الأعداد على قوة جديدة أو اضافية تعينهم على التمرد أكثر [٢] .

فدب الفساد في الانكشارية في أول القرن الحادي عشر الهجري ، الموافق للقرن السابع عشر الميلادي بشكل ملفت للنظر ، وأخذ هذاالفساد يتزايد ويستشري وكان علة العلل هو فساد الحكم واضطراب المجتمع واختلال الجند ونظامها .

وهنا يمكن القول بأن حركات الانكشارية من ثورات وتمرد وشغب وعصيان منذ ثورتهم على السلطان عثمان الثاني (١٠٢٧-١٠٣٢هـ/ ١٦١٨ - ١٦٢٢م) حتى ثورتهم على السلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ/ ١٧٨٩//١٨٠٧م) كانت تمثل صورة واحدة ومتكررة ، من حيث الأسباب والنتائج . فقد قاد عثمان الثاني جيشا منهم وعبر بهم نهر بروث ، فهزم البولونيين المجتمعين عل نهر دينستر ، تلك المعركة التي أعادت للمسيحية الخوف والقلق

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٠٥.

(٢) علاء كاظم نورس : مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ، العدد ٢٥ ، ٢٦ ، ١٩٨٢) ، ص ١٠٨-١٠٩ .

ولكن تمرد الانكشارية وعدم انقيادهم قلب ميزان الانتصار الى نصر غير حاسم فعقد السلطان صلحا استفاد به البولونيون ، فاشتد الضيق بعثمان الثاني وقرر أن يستخدم جندا غير هؤلاء [١] ، فعزم على استبدالهم وأمر بتجنيد جيوش جديدة من ولايات آسيا ، وتنظيمها وتدريبها على القتال ، لكن جنود الانكشارية أحسوا بذلك التنظيم ، فهاجوا وماجوا وتذمروا وعقدوا الأمر على عزل السلطان عثمان الثاني ، وكان ذلك في سنة ١٠٣١هـ/١٦٢٢م فتم لهم ذلك ، وعينوا مكانه السلطان مصطفى الأول ، ولكنهم لم يكتفوا بعزل عثمان الثاني بل اقتحموا قصره وقادوه قهرا الى ثكناتهم، ثم نقلوه من ثكناتهم الى القلعة المعروفة بذات السبع قلل (يدي قلة) ، حيث كان بانتظاره داود باشا وأعوانه ، فأعدموا السلطان غير مبالين بهذاالجرم العظيم [٢] . وكان هذا أول سلطان عثماني يقتل على أيدي رعاياه ، وكانت الخمس عشرة سنة التالية عصرا مخيفا ، وذلك لأن الانكشارية والسباهية (الفرسان) قاموا بالتمرد والعصيان وعاثوا في البلاد طولا وعرضا [٣] ، وبعد هذه الأحداث الدموية أصبح للانكشارية شأن سياسي أخذوا من خلاله في اغتصاب سلطات السلطان كما أصبح أمر تصريف شئون الدولة تحت قبضتهم ، فأرهبوا الحكام وأخذوا ينصبون الوزراء ويعزلونهم على حسب أهوانهم ، فعزلوا داود باشا قاتل السلطان بعد بضعة أيام من منصبه ، وصاروا

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٢ .
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٧٨ .
. عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٥-١٥٦ .
، ارنولد توينبي : تاريخ البشرية ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .
(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .
(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٨٣ .

يمنحون المناصب لمن يجزل العطايا ، فكانت الوظائف تباع علنا [1] فأنكرت المدن كل طاعة للدولة ، وصارت العاصمة ميدانا مخيفا للمذابح البشرية [2] . ومنذ ذلك الوقت سرى انحلال الانكشارية في الولايات ، وفشل الباشوات في مواجهة أعمال العدوان التي كانوا يقومون بها [3] .

فتطورت هذه الأحداث واضطربت الولا يات بسبب تمرد الانكشارية وأعوانهم فأشهر والي طرابلس الشام استقلاله وطرد الانكشارية من ولايته فانتهج أثره والي أرضروم المدعو أباظة باشا مدعيا أنه يريد الانتقام للمرحوم السلطان عثمان الثاني شهيد الانكشارية ، فسار بمن تبعه الى أن وصل أنقره فاستولى عليها ، وصادر كل ما آل الى الانكشارية من التزامات واقطاعات ملكا للسطان ، كما أنه قام بالقبض على كل من وقع عليه بصره من الانكشارية .

فاستمرت هذه الاضطرابات والفتن الداخلية مدة ثمانية عشر شهرا متوالية شعر بعدها المفكرون بما ورثته هذه الفوضى من انحلال الدولة وخرابها والتي شبع من جرائها بالمال المتمردون عن طريق النهب والسلب طوال هذه المدة حتى ارتبك النظام ، وصار عدم النظام هو الصفة السائدة في البلاد ، عندها أسند أمر الدولة الى على باشا صدرا أعظم ، فأشير عليه بعزل مصطفى الأول مرة ثانية، لضعف عزيمته ، ووهن قواه العقلية ، فعزلوه وعينوا مكانه السلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٢ هـ/١٦٢٣م .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٧٨-٧٩ .
، علاء كاظم نورس : مدى مسئولية الانكشارية في تدهورالدولة العثمانية ، (المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ، العدد ٢٥-٢٦، ١٩٨٢) ، ص ١٠٤ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٣ .

(٣) علاء موسى كاظم نورس : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

وحينما تسلم مراد الرابع سلطنة البلاد كانت الدولة تواجه اخطارا وكوارث اذ كان يصل من كل أجزاء الدولة رسائل وتقارير جامعة أنباء غير سارة، فهؤلاء الفرس يرابطون على الحدود ، أما الثائر أباظة باشا [1] صاحب الأمر والنهي في آسيا الصغرى فقد استولى عليها ، وهناك بعض القبائل الخارجة عن طاعة الدولة علنا ، كما أن حكام مصر والولايات الأخرى آنذاك أصبح ولاؤهم يتأرجح ، وليس هذا فقط ، بل ان الأساطيل القوقازية المغيرة لم تكتف بما كانت تسلبه باستمرار على طول البحر الأسود ، فأخذت تنتقل الى البوسفور ، وراحت تنهب الأماكن القريبة جدا من العاصمة .

أما في اسطنبول نفسها فان الخزينة كانت خاوية ، ودار الصناعة معطلة والنقود قليلة القيمة لانخفاض قيمة الذهب والفضة فيها لتلافي النقص الحاصل أثناء سكها ، كما أن مخازن الذخيرة كانت تفتقر الى الذخائر والمعدات العسكرية، وسكانها في حاجة للغذاء ، أما الجند فانه بلغ بهم الفجور أقصى مراحله[2] ، فكان السلاطين يخشون الدخول في ذكر مسألة الاصلاح لهذه المسألة الخطيرة خوفا من الانكشارية حتى قال يوما الصدر الأعظم للسلطان مصطفى الثالث :" أفندم ان هذا الجيش لاينفع العصر ، وضروري من ايجاد النظام الجديد " . فاندهش ا لسلطان ونظر يمينا وشمالا هل موجود في محضره من يفشي هذا القول للانكشاريين ، ثم قال: " ان جيشنا عظيم " يريد بذلك اخفاء هذا الخبر ، وغمز الى الصدر الأعظم بالسكوت ، وبعد هذا المجلس طلب الصدر الأعظم بمفرده وقال له : " انك قلت قولا عظيما يخشى منه الخطر ، أما أنا ففي حيرة من قبل توليتي السلطة

---

(١) محمد فريدبك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٧٩ .

(٢) علاء موسى نورس : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (المجلة المغربية السنة التاسعة ، ١٩٨٢ ، ع ٢٥-٢٦ ، ص ١٠٦) .

بسنيـــــن عديدة في مسألة اختلال الجيـش ، ولكـن خوفـا مـن الخطـرات العظيمـة أخفي هذا الداء في جوفي كالقروح " . ثم سـأل يومـا أحـد رجـال الدولـة جنديـا انكشاريا ماذا تقول في ا لنظام الجديد ؟ فكان جوابه : اننا ماكفرنا ولن نكفر ،يريد القول أن اتخاذ النظام الجديد ضرب من ضروب الكفر (١).

والحق لانريد أن نسهب في ذكر ضروب الفساد الذي حل بالانكشـارية ، الذين تحولوا من أداة فعالـة لبنـاء الدولـة الى معـول هـدم وهزيمـة وتخريـب وفسـاد استمرت تمرداتهم خلال القرن الثاني عشـر الهجـري الموافـق للقـرن الثـامن عشـر الميلادي ، وقد أوردنا بعض النماذج منها، ولكن أخطرها تلك التي حدثت في عهد السـلطان أحمـد الثـالث ، اذ تمكـن الانكشـارية مـن فـرض سيطرتهم التامـة علـى العاصمة في سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م (٢) . وظلوا لمدة ثلاثـة أيـام متتاليـة يطـالبون برأس الصدر الأعظم ،وعدد من كبـار رجـال الدولـة على مختلـف القطاعـات ، وذلـك لأسـباب الانتصـارات الـتي أحرزهـا الصفويـون ضـد القـوات العثمانيـة في أراضيهم مما سبب اضطرابا وهياجا في العاصمة العثمانية (٣) .

وقد اضطر السـلطان أحمـد الى أن يسـتجيب لمطلبهـم خوفـا مـن أن يطيـح تمردهم بعرشه ،ولكن الشيء الذي خاف منه وقـع ، حيـث أعـدم الصـدر الأعظـم واثنان من أعيان الدولة ، وبالرغم من انصيا ع السلطان أحمد لهم وتسليمه بمـــــا

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني . ص ٨٤ .

(٢) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية . ١٩٨٢ . ج ٢ . ص ١٤١-١٤٢.

. عـلاء موسـى كـاظم : مـدى مسئولية الانكشـارية في تدهـور السـلطة العثمانيـة (المجلة التاريخيـة المغربية . السنة التاسعة . ١٩٨٢م . ع ٢٥-٢٦) . ص ١٠٦ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٣١٨-٣١٩.

علاء موسى كاظم : المصدر السابق . ص ١٠٦ .

طلبوه لم يمنعهم من التمرد والعصيان ، فأعلنوا اسقاطه عن العرش [١] .

وهكذا توالى تمرد الانكشارية حتى أصبحوا ثقلا كبيرا على كاهل الدولة وصار كل سلطان يحاول التخلص منهم أو استبدالهم[٢] ، وعندئذ يثورون عليه فيعزلونه أو يقتلونه ، حتى أصبح هذا ديدنهم أو شعارهم ضد كل اصلاح ، رؤوس تريد المنفعة والسلطة ، وأفكارها محدودة لاتهمها مصلحة الدولة بل كانت الدولة ضحيتها [٣] . حتى عزم السلطان سليم الثالث على استبدالهم لاستبدادهم في أمور الدولة ، حيث يعزلون ويولون كما يريدون [٤] . ونتيجة لذلك لحق بالدولة العثمانية في المجال الخارجي طوال القرن الثاني عشر الهجري الموافق القرن الثامن عشر الميلادي هزات خطيرة من الدول الأوربية [٥] .

فكان التوقف والركود ، بعد أن بلغت الدولة العثمانية شأوا رفيعا منذ عهد السلطان سليمان الأول من النصر والاتساع سببا أدى الى انكماش الدولة وتدهورها ، وكثرت هزائمها التي أصابت الجيوش العثمانية ، وعقدت معاهدات تتلوها الأخرى لم تجن منها الدولة غير الذل والعار ، وفقدت اجزاء من ممتلكاتها ، لضعف بعض السلاطين وجهل الحاكمين وحمق السياسيين .

ولا ننسى كما سبق أن هناك رجالا كانوا يصلحون ويدعمون ، وقد

---

(١) علاء موسى كاظم : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ، ١٩٨٢ ، ع ٢٥-٢٦) ص ١٠٦ .
، كامل باشا : تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ، ج٢ ، ص ١٤١-١٤٢.

(٢) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني (مجلة الهلال ، ج ٨ ، س ١٧ ، ١٩١٨) ص ٤٧٦.

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٤ .

(٤) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ،المرجع السابق ، ص ٤٦٨ .

(٥) علاء موسى كاظم : المرجع السابق ، ص ١٠٦-١٠٧ .

أصابت العساكر بعض الظفر ، ولو أن ذلك كان قليلا في عصر الدولة الثاني[1] .

وكل هذا وقع بعد الانتصارات التي أحرزها الأتراك العثمانيون عندما حملوا راية الاسلام ،وساروا بفتوحاتهم صوب الغرب ، ولماداخلهم الغرور جنحوا الى الكسل ، وتهاونوا في الأخذ بمبادئ الاسلام الداعية للعمل والجهاد ، ومسايرة الزمن وتطوراته ، فانشغلوا بخلافاتهم وشهواتهم ، وأصبحوا في غفلة من الحوادث العالمية وعما يخبئة القدر عندما قنع السلاطين العثمانيون بما حصلوا عليه من نصر حربي ، وهذه للأسف من الأسباب التي ساعدت على الركود[2] ، اضافة لما سبق.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت عوامل الضعف تتسرب الى كيان الدولة وبنيتها الداخلية بشكل تدريجي وملحوظ ، ولم تظهر آثار هذه العوامل الا في سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٣م أثناء حصار فينا الثاني ،وما أعقبه من انسحاب الجيش العثماني[3] .

وكان انهيار الجيش العثماني بعد فشله في الاستيلاء على فينا مؤشرا أو نذيرا بفترة قادمة جديدة في علاقة الدولة مع دول أوربا التي اتخذت سياسة هجومية بعد أن أدركت ضعف الدولة العثمانية[4] .

وكانت النتيجة انتصار المسيحيين على الجيش العثماني فى عهد السلطان مصطفى الثاني ، لاختلاف الجيش العثماني وعدم تنظيمه . كما أن جزءا من الجنودالانكشاريين تمرد في ذروة المعمعة بالرغم من ثبات البقية الباقية من الجيش ، ولكنهم لم يستطيعوا الوقوف أمام التحالف الصليبي ، وبعد هذه ا لكارثة لم يكن

---

(١) حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ٢ ، ص ١١٤-١١٥ .

(٢) محمد عبدا لله بن ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ/١٩٧٢م) ، ص ٢٢-٢٣ .

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد ، حياته وأحداث عهده ، ص ٢٧ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٥٥ .

أمام الدولة الخيار الا البحث عن السلام بغض النظر عن الهزيمة التي تلقاها الجيش العثماني وقواده ، ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية يتم التوقيع على معاهدة مثل معاهدة (كارلوفتز) التي عقدت في سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م على نهر الدانوب ، والتي خسرت فيها الدولة العثمانية ولاية بأكملها هي المجر، وتراسلفانيا، وكانت هذه المعاهدة هي الأولى التي خرجت منها الدولة خاسرة .

وقد كان هذا الاتفاق ايذانا ببدء عصر جديد من تاريخ الشرق ، وانسحب الأتراك الى فينسيا ، ولم يكن الأمر مجرد خسارة العثمانيين لأقاليم واسعة بل كان تحطيما لآمالهم وتفوقهم العسكري ، فظهر الخلل واضحا وجليا في أنظمة الدولة العثمانية وفي التكتيك العسكري أمام تفوق النمسا أوالتفوق الأوربي على المستوى الدولي .

يقول كريزي في هذا الشأن " منذ تلك اللحظة وصاعدا لم يكن هنالك أي خوف حقيقي من القدرة العسكرية التركية" .

وقد أصبح التفكك واضحا ومستمرا في الدولة العثمانية ، كما أخذت عوامل ضعفها تزداد يوما بعد يوم ، بعد أن كانت الجيوش العثمانية متميزة بالشجاعة والقوة والمهابة (١) .

وهكذا كان صلح كارلوفتز الذي أنهى حرب مايسمى " بالعصبة المقدسة" أول سلسلة من الاتفاقات بين العثمانيين والمحالفات الأوربية المشكلة ضد الدولة مما قلب موازين القوى العثمانية من الهجوم الى الدفاع ، وقد وصف هذاالصلح بانه أول تفكيك لأوصال الدولة العثمانية ، الذي استمر ببطء منذ ذلك الوقت . وكان اعتراف العثمانيين بالتنازل عن أراض كانت تشكل جزءا من

---

(١) William Stearns Davis: A Short History of the Near East, pp.271-272.

أملاكهم متزامنا مع بداية الانسحاب الفعلي العثماني من أوربا [١] .

وفي (سنة ١١٨٢-١١٨٨هـ/١٧٦٨-١٧٧٤م) خسرت الدولة العثمانية حربها مع روسيا لأول مرة في التاريخ [٢] . وبغض النظر عن الدخول في تفاصيل المعارك الحربية التي دارت بين الطرفين ، ولكن النتيجة لهذه الخسارة هو عقد معاهدة (كوجيك كينارجي) التي حصل بهاالقرم على استقلاله ، وأمام هذا التوقف والركود بل التراجع بدأت الدولة في محاولات لإصلاح جوانب التدهور المختلفة والتي شملت النواحي الاقتصادية والعسكرية والسياسية والعلمية والنفسية[٣] . ففي الوقت الذي كان فيه العثمانيون قد وضعوا أيديهم على مفاتيح الطرق العالمية الكبرى آثروا سياسة العزلة والانكفاء فعملوا على قتل كل فكرة اصلاحية جديدة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، فساعد ذلك عليا لركود والضعف ، وزاد من طمع الغرب فيهم رويدا رويدا لنشر سيادته ونفوذه واستقطاع مايريد من أملاك الدولة [٤] .

وهذا مما أدى الى ظهور اتجاه جديد في الدولة العثمانية بدعوة الى اصلاح الدولة ونظم الحكم فيها ، وهو الاتجاه المعروف بحركة الاصلاح والتجديد [٥]

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٥٨.

(٢) دخلت الدولة العثمانية في أربعة حروب مع روسيا قبل هذه المعركة انتصرت فيها جميعا .
-أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ٢٧ ، حاشية رقم (١).

(٣) أورخان محمد علي: المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٤) محمد عبدا لله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٢٢-٢٣.

(٥) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٦٢ .
علاء موسى كاظم نورس : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثانية (المجلة المغربية س ٩ ، ١٨٩٢ ، ع ٢٥-٢٦) ، ص ١٠٨-١٠٩ .

والذي واجه تحقيقه سلسلة طويلة من العراقيل ، لذلك فان الدولة العثمانية باصلاحاتها الجديدة لم تدخل في طور التأثير الا في القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي كما سيأتي في بابه [1] ، وبالتالي ظهرت المسألة الشرقية في وضعها الأخيرحين انشغل القانمون بالأمر حول السلطان بالدسانس والسعي وراء تحقيق الأغراض والأموال ، يضحون في ذلك بمصالح الدولة والصالح العام [2] . وهذا الضعف الذي أصاب الدولة في عصرها الثاني من جراء الخلل كان امتدادا لما أصاب السلاطين والعلماء والانكشارية من تدهور شامل كما مر بنا .

(1) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٦٢ .
(2) محمد عبدا لله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٢٥ .

ج - الخطة الجديدة للعالم النصراني نحو الدولة :

فشل الحلول العسكرية - الغزوالفكري- سياسة الرجل المريض :

ان الغزو العسكري هو غزو ظاهري ويمكن مواجهته بنفس الأسلوب والقوة ، أما الغزو الفكري فهو غزو خفي يعمل على تخريب المعنويات وتدمير النفوس، كما أنه يعمل على تعطيل طاقات الأمم [١] .

والغزو الفكري يكاد يكون من معطيات العصر الحديث الذي بلي بأنواع عديدة من هذا الغزو أتى بها الاستعمار وعملاؤه مع ماجاؤا به الى البلاد الاسلامية، فالغزو الفكري في التاريخ هو أن يحول العدو بين أمة من الأمم وبين تاريخهاوماضيها المجيد وسير الصالحين من أسلافها ، للتشكيك فيهم وفي معتقداتهم الاسلامية (٢) . وان مفكري الغرب ومؤرخيه من مستشرقين ومنصرين نتيجة لقوتهم المادية والعلمية التي وصلوا اليها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين اعتقدوا ان قوتهم المادية هي أصل جميع الحضارات في التاريخ كما اعتقدوا أن العقلية الغربية هي العقلية الدقيقة التأمل والتي تستطيع أن تفكر تفكيرا سليما ، أما غيرهم من الشعوب وبخاصة الشعوب الاسلامية فان عقليتهم ساذجة بسيطة وذلك على حد تعبير المستشرق جب في كتابه " وجهة الاسلام " ، ويقصد أن العقلية الاسلامية تدرك الأمور بواسطة الجزئيات ولاتدركها ادراكا كليا [٣] ، ليحل محل ذلك تاريخ العقلية الأوربية أو الدولة الغازية وسير أعلامها وقادتها ، فيشب المثقف من

---

(١) محمد جلال كشك : الغزو الفكري ، (الطبعة الرابعة ، القاهرة ،المختار الاسلامي للطباعة والنشر ١٣٩٥هـ) ص ٧ .

(٢) على عبدالحليم محمود : الغزو الفكري والتيارات المعادية للاسلام : من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الاسلامي لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦هـ ، ص ٨ .

(٣) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٩-١٣٠ .

أبناء تلك الأمة المقهورة وليس في نفسه مثلا الا مايقرأ عنه في تاريخ الدولة الغازية، وليس في خلده أبطال الا أبطالها ولا مفكرون الا مفكروها ، بل يصبح لايعرف من الحق والباطل الا مارأته هذه الأمة الغازية التي تشبع بأفكارها ومفكريها حقا أوباطلا ، فتتشوه رؤيته الحقيقية للناس والأشياء ، وبالتالي ينسى تاريخه المجيد التليد وسير الصالحين من أسلافه ، فيجنح عن حاضره ومستقبله ، ويضل عن معالم الطريق المستقيم[1] . ففشل الصليبيين في حروبهم المتوالية على الشرق الاسلامي كان دافعا للمزيد من الاهتمام بالدراسات الشرقية ، وكان القرآن أول ماصبوا اليه سهامهم ، وثنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم عرجوا بعد ذلك على خلفائه الراشدين ، ثم التاريخ الاسلامي الذي شوهوا حقائقه[2] ، مما أدى الى ازدياد التعصب الديني للحقد على الاسلام ومقاومته ، فاتجهوا الى اتجاه فكري جديد هو الاستشراق ، فقد اتخذه الغربيون المسيحيون طريقة لطعن الاسلام والتغلب على المسلمين وقد شرع نفر منهم في تعلم اللغة العربية لاحبا فيها ولكن لاتخاذها وسيلة الى قراءة القرآن ومناقشته في محاولة لتشويه معانيه وتنفير الناس منه عن طريق الهدم المعنوي في حركة ظاهرها طلب العلم والبحث وباطنها المكر والخبث[3] والكيد للاسلام والمسلمين عن طريق بتر الآيات القرآنية والمغالطة بها للتدليل على آرائهم الخاطئة من أجل تشكيك المسلمين في دينهم .

وقد ظهرت أول دعوة للاستشراق على لسان البارون " دويتز " سنة ١٠٧٥هـ الموافق ١٦٦٤م ، أي في أواخر القرن الحادى عشر الهجري السابع

---

(١) على عبدالحليم محمود : الغزو الفكري والتيارات المعادية للاسلام . ص ٨-٩ .

(٢) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق : (الطبعةالاولى الكويت . الناشر دار النشر للطباعة . ١٤٠٠هـ) ص ١٠ .

(٣) محمد عبدالفتاح عليان : المرجع السابق . ص ١٠ .

. نجيب عقيقي : المستشرقون . (الطبعة الرابعة . القاهرة . دار المعارف) ج ٣ . ص ٦١٣ .

عشر الميلادي حيث طالب بتأسيس مدرسة أو كلية ، تكون قاعدة لتعليم التنصير ويعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم أمر التنصير ، وقد ارتأى أحد أحبار الكنيسة أن يعهد الى الأروام بمسئولية تنصير الأتراك ، لكن البارون فشل في مشروعه (١) .

وهكذا يكون الغزو الفكري بالوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الصليبي لازالة مظاهر الحياة الاسلامية ، وصرف المسلمين عن التمسك بالاسلام بالعقيدة الاسلامية الصافية وما يتصل بها من أفكار وتقاليد وأنماط وسلوك (٢) .

ويتركز الدافع الرئيسي لاستخدام الغزو الفكري أنه بعد فشل الصليبيين في حملاتهم المتوالية على الشرق الإسلامي عملوا على الاهتمام بالثقافة الاسلامية ، وقد ظهر ذلك واضحا من خلال وثيقة خطيرة تلقي الضوء على تحول الصليبيين من الغزو العسكري الى الغزو الفكري ، وهذه الوثيقة تتضمن وصية القديس لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثامنة التي انتهت بالفشل والهزيمة ووقوع (لويس) أسيرا في أيدى المصريين في مدينة المنصورة ، ولم يطلق سراحه الا بعد تقديم فدية عظيمة استطاع بها الخلاص من الأسر ، وبعد أن عاد الى فرنسا أيقن أنه لاسبيل الى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ، لأن تدينهم بالاسلام دفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس والنفيس في سبيل الله لحماية دار الاسلام وصون أرضهم ومقدساتهم وأعراضهم ، والمسلمون قادرون دوما للانطلاق من عقيدتهم الى الجهاد ودحر الغزاة ، وأنه لابد من سبيل آخر وهو تحويل التفكير الاسلامي وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري . بأن

---

(١) أ.ل.شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي ، ترجمة محب الخطيب ومساعد اليافي ، (الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨هـ) ، ص ١٣ .

(٢) محمد قطب : واقعنا المعاصر (الطبعة الرابعة ، جدة ، الناشر مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، ١٤٠٧هـ) ص ١٩٥ .

يجنـــد العلماء الأوربيين بدراسة الحضارة الاسلامية ليأخذوا منها السلاح الجديد ثم يغزون به (الفكر الاسلامي) [1] .

ويعتبر لويس التاسع ملك فرنسا هو رائد حركة الغزو الفكـري لأنـه كـاد أن يذهب ضحية الحملة الثامنة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م لـولا الفديـة الكبـيرة الـتي دفعها لانقاذ نفسه ، لذا نادى بهذا الرأي وكتب به وصيته .

وهكذا تحولت المعركة مـن ميـدان السـلاح الى معركـة في ميـدان العقيـدة والفكر بهدف تزييف عقيدة المســلمين الراسـخة الـتي تحمـل معنـى الجهـاد وتدفـع المؤمنين الى الاستشهاد .

وقـد سـار الاوربيـون في طريـق تنفيـذ هـذه الوصيـة للوصـول الى الهـدف المرسوم [2] ، وبخاصة عندما تأكدوا من فشلهم في الحروب الصليبيـة وعـدم تحقيـق أهدافهم ، فقد اجتمـع رجـال الكهنـوت والسياسـة والفكـر لديهـم لمناقشـة طـرد المسلمين من الأراضي المقدسة ، ووضع الخطط التي تكفل لهم تخليص بيت المقـدس من المسـلمين وإعـادة الأراضـي الإسـلامية إلى السـيطرةالنصرانية ، فقـام القسـيس الأسباني (ريمون لول) ينادي باستخدام سلاح التنصير ، والغزو الفكري بدلا مـن الحروب الصليبية [3] .

هنـا أصبحـت الأمـور واضحـة فأسـباب الحـروب الصليبيـة أسـباب كـان ظاهرها ديني وغايتها تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، بينما كانت في حقيقتها سبيلا للسيطرة على الشرق الإسلامي بما فيه من خيرات . فتاريخ التنصـــــير المسيحي يعود الى القرون الوسطى وذلك عندما قام " ريمون لول " الأسبانــــي

---

(١) على محمد جريشة وآخرون : أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلآمي ، (دار الاعتصام) ص ١٩.

(٢) على محمد جريشه وآخرون: المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٣) مصطفى خالدي وفروخ : التبشير والاستعمار (الطبعة الخامسة ، ١٩٧٣م) ص ١١٤-١١٥.

فتولى الدعوة الى التنصير بعد فشل الحروب الصليبية في مهمتها ، وكان قد أعد نفسه بأن تعلم اللغة العربية بكل مشقة ، وطاف البلاد الاسلامية ، وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة [1] . قال ارست باكر : " وظهر أمثال ريمون لول الذي كان ينادي بوجوب استبدال الحملة الصليبية ببعثة تنصيرية وأن يقوم التنصير السلمي مقام الحملة الحربية " [2] .

ومن ا لطريف أن ريمون لول هو أول من نادى باستخدام التنصير كسلاح للسيطرة على البلاد الاسلامية واضعاف الاسلام ، وهو أول من نادى كذلك بايجاد كرسي للدراسات الشرقية الاسلامية في الجامعات الأوربية . وهكذا نشأ الاستشراق نظرا للفشل الذي آلت اليه الحروب الصليبية أيضا ، وذلك لدراسة الاسلام ونقده وتشويهه باعداد دراسات غربية عنه وعن تاريخه ، لتقديمها جاهزة حسب التفكير الغربي . وبما يخدم مصالحه ويحقق غايته للموفدين الشرقيين لمتابعة تحصيلهم العلمي في ديار الغرب ، وعودتهم الى بلادهم وجها آخر حسب التشكيل ا لجديد أو العملة التي يريدها المستعمر [3] .

ومن أهداف الاستشراق والتنصير تدبير المؤامرات والدسائس لاحداث الفتن والانقلابات في الوطن الاسلامي [4] .

ولكن لما أرادت معظم دول الغرب عقد الصلات السياسية بدول الشرق والاغتراف من تراثه والانتفاع من علمه والتزاحم على استعماره أحسنت كل

---

(١) أ.ل. شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي ، ص ١٢-١٣ .

(٢) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة (الطبعة الأولى ، بيورت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٠هـ) ص ١٢٦ .

(٣) اسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٤) عبدالله التل : جذور البلاء ، (ا لطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٣٩٨هـ) ص ٢٠٦.

دولة الى مستشرقيها ، فضمهم ملوكها الى حاشيتهم أمناء أسرار وترجمة مع انتدابهم للعمل في سلك الجيش والدبلوماسية في بلدان المشرق الاسلامي ، فولوهم كراسي اللغات الشرقية في كبرى الجامعات والمدارس الخاصة والمكتبات العامة والمطابع الوطنية ، ومنحوهم ألقاب الشرف عضوية المجامع العلمية ، كما أجزلوا لهم العطايا والمنح في الحل والترحال [١] .

اذا الاستشراق هو دراسة يقوم بها الغربيون لتراث الشرق وبخاصة كل مايتعلق بتاريخه ولغاته وآدابه وفنونه وعلومه وتقاليده وعاداته ، فالمستشرق بهذا الاعتبار هو الغربي ا لذي يدرس تراث الشرق ، ولابد لدراسة هذا التراث الضخم من أداة بواسطتها يصل الى بغيته المنشودة وهذه الأداة التي يجب على المستشرق اتقانها هي مفتاح الشرق أو لغة الشرق والتخصص في أبرز علومها كالآثار والتاريخ والفنون والآداب والعلوم وهي اللغة العربية وعلومها بلا ريب ، وأن الهدف من الاستشراق هو التنصير ، وهو محاولة اقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الاسلام واجتذابهم الى الدين المسيحي [٢] .

فكانت الحروب الصليبية أحد منابع الاستشراق ، فأطلعت الغربيون على مواطن الضعف في دينهم ، فكانت المقارنة بين الاسلام وبين أديانهم تحتاج الى نظرة شاملة فاحصة أو التعديل ، وهذا ما أسماه الغرب بحركة الاصلاح الديني ، ثم كانت الرغبة أيضا في التبشير بالمسيحية في الشرق ، كل هذه الأمور استلزمت منهم دراسة اللغة العربية على أيدى المستشرقين ، ومن هنا تلاقت وجهة

---

(١) نجيب عفيفي : المستشرقون ، ج ٣ ، ص ٦٠٤.
– محمد حسين الصغير : المستشرقون والدراسات القرآنية (الطبعة الأولى ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣هـ) ، ص ١٨-١٩.

(٢) محمد حسين صغير : المرجع السابق ، ص ١١ ، ١٥ .

الاستعمار والتنصير والاستشراق [1] .

وقد بدأت محاولات الغزو الصليبي الحديث في القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي بعد سقوط مدينة غرناطة آخر ا لمعاقل الإسلامية في الأندلس سنة ٨٩٨هـ الموافق ١٤٩٢م بعد عدة حروب وسلسلة من المعارك ضد المسلمين وقد بارك البابا هذا الانتصار الصليبي وشجع المسيحيين على متابعة طرد وتعذيب المسلمين من بقية بلاد الاسلام في الأندلس [2] .

ففي القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي الذي ازدهرت فيه النهضة في غرب أوربا قام الأسبان والبرتغال بأعنف وأقسى ماشهده التاريخ البشري من الإرهاب والتعصب الديني ، وهذا المثال يصور لنا ماقام به الكاردينال " خيمينيث سنيروس (Ximinez de Cesnero) وكان ذا مكانة دينية كبيرة في قشتاله (أسبانيا الحالية) فدعا إلى إكراه بقايا المسلمين الذين كانوا يعرفون بالموريسكيين على التنصير وترك الإسلام ، ولكي يقطع صلتهم بالعلوم الإسلامية أشار بحرق جميع كتب المسلمين . وقد تم بالفعل حرق ثمانين ألف كتاب من كتب العرب الإسلامية بعد جلائهم عن أسبانيا . ثم أنشئت محاكم التفتيش ليس فقط لحرق كل من لم يرتد عن الاسلام ولكن لحرق كل نصراني لايدين بالمذهب الكاثوليكي .

أما بالنسبة للأرقوان (البرتغال الحالية) فان الملك فيليب الثاني أصدر قانونا في سنة ٩٧٤هـ/١٥٥٦م يحرم على بقايا المسلمين فيها أيضا كل شيء يربطهم بالاسلام حتى لغتهم وأساليب معيشتهم ، وبلغ من غلوه أن اعتبر

---

(١) نجيب عفيفي : المستشرقون ، ج ٣ ، ص ٦١٢-٦١٣ .

(٢) محمد قطب : واقعنا المعاصر ، ص ١٨٦.

الحمامات التي أنشأها المسلمون بقايا نجسة فأصدر قرارا بهدمها [(١)] .

وإذا كان الاسلام قد أفل في سماء الأندلس فقد بزغ على أيدى الأتراك العثمانيين في بلد آخر ،وتربعوا على الأناضول سيدة البلقان بعد فتحها ثم توغلوا في جنوب شرقي أوربا أولا : لصد الغزو الفكري عن المشرق الإسلامي ، وثانيا : لنشر لواء الاسلام هناك ، حتى دانت لحكمهم كل شبه جزيرة البلقان التي تشمل اليوم كل من أراضي رومانيا ، وبلغاريا ، واليونان ، ويوغوسلافيا ، والمجر ، وألبانيا، وقد حطمت الدولةالعثمانية الأحلاف المسيحية المتعددة التي تحالفت ضدهم حلفاً حلفاً كما مر بنا في فصل سابق . فامتدت انتصارات المسلمين في أوربا وعلت أصوات المؤذنين في مساجدها ، وقد ترتب على ذلك أن اكتسب الإسلام أنصارا يقدر عددهم بعشرات الملايين [(٢)] فقامت الدولة العثمانية ضمانا لحماية المشرق الإسلامي بأن أقامت سياجا على المناطق التي تتبعها ، وذلك ضد كل محاولة للنيل من الإسلام ، إلا أن هذا السياج فيما بعد حرم هذه البلاد من الاستفادة العلمية التي تقدمت آنذاك على أيدى الأوربيين ، فظهرت آثار ذلك على البحث العلمي لدى المسلمين الذي أصيب بالتوقف والركود ، كما أصيبت الدولة بالضعف والخلل وتطرق اليها الوهن في أواخر القرن الثاني عشر الموافق لأواخر القرن الثامن عشرالميلادي ، فتكالبت عليها الدول الأوربية الاستعمارية ، وهكذا بضعف الدولة العثمانية ظهرت أطماع الدول الأوربية فيها [(٣)] .

ولم يكن عمل المستشرقين منفصلا عن أعمال المنصرين بل كانت مهمة

---

(١) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ص ١٢ .

(٢) محمد عبدالفتاح عليان : المرجع السابق ، ص ١٢-١٣.
. محمد قطب : واقعناالمعاصر ، ص ١٨٧.

(٣) محمد عبدالفتاح عليان : المرجع السابق ، ص ١٣ .

كل طايفة متممة للفئة الأخرى ، فالاستشراق تولد منه الاستعمار والتنصير [1] .

ومما هو معروف أن الاستشراق أيضا من أدوات التنصير ثم استغل فيما بعد لتحقيق مطامع الدول الاستعمارية . وقد نزل كثير من الأساقفة الى ميدان الاستشراق بقصد التنصير وتدريب المنصرين على العمل في بلاد الشرق . لهذا كان لابد من تكليف بعضهم بتعلم اللغة العربية، فانتشر تعليمها في المعاهد الدينية وبعض الجامعات وكان الهدف من دراسة اللغة العربية لرجال الدين من المسيحيين هو تخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين ويردون عليهم ببراهين من الكتب الاسلامية [2] .

لذا يرى المستشرق الألماني المعاصر " البرت ديتريش " أن المستشرق " هو الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه ، ولن يأتي له الوصول الى نتائج سليمة مالم يتقن لغات الشرق ، وكانت دوافع الاستشراق بوجه عام من خلال دراساته العربية والاسلامية دوافع متفاوتة شدة وضعفا ، اتسم بعضها بهدف تنصيري ، واتجه البعض الآخر لغرض استعماري ، أما القسم الثالث فقد اتسم باتجاه علمي ، فشكلت بذلك دوافع تنصيرية ، وثانية استعمارية ، وأخرى دوافع علمية " [3] .

والحملة الفرنسية تؤكد ماسبق من القول ، فقد صاحبها مستشرقون ومنصرون ، اضافة الى أنها صورة من الأطماع الأوربية في العصر الحديث في الشرق. ففي هذه الحملة استعان الفرنسيون بعدد كبير من المستشرقين لتحقيق الأهداف الاستعمارية ، وقد لجأ نابليون بونابرت الى اللغة العربية في منشوراته ولوائحه ، كذلك طبع كتبا في تعليم اللغة العربية بالمطابع التي جلبها معه مع

---

(١) على محمد جريشه وآخرون : أساليب الغزو الفكري ، ص ١٩-٢٠ .

(٢) محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق ، ص ٢٤-٢٥ .

(٣) محمد حسين الصغير : المستشرقون والدراسات القرآنية ، ص ١١-١٥ .

حملتـه .وكان هؤلاء المستشرقون الذين أصبحوا في هذه الحملة علمـاء متخصصـين في كثير من فروع المعرفة ، فمنهم الأثريون ومنهم المهندسون والأطباء والمترجمون ، وكان بعضهم شرقيا من مصر ولبنان وسورية . وبعد وصول نابليون الى مصر أمـر بتأليف المجمـع العلمـي المصـري، وتأسـيس مطبعـة عربيـة (مطبعـة بـولاق حاليـا) وأصدر ثلاث صحف واحدة منها باللغة العربيـة ، وأنشـأ متحفـا ومكتبـة ومصنعـا ومختبرا ، ومسرحا ، وفتح أبوابها أمام المصريين . وقد ظهر نـابليون أمـام المصريـين بصـورة المستشـرق ، فتظـاهر باعتنـاق الاسـلام وشـارك المصريـين في احتفـالاتهم الدينية، وارتدى العمامة والجبة ، وزار علماء الأزهر في بيوتهم [1] .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا لماذا أتى نابليون من فرنسا الى مصـر طالمـا أنه مسلم كما يدعي؟ هل كان يريد أن ينشر الاسلام في مصر ؟ . اذًا ماهو هدف هذه الحملة ؟

لقد أجاب على ذلك صاحب كتاب واقعنا المعـاصر حيـث ذكـر أن قـدوم نـابليون الى مصـر كـان محاولـة منـه في تنحيـة الشـريعة الاسـلامية ، وكـانت أولى المخططات التي بدأ تنفيذها بالفعل ، ولكنــه لم يسـتطع الاسـتمرار في مخططـه حتـى كشفه أحد علماء الأزهر الذي ضاق منه ومن أكاذيبه ونفاقـه ، حيـث قـال لـه في وجهه: لو كنت مسلما حقا كما تدعي لطبقت الاسلام وشريعته في بلـدك فرنسـا، بدلا من تنحية الشريعة هنا ، ومحاولة وضع القوانين الوضعية بـدلا عنهـا [2] ، ولمـا انكشف أمره امتنع علماء الأزهر عن تنفيذ أوامره ولم يستجب له منهم أحد نظـرا لتصرفاته الحاقدة على الاسـلام ، فثـار وأزبـد حينمـا رأى علمـاء الأزهـر يقـودون الشعب ضد هذا المستعمر الدخيل ، عندها قام بتصويب مدافعه المقامة على قلعـــة

---

(١) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ص ٢٦-٢٧ .

(٢) محمد قطب : ، ص ٢٠١ .

الجبل الى الجامع الأزهر ، فاقتحم بجنده الجامع الأزهر وهم يمتطون الخيل ، فدخل الجيش الأزهر وظهرت أطماع استعماره على حقيقتها ، فانكشفت للشعب المصري حقيقته وان ماتظاهر به وادعاه من حب للاسلام والمسلمين ليس بحقيقة[١]، وأن هذا متناف مع النشرة التي أرسلها من الاسكندرية الى مصر ، كما وردت في كتاب الجبرتي حيث قال : " بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لاولد له ولاشريك له في ملكه ، من طرف الفرنساوية [٢] المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر [٣] الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته،يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية.. يا أيها المصريون ، قد قيل لكم انني مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين انني ماقدمت إليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالي ، وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشئ الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ... أيها المشايخ والقضاة والأئمة و (الجربجية) [٤] وأعيان البلد قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ... ومع ذلك فان ... الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه

---

(١) محمد عبدالفتاح علي : أضواء على الاستشراق ، ص ٢٧ .

(٢) الفرنساوية : النظام الفرنسي .

(٣) السر عسكر : قائد الجيش .

(٤) الجربجية : ضباط اليكيجرية .

أدام الله ملكه " [١] . فلم يجد بونابرت حرجا في أن يعلن أنه لم يأت لاحتلال مصر بل أتى على أنه حليف الباب العالي ، وأتى لتوطيد سلطته ، ومحاربة المماليك العاصين . وقد قالها الانجليز فيما بعد عند احتلالهم مصر في سنة ١٢٠٠هـ/١٨٨٢م [٢] .كلهم مستعمرين وأهدافهم واحدة .

ومما يؤكد سوء نية نابليون أنه دخل الى مصر بدون علم السلطان العثماني الذي تبجح بحبه وطاعته وولائه ، وهذا أيضا مسلك آخر في المراوغة .

فقد أرسلت فرنسا سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨ م بونابرت القائد الشهير الى مصر لاحتلالها بغير إعلان حرب على الدولة العثمانية ، وأوصت فرنسا هذا القائد بكتمان الخبر حتى لاتعلم به انجلترا ، فتسعى لإحباطه ، وكان الهدف من احتلال مصر هو منع مرور تجارة الانجليز عبر أراضي مصر الى الهند وبالعكس [٣] . وفي أثناء الحملة الفرنسية على مصر أعدت فرنسا خطة الزحف الى الهند عبر سوريا والعراق بمحاذاة نهر الفرات لبسط نفوذها على الشرق [٤] . ولكن لم يدم الاحتلال الفرنسي في مصر سوى ثلاث سنوات ومايزيد على شهرين ، وقد تعاون الانجليز مع الدولة العثمانية لاخراج نابليون وجيشه من مصر والشام سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م [٥] .

---

(١) عبدالرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الاثار في التراجم والأخبار . (بيروت ، دار الجيل) ج ٢ . ص ١٨٢-١٨٣ .

، وانظر نسخة بتحقيق حسن محمد جوهر وعمر دسوقي والسيد ابراهيم سالم (القاهرة ، لجنة البيان العربي) ، ج ٤ ص ص ٢٨٨-٢٩١ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٧٣.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٣٧١-٣٧٣.

(٤) لوتسكي : تاريخ الاقطارالعربية الحديث ، ترجمى عفيفه البستاني (موسكو- دارالتقدم) ص ٧٦.

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٣٧٣ .

أما الوجه الآخر لسياسة نابليون وما سارت عليه أوربا منذ تفكيرها في الغزو الفكري ، فهو نبش الأرض الاسلامية لاستخراج حضارات ماقبل التاريخ لذبذبة ولاء المسلمين بين الاسلام وبين تلك الحضارات ، تمهيدا لاقتلاعهم نهائيا من الولاء الاسلامي ، وهذا هو هدف البعثة العلمية التي أتى بها نابليون الى مصر(١) ، اضافة الى ذلك أثارت أوربا الخلافات المذهبية بين المسلمين حتى يتصارعوا من أجلها وينصرفوا عن دينهم وبلادهم حتى يتسللوا بين صفوفهم لزيادة الجفوة فيستغلوا تلك الخلافات لغزو العالم الاسلامي كل على حدة .

وكان طموح نابليون الذي حققه في أوربا بعد رحيله من مصر أكبر عوض عن فشل تحقيقه في الشرق ، ثم ان الاستعمار نفسه لم يخسر شيئا فقد استطاع فيما بعد أن يحقق أهدافه عن طريق المسلمين أنفسهم (٢) .

وقد دخل الغزو الفكري عن طريق بلاد الشام ممثلا في الارساليات المسيحية من نتاج التسامح الديني الذي تميز به حكم ابراهيم باشا بن محمد علي بعد استيلائه على بلاد الشام ، فقد فتح هذاالتسامح الباب أمام البعثات التنصيرية الغربية . ويرجع وجود هذه البعثات التنصيرية الأجنبية في بلاد الشام الى منتصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، ولكن كان مجال نفوذها أو جهودها في أو ل الأمر محدودا اقتصر على انشاء عدد قليل من المدارس والمعاهد في أماكن متفرقة ، ونشر كتب العبادات وكانت البعثات كلها كاثوليكية ومعظمها من الفرنسيين وتنسب الى اليسوعيين او الكبوشيين او الكرمليين . وكان من العسير عليها آنذاك ، بحكم التعصب الشديد الذي كان يسود ذلك العصر أن

---

(١) محمد قطب : واقعناالعاصر ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٢) السيد أحمد فراج : جذور العلمانية (الطبعة الثالثة ، المنصورة ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ١٤٠٧هـ) ص ٢٧-٢٨ .

تعمل خارج نطاقها ، ولذلك اضطرت أن تحصر معظم جهودها في رعاية الطوائف المسيحية الموالية لكنيسة روما [1] . ولم يكن الشام حديث عهد بالبعثات التبشيرية، بل كانت البلاد ميدانا لنشاط الارساليات ، وذلك بسبب كثرةالمسيحيين ووجود الأماكن المقدسة بها [2] .

وقد زادت هذه الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للفرنسيين بعد معاهدة الهدنة التي عقدتها الدولة العثمانية مع ملك فرنسا شارل التاسع في سنة ٩٦٦هـ الموافقة لسنة ١٥٦٩م والتي نصت على اقامة التمثيل القنصلي واعفاء كل فرنسي من دفع الخراج الشخصي ، واعطاء القناصل حق البحث عمن يكون لدى العثمانيين في حالة الرق مع اطلاق سراحهم ومجازاة من تعرض لهم ، ورد مايأخذه قراصنة البحر من المراكب الفرنساوية ، وأن تكون البحرية ملزمة بحوادث المراكب الفرنسية التي تكون على شواطئ الدولة ، وحفظ مابها من مال ورجال وعتاد . وتكون الامتيازات الفرنسية الممنوحة لها مساوية للامتيازات الممنوحة للبنادقة . فأصبحت بهذا فرنسا ملكة التجارة في البحر الأبيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة العثمانية ، ونتيجة لهذه المعاهدات السابقة أو اللاحقة أو ماتقرر تحت مظلتها قامت فرنسا بارسال ارسالياتها الدينية الكاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة العثمانية الموجود بها مسيحيون وخصوصا بلاد الشام لتعليم أبنائهم وتربيتهم على محبة فرنسا وكان من أهم نتائج هذه البعثات حفظ جنسية ولغة كل شعب مسيحي حتى اذا ضعفت الدولة تمكنت هذه الشعوب من الاستقلال

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب . تعريب علي حيدر . (دمشق . مطبعة الترقي . ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م) ص ٩٧ .

(٢) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية . ص ٩٢ .

بمساعدة الدول المسيحية [1] . كما سيأتي .

وبعد ذلك وصلت البعثات التنصرية الأمريكية الى بلاد الشام ، وأخذت تحول بعض الأفراد من الطوائف الكاثوليكية الى المذهب البروتستنانتي وكان اتباع الكنيسة المسيحية أول من وصل من الأمريكان في سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م وكانوا يخضعون لاشراف المجلس الأمريكي لمراقبة البعثات التنصيرية في الخارج وكان هذا المجلس قد أسس مركزا في مالطة ثم أحس أن الواجب يدعوه الى مزاولة نشاطه الديني في المشرق ، فأسس في بيروت أول مركز لهم . وهذا المركز بقي من أهم مراكزهم .

أما الجمعيات الكاثوليكية فكانت جمعية اليسوعيين أنشط هذه الجمعيات ، وتعود صلتهم بالشام الى سنة ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م ، وقد استمروا في نشاطهم في الشام يقاومون الفقر حتى عطلت جمعيتهم في سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م فتشتتوا، وأغلقوا اكثر مؤسساتهم ، وسلموا الباقي للبعثات اللغازرية لتديرها ، ولكنهم عادوا في سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١ م ، وكان السبب في عودتهم وصول البعثات الأمريكية التنصيرية الى بلاد الشام والتي أخذت تحول الكاثوليك الى البروتستانت كما سبق . وقد أدى نشاطهم هذا الى اثارة روح العداوة في نفوس علماء الشريعة الاسلامية في بلاد الشام ، غير أن ذلك لم يثن من عزمهم على الرغم من العوائق التي اعترضت طريق هذه البعثات التنصيرية قبل الفتح المصري لبلاد الشام ان لم يكن عطل جهودها تعطيلا كاملا ، مما اضطر الأمريكان منذ وصولهم أن يحصروا أنفسهم داخل بيروت [2]. وذلك للحد من نشاطهم ومقاومة أساليبهم والحفاظ

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٥٤-٢٥٥ .

(٢) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ٩٨-٩٩ .
، موفق بن المرجه : صورة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة الاسلامية (الكويت ، مؤسسة صقر الخليج ، ١٩٨٤م) ص ١٦٥-١٦٦.

على طوائف الكاثوليك للانخراط في المذهب البروتستانتي . فلما جاء ابراهيم وأحدثت سياسته في الحكم كثيرا من التغييرات ، فتح ا لمجال بذلك أمام البعثات التنصيرية ، فتقاطر المنصرون على بيروت ومنها انطلقوا الى جميع أنحاء الشام ، وكانوا جادين في افتتاح المدارس في أنحاء متعددة في بلاد الشام ، وكانت أولى منشآتهم في بيروت والقدس وجبل لبنان [١] .

وقد انطلقت حركتهم تحت ستار تحقيق الغايات الانسانية ، والتخفيف من الآلام البشرية عن طريق اقامة المستوصفات، أو مدارس التعليم ، أو تقديم المساعدات المادية الى غير ذلك من الأمور التي تهدف الى غاية أساسية وهو استعمار الغرب للشرق بتحويل آسيا الى النصرانية ثم القضاء على الاسلام وهو هدفهم الأسمى ، لأن القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف أوربا [٢] ، فلابد من العمل على أن يمحى الاسلام من العالم . هذه أمنية المنصر جب [٣] ، وقد قال المنصر وليم بالكراف : انه متى توارى القرآن ومدينة مكة المكرمة عن بلاد العرب أمكن السيطرة على الأمة الاسلامية وتحقيق الأهداف النصرانية فيها[٤] . وهذا لن يكون الا كما قال لورنس براوان : " اذا اتحد المسلمون أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا . أما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير " . أما القس سيمون فكان أوضح في التعبير حيث كان يرى أن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية . من أجل ذلك يجب أن يحول بالتنصير مجاري التفكير في الوحدة الاسلامية حتى تستطيع

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ٩٩ ، ١٠٦.

(٢) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٦ .
، مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٢٦ .

(٣) اسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٤) اسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

النصرانية أن تتغلغل في المسلمين [1] .فاذا أرادت أوربا أن تثير على المسلمين حربا صليبية جديدة عن طريق التنصير فلابد من نشر الكنائس والمدارس والمستشفيات في البلاد الاسلامية وارسال المنصرين إلى مختلف بلاد العالم ، ومن هذا المنطلق تستطيع حركة التنصير تحقيق مآربها السياسية ومطامعها الاقتصادية [2] .

ومن ثم حلت روح التنصير ونشر المسيحية محل الروح الصليبية أي أن أوربا اخذت تتجه الى غزو عقلي وثقافي فكري تستكمل به غزوها العسكري والسياسي [3] وذلك حينما بدأت الكتائب التنصيرية تتقاطر على العالم الاسلامي -كما سبق - . وكان ذلك على شكل موجات من الرهبان والراهبات الى الجزائر وتونس ومصر والشام ، بدعوى افتتاح المدارس والمستوصفات فكان هؤلاء أوائل الكتائب لجيش وجهته البابوية في غزو فكري يستهدف العالم الاسلامي ، وهذه الإرساليات التبشيرية لم ترسل الا تمهيدا لانقضاض الحملات العسكرية الأجنبية على الدولة الإسلامية بهدف تصفية الحسابات القديمة منذ الحروب الصليبية [4] فانطلقت البعثات التنصيرية ساعية لتحقيق غايتها مستخدمة جميع الوسائل المتاحة لها دون تفريق بين وسيلة فكرية أو عسكرية ، فكانت طليعة الغزو الاستعماري الجديد ، واذا حدث أن احدى هذه الارساليات أشارت بأن يتقدمهاالجيش أولا لأن ذلك لم يحدث علىالتحقيق قبل القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى ، وذلك حتى يستطيع المنصرون

---

(١) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٣٦-٣٧ .
، اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٦ .

(٢) مصطفى خالد وعمر فروخ : ا لمرجع السابق . ص ١١٥ .

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ ا لمعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، ع ٣ ، س ١١ ، ص ٨١ .

(٤) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض ... ص ١٦٥-١٦٦ .

تمهيد الطريق لتلك الحملات العسكرية . وقد ظهر ذلك جليا في أواخر أيام الدولة العثمانية بعد أن بلغت من الضعف مايمكن معه اختراق سورها عن طريق القوة العسكرية [1] .

وقد عملت هذه الارساليات التنصيرية على احتكار العلم والتعليم فقامت بفتح المدارس لجميع مراحل التعليم بدءا من رياض الأطفال وانتهاء بالدراسات العليا ، ووضعت المناهج التي تحقق غايتها في جميع المناطق التي سيطر عليها الاستعمار الغربي لتتركز في أيدى النخبة التي تربت على المناهج التي وضعها هؤلاء المنصرون والتي أصبحت ترى أن السير خلف الحضارة الأوربية هو عنوان كل شيء ومصدر كل رقي وتقدم . لأن التعليم الآن هوالسلم الحقيقي للوصول الى الزعامة ، وعن طريق هذه الزعامة يمكن تحقيق الأهداف التي تخدم النهاية التي من أجلها خرجت هذه الارساليات [2] .

وحين تعددت هذه الارساليات التنصيرية وتضارب نشاطها اتفقت فيما بينها بحيث تغطي أنحاء دولة الخلافة الاسلامية [3] .

وكان الأتراك العثمانيون على حق حينما بدأوا يرتابون منذ أمد بعيد من حركة التنصير في الدولة العثمانية ، ولا غرو فان المنصر يسبق الجيش الى كل مكان [4] ، ويمهد له الطريق . وعلى الرغم من أن الدولة لم تعترف بالكنائس الكاثوليكية حتى القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ، حينما

---

(١) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٧ .

(٢) اسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٢٨-١٢٩ .

(٣) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض .. ، ص ١٦٦ .

(٤) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١١٦ .

انحصرت رعايتها بالارثوذكس الذين يتمتع بطريقهم في اسطنبول بنفوذ كبير ، وبعد اصطدام الكنائس الكاثوليكية بالارثوذكسية اصبحت هي الأخرى تتمتع بالاستقلال (١) .

وكان السبب في ذلك أن الكاثوليك بموجب الامتيازات الممنوحة لهم عام ١١١٣هـ حصلوا في الدولة العثمانية على حقوق خولتهم امتلاك الكنائس فيها. وكان الروس يسعون جاهدين لسلبهم تلك الامتيازات واعطائها للأرثوذكس لحمايتهم لهذا المذهب ، ولذلك اصطدمت روسيا بفرنسا ووقفت الدولة العثمانية الى جانب فرنسا ، ومنحتها زعامة الكنائس حسب أسبقية الامتيازات فاصطدمت الدولة مع الروس بمساعدة انجلترا وفرنسا والنمسا وانتهى هذا الأمر بمعاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م (٢) .

وبعد ذلك أخذت الارساليات التنصيرية تشد الرحال الى الأناضول مستهدفة عاصمة الخلافة وأزمير ، ثم يممت وجهتها نحو بيت المقدس فوجدته مرتعا خصبا .

لذلك عملت حركة المستشرقين على إنشاء المدارس والجامعات (٣) ، في لبنان بالتعاون مع المنصرين والارساليات التنصيرية والاستعمارية ، في محاولة منهم لغرس مبادئ التربية الغربية حتى يشبوا مستغربين في حياتهم وسلوكهم وتفكيرهم

---

(١) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض ... ص ١٦٥ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٣ .

(٣) ولمزيد من التفصيل والاطلاع على هذه الجمعيات او الجامعات وتأثير المنصرين في تأسيسها انظر :
– أنيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، حققه ووقدم له : عبدا لله الطباع (الطبعة الأولى ، بيروت ، دار ابن زيدون ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) من (ص ٨٥-١٠٠) .

وتخف لديهم موازين القيم والمبادئ الاسلامية [1] . وقد دفع نشاط هذه المدارس التنصيرية المختلفة رجال الدين المسيحيين الوطنيين في الشام على اختلاف مذاهبهم الى مضاعفة نشاطهم التعليمي بفتح المدارس ا لمختلفة من أجل المحافظة على كيانهم[2] .

ولذلك الغرض أنشأوا عدة مؤسسات تعليمية في لبنان أهمها (الجامعة الأمريكية) في بيروت سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٥م ، والتي كانت قبل ذلك تسمى باسم " الكلية السورية الانجيلية " وهي جامعة بروتستانتينية ، كان الهدف من انشائها هو تأصيل الأفكار الهدامة بين شباب بلاد الشام المثقفين [3] .

وبعدها بقليل أنشئت في بيروت كلية القديس يوسف ،التي تعرف اليوم (بالجامعة اليسوعية) وهي جامعة كاثوليكية ، وتدير أعمالها ارسالية التنصير الكاثوليكية في بيروت ، فكان لها الحظ الأوفر في نشر الأفكار الفرنسية في بلاد الشام [4] ، وكانت هاتان الكليتان تصولان وتجولان في ميدان الثقافة في الوقت الذي لم يكن فيه في الشام كلية اسلامية ، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه للأفكار الهدامة لتحتل عقول طلائع المثقفين الذين سارعوا للانخراط في صفوفهما[5].

وقد اشتهرت هذه الارساليات بخططها ووفرة الوسائل التي أعدتها

---

(١) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر (القاهرة ، دار الوفاء للطباعة ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ، ص ١٤٩ .

-أنيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، ص ٨٥ .

(٢) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية ، ص ٦٤ .

(٣) مصطفى محمد رمضان: المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٤) مصطفى محمد رمضان : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

، محيى الدين الخطيب : الغارة على العالم الاسلامي ، ص ٨ .

(٥) مصطفى محمد رمضان : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

وتسلحت بها لمقاومة دين الاسلام [1] . وكان الطلاب المسلمون في الكلية الأمريكية يجبرون على الدخول يوميا الى الكنيسة التابعة للكلية الأمريكية ليشهدوا بعض الطقوس المسيحية ، حتى احتج بعض الطلاب المسلمين الغيورين على اسلامهم في سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م .

فأصدرت الكلية في بيروت منشورا ردا على احتجاجهم جاء في مادته الرابعة مايلي :

" ان هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي هم اشتروا الأرض وأقاموا الأبنية ، وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه ولايمكن للمؤسسة أن تستمر اذا لم يسندها هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليمات يكون الانجيل من مواده فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ ... وهكذا نجد أنفسنا ملزمين بأن نفرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ... ، وان كل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقا ماذا يطلب منه ..."[2] .

ثم تلى ذلك أن أعلن مجلس أمناء الكلية في هذه المناسبة " ان الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني ولا لبث الأخلاق الحميدة ، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة ، وأن تكون مركزا للنور المسيحي وللتأثير المسيحي ، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به " [3] .

وهنا يتجلى لنا أهداف هذه المؤسسات الغربية المسيحية واضحة وسافرة ليعلم كل مسلم مدى تأثير هذه الأفكار الغربية التي تتعرض لها البلاد الاسلامية ،

---

(١) محيي الدين الخطيب : الغارة على العالم الاسلامي ، ص ٨ .

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١٠٥ .
، مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ١٥٠ .

(٣) مصطفى خالدي وعمر فروخ : المرجع السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .
، مصطفى محمد رمضان : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

والتي لاتخلو عاصمة اسلامية من بعض ا لمعاهد البروتستانتينية ، والكاثوليكية أو مدارس للارساليات الأجنبية المتعصبة [١] .

وكانت الارساليات الأمريكية في المقدمة رغم تأخر وصولها عن ارساليات اليهود الانجليز الذين استهدفوا اسطنبول وأزمير وسالونيك [٢] ، فتنبهت الدولة العثمانية لهذا التحرك فأخذت تراقب المنصرين مراقبة دقيقة حتى تضيق عليهم الخناق في تلك المناطق ، وكانوا يخشون من المنصرين البروتستانت لأن هؤلاء كانوا يتوارون خلف العلم البريطاني ، ثم أيضا من المنصرين اليسوعيين لأنهم يشتغلون لحساب السياسة الفرنسية، فأخذت تقاوم المنصرين في جميع أرجاء الدولة العثمانية، وتحول بين المنصرين وبين وصولهم الى بلاد العرب ، ثم وقفت الدولة من المنصرين كلهم موقفا حازما حتى أصبح التنصير في الدولة العثمانية مستحيلا للرقابة الشديدة التي فرضتها عليهم . فعندما فتحت الجمعية التنصيرية بضع مدارس في (لبنان) لأطفال الدروز في عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م أجبرتها الحكومة العثمانية على التخلي عنها أمام الحزم العثماني ، على أن الدولة لم تستطع أن تتخذ سياسة علنية تجاه المنصرين لأن هؤلاء في بادئ الأمر كانوا يأتون في الظاهر كرعايا انكليز أو أمريكيين أو دنمركيين أو فرنسيين . فاذا استقروا في الدولة أخذوا يدعون سرا الى النصرانية ما أمكنهم ، لذلك كان هؤلاء اذا وجدوا مضايقات من الدولة لجأوا الى قناصلهم ، وكانت هذه القناصل تدافع عنهم كرعايا أجانب في الظاهر أيضا . ولكن عندما صعب على البروتستانت الوصول الى المسلمين التفوا حول الأرثوذكس والأرمن ، فلجأ بطريق الأرمن الى الباب العالي فحرص الباب العالي على حماية الأرمن من المنصرين البروتستانت ، فتدخل السفير البريطاني فأخذ

---

(١) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ١٥٠ .

(٢) موفق بن المرجه : صحوة الرجل ا لمريض... ص ١٦٦ .

يسعى لدى العثمانيين حتى استطاع سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م أن يحصل على مرسوم عثماني يعترف بوجود طائفة بروتستانية وطنية منحت من الحقوق مثلما منحت الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية في الدولة العثمانية (١) .

ولما أدركت الدول الأوربية أن المنصرين آلة فعالة في تأييد النفوذ الأجنبي في الدولة العثمانية أخذت الدول تتسابق في استخدام المنصرين فكانت انكلترا لها الدور الريادي في ذلك الأمر ، ولكنها كانت لاتخشى من النفوذ الأمريكي كما كانت تخشى النفوذ الفرنسي والايطالي . لكن الدولة العثمانية لما فقدت سياستها الحكيمة تجاه المنصرين ظلت تمنع الأطفال المسلمين من دخول المدارس التنصيرية قبل الانتهاء من التعليم الابتدائي في المدارس الرسمية . ثم كانت تلزم الارساليات بأن يكون التعليم الديني في تلك المدارس مقصورا على المسيحيين وحدهم .

وعندما ظهر ضعف الدولة العثمانية أخذت الدول الأجنبية تزيد في تظاهرها بدعم المنصرين . ولقد كان المنصرون يطلبون من دولهم أن تؤيدهم ولو كان ذلك مخالفا للعرف الدولي فتستجيب الدول لرغبة منصريها تأييدا لنفوذها السياسي والديني معا ، فكانت تضغط على الدولة العثمانية بين الحين والآخر حتى تلين أمام رغبات هؤلاء المنصرين (٢) . فحرصت بريطانيا على حماية ارسالياتها البروتستانية خاصة سواء أكانت هذه الارساليات انجليزية أم أمريكية أم ألمانية، لنفوذها الفعال في الدولة في ذلك الحين . وحين أرادت الدولة العثمانية منع باعة الأناجيل الدوارين من التجول في المدن والقرى قام قناصل الدول بالتدخل حتى حملوا الدولة العثمانية على السماح لهم بذلك (٣) .

تلى ذلك اغلاق الدولة العثمانية مدارس المنصرين الأمريكيين في بيروت

---

(١) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١١٦ .

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ : المصدر السابق ، ص ١١٦-١١٧ .

(٣) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض .. ، ص ١١٨ .

سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م لأن المدارس فتحت أبوابها بلا رخصة أو اذن من الحكومة . ولكن القنصل الأمريكي في بيروت تدخل في الأمر حتى سمح الوالي العثماني في بيروت على رضا باشا بأن تعود تلك المدارس الى فتح أبوابها على ألا تقبل الا التلاميذ المسيحيين فقط . ولكن القنصل مازال يسعى حتى حمل الوالي على إلغاء هذا الشرط ، مع أن أمريكا مثلا لايمكن أن تقبل لمدرسة أن تستقبل الطلاب الأمريكيين بلا رخصة ، ثم تلقنهم بعد ذلك مايخالف المبادئ الأمريكية [1] فكيف وهذه المدارس تنصر المسلمين ؟ ولكن المنصرين وصلوا الى اسطنبول منذ عام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م حتى أصبحت مركزا لأعمال المنصرين ووكرا آخر بعد الشام أمينا على نشاطاتهم ولاسيما بعد تأسيس الكنيسة البروتستانية في سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م ، ولم يكن اختيار المنصرين لاسطنبول كمركز رئيسي لنشاطهم مجرد صدفة بل لأنها كما يقول " بلس " محط أنظار المسلمين ، وعاصمة المسلمين ، وعاصمة أمير المؤمنين ، وفيها راية الاسلام على اتساع رقعة العالم الإسلامي . لذلك فقد سعت الارساليات التنصيرية للتمركز فيها بشكل أو بآخر مما ساعدها على رصد الحركات السياسية ومتابعة التطورات أولا بأول تحت شعار الخدمات الطبية والتعليمية [2] .

وعلى الرغم من أن خط كلخانة منذ صدوره في سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م لم يشر الى التعليم فان السنوات التي تلت اصداره شهدت تغيرا ملحوظا في التفكير الحر في داخل الدولة العثمانية . فقد انشئت المدارس على حساب بعض الأتراك الذين درسوا في أوربا أو زاورها ، وقد تأثروا وامتلــــــــئوا حماسة للمعاهد التي

---

(١) مصطفى الخالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص١١٩-١٢٠ .

(٢) موفق بن المرجه : صحوة الرجل ا لمريض .. ، ص ١٦٦-١٦٧ .

شاهدوها . ولهذا فانهم بعد عودتهم وضعوا الخطط لبناء المصانع دون ايجاد الرجال المدربين لتشغيلها . كما جرى الحديث عن انشاء جامعة دون وجود أي كوادر اسلامية مؤهلة للتدريس فيها . وقد بدئ في انشاء مدارس ثانوية جديدة وقليلة ، كما قامت كنيسة غلطة سراي بتشجيع من فرنسا بتوفير التعليم الغربي للأولاد من كل الملل والنحل باللغة الفرنسية والعربية كما أنشئت أيضا المدارس الخاصة للبنات ولتدريب المعلمين ، ففي عام ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م أنشئت مدرسة لتدريب الموظفين ليكونوا اداريي المستقبل يدرسون الشئون العامة والدولية .

ونتيجة لذلك التحرك من بعض الأتراك انفصلت مدارس الحكومة بصفة رسمية عن أشراف العلماء ، ووضعت تحت اشراف ادارة جديدة ذات صفة علمانية، فتوسع التعليم الحديث بشكل سريع منذ حرب القرم ، واشتمل على فروعه العالية عسكرية ومدنية ، ثم جرى تطوير مدارس الطوائف الدينية بافتتاح المعاهد العليا . فزاد عدد الارساليات الأجنبية الأمريكية والنمساوية والفرنسية والانجليزية والألمانية والايطالية (١) .

الا أن الباب العالي في آخر الستينات من القرن التاسع عشر شدد قيوده على المؤسسات التعليمية التنصيرية والتي اعتبرت مراكز لاثارة القومية والثورة لدى الأقليات الدينية . مع أن النظام التعليمي العثماني لم يجتذب الا عددا قليلا من المسيحيين ، ولكن الفترة التي تلت تطبيق قانون التعليم في سوريا من قبل الدولة شهدت سحب تلاميذ المسلمين الذين التحقوا بمدارس المنصرين . ثم تلى ذلك صدورأوامر الدولة العثمانية التي منعت الحاق المسلمين بمدارس الارساليات في حالة وجود مدرسة حكومية أو مدرسة اسلامية خاصة في منطقة الشام . فرد المنصرون

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٢١٨ .

على ذلك بزيادة عدد مدارسهم خاصة ولأنهم فسروا السياسة التعليمية الجديدة التي اتخذتها الدولة لحماية أبناء المسلمين من الوقوع في حركة التنصير والردة عن الاسلام بأنها تهدف الى شل حركتهم [١] .

ولم يكن ميدان الغزو الفكري أو التدخل السياسي عن طريق التنصير مقصورا فقط على الأمريكيين أو الانجليز أو الفرنسيين أو الايطاليين وحدهم بل ان روسيا القيصرية أرادت أيضا أن تدلي بدلوها فتنبهت أن في الدولة العثمانية طائفة أرثوذكسية ، فأرادت أن تسيطر أولا على البطارقة والأساقفة الارثوذكسيين وتتخذهم وسيلة الى تحقيق أطماعها السياسية في الدولة العثمانية عن طريق التنصير، واتجه الروس الى شراء الأراضي ، فأخذوا يشترون الأراضي في فلسطين خاصة ويقيمون عليها الأبنية حتى يتدخلوا بعد ذلك في الأمور الدينية والسياسية[٢]، وقد اقتصر نشاط الارساليات الروسية القيصرية على فلسطين فقط[٣] . على أن نزول الروس الى ميدان التنصير قد وقف في وجه المساعي الانجليزية والفرنسية والايطالية [٤] .

يتضح لنا هذا الموقف من خلال دراستنا للوثائق البريطانية التي جاء فيهاأن روح التنافس الاستعماري التنصيري بين بريطانيا وروسيا وفرنسا من خلال الارساليات والمعاهد الكنسية خدمة للأهداف التنصيرية والتي تكشف عن النفوذ الروسي في فلسطين والشام .ومن أهم عوامل روسيا بلاشك أن جهودها قدتوجت

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١٩ .

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١٢١ .

(٣) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض .. ص ١٦٧ .

(٤) مصطفى خالدي وعمر فروخ : المرجع السابق ، ص ١٢١ .

، موفق بن المرجه : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

الآن بالنجاح ا لذي جعل السيطرة والسياسة في يدها حاليا . على أساس حماية وتدعيم الكنيسة الأرثوذكسية التي يديرها اسماً الأساقفة ورجال الدين اليونانيون.

وهناك أيضا عنصر آخر هو بناء المدارس الروسية ، وتشجيع هجرة اليهود الى فلسطين بالرغم من موقف الدولة العثمانية الحازم ضد هجرة وتسرب اليهود إلا أن الروس حاولوا تهجير اليهود الى هذه المنطقة لتوطيد نفوذهم في تلك البلاد. كما كان الروس لايغفلون أيضا حمايتهم الشاملة على اليهود ليضيفوا لقوسهم السياسي أيضا وترا ثانيا لايقل عن قوة الأول (١) .

ويتضح من هذه الوثائق ظاهرة أخرى هو أن ا لسياسة البريطانية تتهم دوما السياسة الفرنسية وخاصة في الأماكن المقدسة ، وتلقى باللوم على سياستها التي اتسمت بالتقصير خاصة في مجال التنصير والنشاط الثقافي ، والعتاب البريطاني هو ظن بريطانيا أن فرنسامقصرة ، فلابد أن تكون اللغة الفرنسية سائدة في الشام كله مع النفوذ السياسي أيضا لما للروس من سيطرة ونفوذ لاترغبه بريطانيا إطلاقا، الا أنهم أشادوا في تقاريرهم عن ذكاء اليهود ومثابرتهم في الشام ونشاطهم الدراسي في كلية الزراعة في يافا ، لأنهم كانوا يتحدثون الفرنسية بطلاقة إضافة الى لغتهم العبرية .

هذه هي أهم نتائج هجرة اليهود من البلدان الأوربية المختلفة الى فلسطين والذين كانت لديهم الرغبة في الاقامة الدائمة في فلسطين وعدم العودة الى أهلهم ومواطنهم الأصلية في روسيا وأوربا (٢) .

كما أنه من الواضح أن اتجاه روسيا وفرنسا وبريطانيا من خلال هذه

---

(١) F.O. : 424/197 Sir N.O'coner to the Marqueses of Salisbury . No: 91, 24-12-1898.

(٢) Ibid .

الوثيقة وما سيأتي هو تشجيع وتمهيد الاستيطان اليهودي في فلسطين .

كما أن نبرة الاحتقار بالنسبة للعرب المسلمين في المنطقة واتهامهم بالكسل ماهو الا صدى لما كان يدور أو يخطط له في أروقة الخارجية البريطانية والتمهيد له لما بعد حول اعلان وعد بلفور .

أما القنصل الروسي عندما يحصي هؤلاء اليهود في فلسطين فانه سيكسب أو سيضيف عنصرا أساسيا لنفوذه في ا لبلاد العربية التابعة للسلطان العثماني لاستغلاله يهود السلاف لحل مشاكلهم من أوربا ولكسب سياسي جديد والعمل على خلق مشاكل للسلطان في ميدانه .

وقد تضمنت هذه الوثيقة أيضاً اشارةً الى أن الحقائق التي يراها نورمان [١] من الممكن أن تحقق توقعات (لورد بيكم فيلد) [٢] . كما أنها يمكن أن تكون عاملا مهما في وجود حل للمسألة الشرقية ، ويؤكد النفوذ السياسي الروسي في البلاد لأنه هو النفوذ السائد في فلسطين والأراضي المقدسة ، ولايستبعد في الوقت نفسه أن تفرض الوصاية على الأماكن المقدسة [٣] . ويؤكد أيضا انتشار النفوذ التعليمي والديني الروسي في سوريا وفلسطين لأن مسيحي سوريا ليسوا كثيري العدد وانما ينقسمون في اتجاهاتهم العقدية الى عدد كبير من الكنائس المختلفة التي يعتمد بعضها على روما والبعض الآخر منعزلا عنها . فالمجموعة الأولى تشمل

---

(١) نورمان : عمل سكرتيرا في سفارة بريطانيا لدى اسطنبول . وقد كلف باعداد تقرير عن انتشار النفوذ التعليمي والديني للروس في سوريا وفلسطين بناء على طلب دولته .

F.O.:424/198, Sir N.0.Conor to M. Salisbury,No.76,26-4-1899.

(٢) لورد بيكم فيلد:زعيم يهودي ويتوقع أن تنافس الدول الأوربية على الشرق غرضها الأول السيطرة على فلسطين ، فاذا أعطت القدس لليهود، بطلت مناظرتهم ومنافستهم.

– حسان على حلاق: موقف الجولة العثمانية من الحركة الصهيونية .

(٣) Ibid ., No. 76, 26-4-1899 .

اللاتين والذين يتبعون الطقوس الرومانية العديدة لكل الكنائس اليونانية والسورية والكاثوليكية الأمريكية والمارونية نتيجة لجهود الارساليات التنصيرية الفرنسية والايطالية والروسية التي دخلت بلاد الشام .

وعموما كان اهتمام هذه الارساليات بسوريا وفلسطين من خلال رحلات الحج التي تنظمها جمعية فلسطين الأرثوذكسية التابعة لروسيا [1] وذلك من أجل تركيز نفوذهم في المنطقة العربية والإسلامية .

وتتحدث هذه الوثيقة أيضاعن جمعية فلسطين ونشاطها وسيطرتها على أقوى سلاح والمتمثل في هيمنتهم على المدارس الأرثوذكسية التي تمكنت تدريجيا من نشرها على طول البلاد وعرضها . وينقل المحرر عبر الوثيقة تخوفه فمن خلال هذه المدارس سوف يتم بناء جيل جديد ينتمي الى روسيا بالولاء والروح . كما تشير هذه الوثيقة الى الجهود المتواصلة التي تقوم بها الحكومة الروسية من خلال جمعية فلسطين لتحقيق هدف التنصير في ولاية سوريا ولبنان . وتنفق هذه الجمعية بسخاء مالايقل عن (٦٠٠٠) ستة آلاف جنيه تركي سنويا ، لدفع ايجار المباني المدرسية المتأخرة المستأجرة في تلك البلاد ومرتبات المدرسين مع ايجاد طبيب روسي في دمشق .

هذا الطبيب اضافة الى عمله طبيبا كان يعمل جاسوسا للجمعية ، وكان يقوم برحلات في كافة البلاد يعالج فيها مجانا كل من يقابله ، بل ويقدم المساعدة لمرضاه ، يقدم لهم الكشف والأدوية اللازمة مجانا ، وكان غالبية هؤلاء المدرسين من الروس ، وحرصا على نشر اللغة الروسية في البلاد كان يتم تعليمها مجانا على أن هذه المدارس مدارس عثمانية اسميا ، اذ لايعترف بها أنها مدارس روسية رسمية

---

(١) F.O.: 424/198-Sir N.O. Conor to M. Salisbury, No, 76, 26-4-1899.

حتى تضمن الاستمرارية [١] .

ومن الأحداث في سوريا ما صرح به مصدر مسئول بقوله : ا ن بعض القرى المجاورة للقدس والتي كانت كاثوليكية منذ خمسة وعشرين سنة تحولت الآن الى أرثوذكسية تماما بسبب الاغراءات المالية والمساعدات الشخصية من خلال المساعدات الروسية لآباء وأطفال الملتحقين بالمدارس الروسية ، وينقل صاحب هذا التقرير مارآه بالاضافة الى مانقله عن طريق المخبرين ان قرية على الطريق بين القدس وبيت لحم تسمى (بيت يانا) ، هذه القرية تحول سكانها جميعا الى أرثوذكسيين تماما .

وتشير هذه الوثيقة الى أن جمعية فلسطين التنصيرية الأرثوذكسية قد حصرت أكثر أعمالها في مجال التعليم وأنه من المرجح ماكانت تقابل مقاومةكبيرة من السلطات الكنسية المسئولة عن المجتمع المحلي ، والتي أسعدها أن تتلقى مساعدات مالية من هذه المؤسسة لمدارسها [٢] .

وبسبب هذه الاغراءات والمساعدات الكبيرة التي تغدقها روسياعليهم فاننا نرى نبرة القناصل ومساعديهم في الأماكن المقدسة يرفعون تخوفهم ويفضلون لدولهم مايرونه من النشاط البارز لروسيا في بلاد الشام ونفوذها السائد . كما يظهر الخلاف واضحاً بين السياستين البريطانية والروسية في الصراع المذهبي الذي أقلق انكلترا من بسط النفوذ التعليمي الروسي في سوريا والشام ، أو الغزو الفكري الذي تتزعمه روسيا لتحويل أهل سوريا ولبنان وفلسطين الى أرثوذكس . كما يظهر هذاالقلق من المذكرة التي تلقى اللوم على السلطات الكنسية الايطالية والفرنسية التي تغري بالمال الروسي ، وما حققته روسيا في القدس لايمكن للقارئ

---

(١) F.O. : 424/198 , Sir N. O'Conor to M. Salisbury , no. 76, 26-4-1899.

(٢) Ibid .

العادى أن يغفله .

ففي الأماكن المقدسة تجد أن الكنيسة الأرثوذكسية هي المسيطرة في كل مكان وحتى في المدينة نفسها ، وعلى مايجاورها كلها كانت مكتظة بالمؤسسات الروسية . ويؤكد هذا التقرير ان كل مبنى هام جديد هنالك إما كنيسة روسية أو دير روسي ، أو تكية لاستقبال أفواج المسيحيين الذين يفدون على دفعات مابين ثلاثة آلاف الى أربعة آلاف شخص (١) . في جهود مكثفة لاستيعاب سكان هذه المناطق للدخول الى ملتهم الأر ثوذكسية دون ملل ودون كلل ، في تقديم المساعدات المادية والعينية من أجل بناء المدارس والكنائس في تلك المناطق .

هذا التقرير المفصل ينقل لنا معلومة أخرى هي أن العملة الروسية هي السائدة اذ أغرقت البلاد وأصبحت كثيرة التداول والاستخدام في المجتمعات المسيحية الأخرى التي لاتتصل بكنيسة روما والتي نلمس منها يوميا الدخول أفواجا الى المذهب الأرثوذكسي الروسي لأسباب اقتصادية بحتة . مع اتهام فرنسا بأنها غير قادرة على مقاومة التنصير الروسي صراحة ، ويبدو أن ممثلي القنصلية الفرنسية في فلسطين وسوريا تبذل جهودها ولكنها جهود سرية لمواصلة تأييد اللاتينيين الكاثوليكيين الذين لازالت فرنسا تحميهم في الشرق ولكن الواضح أنها لم تستطع أن تنجح في مسعاها (٢) .

وهذه وثيقة أخرى عن بعض المدارس الروسية أيضا في الجليل تبين نتائج جولة السيد انيشيوف عضو مجلس الشيوخ الروسي ورئيس جمعية فلسطين الروسية على تلك المدارس في الناصرة وحيفا للبنين والبنات، هذه المدارس أقيمت على هذا النظام الذي انتهجه الروس ، حيث يدرس في هذه المدارس اللغة الروسية

---

(١) F.O.: 424/198, Sir N. O'Conor to M. SaLISBURY, No.:76, 26-12-1899.

(٢) Op.Cit., No. 76, 26-4-1899.

والعربية ، كما يدرس بها حصة أوحصتين في الأسبوع في فن التجارة ، والحرف الأخرى للبنين ،كما يوجد بالمدرسة طبيبان رجل وامرأة ملحقان بالمدرسة يقدمان الرعاية الصحية مجانا (١) .

وهنا ينقل لنا القنصل الانجليزي ريتشارد من القسطنطينية التقرير السري رقم (١٠) عن انتشار النفوذ التعليمي الروسي في دمشق لإبلاغه لحكومته عن الأرثوذكسيين اليونانيين الذين سلموا مدرستين واحدة للبنين والأخرى للبنات تضم الأولى مائة وخمسين طالبا وتضم الثانية مائة طالبة ، للقنصل الروسي ، وقد سبقتها مدرسة يونانية سلمت أيضا للقنصلية المذكورة ، والسبب في ذلك هو النقص المالي الذي تعانيه تلك المدارس حتى تضمن دفع مرتبات المدرسين والكتب للطلبة وغيرها من المصروفات المستقبلية .

اضافةً إلى ذلك تحول مدرستين من المدارس اليونانية في لاطاكيا الى الكنيسة الروسية ، وقال التقرير ان التأثير الروسي في سوريا لازال في تقدم ونمو مستمر(٢) .

وهذا التقرير أيضا يسجل ظاهرة أخرى من النفوذ الروسي أو جمعية فلسطين التنصيرية على المدارس اليونانية التي حولتها الى حظيرتها بالاغراء المالي لهذا نراها أيضا تسيطر على المدارس وتتبناها للصرف عليها لا بل تحولها الى أرثوذكسية روسية مما زاد قلق بريطانيا في هذا الشأن الى جانب المذاهب أو الملل الأخرى النصرانية لرعاياها هناك .

الا أن القنصل ريتشارد مطمئن لأنه من بين جميع المدارس الأرثوذكسية

---

(١) F.O. 424/199, From Consul General Drummond Hay to sir N.o,Conor No. 3/1, 3/2, 15-16-6-1899.

(٢) F.O.: 424/200-Consul Richards to Sir N. O'conor No. 23, 19-2-1900.

اليونانية في دمشق مدرسة البنين لازالت تحتفظ باستقلالها عن النفوذ الروسي ، ويعلل ذلك بأن عدم ضم هذه المدرسة هي سياسة مرضية ولابأس بها .

أما عدد المدارس التنصيرية الروسية في سوريا وفلسطين فقد بلغ نحو (١٠٠) مائة مدرسة للبنين والبنات ،تشمل نحو (٨٠٠٠) ثمانية آلاف تلميذ ، تحت الادارةالروسية ، وأنها تكلف جمعية فلسطين للتنصير حوالي (١٠٠،٠٠٠) مائة ألف نابليون [١] تدفعها روسيا بسخاء[٢] .

ويواصل ريتشارد في تقريره التصويري عن المدارس الروسية وأنظمتها للدارسين بها فيشرح ذلك بأن كل مدرسة تعلق صور القيصر على الحائط جنبا الى جنب مع صورة مريم العذراء ، أو أحد القديسين حيث ينحني أمامهاالتلاميذ بصحبة مدرسيهم ثلاث مرات في اليوم ويرسمون بيدهم علامة الصليب . ثم ان التلاميذ يتعلمون كيف يتحدثون عن الامبراطور بكلمة " ملكنا " وهو تعبير يعني لرعايا الدولة العثمانية المتحدثين باللغة العربية السلطان فقط .

ويضيف الكاتب ريتشارد في تقريره قوله : " وربما يعترض البعض بقوله ان هذه اشياء تافهة ، بالعكس فإنها ليست عديمة الفائدة اذا نظرنا اليها كقشات تبين لنا اتجاه الريح "[٣] .

أما شروط الدخول للتلاميذ فان من كانت أعمارهم أقل من خمس سنوات لايسمح لهم بدخول هذه المدارس ، ولكن لايوجد قيد زمني فما يتعلق بمدارس البنات ، وتفسير ذلك أن عقل ا لطالب ينمو بسرعة أكبر من عقل الفتاة ، وأنه كلما بدأ مبكرا في مرحلة التعليم كلما قل احتمال محو مافي عقولهم عند استمرار

---

(١) النابليون : عملة فرنسية تساوي ٢٠ فرنك . الوثيقة السابقة رقم (٢٣).

(٢) F.O.: 242/200 ,- Consul Richards to Sir N. O'conor No. 23,19-2-1900.

(٣) Ibid .

معرفتهم وتعلمهم حقائق الحياة [١] كما يراها هؤلاء المنصرون . أو بمعنى آخر غسل عقول التلاميذ الذين ينضمون الى هذه المدارس .

وقد أساء المنصرون الى العلم لما اتخذوا منه وسيلة الى التنصير ، فالأب يأتمن المدرسة على ابنه عند دخوله هذه المدرسة حيث يقدم أثمن ماالديه وهو يظن أنه وضع ابنه بين يدي أنبل الناس ، بين يدي المعلمين ... ولكن المعلم المنصر انسان خلت من قلبه اجمل معاني الانسانية : فقد الأمانة والاستقامة والصدق [٢] ، وهذا ما أشار اليه التقرير السابق عن شروط دخول المدارس التنصيرية بالنسبة للأطفال وبيان الأعمار المطلوبة لدخولهم ، والسبب في ذلك وخاصة البنين [٣].

وفي الحقيقة ان الأمانة والاستقامة والصدق من أهم صفات المعلمين اوالمدرسين وخاصة في المراحل الأولى من تعليم الطفل الابتدائي ، فاذا فقدهاالمعلم فقد مقومات الأمانة العلمية .

والمنصر اذا تعرض لرجل ناضج حاول استمالته بشتى الطرق ليقنعه بصواب مذهبه . أما ان يتخذ رجل أشرف مهنة أسبغها ا لله على الانسانية وسيلة ليخادع بها الأطفال ومن فوقهم فهذا في منتهى الكفران للأمانة العلمية التي علقت في رقاب الناس . فقد قال أحمد شوقي في هذه المهنة الجليلة مايلي :

قم للمعلم وفه التبجيــــــــلا   كاد المعلم أن يكون رســـولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذي   يبني وينشئ أنفسا وعقـــولا

وهذاالذي ظنه شوقي وظنه الناس لم يتوفر في هؤلاء الذين جاءوا الى بلادنا بعنوان الانسانية بينما تنطوي أنفسهم على أشياء أخرى استغلوها في أشرف مكان

---

(١) F.O. 242/200, Consul Richards to Sir N.O'cnor, No.23, 19-2-1900.

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٧٦.

(٣) Ibid .

وهو المدرسة . فاستغل المنصرون العلم ستارا لغايات هي بدورها لغايات أخـــرى غير شريفة أرادوها هم ومن استخدمهم ليصلوا عن طريق هذا النشاط الى اســتعباد الشرق واستغلاله سياسيا واقتصاديا.

فقد حصل رامون لل على مقابلة البابا سلســتين الخـاص وكـان ذلـك عـام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م وقدم له كتابين فيهما خطة لنشر النصرانية بين المسلمين :

أولهما : احتوى على منهج للكنيسة لتتخذ العلم والمدارس وسيلة للتنصير.

ثانيهما: احتـوى علـى منهـج لتنصـير المسـلمين بـالقوة اذا لم تنجـح فيهـم الجهود التعليمية .

ومع أن البابا لم يصغ الى خطط رامون كما قيل ، فان التنصـير عـن طريـق التعليم كان مشروعا بابويا في أساسه وتطوره [1].

وللتعليـم ايضـا عنـد المنصريـن غايـة واحـدة هـي تنصير التلاميـذ الذيــن يحضـرون الى مدارسـهم ، ومعلــوم ان في الكليــة الانكليزيــة في القــدس طــلاب مسلمون ونصارى ويهـود ، وكـانت سياسـة المدرسـة أن تنصرهـم كلهـم ، الا أن المقصود الأول هو تنصير الجموع الاسلامية . لهذا اختار المنصـرون ميـدان التعليـم لأن للتعليم أثرا فعالا ، بل هو أقوى وسائل التنصير ، والمنصرون يرون أن الوسيلة التي تأتي بأحسن الثمار في تنصير المسلمين انما هي تعليـم أولادهـم الصغـار ، ومـن أجـل ذلـك لانسـتغرب أن يدعـو المنصـرون الى بنـــاء مــدارس كثـيرة في البـــلاد الاسلامية. وأول مدرسة أنشأها المنصرون في الدولة العثمانية مدرسة البنات في عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م .

بهذه الطريقة يخرج التلاميذ المسلمون من عناية المدارس المسلمة ، ولكــي يكون التنصير كاملا كان يرى المنصرون أن يتولوا هم التعليم في جميع أنواعه فــي

---

(١) مصطفى خالدي عمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٧٦-٧٧.

البلاد العثمانية وأقطارها ، فرياض الأطفال مهمة جداً لتحقيق خططهم ، لأن التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها بابا مفتوحا للتنصير ولتأثيره في عقول الأطفال الغضة ، ثم ان الذين يشرفون على مدارس رياض الأطفال يكونون أكثر اتصالا بأهل الطلاب .

وكذلك التعليم الابتدائي وسيلة ثمينة للتنصير ، لأنه يمكن للمنصرين أن يثبتوا أقدامهم في القرى تحت ستار التعليم الابتدائي الذي تحتاج اليه القرى ، وللمدارس الابتدائية فضل على الكليات بصفة عامة لأنها تمكن المنصر من أن يصل الى العقول وهي لاتزال تتأثر بما يلقى اليها [١] .

وهنا نرى أيضا بعض المنافسة بين الروس والانجليز لاتهام الروس بضعف التعليم لديهم لطول الدراسة للغة الروسية ، وتجاهل بعض الموضوعات الأخرى الأكثر أهمية للأطفال ، مما جعل الأطفال يفضلون التعليم في مدارس الارساليات البريطانية ، حتى أصبحوا من حين لآخر يفضلون العودة الى مدارسهم الأساسية ويتركون المدارس الروسية على اعتبار أنها أفضل من الارساليات الروسية [٢] .

هذاالنفوذ في مجال التعليم يوضح بجلاء الدور الروسي في عملية الغزو الفكري في منطقة اسلامية مهمة من الدولة العثمانية.

كما يظهر تغلغل التنصير الروسي وغيره في البلاد العربية في دمشق وفلسطين ولبنان . ثم نلمس أن هناك محاولة السيطرة على رئاسة الناحية الدينية . وأيضا أطماع روسيا القيصرية في الدولة العثمانية ، ومظاهر الغزو الفكري في مجال التعليم .

فالتعليم في مدارس الارساليات المسيحية انماهي واسطة الى غاية ، هذه

---

(١) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٧٦-٧٧ . ،

F.O. 242/200 Consul Richards to sir N. O'conor No.23, 19-2-1900.

(٢) F.O. 242/200 : Ibid .

الغاية هي قيادة الأفراد الى الدين النصراني ، وتعليمهم حتى يصبحوا جموعا وأفرادا نصارى .

فكل التقارير تبين التنافس الاستعماري بين بريطانيا وروسيا وتوظيف الارساليات والمعاهد التعليمية والكنسية خدمةً لأهداف الاستشراق والتنصير والاستعمار.

وهنا نرى موقف فرنسا كرد للنفوذ الروسي خلال فقدانها لمركزها عندما قام السيد جيسويت بانشاء مدرسة طبية ،وهذه الخطوة لاشك أنها خطوة مضادة للنشاط الروسي في الشام [١] .

ثم ان المجتمع المسيحي قام مؤخرا بشراء قطعة أرض في شارع دمشق في مدخل بيروت لإقامة تلك المدرسة الطبية على أن يلحق بهذه المدرسة مؤسسة علاجية للوقاية من مرض الديفتريا ، الذي يعج في تلك البقاع، ولما علمت الحكومة الفرنسية ساهمت بحوالي مليون فرنك للمساعدة البريطانية في هذا المشروع ، وقد تم بناء سور حول هذه الأرض [٢] ، وهذا كرد فعل للنشاط الروسي في الأماكن المقدسة .

ويتابع القنصل العام البريطاني دارموند حديثه عن نشاط الروس فيذكر بأن طراسوف مفتش المدارس الروسية في طرابلس قد قام بزيارة المدارس المشتركة الروسية في فلسطين ، وقد قرر في هذه المدارس تدريس اللغة الروسية والعربية وتدريس كتاب يشمل العقيدة الأرثوذكسية واللغة الفرنسية والتركية ، وسوف

---

(١) F.O. 242/200, Sir. N. O'conor to Marguess of Salisbry No: 55, 22-5-1900.

(٢) -F.O. : 424/200 Consul-General Drummond Hay to N. O'conor, N. 55/2,26 4-1900

تواصل روسيا فتح مدارس أخرى في طرابلس بهذا النظام [١] .

ويلاحظ في تلك التقارير رصد قناصل بريطانيا لكل من نفوذ روسيا وفرنسا في الدولة العثمانية في مجال التعليم والتنصير . ويأتي هذا انطلاقا من روح التنافس الاستعماري التي سادت بين القوى الأوربية واطماعها في ممتلكات الدولة العثمانية ثم في وسائل التنصير عن طريق الخدمات التعليمية والعلاجية والدعم المالي الهائل من الدول الأوربية ، كما يتضح ذلك من مساعدة الحكومة الفرنسية ، فأصبحت بهذا أرض الشام أرض مناورة أو خلية للصراع بين الملل والمذاهب المسيحية حول نفوذ كل ملة من هذه الطوائف على أرض سوريا وفلسطين ولبنان حتى اسطنبول ، ولم تخل من ذلك التنافس بينها على كسب أكبر أرض من الدولة العثمانية على مختلف قاراتها الثلاث ، ومحاولة تنصير الأمم الاسلامية عن طريق التعليم المجاني والخدمات الطبية والمساعدات الزراعية.. الي غير ذلك من أساليب تحايل دول الغرب عن طريق الغزو الفكري .

ومايهمنا هنا هو تناول الغزوالفكري من الناحية التاريخية وبالاسلوب التاريخي في بلاد الشام وعاصمة الدولة العثمانية حسب خطة البحث ، وتأثير ذلك على عقيدة ناشئة المسلمين بالطرق والأساليب الملتوية بعد أن تقرر تحويل منهج الصليبيين من الغزو العسكري الى الغزو الفكري للمشرق الإسلامي حين فشلت حلولهم العسكرية لاستكمال حلقات المؤامرة الصليبية الشرسة لهدم الخلافة الاسلامية كما سيأتي في بابه .

---

(١) F.O. 424/200, Consul-General Drummond Hay to N.O., Conor No:.55/3, 7-5-1900.

أما سياسة الرجل المريض : فهي من حملات التشهير بالدولة العثمانية والتي كان منها اطلاق عدة مسميات او صفات على السلطان العثماني فهو "المريض الذي لايرجى شفاؤه " و " المريض المشرف على الموت " و " رجل أوربا المريض"[1] .

ولقد جاءت هذه التسمية نتيجة لاتساع كيان الدولة العثمانية وعدم استطاعتها تجديد أنظمتها وادارتها ، ولماكانت عظمتها مبنية على أساس قوتها العسكرية لذا عندما سقطت هيبتها العسكرية سقطت بالتالي الدولة بعد الضربات التي سددها الغرب المسيحي اليها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، وذلك بعد أن تغلغلت فيهاالامتيازات الأوربية التي شجعت الغزو الفكري الذي ساعد في تمزيق الأفكار والأوطان . وبعد أن اصبحت بلدان الخلافة العثمانية في يد الاحتكارات الأوربية الرأسمالية ، وظهرت معها الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التي أطلقوا عليها " تركة الرجل المريض " وقد حاول سلاطين آل عثمان أن يقوموا بمشروعات اصلاحية اتخذت النظام الغربي نموذجا لها، وقد بدأ الاصلاح في المقام الأول بآلة الحرب والنظم العسكرية ، وقد فشلت هذه المحاولات الاصلاحية أيام سليم الثالث (١٢٤٠-١٢٢٢هـ) وأيام محمود الثاني (١٢٢٣-١٢٥٥هـ) وغيرهما من السلاطين الذين أتوا بعدهما في القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي ، نظرا لأن هذه المحاولات لم تأخذ بعين الاعتبار الصيحات المخلصة المنبعثة من الجزيرة العربية التي تنادي بالإصلاح على أساس التوحيد الخالص من كل دخيل وعلى أساس عقائد السلف الصالح ، أي البناء على

---

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٨٣٠، ، حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ٢ ، ص ١٣٧.

قواعد الماضي المجيد التي أسسها الجدود ، وبدلا من أن تتعامل الدولة العثمانية مع هذه الصيحات وتصغى لها الـتفتت اليها لتضربها كما سنرى فيما بعد [1] .

ولقد أطلقت هذه الأوصاف أول ما أطلقت على الدولة العثمانية في بادئ الأمر على المجال الدبلوماسي المغلق ، وعلى أعلى المستويات ، ولكن لم تمض عدة سنوات حتى أعلنت هذه الأوصاف كنعوت لاتنفصل عن الدولة العثمانية وما أحاطت به من ملابسات فوقف على هذه الأوصاف الرأي العام البريطاني . ثم انتقلت الى سائر الدول الأوربية ، فتلقفها المؤرخون والباحثون ورجال السياسة الحاقدون أو المتحاملون على الدولة العثمانية وأعداء الاسلام واتخذوامنها مادة للتشهير بالدولة العثمانية [2] .

والحق أن دعاية الرجل المريض دعاية مغرضة ، أطلقت على الخلافة العثمانية في سنواتها الأخيرة فكانت هذه الدعاية دعاية يهودية انطلقت أو خرجت من يهود الدونمة من داخل تركيا نفسها ، فهذا التعبير لم يكن اذا ترجمة حقيقية لوضع الخلافة قبل السقوط [3] انما هو مجرد دعاية للتشهير بضعف الدولة العثمانية وايهام الناس بذلك لزعزعة ولاء ولاياتها أو شعبها لاتخاذها حجة للانفصال ، وهذا مافعله محمد علي حين ثار على الدولة العثمانية فانفصل عن الدولة في سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م وقد سبقه في ذلك اليونان .

وبعد القضاء على ثورة محمد علي ، عادت روسيا الى سياستها التقليدية في

---

(١) محمد مصطفى رمضان : العالم الاسلامي الحديث والمعاصر ، ص ١١٢ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٨٣٠.

(٣) هيئة الأخبار : الرجل المريض ، دعاية يهودية ، مجلةالتضامن الاسلآمي ، السنة ٤٤ ، الجزء ٥ ، ص ٥٩-٦٠ .

محاولة تدمير الدولة العثمانية عن طريق الضغط العسكري واثارة الاضطرابات في البلقان [1] .وسواء كان هذا التوجه للتشهير بالدولة العثمانية أو للحط من قيمتها من بعض حكومات الدول الأوربية ، أو جاءت كتاباتهم بوحي من أفكارهم وحقدهم فقد كان الهدف من ذلك كله هو النيل من الدولة باعداد وتخطيط فكري مسبق ، لدى الدول الأوربية بأن سقوط الدولة العثمانية لامحالة أمر وشيك وأن نهايتها آتية لايختلف فيه اثنان [2] .

وهذا التخطيط مبني على حقد دفين من هذه الدول للدولة العثمانية التي حملت راية الاسلام لعدة قرون ، وقد أجهضت الحروب الصليبية التي قادتها أوربا نحو الشرق لإخراج الدولة العثمانية من أوربا واحتلال بيت المقدس ، فقد ردت عليهم الدولة وشتتت جموعهم الصليبية حلفا بعد حلف وجعلتهم في حالة الدفاع عن النفس بعد استيلائها على القسطنطينية وتهديد روما كما سبق . هذا الحقد وراء الاشهار باطلاق تلك النعوت" كالرجل المريض" وغير ذلك من الأوصاف الأخرى، التي تنم عن الحقد الدفين والقصد منها احباط الدولة في مسيرتها وتحريك كوامن أحقاد الأقليات النصرانية داخل هذا الكيان ، واشعال الثورات لتزيد من تفاقم الأزمات في الدولة ويسهل تدخل الدول الأوربية لحماية أقلياتها .

وان أول من أطلق عبارة " رجل أوربا المريض " (The Sickman of Eurpe) هو نيقولا الأول قيصر الروس (سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م - ١٢٧٢هـ/١٨٥٥) في حديث جرى في سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م ، بينه وبين ابردين (Aberdeen) رئيس وزراء بريطانيا في وندسور Windsor بانجلترا وكانت تجمع بين الاثنين صداقة حميمة ، وهذا التصريح لم يكن جديدا أيضا على القيصر ،

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٧ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٨٣٠.

فقد أعلن رأيا من قبل أشد لهجة وأكثر بعدا عن اللباقة الدبلوماسية حيث قال: "ليس في استطاعتي أن أبعث الحياة في الموتى، ان الامبراطورية العثمانية دولة ميتة وليس لدي ثقة في أن يستمر هذا الجسم العجوز محافظا على الحياة ، انه في حالة انحلال في جميع النواحي " [١] .

هذا التصريح جاء في وقت كان الرأي العام الأوربي يطالب أوربا بطرد العثمانيين من القارة بقضهم وقضيهم ، واقتسام أملاكهم بين الدول النصرانية[٢].

ثم أعاد القيصر عبارة الرجل المريض في سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م أي قبيل نشوب حرب القرم ، فقد تحدث القيصر مع سير هاملتون سيمور (Sir Hamilton Seymour) السفير البريطاني لدى روسيا ومع غيره من رجال السياسة وكانت هذه الأحاديث تدور حول اعتقاد نيقولا الأول أن سلطان الدولة العثمانية رجل مريض للغاية وقد يلفظ أنفاسه الأخيرة فجأة ، وأن من الخير للسلام العالمي أن تفكر الدول الأوربية مليا في توزيع ممتلكاته قبل وفاته . وأعرب عن رأيه بامكان تسوية الأمور بين بريطانيا والروس دون الحاجة الى قيام أي حرب [٢] .

فاقترح استيلاء روسيا على اسطنبول ، وبريطانيا على مصر وكريت ، فلم يجبه السفير الانكليزي جوابا شافيا ، بل أجاب القيصر بأن الأولى أن نعالج هذا الرجل المريض وأن نتعهده بالعناية حتى تعود اليه قوته كما كان سابقا ، لأنه لو مات حصلت بعده حروب تهدر فيها الدماء أنهارا في سبيل تقسيم تركته ، ولم يكن ذلك من الدولة الانجليزية حبا في تقوية الدولة العثمانية أو حبا في بقائها ، بل كان خوفا من امتداد روسيا في الشرق واحتلالها لاسطنبول فتشارك انكلترا في ملك البحار الذي انفردت به .

---

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٨٣٠-٨٣١.
، حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٣١.

ومن جهة أخرى خابر نابليون الثالث حكومة بريطانيا بشـــأن الاتحاد مـع الدولـة العثمانية لتحديد مصير الأماكن المقدسة في فلسطين حتى لاينتشر نفوذ الروس بـين رعايا الدول العثمانية الأرثوذكس الذين ربما يبلغ عددهم احد عشر مليونا، لاسيما وأن حماية روسيا للقدس ومـا جاورهـا يجعـل انكلـترا في خطـر علـى أقـرب طرقهـا لمستعمراتها الهندية وهي طريق مصر ، فـاقتنعت بضـرورة مقاومـة نفـوذ روسـيا في هذه الأماكن خصوصا بعد أن اطلعت على مقاصد القيصـر عـن طريـق سـفيرها في روسيا [١] . وهذا النفوذ الروسي الذي لمسناه فيما سبق من خلال الوثائق والتقارير حيث تركز اهتمامها أساسا على حماية وتدعيم الكنيسة الأرثوذكسـية الـتي يديرهـا الأسـاقفة ورجـال الديـن المسـحيين ، وهـذا مانقلـه نـابليون الى حكومــة بريطانيـا للتحالف ضد هذاالنشاط الروسي في الأماكن المقدسة ، وهـو بـلا شـك توجـه مـن روسيا للموقف السياسي في فلسطين ، وهو من العوامل التي توجت نجاح روسيا في السيطرة السياسية على المنطقة [٢] .

ولكن هذا التعبير الأوربي الذي أطلق علـى الدولـة العثمانيـة يعـني المـرض الذي انتاب السلطان العثماني – انما هو تعبير سياسي قصـد بـه الضعـف السياسـي والعسكري بعد أن بلغ بالدولة حد الاضمحلال والتدهور وذلك في أواخر القـرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي . في الوقت الذي تتقدم فيه أوربا نحـو الأمام ، وكانت الدول الأوربية الكبرى مسئولة عن جانب كبير من ذلك الضعـف الذي ألم بالدولة [٣] لكـثرة ثـورات واضطـراب الأقليـات المسـيحية داخـل الدولـة والتدخل من هذه الدول الأوربية بقصد الحماية .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩٣ .

(٢) -F.O. 424/197, Sir. N. O'Concor to the Marguess of Saliabury, No. 91, 24 12-1899.

(٣) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٨٣١ .

ولكني أقول : حين تركت الدولة العثمانية التمسك بالكتاب والسنة وحاولت تطبيق القانون الوضعي واقتباس الأنظمة الغربية أتاها الضعف ، لأن هذه القوانين الوضعية لاتوافق بأي حال من الأحوال طبيعة الدولة الاسلامية وهذا الخط هو الذي جرف الدولة عن مسارها القويم . ثم ان معارضة العلماء لكل اصلاح جديد لايتنافى مع الشريعة هو أيضا سبب من أهم أسباب ضعف الدولة ، ولاننسى أن هذا التشهير بالدولة أيضا غزو فكري لخطط سابقة وهي زحزحة الدولة العثمانية الاسلامية عن النظم الاسلامية والصاقها بالنظم الأوربية ، لأن نظرة الاستشراق الأوربي هو القضاء على الاسلام والمسلمين أو استعبادهم واستغلال ممتلكاتهم .

ومن أهداف التشهير بالدولة العثمانية أن تصبح الشعوب الاسلامية بهذه الدعايات مؤمنة بعجزها عن تحقيق أي تقدم في المجالات الاقتصادية والفكرية والاجتماعية والسياسية ، واستحالة تقدمها مادامت مصرة على التمسك بدينها لأن هذا الدين هو السبب الحقيقي لتخلفهم .

يقول هانوتو " الدين الاسلامي يبعث في الانسان الخمول والكسل ولايوقظه منهما ... وان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد . لأن الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوربا علما ومدنية نجحت " [١] .

فعملاء الغزو الفكري قد عملوا منذ نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ،وبعبارة أصح منذ أن استقر في أوكار الصهيونية والاستعمار مشروع تدمير الخلافة الاسلامية ، عند ذلك عملواعلى تخريب الفكر الاسلامي وتشويه عقل المسلمين ، وهم مازالوايعملون حتى الآن ، الأسماء تتغير ، والشعارات تتلون ولكن الهدف واحد ، هو تجريد المسلم من أقوى سلاح وهو

---

(١) السيد أحمد فرج : جذور العلمانية ، ص ٣٦ .

ايمانه با لله وان كتائب الغزو الفكري هي(الطابور الخامس) الذي يعمل داخل صفوفنا ليجهز علىمقاومتنا [١] .

هكذا نرى أن التعاون بين السياسة والتنصير قد أعطى ثمرته الأولى حين أخذت الأقطار الشرقية تسقط تحت السيطرة أو النفوذ الأجنبي الا أن هذه الدول لم تقص المنصرين بعد أن نالت حاجتها من جهودهم بل زادت تقريبهم لأنهم أصبحوا أعرف الناس للبلاد وأهلها واتجاه الريح فيها . لذلك وقف المنصرون ورجال السياسة وجها لوجه أي الفريقين يجب أن يتقدم على الآخر وكان المنصرون من قبل يدخلون البلاد وبعد ذلك يأتي الجيش على أثرهم ولكن في أواخر القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي أخذ المنصرون بتقديم الجيش أولا لأن ذلك يسهل مهمتهم [٢] .

معنى هذا أن تغيير هذا النظام يعطينا دلالة واضحة على ضعف الدولة العثمانية وعدم استطاعتها المقاومة كما كانت في سابق عهدها لبعد هذا الميدان عن الدولة المنشغلة في مشاكلها الداخلية وما أكثرها آنذاك .

لهذا فضل المنصر أن يعمل بعد الاحتلال ، فكان حكام هذه المناطق على حق في تخوفهم حينما اعتقدوا أن مجئ المنصرين ينتهي دائما بتدخل الدول النصرانية في بلادهم ثم بعد ذلك يفقدون جزءا منها أو يفقدونها [٣] .

• • •

(١) محمد جلال كشك : الغزو الفكري ، (الطبعة الرابعة، القاهرة ، المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٩٥هـ) ص ٧.

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١٤٤-١٤٥ .

(٣) مصطفى خالدي وعمر فروخ : المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

الفصل الثالث

عوامل الغزو الفكري الأوربي للدولة

أ - أثرالموقع الجغرافي .

ب - تطورات التاريخ الأوربي الحديث ،العلمانية والقومية والحركة الدستورية .

ج - صدى الثورة الفرنسية .

د - أطماع الدولة الأوربية في ممتلكات الدولة الاسلامية .

هـ - أنشطة الماسونية والصهيونية .

أثر الموقع الجغرافي السياسي :

يأتي أهمية موقع القسطنطينية السياسية على الكرة الأرضية نظرا لموقعها الجغرافي حيث تقع عند نقطة اتصال آسيا بأوربا عن طريق مضيق اسطنبول "البوسفور " الذي يصل البحر الأبيض بالبحر الأسود بواسطة بحر مرمره [(١)] .

وهذا الموقع يعد من المواقع الاستراتيجية على الكرة الأرضية لتحكم القسطنطينية في هذا المضيق بين البحر الأبيض والأسود ، ولهذا أسموها في القديم باسم الفاروق لفرقها بين البرين والبحرين ، أي (بين بر آسيا وأوربا والبحر الأسود والأبيض) [(٢)] ، ويصل عرض هذا المضيق المذكور في أقرب نقطتين بين البرين الى أقل من كيلو متر [(٣)] .

وقد قال نابليون في القسطنطينية " لو كانت الكرة الأرضية في حوزة دولة واحدة لكان يلزمها أن تتخذ القسطنطينية عاصمةً لها " [(٤)] .

ولتلك المدينة أهمية خاصة لدى المسلمين ، وقد وردت البشارة النبوية بفتحها [(٥)] ، فكانت أمنيةً من أكبر أماني المسلمين ، وقد حاولوا عدة محاولات لفتحها ، لكنها لم تكلل بالنجاح حتى شاءت ارادة الله أن يقوم السلطان محمد

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٤١-٤٢.
، علي حسون : تاريخ الدولة العثانية ، ص ٣١ .

(٢) محمد بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار بمستودع الاعصار والاقطار (بيروت ، دار اصادر ، طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣هـ) ج ٥ ، ص ٤٢-٤٣ .
، أبوالحسن على الندوي : ماذاخسر العالم بانحطاط المسلمين (الطبعة الثالثة ، الكويت ، دار القلم ، ١٤٠٢هـ) ، ص ١٦٢ .

(٣) على حسون : المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٤) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ٤٢ .
، أبوالحسن على الندوي : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٥) على حسون : المرجع السابق ، ص ٣١ .

الثاني " الفاتح " بفتحها ، فكان ذلك نصرا عظيما للاسلام والمسلمين وتحقيقا لحلم طالما ترقبوا تحقيقه [١] .

وقد عرفت هذه المدينة التي على ضفاف البوسفور بأسماء عديدة ، فكان اسمها عند السلاف (زارغراد) : أي مدينة الامبراطور ، وعند سكان شمال أوربا (ميكالاغارد) أو (ميكل غارث) (Myklagaardor , Micklegarth) أي البرج العظيم [٢] .

الا أن اليونان والرومان عرفاها باسم بيزنطة أو بيزنطية (Bysanca) نسبة الى مؤسسها بيزاس (Basas) وهو بحار يوناني ترك بلاده سنة ٦٥٢ ق.م مع بعض رفاق له وبعدما مخرت بهم سفنهم في بحر ايجه مروا بالدردنيل ، ووصلوا الى البوسفور فاحتلوا القرن الذهبي لأنه آوى سفنهم ، ومع توالي الزمن كثر عددهم وعظم شأنهم وسموا موقعهم بيزنطه (Bysance) ، وبعد مرور الزمن أصبحت مدينة بيزنطة حاضرة الدولة البيزنطية . لذلك نقل قسطنطين الأول سنة ٣٢٤م مقر ملكه من روما الى بيزنطة وسمي المدينة باسمه (القسطنطينية) [٣] . وبهذا الاسم اشتهرت عند المسلمين والمسيحيين وغيرهم .

وفي عهد سلاطين آل عثمان سميت حين فتحها السلطان محمد الفاتح باللغة التركية اسلام بول ، أي مدينة الاسلام [٤] . ومنذ ذلك التاريخ اصبح اسمها اسطنبول بعد أن جرى بعض التعديل على الاسم التركي لها [٥] .

---

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٤٢ ، ٤٥ .

(٢) برنارد لويس : استنبول ، ص ١١ .

(٣) عزيز خانكي بك : ترك واتاتورك ،(القاهرة ، المطبعة العصرية ، الفجالة) ، ص ١١٨ .

(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولة علية عثمانية ، ج ١ ، ص ٨٠ .

(٥) عزيز خانكي بك : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

وسميت أيضا استانة (استانبول) وهي كلمة فارسية معناها العتبة ، عتبة الدولة أي العاصمة [١] ، كما سميت " دار السعادة ") [٢] .

ونظرا لموقعها البري والبحري الفريد فانها كانت ميناءا بحريا تمر به تجارة الشرق والغرب ، وتحدها المياه من ضلعيها ، ففي الشمال الغربي القرن الذهبي ، وفي الجنوب الغربي يقع بحر مرمره ، وبين البحرين يجري المضيق (البوسفور) ، وتقع هذه المدينة على سبع تلال ، فمناخها معتدل ليس بشديد الحرارة صيفا ولا شديد البرودة في فصل الشتاء [٣] .

ويجدر بنا الآن القول بأنِ موقع اسطنبول موقع استراتيجي مهم حيث أنها تربط قارتين مهمتين هما آسيا وأوربا وقد اشتهرت بالصناعة والتجارة (٤) ، وكانت التجارة تأتي اليها بحرا عن طريق البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الأسود ، وبرا من القارتين آسيا وأوربا ، وأهم تلك التجارات تجارة بلاد فارس والهند وغيرهما من البلاد الإسلامية ، وكذلك تجارة الشرق الأقصى ، والتجارة القادمة من شرقي أوربا وغربها فهي مجمع لتجار العالم المعروف آنذاك ، تأوي السفن من كل صوب الى مينانها في القرن الذهبي الذي يعج بحركة دائمة . وقد اهتمت الحكومات التي سبقت الدولة العثمانية وكذلك الدولة العثمانية بهذه المدينة وتسهيل حركة التجارة بها وتأمين سبل الراحة والعيش لهم ، فاشتهرت أسواقها بمواد الترف والزينة والمصنوعات والعطور ، والمنسوجات الحريرية والكتانية الجميلة ذات الألوان الباهية إلى جانب ذلك كان الصيارفة يزاولون مهنتهم بنجاح منقطع النظير.

---

(١) Ferit Develligla : Osmanli Ca-Turkce, Ansiklopedik Lugat. (مادة استانه)

(٢) عزيز خانكي : ترك وأتاتورك ، ص ١١٨ .

(٣) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ١٦ .

(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ، ج ١ ، ص٨٠ .

وقد عملت الدولة العثمانية على نشر الإسلام فيهـا وتحويلها الى حاضرة إسلامية ، كما أنها عملت على سن سياسة خاصة بمرور السفن بمضيق البوسفور والدردنيل وذلك لأنهما يمثلان نقطتي اتصال عالمية بين الشرق والغرب ، كما أن هاتين النقطتين تمثلان عنق الزجاجة بالنسبة للبحر الأسود والمخرج الوحيد له للمياه الدافئة حيث يمكن لتجار البحر الأسود الاتصال بالبحار العامة والمحيطات عن طريق تلك المضايق ، وكانت سياسة الدولة العليا هي فرض سيادتها على المضايق [(١)] . فالسلطان محمد الفاتح هو مؤسس نظام المضايق حين شيد القلعتين المتقابلتين في أضيق نقطة في مضيق اسطنبول كما سبق ذكره [(٢)] .

وقد استندت الدولة على ممارسة السيادة على المضايق تمشيا مع القاعدة القانونية التي تقول : اذا كان المضيق واقعا في أرض دولة واحدة وكان اتساعه لايزيد على ستة أميال فان مياهه تعتبر مياها اقليمية ، وتتبع هذه الدولة ، واذا زاد اتساعه على ستة أميال فانه لايدخل تحت سلطة الدولة منه أكثر من ثلاثة أميال من كل ناحية من ناحية هذا المضيق على اعتبار أن المضيق كله تابع للدولة صاحبة شاطئيه اذ جرى العرف بذلك . وعلى أثر ذلك اتبعت الدولة العثمانية سياسة ناجحة في فرض سيادتها على البحر الأسود ، وكانت لها في ذلك الزمان حرية التصرف تفتحه لسفن بعض الدول على حسب اتفاقيات خاصة وللبعض منها استثنائيا ، وتقفله في وجه من تشاء ومتى تشاء [(٣)] وخاصةً إذا كانت السفن سفناحربية أو تحمل معدات حربية فيها خطر على البلاد الاسلامية . فالدولة بحكم موقعها الجغرافي معبر بين أوربا وآسيا أو بمعنى آخر بين بلاد الاسلام وبلاد المسيحية ، فهي المكان التي التصقت فيه القارتان وتقابلت فيه الديانتان وجها لوجه

---

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلاميةمفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣١ .

(٣) عبدالعزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٠-١٩١.

في العصر الحديث ، فقد هاجمت الدولة العثمانية الاسلامية أوربا في عصر قوتها ، من هذا الموقع إلا أنها اصبحت في موقف الدفاع عن النفس في عصرها الثاني الذي استدعي نظرة شاملة في كل أمورها [١] . وخاصة في مشكلة المضايق البحرية لموقع الدولة بوجه خاص ، فمشكلة المضايق مشكلة دقيقة ، بل كانت صورة حساسة لمركز الدولة العثمانية من حيث القوة والشموخ أو الاضمحلال والضعف [٢] .

لذلك جعلت مسألة المضايق الجغرافية والسياسية شيئا واحدا ، فهي مشكلة ناشئة عن موقع الدولة أو أهمية موقع ا لدولة ومركز اسطنبول الخطير من حيث تحكمها في المضايق ، وهذا جد خطير للغاية بالنسبة لدولة ضعيفة التسلح ، وعلاقتها العدائية بروسيا التي تريد الخروج من سجنها عبر هذه المضايق الى البحار الدافئة في عصر كان المستقبل فيه للبحر والتوجه اليه ، لهذا ينبغي للحركة الإصلاحية أن تعالج هذه الأوضاع وأن تدفع هذه الأخطار المحدقة بالدولة من كل صوب حين ظهر بوضوح أن قوة الدولة قد اضمحلت في القرن الثاني عشر الهجري ، القرن الثامن عشر الميلادي ، وأصبحت قوة مصطنعة وأن الدولة اذا لم تستيقظ من نومها وتصلح من شأنها فانها سوف تنهار قوتها ومركزها عاجلا أو آجلا [٣] . فالدولة العثمانية كانت في عصرها الأول قوية الجانب استطاعت أن تفرض سيادتها على المضايق والبحر الأسود مع احترام الدول لهذه السيادة ، الى حد أن الرعايا الروس اذا أرادوا ممارسة التجارة بين موانئ البحر الأسود كان عليهم أن ينقلوا بضائعهم على سفن عثمانية تحمل العلم العثماني ، أما الدولة في عصرها الثاني فقد اضمحلت وتعرضت لضغوط سياسية وعسكرية أحيانا من الدول الأوربية التي تسابقت في فرض معاهدات على الدولة حصلت بها على حق

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٦٤ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٩١.

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

المرور لسفنها التجارية والحربية في البحر الأسود في وقت الحرب والسلم ، حتى بلغ الهوان والضعف بالدولة انها اعترفت في إحدى المعاهدات بأن الدفاع العسكري عن المضايق إنما هو مسئولية مشتركة بينها وبين الروس . وهذا يعد انتهاكا لسيادة الدولة العثمانية ، وعصفا بسياستها العليا ، نتيجة للهزائم العسكرية التي تعاقبت عليها ، والأخطار التي جثمت عليها لضعف سلاطينها في الفترة الثانية [1] كما سيأتي الحديث عنهم حين تكالبت الدول الأوربية للضغط على الدولة من كل صوب ، باثارة المشاكل بين الأقليات المسيحية في البلقان والصرب ، لايجاد المبرر للتدخل الأجنبي بحجة حماية الأقليات المسيحية . وهكذا أصبحت الدولة في اضطرابات دائمة ، حتى أصبح التفكير جاداً بين بعض دول أوربا لإقتسام ممتلكات الدولة العثمانية ، الا أن البعض الآخر كان يرى المحافظة على ممتلكات الدولة ، وأن تبقى الحالة كما هي عليه خوفاً من اندلاع الحرب حول هذه التركة .

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٩١.

ب – تطورات التاريخ الأوربي الحديث :

ان تطورات التاريخ الأوربي الحديث قد أوجد الحركة العلمانية والقومية والحركة الدستورية ، وهي احد عناصر الغزو الفكري الأوربي الذي تسرب للدولة العثمانية بصورة خاصة ، أو للعالم الاسلامي بصورة عامة بقصد تفتيت الوحدة الاسلامية ،وخلق جو من الاضطرابات والصراعات داخل جسم الدولة العثمانية .

فالعلمانية هي من نتاج الصراع الذي حصل بين البابوية والأباطرة أيهما أعلى ، البابا أو الامبراطور ؟ فانتهى هذا الصراع بعد قرنين من الزمان بهزيمة البابوية وظهور العلمانية ، لاصدار الدساتير لبيان حدود الحاكم والمحكوم ، ويعني ذلك تحلل أوربا من الاقطاع الذي خيم على أوربا خلال العصور الوسطى ، وايجاد الدول الحديثة المنظمة ، لاستحالة العودة الى نظام أوربا الاقطاعي [١] .

ويؤكد عبدالكريم المشهداني أن معنى " العلمانية في المفهوم الغربي تعني أن شئون الحياة أمر خاص بنشاط الانسان وسعيه بمعزل عن أي نظام ديني أو روحي ، فهي تعني الدنيوية أو العصرية أو الزمنية ، والتفريق فيها واضح بين ثنائيات ا لله والقيصر والكنيسة والدولة والامبراطور والبابا والقانون الكنسي والقانون الوضعي " . فالدولة الأوربية تقف من الدين موقف المحايد ، لامعه ولا عليه مع كفالة حرية المعتقد وحرية العبادة وحرية التنصير الديني على شرط ألا يخل هذا بالنظام العام وعدم التزام الدولة بأي عقيدة دينية ، وحتى لاتميز أي عقيدة على الأخرى . [٢] .

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقة العضوية بالاززمنة الحديثة ، (العدد ٢ السنة الحادية عشرى ، ١٤٠٦هـ) ، ص ٩٢ .

(٢) العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ١٣ .

والتفسير الشائع للعلمانية في الكتب الإسلامية المعاصرة هو " فصل الدين عن الدولة " ،والحقيقة أن هذاالتفسير لايعطى المدلول الكامل لمعنىالعلمانية الذي ينطبق على الأفراد وعلى السلوك الذي لايكون له صلة بالدولة ، ولو قيل إنها فصل الدين عن الحياة لكان أصوب ، ولذلك فان المدلول الصحيح للعلمانية هو : " اقامة الحياة أو الافراد في موقفها من الدين بمفهومه الضيق المحدود : فبعضها تسمح به كالمجتمعات الديمقراطية الليبرالية ، وتسمى منهج (العلمانية المعتدلة – Noreligious) أي أنها مجتمعات لادينية ولكنها غير معادية للدين وذلك مقابل مايسمى (العلمانية المتطرفة – Anti Religous) أي المضادة للدين ويعنون بها المجتمعات الشيوعية ومشاكلها .

أما موقف الاسلام من هذا فلافرق عنده بين المسيحيين فكل ماليس دينا في المبادئ والتطبيقات فهو في حقيقته مضاد للدين ، فالاسلام واللادينية نقيضان لايجتمعان ولا واسطة بينهما [(١)] .

ولقد كان للصراع الدائر بين الكنيسة ورجال الدين المتحررين في أوربا أثر بعيد في التطرف ،ونقل معنى العلمانيةالى معنى يكاد يقرب من الالحاد ، فقد كانت الكنيسة تتمتع بسلطان مطلق لاحدود له ، لافي شئون الدين فحسب بل في شئون ا لدنيا أيضا . فكان لها وحدها تفسير الكون ووضع النظريات الفلكية والجغرافية دون الدخول في تفاصيل تلك القضايا ، ثم في المبدأ والمصير وقوانين المجتمع بكل تفاصيلها ، ولو خالف ذلك العقل والمنطق ، وزاد شعور الناس بعبء سلطان الكنيسة حين وقفت في طريق التقدم الفكري والعلمي وراحت تلاحق العلماء وتعدمهم حتى جاءت الثورة الفرنسية فحسمت هذا الموقف لصالح

---

(١) سفر عبدالرحمن الحوالي : العلمانية ، (الطبعة الأولى ، مكة ، دار مكة للطباعة والنشر ، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م)، ص ٢٣-٢٤ .

اللادينية (العلمانية) [1] .

ولكن قبل ذلك كان النظام الاجتماعي الذي كان يسود الحياة في تلك الفترة أو طيلة القرون الوسطى هو نظام " الاقطاع " ، وهذاالنظام أبشع وأظلم النظم الاجتماعية التي عرفها التاريخ ، فالظلم دافعا سمة من سمات الحكم الجاهلي لأي مجتمع في كل مكان وزمان ، ولكن صورته في المجتمع الأوربي الاقطاعي كان أشد قسوة ، في الوقت الذي كان فيه المشرق الإسلامي ينعم بحياة هادئة في ظل العدالة الإسلامية وفي أفضل نظام اجتماعي على مر العصور عندما كان المسيحي في المقابل يعيش نير نظام الكنيسة البغيض . فليس هناك مقارنة ، وكان الاحتكاك المباشر بالمسلمين هو أولى محاولات الانسان غير المسلم الانفلات من المظالم الاقطاعية، وذلك عن طريق الفتوحات الاسلامية في أوربا ، وبلغ الاحتكاك ذروته إبان الحروب الصليبية ، وليس غريبا أن يكون أرقاء فرنسا هم رواد الثورة الفرنسية لموقعها الجغرافي المحاذي للمسلمين في الأندلس ، وبعد مركز البابوية عنها وهذا من الأسباب التي دفعتها الى روح التحرر والانطلاق [2] .

اضافة الى ماسبق لاننس الفتوحات العثمانية التي توغلت في أوربا لنشر الاسلام بها ، مما جعل هذه الدول تتعرف على الاسلام في عقر دارها ومما أعطاها دفعة قوية أيضا للثورة على افساد نظام الاقطاع والتحرر من القيود الكنسية التي

---

(١) عبدالكريم المشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ١٣-١٤.
، محمد أبوزهرة : محاضرات في النصرانية ، (الطبعة الرابعة ، الرياض ، الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية ، ١٤٠٠هـ)، ص ٢٠٧-٢٠٨ .
، سيد قطب : المستقبل لهذالدين ، (الطبعة السابعة ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٤٠٧هـ)، ص ٤٠-٤١.

(٢) سفر عبدالرحمن الحوالي : العلمانية ، ص ١٦٥ .

أصبحت لاتجاري طموحاتها كماهو الاسلام الذي يصلح أو يواكب كل زمان ومكان .

لذلك انطلقت الثورة الفرنسية في سنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م لتكون آخر مسمار يدق في نعش السمو الكنسي ، تلك الثورة التي كان واحدا من شعاراتها (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس) ، وبذلك تم الفصل بين الدين والدولة في أوربا [(١)] لتصبح أورباللادينية (علمانية) والتي فصلت سلطان الدين حين حصرته داخل جدران الكنيسة ، فمن أراد فليذهب اليه هناك [(٢)] .

لذلك يقول ويلز " كانت ثورة الشعب على الكنيسة دينية ، فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساونها ونواحي الضعف فيها ، وكانت حركات تمردهم على الكنيسة حركات لايقصد بها الفكاك من الرقابة الدينية بل طلب رقابة دينية أتم وأوفى .. ولم يعترضواعلى البابا لأنه الرأس الديني للعالم المسيحي ، انما اعترضواعليه لأنه لم يكن كذلك ، أي لأنه كان أميرا ثريا دنيويا ، بينما يجب أن يكون قائدهم الروحي " [(٣)] . والحقيقة أن المناداة التي سبقت بفصل الدين عن الدولة في تاريخ الكنيسة ماهي في الواقع الا العودة بها الى ماكانت عليه في وضعها الأول الصحيح وأن انحرافها عن هذا هو الذي جرها الى البلاء والشقاء.

أما الاسلام فان المناداة بفصله عن الدولة انحراف به عن وضعه الصحيح ، بل ان وقوع هذاالفصل في بعض مراحل التاريخ قد جر على الاسلام والمسلمين

---

(١) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١١٦-١١٨ .

(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ١٤-١٥ .

(٣) معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ، ص ٩٨٩-٩٩٠ .

، سفر عبدالرحمن الحوالي : العلمانية ، ص ١٦٦-١٦٧ .

البلاء [1] ، لأن الاسلام عبادة ونظام شامل صالح لكل زمان ومكان أعطى للانسان حقوقه وأطلق العقول في مجالاتها الصالحة .

ولم تكن الثورة الفرنسية حدثا مهما في تاريخ فرنسا فقط ، انما هي أبرز احداث القارة الأوربية ، فقد وضعت حدا للنظام القديم القائم على الاستبداد في الحكم ، وفتحت الباب أمام نظم جديدة ، ملكية كانت أم جمهورية [2] ، لادينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب (وليس باسم الله) وعلى حرية التدين والحرية الشخصية بدلا من التقيد بالأخلاق الدينية ، وعلى دستور وضعي بدلا من قرارات الكنيسة ، ثم قامت بحل الجمعيات الدينية وسرحت الرهبان ، وصادرت أموال الكنيسة ، وألغت كل امتيازاتها ، وحاربت الثورة العقائد الدينية علنا وبشدة ، وأصبح رجل الدين المسيحي موظفا مدنيا لدى الحكومة [3] .

وقد كانت أوربا تشكو مما كانت تشكو منه فرنسا حيث كان الملوك يمارسون الحكم المطلق على شعوبهم ، والطبقات الممتازة (الاقطاعيون) يهيمنون على خيرات البلاد في كل مكان ، والكنيسة تتمتع باسم الدين بامتيازات لاحد لها، وباعفاءات من الضرائب والواجبات تجاه الدولة ، والحريات العامة لاوجود لها الا في صدور الأحرار ، والشعوب لاسيطرة لهم ولا سلطان لهم [4] . فالثورة الفرنسية جاءت تعالج هذه العلل وتحاول أن تجد لها حلولا تصلح لفرنسا كما

---

(١) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٠-١٢١.

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار وآخرون : التاريخ المعاصر ، (بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ١٩ .

(٣) سفر عبدالرحمن الحوالي : العلمانية ، ص ١٦٩ .

(٤) عبدالعزيز سليمان نوار وآخرون : المرجع السابق . ص ١٩ .

تصلح لغير فرنسا في حالات كثيرة أبان العصر الحديث [١] . فالثورة التي حدثت في القرن الثالث عشرالهجرى / الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي بالنسبة لشعوب أوربا المظلومة كانت بمثابة المدرسة الرائدة في مجال التحرر ، تأثرت بها واستنارت بكثير من أفكارها ومبادئها الجديدة ، لمعالجة أوضاعها السياسية والاجتماعية[٢].عندما كانت الحكومات والشعوب الأوربية في القرنين الحادى عشر والثاني عشر الهجريين الموافقين للقرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين تعيش في جو الأزمات الفكرية وأزمات التنظيم الاجتماعي والحروب والثورات الدينية ، فحاولت الثورة الفرنسية أن تجد حلا لجميع المشكلات وفعلا حلت مشكلات وأصبحت هي ذاتها مشكلة [٣] وسنتناول ذلك في الفقرة التالية .

---

(١) عبدالعزيز نوار وآخرون : التاريخ المعاصر ، ص ١٩ .
، محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته بالأزمنة الحديثة ، (ا لدارة ، العدد الثاني ، السنة الحاديةعشرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ص ٩٣ .

(٢) عبدالعزيز نوار وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٩-٢٠ .

(٣) محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة الاسلامية ، ص ٨٢ .

ج – صدى الثورة الفرنسية في الدولة العثمانية :

لقد كانت الثورة الفرنسية بداية لتغير سياسي على الخريطة الأوربية بشكل جذري كشفت للعالم عن مطامع نابليون التوسعية ، فنتيجة لذلك اتسعت فرنسا بعد الثورة وبشكل غير معقول ، لم تعهده فرنسا نفسها، فأصبحت تضم بلاد بلجيكا ، وكل الأراضي الواقعة بين الحدود الفرنسية ونهر الراين ، ثم الساحل الايطالي من الحدود الفرنسية الى روما [1] .

وقد أثارت هذه المطامع أوربا كلها ، فواجه نابليون العداء الشديد من تلك الدول ، نتيجة للسلطات التي آلت اليه ، حتى أصبح مبعث خوف أوربا لميوله الاستعمارية التي تجلت في حملاته العسكرية على ايطاليا وألمانيا وهولندا وسويسرا ، حتى دانت له تلك المناطق التي جعلها نابليون من ممتلكاته الشرعية الجديدة[2]، فأصبحت هذه المكاسب الثورية مصدر رعب لملوك أوربا المحافظين خاصة بعد أن اعتنق أبناء هذه الشعوب مبادئ الثورة . وهذا يعني أن هذه هي بداية النهاية لسلطانهم خاصة اذا ما ثارت شعوبهم عليهم طلبا للحرية [3] .

لذلك رأوا أن الحل هو الصدام العسكري المباشر مع فرنسا ، لوقف انتشار أفكار هذه الثورة في أوربا . وكان على رأس هؤلاء روسيا وأسبانيا فانتهزوا وفاة الامبراطور ليوبولد وارتقاء ابنه فرنسيس عرش النمسا الذي كان أكثر قوة وأقل حذرا وميلا للمسالمة من والده فشجعوه على اعلان الحرب ضد فرنسا[4] .

---

(١) عبدالمجيد نعنعي : أوربا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٣م) ، ص ٣١٩.

، عبدالعزيز نوار وآخرون : التاريخ المعاصر ، ص ١٣٥-١٣٦ .

(٢) آمال السبكي : أوربا في القرن التاسع عشر ، (الطبعة الأولى ،جدة ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ٩٥ .

(٣) آمال السبكي : المرجع السابق ، ص ٩٥-٩٦ .

(٤) عبدالعزيز نوار وآخرون : المرجع السابق ، ص ٥٠-٥١.

وقد انتهت تلك الحرب بانتصار الحلفاء على فرنسا ، رغم محاولة نابليون وأنصاره كبح جموح الجيوش المتحالفة الأوربية ، وذلك للقضاء على نظام الملكية وانتصارا لمبادئ الثورة الفرنسية التي تدعو الى (الحرية والعدالة والمساواة)[1] .

وأمام هذا الخوف من تجدد الثورة وللحد من اتساعها بادرت الدول الكبرى الى اتخاذ بعض الترتيبات الكفيلة لتحقيق تحالف ضد هذه الثورة [2] بين ملوك روسيا والنمسا وبروسيا . ودعوا ملوكا آخرين للانضمام اليهم ظنا منهم أنهم يوم هزموا نابليون قد هزموا الثورة ، وأرجعوا الساعة أدراجها وأعادوا الملكية العظمى للأبد [3] ، وغفلوا عن أن نابليون قام بادخال المبادئ الأساسية للثورة الفرنسية في كل بلد ضم الى الامبراطورية الفرنسية ، وقد أوجد في كل مكان تقريبا أنصارا ومؤيدين لاصلاحاته الدستورية من أبناء الطبقات الثائرة، وقد أعطى كل بلد من هذه البلدان مع الدستور الجديد القانون المدني الذي أفرزته الثورة الفرنسية (القانون الفرنسي) [4] .

هذا الحلف رسم بتوجيه من البارونة فون كرودنر التي كانت المدبرة الدينية للامبراطور الروسي . وتنص وثيقة هذا الحلف على الزام المشتركين فيه "بأن يضعوا أنفسهم ورعاياهم وجيوشهم في مكان الوالد من العائلة " وأنهم اذ يعد

---

(١) عبدالعزيز نوار وآخرون : التاريخ المعاصر ، ص ٥١ .
، ل.ج. شيني : تاريخ العالم الغربي . ترجمة مجدالدين حنفي ناصف . (القاهرة : الناشر دار النهضة العربية) ص ٣١٠.

(٢) عبدالمجيد نعنعي : أوربا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة، ص ٣٢٥ .

(٣) هـ. ج . ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ، ص ١٢٦٠ .

(٤) عبدالعزيز نوار وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٣٦-١٣٧ .
، عبدالمجيد نعنعي : المرجع السابق ، ص ٣٢٠-٣٢١.

أحدهم الآخر مواطنا له " يشد أحدهم ازر الآخر ، ويجمعون الدين المسيحي ، ويحثون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية ، حيث ينص أحد بنود الحلف بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية وأن الملوك المتربعين على دولهم بمثابة المحافظين باسم الملك المسيح ويحكمون باسم هذا الملك[١] .

وقد وقع على هذا الحلف كل من بروسيا وروسيا والنمسا في سنة ١٢٣١هـ/١٨١٥م ، وانضمت اليهم فرنسا فيما بعد [٢] محاولةَ البقاء في الصف الأوربي بعد اقالة نابليون واعادة الملكية في حكمها ، أو بالأصح عودة ملوكها آل بوربون .

وعلى الرغم من الصبغة الدينية لهذا التحالف إلا أنه في الواقع لايمثل الا رغبة ملوك أوربا في القضاء على كل محاولة للخروج عن طاعتهم أو قيام جمهورية ثورية في أوربا والعالم على شاكلة الثورة الفرنسية ، والواقع أن فكرة هذا التحالف فكرة خيالية تعارض الأماني الشعبية الأوربية السائدة في تلك الأيام . وقد صاحب هذا التحالف معارضة من الانجليز لعدم التوقيع على هذا الحلف لاعتبار أن مبادئه غامضة للجميع وغير عملية ، خاصة وأن المبادرة لهذا الحلف أتت من روسيا المعروفة بمطامعها الواسعة في أوربا مما جعل الشكوك تساور بريطانيا حول غاية ومقصد هذا التحالف .

اضافة إلى ذلك فان ملك بولنده (بولونيا) هو الآخر لم يوقع لأنه لم يكن له ملك في بولنده ، لأن الاسكندر الروسي قام وألحق بولنده ببلاده ، فأصبح حلفهم محالفة قانونية بين الدول عرف باتحاد أوربا ثم حلت محله عصبة الأمم

---

(١) هـ.ج. ولز: معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ، ص ١٢٦٠-١٢٦١.

(٢) عبدالمجيد نعنعي : أوربا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، ص ٣٢٥-٣٢٦ .

فيما بعد [١] . وسنرى دول هذا الاتحاد الأوربي ينقض على الدولة العثمانية يدا واحدة في ثورة اليونان لوقف الحرب التي انتصرت فيها الدولة ثم للسعي في استقلال اليونان وخلاصه من الدولة العثمانية مخالفين بهذا المواد التي تضمنها تحالفهم .

فالدولة العثمانية كانت كلما فتحت اقليما أوربيا اكتفت للأسف الشديد من أهله بالخراج أو الجزية غير متدخلة في دينهم أو لغتهم أو عاداتهم الاجتماعية[٢] لتطبيق الدولة الشريعة الاسلامية مع أهل الذمة .

ولهذا حين سنحت أول فرصة لهذه الدول طالبت باستقلالها [٣] . فالصورة التي خلفتها الحملة الفرنسية في مصر ثم تركتها انعكس صداها وامتد أثرها في أجزاء متفرقة من الدولة وفي العاصمة لأن نابليون أرسل وهو في مصر رسالة الى علي باشا والي يانيا ببلاد الأرنؤوط يحرضه فيها على التمرد والعصيان فورا في صراع مع السلطان ، الا أن السلطان سليم الثالث اكتشف في عام ١٢١٣هـ/١٧٨٩م أن السفير الفرنسي المقيم في اسطنبول والفرنسيين فيها يرسلون رسلهم الىالروملي والمورة وجزر الأرخبيل للحث على ثورة هذه البلدان ضد الدولة العثمانية [٤] .

ولما قامت الثورة الفرنسية بدعوى الحرية والمساواة والاخاء انتشرت مبادؤها في جميع أنحاء أوربا التي وطنها نابليون بجيوشه كما أسلفنا بل تعدت حتى

---

(١) هـ.ج.ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ج٤ ، ص ١٢٦١ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤١١.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١١.

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٧٠ .

وصلت آثارها وأفكارها الى بلاد اليونان فوجدت ألباب سكانها مغرسا فنمت فيه تحت ظل زعمائها في اليونان [١] فأهاجت أوربا الأهالي في تلك البلاد ضد الدولة العثمانية وافتتن شبابها بمبادئ الثورة الجديدة وخاصة ممن درسوا في أوربا [٢] .

فبلاد اليونان جبلية وأرضها وعرة المسالك اشتهر أهلها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين بحب العصيان والميل الى شق عصا الطاعة ، ولما أراد أهلها الخروج على طاعة الدولة متأثرين بالثورة الفرنسية اجتمع زعماؤهم ووحدوا رأيهم [٣] فألفوا عدة جمعيات لنشر العلم والمعرفة بين أفراد الأمة ، وبث الوطنية ، وشكلوا جمعيات أخرى سياسية متخصصة وجعلوا مراكزها في روسيا والنمسا ، وأهم هذه الجمعيات الجمعية السرية المسماة (هيتيري) [٤] تشكلت بتحريض من اسكندر الأول قيصر روسيا حتى يتسنى له تنفيذ وصية بطرس الأكبر ليجعل مدينة القسطنطينية مفتاح الممالك الروسية [٥] ، وأعظم أهداف الهيتيري المستورة بث روح الفساد والفتنة لتنفيذ المقاصد السياسية ،وكان من أبرز أعضاء هذه الجمعية

---

(١) محمد فريدبك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢.

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٦٧

(٤) هيتيري: كلمة يونانية معناها (أخويه) أطلقت على جمعيتين أسست احدهما في مدينة فينا عاصمة النمسا بدعوى تأسيس المدارس ونشر العلوم بين اليونان. والثانية لقصد سياسي محض وهو السعي في استخلاص بلاد اليونان من الدولة العثمانية وبقيت سرية الى سنة ١٨٢١م حيث ابتدأت الثورة جهارا وكان مركزها أولا في مدينة أودسا ثم انتقلت الى مدينة كييف وكلتاهما ببلاد روسيا الأمر الذي يدل على أن لروسيا ضلعا مهما في تأسيسها والصرف عليها .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١١ ، حاشية رقم (١) .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١١.

الكثيرون من كـــــــبار اليونان والقساوسة في بلاد روسيا [١] .

وهنا يتضح دور الكنيسة الأرثوذكسية في روسـيا ونفوذهـا في اليونـان مما يوضح دور الغزو الفكري لنشر هذه الأفكار واثارة اليونان ضد الدولة العثمانيـة ، كما نلمس محاولة بـث الـروح الصليبيـة لتعـود مـرة أخـرى في هـذه الثـورة ، لأن الكنيسة ظلت تقف خلفها كما ظهر من أعضاء هذه الجمعية .

فانتشرت جمعية الهيتيري بين اليونان في اقليم المورة حتى بلغ عدد أعضائهـا عام ١٢٣٧هـ/١٨٢١م عشرين ألفـا وجميعهـم مـن الشـباب القـادرين علـى حمـل السلاح متأهبين للثورة عنـد أول شـرارة تبـدو لهـم ، وهـذه الشـرارة سـاعد علـى اشعالها عصيان على باشا والي يانيا الذي شق عصا الطاعة وكـان ينـوى الاسـتقلال ببلاده [٢] . فاعتبرت ثورة علي باشا هي مطلع الثورة اليونانية [٣] .

لهذا انتهز الثوار اليونانيون هذه الفتنـة ، وأشـهروا عصيـانهم علـى الدولـة العثمانية ، فأخرجوا الجنود العثمانيين من حصونهم ، وحلوا محلهم ، وأقاموا نظامـا يونانيا حاكما حل محل الحكومة العثمانية ، الا أن السلطان محمود الثاني سير جيشا بقيادة خورشيد باشا الى علي باشا فاستطاع هذاالجيش قمع تلك الثورة وقتـل والي يانيا في سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م ومن ثم واصل سيره لقمع ثورة اليونان بـأمر مـن السلطان واخضاعها للدولـة ، لكـن اليونـانيين اسـتطاعوا هزيمـة خورشـيد في سـنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م فمات هذا القائد كمدا من هذه الهزيمة [٤] .

ولماكانت النمسا تميل الى مساندة السلطان محمـود الثـاني ضـد أي تدخـل روسي لمعاونة الثوار فقد أشارت عليه بأن يستعين بواليه في مصر محمد عـــــلي ،

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٦٧ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٤١٢.

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٧٠ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١٢ .

والحقيقة لم تكن النمسا صادقة في موقفها ولكنها أرادت أن تقف في وجه روسيا لتمنعها من التدخل في شئون البلقان [١] . لذلك رأى السلطان محمود الثاني أن يحول هذه المهمة فعلا الى واليه في مصر ، ليشغله أيضا عما كان يظن أن ينويه وهو طلب الاستقلال ببلاده ، فأصدر السلطان مرسوما في سنة ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م بتعيين محمد علي واليا على جزيرة كريت وإقليم المورة وهما بؤرتا هذه الثورة [٢].

وفي الحال أصدر محمد علي أوامره هو الآخر باستعداد الجيش للسفر لهذه المهمة ، وعين ابراهيم باشا قائدا لهذه الحملة التي أبحرت من الاسكندرية على سفن مصرية تكتنفها سفن حربية أيضا من الاسطول البحري الذي أنشأه محمد علي، فسارت السفن حتى وصلت جزيرة رودوس للاجتماع بالبحرية العثمانية ، ومنها انطلق ابراهيم باشا الى جزيرة كريت فاحتلها ، وتمكن من انزال جيشه في ميناء مودرن بالموره بعد مقاومة شديدة من أهله ،وكان الرأي في أوربا ملتهبا ، ولولا مساعدة أوربا لليونانيين عن طريق المال والرجال لما أمكنهم مقاومة الجيش العثماني[٣] .

وقد قاتل اليونانيون من قبل قتال المستيئس ست سنوات، على حين وقفت حكومات أوربا تنظر اليهم متفرجة ، فاحتج الرأي العام على هذا الجمود [٤] هذا

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية (القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر : ١٩٧٦م) ، ص ١٤١.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤١٢.
، محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٤٠-١٤١.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١٣-٤١٥.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٧٩.
، محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٤١.

(٤) هـ.ج. ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ، ص ١٢٦٦.

انضم الى الثوار كل من تطوع من مشاهير أوربا وأميركا ، وعلى رأس هؤلاء وشنطون ابن محرر أمريكا ، واللورد بيرن الشاعر الانكليزي ، وغيرهما من الذين وقفوا حياتهم للدفاع عن مبادئ الحرية [1] ، ولبث أفكار الثورة الفرنسية في الأقطار الأوربية التابعة للدولة العثمانية وفي كل مكان . حتى العناصر المعادية للثوار اليونانيين في بعض الدول الأوربية أظهرت تعاطفا مع الثورة اليونانية لأن اليونان يقاتلون المسلمين وقتال المسلمين يتفق مع الروح الصليبية المعادية للاسلام[2].

وكانت قوات ابراهيم باشا قد اكتسحت العديد من المواقع الحربية في اليونان ، عندما استولت على مودرن وميسولونجي وأثينا وأصبحت المورة بأكملها تحت السيطرة العثمانية بفضل من الله وتوفيقه [3] .

ولما استرد الجنود العثمانيون هذه المدن سكنت الثورة ببلاد اليونان لاخضاع معظمها [4] بينما ابراهيم باشا لايزال مستمرا في فتح ماتبقى من البلاد وأثناء ذلك تدخلت الدول الأوربية بين الدولة العثمانية واليونان بحجة وقف القتال وحماية اليونانيين في الظاهر ، أما الوجه الآخر فهوفتح المسألة الشرقية وتقسيم ممتلكات الدولة الاسلامية بينهم سرا [5] . ففي سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م رأت أوربا أن تمكن اليونانيين من استقلالهم فاتحدت روسيا وانجلترا وفرنسا على التدخل السريع لمناصرة بني دينهم حسب الحلف ، أو الاتحاد الأوربي سالف

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤١٤-٤١٥.
. اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٧٩.

(٢) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٤٥.

(٣) آمال السبكي : أوربا في القرنالتاسع عشر ، ص ٢٠٠.

(٤) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ، ص ٦٧٩.

(٥) محمد فريد بك : المرجع السابق ، ص ٤١٦ .

الذكر ، وعقدوا لأجل ذلك مؤتمرا بمدينة لندن في سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م قرروا فيه بالاجماع إلزام الباب العالي قبول استقلال اليونان استقلالاً اداريا بشرط أن يدفع اليونان للباب العالي مبلغا يتفق على مقداره فيما بعد كما يتفق على حدود البلدين .

وبعدأن صادق عليه المجتمعون قاموا بابلاغه الى الباب العالي وأعطوه مهلة شهر من تاريخه ليتمكن من وقف أعماله العسكرية برا وبحرا [١] . فبادرت الدولة بالرد ، بأنها لاتقبل هذاالتدخل اطلاقا ، من قبل روسيا وفرنسا وبريطانيا ، واعتبرت هذا العمل تدخلا سافرا في شئونها الخاصة .

فاغتاظت الدول من الدولة العثمانية واتفقت فيما بينها على الزام الدولة بمنح بلاد اليونان استقلالها الاداري بموجب المعاهدة ،ولكنهم انتظروا حتىانقضت المهلة المعطاة للدولة العثمانية ، عندئذ اصدرت هذه الدول الثلاث المتحالفة الأوامر الى أساطيلها بالتوجه الى سواحل اليونان لمواجهة الموقف ، عندئذ طلبوا من ابراهيم الكف عن مواصلة حربه ضد اليونان واجتمعت سفن الحلف الأوربي في ميناء نافارينو لمنع الأسطول التركي المصري [٢] .ومالبثت هذه الأحلاف أن دمرت الأسطول التركي في عمل مشترك في معركة نافرينو سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م[٣] .

وهكذا انتهت المعركة وانسحبت قوات محمد على عائدة الى مصر بعد أن اعتذرت اليه انكلترا عن خطأ قصف الأسطول ، ووعدته أن هو لزم الحياد وكف عن مساعدة الدولة العثمانية بالاعتراف له مستقبلا باستقلال مصر ، وقد قبل

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٧٩-٦٨٠

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٢٧ .

(٣) هـ.ج. ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ، ص ١٢٦٦-١٢٦٧.

، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٨٠

، محمد كمال الدسوقي : تاريخ اورباالحديث (القاهرة ، مطبعة النهضة الجديدة) ص ٧١-٧٢.

محمد على العذر الواهي كما قبل وعود الاعتراف له باستقلال مصر [1] .

فعقدت الدول الثلاث في سنة ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م مؤتمرا للنظر في مسألة استقلال اليونان وتعيين حدوده حين رفضت الدولة العثمانية ذلك، فأرسلوا الى الباب العالي دعوة لحضور هذا المؤتمر فرفض حضوره محتفظا بآرائه ومحتجا لانعقاده[2] .

وصدر قرار الدول الثلاث في لندن سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٨ م بوضع استقلال بلاد ا ليونان تحت حمايتها ، وأن ينصب عليها أمير مسيحي تنتخبه الدول الثلاث ، ويعوض المسلمون عما فقدوه من أملاك ، وأن تدفع هذه الامارة اليونانية للباب العالي جزية مقدارها خمسمائة ألف فرنك ، وهذا القرار لم يرض الجانبين ، وبذلك عاد الحرب بين الجنود العثمانية الباقية في بلاد اليونان ،ولم يحسم هذه الحروب الا انتصار روسيا على الدولة العثمانية وتدخل الدول الأوربية وعقد معاهدة ادرنة [3] كما سيأتي الحديث عنها في فقرة تالية .

وهكذا تمكنت الحروب الفرنسية من تحضير الشعوب البلقانية لمرحلة التمرد والعصيان [4] ، حين شغلت ثورة اليونان الدول الأوربية جميعا نظرا لموقعها الهام ، فأوجدت توترا بين الدول الكبرى والدولة العثمانية ، كاد أن يكون سببا في نشوب حرب كبرى [5] تقودها الأطماع في أملاك الدولة .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٦٨٢ .
، محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٤٩.

(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ص ٦٨٢ .

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٦٨٢ .

(٤) على حسون : العثمانيون والبلقان (الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م) ص ١٧٨ .

(٥) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١١٩.

ولم تكن في الواقع ثورة اليونان الا مقدمة للثورات التي نشبت في كل أنحاء أوربا سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م ، وكنتيجة حتمية للسياسة التي سارت عليها النمسا وروسيا وبروسيا بزعامة ميترنج وزير خارجية النمسا في الفترة من (١٢٣١-١٢٤٦هـ/١٨١٥-١٨٣٠م) وهي باسم العودة الى النظم القديمة التي سادت في أوربا سياسيا قبل حرب نابليون كما مر بنا [١] .

ولكن في سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨ م وهو العام الذي برزت فيه الحركة الدستورية والقومية بشكل قوى اذ طرأت على أوضاع الدول خلال هذه الفترة تغييرا ت أصبحت واضحة وحتمية ، ولقد أدى ذلك الى حدوث تغييرات جذرية ضد الأوضاع القديمة عن طريق الثورة لرغبة كل شعب في أن يحكم نفسه بنفسه بواسطة أحكام دستورية مقيدة [٢] .

ومهما يكن فقد حدثت في أوربا سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م الحركة الدستورية للحصول على الأنظمة الدستورية ووضع حد لاستبداد الملوك ، فبدأت هذه الثورة من باريس أيضا في سنة ١٨٤٨م باسقاط حكومة لويس فيليب[٣] ملك فرنسا وظهور الجمهورية الثانية .

عند ذلك تسربت هذه الأفكار او صدى هذه الثورة إلى جميع دول العالم :

---

(١) محمد كمال الدسوقي :تاريخ أوربا الحديث ، ص ٧٢-٧٣.

(٢) عبدالمجيد نعنعي : أوربا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، ص ٣٣٦.
، موريس دوفرجيه : دساتير فرنسا : ترجمة أحمد حبيب عباس ، القاهرة .الناشر : مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية ، الحمية الجديدة ، ص ٧٨.

(٣) انتخب كما مر بنا ملكا على فرنسا بعد عزل شارل العاشر الذي خلف أخاه لويس بعد موته سنة ١٨٢٤م وبقي ملكا حتى أجبره الثوار سنة ١٨٤٨م الى اللجوء الى انكلترا حتى توفى سنة ١٨٥٠ م .
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ٤٨٩، حاشية رقم (١) .

الى برلين وفينا وبراغ وغيرها من العواصم الأوربية الأخرى طلبا للحرية [١] .

وكان من نتائج هذه الحركة الدستورية في سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م والتي عمت جميع أوربا قد تسربت أفكارها الغربية الى الممالك الأوربية التابعة للدولة العثمانية فتاقت (الأفلاق والبغدان) الى الاستقلال والانضمام الى ترانسلفانيا لتكوين دولة رومانية جديدة ، فثار الأهالي على أميرى الولايتين المذكورتين فاضطروهما الى الفرار، فأقاموا حكومة مؤقتة ، حينئذ قامت الدولة العثمانية بارسال جيوشها تحت قيادة القائد الشهير عمر باشا فأعاد الأمور الى ماكانت عليه.

إلا أن روسيا أرسلت جيشاً الى بلاد البغدان لطرد الحكومة المؤقتة فاحتلت الأفلاق في سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م مما أدى الى معارضة الدولة العثمانية ضد هذا الاحتلال حتى أصبحت الحرب وشيكة بين الطرفين ، لولا حدوث المحادثات التي انتهت باتفاق الدولتين على احتفاظ السلطان العثماني بحق تعيين الأمراء بالولايتين كما كان ، وأن تبقى البلاد تحت حكم مشترك عثماني روسي لمدة سبع سنوات حتى يستتب الأمن في البلاد . وقد سمي هذا الاتفاق باتفاق(بلطة ليمان) [٢] ، نسبة الى المكان الذي تم فيه الاتفاق والتوقيع عليه [٣] . وهكذا استطاعت الثورة الفرنسية أن تخترق الحواجز السياسية والدينية لمجتمعات أوربا الغربية ، وتعمل على تغير النظم القديمة في أوربا " فالأمة الفرنسية ستجود بالاخاء وبالمساعدة على

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٨٩-٤٩٠.
. اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٢.
. علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٥٢.

(٢) هي فرضة صغيرة على بوغاز البوسفور (مضيق اسطنبول الحالي) من ضواحي اسطنبول الآن .
– اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٩٢ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٠.
. اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٩٢ .
. علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٥-١٢٦ .

جميع الشعوب التي تتحسس عميقا الرغبة في استرجاع حريتها المهيضة" وكان من الطبيعي أن تخرج هذه الأفكار عبر الحدود والمحيطات [١] ، ومع توسعات نابليون في أوربا انتشرت التقاليد الفرنسية ، وقامت في اسطنبول جمعيات تعلم أفرادها في باريس ، وكانوا يضعون شارة مثلثة الألوان على العمامة ، ويتغنون بأغاني الحرية التي انبعثت في عصر الثورة ، وان أهم العوامل التي شجعت اليونانيين على فكرة الاستقلال هي المعاني العلمانية التي نشرتها الثورة الفرنسية [٢] ، ومن أتى على شاكلتهم فيما بعد طلبا لاستقلال بلاده سواء ضد النظم القديمة الأوربية او الانفصال عن الدولة العثمانيةبالتحريض والتدخل من الدول الأوربية والروسية .

اذا فكل هذه الأحداث السابقة سواء أكانت قومية أم خلاف ذلك وما لحق بها انما هو صدى للثورة الفرنسية ، فالمحرك الأول والأخير هو تسرب أفكار مبادئ الثورة الفرنسية التي تدعو للعلمانية بموجب قوانين مقيدة ومشروطة لم تنج منها حتى الدولة العثمانية التي تسربت اليها هذه الأفكار .

ويعزو المؤرخ عمر عبدالعزيز عمر نجاح الأفكار الفرنسية الغربية وتأثيرها على الدولة العثمانية إلى القوة المادية للغرب واقامة اقتصاد أوربي متحكم وتفوق عسكري وسياسي يفوق كثيرا ماكان لدى العثمانيين أو أية أمة إسلامية وخاصة في عصر الدولة الثاني . ويبدو أن أفكار الثورةالفرنسية في عالم الإسلام وفي الدولة العثمانية كان يرجع الى أنها كانت أول ثورة اجتماعية في أوربا تدعو الى العلمانية ولا تتأثر بالعقيدة المسيحية [٣] .

ولم تستثن الدولة العثمانية نفسها أو الولايات الخاضعة لها من التأثيرات

---

(١) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٥٨ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٧٢-٧٣ .

(٣) عمر عبدالعزيز : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

هذه الثورة اذ كانت التأثيرات الفرنسية في الدولة العثمانية عسكرية ودبلوماسية أكثر منها فكرية ، إلا أن هذه المؤثرات قد فتحت قنوات تسرب منها الفكر والتقنية الأوربية لأول مرة الى عالم الاسلام عن طريق المدرسين والخبراء الفرنسيين.حيث وجد العثمانيون انه من الضرورى تعلم اللغات ،وهكذا أخذ العثمانيون ينقبون في الآداب الغربية ، فأخذت بهذه الطريقة الأفكار الغربية وأفكار الثورة الفرنسية تتغلب على حواجز الرفض الإسلامي لكل ماهو مسيحي ، وسار تقدم الدولة الحديثة في هذا المجرى المضاد للاسلام في أمور كثيرة .

والواقع أن هذا التأثير قد أصاب المجتمع العثماني بكل طبقاته ولئن كان التأثير في أول الأمر ضعيفا الا أنه أصاب الفئات المسيحية التي كانت تعيش تحت مظلة الدولة العثمانية .

وقد زادت هذه الأفكار الغربية خلال القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي حيث استطاعت أن تؤثر في بنية المجتمع العثماني وأن تصيب جميع فئاته بدرجات متفاوتة بكلمات ثلاث براقة (حرية – اخاء – مساواة) [١] كانت تمهيدا للحركة الدستورية ولحرب القرم وصدور الخط الهمايوني في سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كما سيأتي الحديث عنه في بابه .

---

(١) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٥٨-٢٥٩ .

د – أطماع الدول الأوربية في ممتلكات الدولة الإسلامية :

كانت الدولة العثمانية بحكم موقعها الجغرافي همزة الوصل بين آسيا وأوربا والمكان الذي التصقت فيه القارتان وتقابلت فيه الديانتان وجها لوجه في العصر الحديث [١] .

فعندما استطاع الأتراك العثمانيون منذ سقوط القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣ م أن يندفعوا في فتوحاتهم الإسلامية نحو البلقان ، وظلوا مسيطرين على معظم بلاده حتى القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي ، حيث دب الفساد والخلل في الدولة العثمانية .

الا ان السياسيين درجوا على تسمية البلقان " برميل البارود " لأن بلاده كانت مثارا للحرب منذ القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي ، فقد كان يسكنه شعوب مختلفة الأجناس والعادات والتقاليد ، متنافرة الشعور والأهواء والميول ، وقد تقاسم النفوذ في تلك المنطقة دولتان هما الامبراطورية النمسوية والدولة العثمانية كما مر بنا في الفصول السابقة ، لذلك كانت الفرصة سانحة لكل من روسيا والنمسا أن تحققا أطماعهما [٢] .

مع العلم بأن الدولة العثمانية شهدت فترة انتعاش ، بعد أن فقدت أسطولها في سنة ٩٧٩هـ/١٥٧١م في معركة لبانتو (Lepanto) حين استطاعت أساطيل البنادقة وحلفائهم بقيادة دون جوان النمسوي من الحاق هزيمة ساحقة به في عصر السلطان سليم الثاني ابن سليمان القانوني، وهذا الانتعاش ظهر عندما تولت

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني (الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ، ص ٢٦ .

(٢) عبدالحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، النهضة العربية ، ١٩٧٤م) ، ص ٤٧ .

الأسرة الألبانية كوبرولو منذ منتصف القرن الحادي عشر الهجري الموافق للقرن السابع عشر الميلادي والتي استحوذت على أعلى مناصب الدولة . غير أن هذا الانتعاش النسبي لم يحل دون تدهور الدولة أو انتكاسها في حروبها الخارجية مرة أخرى . فكان فشلها الذريع في محاولة استيلائها على فينا في سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٣ م ، في حين استمرت النمسا تلحق بالدولة الهزائم المتتالية حتى انتهت هذه الحروب بين الدولتين بمعاهدة كاروفتز في سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م والتي بمقتضاها أجبرت الدولة العثمانية على التنازل عن ترانسلفانيا وغالبية اراضي المجر وأجزاء كبيرة من سلافونيا وكرواتيا وأن ترد أجزاء من أكرانيا الى بولندة(١).

لهذا تعد معاهدة كارلوفتز أول محاولة لتقطيع وحدة الدولة العثمانية (٢) ، هذا العمل الذي بدأ في كارلوفتز قد عملت معظم الدول الأوربية على استكماله في غالبية المعاهدات التي فرضتها على الدولة العثمانية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافقين للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ومن أبرز هذه المعاهدات التي تلت كارلوفتز على سبيل المثال لا الحصر معاهدة باساروفتز (Passarovitz) سنة ١١٣١هـ/١٧١٨م ، ومعاهدة كتشك كينارجي Kuckkaynarca)) سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م ثم تلاها فيما بعد معاهدة أدرنة ومعاهدة سان ستيفانوا ومعاهدة برلين التي تم فيها تقسيم أملاك الدولة العثمانية وذلك في سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م كما سيأتي .

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (القاهرة . مكتبة الانجلو المصرية . ١٩٨٥م) ص ١٦٨.

(٢) يعتبر ارتداد الجيش العثماني من أسوار فينا للمرة الثانية تأريخا لبداية انحلال الدولة العثمانية . وقد سبق للدولة أن ارتدت عن أسوار فينا في سنة ١٥٢٩م . وكان ذلك في عهد السلطان سليمان الأول (القانوني) وتحت قيادته .

– عبدالعزيز الشناوي :الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . ج٢.ص١٠٥٩. حاشية رقم(١).

وقد تسابقت روسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وايطاليا فيما بعد على السير على النهج والعمل المعدين لتدمير وحدة الدولة العثمانية فكان على الدولةالعثمانية أن تواجه أطماع هذه الدول وتقوم بعد تلك المحاولات العدائية[١].

واذا كانت معاهدة كارلوفتز قد أنهت الصراع التقليدي النمساوي العثماني فان صراع الدولة العثمانية مع دولة حديثة وهي روسيا أصبح أمرا واقعا فلقد نمت روسيا في دوقية موسكو في أواخر القرن التاسع الهجري الموافق لأواخر القرن الخامس عشر الميلادي حتى أصبحت دولة فتية صغيرة ، وبدأ الاحتكاك بين الدولتين الدولة العثمانية والدولة الروسية الحديثة على امارات الحدود غير أن الوقت تغير بوصول بطرس الأكبر الى عرش روسيا ، وكانت سياسة هذا القيصر واضحة تنحصر في فتح آفاق جديدة في بحر البلطيق وفي البحر الأسود [٢] .

فقد رسم سياسة روسيا التي سارت على نهجها كاترين الثانية ثم اسكندر الأول نحو الدولة العثمانية ، حيث أخذت كاترين الثانية تتطلع الى اليوم الذي تسير فيه الى القسطنطينية ولهذا الهدف أوقفت جهدها وقد ذهبت الى أكثر من ذلك اذ أعدت حفيدها قسطنطين لاعتلاء عرش بيزنطة في مقابلة للامبراطور جوزيف الثاني ملك النمسا في كرسون (Kherson) فأقيم احتفال بهذه المناسبة ، وقد مر الإثنان من تحت قوس كتب عليه " هذا الطريق الى بيزنتيوم " وفي هذه المقابلة تم تقسيم أملاك الدولة العثمانية في أوربا بحيث يتكون من موريا وتساليا ومقدونيا وتراقيا والقسطنطينية امبراطورية يونانية .

أما كيف الوصول الى الهدف فقد اتبعت كاترين ما أسماه بعض المؤرخين بالميكافيلية المسكوفية وهي اثارة الحروب الأهلية والاضطرابات في أملاك الدولة،

---

(١) عبدالعزيزالشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ص ١٠٥٨-١٠٥٩ .

(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانيةوالشرق الأدنى ، ص ١٦٨ .

وخلق فرص للتدخل ، ثم مقاومة أي حركة اصلاحية عثمانية قد تؤدي الى القضاء على هدفها ، أو الابطاء به ، ولذلك كان الاشتباك بين الدولتين يكاد يكون متصلا في القرن الثاني عشر الهجري ومطلع القرن الذي يليه الميلاديين ، وكان القصد من ذلك هو نشر الخلل الاداري وابعاد البلاد بقدر الامكان عن الاصلاح الممكن (١) حتى لاتستعيد الدولة سابق قوتها .

وكانت النتيجة أن اتجهت مطامع هذه الدول نحوها ، فلم تملك الدولة العثمانية سوى الوقوف أمام هذه المطامع موقف الدفاع ، بعد أن كانت في السابق في موقف الهجوم ، لذلك بدأت الدول الأوربية في تقدم مستمر ودائب ، والضعف والانحلال صار ينخر في جسم الدولة ، فتكالبت دول الاستعمار لالتهام الدولة العثمانية الضعيفة،ولكن هذه الدول الأوربية وروسيا أثناء سباقها لالتهام الدولة العثمانيةكانت تجد نفسها وجها لوجه في كثير من الأحيان ، وقد تساعد احدى هذه الدول الدولة العثمانية وتعقد معها المعاهدات لا لتأمين سلامتها بل خشية وقوعها في أحضان المنافسين دون أن تأخذ حصة مناسبة ، وهذا هو ماسمي في التاريخ " بالمسألة الشرقية " (٢) .

والحقيقة أن المسألة الشرقية لها معنيان : الأول : عصر قوة الدولة وخوف أوربا من تقدم العثمانيين في أوربا ، أما المعنى الثاني : فهو العصر الأخير للدولة والخوف من سقوطها ونشأة صراع أوربي حول تقسيم ممتلكاتها .

يؤكد ذلك التشابك المتقلب الوعر بين مصالح متضاربة ، وشعوب متنافسة وأديان متنابذة نقنعها بقناع شفاف ، ونطلق عليها اسم يسير : المسألة الشرقية ، غير أن المسألة الشرقية كما يعرفها كل باحث حق المعرفة ، هي وجود

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٦١-٦٣ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ٣٠ .

الأتراك العثمانيين في أوربا وفتحهم لمدينة القسطنطينية - ذلك الموقع الفريد - وسيطرتهم الاسلامية على شعوب مسيحية " [١] .

غير أن المسألة الشرقية بوجه عام مسألة تناول المصالح المتضاربة أو التنافس العنيف الذي وقع بين الدول الأوربية والشرق الأدني ، في المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية ، وعلى وجه التحديد في القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي .

فقد كتب البرت سورل (Sorrel) يقول : " منذ أن ظهر الأتراك في أوربا نشأت مسألة شرقية ي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية دولة قوية مابين القرن الثامن ، وأواخر القرن الحادي عشر الهجريين أي مابين القرن الرابع عشر وأواخر السابع عشر الميلاديين ، في هذه الفترة كانت الدولة العثمانية " الرجل الأوربي المعافى السليم الجسم " وكانت دوافع المسألة تعني كراهية الأتراك وبغضهم دينيا وعسكريا ولكن عندما أخذت الدولة تتقهقر أصبحت "المسألة الشرقية تعني بالمشكلات الدولية المترتبة على انحلال الامبراطورية التركية وتجزئها الوشيك " .

وعند التحليل لهذه المشكلات في النهاية نجد انها تدور حول سؤال واحد هو : اية دولة أو دول ستكون وارثة هذه الدولة الشاسعة المساحة ؟ [٢] .

اذا في المرحلة الأولى من مراحل المسألة ا لشرقية ، كان الأتراك العثمانيون يشكلون تهديدا حقيقيا للنظام السياسي والاجتماعي في أوربا ، أما

---

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان (الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النهار للنشر : ١٩٧٧م) ، ص ٢٢ .

John Morely : The life of Willem Ewart Gold stone , Vol. 1. (1809-1859) , London , p. 476 .

(٢) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٢٢-٢٣ .

المرحلة الثانية فكانت الدول المسيحية خلالها تشكل خطرا على الأتـراك العثمـانيين ينذر بزوالهم من أوربا .

وفي هذا المقام ينبغي علينا أن لا ننسى أو نتناسى العصر العلماني أو عصـر الغزو الفكري وهو أن العامل الديني كان من أهـم عوامـل المسـألة الشـرقية . فقـد أنشأ الأتراك في أوربا أكبر وأقوى دولة اسلامية تعرف بالدولة العثمانية ، ولذا فان المسألة الشرقية كما عرفها ادوارد دريو(Driault) هي " مشكلة القضاء على قـوة الاسلام وسياسته " [١] . وهذا ماقاله الأوربيون أنفسهم ، ليكـون حجـة علـى مـن سواهم ، والحق ماشهد به الأعداء .

ويعـزز ذلـك الـرأي قـول فـارلي (Farley) : " ان السـلطان الحـاكم في القسطنطينية هو خليفة المسلمين ، واسطنبول عاصمة للدولـة العثمانيـة ولكنهـا في الوقت نفسه مركز للخلافة الاسلامية ، كما أن رومـا عاصمـة للديانـة المسـيحية ، وعلى هذا فان المسألة الشرقية مسألة دينيةكذلك " [٢] .

لذلك ارتبطت الأقليات المسيحية في الدولة العثمانيـة بأوربـا ارتباطـا دينيـا ومذهبيا بوجه عام ، ففرنسا اعتبرت نفسها حامية للمذهب الكاثوليكي في لبنان لما كان للمارونية من مجهود خاص في الحروب الصليبية ، ولهـذا فـانهم اكتسـبوا منـذ ذلك الحـين نوعـا مـن الحمايـة الفرنسـية ، وكـانوا يخصصـون مكانـا في كنائسـهم للقنصل الفرنسي .

أما روسيا فقد جعلت نفسـها حاميـة للمذهـب الأرثوذكسـي في ممتلكـات الدولة العثمانية ، ومن خططها جذب الأرثوذكس نحوهـا وتحريضهـم ضـد الدولـة العثمانية ، الا أنها تركت للنمسا الأرثوذكس السلاف في الصـرب مقابل مساعدة

---

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٢٣.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٢٧ .

النمسا لروسيا في اعادة الامبراطورية البيزنطية كما سبق .

أما انجلترا فقد كانت المصالح الاقتصادية هي شغلها الشاغل في توجيه سياستها لذلك كانت الدولة العثمانية في مطلع القرن الثالث عشر الهجري الموافق لمطلع القرن التاسع عشر الميلادي أمام مصاعب عاتية نتيجة للارتباط المذهبي بين جماعات من رعاياها داخل الدولة وبين الدول الأوربية التي أشرنا اليها (١) .

ولاشك في أن هذا النشاط الديني كان حجر الأساس في بعث القوميات في البلقان الذي مر بمراحل الاثارة ثم النضال ثم التدخل الأوربي المستمر ثم المرحلة الأخيرة وهي الاستقلال (٢) .

يتضح من ذلك تدخل عوامل الغزو الفكري والعسكري في شئون الدولة العثمانية جنبا الى جنب لحماية الأقليات ظاهرياً ، أما الوجه الآخر فهو القضاء على الاسلام ، وطرد الدولة ا لعثمانية من أوربا مع التذرع باسم الامتيازات الممنوحة لهم منذ عهد السلطان سليمان القانوني .

لذلك كان الأوربيون يؤلمهم بصفة خاصة خضوع شعوب مسيحية لحكومة اسلامية فهي اذا لم تكن تكره سقوط الدولة العثمانية واختفاء رايتها تماما وكانت كل دولة من الدول الأوربية الكبرى تحب أن ينالها شيء من ولاياتها (٣) . وقد حرصت هذه الدول على توطيد علاقتها المباشرة مع جميع طوائفها غير الاسلامية في داخل كيان الدولة العثمانية ، فاهتزت الدولة لهذا الأمر وأصبحت في موقف يستدعي نظرة شاملة في شئونها الخارجية والداخلية ، وذلك في أواخر القرن الثاني عشر الهجري وما يليه الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي (٤) .

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٢٧-٢٨.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٢٧-٢٨.

(٣) محمد شفقيق غربال : العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم ، ص ٨٢.

(٤) محمد شفقيق غربال : المرجع السابق ، ص ٨٥ .

لهذا كانت المسألة الشرنيه ايضا ذات شقين هما : الدولة بنظمها في جانب، وثورات مستمرة من شعوب هي رعايا للدولة وهذه الشعوب تحاول التخلص من سيادتها في جانب آخر ، وبين هذين العنصرين عنصر ثالث هو تدخل الدول الأوربية الكبرى في شئونها. وقد أدى ذلك الى ضعف الدولة ، واختلال النظم فيها ، وخلق ميدان فسيح للصراع والتنافس الأوربي [1] من أجل اقتسام أملاك الدولة العثمانية فيما بينها طوال القرن التاسع عشر الميلادي .

لكن الدول الكبرى أصبحت سياستهاترتبط بمصالحها الخاصة مما جعل كل دولة تضحي بكل شئ عدا مصالحها ، فكانت كل دولة تنظر بمنظارها الخاص وتعمل من أجله ، فكانت بعض الدول ترى من مصلحتها التعجيل بتقسيم الدولة وتحطيمها لتحصل على الأجزاء التي ترغب فيها ، بينما البعض الآخر كان يريد المحافظة عليها على أن يكون له النفوذ الراجح ، فنشأ ماسمي باسم سياسة التدخل ، وتقابلها ما أسميت باسم سياسة التكامل [2] .

وتعني سياسة التدخل : العمل على طرد المسلمين العثمانيين من أوربا أو تحرير الأجناس الأوربية الخاضعة لهم. أما فكرة التكافل فهي تعني تكافل الدولة العثمانية وتحقيق سيادة السلطان على رعاياه . وتسرى بين الفكرتين روح صليبية فكانت السياسة الأولى (التدخل) تعني خلق ثورة بين رعايا السلطان ثم تتدخل الدول الكبرى أثناءها بحجة المحافظة على تكامل الدولة [3] .

فروسيا كانت تطمع في الخروج من سجنها بالقارة الآسيوية ، وانجلترا

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٦١ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٦٣ .
، عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام وأثرها في الجزيرةالعربية (رسالة ماجستير من جامعة أم القرى ، لم تنشر ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ص ٤٦ .

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

كانت تريد إبعاد روسيا عن طريق الهند ، والنمسا كانت ترى في القسطنطينية وسالونيك مركزا هاما لها ، فكان هناك وفاق بين السياسة الروسية والنمسوية ، والعكس بين سياسة انجلترا وروسيا ، لذلك نرى أن روسيا تثير المشاكل للدولة وبريطانيا تبحث عن الحل لها ، ففي تغاير السياستين الروسية والبريطانية أعطى الدولة فرصة للبقاء أكثر في أوربا [١] .

إلا أن قيام الثورة الفرنسية كان لها الأثر الواضح في انصراف الدول الأوربية وفي مقدمتها روسيا والنمسا عن الاعتداء على أراضي الدولة العثمانية[٢] .

فانشغال أوربالمسيحية بالصراع مع فرنسا والثورة ، كان مفيدا للدولة العثمانية من الناحية السياسية ، ففي ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م قال أحمد أفندي ، السكرتير الخاص للسلطان سليم الثالث " ليجعل الله الثورة في فرنسا تنتشر كالزهري في أعداء الدولة العثمانية ، ويقذفهم في صراع طويل مع بعضهم البعض بحيث تكون النتيجة بما ينفع الدولة العثمانية " .

لذلك كانت الدولة العثمانية ترى أن توسع الثورة الفرنسية في أوربا سوف يبعد عنها أطماع النمسا وروسيا في أراضيها . فقد كانت الدولة العثمانية تشحن المؤن الى فرنسا من موانئها ، كما استعانت الدولة نفسها من فرنسا بالخبراء العسكريين والبحريين ، ولم يكن تأخر اعتراف الدولة العثمانية بالجمهورية الفرنسية إلا بسبب التحذيرات والاحتجاجات من جانب النمسا وروسيا [٣] .

ولكن هذه الهدنة كانت قصيرة اذ سرعان ما أصبحت الدولة العثمانية مرة أخرى مجال توسع لفرنسا [٤] .

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٦٣-٦٤ .

(٢) محمد أنيس : الدوة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٦٩ .

(٣) عمر عبدالعزيز : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٦٠ .

(٤) محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

ولقد كانت وجهات نظر الحلفاء صحيحة حينما أشاروا على الدولة العثمانية بأن الثورة الفرنسية تهدد الدولة العثمانية كما تهدد الدول المسيحية . جاء ذلك في التقرير الذي رفعه أحمد عاطف للسلطان بصددطلب الحلفاء اشتراك الدولة العثمانية في عمل موحد ضد فرنسا [١] . فجاءت الأحداث تبرهن صدق هذا القول ، عندما اختار نابليون مصر كنقطة انطلاق خارج أوربا . وقد أقلق هذا العمل بريطانيا بصورة جعلتها تقيم علاقات سياسية ودفاعية دائمة مع الدولة العثمانية لتقف بذلك في وجه الأطماع الفرنسية حتى لاتقترب من حدود الهند والمداخل البحرية للخليج العربي والبحر الأحمر ، لأن هذين الشريانين المائيين هما الطريقان المؤديان الى درة التاج البريطاني في الهند [٢] .

ومع أن فرنسا اضطرت الى الجلاء في سنة ١٢١٦هـ /١٠٨١ م عن مصر الا أن هذا الجلاء لم يكن في الحقيقة نتيجة انتصار عسكري للدولة العثمانية بل جاء نتيجة للمقاومة الشعبية المصريةوللتدخل الإنجليزي البري والبحري ، لكن الحملة الفرنسية نظرا لفشلها فقد فتحت الباب على مصراعيه للتطاحن والتنافس بين فرنسا وبريطانيا حول مصر وغيرها من ممتلكات الدولة العثمانية الأخرى [٣] .

وقد اتضح من تلك الانطلاقة أن دور فرنسا لم يعد ينحصر في حماية الكاثوليك كما كان سائدا قبل ذلك بل بدأت تفكر في مصالحها السياسية والتجارية لتأخذ طابعا مميزا وتشترك مع الدول العظمى كبريطانيا والنمسا وروسيا [٤] .

ويؤكد ذلك أنه عندما انسحبت الحملة الفرنسية من مصر أعاد السلطان

---

(١) عمر عبدالعزيز : تاريخ ا لمشرق العربي ، ص ٢٦٠-٢٦١ .

(٢) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ... ، ص ٤٦ .

(٣) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٧٠ .

(٤) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٣٤ .

لفرنسا امتيازاتها القديمة وعادت السياسة الفرنسية تسعى للحصول على صداقة الدولة العثمانية حتى عاد صوت فرنسا من جديد في اسطنبول (١) .

وفي الوقت الذي حاولت فيه كاترين الثانية امبراطورية روسيا اغراء النمسا للموافقة على اقتسام ولايات الدولة العثمانية أخذت تثير القلاقل والاضطرابات حتى تنازل لها السلطان عن شبه جزيرة القرم (٢) . بموجب معاهدة قينارجه سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م وبمقتضاها اكتسبت روسيا حقوقا تجارية وبحرية ، فأصبح من حقها انشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية ، وأصبح لرعاياها حق التجارة في أملاك الدولة العثمانية ، كما فتحت لسفنهاحرية الملاحة في أوقات السلم في البحر الأسود عبر المضايق التركية ، ومن أهم المكاسب التي حصلت عليها روسيا نتيجة لهذه المعاهدة هو اعطاؤها الحق في اقامة كنيسة أرثوذكسية في اسطنبول ، كما أصبح من حق رعايا روسيا الحج الى الأماكن المسيحية التي تقع في ممتلكات الدولة العثمانية ، لهذا فقدت الدولة العثمانية انفرادها بالسيطرة على البحر الأسود ، كما أصبح في امكان روسيا التدخل في شئون الدولة العثمانية بحجة حماية رعاياها المسيحيين الأرثوذكس ، والواقع انه منذ ذلك الوقت تحدد الطريق للتدخل الروسي في شئون الدولة العثمانية فأضحى في امكان روسيا ان تزحف على الدولة العثمانية خاصة بعد أن أنشأت ماعرف برابطة الشعوب السلافية للعمل على اثارة المتاعب للدولة العثمانية في البلقان كما مر بنا .

إلا أن انجلترا قلبت ظهر المجن للدولة العثمانية فحاولت غزو مصر في سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م لكنها تلقت من المقاومة المصرية ضربة قاضية أرغمتها على الانسحاب مهيضة الجناح ، وكانت هذه المحاولة في الحقيقة نابعا من داخل الموقف

---

(١) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٦١ .

(٢) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ... ، ص ٤٧-٤٨ .

الأوربي ابان الحروب النابوليونية حتى استقرت هذه الحروب بعد معاهدة فينا في سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م [١] ، لأن غزو انجلترا لمصر كان ناتجا من خوفها من الدول الأوربية وخاصة فرنسا التي تريد عن طريق مصر الوصول الى الهند .

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه نابليون حريصا على اقتسام أملاك الدولة العثمانية لاعتقاده بأن ذلك فرصة لتوجيه ضربة قوية ضد بريطانيا في الهند [٢] حاولت روسيا اقناعه باقتسام أملاك الدولة العثمانية في سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨ م على أن ترضي النمسا بطعم من تلك الغنيمة [٣] .

الا أن الدول الأوربية طيلة القرن الثالث عشرالهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي كانت تخاف من الشبح الروسي اضافة الى الغموض الذي كان يكتنف سياسة روسيا [٤] ، هذاالخوف سيطر على نابليون وحال دون قبول ذلك التقسيم .

أما بريطانيا فعلى الرغم من وجود بعض الفتور في علاقاتها مع الدولة العثمانية خلال الفترة من (١٢٢٣ -١٢٢٤ هـ) - (١٨٠٨-١٨٠٩م) فانها لم تغفل عن الخليج العربي وطرق الهند ، فقد أرسلت البعوث للدولة العثمانية وعقدت معاهدة للوقوف معها يدا واحدة ضد النفوذ الفرنسي والروسي وكان ذلك في سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م ، وكأن انجلترا تترجم بذلك الواقع سياستها تجاه الدولة العثمانية مع اعتبارها مع فارس منطقة عازلة للهند البريطانية آنذاك ، لأن وقوع أي جزء من تلك الدولتين وبالذات الدولة العثمانية في أيدي الدول الأوربية

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٦٩ .

(٢) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام... ص ٤٨ .

(٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . ص ١٠٤ .

(٤) عبدالحميدالبطريق : التيارات السياسية المعاصرة ، ص ١١٨ .

حري به تعريض الهند للخطر الأوربي [1] .

ولكن بعد توقيع معاهدة فينا في سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م أصبحت هذه المعاهدة حجر الزاوية في سياسة كل من فرنسا وانجلترا والذي ترتب عليها قيامها بحماية أملاك الدولة العثمانية والمحافظة على تكاملها السياسي ضد الغزو من جانب روسيا بل ضد الانهيار من الحركات الداخلية المنبعثة من داخل الدولة العثمانية كحركة محمد على كما سيأتي [2] .

فالمحافظة على كيان الدولة العثمانية وتماسك ممتلكاتها أصبح هو نهج السياسة الانجليزية منذ مؤتمر فينا سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م [3] .

أما الامبراطورية النمساوية فقد نجحت في طرد العثمانيين من بلاد المجر ، وكان يرضيها أن يسود نفوذها السياسي والاقتصادي في البلقان ، وخاصة في نهر الطونه الذي يخرج من المجر الى البلقان ليصب في البحر الاسود ، فهو منفذ من منافذ الامبراطورية النمساوية الاقتصادية لأن نهر فاردار أيضا يلتقي به وينتهي في الأرخبيل وهو المخرج الثاني للامبراطورية النمساوية .

أما الخط السياسي للنمسا فقد كانت تضم سلالات صقليه (الكروات مثلا) ويهمها أن يسود نفوذ اخوانهم الصقالبة البلقانيين (الصرب [4] وأهل الجبل الأسود) . فهي تعمل على ابعاد الروس عن البلقان ما استطاعت ذلك .

---

(١) عايض خزام الروقي:حروب محمد علي في الشام...، ص ٤٨.

(٢) سليمان بن محمد الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ، (الطبعة الأولى ، جدة ، نشر تهامة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ص ٤٧ .

(٣) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٧٠ .

(٤) ان التنافس القومي بين النمساوروسيا في البلقان على صربيا بالذات كان العامل المباشر في استعجال الحرب العالمية الأولى .
- محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة على ماهي عليه اليوم ، ص٨٣.

وقد دخل ذلك التنافس طوره الأخير عندما احتلت النمسا عسكريا المقاطعتين الصربيتين (البوسنة والهرسك في سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) ثم ضمتها نهائيا عقب صدور المشروطية الثانية ، اضافة الى ذلك فقد كانت النمسا تميل الى تأييد الدولة العثمانية لأن الدولتين لاتشجعان مبدأ القومية العصبية [١] .

وقد تزعم هذه ا لفكرة مترنيخ وزير خارجية النمسا ، ودعا الى تحطيم أي ثورة تقوم ضد الحاكم الشرعي او الحكومة الشرعية في أي مكان في اوربا ولو أدى ذلك الأمر الى التدخل العسكري [٢] .

كما جعل مبدأ الحقوق الشرعية أساسا لأية تسوية للمشكلات الطارئة[٣] وكان من المفروض أن تؤدي سياسة المحافظة على تكامل الدولة الى الحيلولة دون تفكك الدولة العثمانية لولا أن هذاالتفكك كان يتخذ طريقه من داخل الدولة نفسها من الحركات الثورية في أملاكها الأوربية . غير أنه من المهم أن نذكر أنه منذ حرب الاستقلال الصربية من سنة (١٢٢٠-١٢٢٩هـ) (١٨٠٥-١٨١٣م) اخذت بلدان البلقان طريقها الى الاستقلال الواحدة تلو الأخرى [٤] .

فكانت ثورة المورة أو استقلال اليونان التي أشرنا اليها في الفقرة السابقة يقال عنها انهاالناقوس الذي دق للتنبيه عن أهمية مناقشة احوال الدولة العثمانية أمام الدول الأوربية [٥] المتحالفة ضد الدولة العثمانية والتي أخذتها العزة بالاثم عندما تكالبت وتدخلت في الحرب الدائرة بين الدولة العثمانية وأتباعها في اليونان وحولت نصر الدولة الى خسارة منفذة في ذلك حلف فينا (١٢٣٠هـ/١٨١٥م).

---

(١) محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدوروس في العوامل التاريخية... ص ٨٣.

(٢) عبدالحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة، ص ٢٤ .

(٣) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ... ، ص ٤٩ .

(٤) محمد أنيس : الدولةالعثمانية والشرق العربي ، ص ١٧٠ .

(٥) آمال السبكي : أوربا في القرن التاسع عشر ، ص ٢٠٢.

لذلك بدأت الدول الأوربية تثير مناقشة هذه المسألة وتساءلت فيما بينها هل تسرع بتقسيم الدولة ؟ أو تحاول بقدر المستطاع حماية تلك الدولة وعدم تفتيتها؟[١].

في تلك اللحظة مات كانن (Canning) وزير خارجية بريطانيا فخلفه دوق ولنجتون الذي اتبع سياسة مخالفة لسياسة كاننج ، فاعتذر عن حدوث الكارثة التي لحقت بالأسطول العثماني في نفارينو ، وأظهر رأيا مؤيدا لتركيا ضد أي تدخل روسي هادفا بذلك الى منع أي استغلال لهذه الأزمة من شأنه أن يهدد وجود الدولة العثمانية . إلا أن السلطان محموداً لم يقتنع بتلك الاعذار الواهية التي أبدتها الدول لتحطيم أسطوله مثلما اقتنع بها محمد علي [٢] . الذي أمر ولده بالانسحاب بما تبقى له من الأسطول الى مصر ، لأن روسيا وفرنسا وبريطانيا لم تباشر معه استعمال القوة المسلحة لغرض الهدنة لأن بريطانيا تدرك أن قوة الجيش العثماني الحقيقية هي قوات محمد علي للخلل الذي أصاب الانكشارية في ذلك الوقت وقد استطاعت بريطانيا اقناعه بالانسحاب ببعض الوعود [٣] .

أما السلطان محمود الثاني فقد واصل استعداداته لمواصلة الحرب في بلاد اليونان وضد روسيا التي أعلنت عليه الحرب [٤] .

ولكن لما وصله خبر حادثة نفارينو أرسل بلاغا الى سفراء هذه الدول الثلاث يقيم الحجة ويشجب هذا العمل المخالف للقوانين الدولية ، ويطلب من هذه الدول عدم التدخل في شئون بلاده، وأن تدفع له تعويضا عن الخسائر التي

---

(١) آمال السبكي : أوربا في القرن التاسع عشر ، ص ٢٠٢.

(٢) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٩-٥٠.

(٣) سليمان محمد الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ، ص ٧٠ .

(٤) محمدكمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٤٩-١٥٠.

لحقت بأسطوله فلم يجبه أحد بل غادروا بلاده . فعمد السلطان الى عمل بيان أو منشور وزعه على جميع الولايات بين فيه مقاصد الدول الثلاث المذكورة وخاصة روسيا نحو الدولة العثمانية الدولة الاسلامية الوحيدة مبينا فيه للأمة أن الدافع الحقيقي لهذا العدوان انما هو الدافع الديني لا السياسي ، وختم هذا المنشور بحث المسلمين على القتال دفاعا عن الإسلام ودياره ، فاغتاظت روسيا لذلك وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية سنة ١٢٤٣هـ/١٢٢٨م [١] . محاولة بذلك تحقيق الخطوة التي حاول كاتنج طوال السنوات السابقة منعها من تحقيقها وهكذا أعلنت روسيا بمفردها الحرب ضد الدولة العثمانية دون النظر الى سياسة انجلترا وفرنسا اللتين كانتا في غاية التخوف من التدخل الروسي اذ قد تبتلع روسيا بتدخلها أملاك الدولة العثمانية وهذا يسبب للدولتين العديد من المشاكل ويخل بالتوازن الدولي[٢].

فسارت روسيا بجيوشها التي كانت مستعدة ومتأهبة على الحدود ، فاجتازت نهر بروث الفاصل بين أملاك الدولتين واحتلت مدينة (ياش) عاصمة البغدان ، ثم بعد ذلك اجتازت نهر الطونة ، فاخترقت جبال البلقان بعد تغلبها على الجيوش العثمانية ، وأخيرا وصلت الى مدينة أدرنة واحتلتها عنوة •

ولم يبق أمامها عائق يوقفهاعن التقدم الى اسطنبول الا عدم رغبة الدول في سقوطها في أيدى الروس ، بل كان الاتفاق ضمنا حول اضعافها الى حد لايمكن معه التقدم والارتقاء ، ولتبق عقبة أوحاجزا بين روسيا وبين البحر الأبيض المتوسط[٣] الذي ترغب الروس الوصول اليه بشتى الطرق . فأوقفت روسيا الحرب ودارت المحادثات بين الدولتين المتنازعتين بتوسط بروسيا التي أنهت المسألة بالموافقة

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار .. ج ١ , ص ٦٨٢ .
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٨٢٧-٨٢٨.
(٢) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٩ .
(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٣١-٤٣٣.

على الصلح ، وعقدت بناء على هذا معاهدة أدرنة سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م[١] .

استغل بولنياك (Polignac) وزير خارجية فرنسا هذه الحادثة بتقديم مشروع تحالف فرنسي روسي على تقسيم أملاك الدولة العثمانية تقسيما كاملا لاعادة تخطيط حدود الدول الأوربية في ضوء هذا التقسيم [٢] . ومن الغريب أن روسيا قد خرجت من هذه التجربة بفكرة مغايرة تماما بالنسبة للدولةالعثمانية [٣] .

في هذه اللحظة الحاسمة كون القيصر الروسي نقولا لجنة خاصة لدراسة المشاكل الروسية العثمانية التي نتجت عن الحرب القائمة بين روسيا والدولة العثمانية ، وجاء هذاالتقرير من اللجنة المكلفة بهذه الدراسة مخالفا لكل ماكان متعارفا عليه في السياسة الروسية [٤] التي تقوم دائماعلى السياسة التوسعية نحو الدولة العثمانية وأملاكها وكانت أطماعها تتركز في السيطرة على البوسفور والدردنيل للخروج الى المياه الدافئة في البحر الأبيض المتوسط ، وترتب على هذه السياسة التوسعية محاولة دائمة لتقسيم أملاك الدولة العثماينة على أن يكون

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٣٣.
. محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٥١ .

(٢) فحوى هذا المشروع ان يمتداليونان حتى القسطنطيطية ، ويصبح ملك الأراضي المنخفضة ملكا عليها ، وتأخذ روسيا الافلاق والبغدان وأجزاء من آسيا الصغرى ، وتحصل النمسا على الصرب والبوسنة ، وتقسم مملكة الأراضي المنخفضة ، فتأخذ بروسيا هولنده ، وتأخذ فرنسا بلجيكا، وتحصل بروسيا على مملكة ساكس ، وتترك أراضيها على الضفة اليسرى للراين لكي تصبح دولة تحت حكم ملك ساكس السابق . وتحصل بريطانيا على المستعمرات الهولندية.
-محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٥٠ - حاشية رقم (٢) .

(٣) أ.ج. جرانت وآخرون : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين . ترجمة بهاء فهمي (القاهرة.الناشر مؤسسة سجل العرب ، ١٩٨٥م) ج ١ ، ص ٣٤٢.

(٤) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٥٠-١٥١.

التقسيم لصالح روسيا أساسا ، وتخليص البلقان من الحكم الاسلامي [١] .

أجل جاء تقرير اللجنة التي كونها القيصر نقولا مخالفا لكل تلك السياسات او الاتجاهات ، فلقد قررت تلك اللجنة في وضوح وصراحة تامة أن تقسيم أملاك الدولة العثمانية وتحطيمها ليس في صالح روسيا ولايتمشى مع مصالحها مستقبلا لأن انهيار الدولة العثمانية سينتج عنه مشاكل سياسية معقدة.

كما قررت اللجنة أن تقسيم أملاك ا لدولة العثمانية سيترتب عليه أن تحصل الدول الأوربية الكبرى على أجزاء من شبه جزيرة البلقان مما يجلب لروسيا جيرانا أقوياء على حدودها الجنوبية بدلا من الدولة العثمانية التي لاتمثل أي خطر على روسيا .

وأن روسيا اعتادت الهجوم على أملاك الدولة العثمانية . أما الدولة فانها ولقرنين من الزمان لم تهاجم الحدود الروسية وظلت روسيا من سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م ولمدة عشر سنوات عكس سياستها الأولى الرامية الى السيطرة على المضايق والقسطنطينية ، ولقد نالت روسيا في تلك السنوات تأييد مترنيخ مستشار النمسا الذي قاد في أوربا تيارا معاديا لكل الحركات الثورية ، ومؤيدا للمحافظة على الحقوق الشرعية للدول وفي مقدمتها الدولة العثمانية [٢] . واذا رأت روسيا بنظرتها الثاقبة أن دولا بلقانية صغيرة ستنشأ اذا ما استمر انحلال تركيا ، وأن روسيا لن تتمكن من السيطرة على هذه الدول ، فان اللجنة تشير الى

---

(١) محمد كمال الدسوقي . الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . ص ١٥١.

. محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة على ماهي عليه اليوم . ص ٨٢ .

. أ.ج. جرانت وآخرون : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين . ج ١ . ص ٣٤٢.

(٢) أ.ج. جرانت وآخرون : المرجع ا لسابق . ص ٣٤٢-٣٤٣.

. محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق . ص ١٥١-١٥٢.

أنه اذا أرادت روسيا السعي لكسب المزيد من الأراضي فان عليها أن تتجه صوب أرمينيا أو بغداد لا الى القسطنطينية ، فقامت سياسة نيقولا على هذا الأساس طوال العشر سنوات على إبقاء الوضع على ماهو عليه للمحافظة على سلامة الدولة العثمانية .

وقد أسر نيقولا بآرائه الى النمسا فنال تأييد مترنيخ ،ولكن كبرياءه منعته من شرح سياسته لانكلترا ، فاستمر بالمرستون في مناوأة السياسة الروسية على أنها تنوى ضم القسطنطينية والاستيلاء على الدردنيل ولعله كان بوسع بالمرستون أن يخمن الحقيقة ازاء مالمسه من مظاهر الود بين النمسا وروسيا ولكنه لم يفعل (١) .

ونعود الى أهم ماجاء في معاهدة أدرنة التي كسبتها روسيا وهي : أن يكون نهر البروث فاصلا بين الدولتين كما كان سابقا ، وكذلك تتخلى الدولة لروسيا عن مصبات نهر الطونة ، وأن يكون لروسيا حق الملاحة في البحر الأسود الى البحر الأبيض بدون تفتيش مراكبهم ، وأن يكون تعيين أمراء ولايتي الافلاق والبغدان لمدة حياتهم وعدم عزلهم الا بأسباب مقنعة للدولتين (٢) .

والواقع أن فرنسا في هذه الفترة هي التي راحت تنتهج في همة ونشاط سياسة تمزيق أوصال الدولة العثمانية في الفترة من (١٢٤٦-١٢٥٦/١٨٣٠-١٨٤٠م) . ففي سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠ م استولت فرنسا على الجزائر ومابين هذين التاريخين أيدت ثورة محمد علي والي مصر ضد الدولة العثمانية (٣) ، حيث اعتقدت فرنسا أن مصر من الدول التي يجب أن تحافظ عليها لتأمين البحر الأبيض

---

(١) أ.ج. جرانت وآخرون : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ص ٣٤٣.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٤٤.

، محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٥٢.

(٣) أ.ج.جرانت وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٤٣.

المتوسط ولحماية شواطئ أفريقيا [1] . وعلى ذلك سعت على هذا الطريق للحصول على العون لتحقيق مشروعاتها الخاصة بالبحر المتوسط [2] .

لهذا نفذت فرنسا هذا الاحتلال ليكون لها مركزا حربيا في شمال أفريقيا حتى لاتكون انجلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الأبيض المتوسط باحتلالها جبل طارق ، وجزيرة مالطة ، فسيرت جيشها وبعد قتال عنيف بين فرنسا والجزائر استطاعت فرنسا الهيمنة على بلاد الجزائر ، بعد خروج باي حسين ،وأعلنت احتلالها للجزائر في سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣١م [3] . وهذا مادرج أو سمى في التاريخ الحديث باسم (المسألة الشرقية)التي اشتركت في حوادثها الدول الكبرى الأوربية، فأصبحت هذه المسألة مسألة معقدة استحال على الساسة وحيرهم حلها حلا يرضي جميع الأطراف .

فروسيا غيرت سياستها، ولكنها تتنافس مع فرنسا على حماية رعاياها المسيحيين في أملاك الدولة العثمانية الأرثوذكس ، والأخرى ادعت حماية الكاثوليك مما سيأتي الحديث عنه بالتفصيل في حرب القرم وصدور الخط همايوني.

أما النمسا فانهاكانت تتطلع نحو البلقان ، وبريطانيا أخذت تعمل ضد الاجهاز على الدولة العثمانية [4] ، وتناوئ المشاريع الروسية الفرنسية لتقسيم الدولة العثمانية [5] .

وقد تجددت المسألة الشرقية عندما تعاظمت قوة محمد علي العسكرية في انتصاراته التي أحرزها في حروبه ضد السلطان محمود الثاني سنة

---

(١) آمال السبكي : أوربا في القرن التاسع عشر ، ص ٢٠٣.

(٢) أ.ج. جرانت وآخرون : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ج ١، ص ٣٤٣.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٤٧-٤٤٨.

(٤) عبدالحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ، ص ٤٥-٤٦.

(٥) أ.ج. جرانت وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٤٣.

١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، وقد هزم محمد علي واحتفظ السلطان العثماني بعرشه بعد تدخل دول أوربا [١] كما سيأتي عنه الحديث في الفصل الرابع في أسباب صدور خط كلخانة .

الا أن المسألة الشرقية عادت مرة أخرى في سنة ١٣٩٢هـ/١٨٧٥م لسبب ثورة الهرسك ضد ا لدولة العثمانية واختلاف دعوى قسوة الحكام الأتراك في جباية الضرائب في المحاصيل الزراعية ، وانضم الى هؤلاء الثوار المتطوعون من الصرب والجبل الأسود وبلغاريا وتزعمت هذه الأحلاف صربيا التي أعلنت الحرب على تركيا العثمانية ، عندئذ تنبهت كل من النمسا وروسيا الى مصالحهما وأطماعهما القديمة في البلقان ، وحاولت كل منهما أن تستفيد من الموقف المرتبك في البلاد [٢] .

وهذا ماسوف نوضحه ان شاء ا لله عند ذكر الحرب الروسية العثمانية التي نتج عنها معاهدة سان ستيفانو سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م في عصر السلطان عبدالحميد الثاني ، ثم أعقب ذلك معاهدة برلين في العام نفسه لتقسيم أملاك الدولة العثمانية كما هو معروف .

معنى ذلك أن أطماع الدول الأوربية في الدولة العثمانية قد استمر على طول تاريخ هذه الدولة في عصرها الثاني حتى سقوط الدولة في الحرب العالمية الأولى .كما أننا لاننسى أيضا ايطاليا التي أصبحت هي الأخرى تتطلع الى الاستيلاء على ليبيا وأنطاليا بعد اعلان المشروطية الثانية [٤] .

---

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٢٤ .

(٢) عبدالحميد ا لبطريق : التيارات السياسية المعاصرة ، ص ٤٨-٤٩ .

(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني (الطبعة الرابعة،القاهرة ، دار السلام ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ، ص ٧١ .

(٤) مصطفى طوران : المرجع السابق ، ص ٧١.

هـ - أنشطة الماسونية والصهيونية :

الماسونية مذهب لم تقنن معالم نظامه ، لأن كثيرا من تعاليمها تجري بصورة شفهية ، ذلك أن محتوى أرشيفات المحافل الكبرى والمحافل المحلية لم تنشر بعد، ومن المحتمل أن تكون قد عقدت له عدة مؤتمرات أخرى كبرى بحضور عدد من ذوي المراتب العليا من أنصار هذاالاتجاه المعادى للاسلام ، لم يذكر عنها شئ ، أما شعارها المزيف فهو الحرية والمساواة والاخاء [1] . ويظهر أن محاضر وأعمال تلك الاجتماعات بقيت سرية أو محدودة التداول ، وذلك لما تحمله من مكائد وشرور ضد البشرية وخاصة ضد الأمة الاسلامية .

وقد ورد شعار هذه الماسونية في بروتوكول حكماء صهيون في البند التاسع في الجلسات السرية كما يلي : " ان الكلمات التحريرية لشعارنا هي الحرية والمساواة والاخاء " وسوف لانبدل كلمات شعارنا بل نصوغها معبرة عن فكره، وسوف نقول : " حق الحرية ، وواجب المساواة ، وفكرة الاخاء " وحينئذ نكون قد دمرنا كل القوى الحاكمة التي تقف أمامنا الا قوتنا فقط [2] ، وهي شعارات مزيفة الهدف منها خداع البشرية من أجل التسلط والتحكم في مصائرها .

والحق أن المؤرخين لم يتفقواعلى تحديد أصل الماسونية ، وكيفية نشأتها ، فقد تضاربت الآراء ، واختلفت الأقاويل فيها فمن نسب أصلها الى أقدم الأزمان ، وقائل أنها لاتتجاوز الجيل السابع عشر الميلادي ، والصراحة أن دون معرفة الحقيقة أستارا مسدولة تمنع النور من خرق الحجاب .. وعقبات جمة تعرقل سعي

---

(١) أحمد نوري النعمي : أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، (بغداد ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٢م) ص ١١٦ .

(٢) محمد خليفه التونسي : الخطر اليهودي ، بروتوكولات صهيون ، (القاهرة ، مكتبة دار التراث) ص ١٩٠-١٩١.

الباحث وتحيره في أمر نشأتها ومعرفة أول مؤسس لها [١] .

فدراسة تاريخ نشأة الماسونية موضوع آخر ، وما يعنينا هو دخول الماسونية الى الدولة العثمانية .

فتذكر المصادر التي أرخت لهذا الحدث أن دخول الماسونيةالى الدولة العثمانية كانت في زمن السلطان بايزيد الثاني ، حيث انشأ يهود سلانيك بعد انتقالهم من الأندلس في سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٣م أول محفل ماسوني لهم فيها ، أصبح فيما بعد الأب غير الشرعي لجميع المحافل الماسونية التي انتشرت في جسم الدولة العثمانية وعلى رأسها محفل اسطنبول [٢] .

وقيل ان النشاط الماسوني قد دخل الى الدولة العثمانية في سنة ١١٣٠هـ/١٧١٧م وكان ذلك في عصر السلطان أحمد الثالث حيث أسسوا جمعية لهم في عاصمة الدولة اسطنبول ، وارتبطوا في هذه الجمعية بالجمعية الماسونية (المشرف الفرنسي) ، وقد بقيت هذه الجمعية عاملة حتى سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م عندما أغلقت بعد قيام الثورة الفرنسية [٣] . هذا الوقت كانت الدولة العثمانية فيه منغمسة في مشاكلها الداخلية وتناست مايحاك ضدها من دعوات هدامة ، لهذا نرى أن الماسونيين قد استغلوا هذه الاضطرابات لتقوية مراكزهم ، اذا صح دخولهم في ذلك الزمن .

الا أن الماسونية يبدو أنها انتشرت في الأراضي العثمانية منذ وقت بعيد . ويقول الأب " لويس شيخو " عن موقف الدولة العثمانية عن الماسونية : ":كانت

---

(١) شاهين مكاريوس : تاريخ الماسونية العلمية ، (الطبعة الاولى ، ١٨٩٧م) ص ١٤ .

(٢) داود عبدالغفور سنقرط : القوى الخفية لليهود والعالمية الماسونية (الطبعة الأولى ، عمان ، دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ١٢٩ .

(٣) أحمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ١١٧ .

الدولة العثمانية أول الدول التي ناهضت الماسونية منذ سنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م ، وأن بين قوانينها مايحظر على العثمانيين دخول الجمعيات السرية .

فكان السلاطين العظام ينظرون بعين النفور الى كل مايتستر تحت حجاب الظلمة واذا بلغهم شيء من أمر تلك المجامع أسرعوا الى الغائها وتشتيت شمل أصحابها [١] .

غير أن الماسونية الرمزية قد ظهرت في الدولة العثمانية سنة ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م في كورفو ، تحت رعاية المحفل الأعظم الانجليزي ، الا أن المعول عليه ، أن أول محفل انكليزي تأسس منها كان في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م، واسمه محفل فيثاغورس ، ثم تأسست بعده محافل أخرى تحت رعاية المحفل الأعظم الانكليزي المتحد ، وتأسس غيرها تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنساوي [٢] .

الا أن الصدر الأعظم ابراهيم باشا ، الذي قرب اليه العلماء والمثقفون ، رأى في الماسونية تجديدا في الافكار والآراء ، فانتسبوا اليها وكان رشيد باشا سفير الدولة العثمانية في بريطانيا قد انتسب سنة ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م الى أحد المحافل الماسونية في بريطانيا ، وعندما عاد الى اسطنبول أسس جمعية ماسونية بالتعاون مع السفير البريطاني آنذاك في اسطنبول [٣] .

ولكن كان هناك مجلس عال من الأتراك وهو المجمع الوحيد الوطني أسسه الأمير حليم باشا،وكان رئيسه طول حياته تحت رعاية المحفل الأعظم الانجليزي[٤].

---

(١) حسان على حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (بيروت ، الناشر جامعة بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص ٢٨٣ .

(٢) جورجي زيدان : تاريخ الماسونية العام (الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٤م) ص١٤٤.

(٣) أحمد نوري النعيمي : أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ١١٧.

(٤) جورجي زيدان : تاريخ الماسونية العام ، ص ١٤٤.

ونظرا للجهود المبذولة من قبل الماسونية فقد تأسس عدد من المحافل في اسطنبول وأزمير ، بعضها تابع للشرق الأعظم الانجليزي وبعضها للمحافل الفرنسية أو الايطالية الى أن أسس أو أنشأ حليم باشا مجمعا وطنيا ، ترأسه بنفسه ، وتعددت محافله حتى أصبح عدد الأتراك الماسونيين نحو عشرة آلاف شخص من بينهم عدد من الوزراء والنواب وقادة كبار الجيش وكبار المسؤولين [(١)] . وفي هذا المجال نشط الماسونيين الانجليز ، وقاموا بتأسيس المحفل " الأورخان " وأدخلوا فيه بعض الأتراك .

وقد اعتبرت هذه الخطوة مرحلة جديدة في تطور الجمعية والنفوذ الماسوني الانجليزي في العاصمة العثمانية ، ولكن لم يلبث أن غيروا اسم محفلهم الى محفل " هومر " الذي عينوا في رناسته اليهودي ميديانو سلفادور ، وقد استمر في هذا المنصب حتى سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م في حين توسعت هذه الجمعيات حيث ضمت الكثير من الأتراك[(٢)] لاسيما في عهد السلطان عبدالحميد الثاني الذي أثرت حوادث عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٦م في سياسته وسيرته ، منذ أن وجد عمه عبدالعزيز مقتولا في قصر " طولمه باغه " ولما عين مراد سلطانا من بعده خلع ، ولم يبق طويلا في الحكم وعين مكانه أخوه عبدالحميد الثاني ، الذي بدأ أعماله في ظل هذه الظروف وهذا الوضع [(٣)] بالحذر من هذه الحركات .

فالماسونية هي الاسم الجديد للشريعة اليهودية المقنعة كذلك رموزها

---

(١) حسان علي حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش (بيروت ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، ١٩٨٢م) ص ٤٠ .

(٢) أحمد نوري النعيمي : أثر الأقليات اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ١١٧ .

(٣) حسان علي حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

وتقاليدها يهودية كابالا (Kabbala)[(١)] ، وان معالمها رجعية مضحكة ، لأنها التقت بماضي مظلم وتدثرت بضباب قاتم من الأكاذيب والأراجيف الخانقة[(٢)] .

وان النظم والتعاليم اليهودية كان انتقال أسرارها الى الماسونية على يد الجمعية والفرسان أو الصليب الوردي ، وهي التي اتخذت أساسا لإنشاء المحفل الماسوني الأكبر في سنة ١١٣٠هـ/١٧١٧م ، ووضع رسومه ورموزه[(٣)] .

ولاتزال الصهيونية واليهودية العالمية هي القوة المحركة الكامنة وراء الماسونية والأساتذة الكبار الحقيقيون في المحافل الماسونية هم الممثلون للجمعيات الصهيونية السرية ، وان سر التماسك العجيب يرجع الى عدد من الصهاينة اليهود في الصفوف المتقدمة من الماسونية ، ودليل صلة الماسونية واليهودية يقدمه حكماء صهيون[(٤)] في البروتوكول الخامس عشر من جلساتهم السرية فيما يلي نصه : "والى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه الى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم وسنجذب اليها كل بصير أو يكون معروفا بانه ذو روح عامة (Public Spirit) وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل منها على مانريد من أخبار كما أنها ستكون أفضل مراكز للدعاية .

وسوف نركز كل هذه الخلايا تحت قيادة وا حدة معروفة لنا وحدنـــا

---

(١) الكابالا : مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية والشعوذة والسحر ، متعارف عنها عند اليهود ، منذ أقدم العصور ، وكان دعاة الكابالا يعلقون أهمية كبرى على السحر والشعوذة وأسرار الطلاسم والرموز والأرقام .. ولمزيد من المعلومات انظر :

– محمد عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق (دار البنين للنشر) ص ٨٩.

(٢) جواد رفعت أتلخان : أسرار الماسونية ، ترجمة نورالدين رضا الواعظ وآخرون ، (القاهرة ، الناشر مجلة الأزهر ، ١٤٠٥هـ) ص ٢٧ .

(٣) محمد عنان : المرجع السابق . ص ٨٩

(٤) جواد رفعت أتلخان : المصدر السابق ، ص ١١٣ .

وستتألف هذه القيادات من علمائنا وسيكون لهذه الخلايا أيضا ممثلوها الخصوصيون ، كما نحجب المكان الذي نقيم فيه قيادتنا الحقيقية . وستكون الحبائل والمصائد في هذه الخلايا لطبقات المجتمع الثورية ، وان معظم الخطط السياسية السرية معروفة لنا . وسنهديها الى من ينفذها حالما تشكل " [١] . فالماسونية اذا من افرازات الحركة الصهيونية ، والحقيقة أن الماسونية (البناء الحر) من أعظم وأقدم الجمعيات السرية التي مازالت قائمة ، ولكن منشأها مازال مجهولا وغايتها الحقيقية مازالت سرا حتى على أعضائها أنفسهم [٢]

يقول كاتب انجليزي " ان الماسوني وان لم يكن يهوديا بالولادة الا أنه رجل متهود " .

وقد عبر عن الرأي نفسه ، هولت زنكر رئيس محاكم فينا بسخرية قائلا : " ان من بين الماسونيين المائة في فينا مائة واثنين من اليهود " [٣] . ويعتبر اليهود والماسونيون أنفسهم معا الأبناء الروحيين لاعادة بناء هيكل سليمان [٤] .

فالماسونية لعبت دورا خطيرا مؤثرا في ميدان السياسة الأوربية وهي التي دبرت الثورة الفرنسية في محافلها لأجل تحيق أهدافها الخاصة [٥] .

---

(١) محمد خليفةالتونسي : الخطر اليهودي ، بروتوكولات صهيون ، ص ٢٣٠-٢٣١ .
، جواد رفعت أتلخان : أسرار الماسونية ، ص ١٣-١٤ .
، أحمد نوي النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ١٢١ .

(٢) جواد رفعت اتلخان : المصدر السابق ، ص ١١ .

(٣) جواد رفعت أتلخان : المصدر السابق ، ص ٧٤ .
، أحمد نوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٤) أحمد نوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ١٢١ .
، حسان على حلاق : د ور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميدالثاني .. ص ٤١ .

(٥) جواد رفعت أتلخان : المصدر السابق ، ص ٣٤ .

وان الماركسية واللاقومية هما وليدتاالماسونية أيضا ، لأن مؤسسها كارل ماركس وانجلز هما من ماسونيي الدرجة الحادية والثلاثين ومن منتسبي المحفل الانجليزي ، وانهما كانا من الذين أداروا الماسونية السرية وبسياستهما أصدروا "البيان ا لشيوعي " المشهور الذي امتدحته المجلة الألمانية الماسونية (لاتونيا) التي أعلنت فرحها واستبشارها بانتشار الاشتراكية في مقال لها سنة ١٣١٢هـ/١٢ تموز ١٨٩٤م وقالت ان : الماسونية قد وجدت في المبادئ الاشتراكية خير معوان لها فلابد لنا من معاضدتها " [١] .

معنى ذلك أن القاعدة التي تنطلق منها هذه المذاهب الهدامة ،وان اختلفت في الأسماء والمسميات فهي في الحقيقة مؤسسات سرية يهودية .

لذلك تغلغل سلطان اليهود في العالم في أواخر القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين الموافق لأواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين، بما أتيح لهذه الجمعيات من مسببات الانتشار والنجاح : ذلك أن نشاطاتجاريا اجتاح العالم بسبب تطور الثورة الصناعية التي ساعدت على تطور وسائل المواصلات في العالم ، واتيح لهذه الجمعيات امكانية الانتشار والانتقال باعضائها من مكان لآخر لنشر مافي تعاليمهم من مبادئ وأهداف تتعلق بأمانيهم وأطماعهم عن طريق هذه ا لجمعيات والمؤسسات التي تسيطر عليها وتوجهها كي ترتبط هذه الجمعيات بالهدف الذي تعبر عنه الخطةالكبرى للحكومة السرية العالمية أو الخفية المنبثة في جميع بلدان العالم ، والتي تقوم بكل عمل ماسوني في خدمة الأطماع اليهودية ، فالأفكار المستقلة التي لاتساير الأفكار الماسونية كانت تتعرض للنقد اللاذع والعداء من قبل الماسونيين [٢] ،ويمكن التصفية الجسدية كما هي عادتهم لمن

---

(١) جواد رفعت أتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٤٥ .

(٢) جواد رفعت أتلخان : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

يقف في طريق مخططاتهم وأهدافهم التلمودية .

أما نشاط هؤلاء اليهود أو الحركة الصهيونية فقد بدأ عداؤها مع الدولة العثمانية منذ عصر السلطان محمد الأول (٨٠٦- ٨٢٥هـ/١٤٠٣-١٤٢١م) الملقب " جلبي " .

ففي عهده استغلت اليهود ضعف الدولة عقب معركة أنقرة الأولى حين أسر بايزيد الأول وتفككت الدولة لموته في الأسر بصراع أبنائه حول كرسي الحكم، فدست اليهود بين صفوف الناس شخصا يدعى (بدرالدين) كان يشغل منصبا كبيرا (القاضي عسكر) للسلطان محمد جلبي في الدولة متسترا بالاسلام والعلم ، فدعاه الى آراء هدامة من أعمال اليهود المعروفة ، فبات هذا اليهودي يشكل خطرا في كيان الدولة [١] ، لمحاولته نشر هذه العقيدة وجمعه حشودا من الناس ، مستغلا بذلك اضطرابات الدولة في تلك الفترة ، فكثر اتباع بدر الدين وأخذوافي نشر مذهبه بالقوة، فكانوا يتعرضون للناس وأموالهم بسبب وبغير سبب، فقد قتلوا آلافا وعلى رأسهم أمير لواء أزمير اسكندر بك ، وقد تنبه له السلطان فقام بالقبض عليه ومحاكمته في الروملي سنى ٨٢٣هـ/١٤٢٠م [٢] .

ونتيجة لذلك أمر السلطان بقتله وخلص الناس من شره ، وبقتله انتهت دعوته وفتنته التي أثارها بتلك الدعوة [٣] .

وقد أشرنا من قبل في فصل سابق الى أن سبب وفاة السلطان محمد الفاتح كان نتيجة للسم الذي دسه له بصورة تدريجية العميل البندقي اليهودي ، وهو أحد أطبائه الخاصين المسمى ميسترو لاكوبو (Mestro Lacopo) الذي ادعى أنه اهتدى

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٥ .
، يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٢) يلماز اوزتونا : المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٣) على حسون : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

للاسلام وتسمى باسم يعقوب باشا ، ولكن الاتراك مزقوا هذا اليهودي في الحال[1] .

ومنذ سنة ٩٦١هـ/١٥٥٣م والأصابع اليهودية تحاول الدس واثارة الفتن والاضطرابات في الدولة واخراجها عن جادة الطريق القويم عن الاسلام مما جعل ذلك عاملا من عوامل الضعف في الدولة [2] ، كما هي عادة اليهود في ايجاد الفتن والمؤامرات منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في الخفاء دون المواجهة،ولكنهم على طول هذه المؤامرات نراهم ينجحون في أهدافهم لإبعاد الأمة الاسلامية عن عقيدتها وتوادها وترابطها وتلاحمها ، لأنها تخلت عن مبادئها وهذا من أهم أسباب خذلانها أمام دسائس بني صهيون .

ففي القرن السادس عشر الميلادي أهدى تتار القرم للسلطان سليمان الأول (القانوني) فتاة يهودية روسية اسمها " روكسلانا " كانوا قد سبوها في احدى غزواتهم ولشدة جمالها افتتن بها القانوني فاتخذهازوجة له وسماها (خرم سلطان) [3]، وبسبب نفوذها في القصر زوجت ابنتها (مهرماه) من اللقيط الكرواني رستم باشا ثم تمكنت من قتل ابراهيم باشا الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) للدولة ونصبت بدلا عنه صهرها رستم باشا .

ولم تكتف بهذا العمل بل دبرت مؤامرة أخرى استطاعت فيها قتل ولي العهد مصطفى بن سليمان القانوني الابن الأكبر من زوجته الأولى ، بحجة انه يفكر في الاطاحة بحكم والده [4] ، وبهذه الوشاية مهدت الطريق لتولية ابنها سليم

---

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٧ .

(٣) خرم : أي الباسمة .

(٤) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ترجمة كمال خوجه (الطبعة الرابعة ، القاهرى ، دار السلام للطباعة والنشر ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ١٢ .

الثاني وليا للعهد .

لذلك كانت هناك اشارة لأحد اليهود الذي كانت تربطه صداقة قوية بابنها السلطان سليم الثاني ، هذا اليهودي اسمه جوزيف نانسي وقد قام بدور كبير وبارز في سياسة الدولة العثمانية وانحراف السلطان سليم الثاني ، وقد أسهم هذا بدرجة كبيرة في ضعف وتفكك الدولة العثمانية .فقد زين هذا اليهودي للسلطان فتح جزيرة ناكوس (Naxo) وتم استيلاء العثمانيين عليها في سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م وزادت خطورة هذا اليهودي لدى السلطان سليم عندما أهداه ناكوس اقطاعا له .

وكان من بين الأسانيد التي ساقها اليهودي للسلطان عن قبرص ان نبيذ قبرص لايضاهيه نبيذ آخر في العالم . وفي نشوة الخمر قال السلطان سليم الثاني لليهودي :" ستكون ملكا على قبرص " [١] .

فلما جلس السلطان سليم الثاني على العرش ساق عمارة بحرية لفتحها وبعد حرب شديد استطاع جنود الدولة العثمانية فتحها .

ونتيجة لذلك اتحدت البندقية مع البابا وملك أسبانيا وأعلنوا الحرب على الدولة ،وقادوا حلفا صليبيا بقيادة دنجوان الابن غيرالشرعي للامبراطور شارل الخامس ملك أسبانيا فاشعل الحرب على الأسطول العثماني ، فاستطاع تدميره في مياه ليبانتو (Lepanto) ، وقتل قبطان البحرية العثمانية عثمان باشا [٢] ، ومعنى ذلك أن السلطان جلب خسارة كبيرة على الدولة لأجل ارضاء صعلوك من اليهود يريد اغراق الدولة اقتصاديا ليدخل الدولة في متاهات هي في غنى عنها ، وبالتالي

---

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٩٢٥-٩٢٦. حاشية رقم (٢) .

، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

(٢) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٠-٨٢ .

يجرها الى الهاو ية والتدهور والاستسلام لليهود أنفسهم ليغرقوها في مكائدهم.

وقد احتفلت أوربا كلها بهذا النصر لاعتباره أول نصر منذ أوائل القرن العاشر الهجري تحرزه البحرية الأوربية لتوقع به الهزيمة بالعثمانيين ، وقد ثبت لأوربا بعد هذه المعركة أنه من الممكن هزيمة العثمانيين ، كما فتحت شهيتهم لمزيد من التسلط [١] .

ويشيرالمؤرخ أحمد عبدالرحيم مصطفى الى أن الصدر الأعظم محمد باشا صوقوللي كان يستعين في تنفيذ مشروعاته بالأموال التي كان يوفرها البنكيون اليهود في تلك الفترة . وكان يتزعمهم دون جوزيف [٢] ،وكان أمل هذا اليهودي أن يجعل من قبرص وطنا قوميا لليهود الفارين من الاضطهاد الأوربي [٣] ، أو مايسمى بهجرة اليهود من أسبانيا الى الدولة العثمانية ،وخاصة يهود الدونمة [٤]، والدونمة أطلقها الأتراك على اليهود الذين رحلوا من أسبانيا الى تركيا ، بعد طرد العرب واليهود من الأندلس في القرنين التاسع والعاشر الهجريين الموافق للقرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين . ولقد تزيا هؤلاء بزي الأتراك المسلمين، وماهم بأتراك ولا مسلمين، وعمدوا الى عمل ذلك،حتى يسهل عليهم القضاء على الإسلام والدولة العثمانية حامية هذا الإسلام ثم اعلان علمانية

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٧ .

(٢) كان يسمى هذا اليهودي في مطلع حياته دون ميجيه (Donmiguez) .
– عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج٢ ، ص ٩٢٥ حاشية رقم (٢) .

(٣) في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٦ .

(٤) الدونمة كلمة تركية تعني باللغة العربية " العائدين " .
– أحمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ٢٣ ، حاشية رقم (٢١) .

الدولــةالجديدة ، ومـن ثـم مسـاعدة يهودالعـالم علـى المسـيرة للاسـتيطان في فلسطين[١] . ومنذ وصولهم من الوهلة الأولى تظاهروا بالاسلام في الدولة العثمانيـة والتزموا بـه ، فـأخذوا يـؤدون الفرائـض في الظـاهر ، أمـا في البـاطن فـانهم يهـود قلباوقالبا ، يمارسون طقوسـهم الدينيـة سـرا ، ويحتفظـون بأسمـائهم اليهوديـة - الى جانب اسمائهم التركيـة الاسـلامية [٢] . وذلـك بايعـاز مـن المجلس الأعلـى لليهـود ليسهل عليهم التغرير بالأتراك وكسب ثقتهم ،ومن ثم التغلغـل في مراكـز السـلطة في الدولة العثمانية ، وهذا يساعدهم على المدى البعيد علـى حمايـة أبنـائهم اليهـود وتحقيق الأهداف لهم ومكائدهم العدوانية [٣] .

وكان على رأس هؤلاء ،مؤسس جماعة الدونمة اليهود في تركيـا سـاباتاي . ففي خلال محنة القرن الحادي عشر الهجري الموافق للقـرن السـابع عشـر الميـلادي تعرض اليهود في جميع أنحاء " أوربا " وخاصة يهود أسبانيا الذين أصبحوا في وضـع سيئ للغاية ، قاسوا فيه أنواع العذاب ، هـذا الوضـع سـاعد سـاباتاي علـى إعـلان نفسه المسيح المنتظر الذي بعث لخـلاص اليهـود في سـنة ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م [٤]. حيث راجت في تلك الأيام شائعة مفادها أ ن المسيح سيظهر ، كي يقود اليهود في

---

(١) داود عبدالعفو سـنقرط : القوىالخفيـة لليهـود العالميـة الماسـونية ، (الطبعـة الاولى، عمـان ، دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ١٢٨ .

(٢) داود عبدالعفو سنقرط : المرجع السابق ، ص ١٢٨-١٢٩ .

، أحمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ٢٣ .

(٣) أحمد نوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٤) محمد علىقطب : يهود الدونمة (الطبعـة الاولى ، بـيروت ، دار القلـم، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ، ص ١٦-٢٠ .

، داود عبدالعفو : المرجع السابق ، ص ١٢٩-١٣٠ .

، أحمد نوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

صورة المسيح ، وأنه سيحكم العالم في فلسطين ، ويجعل القدس عاصمة للدولة اليهودية المزعومة [1] .

ذهب ساباتاي الى مصر في سنة ١٠٧٤هـ/١٦٦٣م فنزل ضيفا على صراف يهودي يدعى روفائيل جوزيف فدعمه بالمال ، ومن مصر رحل ساباتاي الى فلسطين ،ومنهاالى أزمير ، وفي أزمير علا شأنه ، ووفدت اليه الوفود اليهودية من كل مكان لشهرته التي طبقت الآفاق ، وقلدته اليهود تاج " ملك الملوك " فقسم العالم الى (٣٨) قسما ، وعين لكل قسم ملكا ، وأخذ يوقع باسم " الابن الوحيد الأول ليهوه " [2] ، اعتقادا منه أنه سيحكم العالم كله من فلسطين ، حيث كان يقول : " أنا سليل سليمان بن دواد حاكم البشر ، اعتبر القدس قصرا لي " . ثم قام بشطب اسم السلطان محمد الرابع من الخطب التي كانت تلقى في كنائس اليهود ، وجعل اسمه محل اسم السلطان [3] .

ومما يؤسف له أن السلطة العثمانية لم تعبأ أو تهتم لما يجري وذلك لسببين : الأول : التسامح الديني ، وحرية الاعتقاد والاستقلالية الطائفية اليهودية بأمورها وشنونها والذي كان وبالا ونقمة على الدولة العثمانية ، أما الأمر الثاني : فهو انشغال السلطان محمد الرابع بحرب جزيرة كريت وغيرها [4] .

ولما استفحل أمر ساباتاي ألقى السلطان محمدالرابع القبض عليه ، وخيره

---

(١) أحمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ٢٤-٢٥.
، محمد على قطب : يهود الدونمة ، ص ١٧ .

(٢) محمد على قطب : المرجع السابق ، ص ١٦-٢٠ .
، داود عبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسونية ، ص ١٣٠ .
، أحمد نوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٣) أحمد نوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٥-٢٦ .

(٤) محمد على قطب : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

بعد محاكمته بين ثلاث : اماالثبات دعواه ، أو الموت ، أو التوبة والاسلام ،ولكنه لم يجد بدامن الاسلام تحت اسم محمد البواب ، فعينه السلطان في الحال ر نيسا لبوابي قصره[1] ، وقيل تسمى باسم محمد عزيز أفندي ، وطلب ساباتاي من السلطات العثمانية ،أن تسمح له بدعوة اليهود الى الاسلام فأذنت له ، فانطلق بين اليهود يواصل دعوته الى الايمان به ، ويحثهم في نفس الوقت على ضرورة الاسلام ظاهريا مبطنين ا لساباتيه [2] .

وقد تركت الدولة لساباتاي حرية التجول والدعوة ، فاستغلها وضمن لنفسه عدم الشبهة ، وانصرف الى تنظيم وتقنين ورسم معالم مذهبه الجديد ، وجمع كل ذلك في وثيقة من ثمانية عشر بندا ، انكشفت فيما بعد ، وكان أهم تلك المواد وأخطرها المادتان (١٦) و (١٧) وهذا نصهما :

المادة (١٦) : يجب أن تطبق عادات الأتراك المسلمين بدقة بصرف أنظارهم عنكم ، ويجب ألا يشعر أحد من الأتباع بضائقة من صيام (رمضان) ومن الأضحية ،ويجب أن ينفذ كل شيء يجب تنفيذه أمام الملأ .

المادة (١٧) : ان مناكحتهم – أي المسلمين – ممنوعة قطعا [3] .

وهكذا نشأت على يد محمد البواب ، أو عزيز أفندي جماعة من يهود الدونمة ، في الدولة العثمانية ، والدونمة في الأصل العائد الى الاسلام ، بعد أن كان تائها في اليهودية ، أما في الحقيقة فانهم كانوا يعنون بهاالمسلم ظاهرا واليهودي باطنا .

---

(١) داود عبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهود والعالمية الماسونية ، ص ١٣٠ .
، اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة تجاه فلسطين، ص ١٨٧-١٨٨.

(٢) محمد على قطب : يهود الدونمة ، ص ٣٥ .
، احمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثانية ، ص ٢٧-٢٨ .

(٣) محمد على قطب : المرجع السابق ، ص ٤٠-٤١.

وحين تفاقم خطر الدونمة صارت تعني القذر أو الخسيس [1] . وقد استطاع ساباتاي أن يقدم الشئ الكثير للحركة الصهيونية أثناء تلك الفترة ، ويقول أفرام غالانتي الكاتب اليهودي " أن ساباتي قد أنقذ اليهود من المصائب والاضطهادات بهذه الطريقة " [2] .

ويبدو ذلك واضحا من توجيهه لليهود الى الدخول في الاسلام ظاهرا حتى يستطيع بناء قاعدة في عاصمة الدولة العثمانية ، باعتبارهم مسلمون ومن خلال اسلامهم يحصلون بلا شك على أهدافهم الاستعمارية .

حين بدأ رجال الدونمة يتغلغلون في جسم الدولة ، كماهي عادة اليهود ، شنوا هجوما غير مباشر على أجهزتها المختلفة ، لشل حركة الدولة عن العمل ، فبدأوا بارباك الدولة ماديا وايقاعها تحت طائلة الديون ، فكانواهم وأخوانهم من يهودالعالم الذين يتحكمون بذهبه وسياسته [3] أصحاب هذه الديون . وحين عجزت الدولة عن السداد أخذوا يفرضون عليها مايشاؤون تدريجيا حسب خطة

---

(١) داود عبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسونية ، ص ١٣٠-١٣١.

(٢) احمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ٢٦ .

(٣) هذا الأمر لم تتنبه له الدولة العثمانيةالتي استقبلت اليهود ، كما تنبهت له أسبانيا عندما قامت بطردهم ، في حين خيرت العرب بين الرحيل أو البقاء أو اعتناق المسيحية ، لكنهم لم يخيروا اليهود لماذا ؟ والاجابة على ذلك : أن الأسبان يعرفون ويعلمون علم اليقين بانهم سوف يفضلون البقاء مع التظاهر باعتناق المسيحية ، لأن اليهودي لايرضى بغير دينه بديلا ، اضافة الى ذلك ان معظم الأراضي الأسبانية بما فيها أراضي الكنيسة كانت مرهونة عند هؤلاء المرابين ، لهذاتخلصوا منهم عندما قاموا بطردهم .

- داود عبدالعفو سنقرط : المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

مدروسة ففرضواعليها أول ما فرضوا مستشارين غربيين بحجة حماية ديونهم على الدولة . وكان الغرض الأساسي لذلك هو ا لتجسس عليها وتوجيه دفة الدولة حيث يريدون ويرغبون والتحكم في سياستها الداخلية والخارجية .

وهكذا استطاعت هذه ا لمحافل الماسونية بمساعدة يهود العالم والدول الاستعمارية التي تعمل على انقسام الدولة وعلى رأسها انجلترا وفرنسا أن تدس اليهود الدونمة في جميع المراكز الحساسة في جسم الدولة تمهيدا لاحتوائها وقلبها ، لدرجة أن السلطان في أواخر أيام الدولة ماكان يستطيع أن يعين ميزانية قصره الا بمشورة هؤلاء المستشارين ، فأصبح منهم الوزراء ، والنواب ، وقادة الجيش ، وكبار الموظفين والمسئولين لدرجة أن تولى كاميل باشا رئاسة الوزراء، في آخر عهد السلطان عبدالحميد الثاني ، كما تولى جاويد بك في عهده عدة وزارات منها وزارة المالية [١] .

وهنا يتضح بحق أن الماسونية تضم في محافلها أعضاء كبارا من اليهود الذين ينتمون الى الجمعية السرية . وأن وظيفة هؤلاء هي توحيد المساعي وتنسيقها بين مختلف المحافل ، وتوجيهها لخدمة اليهود . ويتبين من هذا أيضا أن الماسونية هي آلة لخدمة سرية أعلى منها وهي " اليهودية " [٢] .

وهذا مالعبه المحفل الماسوني الذي أسس لهذه الغاية في الدولة بواسطة اليهود ،وهو استخدام رجالات الدولة العثمانية أنفسهم للحصول منهم على المساعدات اللازمة لفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود من أنحاء العالم واقامة وطن قومي فيها لليهود ، وقد ظهرت نتائج هذا المحفل في اشعال نار الثورة في تركيا العثمانية سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ، للموقف الذي أبداه السلطان عبدالحميد

(١) داود عبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسونية ، ص ١٢٨ .

(٢) جواد رفعت أتلخان : أسرار الماسونية ، ص ٧٥ .

الثاني تجاه الحركة الصهيونية ، ورفضه لاغراءات وعروض هرتزل المالية لقبول اقامة الوطن اليهودي على أرض فلسطين ،وكان هذا الأمر له الأثرالكبير في دفع أو استخدام الصهيونية للماسونية من أجل الاطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني [1]

.

لقد استطاعت الحركة الصهيونية استخدام المحافل الماسونية في متابعة النشاط السياسي ، لتحقيق المشروع الصهيوني باستيطان فلسطين ، كما يؤكده يوسف الحاج الحائز على رتبة الأستاذية العظمى في الماسونية ومعتقداتها حيث يقول: " ان مبدأ هذه الفرقة وتعاليمها ودرجاتها وغاياتها ترمي كلهاالى تقديس ماورد في التوراة ،واحترام الدين اليهودي ، والعمل على تجديد المملكة اليهودية في فلسطين باسم الوطن القومي اليهودي "[2] .

وهذا ما أشارت اليه بعض الوثائق البريطانية من تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين بالرغم من موقف الدولة العثمانية الحازم ضد هجرة وتسرب اليهود ، الذين كانوا يأملون في الإقامة الدائمة في فلسطين والتضحية بأرواحهم ،وما لديهم أي رغبة في العودة الى أهلهم وذويهم . بالرغم من أن مستعمراتهم او مستقراتهم فقيرة ، الا أنها مكيفة لهذا الغرض بحكم طبيعتها للتنافس مع السوريين وأهل فلسطين كماأنها مدعومة بشعور ديني قوي .

وقد أشارت التقارير الى نشاط اليهود الواضح والملموس من ناحية التقدم

---

(١) ابراهيم فؤاد عباس : الماسونية تحت المجهر (الطبعة الاولى ، جدة ، دار الرشاد ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) . ص ٣٨-٣٩ .

(٢) حسان على حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش ، ص ٣٥ .

الدراسي في الكلية الزراعية [١] في يافا كما أشارت الىنظرة الاحتقار للعرب المسلمين واتهامهم بالكسل والخمول في الزراعة والتجارة التي برع فيها اليهود . غير أن اتجاه روسيا وبريطانيا وفرنسا اتضح في اصرارهم على تمهيد الاستيطان اليهودي في فلسطين .

كما تشير الحقائق الىأنه من الممكن تحقيق مخططات لورد بيكم فيلد،وممكن ان تكون هذه الهجرات عاملا مهما في حل المسألة الشرقية [٢] .

وهذه الفكرة صدى لما كان يدور أو يخطط له في أروقة الخارجية البريطانية كما أسلفنامن قبل ، للتمهيد لما بعد في اعلان وعد بلفور في عام ١٣٢٦هـ/١٩١٧م .

ويوم أن بلغوا في تحكمهم الذروة فرضوا على السلطان عبدالحميد الثاني المشروطية الثانية في سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ، ونفيه الى سلانيك في سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م (٣) لازاحته عن طريقهم بعد تدريب زعماء ا لثورة في محافلهم ، لتنفيذ مآربهم دون معارضة من الحكومة التي يعتبر حكامها من تلامذتهم كما سنتناوله في الفصل التالي بمشينة ا لله تعالى .

---

(١) أسستها السيدة كريميه ويتولي أمرها حاليا اليهود الاسرائيلون الذين ينحدرون الى سلالة النبي يعقوب.

F.O.424/197, Sir N.O'Coner to the Marguess of Salisburtm N..91,24-12-1898.

(٢) Ibid.

(٣) داود عبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية ، ص ١٣١-١٣٢.

الفصل الرابع

مظاهر الغزوالفكري في الدولة العثمانية

أ – الاستغراب (اتجاه الدولة الى الاصلاح العسكري).

ب – عصر التنظيمات العثمانية .

ج –التغريب : مدحت باشا وزملاؤه .

د – المشروطية الأولى والثانية .

أ – الاستغراب : (اتجاه الدولة الى الاصلاح العسكري) :

أشرنا من قبل الى الخلل الذي لحق بالدولة في المجال الخارجي طوال القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي وما رافق ذلك من تكتلات قامت بها بعض الدول الأوربية ضد الدولة العثمانية ، مما أدى الى ظهور اتجاه جديد في الدولة العثمانية يدعو الى اصلاح بعض مؤسسات الدولة ، وخاصة الإصلاح العسكري ، وهو الاتجاه المعروف بحركة الإصلاح على أساس اقتباس وتطبيق النظم العسكرية الأوربيية [1] .

وقد بدأ اصلاح الناحية العسكرية منذ أن طغى الإنكشاريون على السلطة وأصبحوا خطرا على الدولة ، وكان السلطان عثمان الثاني (١٠٣٢/١٢٠٨هـ) (١٦٦٢/١٦١٨م) هو أول من فكر في التنكيل بهم عقب امتناعهم عن مواصلة الحرب التي كانت بين الدولة والبولونيين فحولوا نصر الدولة الى خسائر أصابت معظم قطاعاتها. ففكر السلطان في استبدالهم بجيش منظم ، ولكنهم حين علموا بأنه شرع في حشد جيش في آسيا الصغرى ويعني بتدريبه ، انقضوا عليه وخلعوه ثم قتلوه . وفعلوا مثل ذلك في السلطان ابراهييم الأول (١٠٥٠-١٠٥٨هـ /١٦٤٠-١٦٤٨م) حين شعروا أنه يتآمر عليهم ، وألحقوا به السلطان أحمد الثالث (١١١٥-١١٤٣هـ/١٧٠٣-١٧٣٠م) عندما فكر في تنظييم الجيش فخلعوه ونصبوا مكانه السلطان محمود الأول [2] .

وفي عهد السلطان مصطفى الثالث (١١٧١-١١٨٨هـ/١٧٥٧-١٧٧٤م) سار اصلاح الجيش سيرا بطيئا وكذلك في عهد السلطان عبدالحميد

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية (مطبعة الرسالة ، ١٩٥٧م) ص ٦١-٦٥.

(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني (صدر ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م) الكتاب الثاني ، ص ١٥١-١٥٢.

الأول (١١٨٨-١٢٠٤هـ/١٧٧٤-١٧٨٩م) الا أن هـذا الاصلاح دخل في طور التنفيذ الفعلي في عهد السلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ/١٧٨٩-١٨٠٧م) [١] الذى وطد العزم على التجديد والاصلاح ساعده على ذلك قيام الثورة الفرنسية [٢] .

وفي تلك الفترة بلغ الوهن والضعف في الدولة العثمانية مبلغا شديدا ، وقد ظهر هذا الضعف مع نهاية السلاطين العشرة الأول العظام ، فتوقفت الفتوحات وأخذ التراجع يصبح الصفة الغالبة علىالدولة على محاور قاراتها الثلاث ، مع غرق بعض السلاطين في حياة لاهية، مما صدهم عن القيام بواجباتهم نحو تدبير شئون دولتهم في ميادين الفكر والسياسة ، فاعتدت كل من النمسا وروسيا وغيرهما من الدول الأوربية على ممتلكات الدولة العثمانية [٣] ، وضمتها الى أملاكها ولم يقم السلاطين بواجبهم ، ذلك لأنهم غفلواعن تربص أوربا لهم ، ولم يعرفوا أن أوربا تنتظر الفرصة للإنقضاض عليهم لتقطيع أوصال دولتهم .

وأخيرا وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام تلك الأطماع من غير أن يستعدوا لها ويتسلحوا بسلاح عدوهم العلمي والصناعي ، عندما فرطوا في الاهتمام بالعلوم النافعة ، فلم يطوروا صناعاتهم وفنونهم الحربية كما كان يحدث في أوربا ، ولم يفكروا أيضا في عمل التنظيمات الادارية المطلوبة . كما أن العلماء كانوا على درجة كبيرة من الضعف ، فأهملوا توجيه الأمة توجيها علميا وفكريا

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٦٥ .

(٢) محمد جميل بيهم : التاريخ العثماني ، ص ١٥٢ .

(٣) روحي بك الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ، (مجلة الهلال ، الجزء الثاني ، السنة السابعة عشر ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ص ٧٤ .

، عبد الكريم مشهداني : العلمانية وأثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٥ .

سليما [١] . في الوقت الذي كـانت فيـه دولتهـم تواجـه محنـة حكـم مملكـة واسـعة ومترامية الأطراف ، اضافـة إلى ذلـك لم يكـن فيهـم حمـاس عصـر سـلاطين الدولـة الأول، ولا قوتهم ، لمواجهة حضارة أوربا المادية الحاملة معها ثورة صناعية واسعة. ولذلك كان على سلاطين الدولة العمل علـى اخـراج دولتهـم مـن هـذه الورطـة ، فكيف السبيل الى التغلب على هذه المشكلة ؟ [٢] .

كان الخروج من هذا المأزق الدقيق بنجاح يحتاج الىذكاء ومعرفة صحيحـة بالإسلام وحضارته العظيمة لمواجهة حضـارة الغـرب الماديـة . وكـان لابـد للدولـة العثمانية من أن تعمله ، والعالم الإسلامي كله مستعد لاتباعها والسـير في ركابهـا ، لارتباط هذاالعمل بمستقبل العالم الاسلامي ، الفكري والحضاري والسياسـي الـذي لايقبل أي تأجيل [٣] .

ومما يؤسف لـه أن الدولـة العثمانيـة كـانت في تلـك الفـترة منقسـمة علـى نفسـها الى طـائفتين : طائفـة تريـد الاصـلاح والطائفـة الأخـرى متعصبـة لاتعـرف ولاتقدر خطورة الموقف وضخامته ، هذاالموقف الذي ظهر بتأثير القـوة الناهضـة في أوربا لدولتهم [٣] .

فظهر مايشبه الاجماع على الحاجة الظاهرة والملحة الى الإصـلاح بأسـاليب متعددة وذلك بعد الانسـحاب الثـاني مـن فينـا ، فقـام في ذلـك الحـين المصلحـون العثمانيون بالدراسة بصورةمبدئية لنقاط الضعف الداخلي للدولة العثـــمانية،وقد

---

(١) أبوالحسن على الندوي : الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية . ص ٣٥ .
، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٥-٦٦.

(٢) أبوالحسن على الندوي : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٣) أبوالحسن على الندوي : المرجع السابق ، ص ٣٧-٣٨.
، عبدالكريم مشهداني : المرجع السابق ، ص ٦٥.

(٤) أبوالحسن على الندوي : المرجع السابق ، ص ٣٨.

تركز ذلك على معرفة مدى ماوصلت اليه مؤسساتها في جميع المجالات ، ومن ثم التفتت مقترحاتهم الى الرجوع نحو استعادةالدولة الى حالتها الأولى [1] أي الى عصر الدولة الأول ، لتعود الدولة الى ماكانت عليه من قوة في جميع المجالات . وهكذا أخذت محاولات الإصلاح تدخل الى مؤسسات الدولة وذلك ببطء شديد . ولكن بعد معاهدة كارلوفتز (سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م) وباساروتيز (١١٣١هـ/١٧١٨م) اللتين عبرتا عن التفوق العسكري الغربي حان الوقت لسلاطين الدولة العثمانية للنظر الى مقترحات الإصلاح بجدية . وقد تحقق هذا بدخول ابراهيم باشا الى الوزارة برتبة (صدر أعظم) في سنة ١١٣١-١١٤٣هـ/١٧١٨-١٧٣٠م) ، والذي كان يفضل الإصلاح ، وفي الوقت نفسه تلقى السلطان أحمد الثالث مذكرة توضح الحاجة الىالعمل على التقدم العسكري والاستفادة من تجارب الدول الأوربية في هذاالمجال . وعلى أثر ذلك فانه كان من المعقول اتخاذ سنة ١١٣١هـ/١٧١٨م كبداية لنشأة حركة الاستغراب في الدولة العثمانية . ذلك لأن جهود الاصلاح ظهرت بخصائص ثلاث وبدأت منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي . وهذه الخصائص الثلاث هي كالتالي :

الخاصة الأولى : كانت تتعلق بحقيقة واضحة ، هي أن معظم الطموحات نحو حركة الاستغراب قد جاء في المصادر والنماذج الفرنسية أو جاء صورةً مصغرة عن الحضارة الغربية ، كما كانت فرنسا أيضا الحليف التقليدي للعثمانيين .

أما الخاصة الثانية : فهي أن معظم جهود الإصلاح ركزت في تحسين التدريب والتنظيم للجيش ، وفي استخدام الأسلحة العسكرية الحديثة .

---

(١) Roderic. H. Davison : Turkey A Short History (England the Eothern Press Walkington, Beverly 1981) p. 68.

والخاصية الثالثة : هي أنه أصبح واضحا أن الإصلاح بامكانه إحداث الصدام بين المؤيدين لهذا الاصلاح والمعارضين له ،الى درجة العنف ، ولذلك يجب تبرير أسباب الإصلاح وخطواته للعامة وغيرهم (١) .

ونتيجة لذلك اهتمت الدولة في عهد السلطان أحمد الثالث بالطباعة وسبقت هذاالحادث العظيم بحوث مستفيضة قام بها العلماء حول شرعية الطباعة وأخيرا أفتى شيخ الإسلام عبدا لله أفندي في سنة ١١٢٩هـ/١٧١٦م بإباحة ذلك بشرط جودة الطبع والتصحيح، وبناء على ذلك صدر خط شريف بانشاء المطبعة وأوكل أمرها إلى إبراهيم متفرقة (Ibrahim Muteferrike) المجري الذي اعتنق الإسلام ، وذلك لإنشاء أول مطبعة في الدولة العثمانية ، وكان خوف العلماء مبعثه أن يعمد أصحاب الأغراض السيئة الىالكتب الدينية فيحرفونها ويشوهوها، ولذلك تعهد لهم ابراهيم بعدم طبع كتب التفسير والحديث والفقه أو أي كتاب ديني (٢) .

وقد أصدر ابراهيم متفرقه رئيس المطبعة العثمانية في البداية حوالي سبعة عشر كتابا تدور موضوعاتها حول الدراسات العلمية والعسكرية للمدارس العسكرة الحديثة التي أنشئت في عهد السلطان عبدالحميد الأول ، كما جاء الى اسطنبول وفود عديدة من الغرب خاصة من الفرنسيين لأسباب رسمية وغير رسمية.

وقد تطور هذاالاتجاه نحو الإصلاح فكان الوزير خليل حامد (١١٩٧-١٢٠٠هـ/١٧٨٢-١٧٨٥م) يميل إلى الإصلاحات الغربية ، كماكان له

---

(١) Roderic H. Davison : Turkey A Short History, p. 68 .

(٢) Roderic H. Davison : Ibid, p. 69-70.

، محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٩٣ .

صداقات تربطه بفرنسا ، ولكن المحافظين الذين شعروا بالقلق من تدفق الرجال والأفكار الأوربية من ديار الكفر خافوامن سيطرة فرنساعلىالبحر المتوسط والتي كانت من أهم أهداف سياستها الاستعمارية . لهذاقام المحافظون بقتل هذاالوزير ووضعوا على جثته بعد قتله شعار " عدو الشريعة والدول " (١) .

لذلك اقتنع السلطان عبدالحميد الأول أن الدولة اذا لم تصلح جيشها ونظامها العام فإن أيامها لن تطول ، وكان يرى أن الإصلاح الحربي يجب أن يكون في مقدمة الإصلاحات لأن سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م تمثل نقط الضعف الخارجي على الدولة ، فكانت معاهدة قينارجه مقياساً حقيقيا لمدى الضعف الذي وصلت اليه الدولة ، والتي تمت نتيجة للحرب التي قامت بين روسيا والدولة العثمانية في عصر السلطان أحمد الثالث. وقد أظهرت تلك الحروب وتوقيع المعاهدة التي أعقبتها مدى تفوق الأسلحة الغربية، لذلك اتجهت عناية السلطان الى الإصلاح الحربي.

وفي هذه الأثناء نشر أحمد راسم أفندي رسالة شرح فيها أسباب ضعف الدولة العثمانية في الحروب التي خاضتها خلال الفترة (١١٨٣-١١٨٨هـ /١٧٦٩-١١٧٤م) وأوضح أن العلاج الناجح هو الإصلاح والتنظيم العاجل للجيش وتطوير أسلحته .

لهذا اهتم السلطان عبدالحميد الأول بهذه الاصلاحات ولكنه لم يستطع تنفيذ برنامجه الإصلاحي في هذا الشأن لمعارضة الانكشارية له (٢) .

وخلال هذه الفترة تولى السلطان سليم الثالث،وكان يتوق إلى الإصلاح، وقد هزته أفكار الثورةالفرنسية ، فكان عهده بمثابة عهد جديد لإصلاح أجهزة

---

(١) Roderic H. Davison : Turkey A Short History , p. 70.

(٢) محمد عبداللطيفالبحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٩٨ .

الدولة[1] .فقد أتاح له عمه السلطان عبدالحميد الأول حرية التفكير خلال ولايته التي استمرت خمس عشرة سنة ، حياة حرة ، واتصالات واسعة ، اكتسب منها ثقافة وتحصيلا واسعا [2] .

وكان من أقرب المقربين الى السلطان سليم الثالث طبيب ايطالي اسمه لورنزو (Lorenzo) حصل منه ومن غيره من الأوربيين على معلومات عن دول أوربا وعن مؤسساتها المدنية والعسكرية وكذلك أسباب تفوقها على العثمانيين . بل إن سليما أجرى مراسلات عن طريق وسيط مخلص له ، اسمه (اسحق بك) مع الملك الفرنسي لويس السادس عشر ووزرانه بهدف تزويده بمعلومات ثقافية وسياسية من قادة ما اعتقده سليم الثالث أنها أرقى دول أوربا .

وظل يراسل لويس السادس عشر الى أن قامت الثورة الفرنسية في سنة ١٠٢٤هـ/١٧٨٩م . وهو هذا العام الذي تولى فيه السلطان سليم السلطة ، وكل ذلك يلقى الضوء على رغبة السلطان سليم الثالث في الإصلاح ، هذه الرغبة التي أفقدته فيما بعد عرشه ثم حياته في النهاية [3] .

وقيل ان والده السلطان مصطفى الثالث ، ترك له مذكرات مكتوبة شرح فيها أوجه الخلل في الدولة ووسائل الإصلاح ، لذلك جاء سليم الثالث للسلطنة متحفزا للاصلاح [4] .

وعلى مايظهر أن السلطان سليم الثالث قام بكل ذلك لأنه كان يأمل من لويس السادس عشر الحصول على بعض المساعدات الفرنسية لمواجهة

---

(١) اسمايل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٦٤٤.
،عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، ص ٦٥.
يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٤٣.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٣-١٧٤.

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٩٩.

(٤) محمد عبداللطيف ا لبحراوي : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

روسيا [١] . وقد أخطأ سليم في اتجاهه الى فرنسا التي كانت تموج بكل النظريات ، في حين أن لويس السادس عشر ورجاله كانوا يخططون لايقاع الدولة العثمانية في شباكهم ، فكان عليه أن يدرك أن مايفيد الغرب المسيحي لايمكن أن يطبق بأي شكل من الأشكال على العثمانيين [٢] .

وفي السنوات التي تلت جلوس سليم الثالث على العرش ، افتتح سفارات دائمة في العواصم الغربية وهي لندن وفينا وبرلين وباريس [٣] ، ومن خلال تلك الاتصالات أخذت حضارة الغرب المادية تتسرب بشكل أو بآخر الى مؤسسات الدولة العثمانية ، ولكن بشكل بطيء وخاصة حينما تم تأسيس المطبعة ، التي اقتصرت على طباعة الكتب غير الدينية [٤] .

ولم يقتصر السلطان سليم الثالث في تحرياته عن أسباب التقدم الأوربي على المصادر الفرنسية فقط ، بل أرسل أبابكر راتب أفندي إلى فينا ليدرس الحالة هناك عن كثب ، في أوربا ، ولما عاد في نفس السنة كتب تقريرا مفصلا عما شاهده عن الحكومة والفكر السياسي المعاصر ، مع اقتباس لبعض أقوال الفلاسفة والسياسيين ، فأوضح في تقريره ضرورة الاهتمام بالجيش وتدريبه ، وكذلك الاهتمام بموارد الدولة وتنظيمها على أسس حديثة .

وكان أمام السلطان سليم الثالث مثل واضح فيما فعله بطرس الأكبر في روسا بواسطة القوة التي دربها له خبراء غربيون على النسق الأوربي ، اذ استطاع

---

(١) Roderic H. Davison : Turkey A Short History , p. 70.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٤ .

(٣) عبدالكريم مشهداني :العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٦ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى :ا لمرجع السابق ، ص ١٧٧ .

(٤) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٧٥.
، Roderic H. Davison : Op.cit. ,p. 70.
، عبدالكريم مشهداني : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

بها التغلب في حروبه وصد الخطر الداخلي والخارجي على السواء [1] . ولم يعلم سليم الثالث أن ذلك القياس خطأ من أساسه ذلك لأن الدولة العثمانية دولة إسلامية لها نظمها وحضارتها الإسلامية ولايمكن قياسها بروسيا ، ولكنه أصر على الأخذ بآرائه دون دراسة الوضع دراسة تتمشى مع مكانة الدولة الدينية والسياسية ، وأخذ في ادخال بعض التحسينات المهمة التي طورت بها أوربا جيشها ، وكانت فجانية هذا العمل من أشد الأعمال خطرا على الدولة [2] .

كان السلطان سليم الثالث حليما عاقلا وحكيما محبا للاصلاح . وقد رآى بنفسه مبلغ اختلال أحوال الدولة بسبب استبداد الانكشارية في أمور الدولة، حتى صاروا يعزلون ويولون كما كان يفعل الجند التركي في الدولة العباسية ، فعزم على التخلص منهم واستبدالهم بجند منظم [3] ، غذاؤه جيد ، لباسه جيد ، راتبه أيضا جيد ، يفرّغ حتى لايكون له عمل الا الدفاع عن دينه ووطنه . لايتدخل في شئون الدولة والسياسة ولاينهب الشعب ، مطيعا لقادته وقيادته طاعة عمياء ، ملما إلماما جيدا بالعلوم العسكرية الجديدة ليعود بأمجاد الدولة الى ماكانت عليه في عصرها الأول [4] .

لذلك طلب السلطان سليم الثالث في سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩١م من تسعة عشر تركيا وأجنبيين أن يقدم كل منهم تقريرا عن أسباب فقدان الدولة العلية قدرتها السابقة واقتراح الاصلاحات التي يلزم اجراؤها حاليا لاستعادة تلك

---

(١) محمد عبداللطيفالبحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٠٠ .

(٢) اساعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٤٤.

(٣) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، مجلة الهلال ، ج ٨ ، س ١٧ ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م ، ص ٤٦٨ .

(٤) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٤٦-٦٤٨.

القدرة[١] .

والغريب أن التقارير تركزت كلها حول نقطة واحدة هي أن الإصلاح يجب أن يبدأ في الجيش اولا ، وكان اتفاقا مدهشا بالنسبة الى التشكيلات الانكشارية، ولذلك لم يتردد السلطان سليم الثالث أبدا في أن يبدأ باصلاح الجيش أولا ، وهو يعرف أن هناك من فقد رأسه من أجداده ومن الوزراء دون أن يتمكنوا من اصلاح الانكشارية ، ولذلك أصدر مرسوما بذلك في سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م ينص على قيام نظام حركة التجديد والنظام الجديد لتكوين الجيش [٢] .

وقد انتهزت الدول الأوربية وعلى رأسها فرنسا هذه الفرصة لاستقلال اتجاهات السلطان سليم الثالث نحو التجديد ، فأظهرت له المودة وساعدته بادخال المخترعات العسكرية الحديثة في جيشه ، فأرسلت له السفير المسيو أوبير دوبايت (Aubert du Bayts) ، ومعه عدد من المهندسين الفرنسيين يرافقهم عدد من الضباط والمعلمين للتدريب على كل الأسلحة وصناعة المدافع ، وقد جلب هؤلاء معهم بعض المدافع الجاهزة المركبة على عجلات هديةً للسلطان ، ولتكون نموذجا لصناعة المدافع في الدولة العثمانية .

كما قامت البعثة الفرنسية بتوجيهه وتكوين فيلق من المدفعية (الطوبجية) عدد رجاله ثمانمائة [٣] ، كما نظمت فرقة من الخيالة تسير على النظم العسكرية

---

(١) Roderic. H. Davison : Turkey A Short History , p.70.
، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٤٣.

(٢) يلماز اوزتونا :المصدر السابق ، ص ٦٤٦-٦٤٧.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٤٥.
، ابراهيم حليم بك : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٧٩ .
، محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٠١ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٨.

الأوربية الحديثة ، وقامت بتعليمها على الطراز الأوربي الحديث .

وفي الوقت نفسه أوجدت هذه البعثة تشكيلات من المشاة (البيادة) فكانت هذه التشكيلات نواة الجيش الجديد ، الذي أسند السلطان قيادته الى مصطفى باشا [(١)] .

وعلى هذا المنوال سار السلطان سليم الثالث وأخذ في ادخال إصلاحاته الجديدة في كافة فروع الجيش وادارة الدولة ، ولكن الصدر الأعظم حافظ اسماعيل باشا كان يظهر للسلطان أنه ممن يميلون الى هذا الاصلاح أو التنظيمات الجديدة قلباً وقالبا ، لكنه في قرارة نفسه كان يكره هذه التنظيمات ، فاكتسبت بذلك الطائفة المعارضة قوة لمساندة الصدر الأعظم لهم .

اتضح هذا الموقف عندما أراد السلطان بث التنظيمات العسكرية الجديدة بجهة الروملي ، فأرسل لهذه المهمة والى قونية عبدالرحمن باشا حيث أمره السلطان في الظاهر بتنكيل أشقياء الصرب وفي الباطن القيام باجراء الاصلاحات كما رسمت له وذلك في سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م .

ولما بلغ ذلك أعيان الروملي اجتمعوا وتحالفوا خفية في ادرنه واتفقوا على منعه بالقوة فشاع الخبر ، لذلك أشار رجال الدولة على السلطان بلزوم عودة عبدالرحمن باشا الى ولايته ، فتفرق أعضاء ذلك التحالف وعادوا الى بلدانهم ، فاشتهرت هذه الواقعة في التاريخ العثماني بوقعة أدرنه الثانية [(٢)] .

وفي تلك الفترة حدثت في داخل الدولة بعض الاضطرابات بسبب مشروع السلطان تعميم او تنظيم الجيوش على النظام الجديد ، قام بها الجيش الانكشاري

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٤٥.
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ ا لعثماني ، ص ١٧٨.

(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٤٥-٦٤٦.

الذي لم ينظر لهذه الاصلاحات العسكرية بعين الارتياح [1] لرفضهم استعمال الأسلحة الجديدة والقيام بالتدريب الجديد [2] .

وفي هذه الأثناء هلك الجنرال دوبايت الفرنسي الذي حضر لتدريب الجيش على النظام الجديد ، فعاد عدد كثير من ضباطه إلى فرنسا وبموته تشتت هذه القوة [3] .

كان السلطان مقابل ذلك كثير التنازل ، كان يتحاشى سفك الدماء ظنا منه أنه اذا تسامح وقدم بعض التنازلات فان المعارضين سيلينون ، لكن ذلك زادهم تشجيعا في المعارضة والعصيان .

وعلى الرغم من محاولاته فانه لم يتمكن من تصفية تشكيلات الانكشارية.

أما الانكشارية فانها كانت تعلم علم اليقين أنها تعيش أيامها الأخيرة ، سواء كان الانكشاريون من الجنود المخلصين الذين يؤمنون بأن ابتعادهم عن تقاليدهم وانضوانهم في تشكيلات جديدة تقلل من شرفهم ، أو من الذين يخشون من فقدانهم الكثير من دخلهم الذي سيقتصر على الراتب فقط في حالة دخولهم النظام الجديد ، لذلك فان الجميع لم يكونوا راغبين في الانفصال عن نظام الانكشارية القديم وتسجيل أنفسهم في حركة النظام الجديد.

لكن مما يجدر ذكره أنه كان هناك عدد من قواد الانكشارية المثقفين الذين يوقنون عدم امكان الانتصار على أية دولة من الدول الأوربية بهذه التشكيلات القديمة ، ولم يكن هؤلاء يخشون فقدان مناصبهم لكونهم من ذوي الرتب العالية لأنهم بطبيعة الحال سوف ينقلون الى مناصب أخرى ،لكن عدم وجود الشجاعة

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٨١.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٩.

(٣) محمد فرد بك : المصدر السابق ، ص ٣٨١.

، أحمد عبدالرحيم مصطفى :ا لمرجع السابق ، ص ١٧٩ .

الكافية لدى السلطان لالغاء هذه التشكيلات زاد من شجاعة المعارضين والعصاة[1]، مما جعل السلطان سليم الثالث يسعى الى انشاء قوة مشاة جديدة مع الاهتمام بكبح جماح الانكشارية ، الذين كانوا عقبة في طريق الاصلاح العسكري[2] . وقد أطلق على هذه الفرقة اسم " النظام الجديد " . ولتمويل هذه الفرقة أنشئت خزانة خاصة للصرف منها على هذا النظام الجديد ، فاستقدم السلطان الخبراء من فرنسا وانجلترا وبروسيا [3] وذلك بصورة خفية عن الخاصة والعامة [4] . وكان العلماء في البداية مترددين تجاه حركة النظام الجديد ، وكان من بينهم من يؤيد الحركة ، وعند تعيين اسحق زاده محمد عبدا لله افندي في المشيخة في سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م بدأ العلماء في المعارضة وذلك عندما حرضهم على العصيان بكل قوة ضد النظام الجديد ، وضد مؤسس هذاالنظام السلطان سليم الثالث [5] .

وكان العلماء المتعصبون ، يدعون أن جيش النظام الجديد كافر ، لأنه يرتدي البنطلون (السروال) بدلا من الشالوار (لباس يغطي النصف الأسفل من الجسم عريض وواسع) ويدعون أن السلطان سيلبسهم القبعات، فكانوا يثيرون

---

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية . ج ١ . ص ٦٥٧-٦٥٨.

(٢) فقد تمردوا في عهد السلطان عثمان الثاني في سنة ١٦٢٢م ، ومصطفى الثالث في سنة ١٦٢٣م وابراهيم في سنة ١٦٤٨م وأحمد الأول في سنة ١٧٣٠م ومالبثوا أن تمردوا عليه أي السلطان سليم الثالث في سنة ١٨٠٧م ومن بعده مصطفى الرابع في سنة ١٨٠٨م .
وكل هؤلاء السلاطين . اما خلعوا أو قتلوا على أيدى الانكشارية .
- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٩ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٧٩.

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٠٢ .

(٥) يلماز أوزتونا : المرجع السابق . ص ٦٥٧.

الناس بمثل هذه الأقوال [١] حتى حرموا باستعمال البنادق ذات الحراب لأن استعمال أسلحة الكفار عندهم اثم عظيم ، وأساءوا الى سمعة السلطان وبثوا كراهيته في نفوس الجمهور ، بقولهم انه بهذا العمل يسيء الى الاسلام بترويجه أساليب الكفار (٢) .

ولم تؤثر تلك المعارضة في تصميم السلطان سليم الثالث على التجديد بل سار في تعميم هذا النظام الجديد في الولايات العثمانيية ، غير أن الانكشاريين مالبثوا أن وقفوا في وجهه وأرغموه على الغاء " النظام الجديد " الذي وصفوه بأنه خدعة مخالفة للشرع ، وأعدموا جميع مؤيديه من رجال الدولة [٣] ، وكان شيخ الاسلام عطا الله أفندي والصدر الأعظم يحرضان الثوار سرا [٤] .

ولم يكتف الانكشارية بذلك ، بل استصدروا فتوى من شيخ الاسلام بأن السلطان الذي " يعمل بخلاف القرآن " لايجدر بالبقاء على العرش حتى لايتركوا له فرصة إحياء النظام الجديد ، وعزلوه بالفعل في سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م [٥] .

وفي الواقع أن التغير كان في البداية في مجال التجهيزات للجيش وتنظيمه وتدريبه ، ولم يكن هناك أي تفكير أو تدخل في الأمور الأساسية مثل التعليم

---

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ٦٥٨.
، أبوالأعلى المودودي : نحن والحضارة الغربية (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ) ، ص ١١١.

(٢) أبوالأعلى المودودي : المصدر السابق ،ص ١١١ .
، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٧ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٥٧-٦٥٨ .
، علاء موسى كاظم نورس : مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (المجلة التاريخية المغربية العدد ٢٥ ، ٢٦ ، ١٩٨٣م) ، ص ١١٠.

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٥٨ .

(٥) أبوالأعلى المودودي : المصدر السابق ، ص ١١١.
، علاء موسى كاظم نورس : المرجع السابق ، ص ١١١.

أوالصناعة أو الزراعة ، بل ان حركة الاستغراب الحقيقية في عهد السلطان تركزت في المجال العسكري فقط ، لاعادة تنظيم فيالق الجيش المختلفة ، وتزويد بعضها بأسلحة جديدة ، وقد اهتم السلطان كثيرا بالمدارس الفنيةالعسكرية ، وعمليات الترجمة (١) لبناء الوحدات العسكرية ، المشاة والمدفعية، وخصص المهندسين لبناء السفن ، وصناعة المدافع لمواجهة تسلط الانكشارية على مؤسسات الدولة وفشلهم في خوض الحروب أمام القوى الأوربية . غير أن الانكشارية استطاعت خلع السلطان سليم الثالث وتنصيب ابن عمه مصطفىالرابع مكانه ، وعلى الرغم من أنه وصل الى العرش مستنداالى فكرة مخالفة النظام الجديد إلا أنه قتل المتسببين في الثورة التي قامت ضد السلطان سليم الثالث ونظامه .

وعندما قامت هذه الثورة المناهضة للاصلاح بقتل قسم من مؤيدي النظام الجديد ، تمكن الآخرون من الفرار ، ولجئوا الى مصطفى باشا الملقب بعلمدار ، أحد مؤيدي السلطان سليم الثالث والنظام الجديد في روسجك " أصحاب روسجك " وبتشجيع من رجال الدولة ، وكان أكثرهم من الشباب المتحمسين للنظام الجديد ، لهذا قرر علمدار اعادة سليم الثالث الى عرش الدولة مرة ثانية مهما كان . ولكن السلطان مصطفى لما علم بالأمر ذهب الى سراي داود باشا خارج اسطنبول واستقبل هناك علمدار فعرض " أصحاب روسجك " على علمدار اعتقال السلطان مصطفىالرابع ، فرفض علمدار ذلك وأضاع من يديه الفرصة .

فقام السلطان مصطفىالرابع بناء على رغبة علمدار بعزل شيخ الإسلام ونفي العلماء الذين تدخلوا في هذاالانقلاب ، تهدأةً للنفوس فشكر السلطان

---

(١) Roderic H. Davison : Turkey A Short History , P. 70-71.

علمدار على خدماته ، وأمر بعودته الى سواحل الطونة وعدم تركها [١] .

تلكأ علمدار مدة أسبوع دون قصد يفكر فيما سيفعله وفي النهاية اقتحم علمدار الباب العالي وأخذ الختم الهمايوني من الصدر الأعظم ، وصار علمدار مصطفى باشا صدرا أعظم للبلاد ، وان لم يكن بصورة شرعية.

علم السلطان مصطفى الرابع بحادث اقتحام علمدار الباب العالي وعرف مايقصده فاتخذ التدابير حيال ذلك ، لكن علمدار لم يسرع في اعتقاله للمرة الثانية ولكنه أرسل اليه شيخ الاسلام يعرض عليه التنازل في الحال عن العرش ولكن السلطان مصطفى الرابع أمر بقتل السلطان سليم الثالث والسلطان محمود الثاني ولي العهد حتى يبقى هو الوحيد من بني عثمان ، فنجح في قتل السلطان سليم ، ونجا السلطان محمود الثاني بأعجوبة بعد تهريبه الى فناء المنزل الذي دخله علمدار، ولكي يقضي السلطان مصطفى الرابع على آمال علمدار أمر بقذف جثة سليم الثالث الى الفناء ، فلما رآى علمدار هذا المنظر انكب على جسد السلطان سليم باكيا ، في هذه اللحظة جاء محمود الثاني فبايعه علمدار في الحال ، وقاموا بخلع السلطان مصطفى الرابع وأجلسوا محموداً على كرسي العرش [٢] .

هذه الأحداث المحزنة تعكس ضعف الدولة وانهيارها بجلاء من الداخل مما مهد الطريق لعوامل الغزو الفكري أن تتسرب داخل الدولة العثمانية .

كانت الاحتياجات العسكرية قد فتحت أمام الأتراك بعض مجالات الاقتباس ليس فقط في العلوم العسكرية الجديدة ولكن كذلك في العلوم الطبية وفي تعليم اللغات الأوربية وخاصة الفرنسية [٣] .

---

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ .

(٢) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ص ٦٦٣ .

(٣) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٧٥ .

لم يدرك السلطان سليم الثالث أن الاصلاحات الأوربية جاءت وليدة ثورات اجتماعية واقتصادية وسياسية ، واستمرت منذ عصور النهضة الأوربية ، وأن الحياة العثمانية بأسرها كانت تتطلب الإصلاح العسكري وتستلزم إصلاحات في النواحي الاقتصادية ولكن ليس على الأسلوب الأوربي . وكان هدفه من ذلك هو مواجهة متطلبات الحياة العسكرية ، واعادة تنظيم الادارة العامة ، واضفاء الكفاءة عليها، والأهم من ذلك كله أن الدولة لم تكن لديها ميزانية عامة ، مما أوجد فوضى اقتصادية حول استقلال موظفي الحكومة بالانفاق كما يحلو لهم دون رقابة أو إشراف إداري ومالي .

ولم يواجه سليم هذه المشكلة بوضع ميزانية للدولة ، بل حاول إعادة الكفاءة للنظام القديم بالقضاء على الرشوة ومحاباة الأقارب لاجراء الترقيات حسب الكفاءة [١] .

وهكذا تسلم السلطان محمود الثاني السلطنة بعد ثورة دموية أدرك بعدها أنه لن يتمكن من اصلاح الجيش الا بالتخلص من الانكشارية ،ولكنه تريث وراح يخطط لهذه المهمة الصعبة خصوصا وأن الانكشارية يستمدون نفوذهم من البكتاشيه ، وهم من أكبر فرق الطرق الصوفية التي باركت تأسيس الانكشارية في البلاد ، فحاول السلطان محمود الثاني اقناع هؤلاء الانكشارية بقبول التعليم العسكري على النظام الأوربي ولكن دون جدوى ، بل كانوا ينكرون فائدته قائلين: " ان ولي الله الحاج بكتاشي ، كان قد بارك جماعة الانكشارية عند تأسيسها، ودعا لها بالنصر الدائم وكانوا يزعمون ان بركة ذلك الولي ودعاءه يغنيها عن كل تعليم"[٢] .

---

(١) أحمد عبدارحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٨٠-١٨١.

(٢) علاء موسى كاظم نورس : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٢٦/٢٦- س ٥ ، ١٩٨٢ م ، ص ١١١.

وقد استفاد محمود الثاني الذي كان يكن للسلطان سليم الثالث حبا عميقا، من كافة أخطائه ، وكان يلتقي به في الشهور الأربعة الأولى من تولي السلطان مصطفى الرابع السلطنة ،وكان السلطان محمود الثاني يملك الصفات التي تؤهله لتقييم هذه الأخطاء بعد أن قام سليم الثالث بسردها عليه ، وأوصاه بعدم الوقوع في الأخطاء التي وقع هو فيها .

لذلك استدعى السلطان محمود الثاني عند توليه العرش الأعيان من الأناضول والروملي إلى اسطنبول وأفهمهم أن الدولة في حالة حرب دائمة مع روسيا ، فحرروا ميثاق الاتفاق المسمى " سند اتفاق" وبموجبه وقعوا على أنهم سيمتثلون لأوامر الدولة ، وكان توقيع هذاالاتفاق في سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م.

ولحاجة الدولة الى جيش محارب تم إحياء النظام الجديد الذي ألغته ثورة الانكشارية على السلطان سليم الثالث ، باسم " سكبان جديد " .

وبتاريخ ١٤/١٠/١٨٠٨م استدعي عبدالرحمن باشا من قونيه الى اسطنبول ليترأس هذا الجيش [١] كنوع من النظام الجديد احتراسا من تجدد الفتن من الانكشارية [٢] .

وكان السلطان محمود الثاني قد علم بما أتته الجنود المصرية المنظمة من انتصارات باهرة في حرب المورة ، فتاقت نفسه الى هذا التنظيم ، وزاد تعلقا بهذا الاصلاح وصمم على استكماله [٣] .

معنى ذلك أن حرب المورة قد أظهرت محاسن التنظيم العسكري الجديد عند الخاصة والعامة ، وأن المعارضة في الاصلاح الحربي لم تعد أمرا مقبولا من

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٦٤-٦٦٥.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٧١.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العمثانية ، ص ٤٢٩.

المعارضين ، وأصبح الرأي بتنظيم الجيش الجديد شيئا طبيعيا ،وفشلت على اثر ذلك مخططات أغا حسين باشا رئيس الانكشارية آنذاك وبقية زعمائهم ومنذ أن جرت تلك الحرب وكثير من العلماء ورجال الدولة يجرون المشاورات ويكتبون المذكرات لاجراء ترتيب جديد ، ولما سئل حسين باشا عن رأيه في صورة مناسبة لتنفيذ الاصلاح الحتمي وهو حاكم قلاع البسفور برتبة وزير وكان من قبل أغا للانكشارية ، فهو عليم بأصولهم وعناصرهم قال : " ان حال الانكشارية معلوم ، وعلى كل حال يمكن أن نلزم الكبار ونسكت الصغار منهم ، اما مابين هذين الصنفين فهم لايقبلون حقا ، وربما يثيرون عصيانا ،ولكن تأثيرهم لايتعدى قشلاقات [1] اسطنبول ، وهؤلاء يجب إعدامهم فورا " . ولكن اعدام عدد كبير منهم لمجرد احتمال عدم موافقتهم أمر مناف للعدل ولذلك استقر الرأي على التفاهم معهم أولا بالحسنى ، فاذا لم يقبلوا نفذ هذا الرأي . ثم أمر السلطان بأن كل مايتعهدون به أو يقولونه يكون مكتوبا دون لبس أو ابهام (٢) ليكون فيما بعد حجة عليهم .

كان السلطان سليم الثالث ، قد لقن السلطان محمود الثاني بشكل جيد أن مستقبل الد ولة متعلق بتأسيس جيش جديد ، فقام السلطان الذي لم يغفل لحظة واحدة عن أخطاء السلطان سليم الثالث فأدخل بين جنرالات الانكشارية جنرالات من مؤيديه يؤمنون بفكرة الإصلاح ، لذلك سعى السلطان محمود الثاني ولمدة سبعة عشر عاما إلى التحزم بالصبر والاحتياط لالغاء تشكيلات الانكشارية الذين لم يتمكنوا من الوقوف تجاه عصيان اليونان ، فكيف حالهم في حرب

---

(١) قيشلان : أصبحت قشلة وأصلها قيشلق ،ومعناها المأوى الخاص بالشتاء ثم أصبحت تطلق على قلاع الجنود أومراكزهم السكنية عامة .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٨٢ ،حاشيى رقم (١) .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٧٤ .

روسيا التي يحتمل أن تعلن في أي لحظة،لم يكن هذا الأمر يقلق السلطان وحده ، بل أخذ يقلق جميع رجال الدولة . وفي سبيل تحقيق آماله فانه لجأ الى دس أنصاره بينهم حتى لايثيرهم بالرقابة الظاهرة ، لأنهم أكثر منه حذرا وقلقا ، وفي النهاية تم بصورة رسمية إعلان تأسيس تشكيل جديد في الجيش باسم " تشكيلات اشكينجي " وذلك في سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٦م . فجند فورا سبعة آلاف وستمائة وخمسين شخصا ، وشرع بتدريبهم على الطراز الأوربي ، وقد أتم هؤلاء الأفراد الذين تم تشكيلهم من بين الانكشارية المتطوعين اختيارا دقيقا [١] لتعليم فنون الحرب ، وكانهم قد حولوا فعلا للنظام الجديد [٢] . اضافة الى تزويدهم بعدد من شباب المسلمين المقيدين في ديوان الجند [٣] . فأصدر شيخ الاسلام فتواه المشهورة حول تأسيس هذه التشكيلات الجديدة ، فألبس الجند الجدد اللباس على الطراز الأوربي [٤] ، ووافق جلال الدين أغا على اعداد هذا الجيش ، وتدريبه على أحدث النظم [٥] ، فكان جلال الدين أغا رئيس الانكشارية وجنرالات الانكشارية الآخرون من رجال السلطان يؤمنون بفكرة تحديث الجيش ، لهذا وضع السلطان كافة التدابير حيال عصيان الانكشارية [٦] .

وحينما شرع السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٦م بتعليم جنوده على القواعد الأوربية الحديثة قيل عنه أنه أخذ من ذلك اليوم يفكر في تدمير الانكشارية وابادتهم ، وقد أصدر منشورات سلطانية تتضمن القدح في أعماهم ،

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٧٦.

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٧٥ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٦١.

(٤) يلماز اوزتونا : المصدر السابق ، ص ٦٧٦.
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٦١ .

(٥) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(٦) يلماز اوزتونا : المصدر السابق ، ص ٦٧٧.

عدد فيها ما ارتكبوه من الفضائح والغلطات التي اقترفوها ضد سلاطينهم ظلما واستبدادا [1] .

ومهما يكن من أمر فان الانكشارية لم يستطيعوا الصبرخاصة عندما شاهدوا السلطان يقوم بتطبيق النظام الجديد على وحدات الجيش المختلفة مماحد من سطوتهم ونفوذهم ، فنسواعهودهم ، وأخذوا يتحدثون سرا وينقمون على ذلك النظام ، فحاول الصدر الأعظم قمعهم سرا وجهرا فلم يزدادوا الا عنادا(٢).

هؤلاء الانكشارية الذين صبروا على جنود النظام الجديد " سكبان" أربع عشرة سنة ، عصواهذه المرة بعد البدء بتدريب تشكيلات " اشكينجي " بثلاث أيام فقط ، وقد نجا جلال الدين أغا من الموت بصعوبة لتمكنه من الفرار[3].فتمردوا وهاجوا وماجوا، وهجموا على منزل الصدر الأعظم وبعض الوزراء ، فلم يظفروابأحد منهم ، فخرجوا الى شوارع المدينة ينادون بجواز قتل العلماء ورجال الدولة وكل من له يد في وضع النظام الجديد ، وأخذوا يقتلون كل من صادفوه ، وينهبون ويحرقون ، وقد تمكن الصدر الأعظم من الوصول الى السلطان محمود الثاني وأخبره بما حدث ، فأمر السلطان العسكر الجديد بصد الانكشارية ، ودعوة الناس للاجتماع أمام السراي فاجتمع خلق كثير من علماء وقواد وضباط وأعيان[4] . فوقف الصدر الأعظم ومن حوله من العلماء ورجال

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٧٨.

(٢) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، (مجلة الهلال ، ج ٨ ، س ١٧ ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م) ص ٤٦٩.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية العثمانية، ج ١ ، ص ٦٧٧ .

(٤) هيئة التحرير : المرجع السابق ، ص ٤٦٩.

. Roderic H. Davison : Turkey A Short History , p. 74 .

. محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٣٠ .

الدولة ينتظرون وصول السلطان من سراي بشكطاش ، فلما حضر خطب في الجماهير الحاضرة فاستنهض هممهم ، فأقسموا على الثبات حتى يفوزوا بابادة الانكشارية أو يقتلوا فداء عن سلطانهم ، فطلبوا منه أن يرفع لهم الراية ، فرفعها ومشى ، ومشى الناس خلفه ، وتوافدوا من أنحاء المدينة للدفاع عن السلطان والدولة . ففرق السلطان عليهم الأسلحة ، ثم سلم العلم الى المفتي قاضي زاده طاهر ، وجلس هو في قصر (كشك) فوق باب السراي للاشراف على ساحة القتال [1] .

وقبل بدأ المعركة اجتمع الصدر الأعظم والمفتي والعلماء في جامع السلطان أحمد ، وتلوا بعض سور القرآن الكريم ثم نهضوا لحرب الانكشارية وسار معهم العسكر ، وأهل المدينة، فأدركوا الانكشارية وقد تجمهروا في ساحة آت ميدان " ميدان الحصان " وقد قلبوا قدورهم معلنين بذلك العصيان والتمرد ، فحاولوا ردهم بالحسنى ، فأبوا مصممين على الانقلاب عندئذ أطلقوا عليهم الرصاص من كل صوب ، والتحم الفريقان وكانت مذبحة هائلة دارت الدائرة فيها على جنود الانكشاريين ، ومن لم يقتل منهم قيد أسيرا ، فنجت البلاد منهم وهدأت الأحوال، وأخذ السلطان في تنظيم الجند الجديد [2] .

لهذا استطاع السلطان محمود الثاني أن يقضي على الانكشارية القضاء التام عندما حصل على فتوى شرعية تجيز له حل هذه الطائفة [3] مما هيأ له جوا مناسبا للإصلاح ، وحقق نجاحا باهرا في استمالة العلماء الى جانبه ، بعد أن كان هؤلاء

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٣٠ .
، هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، مجلة الهلال ، ج ٨ س ١٧ ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م، ص ٤٦٩.

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٣٠ .
، هيئة التحرير : المرجع السابق ، ص ٤٦٩ .

(٣) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٦٩ .

العلماء سندا للانكشارية ، كذلك أوجد انقساما آخر بين الانكشارية أنفسهم مهدله الطريق للتخلص منهم [١] .

وأحدث إلغاء تشكيلات الانكشارية صدىً كبيراً في جميع أنحاء العالم وخصصت الصحف الأوربية عناوين كبيرة لذلك الحدث ، وهنأ السفراء السلطان في اسطنبول باسم حكامهم [٢] .

وسمى العثمانيون هذه الموقعة " الوقعة الخيرية " لأنهم تفاءلوا بها خيرا.

ومعنى ذلك أن الاستغراب قد زاد في عهد السلطان محمود الثاني وتوسع الاتصال بالغرب ،وخاصة منذ سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م عندما تصدى للانكشارية وقضى عليهم ، لأنهم كانوا العقبة الكأداء في طريق الإصلاح ومن ذلك الحين بدأ تكوين جيش جديد على الطراز الأوربي واستدعى لتدريبه ضباطا ومهندسين فرنسيين وألمان ، ثم قام بتأسيس الأكاديمية العسكرية في سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م وأرسل بعض خريجيها الى العواصم الأوربية لاستكمال تعليمهم .

وأسس مدرسة للطب جعل التدريس فيها باللغة الفرنسية [٣] ، كما أسس ادارة للترجمة ، ومجلسا أعلى للقضاء كلفه بوضع القوانين الجديدة ، التي لم يرد لها نص في القرآن أو السنة ، وعرف باسم " مجلس والي لأحكام عدلية " ، وكان أعضاؤه من مختلف الأديان ، ومن هذا المجلس انبثق مجلس الدولة (مجلس شوري دولت) سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م [٤] .

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٧٦.

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ٦٧٨.

(٣) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٩.
، عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ، ص ١٧٨.
، Roderic H . Davison : Turkey A Short History , p, 75 .

(٤) عبدالعزيز نوار : المرجع السابق ، ص ١٧٩.

كما أعـاد السلطان محمود الثاني في سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م افتتاح سفاراته في العواصم الأوربية ، وقد كانت أغلقت على إثر خلع السلطان سليم الثالث وفي هذه السفارات جرى تدريب مصلحي القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي أمثال مصطفى رشيد الذي كان سفيرا في باريس سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ، وعلى باشا الذي كان يعمل في سفارة فينا سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م وفؤاد باشا الذي عمل في سفارة بلاده في لندن سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م [١] .

اضافة الى ذلك فقد ضمت الكلية الحربية في اسطنبول حوالي أربعمائة كتاب بالفرنسية ، وكان من ضمن هذه الكتب دائرةالمعارف الفرنسية وكتب فولتير وجاك روسو أحد رواد الثورة الفرنسية . فكان العسكريون هم الفئة التي تعرضت لأطول احتكاك مع الغرب .

لذلك كانت القوة العسكرية هي أول أدوات التحول الكبرى في ميدان التغيرات الاصلاحية ، ومع استيراد المدربين والفنيين دخلت الأفكار الغربية محطمةً للنظام السياسي والاجتماعي في الدولة.

ففي سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م أرسل السلطان محمود الثاني بعثة تركية مؤلفة من مائة وخمسن طالبا لعدة دول أوربية .

وبعد عدة سنوات ارتفع عدد طلاب البعثات كثرا حتى بلغ الآلاف وكانت أوربا خلال الفترة (١٣٢٦-١٢٥٦هـ/١٨٢٠-١٨٤٠م) تموج بأشياء كثيرة تعلمها الطلاب المبتعثون من الشرق ، وتأثروا بها ، وكانت من أسباب ظهور طائفةجديدة من أبناء الدولة العثمانية ، لم يستطع أن يتقبلهم المجتمع العثماني، وقد أطلق عليهم اسم " الشبيبة العثمانية " أي (العثمانيون الشباب)

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التارخ العثماني ، ص ١٩٣-١٩٤.

تشكلت منهم مجموعة من المتحررين الذين استوطنوا أوربا ليقوموا بدور المعارضة[١] فيمابعد.

وبعد استعراض هذه الأحداث يتبين لنا أنه بعد إلغاء الانكشارية والحد من سلطتهم ، صارت الدولة العثمانية تسير في طريق الاصلاحات والتنظيمات العسكرية [٢] .فقام السلطان محمود الثاني إضافة الى ماسبق باصدار جريدة رسمية وأدخل اللباس الافرنجي وجعله زي الجند النظامي الى جانب قيامه ببعض المشاريع العمرانية لبناء مؤسسات الدولة ، ولكن الروس بدأت تتحرش به حتى لاتكتمل هذه الاصلاحات خوفامن استعادة الدولة قوتها ، وقد ساعد الروس في موقفهم هذا محمد علي والي مصر في حملته ضد الدولة العثمانية ، ولولاه لاسترسل السلطان في اصلاحاته وخاصة العسكرية [٣] .

لكن السلطان محمود الثاني ابتكر في نهاية عهده مدرسة " ثانوية " أخرى لتعليم الموظفين ، كانت تدرس فيها المواد باللغة الفرنسية بالاضافة الى موضوعات علمانية أخرى ، وذلك لتولي المناصب العليا في الدولة ، عن طريق الحصول على تعليم حديث علماني [٤] . وهذا التعليم يوضح تغلغل وبداية الغزوالفكري الذي دخل عن طريق التعليم العسكري ، والطبي ، والهندسي وأخيرا نرى السلطان محمودا يفتتح مدرسة ثانوية خاصة للموظفين الكبار الذين يهيؤون لتولي مناصب الدولة على أحدث الطرق العلمانية ،التي انتشرت فيما بعد عند اصدار التنظيمات المعروفة في عهد السلطان عبدالمجيد .

---

(١) عبدالكريم مشهداني :العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٩-٧٠.

(٢) ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العمثانية ، ص ٦٩ .

(٣) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخالعثماني ، ص ١٥٩.

(٤) Roderic H. Davison : Turkey A Short History , p. 76.

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٩٣.

ب – عصر التنظيمات العثمانية :

عصر التنظيمات في مفهوم التاريخ العثماني الحديث مصدره " قانون تنظيم اتمك " وتعني (عمل وتنظيم قانون) ويقصد بالتنظيمات هنا الاصلاحات التي أدخلت على أداة الحكم والمؤسسات الادارية في الدولة العثمانية منذ بداية عهد السلطان عبدالمجيد (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) [١] .

والتنظيمات تستند الى مرسومين سلطانيين أساسيين : صدر الأول منهما في سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ، وعرف هذا ا لمرسوم باسم " منشوركلخانة" أو (خط كلخانة) ، وصدر الآخر في سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م ، وعرف باسم "ا لخط الهمايوني " [٢] .

والتنظيمات ماهي الا امتداد للاصلاحات التي قام بها السلطان سليم الثالث والسلطان محمود الثاني ، وكان الغرض منها هو انقاذ الدولة العثمانية من الضعف الذي تسرب الى مؤسساتها المختلفة . وقد شاهدنا في الفصل السابق كيف استطاع السلطان محمود الثاني بحنكته السياسية القضاء على الانكشارية التي كانت تعارض كل اصلاح أو تجديد في المؤسسات الحربية بصورة خاصة والمؤسسات الأخرى بصورة عامة [٣] .

ومن ذلك التاريخ أصبحت محاولات الاصلاح ممكنة ، وبالرغم من أن السلطان محمود الثاني كان يركز في اصلاحاته على الجوانب العسكرية أكثر من

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة تنظيمات ، ج ٥ ، ص ٤٩٩.

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٧٥ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٤٩٩.
، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧١ .

سواها فان عهد السلطان عبدالمجيد (١٢٥٥-١٢٧٧هـ/١٨٣٩-١٨٦١م)[1] قد أضفى على حركة تغريب الدولة العثمانية الصبغة الرسمية ، اذ أمر أن تتبنى الدولة هذه الحركة فأصدر المرسومان السابقان وبهما بدأت الدولة العثمانية بما يسمى بعصر التنظيمات .

وبهذين المرسومين بدأت الدولة العثمانية للأسف تستلهم الروح الغربية في الحياة ، وتستلهم الفكر الغربي في التقنين واقامة المؤسسات الادارية والعسكرية وتتنكر لأصولها وحضارتها وشريعتها الاسلامية .

والحق أن السلطان عبدالمجيد كان خاضعا لتأثير وزيره مصطفى رشيد باشا الذي وجد في الغرب مثله الأعلى ، وفي الماسونية فلسفته المثلى وهو الذي أعد الجيل التالي له في الوزارة ورجال الدولة. وبمساعدته أسهم هؤلاء من بعده في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو أولا والذي صار سقوط السلطان عبدالحميد الثاني بعد ذلك وخروج الدولة عن الخط الاسلامي امتدادا طبيعيا لفكرة التغريب فيها[2]

أما أسباب صدور هذين المرسومين فقد تمثل في انتهاز الدول الأوربية للأزمات الكبرى التي كانت تمر بها الدولة العثمانية والعمل على زحزحتها عن نظمها الاسلامية وهذه الأزمات هي :

١- أزمة محمد علي مع الدولة العثمانية ، وصدور خط كلخانة في سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م .

٢- حرب القرم بين الدولة العثمانية والروس ، وصدور الخط الهمايوني في سنة ١٢٧٣ هـ/١٨٥٦م.

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٠.
، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، ص ٧١ .

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد : ترجمة وتحقيق وتعليق محمد حرب عبدالحميد (الطبعة الأولى ، الكويت ، دار الوثائق ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ٣ .

هاتان الأزمتان هما ماسوف نتحدث عنه هنا بإيجاز حتى نصل من خلال عرض تلك الأحداث الى سبب اصدار هذين الخطين أو المرسومين وماتلى ذلك من تنظيمات ، فأول هذه الأسباب نلمسه بعد موقعة نفارينو ، عندما اختلفت وجهة نظر السلطان العثماني وواليه في مصر محمد علي ، فالسلطان رغم تدمير أسطول الدولة العثمانية في المعركة قد صمم على رفض مطالب الدول المتحالفة ، بل انه لم يقف عند هذا الحد ، فأخذ يطالب بالتعويض بالمال عما لحق بأسطوله من الدمار .

أما وجهة نظر الوالي العثماني في مصر محمد علي فقد رأى أنه لافائدة تناها الدولة من مواصلة القتال أمام القوات المتحالفة ، بعد أن فقدت اسطولها في المعركة فقرر عدم تقديم أي مساعدة للقوات العثمانية المنهزمة والانسحاب بكامل قواته الى مصر ، ويظهر أن محمد علي كانت تراوده فكرة مشروع ترمي الى تشكيل دولة عربية يستقطعها لنفسه من بلاد السلطان محمود الثاني ، الا أن هذه الفكرة لم تتحقق لأنه اصطدم بمعارضة اللورد بالمرستون (Palmerston) والذي كان أول من تنبه لمشروع محمد علي، فتحطم حلمه ، ولكنه أوشك أن يحقق هذا الحلم بالاستيلاء على بلاد الشام في ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨هـ الموافق ٢٠ديسمبر ١٨٣٢م [١] .

علما بأن مصر لم تنل من الحرب اليونانية من الناحية المادية أي شيء الا أن اشتراكها في تلك الحرب برهن على كفاءة جيشها الذي أصبح يضارع أرقى الجيوش الأوربية في ميادين القتال [٢] .

ونتيجة لهذا التصرف الذي قام به محمد علي تجاه السلطان محمود الثاني

---

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، تعريب على حيدر الركابي ، (دمشق ، مطبعةالترقي ، ١٣٥٦هـ/١٩٤٦م) ص ١٢.

(٢) عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، ص ٢١٥ .

والدولة العثمانية بدأ النزاع بين السلطان وواليه على مصر محمد علي وذلك بعد انسحاب قوات السلطان من بلاد المورة بموجب معاهدة أدرنة سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م واعترافه باستقلال اليونان على غير ماكان يرغب وربما يكون سبب ذلك أن محمد علي رأى ضآلة المكافأة التي منحها له السلطان ثمنا لتدخله في بلاد اليونان ، باعطائه جزيرة كريت ، في الوقت الذي كان محمد علي يطمح في تعيين ابنه واليا على بلاد الشام بدلا من جزيرة كريت ، ولكن السلطان لم يستجب لطلبه [١] .

ذلك أنه لما نشبت حرب اليونان لم يكن محمد علي متحمسا للاشتراك فيها بجانب قوات السلطان ، ولكن التلويح له باعطائه جزيرة كريت وولاية الشام بعد الحرب من السلطان جعله يدفع بقواته لاخماد الحرب اليونانية ومساندة الجيش العثماني [٢] .

وبالرغم من أن هزيمة نفارينو سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م كانت لها آثارها السلبية على محمد علي ، لكنها في الواقع كانت فرصة له لزيادة مطالبه من السلطان بصورة واضحة والتأكيد على ضم بلاد الشام الى ولايته مكافأة له على المساعدة التي بذلها في حرب اليونان . ولما لم يجبه السلطان على طلبه عمد الى احتلال تلك البلاد معتمدا على قوة السيف والمدفع [٣] . ولم يكتف محمد علي بذلك بل انه أخذ يفكر في الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية وقد ظهر ذلك واضحا عندما طلب السلطان محمود الثاني ارسال الأسطول المصري لمساعدة

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألةالشرقية ، ص ١٦٤ .
، عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، ص ٢١٧ .

(٢) عايض حزام الروقي : حروب محمد علي في الشام .. ، ص ٧٢ .
، محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(٣) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص ١٣ .

القوات العثمانية في حرب روسيا ، فامتنع عن مد يد المساعـــــدة وتلبية طلب السلطان [١] . وفي الوقت نفسه أخذ يحاول ارضاء السلطان با لمال ، كما أنه شرع في تقوية جيشه وأسطوله [٢] .

ولكن أثنـاء إعـداد هذاالجيـش لم تسـعفه المـوارد الماليـة الـتي كـان يقدمهـا بسـخاء للسـلطان والجيـش ، فلجـأ الى فـرض الضرائـب الفادحـة علـى الشـعب المصري، كما استخدم بعض العمال بالسـخرة ، لهذاالسبب فـر مـن مصـر أعـداد كبيرة هروبا من سياسته التعسفية التي كان يعامل بها السكان [٣] .

وبعد أن استطاع بناء هذاالجيش والأسطول أصبح في وضع عسكري جيد يجعله ندا للسلطان ، بل أصبح لديه جيش أقـوى مـن جيـش السـلطان نفسـه [٤] ، لذلك ازدادت مطامعه وصار يتحين فرصة الانقضاض على بلاد الشام وانشاء دولة عربية [٥] تشمل معظم الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية وتكـون مصـر رأس هذه الدولة ، خاصة وأنه كان يعرف الكثير من ضعـف حكومـة اسـطنبول ويـدرك كل الإدراك نوايا الدول الأوربية نحـو الدولةالعثمانيـة ، لذلـك اعتـبر نفسـه وريثـا لقسم من أملاك الدولة ، وذلـك بوصفـه عثمانيـا مسـلما [٦] ، فعندمـا رأى علـو قوته، وضعف الدولة العثمانية وارتباك احوالها عقب حرب اليونان وحرب الـروس وامضاء معاهدة أدرنة معها ، اضافـــة الى كثرة الاضـطرابات الداخلية بهـا

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، ص ٢١٦.
، عايض حزام الروقي : حروب محمد علي في الشام .. ، ص ٣٨ .

(٢) محمد كمال الدسوقي :الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٦٤ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٤٨-٤٤٩.

(٤) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق . ص ٢٦٤ .

(٥) أمين سعيد :الثورة العربية الكبرى (بيروت ، دار الكتاب العربي) ، ص ٢٢.

(٦) لجلاء عزالدين : العالم الغربي : ترجمة محمد عوض ابراهيم وآخرون (الطبعة الثانية ،القاهرة ، الناشر : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٢م) ، ص ١٠٧-١٠٦ .

لمقاومتها بعض رعاياها حول معارضتهم ادخال بعض الاصلاحات في الدولة [١] ، ولذلك استغل هذه الظروف مجتمعة وأعلن الحرب على السلطان ، ويظهر أن تحركه هذا كان بايعاز من فرنسا التي كانت ترغب في اشعال روح الخلاف بين السلطان وواليه في مصر حتى‌تتمكن من تأسيس الامبراطورية التي عزمت على تأسيسها في شمال أفريقيا ، وهي التي طلبت من محمد على أن يشترك معها في غزو الجزائر ، حتى يزداد الخلاف بين السلطان وواليه على مصر ، وهي تعلم أن السلطان العثماني ليس لديه الوقت أو المال الكافي لإنشاء جيش جديد قوي معد بالأسلحة الحديثة والعمل على تنظيم موارده المالية ، لتنفيذ اصلاحاته بعد القضاء على الانكشارية .

وقد رحب محمد على بفكرة الاشتراك مع فرنسا في غزو الجزائر وانتزاعها من الدولة العثمانية ، وكاد أن يتشرك معها ، لولا أن هددته انجلترا وحذرته من المغامرة ، لأهدافها السياسية ، فتراجع محمد على عن الفكرة خوفا من الاصطدام بانجلترا [٢] ، لأنه يعرف أطماعها في المنطقة وهي تعرف أطماعه المستقبلية ، كما أن فرنسا كانت له السند في حروبه في شبه الجزيرة العربية وغيرها وهو الأداة أو العميل الذي تعتمد عليه في تنفيذ أطماعها لمضايقة بريطانيا في الهند لمحاولة الوصول الى الخليج وبريطانيا تحاول منعها . وعندما فشلت فرنسا في كسب محمد علي الى جانبها أوعزت اليه بالمساعدة والمساندة اذا هو قام بالاستيلاء على بلاد الشام مستغلا الخلاف الذي نشب بينه وبين والى عكا عبدا لله الجزار الذي امتنع عن تسليم الفارين اليه من المصريين بدعوى أن الاقليمين تابعين لسلطان واحد ، لذلك

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٨٩.

(٢) محمد ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ، (الطبعة الثانية ،القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٦٥م) ص ٩٣ .

أمر محمد علي في سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م بالتجهيز لحرب بلاد الشام وأسند مهمة قيادة الجيش لابنه ابراهيم باشا الذي سار وحاصر مدينة عكا برا وبحرا [(١)] وذلك بعد أن عقد محمد علي في وقت سابق معاهدة سرية مع بشير الشهابي آمر لبنان وبعض مشايخ الدروز ومشايخ جبل نابلس لمساعدته في الاستيلاء على بلاد الشام [(٢)] .

ولماعلم السلطان محمود الثاني بغزو محمد علي الشام أرسل اليه يأمره بالكف عن تلك الحروب واخراج جنوده من الشام ، وله بعد ذلك أن يرفع شكواه الى الباب العالي ليحكم بينه وبين خصمه عبدا لله الجزار ،ولكن محمد على لم يعبأ به ولم يعر اهتماما لأوامر السلطان ، عندئذ طلب السلطان عقد مجلس مؤلف من مشاهير العلماء وكبار المدرسين ، وعرض عليهم خروج محمد علي عن الطاعة، فأفتوه جميعا بخروجه عن طاعة السلطان [(٣)] .

لهذا طلب السلطان من والي حلب السير لحرب جيوش محمد على واسترجاع مدينة عكا ،ولكن ابراهيم باشا لم ينتظر ملاقاته في عكا ، بل سار لملاقاته بعيدا عن عكا ، فتقابل الجيشان في مدينة حمص ، وانتهت المعركة بانتصار الجيش المصري ، ثم عاد ابراهيم باشا الى مدينة عكا وشدد الحصار عليها حتى استسلمت ودخلها في سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣٢ م وأسر عبدا لله الجزار وأرسله الى مصر ليتولى محمد علي أمره [(٤)] .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٠.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٨٧.
(٢) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، ص ٢٢.
(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٨٧.
(٤) محمد فريدبك : المصدر السابق , ص ٤٥٠.
، اسماعيل سرهنك :ا لمصدر السابق ، ص ٦٨٧.
، كامل باشا : تاريخ سياست دولت علية عثمانية ، ج ٣ ، ص ١٣٠-١٣١.

وبمجرد وصول خبر سقوط عكا للسلطان أمر بجمع مايمكن جمعه من الجنود المنتظمة ، وكانت تقدر بحوالي ستين الف جندي ، فعين عليهاحسين باشا والى أدرنه قانداعاما ، وسار هذا الجيش الى بلاد الشام ، والتقى مع جيش ابراهيم باشا بمضيق بيلان [١] ، فاستطاع ابراهيم باشا الفوز على الجيش العثماني في سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م [٢] .

لهذا الأمر استدعى السلطان الصدر الأعظم رشيد محمد باشا وهو من أعظم القواد وأشجعهم في تلك الفترة ، وكان ببلاد الأرنؤط ينظم أحوالها عقب انفصال اليونان عن الدولة ، فأرسله السلطان بجيش لصد خطر ابراهيم باشا الذي عبر جبال طوروس واحتل اقليم أطنه وهو في طريقه الى مدينة قونية وسط الأناضول ، فالتقى الجيشان في موقع بالقرب من مدينة قونية المذكورة ، وبعد حرب طاحنة أسر الصدر الأعظم رشيد محمد باشا في يوم مطير كثير السحاب والضباب ، بينما كان يعد جيشه للقتال ، وذلك أنه دخل بين صفوف الخيالة المصرية ظنا منه أنهم عساكره ، فأسروه ، وبانتشار خبر أسره اختل جيشه وانهزم أمام قوة الجيش المصري ، في الوقت الذي كاد أن يهزم فيه الجيش المصري .

وبعد هذه المعركة تقدم ابراهيم باشا الى كوتاهية ، حيث تغلب على القوى العثمانية ، وأصبح الطريق ممهدا أمامه الى اسطنبول [٣] .

ونتيجةً لهذه الهزائم المتلاحقة لجيش السلطان ساد القلق مدينة اسطنبول وخشي السلطان من تقدم ابراهيم باشا بجيشه كما أن تلك الانتصارات أخافت

---

(١) بيلان : أهم مضايق جبال طوروس الفاصلة بين الشام والأناضول :
– محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٠.

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٥٠ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص ٦٨٧.
، كامل باشا : تاريخ سياست دولت علية عثمانية ، ج٣ ، ص ١٣٦ .

الدول الأوربية ، وخشيت أن يكون قصد محمد علي احتلال اسطنبول ، فيختل التوازن الأوربي ، وكانت روسيا أشد قلقا من غيرها لخوفها من سقوط اسطنبول في يد من يمكنه الذود عنها بقوة أكثر من آل عثمان فلايمكنها فيما بعد تنفيذ وصية بطرس الأكبر [١] .

وقد انتهزت روسيا هذه الفرصة فتقدمت الى السلطان تعرض عليه المساعدة وحمايته من خطر محمد علي ، فرفض السلطان في بادئ الأمر [٢] ، الا أنه في هذه اللحظة الحرجة كان يبحث عن حليف له ، يصد عنه هذه القوة الجارفة من قوات محمد علي . فلقد وجد أن فرنسا تؤيد محمد علي وتساعده كما سبق وبريطانيا لاتستمع الى نداءات السلطان ، ربما بسبب مشاغلها في المشكلة البلجيكية[٣] ، ولذلك لم يجد السلطان أمامه سوى القيصر الروسي .

وماكان السلطان ليقبل هذا التحالف مع عدوه اللدود ، ولكن الظروف كانت قاسية ، وبعد المفاوضات عقد السلطان مع القيصر الروسي اتفاقية (خنكار اسكله سي) (الميناء الملكي) في سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م التي خولت للقيصر الحق في ارسال جيش الى المضايق العثمانية للدفاع عن السلطنة العثمانية حتى لاتقع في أيدي محمد علي وفعلا نفذت المعاهدة ، ونزلت القوات الروسية على مقربة من اسطنبول ، الأمر الذي أزعج الانجليز وجعلها تحتاط للأمر [٤] .

فبما أن معاهدة خنكار اسكله سي قد أثارت العواصم الأوربية حيث أنها أخذت شكلا سياسيا آخر ، فانها أيضا كانت سببا في اهتمام اللورد بالمرستون

---

(١) محمد فريدبك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٠-٤٥١.

(٢) نجلاء عزالدين : العالم العربي ، ص ١٠٧ .

(٣) كانت ثائرة على هولندة للاستقلال عنها لأنها ضمت اليها في عام ١٨١٥م بموجب مؤتمر فينا في أعقاب حرب نابليون وخلعه عن عرش فرنسا .

(٤) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٣ .

رئيس وزراء انجلترا ، والأمير مترنيخ رئيس وزراء النمسا [1]، اللذين توصلا من خلال تحليلهما للموقف الجديد الى حقيقة مهمة هي أن روسيا بعد معاهدة (خنكار اسكله سي) أصبحت القوة المواجهة لمصر ، وأصبحت في الوقت نفسه حامية للدولة العثمانية ، ولهذا عملت حكومة بالمرستون على تدويل القضية [2] ، لأن أبواب الدولة العثمانية وفارس أصبحت مفتوحة أمام الروس ، هذا ماقاله الانجليز ، وهذه مبالغة ، كانت من أساليب الانجليز لاثارة الرأي العام ضد خصمهم اللدود روسيا [3] .

لهذا أخذ اللورد بالمرستون ومترنيخ يتخابران مع فرنسا فاتفقوا جميعا على إلزام ابراهيم باشا بعدم التقدم ، مما اضطر محمد علي الى عقد الصلح معهما والانصياع الى أوامر السلطان (٤) . وفي الوقت نفسه نصحت بريطانيا السلطان بتسوية المسألة ، ووعدته بالتوسط بينهما ، فقبل السلطان بهذاالتوسط .

وبعد مخابرات دارت بين الطرفين المتنازعين ، اتفقا على أن يخلى محمد علي منطقة الأناضول من جيوشه ، وترجع الى ماوراء جبال طوروس ، ويعطي السلطان لمحمد علي ولاية مصر مدى حياته ، ويعين والياً على ولايات الشام الأربع (عكا وطرابلس وحلب ودمشق) وعلى جزيرة كريت . ويعين ابنه ابراهيم باشا على اقليم أطنه . وقد سمي هذا الاتفاق باسم (معاهدة كوتاهية) وتمت في سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م [5] .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٨٧.

(٢) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٣ .
، نجلاء عز الدين : العالم العربي ، ص ١٠٧ .

(٣) عبدالعزيز نوار : المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٨٧ .

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥١ .

ولاشك في أن هذا التدخل الأوربي في تسوية المشكلة ليس حبا للدولة العثمانية ولا لمصر ، ولكن كل هذا من أجل المحافظة على مصالحهم في المنطقة وزيادة أطماعهم الاستعمارية فيها والرغبة في سد الباب أمام روسيا [١] حتى لاتزحف الى المنتطقة فتضيع بذلك مصالح بريطانيا وفرنسا في البحار والأقطار التابعة للدولة العثمانية .

وفي الحقيقة ان حرب الشام الأولى ، كانت نهايتها مؤقتة ، اذ لم يقبل السلطان بهذه التسوية الا ليتمكن من ترتيب وبناء جيشه ، ليستطيع بعد ذلك استرجاع ما انتزع منه بالقوة . كذلك محمد علي لم يقبل بهذا الحل الا خوفا من أن تتخذ الدول الأوربية ضده موقفا يفقده من توسعاته الجديدة [٢] .

والواقع أن محمد علي تسبب فعلا في زيادة ضعف الدولة وارتباكها أمام دول أوربا ، وأدخلها في متاهات كانت في غنى عنها ، وكان من المفروض أن يكون ساعدها الأيمن حتى تقف أمام أطماع هذه الدول التي أصبحت تملي شروطها على الطرفين ، خاصة وأن الدولة قد فقدت جيشها الانكشاري وهي في طور البناء حتى تستطيع أن تحرر ممتلكاتها من أطماع أوربا ومحمد علي .

ومنذ دخول قوات محمد على بلاد الشام والسلطان محمود الثاني يفكر بالدرجة الأولى في استعادة هذه الولاية ،ولم يكن بد من ارجاعها الا باعادة تنظيم الجيش العثماني تنظيما أعمق من ذلك الذي جرى عقب نكبة الانكشارية وقد أخفق السلطان في توفير المدربين الأكفاء بسبب محاولة الدول العظمى عزل الدولة العثمانية ، وعدم تمكينها من تطوير مؤسساتها ، وذلك بخلق المشاكل والحروب المستمرة بينهاوبين ولاتها ورعاياها ، وفرض نظمها عليها حتى تبعدها عن شريعتها

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٨٧.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٢ ، ٤٥١.

واسلامها عن طريق ارسال البعوث عليها .

وفي صيف سنة ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م وفد الى اسطنبول في رحلة خاصة قاندان بروسيان هما (فون مولتكه) و (فون برج) فقدمهما الى السلطان القائد العام (سر عسكر) علىأنهما لديهما الخبرة الكافية لتطوير الجيش العثماني ، فأخذ السلطان بكلام قائده ، فطلب من ملك بروسيا ابقاءهما في الدولة العثمانية لتنظيم الجيش العثماني . فقام كل منهما بتنظيم هذاالجيش واعادة بنائه على الأسس الأوربية ، كما أنهما ساهما في جلب أعداد كبيرة من العتاد والأسلحة من بروسيا وغيرها [١] .

واضافة الى ذلك فان السلطان العثماني عمل على استثارة شعور أهل الشام واستمالة رؤساء العشائر وأصحاب الزعامات والأعيان فيها الى جانبه في سبيل اخراج محمد علي من بلاد الشام حتى أمسى أهل الشام بأسره يترقبون هزيمة تحل بمحمد علي وحكومته حتى يتخلصوا من سوء حكمه ومعاملته [٢] .

وقد كانت أهم الأمور التي شجعت السلطان على خوض حرب الشام الثانية قيام القنصل الانجليزي في اسطنبول بتقديم الضمانات للسلطان بوقوف جميع الدول الأوربية الى جانبه في هذه الحرب ، ماعدا فرنسا التي تقف خلف محمد علي وتدفعه الى التمسك بهذه الولايات ، وأن بريطانيا ستقف الى جانب الدولة العثمانية في حروبها مع محمد علي لاسترداد ا لشام وصد أي خطر يهددها من جراء هذه الحرب [٣] .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥٥٧-٥٥٨ .

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام (الطبعةالثانية . بيروت ، الناشر مكتبةالنوري ، دمشق ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ج ٣ ص ٦٣ .

. محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانيية ، ص ٤٥٢ .

(٣) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث (الطبعة الثانية ، القاهرة ، نشر لجنة الجامعيين لنشرالعلم) ص ٢٣٢.

ولعل ذلك ما أراد التلويح بـه اللـورد بالمرسـتون (Palmerston) حيـث كتب يقول : " ان مصلحتنا ان يسترد السلطان سوريا بل ومصر" [1] .

ويلاحظ أن محمد على شعر بالتحركات التي تـدور لاشـعال حـرب الشـام مرة أخرى ، ولذلك اجتمع ببعض سفراء الدول الأوربية في مصر وعـرض عليهـم بأن تكون مصر والشام وبلاد العرب له ولأولاده من بعده ، فأبلغ هـؤلاء السـفراء دولهم التي أبلغت السلطان على كيفيات مختلفـة ، فسـاندت فرنسـا مطـالب محمـد علي باشا . بواسطة سفيرها في اسطنبول ، الـذي أقنـع البـاب العـالي بمناقشـة هـذا الاقتراح والتفاوض مـع محمـد علـي ، لهـذا أرسـل السـلطان سـارين أفنـدي ، مـن موظفي الخارجية العثماية الى مصر ، للتفاوض في هذا الأمر مع محمد علـي ، وبعـد مداولات استطا ع محمد علـي استمالة منـدوب الدولـة واقناعـه ، فاتفقـا علـى أن تكون ولاياتا مصر وبلاد العرب ارثا له ولأولاده من بعده ، وبلاد الشام الى جبـال طوروس مدة حياته ، فلم يقبل السلطان العثماني بهذا الوفاق الذي حمله له سارين، بل أصر على أن تكون جبال طوروس ومفارزها في الأراضي العثمانية لا المصريـة . فصمم محمد علي أن تكون التسوية على هذا الأساس ، لأن المفـاوز أبـواب الشـام بأجمعها ، فلو احتلتها الدولة العثمانيـة أمكنهـا الغـارة علـى بـر الشـام في أي لحظـة ومتى تريد [2]

ونتيجة لاختلاف وجهات النظر بين السلطان ومحمد علي في أمرالشام عاد الخلاف من جديد ، وكل منهما يريد مبررا لاستئناف الحرب ، محمد علـي تسـانده فرنسـا . والسـلطان العثـــماني تدفعه بريطانيـــا للـــحرب ، فـأضحت الحـرب وشيكة الاندلا ع بين الطرفين .

---

(١) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ، ص ٤٠١ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٣.

ودخلت الأزمة في دورها الحاسم في سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م على الرغم من المحاولات التي بذلت من الدبلوماسيين الأوربيين في البداية لايقاف انفجار الحرب وازالة شبحها [١] ، الا أن الجيش العثماني عبر نهر الفرات بسرعة فائقة في أوائل سنة ١٢٥٥هـ الموافقة لسنة ١٨٣٩م وبعد عدة مناوشات ومناورات خفيفة بين الجيشين ، كانت المعركة الحاسمة بالقرب من مدينة نصيبين المشهورة في الكتب الأوربية باسم (نزيب) (Nizip) في ١١ من ربيع الآخر سنة ١٢٥٥هـ الموافق ٢٤ من يونيو سنة ١٨٣٩م ،انتصرت فيها قوات محمد علي ،وتقهقر الجيش العثماني بعد معركة حامية الوطيس ، وقد عرفت هذه المعركة باسم موقعة نصيبين [٢] .

ولم يقدر للسلطان محمود الثاني أن يسمع بانباء هذه الكارثة التي حلت بجيوشه في نصيبين ، لأنه توفى في يوم ١٩ من ربيع الآخر سنة ١٢٥٥هـ الموافق ٢ من يونيو سنة ١٨٣٩م قبل أن تصل اليه أخبار هذه الهزيمة [٣] .

وخلفه في السلطنة ابنه عبدالمجيد وكان فتى لم يتجاوز عمره السادسة عشرة لا دراية له بأمورالحرب ولا بالسياسة في وقت توالت فيه النكبات على الدولة ، فقد أبحر الأسطول العثماني الى ثغر الاسكندرية بعد الهزيمة واستسلم لمحمد

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٧٩ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٢.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .
، صبحي وحيده : في أصول المسألة المصرية (القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٠م) ص ١٤٥-١٤٦ .

(٣) محمد فريد بك : المصدرالسابق ، ص ٤٥٤.
، اسماعيل سرهنك : المدر السابق ، ص ٦٨٨ .
، محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

علي. وتذرع قائده بأن الأخبار التي أتت اليه أن اسطنبول قد بيعت للروس . لذلك فقدت الدولة في أقل من أسبوع جيشها وسلطانها وبحريتها وبدا كما لو أن محمد علي قد أصبح سيد الموقف بلا منازع [١] .

لذلك قررت حكومة السلطان عبدالمجيد أن تحسم النزاع مع محمد علي حقنا لدماء المسلمين ، فتناست الخلافات ، وبعث السلطان رسوله عارف افندي برسالة رسمية يطلب فيها تقديم الولاء والطاعة للسلطان منعا للتدخلات الأجنبية ، وتوقيفاً للحرب ، واستعدادا للمفاوضات لفض النزاع بين الطرفين ، ولما استلم محمد علي هذه الرسالة من مندوب السلطان بعث برسالة عاجلة الى ابنه ابراهيم باشا لوقف الحرب والمناوشات ضد الجيش العثماني ، وخاصة عندما علم بوفاة السلطان محمود الثاني . ثم صرح محمد علي باشا للقنصل البريطاني في مصر بقوله: " انه واثق بأن كل الاختلافات سوف تحسم بدون تدخل القوى الكبرى، لأنه يعترف باحترام الكبير والخضوع للسلطان " [٢] .

ويبدو من ذلك أن القنصل البريطاني في مصر نقل الى اللورد بالمرستون خواطر محمد على وتفائله بالصلح والتسوية دون تدخل أيد أجنبية .

وقد برهن (محمد علي)على استعداده لذلك بأن طلب من ابنه ابراهيم باشا وقف الحرب وأن ذلك تم بمجرد تسلم جنود السلطان أوامر الانسحاب من حدود سوريا ، كما صرح محمد علي في مقابلة مع القنصل البريطاني حول مصير

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٣ ، ص ٦٤ .
، أ.ج. جرانت وآخرون : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .
، محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٨٠ .

(٢) Document : F.O.: 78/347. From Campbell to Palmerston No.:247.12-3-1883.

الأسطول العثماني أنه سيعيده الى السلطان حتى لو رغب قائده في التخلى عنه لنا[١] .

وبالفعل كاد الجانبان أن يتوصلا الى اتفاق بينهما دون تدخل أجنبي ، كما توقع محمد علي ، وقد مال السلطان الى أن يستجيب لمطالبه ويتنازل له عن مصر والشام وراثيتين ، ولكن الدول الأوربية لم تترك لمحمد علي فرصة لتحقيق مطالبه ، بل تدخلت لتفرض هي الصلح التي تريده ، لا كما يريده غيرها خدمة لأهدافها ومصالحها السياسة والاقتصادية في المنطقة [٢] .

وفي الوقت نفسه شعر بالمرستون بخطورة الموقف في توحيد مصر والشام تحت حكم قوي ، خاصة بعد موافقة السلطان العثماني على منح حكمها لمحمد علي وراثيا، لذا قرر بالمرستون التدخل وبحزم لمنع حدوث ما اعتبره كارثة ستحل وهي تهديد طريق مواصلات انجلترا الى الهند والشرق الأقصى ، وكان بالمرستون شديد الحقد على محمد علي ، ويعتبره عميلا لفرنسا في المشرق لتمكن لنفسها في مصر .

ويرى بالمرستون أن أطماع محمد على وحربه للسلطان هما اللذان أتيا بالروس الى الدردنيل والبوسفور ، وهو ماحاولت بريطانيا منعه [٣] . لذلك ارتبكت الدول الأوربية ، وافترضت وقوع الدولة في يد شخص قوى ، وهي التي تخطط لتمزيقها واقتسامها ، عند ذلك هالتها قوة جيش محمد علي الذي سيصبح

---

(١) Document :F.O.: 78/347. From Campbell to Palmerston No.:247,12-3-1833

(٢) محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٠٨ .

، عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ص ٤١ .

(٣) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٨١ .

بامكانه تجديد القوة الاسلامية لو أن الدولـة وقعت تحت قبضته [١] ، ولانتشار أنباء كثيرة في أوربا وبخاصة انجلترا مفادها أن السلطان الصغير ، ربما يقـدم لمحمـد علي مايطلبه [٢] .

لذلك أرسلت الدول الأوربية إلى السلطان العثماني مذكـرة مشـتركة مـن سفراء كل من انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسـيا تنـص فيهـا علـى وجـوب عـدم اتخـاذ قـرار فيمـا بـين السـلطان العثمـاني ومحمـد علـى الا بموافقتهـا وتحـت علمها[٣].

هذا الاشتراك او الوفاق رحبت به الدول المشتركة الخمس واعتبرته احلالا للهيمنةالدولية على الشئون الشرقية محل الهيمنة الروسية . كما أن هذاالعمل يعتبر في نظرها تتويج لما عملته او بذلته بريطانيـا مـن جهـود في السـنوات الأخـيرة ضـد أطماع محمد علي وتوسعاته [٤] .

كما عرضت الدول الأوربية استعدادها أيضا للتوسط بين الفريقين فقبلـت بهذا الدولة العثمانية لحين استرجاع مافقدته من جيشها وأسطولها .

ولما علم محمد على اشتراك الدول في المفاوضات ومن بينها حليفـــــته

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٥٤.
، محمد شفيق غربال : محمد علي الكبير (القاهرة ، دار الهلال) ص ١٥٤.
، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٤٤ .

(٢) عايض خزام الروقي : حروب محمد على في الشام ، ص ٤٠٩

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٥٤.
، محمد شفيق غربال : المرجع السابق ، ص ١٥٤.
، على حسون : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٤) محمد شفيق غربال : المرجع السابق ، ص ١٥٤.

فرنسا[1] بدأ يستعد لصد هذا العدوان بتدريب الأهالي على استعمال السلاح، ثم استدعى جيشه من نجد والحجاز لمقاومة هذاالحلف ،وتخلى عن بلاد العرب ، وأصدر أوامره لابنه بضبط الشام الذي بدأ يتحرك ضده وقمع تحركاته .

وبناء على طلب النمسا لحل المسألة المصرية عقد مؤتمر في لندن سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م حضره مندوب عن الباب العالي وذلك لمحاولة تدعيم الموقف الأوربي في هذه المسألة ، ولكن هذا المؤتمر فشل لاختلاف أطماع الدول في الدولة مع اختلاف وجهات النظر بينها [2] .

لهذا عرضت بريطانيا على السلطان العثماني الضغط على محمد علي لارجاع الأسطول مقابل ادخال سفنها الى البوسفور ، ولما علم الفرنسيون بنوايا الانجليز ، أبدوا عدم التعاون معهم ضد محمد علي ، وكانت فرنسا ترغب في احتفاظ محمد علي بولايتي مصر والشام له ولذريته من بعده ، بينما لاترغب بريطانيا في اعطائه الا ولاية مصر ، ولكنها وافقت أن يعطي بلاد الشام الجنوبية باستثناء عكا مدىالحياة ، الأمر الذي رفضته فرنسا ، فانتهزت روسيا فرصة الخلاف بين الانجليز والفرنسيين حول هذا الموضوع فاتجهت لتعميق نفوذها في الشرق وبسط حمايتها على أكبر جزء من الدولة العثمانية ، وأبدت استعدادها لترك حرية العمل لبريطانيا في مصر ضد محمد علي مقابل انزالها جيشا في (سينوب) على البحر الاسود بحجة نجدة الدولة العثمانية في حالة تهديدها بالاحتلال من

---

(١) ان حوادث التاريخ تعطينا أكبر العبر بأن العدو الحاقد على الاسلام والمسلمين لايمكنه أن يقف مع المسلمين في صف واحد وان تظاهر بذلك فسرعان مايكشف زيفه ويفضح أمره وتظهر نواياه الغادرة فهو دائما يسعى لضرب المسلمين بعضهم ببعض لاضعاف شوكتهم ويخشى بروز قوة في ديارهم التي تكون منطلقا لاعادة مجد الاسلام .

- علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ص ١٤٥ ، حاشية رقم (١) .

(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ١٤٥-١٤٦.

، محمد شفيق غربال : محمد علي الكبير ، ص ١٥٤.

قبل ابراهيم باشا.

ولكن انجلترا اقترحت عليها اعلان التنازل عن حقوقها في معاهدة (خنكار اسكله سي) فرفض الروس ، وأجلت المفاوضات بشأن المسألة المصرية حتى سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م [١] .

ولمواجهة خطر روسيا ، طلبت كل من فرنسا وبريطانيا من السلطان العثماني التصريح لمراكبها بالمرور في بوغاز الدردنيل لحمايته عند الضرورة من روسيا ،ومن جيوش محمد على ، وجاء قائد الأسطول البريطاني بنفسه الى اسطنبول للحصول على هذا التصريح . فأعلن في الحال سفير روسيا بأنه إذا دخلت مراكب الانجليز وفرنسا البوغاز فانه سوف يقطع علاقاته السياسية مع الدولة العثمانية .

لذلك كتبت النمسا الى وزارتي لندن وباريس بأن طلبهما هذامخل للسلم في أوربا ، وأنهما لو أصرا عليه فانها ستخرج من التحالف . فخاف السلطان من تفاقم الأزمة ، ورفض طلب حكومتي فرنسا وبريطانيا علىالسواء ، وطلب منهما ابعاد مراكبهما عن مدخل البوغاز .

ولأجل تلك الأسباب توقفت المخابرات ،وتوقفت الدول عن مطامعها مؤقتا في المسألة المصرية لدراسة الوضع الحالي [٢] دراسة أوسع ووضع الحلول المناسبة للموقف .

وفي أوائل شهر رجب سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩ م عادت النمسا مرة أخرى وطلبت من الدول الأوربية عقد اجتماع في مدينة فينا لتسوية هذه المسألة التي أقلقت الجميع ، فقبلت تلك الدول عقده في لندن ، وطلبت فرنسا أن يكون

---

(١) علي حسون : تارخ الدولة العثمانية ، ص ١٤٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٧-٤٥٨ .

للسلطان العثماني مندوب في هذا المؤتمر مراعاة لما له من السيادة العظمى على البلاد المتنازع عليها [1] . على أن لايكون له أي صفة أو كلمة لأن زمام الأمور والمبادرة في يد هذه الدول الكبرى التي تتصارع حول أملاكه .

فلما اجتمع المؤتمرون طلبت فرنسا إبقاء الشام كلها تحت يد محمد على باشا ، فعارضتها انجلترا وأصرت أن لا يعطى له الا النصف الجنوبي من الشام ، لكنها قبلت أخيرا بناء على موقف فرنسا ادخال عكا ضمن هذاالقسم ، بشرط أن يكون له مدة حياته ولاينتقل الى ورثته بل الى الدولة العثمانية .

وقد قبلت بذلك روسيا والنمسا والبروسيا ،وعارضته فرنسا وطلبت استمراره لورثته من بعده ، فشددت انجلترا وخصوصا اللورد بالمرستون على موقفها وعدم الرجوع عنه ، ونظرا لهذه الأسباب فشل هذاالمؤتمر وبقيت الحالة على ماهي عليه .

ولما تولى (تيير) رئاسة الوزارة الفرنسية في سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م لم يتبع خطة من سبقه ، بل انفرد دون دول أوربا لانهاء المشكلة المصرية العثمانية بمطالبة السلطان العثماني بترك ولايتي مصر والشام لمحمد علي ولذريته وأرسل في الوقت نفسه الى محمد علي بأن يقوى مركزه في الشام بالجيش والعتاد دون الالتفات الى مهاترات انجلترا ، بل علي التأهب والكفاح وان فرنسا تقف خلفه ومستعدة لخدمته ضد الانجليز .

ولماعرف اللورد بالمرستون بموقف فرنساالجديد حنق على الحكومة الفرنسية فخطط ليضرب ضربته ، فقام ببذل مساعي جبارة في الاتفاق مع روسيا والنمسا والبروسيا، لارجاع محمد علي الى حدود مصر والنصف الجنوبي من

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٦٠-٤٦٢ .

الشام الذي يدخل ضمنه عكا ، والزامه بالقوة اذا لم يلتزم ، ولقد نجح بالمرستون في مسعاه واستطاع أن يعقد مع الدول المذكورة معاهدة في لندن في سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م [١] . وتنص هذه المعاهدة على منح محمد علي باشوية مصر وراثية في بيته ومنحه جنوبي الشام مدة حياته [٢] وقد صدق على هذا الاتفاق مندوب الحكومة العثمانية [٣] .

وكان من ضمن شروط معاهدة لندن ، أنهم اشترطوا على السلطان العثماني أن يكون لسفنهم حق دخول البوسفور لحماية اسطنبول من جيوش محمد علي ، ولايحق دخول تلك المياه لأحد مادامت العاصمة غير مهددة .

وقد ألغت هذه المعاهدة معاهدة (خنكار اسكله سي) الروسية العثمانية ثم صدرت الأوامر للاسطول الانجليزي الذي تولى هذه المهمة ، وقام بحصار سواحل بلاد الشام لتنفيذ المعاهدة ،ولما وصل الاسطول الانجليزي سواحل الشام عرض مندوبه على محمد علي باسم الدول أن تكون له ولاية مصر ولذريته من بعده ، وولاية عكا له مدى الحياة ، وأفهمه بأن فرنسا لايمكنها مساعدته كماعرفه بقبول الدولة العثمانية بهذا وتصميم الدول على تنفيذ هذه المهمة مهما تكن الظروف والعوائق ، وأعطى له مهلة قدرها عشرة أيام ، غير أن محمد علي رفض هذا الانذار ، وانتهت المهلة [٤] فأبلغ بأنه فقد حقه في ولاية عكا بمضي المهلة وأعطى عشرة أيام أخرى ، ولكنه ظل مصرا على الرفض ، وعندئذ بدأت السفن البريطانية تطلق نيرانها على بيروت ، فاستولوا على بيروت وطرابلس وصيدا وصور، واحتلوا عكا بالقوة ، وكان ابراهيم باشا يعتمد على عكا أكثر من غيرها

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٦٠-٤٦٢.

(٢) محمد شفيق غربال : محمد علي الكبير ، ص ١٥٤.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٦٢ .

(٤) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٤٧ .

لتحصينها القوى ، فانهزمت الجيوش المصرية وتقهقرت ، فاضطر ابراهيم الى العودة الى مصر [١] .

ثم توجه جزء من الأسطول الانجليزي الى ثغر الاسكندرية لتنفيذ مهمته حيث ألزم محمد علي قرار الدول بأن تكون له ولاية مصر ولذريته من بعده وكان ذلك في سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، فقبل الباشا بذلك ، وأرسل الأسطول العثماني الى اسطنبول ، وتم تسلمه للدولة العثمانية في أوائل ذي الحجة سنة ١٢٥٦هـ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٨٤١م ، لذلك أصدر السلطان عبدالمجيد المرسوم السلطاني الذي ينظم الوراثة العائلية لمحمد علي مشتملا على امتياز حكم القطر ، بمصادقة الدول الأوربية ، ويعد هذا المرسوم توجه محمد على إلى اسطنبول لعرض طاعته على السلطان [٢] .

وهكذا فان فكرة الدولة العربية التي رسمها خيال محمد علي ورعاها ابنه ابراهيم لم تلق في بلاد الشام التأييد اللازم مما عجل في القضاء عليها مناهضة بريطانيا وخاصة بالمرستون [٣] .

وهكذا أسدل الستار على أحداث شخصية محمد على القوية بعد صدور المرسوم السلطاني ، وعاد تحت الطاعة كما كان سابقا . أما السلطان فقد بدأ في مواصلة الاصلاحات التي لقنه مبادئها والده .

وتحت وطأة هذه الأزمة أصدر السلطان عبدالمجيد أول مرسوم من مراسيم التنظيمات ، وعرف هذاالمرسوم باسم خط كلخانة [٤] ، وتفصيل ذلك هو أنه بعد

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٠-٦٩١ .

(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٩١ .

(٣) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ٢٤ .

(٤) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٤ .

تسلم عبدالمجيد السلطنة بحوالي أربعة أشهر ، استدعى رشيد باشا السفير العثماني فوق العادة في لندن الى اسطنبول ليعين وزيرا للخارجية ، وما ان تسلم مقاليد منصبه حتى حمل معه الدعوة لنظام حكم برلماني دستوري ، مدعيا رفع الدولة الى مصاف الدول المتقدمة عن طريق دستور ينص على حقوق المواطنين والغاء عدم المساواة البارزة بين المواطنين [١] .

وكان رشيد باشا هذا قد عمل سفيرا في لندن وباريس ،وبطبيعة عمله السياسي ألم بسياسات الدول العظمى وتأثر بها ، فتحمس لتحديد سلطة السلطان تحمسه للاصلاح ، وذلك بتطوير النظم وجعلها شبيهة بالنمط الأوربي الدستوري، على أن تكون بداية الانطلاق هي مصلحة الرعايا المسيحيين وتحسين أحوالهم[٢] .

وقد استطاع رشيد باشا الوصول الى هذا العمل حينما استغل الأزمة التي سببتهاهزيمة القوات العثمانية في نزيب من القوات المصرية للحصول على المساندة الرسمية لترسيخ مفاهيمه الغربية بعد أن وجد أن الدولة في وضع حرج تحتاج فيه الى مساندة الدول الأوربية ضد محمد علي ، فمن شأن اعلان هذاالبرنامج التغريبي أن يوضح للدول الأوربية أنه بامكان الدولة العثمانية أن تحرز التقدم وأنها تستحق الانقاذ [٣] وأنها جديرة بأن تعامل معاملة الدول المتحضرة الحديثة [٤] . فأجرى رشيد باشا مشاوراته مع بالمرستون وغيره من المسئولين لحسم الأزمة لصالح الدولة العثمانية ، بل للحصول على المساندة الخارجية للإصلاحات التي كان على وشك

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٠ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٩٩ .
، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧١-٧٢.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٩٩-٢٠٠ .

(٤) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٤ .

القيام بها ، وهدفه منها تقوية مركز الدولة [1] .

وكان السلطان عبد المجيد في تلك الفترة قد أفزعه الخطر الروسي الجاثم بجوار الدولة والذي يترصد حركاتها ويتحين الفرص لالتهامها ، اضافة الى الانتفاضات المستمرة في البلقان بتحريض من الروس ، مما جعل السلطان يطمح الى مساندة الدول الأوربية التي جاءت معظم الخطوات التنظيمية استرضاء لها ، لتظهر الدولة أمام الرأي العام الأوربي أيضا بمظهر البلد المتقدم [2] .

ولهذااستغلت اوربا المسيحية فرصة الأزمة التي مرت بهاالدولة العثمانية بسبب حروب محمد علي في بلاد الشام ، وضغطت على السلطان عبدالمجيد ، فأصدر الوثيقة المعروفة بخط كلخانة [3] .

وللاحتفال بهذه المناسبة نصبت خيام كثيرة في حدائق قصر (طوب قبو) المعروف باسم كلخانة (دار الزهور) حيث اجتمع حشد من كبار موظفي الدولة، وممثلي الدول الأجنبية ومن بينهم ولي عهد فرنسا (جوانويل) ، في حين اصطفت العساكر النظامية في شوارع المدينة وميادينها المجاورة ،وحين وصل السلطان عبدالمجيد الى مكان الاحتفال سمح لبطريركي الكنيستين اليونانية والأرمنية وكبير حاخامات اليهود والوفود من مختلف الهيئات وأعضاء الحكومة يتبعهم موظفوهم لحضور الاحتفال . واتخذ كبار العلماء والضباط أماكنهم المعدة لهم ، ثم بعد ذلك قدم الصدر الأعظم وعود الاصلاح التي تضمنها الخط الشريف الى رشيد باشا وزير الخارجية الذي أعلنها بدوره بصوت مسموع بالانابة عن السلطان

(١) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٣ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة (الدارة ، ع ٢ ، س١١ ،و١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ص ٨٢ .

. عبدالكريم مشهداني : المرجع السابق ، ص ٧٢.

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

عبدالمجيد متضمنا أسس تنظيم الدولة [١] .

ومن جملة ماقال : " لايخفى على عموم الناس ان دولتنا العلية من مبدأها وهي جارية على الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها . ولذاكانت قوة ومكانة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارية أهلها وصلت حدالغاية. وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولاللقوانين المنيفة بناء على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر . وبما أن الممالك التي لاتكون ادارتها بحسب القوانين الشرعية لايمكن أن تكون ثابتة ، كانت أفكارناالخيرية الملوكية منحصرة في اعمار الممالك واتحاد ورفاهية الأهالي والفقراء من جلوسناالسعيد وصار التشبث في الأسباب اللازمة بالنظر الى مواقع ممالك دولتنا العلية الجغرافية ولأراضيها الخصبة والاستعداد وقابلية أهاليها لتحصل بمشيئة ا لله تعالى الفائدة المقصودة في ظروف خمس أو عشر سنين " [٢] .

ثم سلم رشيد باشا الخط الشريف بعد قراءته الى الصدر الأعظم ، الذي قبله ورفعه الى جبهته وصدق عليه شيخ الاسلام وأطلقت المدفعية طلقات عديدة تحية من جميع بطاريات اسطنبول ، ثم تقدم أعضاء الوزارة وأقسموا يمين الولاء

---

(١) أ.أنكدهارد : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي : ترجمة على رشاد (اسطنبول قناعت كتب خانه سي ١٣٢٨هـ) ص ٣٨-٣٩ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٠ .
، روحي بك الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة ، (مجلة الهلال ، ج ٢ س ١٧ ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ، ص ٧٥،٧٦ .
، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وأثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٢ .

(٢) أ.أنكد هارد : المصدر السابق . ص ٣٨ .
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٨١ .

بتنفيذ هذا الخط . وانتهى الحفل [١] .

من الملاحظ وضوح الرؤية الصحيحة من وجهة النظر الاسلامية نظريا لدى السلطان الشاب . كما يظهر من اضطراره اصدار تلك التنظيمات التي وضعها رجال تربوا ونشئوا على حب الغرب ومبادئه التي استفحل خطرها شيئا فشيئا حتى تحقق لدعاتها وحملتها مايصبون اليه فيما بعد ، ومن بعدهم اسيادهم وهم المحركون هم في الخفاء [٢] .

ويعتبر هذا الخط من أهم مظاهر الغزو الفكري في الدولة لأنه أول تنظيم أتاح للنظم الأوربية أن تتسرب الى مؤسسات الدولة المختلفة خاصة وأن الذي قام بصياغته واصداره مصطفى رشيد باشا ، سفير الدولة في باريس ولندن ،ووزير الخارجية في عهد السلطان عبدالمجيد الذي تصفه المراجع الأوربية بالاستنارة ، وقد تأثر الى حد بعيد بالأفكار الأوربية [٣] .

وأخطر مافي خط كلخانة هو اعطاء الذميين أوضاعا كأوضاع المسلمين ، فهذا الخط يمثل بدء اصدار أوامر سلطانية لاتستند الى حجة شرعية أو فتوى شيخ الإسلام [٤] . لهذا نص على تساوي رعايا الدولة أمام القانون ، المسلمين منهم وغير المسلمين ،ولكن مع المحافظة على الشريعة الاسلامية أو الاطار الاسلامي ، رغم مانص عليه الخط من أن مرجع ضعف الدولة هو عدم تطبيق مبادئ القرآن وتشريعاته السماوية [٥] .ومع ذلك فقد كان هذا الخط خطوة كبيرة نحو الأخذ

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٠ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٢، حاشية رقم (١) .

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته بالأزمنة الحديثة ، (الدارة ع ٢ ، س ١١ ، ١٤٠٦هـ /١٩٨٥م) ص ٨٢ .

(٤) محمد عبداللطيف البحراوي : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٠١.

، أ.أنكدهارد : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي ، ص ٣٨ .

بالقوانين الوضعية حين قرر المساواة بين المسلم وغير المسلم [1] . وتوفيرالاخاء بين كل رعايا الدولة العثمانية بهدف تقوية الدولة عن طريق تعزيز ولاء سكانها المسلمين والمسيحيين لاضعاف الروح الاسلامية [2] .

وقد أكد هذا الخط على معالجة بعض الأمور الأمنية والادارية منها ضرورة ايجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على أمواهم وأملاكهم وأرواحهم ، وبالتالي وجوب اعلان المحاكمات ومطابقتها للوائح ، والغاء نظام مصادرة الأملاك، وأن تكون محاكمة المجرمين علنية .

وايجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الالتزام الذي وصفه خط كلخانه بأنه من آلات الخراب في الدولة ومن أسباب تدهورها . ثم تحديد نظام ثابت للجندية بحيث لاتستمر مدى الحياة ، بل تحدد مدتها بفترة تتراوح بين أربع أو خمس سنوات، وإلغاء القطاعات العسكرية الغاءا عاما [3] .

وقد كلف مجلس الأحكام العدلية الذي أنشئ في عهد محمود الثاني لوضع التشريعات بايضاح تفاصيل اجراءات الإصلاح ، وبهذا بدأ عصر التنظيمات منذ سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ، واستمر حتى اعلان الدستور في سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٦م [4] .

---

(١) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٥.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصولالتاريخ العثماني ، ص ٢٠١ .

(٣) أ.أنكدهارد : تركيا وتنظيمات دولة عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي ، ص ٣٩ .
، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥١.
، عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٥ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٠٢ .
، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٢-٧٣.

(٤) أ.أنكدهارد : المصدر السابق ، ص ٣٩ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٠١-٢٠٢.

كما دعا هذا الخط أيضا الى الحرية الشخصية والتملك الشخصي بحرية حتى لورثة الجناة التي تستلزم أعمالهم مصادرة أملاكهم ، فأصبحت لاتصادر ، ثم التفت الى التجنيد ، وقسم الجيش الى ست فيالق ، اثنان في شبه جزيرة البلقان ، وفيلقان في آسيا الصغرى ، وفيلق في سوريا ، وآخر في العراق ، كما وضعت قوات في اليمن ، واستدعى الخبراء الفرنسيون والبروسيون لتدريب الضباط على أحدث النظم واستخدام الآلات الحربية الجديدة [١] .

ونتيجة لذلك استتب الأمن ، وتأسست المدارس الطبية والحربية وأنشئت وزارة المعارف ،وأعلن مبدأ التعليم المجاني الاجباري ، وامتدت يد الاصلاح الى الولايات ، واستورد السلاح الجديدالمتطور ، فأصبحت القوات العسكرية على يد الخبراء تستكمل تدريبها على أحدث الأساليب العصرية [٢] .وأعيد تنظيم الادارة المحلية والمركزية ، فكان الأكثر خطورة هو النظام العلماني الجديد الذي أدخل على السلطة القضائية ، ولم يبق تحت حكم الشريعة الاسلامية الا قانون الأحوال الشخصية كما ذكرنا [٣] .

ومن هنا أعرض العثمانيون عن الخط الاسلامي الذي كان يطبقه أسلافهم تطبيقا حير الأوربيين ، لقوة الدولة وتماسكها بتمسكها بكتاب ا لله وسنة رسوله الكريم صلى ا لله عليه وسلم ، وظهرت مظاهر الغزو الفكري في نظمها ، وزعماؤها يظنون أنهم سينقذون الدولة من الانحطاط وما دروا أن انحطاط الدولة في ابتعادها عن الشريعة الاسلامية .

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥١.
. أ.أنكدهارد : تركيا وتنظيمات دولة عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي . ص ٣٩ .
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ ، ص ٦٩١ .
(٣) أ.أنكدهارد : المصدر السابق . ص ٣٩ .
. على حسون : المرجع السابق . ص ١٥١.

وبهذه الأعمال قطعت الدولة العثمانية شوطا شاسعا في طريق التغريب ، وأرسل الطلاب الى أوربا لإتمام تحصيلهم العلمي [1] .

وازدادت الاتصالات بالغرب وعين الشبان العثمانيون الذين تعلموا في ديار الغرب في الوظائف الدبلوماسية في الدولة [2] . وهكذا فتحت التنظيمات العثماية الجديدة باب الدولة لتدفق الحضارة الأوربية المادية عليها بأقصى سرعة ممكنة ، في الوقت الذي كانت فيه هذه الحضارة تستغل بشكل بشع الدولة العثمانية اقتصاديا ، وسياسيا ، كما أن ذلك فتح باب الأرساليات التنصيرية والمدارس الأجنبية على مصراعيه حتى عمت مختلف مناطق الدولة العثمانية ومدنها [3] .

ان هذا الخط بالرغم من موافقته لأهداف الدول الأوربية فإنه لم يمر دون مصاعب ومتاعب فقد رفضه النصارى بدعوى أنه يجردهم من الامتيازات التي كانوا ينعمون بها عدة قرون ، والتي وفرتها لهم الحمايات الأجنبية حيث كانوا في شبه استقلال ذاتي ، فالكاثوليك كانوا تحت الحماية الفرنسية والأرثوذكس كانوا تحت الحماية الروسية ، أما البروتستانت فقد كانوا تحت الحماية الانجليزية [4] .

وقد امتدح هذا الخط أيضا ثلة من الأوربيين حيث اعتبروه بمثابة " العهد الأعظم " بالنسبة للعثمانيين [5] .

أما موقف المسلمين من صدور خط كلخانة ، فقد تذمروا بشدة حين رأوا

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩١.

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥١.

(٣) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٦.

(٤) خير الدين التونسي : أقوم المسالك في معرفة الممالك (الطبعة الثانية ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٦م) ص ١٤١-١٤٢ .

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠١ .

أن الدولة تساويهم بالنصارى واليهود ، ورأوا في رشيد باشا الصدر الأعظم آلة في يد الدولة الأوربية ، وأنه كثيرا ما يمالئ النصارى على حساب المسلمين ، مما أحدث اضطرابا شديدا ، خاصة بين موظفى الدولة في الولايات المختلفة ، وقد رأوا أن هذاالخط يضر مصالحهم الاقتصادية ويحد من حرياتهم التي ضمنها لهم الاسلام ، لهذا أعلنوا بين الناس أن " هذا شرع جديد مخالف لشريعة الاسلام " مما اضطر الدولة الى ارسال شيخ الاسلام " عارف حكمت " الى جهات الاضطراب لوعظ الناس وأمرهم بالطاعة والامتثال ، فخطب بذلك على المنابر ، وبين للناس أن تلك التنظيمات ليست خارجة على المنهج الشرعي ،وماهي الا ضبط للجهات الشرعية التي كانت أهملت من قبل ، وأن لجوء الدولة اليها هي تحسين أوضاع المملكة ، وحفظ حقوق الأمة فهدأت الرعية ، وسكنت ، واستمر العمل بالتنظيمات في سائر الجهات يسير بقدر الامكان [١] .

وبعد أن أنهى الاتحاد الأوربي تسوية مشكلة الدولة العثمانية مع محمد علي، لم تعد الدولة بحاجة ماسة الى الإصلاح باعتباره سلاحا دبلوماسيا ، لهذا اشتدت المعارضة للإصلاح نفسه [٢] ، وانشطر الرجال البارزون الى قسمين الاصلاحيون ، وعلى رأسهم رشيد باشا ، والمحافظون على النظم الاسلامية ، وعلى رأسهم رضا باشا . وتساعد الفئة الأولى انكلترا ، وتساعد الفئة الثانية روسيا . أما السلطان فكان يتردد بين الفريقين ، حتى مال الى المحافظين على النظم الاسلامية ، بعدأن كان مؤيدا للاصلاح ، وعزل رشيد باشا في سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤١م [٣] .

---

(١) أ. أنكدهارد : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك اصلاحاتي ، ص ٤٦ .
، خير الدين التونسي : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، ص ١٤١-١٤٢.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثاني ، ص ٢٠٤.

(٣) أ.أنكدهارد : المصدر السابق ، ص ٤٧-٤٨ .
، عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب (الطبعة الثالثة ، دمشق ، المطبعة الجديدة)١٩٥٨م، ص ٢٠.

ومما يظهر أن التفكير في عزل رشيد باشا وفي الوقت نفسه وقف مفعول خط كلحانه لم تكن أجهزة الدولة المضطربة هي المسئولة وحدها عنه ، بل لقد لعبت روسيا دورا كبيرا في عزل رشيد باشا لأنها كانت ضد سياسة التنظيمات ، لأنها ترى في هذا الخط حائلا دون تحقيق أطماعها ، وبريطانيا ترى فيه معينا لها على تحقيق أطماعها ، وعلى أي حال فقد توقفت الحركة الاصلاحية بعد عزل رشيد باشا مؤقتا ، ثم استعادت قدرتها على المسير مرة أخرى (١) .

ولمالم يكن لدى السلطان جهاز اداري يستطيع أن يدير وينفذ الاصلاحات عندما اتجه الى الاصلاح ، فقد أعاد رشيد باشا الى رئاسة الوزارة في سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م (٢) . وعندما عاد رشيد باشا الى السلطة ، تابع حركته الاصلاحية لتدريب البيروقراطيين اللازمين لمتابعة اصلاحاته في موضع التنفيذ (٣) . سواء الذين كانوا على رأس العمل معه أو الذين سيخلفونهم ليواصلوا هذه الاصلاحات من بعده .

وأوجد رشيد باشا بعد موافقة السلطان تقسيما اداريا يشبه التقسيم الفرنسي ، اذ قسمت البلاد الى عدة ولايات ، فسناجق ، فأقضية ، ووضع ادارة كل ولاية بيد ثلاثة موظفين ،وهم الوالي ، والحاكم العسكري ،والخازن ، ثم أنشأ في كل ولاية مجلسا من الوجهاء لمراقبة ادارة الوالي ، وقد سعى رشيد باشا الى تحقيق الاصلاح المالي فلم يفلح ، ولكنه أنشأ المصرف العثماني، ثم سعى في اصلاح الجيش فنجح في ذلك بشكل محدود .

---

(١) عبدالعزيزنوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٧ .

(٢) أ.أنكدهارد : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك اصلاحي ، ص ٧٧.
، عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٠ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٤.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٠٤.

هذه الاصلاحات تم تنفيذها فقط على العاصمة اسطنبول وما حولها وكان لها تأثيرها هناك ، ولكنها لم تطبق في سائر ولايات الدولة لعدم استعداد الرأي العام لتقبلها [١] .

مع العلم أن الدولة العثمانية قد حظيت منذ القضاء على الخطر المصري في سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م وحتى نشوب حرب القرم في سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م بفترة هدوء مكنتها من دعم الاصلاحات العسكرية التي تريدها مع بعض الاصلاحات الضرورية التي تحتاجها الدولة في نظر رشيد باشا [٢] .

الا أن تلك الاصلاحات بقيت سطحية لأنها لم تمس جوهر المرض ، بل كانت تظاهرا أمام أعين الناس ، وكان جل اهتمام هذا الاصلاح الذي جاء به رشيد باشا ينصب على الاهتمام بأحوال الرعايا من النصارى في البلاد العثمانية ، وليس تقدم المسلمين أو ادخال النظم الحديثة الى بلادهم باستثناء القشور الزائفة التي كانوا ولايزالون يهتمون بانتشارها ، كما شقت الأزياء الأوربية طريقها الى العاصمة الاسلامية وأعطى السلطان المثل بارتداء اللباس الأوربي ، وبمنحه العطايا واقامة المناسبات والحفلات على ذلك الطراز الأوربي ، من لباس وعادات، ولم تكسب البلاد من وراء هذه الاصلاحات الا الاخلال بتعاليم الاسلام واستباحة محرماته ، ولذلك طالب أولئك المستغربون بأن يكون قصد الاصلاح أمن وسعادة كافة المواطنين دون اعتبار للدين .

ومع ذلك طالبوا بما ادعوه اصلاح الأفئدة والعقول وثورتها في صفوف من يقودون دفة الحكم في الدولة ، وازداد تدخل الدول الأوربية في شئون الدولة

---

(١) عابدين حماده : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٠-٢١.

(٢) احمد عبدالرحيم مصطفى : في اصول التاريخ الاسلامي ، ص ٢٠٥.

العثمانية تحت شعار انصاف النصارى والدفاع عنهم [1] .

بيد أن حرب القرم تعتبر احدى تلك الحروب العديدة التي تصارعت فيها الدول الكبرى الأوربية حول الشرق العثماني لأطماعها في توزيع ممتلكات الدول الاسلامية [2] .

وكماتمخضت أزمة محمد علي في سنة ١٢٥٥-١٢٥٦هـ/١٨٣٩-١٨٤٠م عن صدور خط شريف كلخانة ، فقد تمخضت حرب القرم في سنة ١٢٧٠-١٢٧٣هـ/١٧٥٣-١٨٥٦م ، عن صدور خط اصلاحي جديد هو الخط الهمايوني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م .

فبعد القضاء على خطر محمد علي ، عادت روسيا الى سياستهاالعدوانية لتدمير الدولة العثمانية بأي شكل من الأشكال عن طريق الضغط العسكري وأثارت الاضطرابات في البلقان [3] ، وخاصة عندما فقدت بمعاهدة لندن المنعقدة في سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م معاهدة (خنكار اسكله سي) المهمة المنعقدة في ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م ، فقامت بتحريض سكان البوسنه والهرسك وبلغاريا ، وغيرها من الولايات التي تتطلع الى الاستقلال ، للمطالبة بالحكم المطلق [4] . وفي مقابل ذلك وجد السلطان عبدالمجيد في شخص القائد عمر باشا قائدا ممتازا تمكن من قمع كل هذه الثورات والفتن التي تثيرها المناطق المذكوررة بمساندة روسيا لمعارضة حركة الاصلاح في تلك الجهات والتي مهدت لحرب القرم [5] .

وتمهيدا لحرب القرم فقد حدثت في أوربا سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م الحركة

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص١٥٢ .
(٢) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٩ .
(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٧ .
(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تنظيمات ج ٥ ، ص ٥٠١ .
(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

الدستورية التي بدأت في باريس بظهور الجمهورية الثانية بعد اسقاط حكومة (لويس فيليب) التي أشرنا اليها في الفصل الثالث ، اذ تسربت أفكارها الدستورية الى برلين وفينا وبراغ ، فاضطرت حكوماتها الى استعمال القوة ، ومن ضمن تلك الدول روسيا التي قامت بارسال قوة لإطفاء حركة بولونيا الدستورية قبل استفحال خطرها ، كما ساعدت النمسا ضدا لمجر وقد فر بعض المجريين الى الدولة العثمانية[1]. ولأن المجريين لجأوا الى الدولة العثمانية ، فقد طلبت روسيا من الدولة وبالحاح تسليم زعماء المجر اللاجئين الى بلادها ، فامتنعت الدولة العثمانية وذلك طبقا للقوانين الدولية التي تنص على عدم تسليم اللاجئين السياسيين [2] .

وكان من نتائج الحركة الدستورية تطلع كل من الأفلاق والبغدان التابعة للدولة العثمانية الى الاستقلال والانضمام الى ترانسلفانيا لتكوين دولة رومانية جديدة ، فثار الأهالي على أميري الولايتين فاضطرا الى الفرار وأقام الثوار حكومة مؤقتة .

وردا على ذلك أرسل السلطان كعادته جيشا بقيادة عمر باشا الذي استطاع اعادة الأمور الى نصابها كما كانت عليه من قبل ، ولكن الروس الذين يتحينون الفرصة – كما ذكرنا– على الدولة العثمانية ، قاموا بالتدخل وأرسلوا الجنود الى البغدان ، لأنهم كانوا يترقبون مثل هذه الأحداث للتحرش بالدولة العثمانية والتدخل في شئونها ، فاحتلوا مدينة الأفلاق سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م مما أدى الى تأزم الموقف بين الروس والدولة بسبب هذا التدخل حتى أصبحت الحرب وشيكة الوقوع بين الدولتين لولا حدوث المخابرات بين الدولتين التي انتهت

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٢.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩٠.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٦٩٢.
، على حسون : المرجع السابق ، ص ١٠٦–١٠٧.

باحتفاظ السلطان العثماني بتعيين أمراء الولايتين كما كان ، على أن تبقى البلاد تحت حكم مشترك عثماني روسي لمدة سبع سنوات حتى يستتب الأمن، وسمي هذا الاتفاق باتفاق (يلطه ليمان) وهو موقع تركي على ضفة البوسفور (١).

فكانت هذه الحركة الدستورية بداية لحرب القرم وصدور الخط الهمايوني في سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كما سيأتي .

وسبب ذلك أن روسيا كانت تطمح بأنظارها الى امتلاك اسطنبول في أي وقت كما يعلم الخاص والعام ، فكانت في كل فرصة ولو تافهة تسنح لها في الأراضي العثمانية أو تدنيها من قصدها تشن الغارة على الدولة العثمانية لتقطع شيئا من ممتلكاتها ولتصل عن طريق ذلك الى تحقيق وصية بطرس الأكبر (٢) .

وفي سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م حاول القيصر نيقولا الأول أن يتفق مع بريطانيا على اقتسام أملاك الدولة العثمانية ، التي وصفها الروس " بالرجل المريض " الذي لايرجى شفاؤه ، فاقترح أن تقوم روسيا بالاستيلاء على اسطنبول مقابل استيلاء بريطانيا على جزيرة كريت ومصر ، إلا أن بريطانيا رفضت هذاالعرض خاصة وأنها كانت لاتزال متمسكة برأيهاالقديم وهو المحافظة على كامل أملاك السلطان من أجل حماية طريق الهند وتوفير حاجز في مواجهة التوسع الروسي ، وقد سبق الحديث عن ذلك في الفصل الثالث . ولهذا السبب أصبحت بريطانيا تساند حركة الاصلاح العثمانية التي تعارضها روسيا (٣) .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩٠.
، علي حسون : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٢) عمر طوسون : الجيش المصري ، (مصر : مطبعة المستقبل ، الاسكندرية ، ١٣٥٥هـ) ص ٤٥.

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٩٣ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٧ .
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩٣ .

وبالرغم من أن دولة روسيا كانت على يقين من أن الاصلاحات التي أدخلتها الدولة في حربيتها ، وتنظيم جنودها البرية والبحرية هى تلك الاصلاحات التي أدخلتها هي في جيشها وبها استطاعت تحقيق الانتصارات المتوالية على الدولة العثمانية ، لهذا كانت روسيا تتمنى ألا ترى الدولة العثمانية في مصاف الدول المتقدمة ، لأن ذلك أصبح يتنافى مع سياستها وأمانيها التوسعية في الجهات الشرقية . فظلت روسيا تنظر الى الدولة العثمانية بعين الحقد وتود عرقلة مساعيها في اصلاحاتها العسكرية القائمة (١) .

ثم مالبثت روسيا أن تعللت بسبب آخر عندما تحرشت بالدولة العثمانية مستغلة ماعرف باسم " أزمة البقاع المسيحية " في فلسطين . هذه المسألة تعد في حد ذاتها قليلة الأهمية في نظر السلطان عبدالمجيد ، وترجع أصول هذه الأزمة الى فترة نهاية الحروب الصليبية حين أصبحت الأماكن ا لمسيحية في القدس وما حولها ملكامشتركا للطوائف المسيحية في حين أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت أقوى الكنائس المسيحية في داخل الدولة العثمانية ، باعتبارها ممثلة لأكثر من ثلاثة عشر مليونا من رعايا السلطان الذين ادعت روسيا حمايتهم ، كما ادعت فرنسا حمايتها للكاثوليك (٢) . فروسيا تسعى لتجريد الكاثوليك من امتيازاتها السابقة نحو الكنائس التي في ممالك الدولة العثانية وإعطائها للأرثوذكس لنشرها بين رعاياها في الدولة .

وبالرغم من أن المعاهدات المعقودة مع الدولة العثمانية لم تنص صراحة

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٣ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩١ .

. احمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ الاسلامي ، ص ٢٠٨ .

. علي حسون : العثمانيون والروس ، ص ١٠٧ .

على مثل هذه الحماية فـان الدولتين حاولتا تـأكيد نفوذهمـا بـين رعايـا السـلطان غـيرالمسلمين بتوفيرحماية خاصة لكهنــة كـل مـن الفئتين ، وبالتـالي تكـون مقـاصد روسيا بمثابة آلة صماء يحركونها كيف يشاءون ضد الدولة العثمانية [١] .

ففي منتصف القرن الثالث عشرالهجري الموافق لمنتصف القرن التاسع عشر الميلادي وقع خلاف بين الكهنوت الكاثوليكي والكهنوت الأرثوذكسي للاسـتيلاء على مفاتيح الأماكن المقدسة في فلسطين ، واشتد الخلاف ، فتدخلت على اثر ذلك الحكومـة الفرنسـية للدفـا ع عـن الكـــاثوليك والحكومـة الروسـية للدفـا ع عـن الأرثوذكس [٢] ، وهكذا اشتد الاحتكاك بين روسـيا وفرنسـا بحيـث حـاولت كـل منهما الضغط على السلطان الذي لزم الحياد على الرغم مـن تهديـد روسـيا بقطـع علاقاتها الدبلوماسية معه اذا استسلم للضغط الفرنسي [٣] ، ثم أخذت كل منهمـا تطلب من الحكومة العثمانية منح امتيازات الأماكن المقدسة للفئة التي تحت رعايتها ، فوقفت الحكومة العثمانية ازاء ذلك حائرة مترددة [٤] . إلا أن حجـة الكـاثوليك كانت أقوى بموجب الامتيازات الممنوحة لفرنسا في سـنة ١١١٣هـ/١٧٤٠م مـن الدولة العثمانية والتي تخولهم الحصول على امتلاك الكنـائس فيهـا ، وكـان الـروس يسعون جاهدين لسلبهم تلك الامتيـازات واعطائهـا للأرثوذكـس بسـبب حمـايتهم لذلك المذهب ولنشـر نفوذهـم في الدولـة عـن طريـق تحريـك رعايـاهم في البلقـان وضرب الدولة بهم .

لكن عندما شغلت فرنسا بحروب نابليون والثورة لم تتمكن من المحافظة

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٣ .
، احمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ الاسلامي ، ص ٢٠٨ .

(٢) عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢١ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٠٩.

(٤) عابدين حماده : المرجع السابق ، ص ٢١ .

على مركزها في الأراضي ا لمقدسة فسيطر الأرثوذكس على مراكز النفوذ، فقـام نابليون الثالث بمحاولة لاعادة الوضع وذلك لارضاء الرأي العام الفرنسي بالتدخل لدى الباب العالي لفض الخلاف ، وقد أحال السلطان هذه القضية علـى لجنـة لحـل هذا الخلاف ، وبعد عدة اجتماعات قـرر المجتمعـون بأحقيـة الكـاثوليك في امتـلاك عدة كنائس وأديرة لهم فيها حق الأولوية فعارض الروس وهددوا السلطان فيما لو نفذت هذه القرارات ولكن الدولة العثمانية كانت حازمة ولم تتردد عن موقفها[١].

فبالرغم من تهديد روسيا فقد قرر السلطان سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م منـح الكاثوليك بعض الامتيازات التي أقرتها اللجنـة وأهمهـا تسـليمهم المفـاتيح الثلاثـة الخاصة بالأبواب الرئيسية لكنيسة العذراء وباب السـراديب القائمـة تحـت كنيسـة المهد في بيت لحـم ، لذلـك ارتـاح السـفير الفرنسـي في اسـطنبول بهـذا الاجـراء ، فثارت ثائرة الأرثوذكس ، كما استاءت روسيا شعبا وقيصرا من هـذا القـرار [٢] . فعزم قيصر روسيا على الانتقام من الدولة العثمانية وارضاء الـرأي العـام الروسـي ، متخذا من هذا الخلاف ذريعة لتنفيذ وصية بطرس الأكبر ، ولهـذه الغايـة أرسـل الى اسطنبول سفيرا فوق العـادة يدعـى منشـتكوف (Menthikof) الـذي طلـب مـن السلطان منح قيصر روسيا حماية الرعايـة الأرثوذكـس في الدولـة العثمانيـة فرفـض السلطان هذا الطلب الذي يمس كرامة وسيادة الدولة العثمانية [٣] .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانيية ، ص ٤٩١-٤٩٢ .
، على حسون : تارخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٥٣ .
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٣ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٩.
، محمد فرد بك : المصدر السابق ، ص٤٩١-٤٩٢.، علي حسون : العثمانيون والروس ، ص١٠٨.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٢-٤٩٣ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .
، علي حسون : المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

والحقيقة لم يكن يقصد من ارساله الا ايجاد أسباب الشقاق للتوصـــل في النهاية الى اعلان الحرب بحجة مقبولة لدى الدول . وبالفعل حصل ماكان متوقعا ، اذ وقع صدام شديد بين منشتكوف وبين وزير خارجية الدولة العثمانية القوي فؤاد باشا ، وقد نتج عن هذا اللقاء أن صفع فؤاد باشا منشتكوف صفعة قوية ألقته على الأرض لإخلاله بأصول القواعد المتبعة أثناء مقابلة السلطان مما زاد الموقـف تأزما ، ولتأزم الموقف طلب السفير الروسي تغيير هذا الوزير بـآخر يدعـي (رفعت باشا) فلبي طلبه [١] وهذا ماكانت تريده روسيا وهو التخلص من هذا الوزير القوى الذي كان يكره روسيا ويميل الى بريطانيا .

وقد خشيت فرنسا من وقوع الحرب بين الدولة والروس ، لتصرفات هـذا الوزير الروسي ، لأن الإمبراطور نابليون الثالث يميل الى السلم ، فكلـف سفيره في أسطنبول باخبار السلطان باستعداد فرنسا لتنازلها عن قسم كبير مـن الحقوق التي كان قد منحها السلطان الى الكنيسة الكاثوليكية . وعلى أثر ذلك اتفق منشتكوف مع رئيس الوزراء التركي الجديد (علي باشا) على منح روسيا حق الاشراف على المذهب الأرثوذكسي في الدولة العثمانية ومنح الأرثوذكس الحق في ممارسـة دينهـم بحرية تامة ، واعتقد الرأي العام زوال شبح الحرب [٢] .

لذلك بدأ منتشتكوف ببذل جهده لدى السلطان لإحياء معاهدة (خونكار اسكله سي) القاضية بأن يكون لروسيا حق حماية جميـع المسيحيين الموجوديـن بـين رعايا الدولة ، وكان السلطان العثمـاني يـتردد في الاجابـة وفي هـذه اللحظـة أعـاد رشيد باشا الى الصدارة ، لأنه سبق عزلـه ارضـاءً لروسـيا ومنعـاً لأسـباب الشـقاق فظهر من ذلك أن السلطان قد عدل عن سياســـة اللين والمسالمة وعزم على رفض

---

(١) عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٢.

(٢) عابدين حماده : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

مطالبة روسيا وأيده في ذلك عدوها اللدود رشيد باشا [1] .

ومهما يكن فلابد أن ندرك الدور الذي لعبه سفير بريطانيا في اسطنبول (ستراتفورد كاننج) المشهور باسم (لورد اتفورد دي ريدكليف كاننج) فهو السبب في وقوع حرب القرم ، وكان هذا السفير يدرك حقيقة الكراهية الشديدة التي كان يكنها الشعب الانجليزي للروس بسبب تصادم المصالح في أكثر من منطقة، وكان هذا الرجل له مكانة كبيرة لدى السلطان عبدالمجيد ، حتى لقد وصف بأنه "السلطان العثماني " غيرالمتوج ، لذلك كان كاننج يدرك أن روسيا بلغت من القوة الدرجة التي أصبحت قوة خطيرة تهدد القوة البريطانية ، وأن تقليم أظافرها في وقت مبكر خير من تأجيل الحرب التي لابد من أن تقع في يوما ما ، وكانت ظروف بريطانيا مواتية تماما حيث أن نابليون الثالث - امبراطور فرنسا - كان قد عقد العزم على أن لايصطدم ببريطانيا ، وأن تكون أمجاده العسكرية بالتعاون مع بريطانيا ضد روسيا أو النمسا [2] .

وعندما عاد السفير البريطاني من رحلته الى بريطانيا استغل هذه الظروف ، لما يتمتع به من نفوذ قوي بسبب مساندته للدولة وللبرامج الإصلاحية ، فأقنع السلطان برفض المطالب الروسية [3] ، وحثه على ابعاد على باشا عن رئاسة الوزارة، وتعيين رشيد باشا صديق انجلترا وعدو روسيا التي كانت لها دور في عزله من وزارة الخارجية كما سبق [4] .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩٤-٤٩٥.

(٢) عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ، ص ١٩٠-١٩١.
، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٣-٤٩٤.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٩.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٥.
، عابدين حماده : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٢.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٣.

ولما رأى منشتكوف عدول السلطان عن إعطائه هذه الامتيازات أرسل اليه بلاغا نهائيا في ٢٦ من رجب ١٢٩٦هـ الموافق ٥ من مايو سنة ١٨٥٣م بطلبات دولته ، وطلب الاجابة في مدة أقصاها خمسة أيام ، لكن السلطان لم يلتفت الى هذاالبلاغ ، ولما انقضت المدة بدون الاجابة على طلبه انتظر ثمانية أيام أخرى على أمل أن يرد عليه السلطان، فما كان من السلطان الا أن صمم على رفض طلبات الروس ، لذلك قطع السفير الروسي في ١٧ من شعبان ١٢٦٩هـ الموافق ٢٦ من مايو سنة ١٨٥٣م العلاقة مع الدولة العثمانية مهددا الدولة باحتلال جنوده لامارتي الافلاق والبغدان [١] . فتدخل رئيس وزراء النمسا لمنع نشوب الحرب، وكاد أن يصل الى اتفاق بين الطرفين لمنع الحرب لولا السفير البريطاني المذكور الذي حال دون ذلك بالايعاز الى رشيد باشا بالتصلب في موقفه وعدم التساهل ، وهكذا قضى كاننج على آخر أمل بالسلم [٢] .

فتقامت الجنود الروسية الى الافلاق ،ودفع الانجليز ومن ورائهم الفرنسيون الدولة العثمانية باتجاه الحرب ، ولوحوا لها بالمساعدة ، فأعلن السلطان الحرب على روسيا في سنة ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م [٣] وأنذر الروس باخلاء الإفلاق والبغدان خلال خمسة عشر يوما ، وأمر السلطان عمر باشا بعبور الدانوب بعد أن تجاهلت روسيا الانذار العثماني ، فاستطاع القائد العثماني عمر باشا تحقيق النصر على الروس ، فتقهقر الجيش الروسي عن الضفة اليسرى للدانوب [٤] .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩٥.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٤.

(٢) عابدين حماده : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٣ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٥ .
، عابدين حماده : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٤) علي حسون : العثمانيون والروس ، ص ١١٠-١١١.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٤ .

لذلك أبحر الادميرال الروسي (نشميون) حالاً باتجاه الجنوب ليهاجم القاعدة البحرية العثمانية في " سينوب "[1] . ففاجأته السفن العثمانية هناك . وأطلقت العديد من السفن الحربية الروسية المجهزة قذائفها السريعة فأصابت هذه القذائف السفن الحربية العثمانية اصابات أدت الى تدميرها واغراقها ، والجدير بالذكر أن الروس كانوا قد تعهدوا لفرنسا وانكلترا بعدم الاعتداء على البحر الأسود وكان ذلك في سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٣م[2] . ولأجل ذلك دخل الأسطولان الانجليزي والفرنسي البحر الأسود وطلبوا من الأسطول الروسي الانسحاب الى سيواستوبول (اسباتوبول) ، فاستاء القيصر لهذا الطلب الذي من شأنه أن يظهر ضعف روسيا المسيطرة على البحر الأسود منذ عهد بطرس الأكبر ، لكنه لم يعبأ بهذا الانذار الذي أرسلته فرنسا وانكلترا معا مما أدى الى اعلان الحرب من قبلهما على روسيا في سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٤م ،وتوجهت حملة فرنسية انجليزية الى غاليبولي للدفاع عن اسطنبول[3] ، لاحبا في الدولة ولكن خوفا من امتداد نفوذ روسيا وبسط سيطرتها على اسطنبول[4] .

هذا التدخل كان بعد عدة معارك طاحنة دارت بين الروس والدولة العثمانية لاداعي للخوض فيها ، وكانت النتيجة التي تمت بعد المشاورات والمداولات بين الدول الأوربية والدولة العثمانية ان قررت الدول الأوربية نقل المعركة الى بلاد القرم والاستيلاء على المرفأ الروسي سيوا ستوبول فكان هم ذلك

(١) سينوب : بلدة تركية على الساحل الجنوبي من البحر الاسود ، تقع على راس شمالي غرب سمسون .
- على حسون : العثمانيون والروس ، ص ١١١ ، حاشية رقم (١) .

(٢) على حسون : المرجع السابق ، ص ١١١.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٦٩٥ .
، محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩٨ .

(٣) عابدين حماده : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٢-٢٣.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٨ .

اذ تم حصار سيوستوبول الذي دام حوالي سنة كاملةودخلت هذه الحرب أيضـــا (البيمونت) مع الحلفاء ضد روسيا ، وذلك للتقرب مـن نـابليون لمساعدتها علـى الوحدة الايطالية . فاستولى الحلفاء على سيواستوبول بعد تحطيم الاسطول الروسي وبعد مذابح وأهوال عديدة وتضحيات جسيمة حتى أتت سـنة ١٢٧٢هـ الموافقة لسنة ١٨٥٥م فمال الفريقان الى السلم بعد أن توسطت النمسا بينهما (١) .

وكانت الأسباب الرنيسية لعقـد الصلـح ، أن حقـق الانجليز والفرنسـيون هدفهم ، وهو تحطيم الأسطول الروسي ، وبذلـك لـن يكـون في استطاعة الـروس القيام بـدور في البحـر الأبيـض المتوسـط بعـد أن ثبـت للحلفـاء السـيطرة البحريـة الكاملة في البحر الأسود الذي كانت روسيا تسيطر عليه ، فاكتفى هـؤلاء الحلفـاء بهذا النصر ، ورفضوا التقدم الى ماوراء سيواستوبول ، مع أن بريطانيا كانت تريـد الاستمرار حتى تذل روسيا اذلالا كاملا يقضي على دورها في السياسة الأوربيـة ، ولكن نابليون اختلف مع بريطانيا في استمرار الحـرب وأمـر قواتـه بوقفهـا ، الأمـر الذي أرغم الانجليز على وقفها ايضا (٢) .

وبعد مداولات ومخابرات تم الاتفـاق بـين النمسـا وبريطانيـا وفرنسـا علـى شروط قدمتها النمسا الى روسـيا في سـنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م علـى شـكل انـذار بانضمامها الى الحلفاء في حالة رفض روسيا هذه الشروط (٣) .

وهذه الشروط التي وضعت لايقاف الحرب بين المتحاربين كانت كمايلي:

أولا: وضع المقاطعتين (الافلاق والبغدان) التابعتين الى تركيا العثمانية تحت

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٠٨.
، عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٣ .
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٠٠-٧٠١ .
(٢) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٩٢ .
(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التارخ العثماني ، ص ٢١٠ .

حماية الدول الأوربية ،بدلا من حماية روسياوحدها .

ثانيا: حرية العبور في نهر الدانوب .

ثالثا: اعادة النظر في اتفاقية المضايق المعقودة في عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م لمصلحة التوازن الأوربي .

رابعا: حماية رعايا السلطان المسيحيين على أن لاتمس هذه الحماية بسيادته .

فقبلت روسيا هذه النقاط الأربع ، وتم الاتفاق على عقد معاهدة باريس في سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م [٢] لإنهاء المسألة الشرقية ، أو لإنهاء هذه الحرب بين روسيا والدولة العثمانية .

وفي باريس تقرر عقد هذا الصلح بين الدولتين للسلم ، بتاريخ ١٨ من جمادى الآخرة سنة ١٢٧٣هـ/ الموافق ٢٥ من فبراير سنة ١٨٥٦م .

وكان أهم البنود التي جاءت في نصوص هذه المعاهدة هي :

١ – تعهد الجميع بحفظ استقلال الدولة العثمانية الإسلامية.

٢ – المصالحة بين الفريقين المتحاربين وإخلاء ما احتل من أراضي كل فريق .

٣ – اعادة المواقع العثمانية التي احتلتها روسيا الى العثمانيين .

٤ – اعلان العفو التام وإعادة الأسرى .

٥ – اعتراف الدول الأوربية باشتراك الباب العالي معهم في الاستفادة من المنافع الأوربية واحترام استقلاله والمحافظة على ذلك .

٦ – تعهد الدول المتعاهدة بالتوسط لمنع الحرب بين الباب العالي العثماني والدول الأخرى .

٧ – اصدار منشور عثماني لصالح النصارى القاطنين في المناطق العثمانية [٣] .

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١٠ .

(٢) عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٣ .

(٣) على حسون : العثمانيون والروس ، ص ١١٦-١١٧ .

واتفق لقبول العثمانيين ضمن المجموعة الأوربية أن تنفذ البند السابع من المعاهدة ، وتصدر خطا جديدا يضع برنامجا واضحا للاصلاح أكثر اتساعا ودقة من خط (كلخانة) [1] .

وعلى هذا الأساس صدر خط " همايون " في سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م وهو تأكيد على ماجاء في خط كلخانة سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م مع اضافات جديدة تتعلق بحقوق النصارى والتنظيمات الادارية الجديدة ، فكان أكثر دقة من الخط الأول ، حيث تميز بوضع حد للقوة المتناهية لروسيا ، ولايقاف مطامع الروس المتزايدة في أراضي الدولة العثمانية خاصة بعد أن منى الروس بالهزيمة في سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م وتحطم أسطولهم [2] .

وبالرغم من أن الخط الهمايوني جاء نتيجة للضغط الخارجي ، ومن ضمن شروط الصلح على عكس خط كلخانه فقد تشابه الخطان في كثير من النقاط . إلا أن صيغة الخط الهمايوني كانت أكثر عصرية وأكثر اقتباسا عن الغرب بصورة لم تعهد من قبل في الوثائق العثمانية ، فهو لم يستشهد بآية قرآنية واحدة أو بقوانين الدولة العثمانية القديمة وأمجادها وكان ذلك أمرا خطيرا من الناحية النفسية ، لأن هذاالمرسوم يتطلع الى التغريب أكثر مما يستوجب الرجوع الى الشريعة [3] وأخذ كل اصلاح يوافق الشريعة ورفض كل اصلاح ينافي الشريعة الاسلامية ، لارفض كل شيء ، ولاقبول كل شيء ، ولكن حسب المعايير المحددة في الدين الاسلامي الحنيف .

---

(١) عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ص ١٩٣.

(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٥ .
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١١.
، محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة، الدارة ، ع ٢ ، س ١١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ص ٨٢ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى: المرجع السابق ، ص ٢١٠-٢١١.

معنى ذلك كماهو واضح أن هذا الخط قد مس التقاليد العثمانية مسا خطيرا ، وتناول الشريعة بالتحريف ، ومعناه من الناحية التاريخية انحراف الدولة عن قواعدها الأصلية [1] .

ويتضح من هذا الخط التركيز على المساواة الدينية ، وفصل حقوق معينة للنصارى ، منها أن المسائل المدنية تكون العهدة في ادارتها على مجلس مختلط بين المدنيين ورجال الدين النصارى ينتخبه الشعب بنفسه ومنها عدم اكراه المسلم الذي يعتنق النصرانية على الرجوع الى الاسلام بل يسمح له بالردة عن الاسلام واعتناق النصرانية [2] .

لذلك كان صدور هذه التنظيمات التي أصدرتها الدولة العثمانية باسم (التنظيمات الخيرية) ، أو انشاء المحاكم المختلطة ، وتطبيق القوانين والنظم الأوربية في الدولة وولاياتها كما جاء في هذين الخطين ، كان ينافي الاسلام عقيدة ومنهجا، ولضعف الدولة والخلل الذي أصاب العلماء والسلاطين كان ذلك بداية انهيار التشريع الاسلامي في نظم الدولة العثمانية والتي كانت تنظر اليها أوربا على أنها عاصمة الاسلام ، فقد تغيرت هذه النظرة من الاحساس بالقوة الى الاحساس بالضعف عندما كفلت الدولة حرية العبادة وبناء المدارس على أن تتفق مع المناهج المقررة في الدولة ، وسمح للأجانب بامتلاك العقارات وفق شروط معينة وأكد الخط ضرورة انشاء مجالس الولايات ، وكان من قبل مطبقا على نطاق ضيق [3] .

ثم فتحت أبواب معاهد التعليم الرسمية ، وبالتالي وظائف الدولة المدنية أمام المسيحيين الذين فرضت عليهم الخدمة العسكرية رسميا ، ووعدوا بازدياد تمثيلهم

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة ، الدارة ، ع ٢ ، س ١١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ، ص ٨٢ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦١.

(٣) عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ، ص ١٩٣ .

في مجالس الولايات والمجالس المحلية ، ووعد السلطان بايجاد نظام ضريبي أكثر عدالة كما وعد بتحديد ميزانية سنوية ، وانشاء البنوك ، والاستعانة برأس المال والخبرات الأوربية (اليهودية) بهدف تطوير اقتصاد الدولة وتبويب القانون الجنائي والتجاري ، واصلاح نظام السجون ، وإنشاء محاكم مختلطة في القضايا الخاصة بالمسلمين وغير المسلمين ، وقد أعلنت الدول الأوربية مساندتها التامة لهذا الخط لضمان تنفيذ العثمانيين لوعودهم [١] .

وبعد صدور هذه القوانين الجديدة وافتتاح المحاكم المختلطة ظهر المحامون الذين يرافعون بموجب تلك القوانين العلمانية ، وقد كان المحامون قبل هذا من العلماء ، أما الآن فقد أصبح الصحافيون والمحامون والضباط موظفين مدنيين قاموا بدور كبير في الحياة السياسية وتطبيق الأساليب والأفكار الغربية الجديدة [٢] التي حذر منها السياسي النمساوي (مترنخ) العثمانيين ومن خطرها الكامن وراء استعارة أساليب الحضارة الأوربية المتعارضة مع الحضارة الاسلامية العثمانية [٣] .

وقد فهم هذا الخط من زوايا متعددة ففسرته كل جماعة حسب مصالحها فالغالبية العظمى من مسيحيي الدول العثمانية كانت ترى في صدور هذا الخط مظهرا من مظاهر ضعفها وتطلع بعض زعمانهم الى الدول الأوربية وتمسكوا بما جاء في الخط الهمايوني من حقوق لهم ، تاركين مابه من التزامات وواجبات عليهم، بل تمسكوا في نفس الوقت بما كان لديهم من امتيازات سابقة تتعارض مع الخط الهمايوني ، أي تمسكوا بكل الامتيازات الواردة في الخطين التي تخصهم - دون

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١١-٢١٣ .

(٢) عبدالستار فتح الله سعيد : الغزو الفكري (الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار الوفاء ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ٥٨.

(٣) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٥ .

النظر الى التزامهم نحو دولتهم وما عليهم من واجبات وأخذوا يساومون الدولة على ذلك [١] .

وعلى الرغم من انتقاد شيخ الاسلام هذا الخط الهمايوني كما انتقده رجل الاصلاح رشيد باشا وقال : " انه سار اشواطا بعيدة الى الأمام ، لأنه جاء كقفزة بدلا من النص على تنفيذ الاصلاح بالتدريج ، وإن الحاقه بصلح باريس يشكل خطراً على السلطان والدولة ".

وتبع هذه الانتقادات انتقادات أخرى من كبار رجال الدولة العثمانية ، مما أدى الى نشوب الاضطرابات في الشام . كما أن ضمانات الدول الكبرى حررت رجال التنظيمات من خوف التدخل الأجنبي مماجعلهم يعقدون العزم على مواصلة الإصلاح ، إلا أنه كان من المعروف أن أوربا من وراء صدور هذا الخط ، مما جعل مسيحيي الدولة يتطلعون الى مزيد من التدخل الأوربي حول تنفيذ الاصلاحات بدلا من تطلعهم الى السلطات العثمانية .

والحقيقة أن عالي باشا وفؤاد باشا ربما كانا يهدفان باصدار هذا الخط الهمايوني الى الكسر من حدة التدخل الأجنبي وإبقاء المبادرة في أيديهما [٢] .

لهذا انتشرت الشائعات عن الدول الأوربية بأنها ستقف الى جانب مسيحيي الدولة لو ثاروا ضدها ، وقد ساعد هذا على وقوع الفتن في الشام ولبنان بين الدروز والمسيحيين المارونيين ليسير لبنان في اتجاه الحكم الذاتي وبنظام خاص عرف بالمتصرفيه وهذ االنظام كان يتعارض مع خطة الدولة العثمانية في توحيد البلاد العثمانية تحت نظام واحد يعتمد على الخط الهمايوني [٣] .

---

(١) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٩٤ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١٣ .

(٣) عبدالعزيز نوار : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

وهكذا نرى أن الدول الأوربية أخذت في غزوها الفكري للدولة مسألة الطوائف غير المسلمة ذريعة للتدخل المستمر في شئون الدولة (١) .

وقد أعقب صدور خط كلخانه والخط الهمايوني مجموعة من القوانين التنظيمية التي مست المجتمع العثماني ، وقد صدرت هذه القوانين في أوقات متفاوتة ، كان أولها صدورا هو القانون التجاري الذي صدر في سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م ، وكان معظمه مأخوذا من القانون الفرنسي ، ثم القانون الجنائي الصادر في سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م ، وقانون التجارة البحرية الصادر في سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م ،ومجموعة القوانين التجارية الصادرة في ١٢٧٨هـ/١٨٦١ م ، وكل هذه القوانين كانت أيضا مقتبسة من القانون الفرنسي.

وكذلك صدرت فرمانات أخرى حول تأسيس بنك الدولة والأوراق النقدية وانشاء جامعة عثمانية (٢) .

كما صدر قانون الأراضي (الطابو) في سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م ، وقانون الولايات من سنة ١٢٧٧ - ١٢٨٠هـ/١٨٦٠-١٨٦٣م ، وكان الغرض من اصدار قانون الأراضي هو التخلص نهائيا من نظام الالتزام ، والاقطاعات العسكرية وتحسين حال الفلاح بتمليكه قطعة من الأرض تمليكا غير مطلق ليرتزق منها ، وعندما وضع هذا القانون موضع التنفيذ جاءت نتيجته على غير ماكان متوقع منه ، فقد كان الفلاح فقيرا لايستطيع دفع قيمة الأرض، بينما كان لدى الملتزم المال والخبرة ، فسجل الملتزمون باسمهم مساحات واسعة من

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة ، (الدارة ، ع ٢ ، س ١١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ، ص ٨٢ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تنظيمات ، ج٥ ، ص ٥٠٣.، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٤-٧٥.

الأراضي وتحول الفلاح أجيراً لدى هؤلاء الملاك وبذلك لم تحل المشكلة [1] .

أما قانون الولايات ، فيعتبر المحاولة العلمية لاصلاح حال الولايات من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتأكيد خضوعها للدولة. فقد حدد هذا القانون نظام الادارة واختصاص الوالي ، وطريقة انتخاب أعضاء مجلس الولاية ، وكان من أهداف هذا القانون اشراك الأهالي في إدارة أمور بلادهم حسب الاصلاحات الجديدة التي أدخلت في مختلف المرافق العامة . كما كان من أهداف هذا القانون أن يتمشى مع أحوال كل ولاية ، اذ أدرك العثمانيون أن الولايات العثمانية تختلف عن بعضها اختلافات جوهرية أحيانا ، وأنه من العسير وضع قانون موحد ينظم القوميات المسيحية البلقانية المتعددة المذاهب والأكراد الجبليين وعشائر العراق وعصبيات الشام وعرب شمال أفريقية وترك الأناضول ومسلمي البوسنة وألبانيا .

هذا القانون وضع السلطة في يد الحكومة المركزية في اسطنبول وقد عملت حكومة اسطنبول هذه التنظيمات اعتقاداً منها أن فساد الادارة في الولايات هو المسئول عن عدم تحسين أحوالها ، وأنه لهذا السبب يجب أن يكون الوالي مجرد منفذ لأوامر رؤسائه في اسطنبول فقط ، يرجع اليهم في أمور الولاية المهمة ، وقد ساعد على ذلك في تلك الفترة استخدام الخطوط البرقية في الدولة العثمانية على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري الموافق منتصف القرن التاسع عشر الميلادي [2] .

وبدراسة تلك التنظيمات وأسباب فرضها نرى أن الدولة العثمانية أصدرت هذه التنظيمات إرضاءً لأوربا ، ولاسيما انجلترا ، قبل أن تفهم معنى هذه

---

(١) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٩٤-١٩٥ .

(٢) عبدالعزيز نوار : المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

التنظيمات ، ولامعنى تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، كـــأن الشريعة الاسلامية دستور الدولة العثمانية منذ تأسيسها تبيح التجاوزات والتعدي على المال والأرواح والأعراض ، حاشا لله . وكأن كل البلاء ليس سببه الابتعاد عن الشريعة الاسلامية حتى يزول باصدار هذه التنظيمات ، وانما السبب في ذلك هو الاستبداد المتسلط على كل قانون وشريعة. فالحرية التي منحتها التنظيمات لم تكن شيئا مذكورا بجوار الحرية التي منحها القرآن للانسان ، لكن الاستبداد الذي آل ا ليه سلاطين عصر الدولة الثاني جعلهم يجهلون تطبيق الشريعة الاسلامية [1] . فانغمسوا في الشهوات والملذات الدنيوية ، ونسوا بناء دولتهم حتى آلت الى ماهي عليه ، ولم يعتبروا بأسلافهم الأول الذين طبقوا الشريعة الاسلامية في كل أعمالهم حتى سمت الدولة ، ووصلت الى أقصى المد الحضاري في عهد السلطان سليمان الأول ، فارهبت بتطبيقه أوربا ،ودخل النظام تحت لواء هذه الدولة لما وجده من تسامح في تطبيق هذه النظم الاسلامية على أهل الذمة ، الذين لم يجدوه في أوربا نفسها .

وقد جاء هذاالتشريع العلماني أو الغزو الفكري الحديث نتيجة لعدد من العوامل منها : وقع الفكر الغربي على الدولة العثمانية ، والضغط السياسي الذي كانت الدول الغربية تمارسه في علاقتها مع الأتراك العثمانيين لضعفهم ، والمحاولات المختلفة التي قام بها الأتراك أنفسهم لادخال الاصلاح الغربي الى مؤسسات الدولة العثمانية لاسيما " التنظيمات " عدا الأحوال الشخصية فقد بقي هذا النظام خاضعاً لأحكام الشريعة الاسلامية [2] . وما عداه فقد انزلق نحو

---

(١) روحي الخالدي : الانقلاب السياسي العثماني (ج ١ ، س ١٧ ، مجلة الهلال ، ١٩٠٨م) ص ٧٦.

(٢) زين نور الدين زين : نشوءالقومية العربية ، ص ٣٥ .

العلمانية ، وخاصة بعد صدور الخط الهمايوني الذي استنبطت قوانينه من القانون الفرنسي .

والحقيقة أننا لانعرف أحدا من سلاطين الدولة العثمانية الذين أصدروا " الخط الهمايوني " كان يفكر جديا في أن يصبح هو نفسه ذات يوم دستوريا ، وكان يرضى بأن يرى الدول الغربية تتدخل في شئونه الداخلية فكيف كان للسلطان أن يوافق على وضع قيود تحد من سلطته ، وهو أمر يتنافى مع مركزه السامي وألقابه العديدة (١) .

ولكننا لو أمعنا النظر في معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م لوجدنا معناها دخول الدولة العثمانية تحت مظلة كفالة الدول الأوربية ،واعترافها بالعجز والحاجة الى حماية الدول الأوربية ، تحت أهم بند في المعاهدة وهو البند التاسع ، الذي يعد المسيحيين بحرية ليس لها ضوابط ، والغريب في الأمر أن ممثلي روسيا والنمسا هما أول من تنبه الى خطورة هذا البند ، وخشيا عواقبه أكثر من ممثلي الدولة العثمانية في المؤتمر لأنهما خشيا سريان هذه الحرية الفوضوية الى دولتيهما اللتين تضمان عناصر وأديانا ولغات مختلفة ، لذا نرى أن ممثل النمسا يقول عقب توقيع المعاهدة : " بعد بذل كل الأنفس والأموال في هذه الحرب لم ترس المسألة الشرقية على أساس ثابت لقد أشركنا الدولة العثمانية في مجموعة الدول الأوربية ... حسناً ولكن ماهو الفرق بين أن نقول لها : " نفذي البند التاسع من هذه المعاهدة أو نقول لها انتحري !!؟ (٢) .

ان قيام القوميات داخل الدولة العثمانية التي تساندها أوربا معناه تفتيت الدولة العثمانية ، والقضاء على وحدتها من الداخل باستغلال الأقليات غير

---

(١) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٣٥ .

(٢) أورخان محمد علي : حياة السلطان عبدالحميد الثاني ... ص ٣١-٣٢.

المسلمة داخل الدولة ، وهذا من السياسات الخطيرة التي فرضتها الدول الأوربية في معاهدة باريس لإثارة هذه الأقليات ضد الدولة ، وهذا ماحدث بالفعل خلال تلك الفترة حين حدثت الفتنة بين الدروز والمارونيين في لبنان ، ولاشك في أن هذا البند كان لعبة سياسية ماهرة ضد الدولة العثمانية الغاية منه جرها الى أزمة مخيفة حسب تعبير ممثل روسيا الذي صرح هو أيضا عقب توقيع المعاهدة قائلا : " أعتقد أننا لم نعمل هنا الا لتعقيد المسألة الشرقية أكثر من السابق ، فبينما سقنا الدولة العثمانية المتألفة من اثنين وثلاثين مليونا الى أزمة مخيفة حرمنا روسيا ذات الثمانين مليونا من امكانية الدفاع عن حدودها الجنوبية.

ان عهد وجود الحرية دون ضوابط سوف يزلزل الدولة العثمانية أمام النظام الجديد للبحر الأسود ، ومن هذه المعاهدة ستندفع روسيا إلى البحث الدائم عن فرصة للحرب ، وأحسب أن هذه الحرية السانبة سوف تخلق في الدولة العثمانية أسبابا طيبة لاعلان حرب جديدة عليها ، مثلا بحجة حماية ومعاونة المسيحيين الذين سوف تأخذهم حمى الحرية "[1] .

والحقيقة أن معاهدة باريس هي التي مهدت لتمزيق الدولة العثمانية بقصد الحماية لرعاياها ، وهو ما أشار اليه ممثل روسيا والنمسا دون أن تنتبه الدولة العثمانية نفسها ، ولكن الذي حصل أن الدولة العثمانية أصبحت في حالة الدفاع عن النفس تنتظر مصيرها المحتوم باستقلال كثير من ممتلكاتها في أوربا ، وتنظر الى توزيع أملاكها في أفريقيا وفي آسيا دون أن تحرك ساكنا لضعفها وعجزها المالي والدفاعي أمام الغزو الأوربي الحربي والفكري ، وذلك لتغلغل الامتيازات الأجنبية فوق أرضها حتى أصبحت الدول الكبرى تتصارع ، وتمارس سيادتها التشريعية والقضائية بكل حرية لرعاياها داخل الدولة الاسلامية العثمانية بعد أن كانت هذه

---

(١) أورخان محمد علي : حياة السلطان عبدالحميد الثاني .. ، ص ٣٢-٣٣.

الدول لاتجرؤ على الاقدام على مثل هذه الأعمال في عصر الدولة الأول إلا باذنها وفي قضايا محددة .

ولكن عقب حرب الروس والدولة العثمانية سنة ١٢٧٠-١٢٧٢هـ/١٨٥٣-١٨٥٥م والتي انتهت بمعاهدة باريس كما مر بنا سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م استطاعت فرنسا وبريطانيا دفع الدولة العثمانية الاسلامية الى منزلق الاصلاح والزامها باصدار خط كلخانه والخط الهمايوني اللذين أخرجا الدولة عن أصولها وقواعدها الاسلامية كما كانت تطبقها في عصرها الأول ، حتى سقطت في الحرب العالمية الأولى .

ج – التغريب : مدحت باشا وزملاؤه :

في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري الموافق للنصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، انصبت اصلاحات السلطان محمودالثاني في الحصول على المال والقوة وايجاد القوات المسلحة القوية والحديثة ، وكان هذا ديدن من أتى بعده.

ولكن ما ان أصبحت الاصلاحات تسير على النمط الأوربي حتى سحبت خلفهاالأفكار ونظم الحكم ، وأساليب الحياة الأوربية . وخاصة بعد صدور التنظيمات التي تطبعت بالمبادئ الأوربية العلمانية الخاصة بحرية العقيدة وسيادة القانون ، وهذا ما رأيناه في نصوص الخط ا لهمايوني الذي صدر في سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م [١] .

وقد قام المهتمون بالحركة الدستورية بترجمة كتب رفاعه الطهطاوي من العربية الى التركية في سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م والعمل على رواجها لأن فيها وصف لمشاهداته في فرنساوحديثه عن النظام البرلماني والدستور والقوانين الأوربية، وغيرها من الأفكار الغربية الضالة التي وافقت هوى نفوس بعض الشباب العثماني المتطلع الى الاصلاح [٢] وسن القوانين الوضعية.

وخلال هذه الفترة برز على مسرح الأحداث مدحت باشا المستغرب الذي تنقل الى كل من لندن وباريس ، وبروكسل ، ودرس وشاهد هناك هذه الأنظمة والدساتير الوضعية البعيدة كل البعد عن الشريعة الإسلامية والحضارة الاسلامية[٣]، فصمم على إيجاد دستور وضعي يسير وفق الأحكام الغربية بغية

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٢٤ .

(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارهة على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٩ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٢٥.

إرضاء الدول الأوربية ليلقى الدعم والتأييد منها ، ولكن السلطان عبدالمجيد وافاه الأجل في ١٧ من ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م ، فسنحت الفرصة لمدحت باشا لتحقيق مايصبو اليه [١] .

ومدحت باشا هذا من تلاميذ رشيد باشا زعيم حركة الاصلاح الذي تولى الصدارة العظمى ست مرات ، ووزارة الخارجية ثلاث مرات ، حتى وافاه الأجل في سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م ، فواصل تلاميذه الإصلاحات من بعده ، ومن أشهرهم محمد أمين وعالي باشا ، ومحمود باشا ، وكان مدحت باشا المذكور من أبرزهم ، حين ساند الحركة الدستورية التي أنهت عصر التنظيمات [٢] .

والحقيقة أن غالبية السلاطين العثمانيين كانوا مخلصين فيما قطعوه من عهود لرعاياهم ، ولكن بازدياد صعوبات الدولة المالية وحلول السلطان عبدالعزيز محل السلطان عبدالمجيد في سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م انشغلت الأذهان خلال الستينيات بوسائل الحد من سلطة السلطان المطلقة ، وهي المشكلة التي غطت على سابقتها الخاصة بقبول أو رفض الاصلاحات المستوحاة من الغرب [٣] .

تلى ذلك في سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م إعلان باي تونس محمد الصادق الدستور ، وهو أول دستور في البلاد الإسلامية حيث كانت تونس في تلك الفترة تابعة اسما للدولة العثمانية [٤] . إلا أن السلطان عبدالعزيز لم يلتفت الى ذلك ، بل قام في مستهل أعماله بتعيين نامق باشا وزيرا للجهاد بدلاً من رضا باشا، ثم وجه أمره الى الصدر الأعظم آنذاك عالي باشا لمتابعة السير في تنفيذ الاصلاحات

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٢ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٥-٢٠٧.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

(٤) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٩ .

الضرورية مع الالتزام بالأمور الشرعية في النظام والقانون والاستقامة والاخلاص ، وحض على اعطاء الرعايا النصارى الدقة في العدالة حسبما جاء في الخط الهمايوني[1] .

ويفهم من هذا أنه كان يود اعطاء الرعايا النصارى أكثر من حقهم حتى يضمن عدم تدخل الدول الأوربية[2] .

وقد تمكن السلطان عبدالعزيز في السنوات الأولى من حكمه تخليص بلاده من الضائقة المالية حيث بذل جهوده للاصلاح وأحاط نفسه بوزراء أكفاء ولعل صعوبة المشاكل التي كانت تئن بها الدولة العثمانية وكثرتها وصعوبة حلها أوقعته في اليأس والقنوط ، والسطور التالية من مذكرات جودت باشا تصور الوضع الاقتصادي في اسطنبول في السنوات الأولى من حكم السلطان عبدالعزيز والتي كانت من أهم العوامل التي ساعدت على تغلغل الغزو الفكري الأوربي حيث يقول: " كانت الخزينة في وضع مالي سيء جدا ويزداد سوءا مع مرور الوقت، وفي أحد الأيام وقبل أن يصل فؤاد باشا الى اسطنبول كان الذهب الذي قيمته مائة قرش بالنقود الورقية المسماة " القائمة " قد ظفر وأصبح بثلاثمائة قرش ، وفي اليوم التالي تجاوزت الثلاثمائة قرش ثم ما ان وصلت القيمة الى أربعمائة قرش حتى أصبحت هذه الأوراق المالية لاتساوي شيئا ، وأصبح البقال والخباز والقصاب لايقبلها ، بينما لم يكن في أيدي الشعب سوى هذه الأوراق المالية ، لذلك بقي الكثيرون جياعا، والذين كانوا يملكون النقد اشتروا الخبز لثلاثة أيام لذا فقد نفذ الخبز ولم يجده الآخرون في السوق .

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٣ .
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١، ص ٧٠٦.
(٢) علي حسون : المرجع السابق ، ص ١٦٣.

وقد حاول البعض أخذ الخبز بالقوة من أيدي الذين اشتروه بكمية كبيرة ، وظهرت في بعض الإمارات الفوضى بسبب نهب الخبز في الطرقات ، الأمر الذي دعا الكثيرين الى حمل السلاح والعتاد ، واستولى على اسطنبول جو من الرهبة واستولت الحيرة على الجميع [1] .

فقام السلطان عبدالعزيز بتعديل في الجهاز الحكومي ، حيث عزل عالي باشا في سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م ، وعين مكانه فؤاد باشا صدرا أعظم ، فقام فؤاد باشا أولا باصلاح المالية ، اذ كانت البلاد تئن من الافلاس بسبب الديون المتراكمة من عهد السلطانين محمود الثاني ، وعبدالمجيد [2] .

ولبيان ذلك : أنه عندما نشبت حرب استغلال اليونان ودمرت الدول الأوربية أسطول الدولة العثمانية ، قامت الدولة باصدار القوائم المالية ، وذلك من أجل الحصول على المال لتجديد مراكبها وتقوية جيوشها فأصدرت اولا في سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م أوراقا بمبلغ اثنين وثلاثين ألف ليرة بفائدة ربوية مقدارها ثمانية في المائة سنويا ، تسدد في ثمان سنوات، وبسبب حروب الشام بين مصر والدولة العثمانية زاد العبء المالي حيث أصدر السلطان أوراقا بلا فائدة وامتنعت خزينة الدولة عن دفع فوائد القرض الأول ، وتوالى بعد ذلك إصدار الأوراق في كل سنة دون رصيد لها .

ولما جلس السلطان عبدالمجيد على السلطنة ، أراد سحب أوراق الفوائد وإصلاح الناحية المالية ، إلا أن حرب القرم وما جرته على الدولة من المصاريف الباهظة منعه عن تتميم مشروعه الإصلاحي ، واضطرته الأحوال الى الاستدانة من

---

(١) أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد الثاني ... ، ص ٤٤-٤٥.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥١ .
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٠٧.

أوربا للقيام بأعباء الحرب المذكورة ، ثم استهلكت الحرب كل القرض ، فأصدر أوراق فوائد جديدة ، واستمر الحال أيضا على هذا المنوال ، حتى ولى السلطان عبدالعزيز فؤاد باشا منصب الصدارة كما سبق ، فأقنع السلطان بضرورة إبطال أوراق الفوائد وتسوية جميع الديون ، فأصدر السلطان مرسوما سلطانيا بتاريخ ٢٠ من رجب سنة ١٢٧٨هـ الموافق ٢١ من يناير سنة ١٨٦٢م لفؤاد باشا باصلاح المالية ، وابطال أوراق الفوائد ، وتسوية جميع الديون بكيفية منتظمة ، وعمل ميزانية لايرادات ومصروفات الدولة سنويا [١] . فاقترضت الدولة ثمانية ملايين جنيها انكليزيا ، ثم اقترضت ثمانية ملايين أخرى بواسطة البنك العثماني ، ولكثرة الديون وتراكمها صار دفع الفوائد حملا ثقيلا على عاتق ميزانية الدولة، فأمر السلطان عبدالعزيز بالاقتصاد حتى في أموره الشخصية ، وقد استقرت بعد ذلك أحوال الدولة المالية [٢] ، وأصبحت المعاملة بالنقود في كافة الولايات[٣] .

وبعد أن استقرت الأحوال المالية أو كادت تحركت الفتن السياسية ضد الدولة العثمانية ، فثارت جزيرة كريت ، وكانت ا ليونان من ورائها وتسعى لضمها اليها ،ولكن امكانيات الدول البحرية آنذاك لم تسمح لهم في هذه المرة بتأييد مطالب اليونان بل كلهاكانت تعارض سلخ هذه الجزيرة عن أملاك الدولة العثمانية، ولذلك منعت الدول مملكة اليونان من مساعدة جزيرة كريت الثائرة [٤] في الوقت الذي أرسلت فيه الدولة العثمانية جيشا لقمع ذلك التمرد .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٠٧.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥١.
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٣.

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٠٧.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٤٢.

وفي هذه الفترة استقال رشدي باشا من منصب الصدارة [1] ، فأعيد عالي باشا، كما أعيد فؤاد باشا الصدر الأسبق ناظرا للخارجية ، وعين محمد رشدي قائدا للجيش ، وعين في ذلك الوقت عمر باشا بطل القرم قائدا عاما للجيوش المقاتلة فحارب كل المتمردين .

ولكن الدول لم يرضها ذلك العمل ، فتدخلت وطلبت ارسال لجنة دولية الى الجزيرة لتسوية أزمة القرم ، فرفض السلطان العثماني هذا الطلب واقترح اقتراحات محددة [2] ، وأرسل الصدر الأعظم عالي باشا إلى الجزيرة حيث استطاع تسكين كبار الثوار في الجزيرة بمنحهم الرتب والنياشين وعين عوني باشا واليا للجزيرة ، وعاد الى اسطنبول بعد أن اضطربت المخابرات السياسية بشأن تحركات مملكة اليونان لمساعدة الثائرين ورغبتها في ضم الجزيرة بأي طريقة ، ولو أدت الحال الى الحرب ، ولكن الدول لم تساعدها في ذلك ، بل أظهرت لها الجفاء وهددتها لو أثارت نار الحرب [3] .

لهذا انعقد في باريس مؤتمر بهذا الخصوص من قبل الدول التي وقعت على معاهدة باريس في سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كان من نتائجه أن أصدر السلطان قرارا بمنح الجزيرة بعض الامتيازات في عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م منها اعفاء أهلها من دفع الأموال والخدمة العسكرية ، وبذلك انتهت الثورة مؤقتا [4] .

---

(١) عين في الصدارة عقب فؤاد باشا .

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٣-١٦٤.
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٢ .
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧١١.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٤٥.
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧١٢-٧١٣ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٤٧ .
، علي حسون : المصدر السابق ، ص ١٦٤ . ، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧١٣ .

ولكن بعد وفاة عالي باشا وفؤاد باشا ، مارس السلطان عبدالعزيز حكمه الشخصي وعين في منصب الصدارة العظمى شخصيات محافظة من أبرزها محمود نديم .وعلى أثر وفاة عالي باشا في سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م ظهر فريقان سياسيان عثمانيان يتصارعان حول مسألة الإصلاح ونظام الحكومة ، فهناك من كانوا يسعون الى متابعة سياسة عالي وفؤاد كما وجد المحافظون ، وقد مس الخلاف بين هذين الفريقين كثيراً من المسائل ربما أهمها مايلي :

الفريق الأول : كان يسعى جاهدا الى انهاء حكم السلطان المطلق ، ومنح حقوق مدنية وسياسية لغير المسلمين تجعلهم مساوين للأغلبية المسلمة ، على اعتبار أن ذلك ضرورة أساسية لقيام حكومة منظمة ، والحفاظ على تمام الدولة متأثرين بالعلمانية الأوربية .

الفريق الثاني : اتجه الى الامتناع عن القيام بأي إجراء من شأنه إضعاف سلطة العاهل وسيطرة العناصر الاسلامية ، وهما الشرطان الأساسيان للحفاظ على تماسك الدولة العثمانية [١] .

وحين تولى محمود نديم الصدارة العظمى وفر الفرصة لفريق المحافظين لكي يسطر على شئون الدولة ، ويعزز نظام الحكم المطلق والحكومة المركزية ، وانتهز السلطان عبدالعزيز الفرصة ليعيد الحكم المطلق ويؤكد خلافته كوسيلة لمساندة اتجاهاته لكسب رأي العالم الاسلامي في الدولة . واشتد سخط الفريق الأول على ممارسات السلطان السلطة المطلقة فازدياد السخط أدى الى انتشار أفكار الدستور والبرلمان في الأفكار التي روج لها مدحت باشا وغيره وجرت مناقشتها على صفحات الجرائد [٢] .

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

في تلك اللحظة كان مدحت باشا والياً لبغداد ، حيث كان الصدر الأعظم محمود نديم باشا ، وكان كثير العزل والتبديل ، فنقل مدحت باشا من ولاية بغداد الى أدرنه لسوء التفاهم حول التعارض في سياستهما ، فمر بالسلطان في طريقه الى أدرنه وقابله ، وأبدى له في هذه المقابلة سوء الخلل ، وسوء الادارة ، وعاقبة الأمور اذا تركت على هذه الصفة ، فاستحسن السلطان عبدالعزيز قول مدحت ، وأخذ به ، وعزل السلطان محمود نديم ، وعين مدحت باشا صدرا أعظم بدلا عنه (١) .

لذلك استغل مدحت باشا ، صدارة الدولة ، وحاول اقناع السلطان عبدالعزيز بوضع دستور مشتق من النظم الأوربية ، فكتب له باصلاح الوضع ، فماكان من السلطان عبدالعزيز الا أن غضب غضبا شديدا ، وأصدر أوامره بعزل مدحت باشا من الصدارة فورا وابعاده ، فتم تعيينه واليا لسلانيك (٢) .

وبعد أن عزل مدحت باشا كثر تبديل الصدور حتى بلغوانحو العشرة في خلال سنة ونصف ، ثم أعيد الى الصدارة محمود نديم (٣) .

أما السلطان عبدالعزيز فقد قام باصلاحاته الداخلية أهمها : القانون القاضي بجواز انتقال الميرية (أي الخراجية) الموقوفة لورثة صاحبها كما وضع مجلة الأحكام الشرعية في سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٩م للعمل بها في المحاكم النظامية التي أنشئت (٤) ، وهي محاولة لجمع قانون الملكية وقانون الضمانات وفق المذهب الحنفي ، وقام بهذا مجلس برئاسة أحمد جودت باشا (٥) .

---

(١) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ... (مجلة الهلال ، ج ٣ ، ص ١٧ ، ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨م) ص ١٣١-١٣٢.

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٤-١٦٥ .

(٣) روحي الخالدي : المصدر السابق ، ص ١٣٢.

(٤) على حسون : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٤٦.

(٥) دائرة المعارف الاسلامية : مادة تنظيمات ، ج ٥ ، ص ٥٠٣.

وبعد مدة قصيرة أعيد مدحت باشا الى اسطنبول ، وعين وزير دولة في حكومة السلطان ، فاتفق مع حسين عوني باشا قائد الجيش (سر عسكر) الدولة على خلع السلطان عبدالعزيز [١] .

وكان السلطان عبدالعزيز يدرك سوء نوايا الدول الأوربية المتحالفة مع الدولة في حرب القرم وما بعدها وانها لم تفعل ذلك الا لاضعافها بالتدخل في شئونها الداخلية ، ومساعدة مناهضة الطوائف الخاضعة للدولة على بث روح الفتن والفساد تحت اسم نشر الحرية والعلوم ، فرآى السلطان أن الأولى به هو الابتعاد عن الدول الأوربية الغربية والتحالف والتقرب من الروس وأيده في ذلك الصدر الأعظم محمود نديم ، وقيل كثرت اجتماعات السلطان العثماني مع سفير روسيا في اسطنبول الجنرال آغناتيف ، وقد تواتر هذا القول وشاع ولكن لم يثبت في أوراق رسمية بين الطرفين أية معاهدة هجومية أو دفاعية يكون من أهم بنودها ضم جميع بلاد المشرق التي تتبع الولايات الاسلامية أو التي يغلب فيها العنصر الإسلامي للدولة العلية الإسلامية ، واختصاص جميع الأقاليم المسيحية أو التي يسود فيها العنصر المسيحي لروسيا [٢] .

ولما شاع هذا الخبر ، لجأت الدولة الأوربية خوفا على مصالحها في الشرق وخاصة انجلترا للدسيسة وتأليب الموقف ضد السلطان عن طريق عمالهم وسفرائهم في اسطنبول السريين وغير السريين متهمين السلطان بالتبذير والاسراف وعدم الأهلية لإدارة مهام الملك . حتى أقنعوا بوسائلهم المتعددة الوزراء بوجوب عزله وان إقالته من الأعمال الواجبة [٣] .

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٥.

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٧٥.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٧٥-٥٧٦.
، على حسون : المصدر السابق ، ص ١٦٥.

ويبدو أن هذه الدول افتعلت هذه الاشاعة التي لم تدون بمعاهدات مكتوبة، لأن السلطان حينما حاول الرجوع والعمل على استقرار الدولة ، أبت عليه أوربا واتخذت من الأزمة المالية عاملا جديدا ، أو سلاحا جديدا للتدخل في شئون الدولة العثمانية (١) . لا سيما وأنها قامت بتقوية الأسطول والجيش ، وكان هذا هو هم السلطان وشغله الشاغل بحيث أصبح أسطوله يأتي بالمرتبة بعد الأسطول الانكليزي، ولم يكن ينافس هذا الجيش سوى الجيش الروسي ، وهذا ما أقلق بريطانيا ، لذلك رأت بريطانيا انه لابد من اضعاف هذا الجيش ، إما بدفعه إلى الحرب مع روسيا لاستنفاذ قوته ، أو تدبير انقلاب للاطاحة بالسلطان ، ولم يكن دفعه الى الحرب ممكنا مع روسيا ، فقد اتبع السلطان سياسة حيادية وأتى الى الصدارة بمحمود نديم الذي أشيع عنه انه صديق روسيا (٢) .

وعلى كل حال لما تسلم زمام الدولة حزب مدحت باشا وشغل المناصب الهامة في الدولة (٣) بدأ رجال هذا الحزب في عقد الاجتماعات لعزل السلطان عبدالعزيز وكانت أركان المؤامرة هم الصدر الأعظم محمد رشدي ، وحسين عوني ناظر الحربية وأحمد باشا قيصرلى ناظر البحرية ، ومدحت باشا ، وشيخ الاسلام حسن خير ا لله أفندي (٤) . وكان حسين عوني هو الرأس ا لمدبر وقائد هذه الحركة قد اشترك في معارك عديدة ،وأبدى بطولات فيها ، وترقى في المناصب حتى وصل

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة (الدارة ، ع ٢ س ١١. ١٤٠٦هـ) ص ٨٢ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ... ، ص ٧٠.

(٣) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ، ج ٣ ، س ١٧ ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ص ١٣٣.

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٢.
، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٧٦

الى وزير الحربية " سرعسكر " ولكنه تعرض لغضب السلطان بمكيدة من الصدر الأعظم نديم باشا في سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م حيث عزل من منصبه ، وجرد من أوسمته وألقابه ، ونفي إلى بلدة " اسبارطه " [١] ، وتم ابلاغه أمر ذلك النفي في منتصف الليل ، ولكنه غادر العاصمة في الصباح الباكر الى منفاه ، وبقي هناك حوالى أحد عشر شهرا ، ثم عفى السلطان عنه وجعله على ولاية آيدين ، ثم وزيرا للبحرية [٢] . ولكن الباشا لم يعف عن السلطان ، وقد قرر الانتقام منه . وفي سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م طلب اذنا من السلطان للذهاب الى الخارج للعلاج فأذن له السلطان . وفي باريس عقد حسين عوني بعض الاجتماعات السرية ، فاجتمع مع رئيس جمهورية فرنسا المارشال (مكمهون) على انفراد ، وهذه الزيارة كانت خارج البروتوكول ، وكانت زيارة سرية تحت ستار العلاج . دون أن يعلم بها سفير الدولة العثمانية في باريس .

وكان حسين عوني يحاول جاهداً أن يضمن اعتراف فرنسا بالحكومة الجديدة بعد الانقلاب ، لذلك فقد بدأ حسين عوني يلوح بمسألة " الكوبونات " على الدوام لمعرفة مدى اهتمام فرنسا حول تأمين دفع أقساط الفائدة على قروضها للدولة العثمانية .

وبينما كان حسين عوني باشا يتصل في باريس سرا بالحكومة الفرنسية كان مدحت باشا يتصل سرا بالسفير الانجليزي السير (هنري اليوت)

---

(١) يعني بروسة .
مذكرات مدحت باشا : تعريف يوسف كمال بك حتاتة (الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة هندية بمصر ، ١٣٣١هـ/١٩١٢م) ص ١٣ .

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد : ترجمة محمد حرب عبدالحميد ، الطبعة الأولى ، الكويت ، دار الوثائق ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ٢٦ .
، مذكرات مدحت باشا : المصدر السابق ، ص ١٣ .

للتباحـــث معه حول خلع السلطان عبدالعزيز [١] .

وقد اعترف السفير الانجليزي " هنري اليوت " في المقالة التي كتبها في مجلة " ا لقرن التاسع عشر Nineteenth century " بـدوره في التحريـض علـى تنحيـة السلطان عبدالعزيز اذ قال " لكوني قد قضيت في تركيا سنوات عديدة " [٢] فـانني كنت أعلم أن الدولة العثمانية في حاجة الى اصلاحات كثيرة ، وكنت أعلم أنه مالم يتم تشكيل مجلس يراقب السـلطان ووزرائـه فانـه لافـائدة مـن أي اصـلاح ، وقـد فرحت كثيرا عندما بلغتني المحاولات التي يقوم بها مدحت باشا ، وقـد بذلـت مـافي وسعي لحثه وتشجيعه عل ذلك "[٣] .

وعلى أية حال ، فبعـد هـذه الاتصـالات وجـد رجـال حـزب اللامركزيـة الصدر الأعظم محمـد رشـدي باشـا ، وحسـين عونـي نـاظر الحربيـة ، وأحمـد باشـا قيصرلي ناظر البحرية ، ومدحت باشا، وشيخ الاسـلام حسـن خـير ا لله أفنـدي [٤] التشجيع من قبل فرنسا وانجلترا على تنفيذ مؤامرة خلع السلطان عبدالعزيز ، وقـد سبق أن لوحوا بها من قبل واتهموه بالاسراف والتبذير .

ولكن قبل الشروع في تنفيذ خلع السلطان ، أصـدر شـيخ الاسـلام فتـوى بوجوب خلعه [٥] ، ووضعها في جيبه منتظرا ساعة الصفـر . وكـان ولي العهـــد الأمير مراد الخامس على علم بهذا الانقلاب ، فكان يتهيأ للجلوس على العرش[٦].

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٦٨-٦٩.

(٢) كان سير (هنري اليوت) قد عين سفيرا لبلاده في اسطنبول في سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م أي كان له تسع سنوات من سفارته عندما تم عزل السلطان عبدالعزيز .
- أورخان محمد على : المرجع السابق ، ص ٧١.

(٣) أورخان محمد على : المرجع السابق ، ص ٧١.

(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٧٦.

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق .

(٦) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٦٣-٦٤.

؛؛لانتمائه الى هذا الحزب حزب اللامركزية ولميله الى اصدار الدستور .

ثم أناطوا الى حسين عوني باشا ناظر البحرية بأمر خلع السلطان عبدالعزيز، وشيخ الاسلام وباقي الوزراء بمبايعة السلطان مراد .

ففي يوم الاثنين ١٢٩٣/٥/٦هـ/ الموافق ١٨٧٦/٥/٣٠م أخذ ناظر البحرية في تجهيز مراكبه لحصار السرايا السلطانية بحرا ، فاستغرب السلطان حصول هذه المناورات البحرية بالبحر تحت شبابيك قصره ، من دون علمه ، فأرسل يستطلع الخبر ، فأجيب على سؤاله بأن مايحدث هو من دواعي الحال ومقتضياته أوجبت ذلك (١) ، ثم أخبر أحمد باشا قيصر لي الصدر الأعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان فعزموا على تنفيذ الأوامر اللازمة لخلع السلطان في مساء ذلك اليوم خوفاً من أن يكون قد شعر بشيء من قصدهم (٢) . وبماأن الأحوال تحتم وجوب كتم المسألة عن العامة لذلك اتفق رشدي باشا ومدحت باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام على احضار ولي العهد الى الباب الهمايوني عملا بالأصول القديمة لإجلاسه على العرش ، وقبل الموعد بيومين أرسل السلطان عبدالعزيز رسولا الى عوني باشا للحضور الى سرايا (القصر) ، فتنصل ببعض الأعذار ، وظن أن السلطان قد وقف على جلية الأمر (٣) ، ومهما يكن من المواقف التي دائما ماتصاحب هذه العمليات فقد كلفوا رديف باشا بحصار السرايا برًا ، بينما حاصرها أحمد باشا قيصرلي بحرا،واجتمع بعدذلك المتآمرون بعدغروب الشمس في ذلك اليوم في ديوان قيادة الجيش وتوجه رديف باشا مع آلاف من

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٧٦-٥٧٧ .

(٢) مذكرات مدحت باشا : تعريب كمال يوسف كمال بك حتاتة ، ص ١٣ .
، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٧٧ .

(٣) مذكرات مدحت باشا : المصدر السابق ، ص ١٣-١٤ .

الجند ، وأمر سليمان باشا رئيس المدرسة بحراسة باب السراي مع مائة من تلامذة المدرسة الحربية على ظهور خيولهم مدججين بالسلاح [١] . ولما تم لهم حصار سرايا السلطان برا وبحرا ، توجه حسين باشا في عربة الى مقر ولي العهد مراد ، وأركبه معه وعادا معا الى قيادة الجيش حيث كان بانتظارهما شيخ الاسلام ، وجميع أعيان الدولة من عسكريين ومدنيين ، وطوقت السرايا فرقة من الجنود لمنع من فيها من الخروج ، ثم تمت بيعة السلطان مراد ا لخامس بالسلطنة من الحاضرين [٢] .

ودخل أيضا حسين عوني الى مقر السلطان عبدالعزيز ، وأخذه معه الى قيادة الجيش ، وأبلغه هناك أن الأمة عزلته ، وسلمه صورة فتوى الخلع فلم يصدق هذا الخبر ، الا حينما رآى القوة تحاصره ، وتحيط به من كل جانب فنزل مستسلما، وأحاط به الجند [٣] ، ونقل مع عائلته الى سراي طوب قبو ، ومنه الى بيت في " أورطه كوي " في اسطنبول [٤] . وأطلقت المدافع من البر والبحر ايذانا بخلع السلطان عبدالعزيز وتتويج السلطان مراد الخامس [٥] .

يقول السلطان عبدالحميد في مذكراته : " تولدت فكرة خلع السلطان عبدالعزيز أول ماتولدت عند حسين عوني باشا ، وسبب هذا أن السلطان نفاه من قبل الى أسبرطه . وكان المرحوم عمي وقورا ، وكان كريم الظن بكل انسان فقد عفا عن رجل حقود مثل عوني ، وبعد فترة قليلة عينه سرعسكر . وهكذا ذهب

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٥٧٧.
. علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٢٦٥.

(٢) مذكرات مدحت باشا : تعريب يوسف كمال بك حتاتة ، ص ١٤ .
. محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٥٧٦-٥٧٧.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ ، ص ٧٢٢.
. على حسون : المرجع السابق ، ص ١٦٦.

(٤) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٧٢ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٨٠ .، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧٢٢.

عمي ضحية خطته هذا باشراك مدحت باشا في عملية الخلع ، فانتقل بذلك من مصاف رجال الحكم الى عداد الثوار ." (١) .

وهكذا تم الخلع دون مقاومة من الدول الأوربية ودونما أي احتجاج على تلك الثورة الداخلية ، بل كانت مشتركة فيها أصابع الدول ، وخاصة انجلترا وفرنسا كما سبق ، بل كان لدى جميع القناصل علم بهذه المؤامرة ، وكان باتفاقهم ان لم يكن قد اشترك بعضهم فعلا في خلع السلطان (٢) . ويؤكد ذلك أن مدحت باشا قد بعث بمذكرة مفصلة الى دول أوربا قبل تنفيذ المؤامرة عدا روسيا، وأعلمهم فيها بأن خلع السلطان يحتمه الشرع الاسلامي الذي يقضي بأن يكون رئيس الدولة مالكا لقواه العقلية . وهكذا باتفاق الدول الأجنبية الكبرى أطاح المتآمرون بالسلطان لرفضه الانصياع لرغباتهم في سن دستور للدولة الإسلامية مستمد من النظم والأفكار الأوربية (٣) بعيدا عن الشريعة الاسلامية .

يقول مدحت باشا في مذكراته : " لم نقصد بخلع السلطان والدخول في المآزق الحرجة سوى تخليص الدولة من أزمتها واتخاذ مسلك ثابت للإدارة ، والدواء الوحيد لهذا الداء هو اتباع قواعد الشورى بتأسيس حكومة دستورية يعيش فيها أفراد الأمة الأحرار متساوين وكانت هذه المسألة قد ارتسمت في فكري حين كنت والياً في (الطونه) فكتبت قانونا موافقا لروح العصر ، وحان وقت العمل به ، ولكن إعلانه كان يقضي موافقة أقراني على محتوياته ، فتباحثنا في مواده في الليالي التي قضيناها في السراي ، فقال حسين عوني باشا : ان القانون الذي سنعمل به سيخالف هذاالقانون في بعض مواده الأساسية ، فيجب أن نهمل ذكره في الخط الهمايوني الذي سننشره ، فاكتفينا بتنزيل مرتبات السراي

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٦ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٨٠ .

(٣) على حسون : المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

السلطانية الى ٦٠ ألف ليرا وألحقنا معدن فحم (اركلي) وبقية المعادن والاراضي المسماه بالشفالك الهمايونية بنظارة المالية وباجراء مقدمات الاصلاح ، ولكن الأساس الذي يجب النظر اليه هو اختلال ادارة الحكومة واذا استمر الحال على هذا المنوال فلا يتم البرء من الداء الا بالشورى التي ينتظرها الناس بفروغ صبر ، وقد جلس السلطان على تخت أجداده وهو عازم على تأسيس حكومة شورية[١].

ياللعجب .. هل الشورى بادخال القوانين والدساتير الوضعية ..؟ أم بتطبيق النظم الاسلامية في المعاملات والعبادات . نسي هؤلاء أن أسلافهم وأعجبوا بتطبيق الدستور المستورد ، ان الدولة العثمانية في عصرها الأول بتطبيقها الشريعة السمحاء وصلت الى قلب أوربا وأرهبت ملوكها ، وطبقت النظم الاسلامية في معاملة أهل الذمة الذين عاشوا في الدولة العثمانية والذين شهدوا لهم بحفظ حقوقهم وحرية معتقداتهم ، وقد هرب كثيرون من النصارى من بلدانهم للعيش في الدولة العثمانية والتسامح الإسلامي المفقود في بلدانهم .

ويواصل مدحت باشا حديثه في مذكراته فيقول :

" فزاد انتشار فكرة الشورى بين الأحرار ، وقررنا تشكيل مجلس بعد الانتهاء من حفلات الجلوس ، والعمل بقراراته بعد البت فيما يجب اجراؤه لإعلان الشورى ... وتوجه الموظفون الى مناصبهم ، واشتغل كل بعمله ، فتغلب الكبرياء على عبدالعزيز وانتحر في يوم الأحد وهو اليوم السادس لخلعه وذلك أنه طلب من أحد خازنداراته مقراظا وقطع به شرياني ذراعيه فمات ، وانتشر خبر انتحاره بين الناس ، ولكنه لم يصلني الخبر الا بعد زمن ، لأني كنت أقيم في مصيفي وهو بعيد عن الآستانة " [٢] .

---

(١) مذكرات مدحت باشا : تعريب يوسف كمال بك حتاتة ، ص ١٦ .

(٢) مذكرات مدحت باشا : المصدر السابق ، ص ١٦ .

ولكن هيهات فقد اختلفت الأقوال في الوفاة وأسبابـــها ، فمن قائـــل انه انتحر لعدم انتظام قواه العقلية بسبب خلعه ، ومن قائل : ان المتـآمرين قضواعليـه خوفا من رجوعه الى الحكم والتنكيل بهم[١] .

هـذا اكتنـف وفاتـه شـيئا مـن الغمـوض إلا أن الأدلـة والقرائـن تثبـت أن الانقلابيين كان لهم دور كبير في ذلك، فعندما خلعوا السلطان عبدالعزيز أبرقوا الى جميع وحدات الجيش في أرجاء الدولة يزفون اليهم الأمر ، ولما لم يكن لدى وحدات الجيش خبر هذا الانقلاب فقد انصاعت للأوامر وأرسلت جميعهـا برقيـات التـأييد، ولكن رغم ورود هذه البرقيات إلا أن بال الانقلابيين لم يكن مرتاحا فقد تأخر قائد جيش " روملي " أحمد مختار باشا في إرسال برقية التأييد ، وكان مـن أنصـار ومحـبي السـلطان ، وموقعـه قريـب مـن اسـطنبول ، وجيشـه في نفـس الوقـت مـن أقـوى الجيوش، وليس لدى المتآمرين قوة تستطيع ردعه لو هجم علـى العاصمـة ، لذلـك دام صمته ثلاثة أيام ، فأقض هذاالصمت مضجع حسين عوني باشا وأعوانه ، وقـد خشوا أن تتكـرر وقفـة العلمـدار مصطفـى باشـا [٢] ، لذلـك تقرر قتـل السـلطان وإعلان الخبر بأن السلطان انتحر لكي يسدوا الطريق على أي أمل بانقاذ السـلطان وإعادته الى العرش ، اضافة الى حقد عوني باشا على السطان عبدالعزيز[٣] .

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٦ .

(٢) عندما تآمر الجيـش الانكشـاري بخلـع السـلطان سـليم الثـالث ونجحـوا في تنحيتـه عـن العـرش عـام ١٨٠٨هـ كان العلمدار مصطفى باشا قائدا في منطقة الدانوب ، وعندمـا سمـع بخلـع السـلطان سـار بجيشه الى اسطنبول لانقاذ السلطان ، ولكن في أثناء دخوله القصر قام الانكشاريون بقتـل السـلطان وقد قض العلمدار مصطفى باشا على أعداء السلطان سليم الثالث فعـزل السـلطان مصطفـى الرابـع وأجلس محمود الثاني على العرش .
– أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٧٣ حاشية رقم (٧٦) .

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٢-٧٣.

ومما يوجب الشك في دعوى انتحاره ماكتبه عبدالعزيز للسلطان مراد قبل وفاته بيوم واحد طالبا منه نقله من (طوب قبو)وهذا مايثبت أن قواه العقلية سليمة حيث قال : " بعد اتكالي على الله ، وجهت اتكالي عليك ، فأهنئك بجلوسك على تخت السلطنة، وأبين لك حالي من الأسف على أني لم أقدر على أن أخدم الأمة حسب مرادها ، فآمل أنك أنت تبلغ هذا الأرب وأنك لاتنسى أني تشبثت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة ، وحفظ شرفها وأوصيك أن تتذكر أن من صيرني الى هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم أنا بيدي ، وحيث كان من دأبي دائما الرفق بالمظلومين وشملتهم بالمعروف الذي تقتضيه الانسانية أرغب اليك أن تنقذني من هذا المكان المعنى الضيق الذي صرت اليه ، وتعين لي محلا أكثر ملاءمة ، وأهنئك بأن الملك انتقل الى ذرية أخي عبدالمجيد "[1] .

وهذا دحض قوي لادعاءات خصومه الذين كانوا وراء مقتله[2] . ولكن زيادة في ايهام الناس بأنه قتل نفسه قام الوزراء باستدعاء أطباء القناصل في اسطنبول أيضا لتأكيد انتحاره معتقدين أن الأمة لاتصدق قولهم فعمدوا الى تقوية حجتهم بالكشف الطبي المصدق عليه من أطباء السفارات بما يعتبر اقرارا وتأكيدا لروايتهم[3] .

ان رواية مدحت باشا التي رواها في مذكراته عن انتحار السلطان عبدالعزيز وروجها حزب الأحرار ، كما سبق تدعو الىالريبة ، فكيف لمدحت باشا ان لايعرف عن موت السلطان الا بعد ثلاثة أيام والسلطان مات بعد خلعه

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٨٠-٥٨١ .
، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٦ .

(٢) على حسون : المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٨١ .

بستة أيام فقط ،كما يقول ، وكيف يذهب الى مصيفه البعيد عن اسطنبول ؟ ومتى ذهب الى هذا المصيف ؟ ولماذا ؟ وهو أهم أعضاء رجال الانقلاب ، ومتى غادر اسطنبول ؟ وهل يعقل أنه غادرها بتلك السرعة ، اذا علمنا أنه الرجل الثاني بعد حسين عوني والاثنان غايتهما واحدة خاصة وأنهما تعرضا لطرد السلطان في يوم ما ، والأهم من ذلك أن الدولة لازالت في حاجة الى خدماته ، وكان يخطط مع حسين عوني وغيره لوضع الدستور ، اذا علمنا كل هذا أدركنا التناقضات التي أوردها مدحت باشا وأنها تضيف دليلاً آخر على ماسبق قوله وهو أنه مات مقتولا.

والجدير بالذكر أن حادثة الانقلاب التي دبرت للسلطان عبدالعزيز مهمة جدا ليس لأنها أدت الىتغيير سلطان بل لكون ذلك أول انقلاب دبر بمساعدة الدول الأجنبية، بحيث أصبحت الدول لم تعد تكتفي بالتدخل بجواسيسها وأعوانها في تدبير الفتن الداخلية في أنحاء الدولة ، بل زادت في هذه المرة جرأتها وشملت محاولة تغيير السلاطين ، والذي يشد الانتباه أكثر ان هذه المحاولة نجحت بكل البساطة [1] وبهذه الصورة وبمساعدة رجال الدولة أو حزب الأحرار الذين كانوا يتطلعون الى مثل هذا الحدث في الوصول الى أهدافهم لفرض الدستور الذي كانوا يحلمون به منذ أواخر عهد السلطان عبدالمجيد . وكان أشد السفراء سرورا هو السير هنري اليوت سفير انكلترا ، وأكثرهم غما الجنرال اغناتيف سفير روسيا الذي كان يعارض سياسة الانجليز ، وكما يقال كان صديقا للصدر محمود نديم الذي كان يعارض سياسة حزب الأحرار [2] .

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد .. ص ٦٣-٦٤.

(٢) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني .. (مجلة الهلال ج ٣ ، س ١٧ ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ص ١٣٣ .

وقد ظهر ذلك بوضوح عندما تمت بيعة السلطان الجديد مراد الخامس بحضور الملايين من الشعب ووردت التلغرافات الى أوربا والى الولايات لإعلامها بتوليته ، ونادى المنادون في اسطنبول معلنين جلوسه ، فرفعت سفن الدول الأجنبية الرايات وانارت المصابيح ، ولكن السفن الروسية لم ترفع راياتها الا بعد يومين .

وقد استاء الروس من عزل نديم باشا ، وزادهم خلع السلطان عبدالعزيز غما، فأجاب امبراطور روسيا على تلغراف تعيين السلطان مراد بتلغراف أرسل الى سفارة الروس في اسطنبول وآخر الى ناظر خارجية الدول العثمانيةأظهر فيهما تأسفه من جرأة قائد الجيش حسين عوني على خلع السلطان بقوة السلاح [1] .

وهكذا ذهب السلطان عبدالعزيز ضحية عدم تطبيق الدستور أو المشروطية التي فرضت في عهد السلطان عبدالحميد كما سيأتي في موضعه . وقد كان هذا درسا بليغا للسلطان عبدالحميد الذي تولى السلطنة بعد مراد الخامس ، فعندما تولى السلطنة أنشأ جهازا قويا للاستخبارات استطاع أن يصارع الاستخبارات الأجنبية بكفاءة كبيرة فحفظ بلاده عدة سنوات من التدخل الأجنبي [2] .

مما سبق رأينا التدخل السافر من الدول الأجنبية ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية بتدبير خلع السلطان عبدالعزيز عن السلطنة وتعيين أخيه مراد الخامس الموافق لهواهم بدلا عنه .

ومما يسترعي الانتباه ويشد الباحث هو سهولة تنفيذ هذاالمخطط دون رقابة من الدولة نفسها وبمساعدة رجال الدولة وعلى رأسهم أخيه ولي العهد مراد

---

(١) مذكرات مدحت باشا : تعريب كمال بك حتاته ، ض ١٤ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ... ، ص ٧٢ .

والذين تأثروا بالأفكار الأوربية ،وحاولوا تطبيقها في الدولة ، وكان رفض السلطان المتكرر لمطالبهم واصداره مجلة الأحكام العدلية جعلهم يصممون على خلعه ، لازاحته عن طريقهم ، ولإدخال الدساتير الوضعية الأوربية ، ونبذ النظم الاسلامية في المعاملات والعبادات ، فنسوا تطبيق أسلافهم لها ، وأعجبوا بتطبيق الدستور المستورد ، والذي قادهم فيما بعد الى العلمانية عن علم أو بدون علم كما سيأتي الحديث عنه.

د – المشروطية الأولى والثانية :

أشرنا فيما سبق الى المؤامرة التي أنهت حكم السلطان عبدالعزيز ، وولت السلطان مراد الخامس عرش الدولة العثمانية في سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م ، ولكنه لم يدم في الحكم سوى ثلاثة شهور ، لذلك يجب أن نحلل أولا شخصية هذا السلطان قبل وبعد توليه السلطة .

لقد ظهرت ملامح شخصية مراد الخامس وميوله للغرب المسيحي منذ الزيارة التي قام بها عمه السلطان عبدالعزيز عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٧ م الى انجلترا حيث كان يرافقه في تلك الرحلة . ففي هذه الزيارة نرى اهتماما خاصا يوجه لولي العهد مراد ،وبخاصة من قبل ولي عهد انجلترا آنذاك الأمير (ادوارد) اذ نرى أن صداقة حميمة تنشأ بسرعة ، وسبب ذلك أن ولي العهد مرادالخامس كان ميالا الى الغرب وحضارته ، وقد قيل انه أصبح ماسونيا في تلك الزيارة بالحاح من ولي عهد انكلترا الماسوني الذي كان مرتبطابالمحفل الاسكتلندي ،ولكن الحقيقة أن مرادا كان ماسونيا قبل مجيئه الى انكلترا بوقت طويل ، كما كان متعلقا بأفكار الثورة الفرنسية[١] .

ولما كان المتآمرون على السلطان عبدالعزيز يعرفون أفكاره وميوله فانهم رأوا فيه خير وسيلة لتحقيق أهدافهم [٢] .

وهؤلاء هم جماعة تركيا الفتاة ، هذه الجماعة رأت أن انقاذ الدولة لايكون الا في نظام برلماني بالمفهوم الأوربي ، فبدأت في أواخر عهد ا لسلطان عبدالمجيد حوالي سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م في تشكيل أفرادها ، والعمل بسرية وفي الخفاء[٣].

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٥ .
. أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني .... ص ٧٠،٧١،٧٧ .

(٢) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٧.

(٣) مذكرات السلطان عبدالحميد : المصدر السابق ، ص ٤ .

وقد وجد أعضاء هذه الجماعة في مراد أملهم في تحقيق أهدافهم ودفع عجلة تطـور في الدولة على درب أوربا ، ذلك لأن ثقافته وكل انتماءاته فكـرا وسـلوكا كـانت أوربية[١] ، فاتجهت تحركاتهم الى افهام مراد بأن هذه الأحوال لايمكـن أن تعـالج الا باصدار قانون أساسي يفهم السلطان بأن سلطته ليست مطلقة ، بل مشروطة بقيود وحدود يعينها ويقررها هذا القانون أو الدستور . وقد سمى الأتراك العثمانيون هـذا الدستور باسـم (القـانون الأساسـي) ، كمـا اصطلحـوا علـى تسـمية (العهـد الدستوري) بـ (عهد المشروطية) [٢] .

وهذا بادرت هذه الجماعة في استمالة مـراد وضمـه الى صفوفهـم فـأصبح يعقد معهم الاجتماعات السرية على تنفيذ هذه المشروطية ، فكان على صلـة قويـة بأعضاء جماعة تركياالفتاة [٣] بل اعتبر عضوا رئيسيا بها .

وقيل ان الأمير عبدالحميـد الثـاني كـان علـى علـم بهـذه الاجتماعـات اذ حاول مدحت باشا وزملاؤه جره الى صفوفهم ،ولكنهم لم ينجحوا في محاولاتهم[٤]. الا أنني أشك في هــذه ا لروايـة ، وبـدوري أتسـاءل : هـل مـن المعقـول أن يكـون السلطان عبدالحميد الثاني يعرف شيئا عن هذه المؤامرة التي انتهت بالاطاحـة بعمـه عن الحكم ويلتزم الصمت ، ويترك لهؤلاء الجماعة العمل بحرية تامة حتى تمكنوا من خلع السلطان عبدالعزيـز دون حـراك ، انـني أشـك في مثـل هذاالقـول حيـث أنـه لايمكن أن يعلم عبدالحميد الثاني بهذه المؤامرة ولايبلغ عمه السلطان ليتخـــــذ

---

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٥.
، أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ... ص ٧٧ .
(٢) ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٨٤ .
(٣) مذكرات السلطان عبدالحميد : المصدر السابق ، ص ٥ .
، أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٧.
(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

الاجراءات الكفيلة بالتخلص من هذا الحزب الفاسد ، ولكن هذا الاحتمال ضعيف جدا.

لقد كان مراد ميالا للإ صلاح حسب النهج الأوربي ،ومحبا للمساواة بين أفراد رعيته ، مقتصدا في مصرفة غير مبال للسرف [١] ، صاحب الخرافات ومفاسد لاتؤهله أن يصبح سلطانا [٢] .

الا أنه في الوقت نفسه كان على اتصال بالانقلابيين قبل توليه للحكم ، وأنه كان محور اهتماماتهم ، والشخص الذي انعقدت عليه آمالهم في تنفيذ الدستور ، وذلك لأنه الشخص الذي انبهر بحضارة الغرب والثورة الفرنسية ، فأراد محاذاتهم وكان على علم بتاريخ الانقلاب ، ولكن المكلفين بتنفيذ المهمة اضطروا الى تقديم موعد الانقلاب على السلطان [٣] . تم ذلك عندما أرسل السلطان عبدالعزيز قبل تنفيذ المهمة بيومين رسولا الى عوني باشا وزير الحربية – الذي هو الشخصية البارزة في تنفيذ الانقلاب لصالح جمعية (تركياالفتاة) يدعوه الى السراي فتنصل ببعض الأعذار ، وظن أن السلطان قد وقف على حقيقة الأمر ، فأرسل الرسل ليدعوا أركان المؤامرة ، فاجتمعوا سرا، واتفقوا على سرعة تنفيذ المهمة لخلع السلطان [٤] ، دون أن يتم ابلاغ مراد بما استجد من أحداث [٥] .

لهذا ذهب حسين عوني باشا ليخبره بنجاح هذا الانقلا ب ، وكان الوقت ليلا، فأيقظ السلطان من نومه ، وطلب منه أن يرتدي ملابسه على عجل ، فذعر

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٨٤.
، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٧.

(٢) هيئة التحرير : عبدالحميد الثاني في أول شبابه قبل توليته الملك ، (القاهرة ، مجلة الهلال ، ج ٩ ، س ١٧ ، ١٩٠٩م) ص ٥١٨ .

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ... ، ص ٧٨ .

(٤) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ، ص ١٣-١٤ .

(٥) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

مراد من هذا ، وخاف أن يكون السلطان قد أنفذ حسين باشا للايقاع به والقبض عليه . فسأله ماذا تريد ؟ قال : اننا طوقنا القصر ، ولايمكن لعمك الفرار وسيعلم بعد قليل عن خلعه ، وان مراد الخامس هو وريثه الشرعي ، فلم يطمئن مراد لهذا الجواب ، فدفع اليه حسين عوني سلاحه وقال : " اذا كنت تخشى خيانة مني فخذ هذا وطير به رأسي " فاقتنع مراد الخامس قليلاً ، واستعد للخروج معه حيث استقلا قاربا بانتظارهما ، فتوجها بالقارب نحو مدرعة بناء على أمر حسين عوني ليبلغه أمرا كان نسيه .

فهناك تعاظم قلق مراد وظن أن هذه المدرعة هي سجنه الأبدي ، ولكن حسين عوني عاد وأمر البحار بالتوجه نحو مقر الجيش حينئذ اطمأن قلبه [١] .

ولكنه عندما رأى تألب الجموع للبيعة كما سبق أن أشرنا اليه سابقا حصل له وهم اضطره الى اصدار اراده سنية قاضية بابقاء النظار ، حسين عوني ، ومدحت باشا ، وخير الله افندي ، ورشدي باشا ، ثلاث ليال في السراي امتثالا لارادة السلطان الجديد مراد الخامس [٢] .

وزاد ذلك تتابع الحوادث بعد توليه السلطة ، ساعدت على زيادة ارهاق أعصابه ، اذ لم تمض أيام من جلوسه على العرش حتى نعي اليه عمه السلطان عبدالعزيز، وسواء أكان مشتركا في قتل عمه أم أن جماعة الانقلاب " تركيا الفتاة " هي التي قامت بذلك دون علمه فان هذه الحادثة قد هزته كثيرا [٣] ، خاصة وأن

---

(١) سليم سركيس : كتاب سر مملكة ، (طبع في مصر ، ١٨٩٥م) ج ١ ، ص ١٣٣-١٣٤.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٧.

(٢) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاتة : ص ١٥ .
، هيئة التحرير : السلطان عبدالحميد في أول شبابه .. (مجلة الهلال ، ج ٩، س ١٧ ، ١٩٠٩م) ص ٥١٨.

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ... ، ص ٧٨.

السلطان مراد الخامس قد تعهد لعمه السلطان عبدالعزيز أن يحسن معاملته حين تسلم رسالته ، فلما بلغه خبر موته صاح بأعلى صوته " خنتني ياحسين عوني ، وقد البستموني ثوب عار لايفني الى الأبد ،لأنني تعهدت له أن أحفظ حياته ، فياللعار". وأوقع السلطان التهمة على حسين عوني [1] .

لذلك كان كثيرا مايقول لمن حوله في أسف : " سيظن الناس أنني أنا الذي قتلته " وكانت والدته تقول له : " انظر ماذا سيكون حالنا. انظر فقد قتلواعمك أيضا".

ويقول السفير الانجليزي (السير هنري اليوت) : " كان السلطان مراد رجلا وجلا وغير متزن ... يشرب الخمر كثيرا ... ولكنه في الأيام التي سبقت خلع السلطان عبدالعزيز ترك نفسه تماما للشراب ، لأنه كان في رعب كبير ، وخوف شديد من افتضاح أمر المؤامرة ، مما كان يعني أن رؤوسهم ستقطع لامحالة . كان منكبا على الشراب ... كمن فقد رشده ، وعندما علم (بانتحار) السلطان عبدالعزيز ارتج من أعماقه وفقد عقله تماما "[2] .

كأنني أرى من هذا النص اتهاما موجها الى شخص السلطان مراد يؤكد بأنه على علم بقاتله، والحق أنه متواطئ من اللحظة الأولى مع أهل الثورة لقلب نظام الحكم على عمه ، ولكن بعد تنفيذها يبدو أنه ندم ندما شديدا لمسايرة الثوار في عملهم الشنيع الذي أقدم معهم عليه مع العلم أنه هو ولي العهد وستؤول اليه السلطنة بعد وفاة عمه ، آجلا أو عاجلا .

وهنا أتت القشة التي قصمت ظهر الجمل ، فهزت السلطان المريض هزا اذ

---

(١) سليم سركيس : كتاب سر مملكة ، ص ١٣٧ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ... ، ص ٧٨ .

قتل رجل الانقلاب القوي حسين عوني ووزير الخارجية رشيد باشا ومعهماآخرون برصاصات أطلقها عليهم حسن الشركسي ، شقيق زوجة السلطان عبدالعزيز الثانية (مهرى) لأخذ ثأر السلطان عبدالعزيز منهما ، لذلك اضطر الجيش الى مضاعفة حراسة القصر باستقدام جنود آخرين [(١)] .

وعلى الرغم من إبلاغه بمضاعفة عدد الحرس ،إلا أنه لما سمع خبر قتل الشركسي المذكور لناظر الخارجية والحربية المذكورين وكان في هذه اللحظة يتناول الطعام فازداد اضطرابا وتغير لون وجهه ،فترك الطعام وقام فأغمى عليه ، وصار بعدها لايميز بين وزير وآخر ،ومع ذلك فقد كان الصدر الأعظم رشدي باشا يجتهد مع بقية الوزراء ورجال البيت المالك في اخفاء هذا الأمر في أوله ، وقد استدعوا الأطباء لمعالجته ، واستمر في تسيير شئون الحكم الا أن امتناع السلطان عن حضور الاحتفالات الرسمية وتقلده السيف حسب عادة سلاطين آل عثمان، وعدم مقابلته للسفراء لتقديم أوراق اعتمادهم الرسمية لديه ببقائهم في مراكزهم كالمعتاد لمدة شهرين كان موضع شك من السفراء مع ارتياب الأوضاع ، فذاع خبر مرض السلطان [(٢)] . في الوقت الذي كان يحاول فيه مدحت باشا إعلان الدستور الوضعي بدلا من الشرع أثناء مرض السلطان مراد ، كما كان يدرس القوانين والنظم الغربية ، ويتصل بأعوانه حتى استطاع اعداد هذا الدستور بشكل جاهر [(٣)] . إلا أن وطأة المرض لم تخف بل اشتدت على السلطان ، وانتشر

---

(١) سليم سركيس : كتاب سر مملك ، ج ١ ، ص ٥٥.
، أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ... ص ٧٩ .
، هيئة التحرير: عبدالحميد الثاني في أول شبابه .. (مجلة الهلال ، ج ٩ ، س ١٧ ، ١٩٠٩م) ص ٥١٩-٥٢٠.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٧ .

(٣) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٧ .

خبره في اسطنبول وخاصة حينما كان يمشي مع حرسه في بستان القصر ،فرمي نفسه في حوض البستان ، فأنقذوه من الغرق [1] . ولما تناقلت الصحف الأوربية خبر مرضه حينئذ أبلغ ناظر الخارجية السفراء بالحالة ، وأخبرهم بلزوم خلعه ، ثم استدعى الوزراء في محاولة أخيرة الدكتور (ليد روزف) النمساوي رئيس مستشفى (فينا) الشهير في الأمراض النفسية ، وطلبوا منه الكشف على السلطان وتأمل حالته الصحية ، وعندما وصل هذا الطبيب لازمه عدة أيام ورآى حركاته وسكناته ، واستعلم عن كيفية معيشته في أيامه الماضية ، فكتب تقريرا ذكر فيه أن مرضه هذا كان مقرونا بالخطر ، وقد بذل الجهد في معالجته ، فأوصى باستنشاقه نسيم البحر ، فصار حراسه يخرجونه في يخته الى البوغاز يوميا ، وكان المرض يزداد حتى ظهرت عليه علامات غريبة حيث كاد في أحد الأيام أن يلقي بنفسه من احدى نوافذ القصر ، فتشاور الوزراء في تنحيته ، ثم عرضوا الأمر على أخيه عبدالحميد الثاني ، وعليه أن يستلم مقاليد الحكم ، فنصحهم بالتأني وعدم التسرع في الأمور ، ولما كانت بعض ا لدول تلح بإحلال سلطان جديد لمتابعة اصلاحات الدولة ، فقد عينت لجنة من الأطباء للنظر في حالةالسلطان مراد الصحية وصلاحيته لحكم البلاد ، فقرروا جميعا اصابته بداء عضال لايرجى شفاؤه [2] .

وبعد أن ذهبت جميع المحاولات في استشفاء السلطان لم يبق أمام رجال مدحت باشا مناص من خلعه [3] . ولكن مدحت باشا وزملاؤه رأوا أن يأخذوا المواثيق على السلطان الجديد قبل مبايعته فقرروا أن يذهب مدحت باشا الى

---

(١) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ، ص ١٧ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٧.

، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٨٥-٥٨٦.

، هيئة التحرير : السلطان عبدالحميدالثاني في أول شبابه . (مجلة الهلال ، ج ٢٩ ، س ١٧ ، ١٩٠٩م) ، ص ٥٢١.

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني .. ص ٨٠ .

الأميرعبدالحميد الثاني ، ويستطلعه عن رأيه في الاصلاح الذي كاد أن يتم تطبيقه لولا مرض السلطان مراد، من حيث الدستور وغيره حتى اذا خالفهم في ذلك عرضوا السلطنة على أخيه رشاد الذي سبق أخذ موافقته .

أما شروط هؤلاء التي عرضوها على الأمير عبدالحميد الثاني ليلتزم بها اذا تولى السلطة فهي :

(١) ان يعلن الدستور حالا .

(٢) أن لايستشير في أعمال الدولة الا اعضاء الحكومة الرسميين .

(٣) أن يعين رضا بك وكمال بك سكرتيرين خصوصيين له مع سعدالله رئيس السكرتاريّة (الباشكاتب) .

فأجاب السلطان مطالبهم بكل رضا ، ووعد بأن يوسع النظام الدستوري أكثر مما يطلبون [١] .

فرضا بك وكمال بك كانامن الحريصين على إجراء أحكام القانون الأساسي وممن اشتغلا في تسويده وتنقيحه [٢] .

وعاد مدحت باشا بموافقة السلطان على إعلان الدستور ، فاجتمع الوزراء واستقر رأيهم في ١٢٩٣/٨/١٠هـ الموافق ١٨٧٦/٨/٠٣م ، على مبايعة السلطان عبدالحميد الثاني ، ثم أرسلوا بلاغا الى والدة السلطان يبلغونها فيه مع الأسف الشديد ما استقر عليه رأي الوكلاء والوزراء ، فأرسلت الى الصدر الأعظم كتابا أظهرت فيه قبولها ، فاستفتوا في ذلك شيخ الاسلام خير ا لله أفنــــدي[٣]

---

(١) هيئة التحرير : عبدالحميد الثاني في أول شبابه (مجلة الهلال ، ج ٩ ، س ١٧، ١٩٠٩م) ص ٥٢٢.

(٢) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ... (مجلة الـــهلال ، ج ٩ ، س ١٧، ١٩٠٩م) ص ٣٤.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٧-٧٢٨.

بالسؤال التالي وهو : " اذا جن إمام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الامامة من عهدته ؟" فافتاهم بقوله " يصح وا لله أعلم" (كتبه الفقير حسن خير ا لله)[1] . وعلى ذلك تقرر مبايعة السلطان عبدالحميد الثاني [2] ، وحضر الى سراي (طوب قبو) ، ومنها الى سراي بشكطاش حيث بايعه جميع من حضر من رؤساء وأعيان الشعب ، كان ذلك في يوم ١٨/٨/١٢٩٣هـ الموافق ٧/٩/١٨٧٦م وتقلد السيف في مسجد أبي أيوب الأنصاري ، كما كانت تجري مراسيم آل عثمان . وأظهر للوزراء رغبته الأكيدة في الإصلاح [3] .

وكان عبدالحميد قد قرأ نسخة القانون الأساسي (الدستور) وقال : " ان الدولة لاتتخلص من مشاكلها الحاضرة الا اذا عملت حكومتها به " فلما جلس على كرسي العرش جلس وهو مصمم على اعلانه كالسلطان مراد.

أما مواد هذا الدستور الأساسية أو المهمة فقد كانت تقضي بمساواة عناصر الدولة واتحادها تحت العلم العثماني ، واعطاء كل فرد حريته التي يبيحها له القانون ، وملاحظة رفع قوة الدولة ، والمقارنة بين دخل الحكومة ونفقاتها.

وقد كان المؤيدون لهذا الدستور ينتظرون اعلان القانون بفارغ الصبر ، أما المعارضون فقد استنكروا صدور هذا القانون قائلين: انه يمسخ شخصية السلطان ويقلب الحكومة الى جمهورية لاتحكم بكتاب ا لله وسنة رسوله الكريم ، وكادت هذه الخلافات أن ينتج عنها ثورة في اسطنبول بين الطرفين لولا يقظة رجال الحكومة[4] .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٥٨٧.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٧-٧٢٨.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٨٧.

(٤) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ، ص ٢٣ .

وعلى الرغم من أن السلطان عبدالحميد قد وعد مدحت باشا قبل جلوسه على العرش باصدار القانون (الدستور) الأساسي [1] ، فانه بادر بتعيين سعيد بك رئيسا للكتاب ولبيب بك كاتبا للقصر كخطوة أولى لاحاطة نفسه بالرجال المخلصين له ، لأن رجال الانقلاب لايزالون حوله ، ثم لم يلبث أن أقال القائد العام رديف باشا وعين بدلا عنه عبدالكريم باشا [2] .

وهؤلاء كانوا كلهم ضد اصدار القانون الأساسي ، لذلك عينهم في ديوان القصر السلطاني لتقوية مركزه مع سعيه لاستمالة الرأي العام لإبطال الدستور[3] .

تمت هذه التعيينات بارادة السلطان الشاب ، والتي أظهرت بأنه لايرضى أن يكون أسيرا أو لعبة رجال الانقلاب ، وقد ثار لهذاالصدر الأعظم رشدي باشا وقدم استقالته ، ولكن السلطان رفض استقالته ودعاه لمقابلته حيث طيب خاطره .

وعندما تولى السلطان عبدالحميد السلطة كان هناك تيار قوي يطالب باعلان الدستور ، ويعتقد دعاته بأن شفاء أمراض الدولة العثمانية لايتم الا عن هذاالطريق ، وأن اعلان هذا الدستور سيكون جوابا حاسما للدول الأجنبية التي كانت تطالب وبالحاح باصلاح الأوضاع في الدولة العثمانية .

لذلك أصدر السلطان فرمانا بتشكيل لجنة برئاسة مدحت باشا تضم هذه اللجنة ثمانية وعشرين عضوا ، وتتألف من عشرة علماء ، وستة عشر مدنيا ، واثنين من العسكريين ، كما انها تضم أشهر الشخصيات الداعية الى اعلان الدستور مثل نامق كمال وضياء بك وممثلين عن الأقليات غير المسلمة منهم جاميح أوهانيس وأوديان أفندي ، وقد قدمت هذه اللجنة مايقارب عشرين مشروعا حول

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٧٠٣ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني .. ص ٩٤.

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٠٣.

الدستور ، وكان دستور مدحت باشا أحدها [١] .

لهذا قال السلطان عبدالحميد في مذكراتـه : " ان مدحـت باشـا لم يـر غـير فوائـد الحكـم المشـروطي في أوربـا ، ولكنـه لم يـدرس أسـباب هـذه المشـروطية ولاتأثيراتها الأخرى ... وأظن أن أصول المشروطية لاتصلح لكل شعب ولكل بنيـة قومية . كنت أظن أنها غير مفيدة ، أما الآن فانني مقتنع بضررها ". لم يكن مدحت باشا قد درس أي قانون أساسي في أية دولة من الدول عندما اقـترح علـى ضـرورة اعلان القانون الأساسي ، ولم يكن لهم في هذا الموضوع فكر متأصل . كان أوديـان افندي استاذه الفكري. وأوديان افندي هذا لم يكن في ذلك الوقـت أفضـل مشـروع عندنا ، خاصةً أنه لم يكن يعرف البـلاد . وأظـن أن عـدم المعرفـة هـذه ذهبـت مـع مدحت باشا حتى قلعة الطايف " [٢] .

ويواصل السلطان حديثه فيقول : " في عام ١٢٩٣هـ أعد كل مـن ضيـاء باشا وكمال بك وعابدين لائحة القانون الأساسي ، كماأعد كل من كـاتب سـري " سعيد باشا " لائحة ، وناظر المدارس الحربية المشير سليمان باشـا لائحـة أخـرى ، وقدموا لي هذه اللوائح ،ولم يكن بين هؤلاء السادة توافق أفكار قط . كـان كمـال بك معارضا لمدحت باشا ، ومعارضا مع أصدقائه لسـعيد باشـا في هـذا الموضـوع ، وقدم لي مايقارب عشرين عريضة ...

لكـن المعـارضون للقـانون الأساسـي مـن طبقـة الخـواص كـانوا أكـثر مـن المؤيدين كان أدهم باشا وكثير من الوزراء الآخريـن وأصحـاب النفـوذ مـن رجـال الدولة ضد اعطاء حرية كاملة لشعب مـن الشـعوب دون تـأن واعـداد ، حتـى أن وزيرا جريئا في الحق مثل خير الدين باشا التونسي قال لي ذات مرة عندما كان في

---

(١) أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٩٥ .

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٢٩. ، أورخان محمد علي: المرجع السابق ، ص ٩٦ .

الصدارة العظمى : " ينبغي التفكير كثيرا قبل تسليح الأجلاف بالقانون " . وهو نص تعبير خير الدين باشا)[١] .

وقد جاء في التقرير الذي أرسله المركيز سالسبوري (Salisbury) السفير البريطاني الى بلاده قوله : " ان هناك ضغطا شديدا من جانب المبعوثين السياسيين الأتراك ، وكذلك من جانب الصدر الأعظم (مدحت باشا) بشأن اصدار الدستور الذي وعد به السلطان عبدالحميد قبل جلوسه على عرش الدولة ، وكان الثوار ينظرون الى اعلانه كضمان كاف لوقف المظالم السابقة ، وأن وعود الاصلاحات التي أهملت من قبل سوف تتحقق فعلا بصدوره "[٢] .

لهذا يقول السلطان عبدالحميد : لم أكن أستطيع الوقوف أمام تيار ذلك العهد وقلت : " مادامت الأمة تريد تجربة مسؤوليتها عن مقدراتها وحكم نفسها فليكن ماتريده الأمة " واخترت من بين لوائح القوانين الأساسية لائحة مدحت باشا".

ويواصل السلطان عبدالحميدحديثه عن الدستور لبيان السبب في اختيار لائحة مدحت باشا فيقول : " كنت مجبرا في البداية على تفضيل لائحة مدحت باشا على لوائح الآخرين ، فقد كان من الضروري أن نقدم لشعب مريض أفصح بأن اسم (مدحت) يساوي بحساب الجمل " دواء الأمة " أن نقدم له الدواء الذي طلبه ولم أكن أستطيع اسكاته بصورة أخرى "[٣] .

كانت لائحة مدحت باشا مكونة من مائة وأربعين بندا أحالها السلطان

---

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٢٩-٣٠.

(٢) F.O. : 424/37. The Marquis of Salisbury to the earl of Derby , No.: (210),1877.

(٣) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : المصدر السابق ، ص ٣٠ .

بدوره الى مجلس الوزراء (المابين) لمناقشتها ، ثم أصدر أوامره أيضا بتشكيل مجلس النواب (مجلس المبعوثان) وأكد عليه تجنب مالايتفق أولا مع عادات وتقاليد الأمة وأن تقدم دراسة حول هذا الموضوع الى السلطان [1] .

وأرسل خطاب الى مدحت باشا يخبره فيه باختيار لانحته الدستورية ووضعها على بساط البحث بين أيدى الوكلاء لتحريرها ، وطلب منه سرية هذا الكلام حتى صدورها [2] .

أما مجلس الوزراء أو أعضاء الدولة فبعددراسة مسودةالدستور رأى إدخال بعض التعديلات وأحالها السلطان على ثلاثة من مستشاريه وهم الفريق سعيد باشا وسليمان باشا ، ورئيس الكتاب سعيد بك . مع اقتراحه بادخال بند جديد على اللائحة يعطي للسلطان صلاحية نفي المشتبه به الى خارج البلاد اذا توفرت فيه دلائل الاشتباه . وقد انقسم مستشاروه الى فريقين : فريق يرى ادخال هذه المادة ، والفريق الآخر يعارضه ، وبعد تردد أصر السلطان عبدالحميد الثاني على ادخال هذه المادة الى الدستور ، وقد استغل السلطان هذه المادة لتمكينه من نفي مدحت باشا [3] .

وكان الثوار لايرغبون في أن تكون للسلطان مميزات خاصة في هذاالدستور تميزه عن بقية الأعضاء ، لأن هذا فيه مسخ لوظيفة السلطان ، لكن المعارضين كانوا لايريدون اللامركزية ، ويؤيدون سلطة السلطان ويصفونها بأنها أفضل من الانسياب وترك النظام بيد الثوار ، وحتى لاينسون بذلك السلطة الشرعية والقانونية للمسلمين وينساقون خلف العادات ولأنظمة الغربية .

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد .. ، ص ٩٦ .

(٢) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ، ص ٩٩.

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٩٦-٩٧.

ولعل أغرب ماحاوله مدحت باشا هو محاولة اشراك الدول الأوربية في مسألة الدستور ،وجعلها طرفا ضامنا بينه وبين السلطان عبدالحميد ، فقد أرسل لهذه المهمة أستاذه " أوديان أفندي " الذي كان مستشارا في وزارة الشئون الاجتماعية إلى الدول الأوربية في مهمة خاصة.

ويتحدث أحمد صائب عن هذه المهمة فيقول : " استطاع " أوديان أفندي " لقاء وزير خارجية انكلترا اللورد " دربي " حيث ذكر له بأن القانون الأساسي الموضوع الآن في الدولة العلية سيؤمن ويحقق أمن المسيحيين ويوفر لهم حقوقهم ، وان الادارة في الدولة العلية لاتمانع في وضع ادارة المشروطية بشكل معاهدة دولية وهي مستعدة لإعطاء جميع الضمانات التي تطلبها هذه الدول ، لذلك فلا داعي لأي قرار يتخذه المؤتمر بشأن " روملي ".

استمع اللورد "دربي " لحديث أوديان افندي بكل اهتمام ثم ذكر له بأنه لايتسطيع اعطاءه جوابا قطعيا ،ولكنه بعد أيام ذكر له بأن مسألة القانون الأساسي مسألة داخلية لايمكن أن تتدخل فيها الحكومات الأوربية "[١] .

ومهما يكن فقد أتى السلطان عبدالحميد الثاني الى الحكم ، والدولة مضطربة في تلك الفترة ، فالأوضاع في البلقان تغلي، والثورات قائمة في البوسنة والهرسك وفي الجبل الأسود وبلغاريا بتحريض من الدول الأوربية وروسيا خاصة للمطالبة باستقلالها [٢] .

ونتيجة لذلك أصدر السلطان أوامره بسرعة ارسال الجنود الى ولايات البلقان والصرب ، والجبل الأسود والبوسنة والهرسك لاخماد ثوراتهم ، فانتصر العثمانيون في أغلب المواقع ، وشدد القائد العثماني عبدالكريم نادر باشا الحصار

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٩٦-٩٧ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٧٠٣.

على الصربيين ، وهزم قائدهم الروسي الجنرال جرنايف الذي كان متقلدا قيادة الجيوش الصربية التي تقدمت لحرب الدولة العثمانية وذلك بايعاز من روسيا التي كانت تسعى في اثارة الطوائف المسيحية على الدولة كما هي عادتها وعادة بعض الدول الأوربية الأخرى .

وانتصر العثمانيون على جيوش الصرب بقيادة لاشانين ، وفتحت نيشواز، وتقدمت جنود الدولة الى بلغراد عاصمة الصرب ، فانهزم جموع الصربيين .

وقد أظهرت هذه الانتصارات العثمانية خوف الأمير ميلان أمير الصرب فطلب في ١٢٩٣/٨/٢هـ الموافق ١٨٧٦م من قناصل الدول الأوربية ايقاف الحرب ، والتوسط في الصلح بين الطرفين الصرب والدولة العثمانية، وبناء على ذلك تدخلت الدول وطلبت من الدولة هدنة لمدة شهر لوضع شروط الصلح [١] . ووافق السلطان عبدالحميد الثاني على عقد هذه الهدنة بشرط منع ارسال أسلحة أو ذخائر أو قوات عسكرية الى ثوار البونسة والهرسك والصرب والجبل الأسود في أثناء الهدنة ، الا أن الدول رفضت شرط السلطان ، وتدخلت روسيا بمفردها ، وأرسلت في اليوم الخامس من أكتوبر سنة ١٨٧٦م الموافق لسنة ١٢٩٣هـ انذارا الى السلطان العثماني بضرورة عقد هدنة بدون قيد أو شرط من جانب السلطان ، وأن تمنح الدولة العثمانية استقلالا اداريا لبعض الولايات البلقانية وأن تضمن الدول الأوربية حقوق سكانها المسيحيين . فوافق السلطان على مضض أمام تهديد الروس على عقد هدنة لمدة شهرين [٢] .

وكان الباعث على قبول السلطان عبد الحميد لهذين الشرطين هو رغبته في كسب الوقت لاستكمال استعداداته الحربية ، وحتى تصل اليه الامدادات

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٨-٧٢٩.

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٦٧.

العسكرية التي طلبها من الولايات .

إلا أن بريطانيا حاولت تخفيف حدة الأزمة خشية قيام حرب بين الدولتين لأن روسيا كانت مصممة على حرب الدولة العثمانية لتحقيق أطماعها التوسعية في الدولة تحت شعار الانتصار للشعوب المسيحية في الولايات البلقانية [١] .

ولخوف بريطانيا من انفراد روسيا بالدولة العثمانية، وتحقيق أطماعها التوسعية وابتلاع الدولة فقد أوعزت الى سفيرها في روسيا بمقابلة القيصر في روسيا لمعرفة النية الحقيقية تجاه هذه المسألة التي تنوي روسيا السير فيها. وكان جواب القيصر واضحا حيث قال : " ان على الدول الكبرى أن تعقد على الفور مؤتمرا لبحث المسألة الشرقية والقضية البلقانية ، واذا لم تقدم الدول الكبرى على هذه الخطوة فان روسيا ستضطر عندئذ الى انجاز هذه المهمة وحدها "[٢] .

بعد هذه المقابلة اخذت انجلترا على عاتقها مهمة دعوة الدول الكبرى الى مؤتمر في اسطنبول ، تشترك فيه الدولة العثمانية لبحث هذه المشكلة .

ووافقت الدول على هذا الاقتراح ، الا أن روسيا أضافت مطلبا جديدا وهو وجوب عدم اكتفاء الدول بوعود الدولة بالاصلاحات ، بل يجب أن يكون هناك ضمان قوي ، ولايمكن حصول هذا الضمان الا بوجود وحدات عسكرية من هذه الدول داخل الدولة العثمانية لمراقبة مدى تطبيق هذه الاصلاحات .

ولكن هذاالشرط اعترضت عليه انكلترا قائلة ليس هناك مبرر لمثل هذا الضمان اذ يكفي أن تعد الدولة باجراء الاصلاحات [٣] .

وتقرر عقد مؤتمر اسطنبول لاتخاذ التدابير اللازمة لتسكين التحركات في

---

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج٢ ، ص ١٠٦٧.
، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٧٠٣-٧٠٤.

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني... ، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) أورخان محمد علي: المرجع السابق ، ص ١٠٧.

البلاد واصلاحها ، وكان المؤتمر يضم أحدعشر مندوبا : اثنين من بريطانيا وهما سفيرها السير هانري اليوت (Elliot) واللورد سالسبوري ، واثنين من كل من فرنسا وايطاليا والنمسا وواحدا من هنغاريا ، ومن روسياواحد هو اغناتيف ، وواحد من ألمانيا ، واثنان من جانب الدولة العثمانية وهما صفوت باشا ، وأدهم باشا [١] . فعقد المؤتمر جلسته الأولى بتاريخ ٦ من ذي الحجة عام ١٢٩٣هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر سنة ١٨٧٦م للنظر في الاصلاحات الواجب ادخالها لتحسين أحوال المسيحيين في الدولة العثمانية والتي كانت أوربا تطالب بها منذ فترة طويلة [٢] . عقدت هذه الجلسة الأولى من المؤتمر في اليوم الذي دوت فيه أصوات المدافع ايذانا باعلان القانون الأساسي . فقام صفوت باشا مندوب الدولة في المؤتمر وقال : " أيها السادة ان أصوات المدافع التي تسمعونها هي دلالة على اعلان القانون الأساسي من جلالة سلطاننا الأعظم وهذاالقانون متكفل بالحقوق والحرية المعترف بها لجميع رعايا الدولة العثمانية بلا استثناء ، وبسبب هذه الحادثة فأعمال المؤتمر في ظني تكون لافائدة منها "[٣] .

وقد علق الجنرال اغناتيف بقوله لأعضاء المؤتمر : " ان السلطان يصدر الارادات تلو الأخرى ، ولكنها تبقى حبرا على ورق ، وسيكون الدستور غير نافذ المفعول كغيره من اللوائح والقوانين الاصلاحية في الدولة العثمانية "[٤] .

وقد واصل المؤتمر أعماله باجتماع ممثلي الدول الأوربية في السفارة الروسية دون اشراك ممثلي الدولة العثمانية اللذين انسحبا حين صدور الدستور.

---

(١) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ، ج ٣ ، س ١٧ ، ١٩٠٨)ص ١٣٥ .

(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٥٩-١٦١.

. روحي الخالدي المقدسي : المصدر السابق ، ص ٧٣٥ .

(٣) روحي الخالدي المقدسي : المصدر السابق ، ص ٧٣٥ .

(٤) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاتة ، ص ٢٧ .

واستمر هذا الاجتماع حوالي عشرة أيام [1] عقد خلالها تسع جلسات والباب العالي ينتظر بقلق نتائج هذاالمؤتر واخيرا قدمت هذه الدول خلاصة مباحثها [2] حول تسوية لمشكلات الولايات البلقانية على الشكل التالي :

(١) يحتفظ الصرب بوضعه قبل الحرب .

(٢) منح الجبل الأسود بعض الأراضي من الهرسك ومن ألبانيا .

(٣) منح البوسنة والهرسك استقلالا اداريا وأن يعين الباب العالي لهما حاكما مسيحيا لمدة خمس سنوات .

(٤) منح الاستقلال الداخلي لبلاد البلغار .

(٥) تشكيل جيش مختلط مسلح من المسلمين والمسيحيين لحفظ أمن هذه البلدان .

(٦) ان تعدد اللغات الرسمية يعتبر لغة بجانب اللغة التركية .

(٧) حرية انتخاب مشايخ القرى والقضاة والعسكريين وغير ذلك في اقاليم فلبه ومقدونيا العليا المجاورة للبلاد .

أما الشروط المؤقتة فهي :

(١) تكوين لجنة مراقبة دولية من ست دول أوربية تقوم بمراقبة الاصلاحات لمدة سنة كاملة .

(٢) وأن تكون من ضمن هذه القوات قوات بلجيكية قوامها خمسة آلاف جندي تتحمل مصاريفها الدولة [3] .

---

(١) وقيل عشرين يوما .

- اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣١.

، مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ، ص ٢٧.

(٢) أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد الثاني ... ص ١٠٨.

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧٣١.

(٣) تنتهي هذه الشروط المؤقتة بتنفيذ الاصلاحات المعلنة .

وفي أثناء هذه المباحثات حدث ماكان منتظرا اذ قام السلطان عبدالحميد بتقديم ختم الصدارة الى مدحت باشا الذي كثف جهوده منذ عدة أشهر حول اصدار القانون الأساسي (الدستور أو المشروطية) وقطع فيه مراحل حتى وصل الى مراحله الأخيرة اذ تم اعلانه في يوم ٦ من ذي الحجة سنة ١٢٩٣هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر سنة ١٨٧٦م [١] .

ولنتوقف قليلا عن الحديث في الدستور لمناقشة مواد المؤتمر الذي قرر وزراؤه ابلاغ مواده للسلطان عبدالحميد الثاني الذي قال موضحا رؤيته للموقف : لقد أرسلوا انذارا الى دولتنا ، فاما ننفذ ماقالوه بالحرف الواحدواما يدخلون الحرب معنا بالتعاون مع روسيا ضدنا " [٢] .

وقد أثارت هذه الطلبات الغريبة الاحساس والحماس الوطني لدى العثمانيين الذين تهيؤا جميعا لرفضها لأن أوربا لايمكن أن تحرمهم من ثمرات انتصاراتهم وفتوحاتهم ، وكيف تعاملهم كمغلوبين على أمرهم والأمر خلاف ذلك [٣] .

لهذا اعترض الباب العالي على بعض فقرات هذه القرارات المجحفة ولاسيما فقرة الولاة المسيحيين ولجنة المراقبة ، وأرسل السلطان عبدالحميد لمناقشة هذا الشأن سعيد باشا سرا الى مندوب انكلترا اللورد سالسبوري قبل مغادرته اسطنبول حيث استطاع حذف اقتراح الجنود ا لبلجيكيين ، كما تم الاتفاق على تعديل فقرة الولاة المسيحيين ، وجعلت موافقة الدول على اختيارهم مرة واحدة فقط[٤].

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني .. ص ١٠٩.

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٤١.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣١.

(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١١٢.

ولكن مدحت باشا قال : ان الانجليز والفرنسيين سيقومون معنا مؤيدون حربنا ضد روسيا ودول البلقان .

ويقول السلطان عبدالحميد : واذا بي في نفس الوقت أتلقى عن طريق موظف خاص من السفارة الانجليزية رسالة من سالسبوري وزير الخارجية الانجليزية يقول لي فيها بصراحة : انه في حالة قبولنا الحرب ضد روسيا فانهم لايستطيعون تقديم أي عون لنا " [١] .

ولكن مدحت باشا وأنصاره لم يكونوا في مستوى من يدرك الخطر الكبيرالذي يجابه الدولة العثمانية ، والجو السياسي الملتهب الحالي الذي كان يحتم التصرف ببعض المرونة [٢] وخاصة حين نرى أن انكلترا التي دائما تساند الدولة العثمانية نجدها في هذه المرة تتخلى عنها في أحلك الأوقات وأقساها .

لكن جواب مدحت باشا الصدر الأعظم وأنصاره كان الرفض لكل الاقتراحات المقدمة من الدول ، دون تقديم البديل ، وكانت حجتهم في ذلك أنه لايسعهم قبول هذه الشروط لأن ذلك خارج صلاحيتهم ، وأن مجلس الشعب الذي سيجتمع (بعد أن تم انتخابه) هو الذي يملك صلاحية قبول مثل هذه الاقتراحات ذلك لأن الشعب أصبح الأن هومصدر السلطات [٣] .

لهذااعترض السلطان عبدالحميد الثاني على قرار مدحت باشا الصدر الأعظم ووزرائه الذي قرر فيه رفض اقتراح الدول الكبرى . وهذا يعني الحرب.

ولعدم تروي مدحت باشا في هذاالقرار ، فقد استدعىالسلطان مدحت باشا الى القصر السلطاني في عجل لبحث هذه الأمور وطلب منه عقد مجلس عام من كبار رجال الدولة قبل اتخاذ أي اجراء بابلاغ الدول الكبرى بقرار موبوء مثل

---

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٤١.

(٢) أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١١٢-١١٣.

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١١٣ .

هذا القرار ومن الباب العالي " مجلس الوزراء " [1] فما كان من مدحت باشا (الصدر الأعظم) الا الانصياع لأمر السلطان ، وعقد مجلسا عاليا مؤلفا من الوزراء ورجال الدولة والمشيرين وأعيان المسلمين والمسيحيين ، وعرض عليهم لانحة المؤتمر . وتلا عليهم مطاب الدول الأوربية ، وأن ردها يؤدي الى الحرب ، فتشاوروا وأبدى كل منهم رأيه ، فقال رؤوف بك رفعت باشا ناظر خارجية سابق: ان الحرب كداء الحمى يمكن أن نتخلص منه ، ولكن هذه الشروط كداء السل عاقبته القبر لامحالة، فلنلبس الصوف ،ونوقد الشمع ، ونحارب العدو . وقال آخر في خطبة طويلة : نختار الموت على الاهانة . وقال بطريق الأرمن الكاثوليك : يجب رفض اقتراحات المؤتمر ، وأخيرا وافق المقررون برفض مقترحات المؤتمر .

ويظهر من هذا اتفاق وجهة نظر المسلمين والمسيحيين واليهود في المجلس واتحادهم على محبة الوطن والغيرة على منافعه ، وكان أشدهم حماسا الروم والأرمن من الكاثوليك حتى أن الروم عزموا على تشكيل فرقة متطوعة لمحاربة الصرب مع الجنود العثمانيين لأن استقلال الأمم البلقانية من الصرب والجبل الأسود والبلغار مضر بمصالح الروم لخروجهم عن الكنيسة الأرثوذكسية التي هي تحت رئاسة بطريق الروم في اسطنبول ورفضهم استعمال اللغة والآداب اليونانية[2] .

ويظهر من اتفاق وجهة نظر المسلمين والمسيحيين قدر خطر التدخل الأجنبي وماتدعيه الأوساط الأوربية من مفتريات في حق الدولة العثمانية المسلمة يدحضها هذاالموقف من رعايا الدولة .

ولكن السلطان عبدالحميد يعلق على هذا الاجتماع بأن مدحت باشا لم يهمل الاستعداد لاتخاذ قرار يريده هو ، فأخذ الكلمة الأولى بعده الصدر الأعظم

---

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٤١-٤٢.

(٢) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ... (مجلة الهلال ، ج ٣ ، س ١٧ ، ١٩٠٨م)، ص ١٣٦ .

السابق محمد رشدي رفيق دربه في عملية خلع السلطان عبدالعزيز حيث قال : ليس لأرباب الشرق الا طريق واحد وأنا أؤيد الرفض القطعي لاقتراحات هذا المؤتمر" قالها وخرج ، فصدر كما أراده مدحت باشا [1] .

وقد انتهت مناقشاتهم بالصيغة التالية وهي :

" ان القانون الأساسي قد قيد حركتنا ، فاذا لم تجر الانتخابات ويجتمع المجلسان [2] فاننا لانستطيع البحث في هذا الموضوع ".

وبناء على قرار المجلس العالي أجاب السلطان في ٢ كانون سنة ١٨٧٧م الموافقة لسنة ١٢٩٤ هـ رفض شروط الدول ، وانفض المؤتمر وغادر مندوبو الدول وقناصلهااسطنبول .

ويعتبر هذا الموقف اشارة من الدول الى قطع علاقاتها مع الدولة العثمانية الدولية والودية [3] . كما أن هذا يعني جعل الدولة في عزلة تامة من بقية دول العالم مع احتمال حرب ضروس مع روسيا وحليفاتها في البلقان .

وأمام هذا الخطر المحدق دعا السلطان وزراءه الى الاجتماع في مساء اليوم نفسه ، وطلب منهم أثناء الاجتماع اعطاءه تقريرا كافيا عن الوضع الحالي العسكري والمالي في الدولة، وقدجاءت اجابات الأعضاء متناقضة [4] فقائد الجيش يقول : ان لديه مائتي ألف جندى تحت السلاح جاهزين لأي غزو محتمل يأتي من

---

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٤٢ .

(٢) يعني ذلك مجلس النواب ومجلس الأعيان .

(٣) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦١.

، روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ..(مجلة الهلال ، ج ٣ ، س ١٧ ، ص١٩٠٨م) ص ١٣٦ .

(٤) مذكرات السلطان عبدالحميد : المصدر السابق ، ص ٤٢.

، أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد اثاني ، ص ١١٤.

جانب العدو ، وفي الوقت نفسه تلقى السلطان برقية من الغازي أحمد مختار باشا قائد جيش "الروملي " يفيده بأن لديه وتحت يده ثلاثين ألف جندي وأنه لايستطيع بقوة صغيرة مواجهة قوات العدو التي تبلغ مئات الألوف بناء على طلب السلطان.

لذلك استدعى السلطان الصدر الأعظم مدحت باشا وقائد الجيش على باشا الى مجلسه بالقصر وأطلعهما على البرقية ، فتهرب الصدر الأعظم من الموقف بأنه كان لايعرف استعدادات الجيش ، وارتج على باشا قائد الجيش ، وعرف السلطان أنه من الجنون والمخاطرة دخول الحرب مجازفة دون تخطيط (١) .

ان هذه الحادثة لاشك في أنها تنم عن مؤامرة دبرها مدحت باشا وأعوانه لاقحام الدولة في الحرب دون التأكد من قوتها ، واستعداد جيشها قتاليا وماليا ومعنويا ، مما يدل على أنه عميل للانجليز ماسوني لايريد للاسلام عزة ونصرا ، والا تريث في اصدار حكمه وضحى ببعض الشروط لتهدئة الأحوال ، لذلك كان اقدامه على هذا العمل ينافي ميوله للاصلاح كما يدعي .

وعلى أية حال فحين رفضت الدولة شروط الدول الأوربية جعل الأمير الروسي غورشاكوف يكتب الى سفراء روسيا لدى دول أوربا وذلك في ٣١ من يناير سنة ١٨٧٧م الموافقة لسنة ١٢٩٤هـ يطلب رأي تلك الدول في رفض الدولة العثمانية لقرارات مؤتمر اسطنبول من أجل الخروج بموقف موحد لهذه الدول ازاء الدولة العثمانية (٢) وطلب منهم أيضا التدخل في سرعة اجراء الاصلاحات في ممالك الدولة العثمانية منطقة النزاع ، والا اضطر القيصر وحده الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بذلك (٣) .

وقد رد عليه صفوت باشا ناظر خارجية الدولة العثمانية بارسال رسائل

---

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٤٢ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣٢ .

(٣) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثاني..(مجلة الهلال ، ج ٣ ، س ١٧ ، ١٩٠٨) ص ١٣٧.

مماثلة الى سفراء الدول الأوربية ، موضحا فيها موقف الدولة العثمانية من هذه الشروط ، وكذلك عدم مشروعية انعقاد المؤتمر في اسطنبول لعدة جلسات دون حضور مندوب الدولة العثمانية تلك الاجتماعات ، حتى كأنه لم يعقد بطريقة رسمية الا لعرض أمور قد اتفق عليها مسبقا من قبل هذه الدول والتصديق عليها في اسطنبول فقط ، وقال : ان الدولة لايمكنها أن تقبل بمثل هذه الشروط أصلا لأنها تحط من قدرها . فكان موقف الدول الأوربية هو تجميد جواب الروس والدولة العثمانية على السواء [1] .

أما السلطان عبدالحميد الثاني فقدحاول الوقوف بصلابة أمام جر الدولة العثمانية الى الحرب اذ كان يعلم علم اليقين أن الأوضاع الخارجية والداخلية للدولة لاتسمح لها أبدا بالحرب مع روسيا القيصرية وكان يشاركه ي هذاالرأي سعيد باشا ، لكن مدحت باشا خلق حواليه جوا معينا يجعل من يعارض الحرب متقاعسا ويعده خائنا ، وقدوجه تهديدا غير مباشر الى السلطان عبدالحميد ، وذلك عندما اتهم سعيد باشا بالخيانة وسقوط الهمة لمعارضته للحرب ، ولم يكتف مدحت باشا بهذا بل قام بتحريض طلبة المدارس الدينية للقيام بمظاهرات صاخبة لتأييد الحرب باسم الجهاد .

وكانت سياسة مدحت باشا وأنصاره في مثل هذه الظروف القاسية متجاهلة القدرةالمالية والبشرية للبلاد وقدبرروا مواقفهم بقولهم : ان العبرة لاتكون في القوةالعسكرية ولا بالاستعدادات ، فكما جئنا الى الأناضول ونحن أربعمائة فارس فاننا مستعدون أن نحارب الى أن يصل عددناالىأربعمائة أيضا. ان هذا الكلام في الواقع يفتقر الى الشعور بالمسئولية أمام هذا الوضع الخطير الذي قد يجر الدولة

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١، ص ٧٣٢.

الى الدمار [١] .

لكن الشعب متعلق بمدحت وينتظر منه المعجزات ، وابعاده سيكون خطأ من الدولة ، ولايمكن احراز أي نصر بتجاهل عدد جنوده واستعداداته ، بل يمكن عن طريقه تأكيد الهزيمة [٢] .

وخروجا من هذاالمأزق فقد صالح السلطان عبدالحميد دولة الصرب لمعالجة الموقف على حساب الدولة العثمانية ، ولضعف موقفه ، بشروط أهمها : خروج الجند العثماني من الصرب ، وأن لاتبني الصرب قلاعا جديدة ، وان يرفع العلم العثماني الى جانب العلم الصربي ولم تعقد المصالحة مع أهل الجبل الأسود لطلبهم أن تتنازل لهم الدولة عن قطعة من أراضيها [٣] .

فقرر السلطان عبدالحميد الثاني أن يقطعهم أرضا من الأراضي الواقعة بجهة (سوترينه) ولكن دولة النمسا عارضت اعطاءهم تلك المنطقة الزراعية ، وأخيرا وضعت هذه المسألة على بساط البحث في مجلس الوكلاء [٤] .

وقال مدحت باشا في هذا الصدد انه بعث (اوديان افندي) مستشاره الى انجلترا لاستطلاع وجهة نظر رجال السياسة في باريس ولندن ، فالتقى باللورد (بيكونسفيلد) رئيس الوزارة واللورد دربي) ناظر الخارجية في مقابلة خاصة ، وكتب من هناك برقية قال فيها: " انهم متفقون على تسكين حدة روسيا لإخراج الدولة العثمانية من هذا المأزق بلا خطر ، وأرسل برقية أخرى قال فيها : ان الانجليز والفرنسيين يقولون بوجوب مصالحة الصرب والجبل الأسود والموافقة على بعض مطالب البلغاريين ويحبذون الأحكام الدستورية ، ولكنهم يشيرون الى

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١١٥-١١٦.

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٤٢.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣٢.

(٤) مذكرات السلطان عبدالحميد : المصدر السابق ، ص ٤٢.

الاسراع بانفاذها [1] .

معنى ذلك أن مدحت باشا عاد الى سياسة السلطان عبدالحميد الثاني ولكن ذلك تم بعد مشاورة الانجليز للتخلص من غلطاته الجسيمة .

اننا نرى هنا أن هذا العميل الانجليزي يلجأ الى أسياده ليلقنوه الحل الذي غاب عنه ، وقد سبق للسلطان أن طلب منه عدم التسرع في دراسة شروط الدول السابقة ، ولكنهم أكدوا عليه سرعة تطبيق الدستور .

ويتضح من ذلك أنه يعمل لحساب أوربا مما جعله يرفض هذه الشروط ليقود الدولة لحالة الحرب لشيء في نفسه .

وقد أخذ السلطان يفكر جديا في عزل مدحت باشا بعد هذه الأعمال ، ولكنه كان ينتظر الفرصة لتثبيت سلطته وهيمنته على الدولة لتخليص نفسه من كونه ألعوبة بين مدحت باشا وأعوانه ودعوى عدم صلاحيته [2] .

وهذاالتقرير من اليوت (Elliot) يؤكد أن مدحت باشا كان على اتصال بالسفارة البريطانية في اسطنبول فقد أكد لسانديسون (Sandison) بتقرير موثق أقر فيه مدحت باشا بأن السلطان عبدالحميد الثاني قد أعطى موافقته على الاصلاحات المختلفة. لذلك أملى عليه سانديسون تعليمات أساسية وعد مدحت بتنفيذها بنفسه . وقد كرر مدحت باشا ماكان ينوي فعله مثلما ذكر لسانديسون (Sandison) تماما . فقد قال لي مدحت باشا بالرغم من أن المسيحيين قد يشغلون مناصب مثل نائب الحكم أو المحافظة في الولايات الا أنه قرر في نفسه أن يشغلوا مناصب أعلى مقاما .

أما عن قانون الولايات الحالي فقد قال بالغائه ليحل محله قانون آخر يعطى

---

(1) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ، ص ٢٩ .

(2) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١٢٠ .

للناس فرصة حقيقية للاشتراك في ادارة المقاطعات أكثر مما سبق . وأن يتم انتخاب أعضاء مجالس المقاطعات عن طريق السكان الذين هم حق الانتخاب ، وبالنسبة لحق الامتلاك فسوف يكون المسيحيون على قدم المساواة مع المسلمين وسوف يلغى النظام القديم .

وعن المحاكم الشرعية فقد قال عنها : ان صفة المحاكم الشرعية سوف تقتصر على القضايا المتعلقة بها .

أما القضايا الأخرى فسوف تعرض على المحاكم المدنية . وهذه النقطة تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة للمسلمين لأن المحاكم الشرعية أصبحت لاتقبل أدلة المسيحيين . لذلك فان المسيحيين يأملون في تغيير هذه الأوضاع [1] .

واننا لنلمس العلمانية من خلال هذه الوثيقة في تصريحات مدحت باشا التي فتحت المجال للغزو الفكري الأوربي الذي تشرب به مدحت وأنصاره ، وأخذوا في تطبيقه من خلال الدستور الذي قدمه الى السلطان عبدالحميد الثاني . بل لقد ذهب مدحت الى ماهو أكثر من ذلك ، فقد وعد الانجليز بتطبيقه ، وأعطاهم فيه بعض البنود التي تضمن لهم الحرية في كثير من التدخل في أمور البلاد ، وأصبح هو نفسه ألعوبة في يد الانجليز يوجهونه لتدمير الأمة الاسلامية لأنه هو وأنصاره قد وصلوا الى ادارة دفة الدولة ، فظن أنه سيبقى طول الدهر والحق أنه وصل الى ماتريد أوربا عن طريق تطبيق الدستور الذي يستمد أنظمته من الحياة الأوربية .

ولهذا ظل مدحت باشا يعمل على طلب اجتماع مجلس المبعوثين ويجتهد في تأليفه من الأحرار والمابين [2] ، حتى ضاق صدره لمحاولته ، كيف لايحاول، وهو قد

(١) F.O.: 424/39.Sir H.Elliot to the Earl at Derby,No.572.20-11-1875.

(٢) رجال القصر السلطاني .

قطع على نفسه تنفيذ أوامر بريطانيا في تطبيق الدستور وأعطاهم حقوقا تنم عن ماسونيته والسلطان يحاول تأخيره لعزله عن الصدارة . فكتب الى السلطان كتابا هذا نصه : " لم يكن غرضنا من اعلان القانون الأساسي الا قطع دابر الاستبداد وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم حتى تنهض البلاد الى معارج الارتقاء(١) واني لفي غاية الاحترام لشخص جلالتكم ، لكن بالنظر لأحكام الشرع يجب على أن لا أطيع أوامركم اذا لم تكن موافقة لمنافع الأمة .." .. ياللعجب فالسلطان سياسته معروفة وهوحكمه بالشرع ليس له مطلق الحرية ولا مطلق التصرف بأموال الناس وحقوقهم الا حسب ما تمليه الشريعة السمحاء (٢) .

فغضب السلطان من هذه الجرأة وعزل مدحت باشا ونفاه إلى ايطاليا (٣) ، وعين أدهم باشا مكانه في الصدارة ، وكانت صدارته أقل من شهرين حيث عزل في ١/١/١٢٩٤هـ الموافق ٥ فبراير ١٨٧٧م قبل أن يرى الهيئة البرلمانية التي حاول فرضها في البلاد العثمانية (٤) .

وتشير هذه الوثيقة البريطانية الى أن اقالة مدحت باشا الصدر الأعظم من الوزارةكانت ظاهرة جديدة في سياسة السلطان عبدالحميد الثاني لأنه الشخص الوحيد الذي يعتمد عليه ، والذي ينظر اليه عامة الشعب على أنه قادر على حل مشاكل الدولة ، وكذلك فان أي مشروع للاصلاح يرفضه معناه لن يأخذ ثقة الشعب وسوف ينتج عنه عدم الرضا (٥) .

وهنا يقول السلطان عبدالحميد الثاني مانصه : "واني لواثق أنه لو كان

---

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ن ج ٢ ، ص ١٦١ .

(٢) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ، (مجلة الهلال ، ج ٣ ، س ١٧ ، ١٩٠٨)ص١٣٧

(٣) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ص ١٦١.

(٤) محمد فريدبك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٩٣ .

(٥) F.O.424/39 Sir H. Elliot to the Earl at Derby, No.:572.20-11-1875.

مدحت باشا صدرا أعظم حكيمـا ومحنكـا لكـان ولاشـك قـد استـمر في الصـدارة حتى ختام الحرب الروسية ، وجدته ينصب من نفسه ومنذ اليـوم الأول آمـرا علـي ووصيا، وكان في معاملته بعيدا عن المشروطية وأقرب الى الاستبداد" [١] .

ومما عجل عزله أنه كان يريد تنفيذ مـايريده في الحـال ، مـع ماكـان يعلمـه السلطان من أن كمال بك وضياء بك ورشدي بك وآخرين من رفـاقهم يجتمعـون كل مساء في قصر مدحت باشا يشربون الخمر . وذات مرة قال مدحـت باشـا : " ليس من الأسرة المالكة العثمانية خير يرجى ، ولم يبـق الا الاتجـاه نحـو الجمهوريـة ، ترى كيف يمكن هذا ؟ ان عدة أشخاص مثلكم يفهمون المسألة الآتيـة : يوجـد في العالم حتى الآن مايسمى بآل عثمان .ماذا يحدث لو ظهر مايسمى بآل مدحت ؟ ".

ويستمر السلطان في الحديث حول مدحت باشا حيث يقـول " ... كـانت انجلترا دائبة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية . وكان مدحت باشا ماسـونيا ، لم يكتف باثارة ما أثار من مشاكل ، فهومن ناحية يريـد خلـق أزمـة في الـرأي ، ومـن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد في أتون الحرب . وقـد حـاول سـن بعـض الأعمـال التي لايتصورها العقل مثل تعيين ولاة من الأقلية في ولايات الأغلبية فيها مسـلمون ، وقبول طلبة من الأروام في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيـش . أعمـال مثـل هذه يمكن أن تؤدي الى تقويض الدولة من أساسها لذلـك رفـض السـلطان التوقيـع على مثل هذه القرارات [٢] .

وهـذا فعـلا مـاحدث ، فقـد وعـد مدحـت سانديسـون (Sandison) بـأن المسيحيين سيشغلون مناصب عليا في الدولـة ، وسـيعين الـولاة لبعـض المنـاطق مـن الأقليات النصرانية ، وهذا ماتنبأ به السلطان عبدالحميد وقطع دابره [٣] .

---

(١) F.O.: 424/39, Sir H. Elliot to The Earlal Derby, No.: 572,20-11-1875.

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمدحرب عبدالحميد ، ص ٤٣-٤٤.

(٣) Op.cit.

وقد تأثرت الدول الأوربية وحدث فيها رد فعل فقامت الدنيا وقعدت وخاصة في انجلترا . وكتبت الصحف هناك بأنه لايمكن توقع شيء من الاصلاح في الدولة العثمانية على الاطلاق لاقالة مدحت باشا . يقول السلطان : " كنت أعرف أن هذا سيحدث وكنت أتوقعه ..".

وقد تعاون مدحت باشا مع الانجليز وأيدها ، وكان الانجليز يعرفون أن الاصلاحات التي يوصون بها من شأنها أن تغرق الدولة العثمانية سريعا ، تماما مثلما أعرف أنا . فهل ياترى كان مدحت باشا يعرف هذه الحقيقة ؟"

اذا كانت الاصلاحات هي الأمر الذي ينقذ الدولة العثمانية فقد أحيطت الدول الكبرى علما وكتابة بالاصلاحات المتصور قيامها والمعلنة في الدستور الأساسي وذلك أثناء مباحثات هذه الدول في " الترسانة " على هذا كان يجب على انجلترا وهي تنظر الى فم السفير الروسي ألا تطالبنا باستقلال بلغاريا واعطاء الأرض للصرب والجبل الأسود لأننا قبلنا كل ما أوصت به وبدأنا تطبيقه" [1] . أليس هذا كافيا ؟ ولكن أطماع الدول الأوربية التوسعية هي الغاية والهدف الذي تسعى اليه هذه الدول ، ومن أجله قامت باثارة الثورات والحروب . ليست المسألة مسألة اصلاح الدولة وانما هي مصالح دول . وهذه بالطبع تتصادم مع أطماع هذه الدول وتكاد أن تشعل الحرب بينهم وحول أطماعهم في الدولة العثمانية .

وعلى أية حال ففي سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م رأت روسيا اعداد الاجابات على المنشور الذي أرسلته الى الدول من قبل ، فأصبح موقف الدول أمامها غامضا فهي لاتدري ماتنوي هذه الدول اجراؤه ، وأنها اذا لم تبادر باشعال نار الحرب فقد تضيع منها الفرصة بعد أن تجشمت الخسائر في المال والرجال لكي تقتطع ولايات عثمانية لحسابها ، غير أن الدولة العثمانية كانت قد أتمت الصلح

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ص ٤٥ .

مع الصرب ، وربما عقدت قريبا الصلح مع الجبل الأسود فتسود السكينة ولايعود لروسيا وجه في المداخلة ، ولاسيما عما قليل سيصبح مسيحيو الدولة راضين عنها بسبب مساواتهم مع المسلمين ، بمقتضى القانون الأساسي (١) .

لذلك بدأت روسيا في خلق المشاكل والأزمات وتصعيدها مستهدفة الحرب مع الدولة العثمانية . وفي الوقت نفسه كانت روسيا تبذل جهودا دبلوماسية مكثفة لتضمن حياد الدول الأوربية الكبرى اذا لم تتعاون معها ضد الدولة في حروبها المقبلة (٢) .

لذلك حرر الأمير غورشاكوف الى سفيره في لندن في ١١ من مارس ١٨٧٧م/ ١٢٩٤هـ اجابة نهائية تتضمن شروطه لاطلاع الحكومة البريطانية عليها فاذا صادقت على تلك الشروط فعليه أن يعرضها على باقي السفراء بلندن(٣) .

وأوفد بهذه المهمة أيضا اغناتيف الى العواصم الأوربية فزارها عاصمة عاصمة ، ولقي فيها كل ترحيب ، وحصل على تأييد حكوماتها بعدم معارضة روسيا في تدخلاتها ضد الدولة العثمانية (٤) .

وفي لندن توجت جهوداغناتيف بأن صادقت بريطانيا على الشروط الروسية ثم اجتمع بقية سفراء الدول على مؤتمر اسطنبول في ٣١-١١-١٨٧٧م

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٦١٩-٦٢٠.
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣٢.

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العمثانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٧١.

(٣) محمد فرد بك : المصدر السابق ، ص ٦١٩-٦٢٠ .
، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧٣٢.

(٤) عبدالعزيز الشناوي : المرجع السابق ، ص ١٠٧١-١٠٧٢ .

/ ١٢٩٤هـ بوزارة خارجية بريطانيا ماعدا سفير الدولة العثمانية بطبيعة الحال ، ووقعوا بالموافقة على مارأوه من الشروط [١] ، وصدر عن هذا المؤتمر اتفاقيات عرفت باسم " بروتوكول لندن " في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧م / ١٢٩٤هـ وهو عبارة عن انذار من الدول الست [٢] بريطانيا وفرنسا وروسيا والمانيا وايطاليا والنمسا موجه الى الدولة العثمانية [٣] .

ومن أهم نصوص هذه الاتفاقية :

- عقد معاهدة الصلح مع الجبل الأسود على أساس منح هذا الاقليم اضافات اقليمية كان يطالب بها كما سبق بحجة ان لغتهم سلافية ودينهم نصراني.
- انقاص عدد الجيش العثماني ، وتحسين احوال الرعايا المسيحيين في الدولة تحت مراقبة السفراء لتأمين وصول تلك الاصلاحات .

وقد أبلغت الدول الباب العالي بهذه الشروط مع تهديد الدولة العثمانية بالحرب اذا خالفت ذلك [٤] .

ولكن بريطانيا أبلغت سفيرها في اسطنبول سرا بأن يخبر الباب العالي بأن تصديقها على هذه الاتفاقية أو البروتوكول هو المحافظة على السلم في أوربا

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٦٢٠ .
، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص ٧٣٢ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٧٢ .

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧٣٢ .

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧٣٢ .
، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٦٢٠ .
، عبدالعزيز الشناوي : المرجع السابق ، ص ١٠٧١-١٠٧٢ .
، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦٢-١٦٣ .
، روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني . (مجلة الهلال ، ج ٣ ، س ١٧ ، ١٩٠٨م) ص ١٤٠ .

فقط ، ويعني ذلك أن بريطانيا تشجع الدولة في الاستمرار في رفضها [1] .

وفي هذه الأثناء أصدر السلطان عبدالحميد الثاني المرسوم السلطاني الذي يقضي بانتخاب مجلس " المبعوثين " لانفاذ احكام القانون الأساسي عندما رأى اصرار الدول الأوربية على هذا الاصلاح. فافتتح المجلس في ١٢٩٥/٣/٤هـ الموافلق ١٨٧٧/١/١٩م في (طوله بغجه) بمحلة بشكطاش ، افتتحه السلطان عبدالحميد الثاني بالخطاب الآتي : [2]

" هيئة الأعيان

السادة المبعوثين

لقد سررت باعلان الانضمام للمجلس العمومي المجتمع للمرة الأولى في دولتنا العلية ، وليكن في علم الجميع أن العدل أساس الجاه والسلطان ، وهو الذي أدى الى نهوض الأمة ،ومرجع عدم وجود خلل في العقيدة والدين أدى الى التصريحات التي أصدرها أجدادنا العظماء السلطان محمد خان الفاتح بعد اعتلائه العرش لضمان حرية الدين والعقيدة وتأمين الحريات ورعايته للعدل وشتى صنوف الحق والمنافع ، وقد سار أسلافنا العظماء على نهجه في الحكومة المشهورة بقوتها منذ بداية ظهور دولتنا العلية .

ومنذ مايقارب من ستمائة عام كان الحفاظ على العقيدة واللغة والقومية نتيجة طبيعية عادلة غير قابلة للانكار والرفض ، فتبدلت القوة الى ضعف مما أدى الى التأخير الحضاري الذي سببه عدم التمسك بالقوانين المطروحة ، وعدم التمسك

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣٢ .

، عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ص ١٠٧٢.

(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

، روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ، (مجلة الهلال ، ج ٣ ، س ١٧ ، ١٩٠٨م) ، ص ١٣٨

، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٧٠٤ .

بالشرع الشريف الذي كان فيما سبق سببا في رقي وسعادة الدولة وثراء الوطن وحماية العدل لكافة القوانين في ذلك الوقت ..."[1] .

هذا الدستور أعلنه السلطان عقب نفي مدحت باشا [2] ، وعين أحمد وفيق رئيسا لمجلس المبعوثين ، وانعقدت الجلسة الأولى تحت رئاسته ، فدارت فيها مناقشة وضع ا لمذكرة الواجب تقديمها جوابا على النطق السلطاني فتحررت مسودة الجواب وصادق عليها الجميع [3] .

عند ذلك أحال السلطان الشروط التي وصلت له من الدول الأوربية الى ناظر الخارجية العثمانية الذي قدم هذه الشروط الى مجلس المبعوثين المنعقد هناك ، وشرح لهم ماتحتويه هذه المذكرة ، وبين لهم أحوال السياسة الخارجية ، وأفهمهم بأن رفض التسليم بماجاء في تلك المذكرة معناه الحرب مع روسيا ، وأظهر لهم اضطراب الأحوال المالية والضائقة المالية التي تمر بها الدولة من جراء ذلك لتأمين المؤن الحربية والغذائية للجنود .

وقد اعترض أكثر أعضاء مجلس المبعوتين ورفضوا هذه الشروط وأظهروا الحماس والغيرة الوطنية سواء في هذا المسلمون والمسيحيون ، وترفع الجميع عن قبول مثل هذه الشروط [4] .

فأصدر السلطان منشورا الى سفراء الدول المشتركة في الاتفاق لتبليغه الى دولهم بعبارة صريحة هي عدم قبول هذه الشروط او عدم الالتزام بهـــــا اذ من

---

(١) Osmanli Arsivi, Yildiz Esas Evraki, Zarf. No. 313.

(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .
، روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ، ج ٣ ن س ١٧ ، ١٩٠٨) ص ١٤٠ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٦٣١ .

(٤) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

المستحيل أن توافق عليها أي دولة تغار على شرفها ووجودها بين العالم السياسي[1].

وكمثال لذلك فقد قام ممثل حلب (مانوك الأرمني) فخطب قائلا : " ان روسيا لم تقم في أي وقت من الأوقات بحماية المسيحيين ، فان المسيحيين لم يقولوا بانهم في حاجة الى مثل هذه الحماية ، علما بأن مسيحيي تركيا يملكون الآن حكومة تحاول تلبية مطالبهم ، انني مسيحي أرمني وأريد أن أقول باسم شعب ولايتي بأننا غير محتاجين الى حماية روسيا ، اذ أننا مرتاحون وراضون بوضعنا ومستعدون لأن نضحي بأنفسنا وأموالنا في سبيل وطننا وسلطاننا لصد الاعتداء الروسي "[2] . وكان اخوانه من ارمن ومن مسيحيين على مختلف مذاهبهم ، واليهود ومن كان على شاكلتهم من حزب الأحرار والذين تتلمذوا على أيديهم يريدون الحرب مع روسيا لأغراض دفينة في أنفسهم . وقد أثبتت الأحداث التي تعاقبت صدق ذلك. وأن تأييدهم لاستخدام الأرمن كان من قبيل الخداع والتضليل بالدولة ، وقد ظهر ذلك النفاق عندما نشبت الحرب بين الدولتين روسيا والدولة العثمانية بعد حوالي شهرين من رفض هذه الشروط ، اذ قام الأرمن بتقديم معاونة صادقة للروس في حربهم في آسيا ضد الدولة ، ومع ذلك فان روسيا قد ابتلعت شرائح اقليمية من بلاد الأرمن سواء من أرمينية العثمانية أو من أرمينية الروسية دون الالتفات الى مسألة تحريرهم[3] .

وكأن القيصر أراد أن يتفادى الحرب مع الدولة العثمانية ، فتنازل عن شروطه الأولى وتقدم بعرض آخر للدولة العثمانية طلب فيه ترك قضاء (نيكشك) فقط من الجبل الأسود ، الا أن هذا العرض المخفف رفض من قبل الصدر الأعظم

---

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج٢ ، ص ص ١٦٣ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١٢٢-١٢٣.

(٣) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج٢ ، ص ١٠٧٠.

أدهم باشا بحجة عدم اتفاقه مع الدستور ، وانقطع أخر بارقة أمل ، وكان لابد من الحرب ، وهكذا بدأت روسيا باعلان الحرب على الدولة [١] .

وهذا أمر السلطان عبدالحميد الثاني بانعقاد مجلس المبعوثين بصفة مستمرة حتى انقضاء الحرب مع روسيا [٢] لدراسة المستجدات ورفع التقارير اللازمة والمشاورات في الأوضاع الأمنية والحربية . ودخلت روسيا الحرب والى جانبها الجبل الأسود ، ثم انضمت اليها رومانيا (البغدان والافلاق) وقد اتخذت هذه الحرب شكلا دينيا بين الدولة العثمانية الاسلامية والمسيحية السلافية . ولذلك كانت في نظر الفريقين جهادا مقدسا حياة أو موت [٣] .

وقد تمكن العثمانيون في بادئ الأمر من صد هجمات الروس ،ونتيجة لقلة التجهيزات العسكرية – نظرا لفراغ الخزينة العثمانية من المال – اتيح النصر للروس حتى تجاوزت جيوشهم نهر الطونة وجبال البلقان ، واستولوا على قارس ، وحاصروا ارضروم من جهة الأناضول [٤] فاحتشد الجيش العثماني في مدينة (بلفنة) ، واستحكموا في حصونها لصد الغزو الروسي ، وبدأ الروس حصار هذه المدينة ، وقد كلف الروس هذا الحصار ضحايا جسيمة لاستبسال الجنود العثمانيين وعلى رأسهم القائد العظيم عثمان باشا للدفاع بشجاعة عن تلك المدينة مما جعل الروس يستدعون جنود الاحتياط لديهم لمواجهة هذه الحرب .

وبقيت هذه الحملة العثمانية في الاستحكامات ثلاثة أشهر حتى نفذ الطعام من عندهم ، فاضطر قائدها عثمان باشا الى الخروج والهجوم على الجيش الروسي.

---

(١) عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٦ .
، أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١٢٣-١٢٤ .

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد . محمد حرب عبدالحميد ، ص ٥٠ .

(٣) عابدين حماده : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٤) عابدين حماده : المرجع السابق ، ص ٢٧ .
، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢، ص ١٦٣ .

غير أن كثرة الجيش الروسي أرغمته على الاستسلام . فأبلى عثمان وجنوده بلاءا حسنا اندهشت له أوربا تقديرا لشجاعة هذا القائد . وعلى أثر ذلك استولت الجنود الروسية على بلفتة ، ثم واصلوا تقدمهم نحو اسطنبول وكانت صربيا قد تمكنت من تنظيم نفسها ، فعادت وأعلنت الحرب ثانية على الدولة العثمانية ونقضت الصلح معها ، ووقفت بجانب الروس [1] .

لهذاانعقد مجلس المبعوثين الدائم تحت رئاسة حسن فهمي أفندي ودارت المناقشات حول حرب الروس مع الدولة ، واتخاذ الحلول المناسبة ولكن كثر الجدال بشأن محاكمة المرتكبين ، وقطع دابر المرتشين وتحسين أحوال المحاكم ، حتى قال أحد المبعوثين ان الجنود في الولايات تنهب الأهالي وأن المحاكم ترتشي على ابطال الحق ، وغير ذلك من الفساد ا لمنتشر في ذلك العصر [2] .

فقد كانت هناك نغمة أخرى هي محاسبة المسئولين عن نتائج هذه الحرب التي انتهت بالهزيمة ، فاتفق أعضاء مجلس المبعوثين على كتابة بيان يتهم فيه المجلس جميع المسئولين من مدنيين وعسكريين ويحملهم أسباب الهزيمة وقد صيغ البيان بأسلوب يوحي بأن السلطان نفسه يتحمل المسئولية ، وبدأت الاتهامات تتكرر بين الأعضاء ، فهذا يطالب بارجاع المنفيين السياسيين ، ثم تبين للسلطان أن بعض الأعضاء يريدون عودة مدحت باشا ، وهذا نائب ينتقد الحكومة لأنها لم تكن تأخذ آراء النواب في أمور الحرب [3] ، وقد نسي الجميع أن أسباب الحرب التي قامت بين الدولة وروسيا سببه مجلس المبعوثين وإصراره على الحرب عندما رفض شروط الدول .

---

(١) عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٧ .
، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

(٢) يوسف آصاف : المرجع السابق . ص ١٦٤ .

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١٣٦ .

لذلك أخذ المجلس يعطي انطباعا فوضويا ، وكمثل على ذلك أنه عندما بدأت الدعوات القومية تظهر وتعلن عن نفسها في وسط المجلس بكل جرأة بدأ لكل عين بصيرة أن كل هذه الحركات تسعى لتفتيت الدولة العثمانية [١] .

وفي تلك الفترة كان الروس يتابعون زحفهم على ممتلكات الدولة حتى استولوا على أدرنه وماجاورها [٢] ، فخشيت بريطانيا أن يستولى الروس على اسطنبول ، لذلك نراها ترسل أسطولا الى مضيق البوسفور لحماية الدولة ، ولكن الجنود الروس تقدموا حتى سان ستيفانو [٣] ، وهناك وقفوا ولم يجرؤوا على الدخول الى العاصمة اسطنبول ، خوفا من وقوع الحرب بينهم وبين بريطانيا(٤) .

لذلك استغل السلطان عبدالحميد الثاني وقوع الخلافات في مجلس الأعيان ووقوع الخلاف أيضا بين الدول حول هذه الحرب واستغنى عن مشورة مجلس المبعوثين وشكل بدلا عنه في ١٠/٢/١٢٩٥هـ الموافق ١١ فبراير سنة ١٨٧٨م مجلسا عاليا من وكلاء الدولة وأعيانها، وهذا المجلس استدعى اليه خمسة أشخاص من مجلس المبعوثين وهم الرئيس ووكيلاه وأحد مبعوثي اسطنبول وآخر يهودي للمداولة معهم في الحالة الحاضرة في أحداث الساعة ، وأصدر ارادته السنية في ١٣/٢/١٢٩٥هـ الموافق ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨م بتعطيل مجلس المبعوثين لأجل غير مسمى [٥] .

وقد قال بسمارك حول تعطيل السلطان للدستور ، عندما زار المشير علي

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١٣٦ .

(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

(٣) سان ستيفانو: ضاحية من ضواحي العاصمة اسطنبول في ذلك الوقت .
– عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٣٧.

(٤) عابدين حماده : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٥) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

باشا ألمانيا : " لقد أحسنتم صنعا بتعطيلكم المجلس ، ذلك لأن أية دولة عندما تكون متكونة من قوميات فان ضرر النظام البرلماني فيها يكون أكثر من فائدته"[١].

واذا كانت الظروف السياسية قد حتمت على السلطان قبول هذا الدستور أو المشروطية ، فان ظروف الحرب مع روسيا أيضا ساعدته على التخلص من هذه المشروطية بعد مرور سنتين من اعلانها ، ونفي وابعاد البارزين من المبعوثين[٢] . ونادى بالجامعة الاسلامية ، وتلك هي الحركة التي تشير اليها بعض الكتب بالانقلاب الحميدي [٣] .

وعندما كان السلطان عبدالحميد الثاني يرى أن الحروب الصليبية ضد الدولة العثمانية دائمة ومستمرة لاتنقطع ، وهذه ماهي الا امتداد للحروب الصليبية السابقة حتى ولو أخذت أشكالا سرية متعددة ، لذلك كان يعمل - بالاسلام - على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم في صف واحد لكي يمكنهم الصمود أمام الغرب وتحدياته للشرق كما كان يرى ضرورة امتداد تأثير الوحدة الاسلامية الى كل مسلمي آسيا وكان يرى أيضا ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الاسلامية بين كل المسلمين في العالم في الصين والهند وأواسط آسيا وأفريقيا وغيرها من البلدان والقارات ، وحتى مع ايران. وفي هذا يقول : (ان عدم وجود تفاهم مع ايران أمر جدير بالتأسف عليه ، واذا أردنا أن نفوت الفرصة على الانجليز وعلى الروس فانا نرى فائدة في وجود تقارب اسلامي في هذا الأمر) [٤] .

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١٣٧ .

(٢) محمد قربان نياز ملا: السلطان عبدالحميد الثاني ، (الطبعة الاولى ، مكة ، مكتبة المنارة ،و١٤٠٨هـ) ص٥٥ .

(٣) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالازمنة الحديثة . مجلة الدارة العدد ٢ ، السنة ١٧ ، ١٤٠٦هـ) ص ٨٣ .

(٤) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٧ .

هذا هو هدف السلطان عبدالحميد من الجامعة الاسلامية التي كان يرى أنها هي السبيل الأفضل لتوحيد صف المسلمين قالبا وقلبا ضد أعداء الاسلام وخاصة السلافية التي ينادي بها الروس ،ومحاولة الانجليز استغلال الدول الاسلامية وهدم أركان الاسلام بتصدير الأفكار الهدامة ودون أن يعرف أحد سياسة عبدالحميد وأهدافه السامية من قيام الجامعة الاسلامية ، فالغزو الفكري سيطر على عقول الأحرار الذين يريدون دستورا غربيا دون فهم نصوصه بل مستوردا لاينطبق على المسلمين .

ولهذا رأينا السلطان يتخذ من خط سكة حديد الحجاز وسيلة لتنفيذ فكرة الجامعة الاسلامية ، معارضا في ذلك القومية الطورانية وغيرها من الأمور التي تدعو الى الخروج عن التعاليم الاسلامية ، فيقول " المهم هو اتمام خط السكة الحديدية بين دمشق ومكة في أسرع وقت ... ففي هذا تقوية للرابطة بين المسلمين ،كما أن فيه أيضا اتخاذ هذه الرابطة –بعد تقويتها – صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخدع الانجليزية ".

وقد استعان السلطان في مجال الجامعة الاسلامية بجمال الدين الأفغاني الذي كان ينادي بهذه الجامعة وقربه منه لنشر هذه الأفكار بين العالم الاسلامي للتضامن حول هذه الجامعة [1]

وهكذا فقد هددت روسيا الدولة العثمانية بعد أن وصلت الى مشارف اسطنبول باحتلال اسطنبول ، الا أن بريطانيا دخلت بأسطولها الحربي لمواجهة الروس في بحر مرمره ، ورست به ، ولوحت باستعدادها للدخول في حرب مع الروس لو حاولت التقدم الى اسطنبول [2] . ولكن روسيا أجبرت الدولة العثمانية

---

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٧-٨

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١٢٨ .

على توقيع معاهدة سان ستيفانو (Sanstefano) في ٢٨ من صفر سنة ١٢٩٥هـ الموافق ٣ من مارس سنة ١٨٧٨م (١) . ففقدت بموجبها الدولة ا لعثمانية المناطق التالية :

رومانيا وصربيا والجبل الأسود والتي نالت استقلالها .

كما قامت دولة بلغارية كبرى تمتد من الدانوب حتى أدرنه ومن سلانيك حتى البحر الأسود (وهي في الظاهر مستقلة ولكنها تخضع لروسيا) .

وأعطت الدولة روسيا مقاطعة بساربيا التي كانت خسرتها على إثر انكسارها في حرب القرم.

ثم اعترف السلطان بالاستقلال الداخلي لمقاطعتي البوسنة والهرسك (٢) .

وقد أثارت هذه المعاهدة الرأي العام الأوربي والحكومات الأوربية فحاول السلطان عبدالحميد بكل الطرق الدبلوماسية ابطال هذه المعاهدة مستفيدا من هذاالتذمر الأوربي ، وأخيرا اتفق مع بريطانيا سرا على اعطانهم جزيرة قبرص مقابل ابطال معاهدة سان ستيفانو ، والدفاع المسلح عن شرق الأناضول ضد الروس اذا دعت الحاجة (٣) .

لهذا أرغمت بريطانيا روسيا على اعادة النظر في معاهدة سان ستيفانو ولهذه الغاية عقد مؤتمر برلين في سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م وفيه ألغيت معاهدة سان ستيفانو حيث أدخل عليها بعض التعديلات ومن أهمها :

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ العاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة (مجلة الدارة ، لعدد ٢، السنة ١١ ، ١٤٠٦هـ) ص ٨٣ .

(٢) Osmanli Arsivi, Yildiz Tansnifncinsi : Muahede Nama, Namarasi, No.: 19, 1878.

(٣) عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٩ .

المادة (١) أصبحت بلغاريا دولة صغيرة تتمتع باستقلال داخلي تابعة للسلطان ولها حكومة مسيحية ، ومليشيا قومية .

المادة (١٣) اقتطعت منها الروملي الشرقية والحقت بالدولة ، على أن تحكم بواسطة حاكم مسيحي ، وتتمتع بادارة خاصة ، كما اقتطعت منها مقدونيا وألحقت بالدولة بدون قيد أو شرط .

المادة (٢٥) وضعت مقاطعتا البونسة والهرسك تحت الادارة النمساوية على أن تبقيا تابعتين اسما للسلطان العثماني .

المادة (٥٣) أيد المؤتمر مانصت عليه معاهدة سان ستيفانو من استقلال رومانيا وصربيا والجبل الأسود استقلالا تاما [١] .

أما النتائج التي ترتبت عل هذا المؤتمر فقد قضي على السيطرة الروسية في البلقان ، وأوقفت المطامع السلافية [٢] .كما نرى ذلك في البنود التالية :

المادة (٦٢) أوضح الباب العالي تطوعه بحفظ مبدأ الحرية الدينية وسجلت الأطراف المجتمعة هذا التصريح العفوى : بان الباب العالي لن يعوق الاختلافات الدينية بين الأشخاص في أي مكان من الدولة العثمانية في الوظائف أو ممارسة المهن والصناعات المختلفة ، والجميع سوف يقبلون للشهادة أمام المحاكم بدون تفرقة دينية ، كما أن حرية العبادات وممارستها الخارجية مكفولة للجميع ... رجال الكنيسة والحجاج والرهبان من كل الجنسيات الذين ينتقلون في مناطق الدول الأوربية أو الاسيوية يتمتعون بتلك الحقوق والمميزات والحماية الرسمية المعترف بها

---

(١) Osmanli Arsivi , Yildiz, Tansnifncinsi : Muahede Nama, Numarasi, No.:171.

(٢) عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٩ .

للدبلوماسيين وقناصل الدول في تركيا العثمانية ، وحفظ مؤسسات رعايا الدول الدينية والجمعيات الخيرية (الماسونية وغيرها) مكفولة في البلاد العثمانية ، وخاصة ماكان منها في الأماكن المقدسة (فلسطين)[1] . ولكن الدولة في هذا الوقت طبقت هذه المادة التي نصت على المساواة رسميا بين المسلمين والنصارى في كافة الحقوق والمزايا حتى الشهادة تقبل من المسيحي على المسلم دون التقيد بنصوص الشريعة الاسلامية في هذا البند ، وقد قبلت الدولة تطوعا هذه الشروط .

وقدأشار البند رقم(٦١) الى تعهد الباب العالي بدون تأخير تنفيذ الاصلاحات او التحسينات التي تتطلبها المقاطعات التي يقطنها الأرمن ضد الشراكسة والأكراد وسوف تخطر الدول التي ستشرف على التنفيذ بمراقبة هذا الاصلاح [2] .

معنى هذا أن الدولة العثمانية أصبحت تحت سيطرة الدول الأوربية أو تحت مظلتها توقع على مايملى عليها .

ونعود الى موضوع الغاء المشروطية الأولى من قبل السلطان عبدالحميد الثاني والتي اعتبرها الاحرار اهانة لهم بعد فرضها ، فأخذوا يسعون في اعادة المشروطية بأقلامهم [3] وفي ندواتهم داخل الدولة وخارجها .اذ يرون فيه أن مرور الدولة بالأزمات المتكررة والمتوالية هي التي جعلت بعض ا لعثمانيين يعتقدون أن الحل هو اقامة حكومة على النسق الأوربي وخلق نوع من التعاون بين المسلمين وغيرهم في الدولة لتتجنب تدخل الدول الأوربية ، وهؤلاء كانوا دستوريين

---

(١) Osmanli Arsivi Yildiz Tansnifncinsi:Muahede Nama,Numarasi,No.171.

(٢) Ibid .

(٣) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني .. مجلة الهلال ، ج ١ ، س ١٧، ١٩١٨م) ص ١٣.

لاحبا في الدستور في حد ذاته ، ولكنهم رأوا فيه حلا لأزمات الدولة الخارجية.

وترتبط هذه التطورات التاريخية في هذه الفترة بالطورانية أو القومية التركية وتركيا الفتاة [١] ، التي أعادت المشروطية الثانية في سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م .

ولهذا الغرض فقد شكلت سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية في اسطنبول جمعية سرية هدفها الواضح عزل السلطان عبدالحميد الثاني .

فكان تكوين هذه الجماعة معناه تحديد البداية الحقيقية لحركة تركيا الفتاة، وكان المحرك الرئيسي لهذه الحركة طالب الباني ماسوني اسمه ابراهيم تيمو او ادهم كما كان يدعي ذلك أحيانا .

لقد قضى تيمو في هذه المدرسة بضع سنوات طالبا ، فتوفرت له فرصة كافية للتعرف على عدد من الطلاب الذين يفكرون على شاكلته [٢] .

ففي ٢١ من مارس سنة ١٨٨٩م المصادف سنة ١٣٠٧هـ ناقش تيمو ثلاثة طلاب من أصدقائه ، وقد تعرف على آرائهم وهم اسحق سكوتي من ديار بكر ، وعبدا لله جودت من قونية ، ومحمد أمين من قوقاسية [٣] ،وطرح عليهم

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي: التارخ المعاصر وعلاقته بالازمنة الحديثة (مجلة الدارة ، العدد(٢) السنة ١٧ ، ١٤٠٦هـ) ص ٨٣ .

(٢) ارنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ترجمة صالح العلي ، (بيروت ، نشر فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ، ١٩٦٠م) ص ٤٩-٥٠ .

(٣) أرنست أ. رامزور : المصدر السابق . ص ٥٠ .
الا أن يوسف آصاف : يضيف على ذلك طالب رابع اسمه " حكمت أمين من قونيه " .
- تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ١٦٦.

فكرة تشكيل جمعية وطنية سرية ، وقد أصبح هؤلاء الطلاب الأربعة هم النواة للجمعية الأولى لتركية الفتاة والتي كانت تدعى " الترقي والاتحاد" لا " الاتحاد والترقي " والذي اتخذته اسما لها واشتهرت به فيما بعد [١] .

وقد رفعت هذه الجمعية شعاراتها المطالبة بالاصلاحات الدستورية ، ومنها اعادة الدستور ،والعمل بالمشروطية للمساواة بين أجناس الرعية ، والحصول على الحرية في القول والعمل ، وسلامة الأرواح والأموال ، وتقييد سلطة السلطان بالقوانين [٢] . فانضم الى هذه الجمعية بعض تلاميذ المدارس وأرباب الأقلام ، وذلك خلال مدة وجيزة من تأسيسها أمثال شرف الدين مغمومي ، وكريتلي شفيق ، وجودت عثمان ، وكريم سيباطي ، ومكلي صبرى ، وسلانيكلي ناظم[٣] ، وأساف درويش ، وعلى رشدي ، ومحمد غيريد ، وحسن زاده على ، ونجيب ذارغا، وطلعت بك وشطين كقوصو الي ابراهيم ، وقد كان هؤلاء المؤسسين الأوائل لهذه الجمعية [٤] .

وكان تنظيم أو بناء هيكل هذه الجمعية على طراز جمعية الكاربوناري الايطالية التي تشكلت في القسم الأول من القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقسم الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، ففي العطلة الصيفية للسنة التي سبقت تشكيل هذه الجمعية توقف تيمو في مدينة برنديزي عندما كان في طريقه الى بلاده ألبانية ، وزار خلال اقامته في برنديزي ونابولي محفلا ماسونيا برفقة أحد أصدقائه ، وتعلم تعليما كافيا عن دور الكاربوناري في التاريخ الايطالي . وقد

---

(١) أرنست .أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ص ٥٠ .

(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ،ج ٢ ، ص ١٦٦.

(٣) أرنست أ.رامزور : المصدرالسابق . ص ٥٠ .

(٤) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٢٧١.

تأثـربتنظيماتها الماسـونية فيما بعـد ، حـين قـرر أن ينشئ في تركيـة جمعيـة سـرية تشبهها[1] .

ويبدو أن ابراهيم تيمو قد تدرب جيدا على أيدى الماسون الايطاليين ولهـذا اتبع الطريقة الماسونية هو وزملاؤه عنـد عقـد اجتماعـاتهم واجـراء مراسـيم قبـول عضوية هذه الجمعية [2] .

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ يوسف آصاف : " اتخذوا في قبـول الأعضـاء وادخالهم في هذه الجمعية طرقا تشبه الطرق الماسـونية وزادوا عليهـا أسـلوبا غريبـا بأن يأمن الداخل كشف أمره وحتى بين اخوانـه أعضـاء الجمعيـة بحيـث أن العضـو الواحد لايعرف من سائر الأعضاء ولو كـانوا ألوفـا إلا اثنـين العضـو الـذي أدخلـه والعضو الذي توسط لإدخاله [3] .

أمـا صـاحب كتـاب تركيـا الفتـاة وثـورة ١٩٠٨ فيقـول : " كـان أثـر الكاربوناري فيها واضحا مـن حيـث أن المفـروض في اعضائهـا ان يعـرف بعضهـم بعضا بارقام كسرية ، وتتكون هذه الأرقام الكسرية من ترقيم كل خلية جديـدة في المنظمة ، ثم باعطاء رقم لكل عضو في تلك الجماعة فكان رقم الخلية أو الفرع هـو المقام ورقم العضو البسـط . ولتوضيـح ذلـك نقـول أن العضـو الخـامس في الخليـة السابقة كان يدخل في قائمة الجمعية برقم (٥/٧) وكان رقم ابراهيـم تيمـو منشـئ الحركة (١/١) " [4] .

وقد انتشرت أفكار هذه الجمعيـة وسـرت بـن طـلاب المـدارس العسـكرية ذلك لأن التعليم العسكري كان على اتصال بالثقافة الأوربية. ووعندما افتضح سر

---

(١) أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ص ٥٠ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد ا لثاني ، ص ٢٧١ .

(٣) تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج٢ ، ص ١٦٦ .

(٤) أرنست أ. المصدر السابق ، ص ٥٠-٥١ .

الجمعية عن طريق ثلاثة طلاب ، قدموا الى القصر السلطاني تقريرا يبينون فيه نشاط هذه الجمعية في سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م غادر بعض أعضائها البلاد الى باريس خوفا من أن يقبض عليهم السلطان عبدالحميد الثاني لنشاطهم المعادي للدولة ، ولاستكمال دراستهم ، ومنهم خليل غانم العربي المسيحي الذي أصدر في جنيف جريدة " الهلال " ثم جريدة (تركيا الفتاة) في باريس وأيضا سلانيكلي ناظم الذي استطاع أن يكمل تحصيله في الطب بفرنسا في الوقت الذي لازال يعارض أفكار السلطان عبدالحميد الثاني [١] . وخلال تلك الفترة ، هرب الى فرنسا أحمد رضا بحجة زيارة معرض باريس حيث أصبح هناك من أشهر رجال الاتحاد والترقي كما سيأتي .

ومن باريس بدأ يرسل الى السلطان عبدالحميد الثاني برسائل ينتقد فيها الأوضاع ، ويبدي فيها رأيه في كيفية الاصلاح ، وعندما سمع به الاتحاديون في باريس عرضوا عليه أن يمثل الجمعية في باريس ، فلم يتردد أحمد رضا من القبول، وهناك تبدل اسم الجمعية الى" جمعية الاتحاد والترقي "

وبعد وصول سلانيكلي ناظم الى باريس ، اتصل باحمد رضا رئيس جمعية الاتحاد والترقي ، واقترح عليه أن يكون مديرا للصحيفة التي أصبحت فيما بعد اللسان الرسمي للجمعية ، وبدأوا بالتعامل مع خليل غانم وعدد من المنفيين باصدار صحيفة " مشورت " التي كانت تصدر مرتين في الشهر وكانت تطبع باللغة التركية فقط ، لأنها كانت تستهدف القراء داخل الدولة العثمانية ، غير أن أحمد رضا ألحق بها ملحقا بالفرنسية .

---

(١) أرنست أ.رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م - ص ٥٠-٥٣.
، محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية ، (الطبعة الثانية ، ملتزم الطبع والنشر : دار الفكر العربي ، ١٩٧٨م) ص ١١٨-١١٩.

وكـانت " مشـورت " الصحيفـة الرسميـة لجمعيـة الاتحـاد والـترقي ويذكـر رامـزور أنـه : " ... في كـانون الأول – ديسـمبر ١٩٨٥م نشـرت " مشــورت " مقالا بنت فيه أهداف الجمعية وقدمتها الى قرائها ... وكان عنوان المقال "منهاجنا" وجاء تحته :

ان لجنة الاتحاد والترقي العثمانية أنشـأت في بـاريس صحيفـة " مشـورت " رغبة منها في اظهار وجودها ،ونظرا لأن الطباعة مقيدة في تركيا كما هـو معـروف " والملحق الفرنسي سيجعل القراء الاجانب على اتصال دائـم بميـول حـزب تركيـا الفتاة ورغباته .. اننا نرغب العمل لا لخلع الأسرة الحاكمـة الـتي نعتبرهـا ضروريـة لحفظ النظام السليم . ولكن لنشر فكرة التقدم التي نريد لها نصرا سليما. ولما كـان شعارنا هو " النظام والــترقي " فاننـا نطـالب بالاصلاحـات ولانقصرهـا علـى هـذه الولاية أو تلك ، بل نطلبها للامبراطورية كافــة ، لا لمصلحـة قوميـة واحـدة ، بـل لمصلحة العثمانيين كافة سواء كــانوا يهـودا اونصـارى أو مسـلمين . اننـا نريـد أن نتقدم في مضمار المدنية ، ولكننا نعمل بعزم أننا لانريد أن نتقدم الا بـالطريق الـذي فيه تدعيم العنصر العثماني واحترام ظروف وجوده الخاصة .

اننا مصممون على رعاية أصالة حضارتنا الشرقية ، ولهذا السـبب لانـأخذ من الغرب الا النتائج العامة لتطوره العلمي والأشياء التي يمكن هضمها حقـا وهـي ضرورية لتوجيه الشعب في سرية نحو الحرية ..."(١) . " اننا نعارض احلال التدخـل المباشر للدول الغربية محل السـلطنة العثمانيـة وهـذا ليـس ناجمـا عـن التعصـب لأن المسألة الدينية عندنا أمر خاص ، ولكنه منبعث من العاطفة المشروعة للكرامة المدنية والقومية ".

---

(١) أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ م ، ص ٥٦-٥٧.
، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦٧.

ومن الواضح ان هذا المنهاج هو عمل أحمد رضا رئيس جمعية الاتحاد والترقي لاتفاقه مع أنصاره على نقطة واحدة وهي التتريك والأخذ عن أوربا وقد ظلت هذه النغمة هي الأساس الذي تغلغل في منهاج أعضاء تركية الفتاة المتأخرين على الرغم من الآراء المعارضة لها في بعض الأحزاب الاسلامية كما سيأتي الحديث عنه ، ففي هذه اللحظة كانت الجمعية تدبر انقلابا في اسطنبول [1] لابراز مهمتها الى حيز العمل عندما أخذت تنتشر بسرعة الأمر الذي كان يثير الدولة وخاصة عندما قررت خلع السلطان عبدالحميد واعادة السلطان مراد أو تنصيب ولي العهد (محمد رشاد) مكانه وأسندوا تنفيذ هذه المهمة الى (علي كاظم باشا) قائد الفيلق الأول في اسطنبول . وعندما كانوا يتحفزون للعمل لتنفيذ المؤامرة اذ قدم نجيب باشا سفير تركيا في مدريد سابقا واعترض على ذلك لأن القوة التي كانت تحت يد كاظم باشا غير كافية لتنفيذ هذه المهمة ، فأخروا تنفيذ هذاالقرار الى وقت لاحق ، هذا التأخير أفسد العمل كله وحدث لأجل ذلك ضجة بين أعضاء الجمعية حتى أن نادر بك سكرتير الجمعية المركزية في اسطنبول اعترض على التأخير بصوت جهوري قائلا : " ياصديقي اني آسف لعنادك لأن التأجيل الى الغد يضرنا وويل للذين لايكونون معنا " ووقعت كلماته في أذن أحد رجال السلطان ، فوشي به الى المابين فساقوه الى السلطان ، وبعد التحقيق اعترف بأسماء كثيرين من الأعضاء ،فأرسل السلطان قواته للقبض على عدد من أعضاء الجمعية [2] الأصليين ومنهم عبدا لله جودت ، واسحاق سكوتي ، وشرف الدين مغمومي ،

---

(١) أرنست أ.رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م . ص ٥٧-٥٨.

(٢) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني .. (مجلة الهلال ، ج ١ ، س ١٧ ، ١٩٠٨م) ص ١٩-٢٠ .

. يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان . ج ٢ ، ص ١٦٧ .

وكريم سيباطي ، حيث تم نفيهم. كما تم القبض على وتشروكسولا ، وأحمد بك وهو مدرس في المدرسة الحربية ، فنفيا الى رودوس غير أنهما استطاعا أن يصلا الى باريس . وأما عبدا لله جودت فقد أرسل الى طرابلس الغرب ، فاستطاع أن يعبر الحدود الى تونس ثم انتهى به المطاف الى باريس في صيف سنة١٣١٥هـ/١٨٩٧م

أما ابراهيم تيمو فقد خرج من البلاد قبل أن يقبض عليه ، وذهب الى رومانية حيث نظم فرعا للجمعية ، ونشر صحيفة لتركيا الفتاة [١] .

ومن الملاحظ أن السلطان عبدالحميد في كل مرة يقبض على رجال الاتحاد والترقي كان يخفف عنهم الحكم ، اما بالنفي أو بالسجن لفترة ثم يطلق سراحهم . ياللعجب .. يريدون قلب حكومته وهو يعاملهم باللين وفي هذه المرة نراه يكتفي بنفي هؤلاء الذين ارادوا خلعه الى خارج البلاد !

ولقد قال السلطان عبدالحميد الثاني ذات مرة : " انهم يدفعونني لكي أسلك الشدة والعنف ، ولكننى لا أستطيع ذلك لأنني لا أملك نفس المزاج العنيف الذي كان يملكه جدي السلطان محمود الثاني "[٢] .

الا أن مراد بك الداغستاني رفع الى السلطان قائمة بالاصلاحات التي اعتبرها ضرورية لاصلاح الدولة ، ومراد هذا معلم للتاريخ في الكلية المدنية باسطنبول انضم الى جمعية الاتحاد والترقي ، وخلال الاحداث السابقة تطوع برفع هذه القائمة ، وقد ارتأى ماكان يدعو اليه أحمد رضا رئيس الجمعية في باريس ، فرأى السلطان نفيه فاختار مصر حيث أسس جريدته " الميزان" التي أخذت تتسرب خفية الى أيدى الثوار من الماسونيين في اسطنبول [٣] .

---

(١) أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م، ص ٥٨ .

(٢) أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٧٣.

(٣) أرنست أ. رامزور : المصدر السابق ، ص ٥٩ .
، محمود منسي : حركة اليقظة العربية ، ص ١١٩.

وبهذا النفي والهرب زاد عدد الأتراك في المنفى من الخارجين على سلطة الدولة والشريعة الاسلامية وممن تأثروا بالماسونية وتثقفوا بالثقافة الأوربية وخاصة بعد افتضاح أمر المؤامرة التي دبرت للاطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني في سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م ، وقد تركز نشاط حزب الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة في تلك الفترة في باريس [١] .

أما مراد الداغستاني فقد أشارت عليه جمعية الاتحاد والترقي أن ينتقل الى جنيف ، ووضعت له بعض الشروط والتنظيمات ومن أهمها عدم نشر مقالاته في جريدتي (ميزان ومشورت) الا بعد مصادقة شعبة الاتحاد والترقي في جنيف ، وكان مراد بك الداغستاني رئيسها ، ورضا بك عضوا فيها .

اضافة الى ذلك فقد اجتهد مراد بك لاعادة مركز جمعية الاتحاد والترقي الى اسطنبول ، فأنشأ فرعين في مدرسة بانقة العسكرية باسطنبول أحدهما عرف باسم حسين عوني ، والثاني عرف باسم سلميان ، وقد استعان هؤلاء الطلاب بطلاب كلية الطب لاجراء مظاهرة صاخبة حول قصر يلدز ، والمناداة باعادة الدستور أو المشروطية ، فقبض الجيش على زعيم هذه الجمعية الذي أفادهم بأسماء الثائرين معه ، فقبض عليهم وحوكموا في طاش قشله تحت رئاسة رشيد باشا. فحكم عليهم وأعدم بعضهم وحبس بعضهم لخروجهم على طاعة السلطان [٣] .

وقد حاول السلطان عبدالحميد الثاني عرقلة نشاط الجمعية في باريس بالتدخل الدبلوماسي ،وباستخدام الوسطاء حتى نجح في اقناع مراد بك الداغستاني بالتخلي عن نشاطه الثوري والعودة الى اسطنبول [٤] .

---

(١) محمود منسي : حركة اليقظة العربية ، ص ١١٦ .

(٢) روحي الخالدي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ، ج ١ ، س ١٧ ، ١٩٠٨م)ص ٢٢.

(٣) روحي الخالدي : المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٤) محمود منسي : المرجع ا لسابق ، ص ١١٦ .

وتفصيل ذلك أن السلطان رآى أن اتباع سياسة الشدة لاتفيد في القضاء على جمعية " الاتحاد والترقي " فعمد الى الدبلوماسية في استرضائهم، فأرسل الى مراد بك ، وأحمد جلال الدين باشا ، فأبلغه أن السلطان يوافق الثوار على الاصلاحات المطلوبة ، ولكنه يسألهم هدنة يتمكن خلالها من وضع خطة متكاملة للاصلاح . وقد دعا زعماء الحزب في اسطنبول ، وعرض عليهم استبقاء حياتهم والانعام عليهم اذا أذعنوا، ورجعوا ، واذا أبوا زادهم اضطهادا وقتلا ، فوافق الثوار على الشروط التالية :

١ - يوافقون على الهدنة ولكنهم لاينزعون سلاحهم .

٢ - يرفضون كل انعام أومكافأة شخصية .

٣ - ان مراد بك مندوب الثوار يصل أولا بمفرده تحت رعاية الدولة فيعرض نفسه لهذا الخطر رغبة في المصلحة العامة .

٤- يتعهد السلطان بالاصلاحات المطلوبة ، ويعفو عفوا عاما عن جميع أعضاء الثورة .

٥- أحمد رضا بك يبقى على رئاسة الحزب الى أن تنجز الوعود .

فبعث جلال الدين مندوب السلطان تلغرافا الى السلطان بهذه الشروط ، فجاء الجواب بالايجاب وبالعفو العام عن الثوار العثمانيين سواء كانوا في السجون أو في المنفى ، وبناء على ذلك انحلت جمعية الاتحاد والترقي [1] . الا أن هناك بعض المتمسكين الذين لايزالون يطالبون بالاصلاح لم يوافقوا على الهدنة التي وافق عليها السلطان ومراد بك ، بل ظلوا باقين على آرائهم ، وعلى رأسهم رئيس جمعية الاتحاد والترقي أحمد رضا ، ولكنهم استسلموا للهدنة فيما بعد مضطرين .

---

(١) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ، (مجلة الهلال ، ج ١ ، س ١٧ ، ١٩٠٨م) ص ٢٣.

وفي سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ظهرت الجمعية في ثوب جديد وذلك عندما هرب الى باريس الداماد محمود باشا صهر السلطان عبدالحميد الثاني وزوج شقيقته ومعه ولداه صباح الدين ولطف الله ، وكان هروبهم الى باريس خفية ودون علم السلطة بعد أن استطاعوا الافلات من الرقابة ، حيث انضموا الى الثوار الأتراك في باريس [١] ، وبعد وصول محمود باشا الى باريس أول مافكر فيه هو احياء جمعية الاتحاد والترقي التي كان يرجو فيها صلاح الدولة ، وذلك لاختلافه مع السلطان لحكمه الاستبدادي كما يقول . لذلك مال الى الحركة الدستورية لقلب الحكم ، فكتب الداماد محود باشا الى أحمد رضا مدير جريدة (مشورت) يدعوه الى الظهور وتأييد أفكاره فأجابه لطلبه وحقق رغبته ، ثم كتب الداماد الى السلطان في ٢١ من يناير سنة ١٩٠٠ الموافقة لسنة ١٣١٨هـ كتابا شديد اللهجة ذكر فيه الأسباب التي حملته على الخروج وضمن هذاالكتاب كثيرا من النقد والتجريح للسلطان ودولته .

فأذن السلطان عبدالحميد لرجال الدولة وسفراء الدول أن يتوسطوا بالصلح بينه وبين صهره في باريس لاسترضائه ، ولكنه أصر على موقفه وهو " الاصلاح والعودة الى الدستور الوضعي والعمل على تحقيق الاهداف التي يريدها". غير أنه لم يلبث أن أصيب بمرض مات على اثره في ١٨ من يناير سنة ١٩٠٣م الموافقة لسنة ١٣٢١هـ" [٢] . فانضم ولداه صباح الدين ولطف الله الى الثوار الأتراك في باريس ، وكان مطلبهما الوحيد هو حرب السلطان عبدالحميد الثاني والقضاء على حكمه ،ولكنهمااختلفاحول طريقة ادارة الدولة بعد ذلك ، حيث كان أحمد رضا وأنصاره يصرون على قيام حكم مركزي في اسطنبول تجتمع في يده

---

(١) محمود منسي ، حركة اليقظة العربية، ص ١١٦ .

(٢) روحي الخالدي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال،ج١،س١٧، ١٩٠٨م)، ص ٢٤-٢٥.

كل السلطات ، أما صباح الدين وزملاؤه فقد كانوا يريدون تطبيق اللامركزية وتوسيع صلاحيات الولايات ، ويدعون الى تكوين اتحاد عثماني يكون فيه التمثيل لمختلف قوميات الدولة [1] .

لهذاتفرغ الأمير صباح الدين لنصرة الثوار فجمع المشتتين منهم في أوربا وغيرهم فبلغ عددهم حوالى سبعة وأربعين فردا من أمم شتى فيهم العربي واليوناني والكردي والألباني والشركسي واليهودي والأرمني والتركي اجتمعوا من مصر وبلغاريا وجنيف وباريس ، فتألف منهم جمعية تحت رئاسة صباح الدين فألقى فيهم خطابا شجعهم وأحيا آمالهم ،وحثهم على الثبات ، وجمع كلمتهم المختلفة تحت اسم الثوار الأتراك بلا تمييز في المذهب أو الجنس ، وحث على الوحدة بين الطوائف التركية في الدولة .

ثم طالب الدول الأوربية بمساعدته ماليا وعسكريا ومعنويا ، ووضع برنامجا مطولا للجمعية وافق عليه الثوار الا أنصار احمد رضا الذين شق عليهم تدخل الدول الأوربية ، لأن هذا مما ينافي هدفهم المعلن ، وكتب زعيمهم في جريدته " مشورت " فصولا عديدة عن ذلك التحرك [2] .

وعلى اثر ذلك عادت جمعية الاتحاد والترقي في الظهور من جديد في باريس للعمل ،وتألفت لجنتها من جديد للبحث في تفاصيل الاصلاح اللازمة للدولة من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليم وغير ذلك من الأمور .

كما أوصى أعضاء الجمعية بنشر الجمعيات والشعب في أنحاء المملكة العثمانية توصلا الى هذه الغاية . فتعددت الجميعات والشعب في الدولة العثمانية

---

(١) أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ص ٩٩.
، محمود منسي : حركة اليقظة العربة ، ص ١١٦ .

(٢) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني .. (مجلة الهلال ، ج ١ ، س ١٧ ، ١٩٠٨م)، ص ٢٥-٢٦.

وخاصة في أواسط آسيا الصغرى .

أما صباح الدين فقد أنشأ صحيفة في سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م سماها "ترقي" لمخاطبة مختلف الطوائف داخل تركيا وخارجها ، وسعى الى التقريب بين العناصر المختلفة في الدولة ،وخاطب الأرمن على وجه الخصوص بكتاب مفتوح حضهم فيه على الوفاق ،وقال لهم : " انكم تطلبون توسط أوربا في انقاذكم فهذا مطلب الأتراك أيضا ، فمصلحتنا في هذا الشأن مشتركة ، فلنسع معا في هذا السبيل وأوربا ترحب بنا ، وتدعم مسيرتنا لأننا نقاوم الظلم والظالمين ".

وقد أدت خطبة صباح الدين الى جمع كلمة الثوار من الطوائف ،وجعل قاعدة سعيهم الاتحاد بين العناصر والمذاهب والاستعانة والاستغاثة بدول أوربا.. وعلى هذا المنهج والهدف قامت جمعية صباح الدين وأنصاره ، حتى حققت مطلبها وهو اعادة الدستور [1] بالتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي تحت قيادة أحمد رضا.

وعندما كانت حركة الاتحاد والترقي أو تركياالفتاة تسير في ثورتهاداخل الدولة العثمانية كان أحمد رضا وصباح الدين دائبين في عملهما ،وكانت صفوفهما تزداد عددا بين فترة وأخرى بالهاربين من اسطنبول الذين يطالبون باعادة المشروطية.

وبينما كان صباح الدين يكسب أنصارا من قوميات مختلفة كان معظم الأتراك تجذبهم القومية التركية الصريحة التي يدعو ا ليها حزب أحمد رضا (الاتحاد والترقي) أكثر مما تجلبهم دعوى عصبة صباح الدين (اللامركزية) الادارية والمبادرة الخاصة [2] .

---

(١) روحي الخالدي المقدسي : (الانقلاب العثماني .. (مجلة الهلال ، ج ١ ، س ١٧ ، ١٩٠٨م) ص ٢٦-٢٧.

(٢) أرنست أ.رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ص ١٣٦ .

وكان قصر يلدز قد كشف في سنة ١٣١٩هـ /١٩٠١م عن حركات ومؤامرة لاثنين من الأتراك هما سزاني بك والطبيب بهاء الدين شاكر ، فهربا قبل القبض عليهما من اسطنبول الى باريس لماذا؟ لأنهما كانا ينويان احياء جمعية الاتحاد والترقي داخل اسطنبول ، ولذلك اتصلا بأحمد رضا واتفقا معه على أن يعملوا سويا معا ، حيث استمر أحمد رضا في اصدار جريدته " مشورت " بالفرنسية ، فظهرت الى جانبهما صحيفة جديدة باسم " شوراي أمت " (شوري الامة) يحررها سزاني بك ، فتوسعت الجمعية ، وازدادت قوتها لدرجة كبيرة فلم يعد الأمر كفاح رجل وعدد قليل ، بل لم يعد أحمد رضا وحده صوت الجمعية الذي يناقش وقد استمرت الصحيفتان تصدران جنبا الى جنب وتصلان الى الدولة والى مراكز الثوار في كل مكان [١] . حتى انه في أواخر سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م تم التفاوض بين الجماعتين بعد عقد عدة مؤتمرات لتقارب وجهات النظر بين أحمد رضا رئيس جمعية الاتحاد والترقي والجمعية العثمانية (اللامركزية) تحت رئاسة صباح الدين ، وكانت الأخيرة ليس في بالها الا الاطاحة بالحكومة القائمة في تركية بالقوة . الا أن احمد رضا كان يستنكر دائما استعمال القوة لتحقيق الغايات التي ينشدها ، ويبدو أنه في النهاية اقتنع بالتضحية بمبادئه من أجل الوحدة ، ولمكانة الأمير صباح الدين تم المزج بين الجمعيتين ، ثم أسهم في البرنامج الذي أقره المؤتمر الثاني في عام ١٩٠٧م وهذا البرنامج يدعو الى تبديل الحكومة في الدولة العثمانية بالقوة اذا اقتضت الضرورة .

وتقرر أيضا أن يطلق على الجمعيتين الاسم المشهور وهو " جمعية الاتحاد والترقي العثمانية " عثمانلي ترقي واتحادي جمعيتي " [٢] ليتحدوا يدا واحدة ضد

---

(١) أرنست أ.رامزور : تركيا الفتاة والثورة ، ص ١٣٦ .

(٢) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلةالهلال ، ج١،س١٧، ١٩٠٨) ص ٢٨.

السلطان عبدالحميد الثاني حول اعادة المشروطية أو تغيير الحكومة لنشر هذا الدستور . اضافة الىذلك كانت هناك قوة أخرى تساندهم تتمثل في اليهود الذين انتشروا في كافة أقطار الدولة العثمانية ، وتجنسوا بالجنسيات الأجنبية للاستفادة من الامتيازات الممنوحة للأجانب يتحينون الفرص لمساعدة الجمعيات السرية في البلاد العثمانية ، مع أن الدولة سمحت لهم بالدخول الى أراضيها ، وعاملتهم معاملة حسنة ، الا أن هؤلاء اليهود كانوا يتحينون الفرصة للوصول الى فلسطين واحتلالها سواء كان ذلك بالطرق المشروعة أو الملتوية كما سنرى . مع أنهم عاشوا في أرغد عيش في البلاد العربية : في بيروت ، وفي سلانيك ، وفي بلاد الروم ، وفي الأناضول ، وكانوا هم السماسرة والأغنياء ، وعاشوا حياة مترفة ومريحة في الممالك العثمانية واعتبروا الأتراك أكبر أعدائهم وعلى رأسهم السلطان عبدالحميد[1] .

وفي هذا الصدد يذكر لنا مصطفى طوران معاصر هذه الأحداث أنه في سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م عقد مؤتمر للصهيونية العالمية في مدينة (بازل) بسويسرا،واشترك فيه (٢٠٤) من الأعضاء الصهاينة ، وبعد مناقشات طويلة توصلوا الى قرار حول تأمين وطن ليهود العالم ، وتقرر في هذا المؤتمر أن يكون هذا الوطن في الأرجنتين أو أوغندة . الا أن تيودور هرتزل أصر على أن يكون هذاالوطن في فلسطين ، فوافقته الأغلبية الساحقة ، فاتخذ القرار التالي : ضرورة نجاح هذه القضية ،ولو اقتضت صرف الملايين ، وقد أعطيت الصلاحية المطلقة لتيودور هرتزل لقاء تعهده بالوصول الى هذه الغاية [2] .

وكان يهود روسيا في هذه الفترة يهاجرون الى تركيا ، وقد تمكن بعضهم من

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٣-١٤ .

(٢) مصطفى طوران : المرجع السابق ، ص ١٥ .

الوصـول الى فلسـطين هربـامن اضطهـاد روسـيا ومـن رومانيـا [١] . وفي سـنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م علم تيودور هرتزل أن امبراطور ألمانيا ويليم الثاني وصـل الى اسطنبول بدعوة من السلطان عبدالحميد الثاني فاستغل تيودور هرتزل هذه الفرصة واتجه مسرعا الى اسطنبول لمحاولة الاتصال بالأحزاب هنـا ومعرفـةخططهم ، الا أن زيارة الامبراطور ويليم لاسطنبول كانت قد انتهت وبـدأ زيارتـه للقـدس ، فلحقـه هرتزل هناك وتمكن بعد أن توسط برئيس الوزراء الألماني (فون بولوف) من مقابلة الامبراطور ويليم حيث طلب مساعدته في تسهيل هجرة يهود العـالم الى فلسـطين ، فرد الامبراطور عليه قائلا : انه يمكنه المساعدة ولكن بشرط عدم المساس بحق حكم السلطان العثماني . فقبل هرتزل ذلك وطلـب منـه التوسـط في مقابلـة السـلطان . وقد بذل الامبراطور وساطته ، وفعـلا عـاد هرتـزل الى ا سـطنبول يحـدوه الأمـل ، ويرافقه قراصو زعيم الأقلية اليهوديةالتركية والحاخام ليفي موشـيه حاخـام اليهـود بعد أن بذل ويليم امبراطور ألمانيـا وسـاطته ، وتمكـن هرتـزل مـن مقابلـة السـلطان عبدالحميد الثاني في قصره بيلدز بعد أن مهدت سفارة ألمانيـا لهـذه المقابلـة . فقـدم هرتزل الى السـلطان عبدالحميـد الرشـوة قـائلا : مولانـا صـاحب الشـوكة جلالـة السلطان لقد وكلنـا عبيدكـم اليهـود وهـم يقبلـون الـتراب الـذي تدوسـون عليـه ويستعطفونكم للهجرة الى فلسطين المقدسة. ولقاء أوامركـم العاليـة الجليلـة نرجـو التفضل بقبول هديتهم خمسة ملايين ليرة ذهبية " .

وكان السلطان عبدالحميد على علم بقرار مؤتمرهم في سويسرا وعلى علم بوصـول المهـاجرين اليهـود مـن روسـيا الى الدولـة لذاكـان يعـرف مـايقصد هـــذا اليهودي من هديته [٢] .

---

(١) F.O.:424/222. Mr.Marling to Sir Eduard Grey.No.(2),3-1-1910.

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٦-١٧ .

وبعد أن استمع السلطان الى هذا العرض بكل هـــــدوء أمر الحرس بطردهم مـن القصر ، وأصدر على الفور أوامره بمنـع هجـرة اليهـود الى فلسـطين ،ووضـع كـل العقبات في طريقها [١] .

لكن اليهود لم يرتدعوا ، فنراهم يعودون مرة ثانية تدفعهم الى ذلك ضائقـة الدولة المالية التي كانت تمر بها لعلها تكون المدخـل الـذي يسـتطيعون منـه انـتزاع موافقة السلطان عبدالحميـد الثـاني بالسـماح لهـم بـالهجرة الى فلسـطين ، فعـادوا يحاولون مرة أخرى مقابلة السلطان ، ولما تمت لهم هذه المقابلة عرض هرتـزل علـى السلطان مبلغا ضخما تحت شعار تقديم العون للدولـة العثمانيـة ، مقـابل السـماح لليهود بالهجرة الى فلسطين . وماكاد هرتزل ينهي كلامـه حتـى قـال لـه السـلطان غاضبا : " لوكنت أعلم أنك جئت اليوم تطلب مني مارفضت اجابتك اليه من قبـل لما سمحت لك بالدخول. واعلم ياهرتزل ان فلسطين جزء من أرض الاسلام وأرض الاسلام لاتباع بالذهب والدراهم ، ولقد حصلنا على كل شـبر منهـا ببـذل دمـاء أجدادنا ، ولن نفرط بشبر منها قبل أن نبـذل كـل دمائنـا دفاعـا عـن هـذه الأرض المقدسة مهما كلفنا الأمر " [٢] .

لذلك ناصب هرتزل العـداء للسـلطان عبدالحميـد الثـاني ، فقـرر اليهـود الوصول الى أهدافهم عن طريق خلع السلطان بالوسائل السياسية الملتوية[٣].وهكذا فشـلت المسـاعي الصهيونيـة في انـتزاع أرض فلسـطين . لذلـــك نراهـــا تســتخدم الماسونية، والماسونية كما سبق الحديث عنها في الفصل الثالث ماهي الا واجهة من واجهات الصهيونية . لذلك قررت الماسونية التخلص من السلطان فمدت يدها الى

---

(١) F.O.:424/222. Mr.Marling to Grey, No.:(2),3-1-1910.

(٢) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٤٥-٤٦.

(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٧ .

جمعية الاتحاد والترقي لتبعث فيها الحياة ، وقد أدركت الماسونية أن دور وجهد بضعة أشخاص هاربين من الدولة العثمانية لن يكون مجديا على الاطلاق ، وأن الأسلوب المؤثر والفعال هو التسرب بين صفوف الجيش ، واصطياد ضباط من الشباب باستخدام كل أنواع المغريات للانخراط في سلك الماسونية . وكان الجيش الثالث هو الأنسب لهم فهو بعيد عن مركزالدولة أو في اقليم مضطرب مشحون بالفتن والحركات السرية [١] .

وفي الوقت الذي استمر فيه حزب الاتحاد والترقي يزاول نشاطه في باريس واسطنبول بعد اتحاده مع أحزاب أخرى تشكلت منظمة سرية بين ضباط الجيش الثالث في مناستر وقوصوه وسلانيك غايتها اسقاط حكم السلطان عبدالحميد واعادة الدستور وعهد المشروطية ، والتمسك بالدولة العثمانية ، وعدم التفريق بين المواطنين في الدين أو العرق ، وتقوية السلطة وجعل الجيش سندا للثورة .

ففي سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م قام طلعت بك موزع البريد مع سبعة من أصدقائه بتشكيل جمعية للاتحاد والترقي في سلانيك ، وعندما سمع أحمد رضا رئيس حزب الاتحاد والترقي في باريس بالخبر أرسل الطبيب ناظم الى سلانيك للاتصال بالتنظيم الجديد وتأييده ، فاتصل هذا الطبيب بطلعت بك ، وبعد المشاورات التي دارت بينهما تقرر أن يكون للجمعية فرع في باريس أطلق عليه اسم التنظيم الخارجي لجمعية الاتحاد والترقي [٢] .

ومن هنا نرى أنه في هذه الأثناء سرت شرارة صغيرة من هذه الحركة الى الجيش الثالث في مدينة سلانيك مركز يهود الدونمة الماسونيين فوجدت مرتعا خصبا لها. يقول أحد الاتحاديين : " كان الجيش الثالث يتمتع بنوع من الحرية العسكرية

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني .. ، ص ٢٨١.

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٤٩-٥٠.

ذلك لأن تدخل الدول العظمى في احداث الروملي ساعد على اكتساب هذا الجيش نوعا من الاستقلال لم تتمتع بها الجيوش الأخرى ، مما عمل على تهيئة تربة جيدة لفكر الحرية لنشاط هؤلاء هناك "[١] . فاحس المحفل الماسوني في سلانيك بأن طلعت سيكون له مستقبل كبير في الدولة العثمانية ، فاتصلوا به ، وسجلوه في قائمة الماسونيين ورقى طلعت الى عدة درجات في المحفل الماسوني ، وأصبح يتقاضى منه راتبا شهريا مقداره عشر ليرات انجليزية .

وقد كان الرأس المدبر في سلانيك هو عمانوئل قرا صو اليهودي ، وقد استطاع أن يتحتضن طلعت ويقربه منه [٢] .

ولكن السلطان عبدالحميد الثاني بلغه مايجري في أوساط الجيش الثالث في سلانيك عن طريق عيونه التي كان يبثها السلطان في كل مكان خوفا على تقويض أركان دولته ، وفي هذه اللحظة قدم طلعت وقراصو الى اسطنبول لتوثيق علاقة التنظيم بجمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول ، فألقى القبض عليهما واستجوبا أمام لجنة خاصة شكلت بقصر يلدز بصورة مستعجلة، وقد استطاع قراصو بدهائه أن ينقذ نفسه وينقذ معه طلعت اذ قال : نحن ماسونيون لاننكر ذلك لكننا لسنا أعضاء في جمعية سرية فاقتنعت اللجنة بكلامه [٣] .

لهذا نرى أن الجمعيات التي تأسست في داخل اسطنبول لم تستطع تحقيق أهدافها حسبما خطط لها ، وذلك بسبب صرامة المراقبة من السلطان لهذه الجمعيات ، ولكن اختيار رجال جمعيات الاتحاد والترقي سالونيك في مقدونيا مركزا لنشاطهم يعود الى أنها كانت أكثر المناطق اتصالا بالعالم الأوربي ، هذا الى جانب ضعف قبضة السلطان عبدالحميد نسبيا عليها ، اضافة الى أن نشاط

---

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني . ص ٢٨٠-٢٨١.

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني . ص ٤٩-٥٠.

(٣) مصطفى طوران: المصدر السابق . ص ٥٠ .

قوميات البلقان في المنطقة دفع الدولة الى حشد قوات عسكرية بها ، ونظرا لاضطراب هذه المنطقة فقد أنشئت ادارة دولية خاصة تحت اشراف خمس دول أوربية [١] وهي انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وايطاليا [٢] ، لهذا وجد الجيش العثماني الثالث نفسه في قلب دائرةالتدخل الأجنبي[٣] .

ففي عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م اتسعت جمعية الاتحاد والترقي وتفاقم خطرها خاصة بعد دخول اليهود في عضويتها ودخول يهود الدونمة خاصة المتسترين (Grrpricjew) والمقيمين في سلانيك .

وتعتبر هذه المدينة هي ا لمركز الرئيسي لدسائسهم ومؤامراتهم لأن هذه المدينة كانت تضم أكبر عدد من اليهود في تركيا ، معظمهم من اليهود الدونمة ، ورأى الاتحاديون أن نهاية السلطان باتت وشيكة الوقوع [٤] وخاصة عندما علموا في سالونيك باجتماع (ريفال) بين نيقولا الثاني قيصر روسيا وادوارد السابع ملك بريطانيا في سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م فانتابتهم المخاوف من احتمال فرض تضحيات جديدة على الدولة العثمانية ، وصار أعضاء الاتحاد والترقي يخشون أن تتنازل بريطانيا عن معارضتها التقليدية للأطماع الروسية ، وذلك معناه زوال الحكم التركي العثماني من أوربا [٥] .

لهذا قرر أعضاء الجمعية البدء بهذه الثورة والقيام بها يوم ذكرى مقتل

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٣-٩٤.
، محمود منسي : حركة اليقظة العربية ، ص ١١٧-١١٨.
(٢) ساطع الحصري : المصدر السابق ، ص ٩٤ .
(٣) محمود منسي : المرجع السابق ، ص ١١٨ .
(٤) حسان على حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش ، ص ٥٠.
(٥) محمود منسي : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

السلطان عبدالعزيز ، غير أن الظروف حالت دون تنفيذ ذلك فتأجلت من ٥ يونيه ١٩٠٨م الى ٢٣ من يوليو سنة ١٩٠٨م [١] .

ويذكر القائد التركي جواد رفعت اتلخان المعاصر للسلطان عبدالحميد الثاني بعض الدوافع التي عجلت بثورة سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م فيقول : " ان الصهيونية تريد تجريد السلطان عبدالحميد الثاني من سلطنته وثروته وأملاكه انتقاما منه لعدم افساح المجال له للقيام ضدهم ثانية . ويهود الدونمة المرتدون كانوا قي سلانيك يريدون ازاحة عبدالحميد من أمامهم ليصفى الجو لهم .. وجمعية الاتحاد والترقي كانت بحاجة الى المال .."

ويضيف قائلا :" اليهود هم الذين نشروا الفوضى في داخل البلاد ، ونظموا القوة المناهضة للحكم العثماني بقصد تحطيم الدولة العثمانية ، وسلحوا أعضاء تركيا الفتاة في الخارج ، ونظموا صفوفهم ، وأمدوهم بالأموال ، كما نظموا عصابات السلافية في البلقان ".

وكان المحفل الماسوني قد شارك في هذه النشاطات قبل فترة طويلة ويبدو أن هذا كان في سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م عندما حصل اليهودي قراصو على إذن لعقد اجتماعات جمعية الاتحاد والترقي في محفله ... وبهذه الطريقة أصبح أعضاء هذه الجمعية من الماسونيين [٢] .

وعلى أية حال فانه لما بلغ السلطان العثماني كثرة انتظام الضباط والموظفين في جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك أخذ يستدعي المتهمين الى اسطنبول بحجة النقل والترقية ، فخاف سائر الأعضاء من الفشل كما حصل من قبل فعزموا

---

(١) حسان على حلاق : دوراليهود والقوى ا لدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش ، ص ٥٠ .

(٢) حسان على حلاق: المرجع السابق ، نقلا عن جواد رفعت اتلخان : الخطر بالاسلام وبنو اسرائيل ص ١٥١-١٥٢.

على القيام بالثورة (١) .

فانفجر الموقف بالشرارة الأولى من سلانيك مقر قيادة الجيش الثالث وحدث أن اغتيل قائد الجيش الأول ، وكانت هذه الحادثة سببا في اضطراب الدولة فقام القائد نيازي بك بالسيطرة على مركز البريد في (رسنة) ، وأرسل من هناك برقية الى السلطان عبدالحميد يخبره فيها بأنه سيعلن الثورة والدستور ويطالبه بقبول ذلك دون قيد أو شرط والا فالمسئولية الكاملة تقع عليه . وكان نيازي يعتمد على الجيش الثاني والثالث المعسكر في سلانيك ومناستر وعلى الفيلق الرابع في ارضروم (٢) .

فعظم طلب هذا الاصلاح على السلطان عبدالحميد ، فأمر فرقة كانت تتأهب على الحدود للدفاع عن الدولة باخماد هذه الثورة فما كان من هذه الفرقةالا أن انضمت هي الأخرى الى الثوار مطالبة بالدستور (٣) . وكان الألبان يعاضدون هذه الثورة ، فأخذت البرقيات تنهال على السلطان من جميع فرق الجيش مطالبة باعادة الدستور (٤) ، فخشي السلطان من تفاقم الأزمة ورآى أن من الحكمة أن يمنح الجمعية مطالبها حقنا للدماء ، وأعلن قبول الدستور في سنة ١٣١٦هـ/١٩٠٨م (٥) .

ولما تمرد الجيش الثالث في مقدونيا وخاصة في ولاية سلانيك وأعلن أحمد

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٥٢ .

(٢) روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ، ج ١ ، س ١٧ ، ١٩٠٨م) ، ص ٢٩-٣٠ .

(٣) روحي الخالدي المقدسي : المصدر السابق ، ص ٣٠ .
، عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٩ .

(٤) عابدين حمادة : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٥) روحي الخالدي المقدسي : المصدر السابق ، ص ٣١.

نيازي الثورة وهدد بالتقدم نحو العاصمة اسطنبول [1] اذا لم يعلن الدستور أمر السلطان عبدالحميد الثاني باستدعاء أنور ونيازي أبرز زعماء هذه الحركة الى اسطنبول ، فلما تجاهل الاثنان هذا الأمر أمر السلطان بارسال الجيوش الآسيوية لاخماد هذه الثورة ، ولكن جنود الأناضول وهم جنوده الآسيويون - رفضوا اطلاق النار على اخوانهم وزاد في حيرته أن القوات كلهااشتركت في ترديد كلمة " الثورة والمساواة والترقي " بدلا من قتل مرددي هذا النداء . فلم يكن أمامه الا أن يعقد مجلس الدولة في ٢٣ من يوليه سنة ١٩٠٨م الموافقة لسنة ١٣٢٦م [2] فاجتمع بالوزراء ودام هذا الاجتماع من الصباح الباكر حتى منتصف الليل الساعة الثامنة ليلا تماما بالتوقيت الغروبي ، وجرى خلال هذا المجلس مناقشات حامية انقسم فيه المجلس الى فرقتين : فرقة تويد قبول الدستور وعلى رأسها قائد الجيش رضا باشا ، والأخرى مصممة على رفضه وعلى رأسها اسماعيل حقي باشا الذي طالب بالتنكيل بهؤلاء المتمردين على السلطة والقضاء عليهم ، وكانت كل فئة تتحفز وتتواثب لضرب الفئة الأخرى [3] .

ويقول السلطان في هذا الصدد " لم يبق لنا الا وسيلة واحدة لاحباط المؤامرات السياسية الانجليزية وهي أن أقوم على رأس هؤلاء الثوار فأعلن الدستور، واتظاهر باتباع الانجليز ، فهذا هوة الطريق الوحيد لافشال مؤامراتهم ، وغدا سيفهم المعجبون بأفكارهم الثورية الى أي الطرق المهلكة ستؤدي بهم هذه الأفكار.

آمل أن يتحد جميع العثمانيون ولو في آخر لحظة للعمل على بقاء دولتهم والسير على هدي دستورهم المقدس (القرآن الكريم) مؤمنين به متمثلين لأوامره،

(١) لوتسكي : تاريخ الاقطار العربية ، ص ٣٩٦-٣٩٧ .

(٢) الماوتلن : عبدالحميد ظل الله على الأرض : ترجمة راسم رشدي (القاهرة ، ١٩٥٠م) ص ١٨٧.

(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٥٣-٥٤.

والا فالمصير الأسود ينتظرنا حين تتأهب الدول النصرانية لتمزيق أشلائنا وتقاسم الممالك العثمانية فيما بعد "[1] .

لذلك تأخرت الصحف في موعدها، فبدأ الناس يقلقون ، يريدون أخبار هذا الاجتماع ، ويسألون عن أسباب تأخير الصحف ؟ ومن هو السبب في تأخيرها؟ ولماذا لاتصدر كعادتها ؟ في حين أن الثورة قد أعلنت في مناستر وسلانيك وقوصوه في ولايات مقدونيا ، وأطلقت المدافع في كل مكان لهذا الحدث .

وبعد تأخر الجرائد عدة ساعات عن موعدها الرسمي صدرت معلنة أن الحكم سيكون مقيدا في كافة أقطار وممالك الدولة العثمانية وأن الأمر السلطاني سيصدر بهذا الشأن ، وبعد بضع ساعات سمعت أصوات المدافع حول إسطنبول ، لذلك تعانق القساوسة بالمشايخ واليهود والنصارى بالمسلمين وأعلنت الثورة بشعاراتها الثلاثة : الحرية – العدالة – والمساواة " وزاد عليها "الأخوة " في ١٣٢٦/٧/١هـ الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨م .

وتلى ذلك ان استقبلت اسطنبول جمعية الاتحاد والترقي [2] .

وكانت طريقة عبدالحميد في قبول الدستور تكشف عن مواهبه كسياسي فذ . فقد أعلن عن استعداده ليرأس جمعية الاتحاد والترقي ، ولكنه أقنع بقبول العضوية العادية عندما أشار عليه أعضاء اللجنة المركزية للحزب بأن الأعضاء كلهم متساوون ، بل ذهب أكبر من ذلك فقد شكر رجال تركيا الفتاة ، لأنهم "فتحوا عينه " على أن الوقت قد نضج ،وتبرع بنصف مليون جنيه من جيبه الخاص لصندوق الجمعية ، ووهب لهم أحد قصوره ليكون مقرا للبرلمان القادم. واستطاع

---

(١) السلطان عبدالحميد الثاني: مذكراتي السياسية ، ص ١٠٧.

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٥٤.

السلطان بخبرته أن يمتص حماس الشباب ويحولها الى أوربا [١] .

وفي هذا الصدد يقول السلطان عبدالحميد : " ان الأتراك قوم خياليون فاعلان الدستور ، وتشكيل حكومة نيابية في بلادنا يعني حدوث الفوضى وانقسام الناس الى شيع وأحزاب يقاتل بعضهم بعضا ، ويؤدي بالدولة العثمانية الى الخراب، وتعاطف الانجليز مع الأتراك الشباب يلفت انتباهنا فهم يشجعون هؤلاء المغترين على المطالبة باعلان الدستور ، ويرفضونه لأنفسهم في الهند المستعمرة من قبل الانكليز ، مع أن أوضاع الهند تشبه أوضاع بلادنا حيث تعيش فيها عناصر متجانسة من المسلمين والنصاري والبوذيين والبراهمة ومن الصعب جمعهم في مجلس واحد "[٢] .

وفي يوم ٢ من جمادى الثانية سنة ١٣٢٦هت الموافق ٢٤ من يوليو سنة ١٩٠٨م ، أصدر السلطان مرسوما سلطانيا باعادة مجلس ا لمبعوثين الذي صدر به القانون الأساسي في سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م ، وعينت وزارة هذا العهد الجديد من سعيد باشا للصدارة ، وعمر رشدي للحربية ، أما بقية الوزراء فثبتوا في مناصبهم [٣] .

وقد افتتح السلطان مجلس المبعوثين في ٢٣ من ذي القعدة سنة ١٣٢٦هـ الموافق ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٨م في سراي طولمه بغجه بمحلة بشكطاش ثم تفضل السلطان بالنطق الأتي :

"الأعيان المبعوثين ..

في وقت جلوسي فقد وضعت القانون الأساسي لموقع التطبيق وصادفته مشكلات في هذا الزمان ، وبناء على اللزوم الذي ظهر من طرف رجال الدولة

---

(١) الماوتلن : عبدالحميد ظل ا لله على الأرض ، ص ١٨٨ .

(٢) السلطان عبدالحميد الثاني : مذكراتي السياسية ، ص ١٠٥ .

(٣) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ١٦٩ .

فقد أصبح تعطيل مجلس المبعوثين مؤقتا ، وقد أصبح تأخير توجيه وغرض القانون المذكور حتى قابلية الأهالي للدرجة المطلوبة بترقية المعارف في مملكتي السلطانية ، وقد أصبح الاهتمام بترقية المعارف بتأسيس المكاتب في كل طرف في الممالك السلطانية بالتعليم وبالحث على تكرار اجتماع مجلس المبعوثين ، ليكن الشكر . فقد علت الاستعدادات لتسوية صنوف أهالينا في ظل انتشار المعارف للحصول على هذا المقصد .

وقد أردت الدعوة لاجتماع مجلس المبعوثين باجراء انتخابات جديدة وأعلنت على رأسها القانون الأساسي بلا تردد رغما عن الموجودين للمطالبة ومخالفة رأيهم من اطمئناني لما حدث بموجب سعادة الحال والمستقبل حصول دولتي ومملكتي لهذه الرغبة ..." (١) .

وبعد فترة من اعادة المشروطية الثانية حدثت محاولةثورة مضادة في اسطنبول للقضاء على ثورة ١٩٠٨م اتهم فيها السلطان عبدالحميد الثاني .

ولكن جيش مقدونيا بقيادة شوكت باشا زحف على العاصمة وضرب الحصار على قصر السلطان بيلدز ، بعد أن خلص الدولة من هذه الثورة وعقد المجلسان مجلس النواب ومجلس الأعيان جلسة صوت فيها أعضاؤه على خلع السلطان عبدالحميد الثاني وتسليم العرش الى أخيه محمد رشاد الذي أصبح يلقب بالسلطان محمد الخامس ، وبلغ السلطان عبدالحميد بقرار الخلع عن طريق وفد يضم اليهودي قراصو ، ثم نفي السلطان الى سلانيك ترافقه حاشيته ، وسجنوا

---

(١)

Osmanli Arsivi Yildiz :Esas ,Evrak Zarf. No.:314.
, Faik resit Unot:ikinci Mascutiyetin ilani va
otuzbir Mart Hadisesi, II. Abdu Lhamid in son Mabeyn
Baskatibi Ali Cevat Bey in Fezlekesi, (Turk Tarih Kurumu,
Ankara , 1985), 5. 28-29.

جميعا في فلا الاتينت (Alatini) ضاحية من ضواحي سلانيك نفسها [1] وسيـــأتي تفصيل ذلك في الفصل التـالي حـول مقاومـةالحزب الاسـلامي للمشـروطية الثانيـة داخل الدولة والولايات الأخرى ان شاء ا لله تعالى .

...

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٥٥.

الفصل الخامس

مواجهة الغزو الفكري في الدولة العثمانية

أ- مقاومة المشروطية الثانية في تركيا والولايات العثمانية الأخرى .

ب - دعوة التوحيد والاصلاح في شبه الجزيرة العربية .

١- أهميتها في مواجهة الغزو .

٢- استمرارها في أدوار السعودية الثلاث .

٣- تقديم نموذج للدولة الاسلامية العصرية.

٤- صد التدهور عن الجزيرة العربية .

ج - تأثر حركات الاصلاح في العالم الاسلامي بها .

***

أ- مقاومة المشروطية الثانية في تركيا والولايات العثمانية الأخرى :

أشرنا فيما سبق الى كيفية اعادة المشروطية الثانية ، ولكن عندما اجتمع البرلمان الجديد كان فيه حزب الأحرار الذي يدعو الى "اللامركزية " وكان يقود هذا الحزب الأمير صباح الدين بن محمود باشا صهر السلطان عبدالحميد، وكان عدد من زعمائه من المسيحيين الذين سمح لهم بدخول البرلمان . وكرد فعل لكل ذلك قام حزب الاتحاد الاسلامي الذي كان يرى في المشروطية خروجا على الشريعة الاسلامية [1] .

وكان قيام حزب الاتحاد الاسلامي من أخطر الصدمات التي هزت كيان العهد الجديد او رجال المشروطية ، فلقد قام هذا الحزب بالثورة ضد حزب الأحرار ودعاة المشروطية. وفي ٣١ مارس سنة١٩٠٩م اندلعت الثورة التي قادها زعماء حزب الاتحاد الاسلامي في عاصمة الدولة ، وقبل أن تتم المشروطية شهرها التاسع[2] .

هذه الثورة المضادة ، ظهرت لمقاومة المشروطية الثانية ودعاتها من المسيحيين ، وتزعم هذه الانتفاضة دعاة الجامعة الاسلامية الذين نادوا بأن الشريعة في خطر ، وطالبوا بعودة أحكامها خاصة ، وقد سرت الاشاعات بأن حزب الأحرار يدعو الى النظام العلماني الجديد الذي يعمل للحط من مكانة الشريعة الاسلامية ، وفي الوقت نفسه قام مجموعة من الجنود بالتمرد على بعض الضباط الذين تلقوا تعليمهم في المدارس العسكرية ذات البرامج الغربية ، وتحول هذا التمرد الى سخط قام به الجنود العاديون في ١٣ من ابريل سنة ١٩٠٩م

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة ، (مجلة الدارة، ع ٢ ، س ١١ ، ١٤٠٦هـ) ص ٨٣ .

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٧ .

الموافقة لسنة ١٣٢٧هـ . ولم يشترك في هذاالتمرد سوى عدد قليل من الضباط[١]، وهتفوا: نريد الشريعة ، فأرسل السلطان اليهم رئيس كتابه حال سماعه النبأ ليخبرهم بأن الشريعة بخير وأنه لاأحد يستطيع أن يمسها بسوء [٢] . ولكن هؤلاءالجنود هاجموا مجلس المبعوثين والباب العالي ، وطالبوا باسقاط الحكومة التي أقامتها لجنة الاتحاد والترقي ، وفض مجلس المبعوثين ، والغاء الدستور (المشروطية) واعلان سيادة الشريعة الاسلامية [٣] ، وتغيير الصدر الأعظم حسين حلمي باشا ووزير الحربة على رضا باشا ، وقائد الفرقة الأولى محمود مختار باشا ، ورئيس مجلس المبعوثين أحمد رضا ، ونفي الاتحاديين من البلد ، واعادة ضباط (الآيلي)[٤]الى الخدمة العسكرية ، والعفو عن جميع المشتركين في هذا التحرك لأنهم لايقصدون سوءا . الا أنهم في نفس الوقت كانوا يبحثون عن رئيس مجلس المبعوثان احمد رضا بك وعن الصحفي حسين ياجين لشيوع عداوتهما للإسلام . غير أنهم لم يعثروا عليهما ، فقد هربا ،واختفيا عن الأنظار ، ولكن الجنود قتلوا وزير العدل ناظم باشا ظنا منهم أنه هو أحمد رضا ،كما ألحقوا به نائب وفد اللاذقية يحسبونه أنه الصحفي المعادي للاسلام حسين ياجين ، كما قتلوا عددا من الجنود من خريجي

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٧٢.
. ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانيية ، ص ٩٧.

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٣٢٢.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٧٢.
. ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٤) كان الضباط في الدولة العثمانية على نوعين : الضباط من خريجي الكلية الحربية ويطلق عليهم "مكتبلي " أي خريجي المدارس . والضباط الذين تدرجوا في الرتب العسكرية بطول الممارسة أو بالخبرة من رتبة جندي حتى رتبة الضابط (الآيلي) . وقد بدأ الاتحاديون باخراج هؤلاء من الجيش واحالتهم الى التقاعد مما ولد تذمرا في الجيش لكثرة عدد هؤلاء الضباط . وكان أحد أسباب هذا التمرد.
– أورخان محمدد علي : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ لحاشية رقم (٣٧٥).

الكـــليات والمعاهد الحربية ، فلقد كان المتمردون يستوقفون الضـابط ويسـألونه هل أنت ضابط متخرج مـن المـدارس أم ضـابط خدمـة (آلا يلـي) ؟ فـاذا كـان الجواب انه من خريجي الكلية قتلوه [1] .

وكان زعيم هذه ا لثورة يسمى درويش وحدتـي ، الـذي تحمـس للاسـلام وغار عليه ، ونادى بـأن المشـروطية مخالفـة للشـريعة الاسـلامية ، وكـان السـلطان عبدالحميد الثاني معارضا للمشروطية ، وأن اعلانه قـد تم تحت الضغـط والاكـراه فالواجب الديني يقضي بالغاء القانون الأساسي واعلان الشريعة المحمدية [2] .

ولتهدئة الأحوال فقد قام السلطان بعزل الصـدر الأعظـم وعـين بـدلا منـه توفيق باشا كما تم تبديل وزير وقائد الفرقة الأولى نزولا عنـد رغبـة الجنـود الثـوار ورغبة في انهاء حركة التمرد ، الا أنها لم تنته [3] .

ولم تقتصر حركة التمرد على اسطنبول فقط ، بل انتشرت حركات مماثلـة في الولايات العثمانية ، وخاصة في الأناضول ، وفي مدينة أضنة حيث قام المسلمون فيها بالاشتباك مع عدد من الأرمن والأتراك الموالين لتأييد المشـروطية ، ثـم امتـدت هذه الحركة أيضا الى شمال الشام [4] .

قام هذاالتمرد في الولايـات المذكـورة بنـاء علـى مـا أرسـله دعـاة الجامعـة الاسلامية من المنشورات في ١٥ من ابريل سسنة ١٩٠٩م الموافق لسنة ١٣٢٧هـ الى المسؤولين العثمانيين يطلبون منهم المحافظة على أصول الشريعة [5] .

---

(١) ساطع الحصري: البلادالعربية والدولة العثمانية ، ص ٩٧.
، أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٣٢٣.

(٢) ساطع الحصري: المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) أورخان محمد علي: المرجع السابق ، ص ٣٢٣.

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول ا لتاريخ العثماني ، ص ٢٧٢-٢٧٣.
، عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٠٦.

(٥) عبدالعزيز الشناوي : المرجع السابق ، ص ١٠٠٦-١٠٠٧.

وعلى الرغم من سيطرة دعاة الجامعة الاسلامية على العاصمة فلم يكن لهم برنامج سياسي [1] أو هدف واضح إلا إلغاء هذه المشروطية ، ونفي أصحابها ، وعودة السلطان الى ادارة دفة الحكم بصلابة وحكمة دون تدخل من الدستوريين .

وماكان من السلطان عبدالحميد الا أن استجاب لرغباتهم معلنا الغاء المشروطية ، وألف حكومة جديدة لتنفيذ ذلك . وبما أنه كانت المدافع قد أطلقت احدى وعشرين طلقة عند إعلان المشروطية فإن معارضي المشروطية طلبوا من السلطان أن يتم الاحتفال بإعلان الشريعة وإلغاء المشروطية باطلاق مائة طلقة ، ثم أخذت أفواج الجيش تطوف بشوارع المدينة الرئيسية والجنود يطلقون رصاص بنادقهم ابتهاجا بالنصر الذي أحرزوه ويهتفون بأصواتهم " باشاسون شريعة محمدية" ويعني ذلك " فلتعش الشريعة الاسلامية " [2] . يتزعم ذلك أئمة المساجد وفريق من علماء الدين الاسلامي والدراويش وطلبة المعاهد الدينية وضباط الجيش (الايلي) – وهم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجنود– بناء على الأقدمية وخدماتهم العسكرية حتى وصلوا الى رتبة ملازم دون دراسة في المدارس العسكرية [3] .

هذه الثورة ضد أنصار المشروطية والدستور ساندها الجيش المحتشد في العاصمة ، أما الجيوش في الولايات البلقانية في مقدونيا (مناستر ، وقوصوه ، وسلانيك) وخاصة سلانيك التي مهدت للمشروطية الثانية فقد كانت على ولائها لما يسمى بالعهد الجديد او الدستور المتأثر بالنظم الأوربية ، ولذلك بادرت هذه الجيوش الموالية للنظام الدستوري بالزحف على العاصمة بقيادة محمود

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٧٣.

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٨ .

(٣) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ص ١٠٠٦ .

شوكت من سلانيك، وهذا الجيش عرف باسم " جيش الحركة " (حركة أوردوسو)[1]. وذلك لتسكين الهياج وتأييد الدستور وتثبيته في اسطنبول ، فحاصروا الثائرين على المشروطية ، واحتلوا مواقعهم في ٢٣ من ابريل ١٩٠٩م الموافقة ١٣٢٧هـ.

وفي يوم السبت ٢٤ من ابريل سنة ١٩٠٩م الموافقة لسنة ١٣٢٧هـ استيقظ الناس على دوي المدافع من جهة يلدز لأن السلطان كما يزعمون أصر على المقاومة ، فحاصروا السراي ، وبعد ذلك أرسل قائد الاحتلال محمود شوكت الى جواد بك قائدجنود يلدز انذارا بالاستسلام ، فاستسلم جواد بك ، ولكن بعض الجنود بداخل السراي لم يقبلوا بالاستسلام فوقع بينهم وبين أنصار المشروطية معركة حامية الوطيس تمكن بعدها أنصار المشروطية بقوتهم من التغلب عليهم .

أما السلطان فقد سلم وطلب لنفسه الأمان فنقل الى (سراي بغجة) ينتظر المصير المحتوم.

عند ذلك أعلن محمود شوكت المشروطية الثانية ، وفرض الأحكام العرفية في اسطنبول ، وطلب من مجلس النواب الاجتماع ، فاجتمعوا في الحال في سان ستيفانو إحدى ضواحي اسطنبول لتقرير مصير السلطان [2] .

وقد اتهم دعاة المشروطية السلطان عبدالحميد الثاني بتدبير هذه الثورة المضادة ، وان كان يحتمل ذلك ، فان دوره لايتعدى مساندتها بعد بدئها حين تبين له أنها قوية بحيث تمكنه من استعادة سلطته المسلوبة [3] ، وخاصة أن مجلس

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٨.
، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٧٣.
، عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ص ١٠٠٧.

(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٧٠-١٧١.

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق / ص ٢٧٣ .

المبعوثين اختفي في ٣١ من مارس سنة ١٩٠٩م / ١٣٢٧هـ وقد بقي القليل من أعضائه مختبئين في اسطنبول ، أما معظمهم ففر الى الولايات الثلاث المذكورة للاحتماء بها [١] .

ماذا يريد هؤلاء الأحرار أو الأشرار- ان صح هذا التعبير- من السلطان عبدالحميد أن يعمل والناس تطلب منه الغاء ا لمشروطية والدستور ؟ وهذا مطلب قيم يجب على كل مسلم غيور على الإسلام أن يسانده ، ذلك لأن المشروطية أريد بها هدم الشريعة الاسلامية والاسلام ، ومعروف أن السلطان عبدالحميد الثاني رجل مسلم ، تنازل لجمعية الاتحاد والترقي على مضض وهو يعرف من كان يساندهم وهم الانجليز ، وقد سبق أن صرح بذلك أكثر من مرة . كما أنه من الواضح أن الانجليز يريدون من خلال هذه المشروطية هدم الشريعة الاسلامية واحلال القانون الوضعي عوضا عنها . وبالتالي هدم الدولة الاسلامية بتمكين حزب الاتحاد والترقي الذي تربى أعضاؤه في أحضان الماسونية في سلانيك ، ونحن نعرف ارتباط الماسونية بالصهيونية لأنهما وجهان لعملة واحدة، وكلاهما يسعى لايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين . ومن أجل ذلك خططت هذه الفئة الباغية لخلع السلطان عبدالحميد الذي وقف حجر عثرة أمام آمالهم ورفض جميع عروضهم المالية المغرية . ورأوا أنه في سبيل تحقيق أهدافهم ومخططاتهم لابد من تسليم زمام السلطة في الدولة للفئة التي قاموا بترتيبها وتدريبها على العمل على معاداة الشريعة الاسلامية ، وقد تحققت ظنون السلطان بذلك عندما استلمت هذه الفئة الباغية الحكم من بعده . وعملوا على تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين دون قيد أو شرط .

وهذا ما أثبتتها الوثائق والتقارير البريطانية ، وقد أحدثت هذه التحركات

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٩.

في الدولة العثمانية تغييرا ملائما للتوقعات ، فقد كثرت المستوطنات اليهودية في فلسطين أكثر من ذي قبل . وقد كان للدور الذي قام به اليهود وخاصة اليهود الأتراك (الدونمه) في سلانيك في الثورة الحديثة أثرٌ مميزٌ مما أعطاهم الفرصة في الحصول على تأثير خاص في المجالس النيابية التركية .

وقد كان السلطان عبدالحميد معارضا لمثل هذه المشروعات وخاصة مايتعلق منها في ايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين ، وقد أدى موقفه هذا الى استياء اليهود وخاصة اليهود الأتراك الذين كان معظمهم من دعاة المشروطية ، وأعداء الشريعة الاسلامية ومن يملكون شعورا قويا بالانتماء للشرق ، كما أنهم يعتبرون من أصحاب الاستثمارات الكبيرة في منطقة مقدونيا ، وعندما قامت الثورة ضدهم قاموا بتقليل مساعداتهم المادية لتركيا . وقد حاول هؤلاء البغاة وعلى رأسهم قراصو الاطاحة بحكم السلطان عبدالحميد [1] ، وكان قراصو أحد أعضاء الوفد الذي قام بتبليغ السلطان قرار الخلع كما سيأتي .

وهنا نود أن نقول ماهو رأي بعض المؤرخين المسلمين الذين أكدوا أن السلطان عبدالحميد الثاني بعد اعلانه الدستوراستعمل كل حيلة ودهاء ليؤكد للدستوريين أنه أصبح دستوريا أكثر منهم ، وأعلن ذلك مرارا ، لكنه سعى سرا في تأليف جمعية باسم " الجمعية الاسلامية " على مبدأ الشريعة الاسلامية فأقبل الناس على الدخول فيها ، وفي مدة وجيزة انتشرت في عموم الولايات العثمانية وقامت بأول اعمالها يوم ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٢٧هـ الموافقة لسنة ١٩٠٩م حيث تجمهر عدد كبير من علية الناس يطالبون باعادة الشريعة الاسلامية وطرد

(١) F.O.: 242/222, Mr.Marling to Sir Eduard Grey.No.:(2). 3-1-1910.

الاتحاديين [1] .

والآن نعود الى اجتماع المبعوثين مع أعضاء مجلس الأعيان في سان ستيفانو حيث عقدوا جلسة رسمية قرروا فيها خلع السلطان عبدالحميد ، بعد أن استصدروا فتوى الخلع ، في يوم الثلاثاء ٢٧ من ربيع الآخر سنة ١٣٢٧هـ الموافق ٢٧ من ابريل سنة ١٩٠٩م واجلاس ولي العهد محمد رشاد على العرش باسم السلطان محمد الخامس . وكان هذا السلطان في الرابعة والستين من عمره يستجيب لما يؤمر به [2] .

أما كيف تم إبلاغ السلطان عبدالحميد ا لثاني بقرار مجلس النواب ؟ فقد اختار النواب لهذه المهمة وفدا لن ينساه المسلمون ولن ينساه التاريخ أبدا ، لأنه وفد يندى لذكره الجبين . لقد ضم الوفد : ارم افندي ، وعمانونيل قرا صو المذكور اليهودي ونائب سلانيك والعدو الأول للاسلام ورفيق درب هرتزل ، ومدبر المكايد للقضاء على الدولة العثمانية ، وأسعد طوبطاني الأرنؤوطي ، وعارف حكمت باشا ، قدم هذا الوفد الى السلطان فوجدوه واقفا فلما قرأ عارف حكمت الفتوى التي أصدرها شيخ الاسلام ضياءالدين أفندي أجاب السلطان جواب المؤمن : "ذلك تقدير العزيز العليم " . وأعقب ذلك أسعد طوبطاني قائلا : لقد عزلتك الأمة ، فغضب عبدالحميد وقال : تقصد أن الأمة خلعتني ، لابأس ، ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي الى مقام الخلافة ؟ [3] ويعني السلطان بهذا القول قرا صو.

---

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان . ج ٢ . ص ١٦٩.
، ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية . ص ٩٧.
، عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق . ص ٣٦٠.
وغير هؤلاء من المؤرخين كثيرون قد طرقوا هذا المنهج.

(٢) ساطع الحصري: المرجع السابق ، ص ٩٩.. يوسف آصاف : المصدر السابق . ج١. ص ١٧١.

(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٩٩-١٠٠.

وهذا يذكر المؤرخ التركي أورخان محمد على قول السلطان عبدالحميد حيث يقول : " ان أشد ما آلمني هو تبليغي قرار الخلع من قبل ذلك اليهودي الماسوني ، فأنا لا أستطيع نسيان " عمانونيل قرا صو" من بين وفد المبعوثين (النواب) الذين جاءوا الى يلدز . لقد كان هذا اهانة لمقام الخلافة ، ونحن جميعا نعلم مدى الحقد الذي يكنه اليهودي للاسلام منذ زمن الرسول صلى ا لله عليه وسلم[1].

ويضيف السلطان فيقول : " وعندما كنت على عرش السلطنة جاءني في أحد الأيام "تيودورهرتزل " مؤسس المنظمة العالمية مع رئيس الحاخاميين وذلك من أجل غاية صهيونية ... فكان طلبهم هو وطن لليهود ، وكانوا يقترحون القدس لذلك ، حتى أن تيودور هرتزل قال بلاخجل : أحب أن أعرض لجلالتكم بأننا مستعدون لتقديم الملايين التي ترونها مناسبة من الذهب حالا من أجل القدس ... صرخت بهم قائلا : اخرجا من هنا ... ان الوطن لايباع بالمال ... ومن ذلك الوقت ناصبني اليهود العداء ... وكل ما أقاسيه هنا في سلانيك هو جزاء عدم اعطائي وطنا لليهود "[2] .

والى الشئ نفسه يشير السلطان عبدالحميد في رسالته التي وجهها الى شيخه محمود أفندي أبي الشامات في منفاه بسلانيك ، حيث يقول فيها: بعد الحمد والتسليم والتحية لشيخه مايلي :

(... أعرض لرشادتكم والي أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ : انني لم أتخل عن الخلافة الاسلامية لسبب ما ، سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون

---

(١) محمد حرب عبدالحميد : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٢) محمد حرب عبدالحميد : المرجع السابق ، ص ٢٨٨-٢٨٩.

ترك) وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة الاسلامية .
ان هؤلاء الاتحاديين قد أصرواوأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم اصرارهم لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، واخيرا وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهبا وأجبتهم بالجواب القطعي التالي : (انكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا فضلا عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهبا - فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي .لقد خدمت الملة الاسلامية والأمة المحمدية مايزيد عن ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين . لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضا .وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني انهم سيبعدونني الى سلانيك فقبلت بهذا التكليف الأخير .

هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم باقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة " فلسطين" وقد كان بعد ذلك ماكان .ولذا فانني أكرر الحمد والثناء على الله تعالى ، وأعتقد أن ماعرضته كاف في هذاالموضوع ، المهم وبه اختم رسالتي هذه .ألثم يديكم المباركتين وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي وسلامي الى جميع الاخوان والأصدقاء .

يا أستاذى المعظم . لقد أطلت عليكم البحث ، ولكن دفعني لهذه الاطالة أن نحيط سماحتكم علما ونحيط جماعتكم بذلك أيضا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ٢٢ ايلول ١٣٢٩هـ

خادم المسلمين : عبدالحميد عبدالمجيد [١] .

---

(١) أورخان محمدعلي: السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٢٨٩-٢٩٠.، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٣٩٠-٣٩١.

وهكذا بعد أن أزيح السلطان عن سدة الحكم أرسل في ١٣٢٧/٤/٧هـ ، الموافق ٢٨ ابريل سنة ١٩٠٩م مع نسانه وأولاده : عبدالرحيم ، ومحمد ، وعابد، وبناته : شادية ، وعائشة ، ورافعة ، وبعض الخدم الى سلانيك ، ووضع في قصر الاثبتي الصيفي كما سبق ، تحت حراسة فدائيي الاتحاد والترقي ، ولما اندلعت حرب البلقان جرى نقله مع حاشيته الى قصر بكلربكي في اسطنبول بعد توسط صديقه القديم الامبراطور ويليم الثاني ، وقد أقام هناك حتى توفي في هذا القصر[١] .

ومما هو جدير بالذكر أن السلطان نفي بعد تدبير احداث ٣١ مارس السالف ذكرها ، وقد أكد السلطان في مذكراته أنه لايعرف عنها شيئا ، وفي هذا الصدد يقول : " أريد أن يكون معلوما جيدا أنه لم يكن لي أدنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالأحداث التي تفجرت في ٣١ مارس . وعلى أمتي أن تبحث عن هؤلاء الذين كانوا سببا في هذه الحوادث وعليها أيضا أن تحاسبهم "[٢] .

وفعلا لقد ثبتت من التحريات أن أحداث ٣١ مارس بعد أن خمدت فتنتها انما دبرت بمساعدة يد أجنبية ، فقد ضبط في منزل سعيد باشا القبرصي المعروف بولائه للانجليز النسخ الأصلية لكل المقالات والمنشورات الرئيسية التي نشرتها جريدة البركان السرية ، وقد سلمت هذه الوثائق الى رئاسة المحكمة العرفيةولكنهم سكتوا عن هذا الموضوع . ولم يستطع أحد أن يتفوه عن هذه المنشورات بكلمة واحدة ، فثبت بما لايقبل الشك أن وكالة الاستخبارات

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني . ص ١٠١.

(٢) محمد حرب عبدالحميد : مذكرات السلطان عبدالحميد . ص ١٠٢ .

الانجليزية وراء هذه المؤامرة[1] .

ونتيجة لذلك فقد خلا الجو لرجال الاتحاد والترقي وحولوا جمعيتهم من منظمة سرية الى حزب سياسي علني في شهر ابريل سنة ١٩٠٩م الموافق سنة ١٣٢٧هـ ، وذلك في بيان أذاعته الجمعية في الصحف ، وانفردوا بالحكم اذ سمح لهم السلطان محمد الخامس أن يحكموا البلاد باسمه [2] .

***

درسنا في الفصل الثاني جهود المستشرقين والمنصرين في المدارس والارساليات والمؤسسات العلمية والخيرية للسعي الى زعزعة عقيدة المسلمين الناشئة ، ثم تهيئة هؤلاء الناشئة بأساليبهم المختلفة لقبول النفوذ الغربي تمهيدا للاستعمار الأوربي.

وقد توصلنا الى حقيقة حيث إنه مهما تشعبت هذه المؤسسات ومهمااتخذت من أسماء وشعارات فانها تلتقي أهدافها عند غاية واحدة هي السيطرة الثقافية والدينية والسياسية الغربية على المشرق العربي الاسلامي. وقد اتضح لأصحاب هذه المؤسسات أن المسلمين كانوا أصلب عودا في تقبل النفوذ الأجنبي ، فراحوا يوجهون جهودهم للاستعانة بغيرالمسلمين من المستشرقين في البلادالعربية[3] مع الاهتمام والتركيز الخاص على المسلمين ، فنجحوا في استمالتهم عن طريق المدارس والمستشفيات والمؤسسات الخيرية ، التي مهدت لبسط النفوذ

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٩٦ .

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٩.
، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثماني ، ج ٢ ، ص ١٧١.

(٣) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٥-٦.

الأجنبي باعتبارها من وسائل التنصير. لذا أخذ العثمانيون يقاومون هذا الغزو الفكري في بلاد ا لشام وفي العاصمة العثمانية نفسها كما مر بنا.

فتوالت الكوارث بتضافر القوى اليهودية والصليبية للقضاء على الخلافة العثمانية باعتبارها التجسيد الحي للأمة الاسلامية في ذلك الوقت ، فأخذ الغرب المستعمر يقتطع أجزاءها ، وأخذت روسيا تقتطع منذ عهد كاترين (١١٧٦ - ١٢١١هـ/١٧٦٢-١٧٩٦م) بعض الأراضي والولايات العثمانية ، كما هاجم نابليون مصر في سنة ١٢٣١هـ/١٧٩٨ م ، ثم حرض الروس وبعض الدول الأوربية البلقان على الثورة منذ عام ١٢١٩هـ/١٨٠٤ م ، وأمدوهم بالمساعدات حتى انفصلت عن الدولة العثمانية ، كما حرضوااليونان على الثورة منذ عام١٢٣٦هـ/١٨٢٠ م حتى استقلت عن تركيا في عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م كما سبق .

ثم توالت الحملات العسكرية الاستعمارية، فاحتلت فرنسا الجزائر في سنة ١٨٣٠م ، وتونس في سنة ١٨٨١م ، ومراكش في سنة ١٩١٢م ، كما احتلت ايطاليا ليبيا في سنة ١٩١١م(١) .

أما الأطماع الاستعمارية الأخرى فقد كانت الدول الأوربية متفقة على اقتسام ميراث الدولة العثمانية عند زوالها من الوجود . فكانت بريطانيا تطمع في بترول الموصل مع ضمان انشاء خط ثان بري للهند يمتد من فلسطين الى الخليج العربي ، لأنها كانت قد استولت على الهند من قبل ، وانتزعت باستعمارها لها سيادة المسلمين للاستيلاء على ثرواتها الاقتصادية ، ثم لم تلبث أن احتلت عدن في سنة ١٨٣٩م ، وبسطت حمايتها على لحج والمحميات من حدود اليمن الجنوبية

---

(١) مصطفى صبري : الأسرارالخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ، تقديم مصطفى حلمي ، (الطبعة الأولى ، الاسكندرية ، دار الدعوة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ،. ص ٢٦-٢٧.

الى شرق الجزيرة العربية . ثم استولت على مصر في سنة ١٨٨٢م ، والسودان في سنة ١٨٩٨م ، وكانت فرنسا تجاهر بأنها ستصيب استقلالها الاقتصادي بما تجنيه من القطن في حلب ، ومن الحرير في لبنان ، والصوف في سوريا ، وكانت ايطاليا مقتنعة بالاستيلاء على القسم الغربي من الأناضول ، أما روسيا فكانت تطمع في قسم من تراقيه واسطنبول وأرمينيا وكردستان ، واستولت هولندا على جزر الهند الشرقية ، وحوصرت أفغانستان تحت الضغط الانجليزي والروسي ، كما حوصرت ايران [1] .واستكمالا لهذا المخطط ، فقد شجع المنصرون والاستعمار العرب على الانفصال عن الدولة العثمانية تحت شعار جديد لايعرفه الاسلام وهو " القومية العربية " لاحبا في العرب ومصلحتهم ، ولكنه من أجل القضاء على الرابطة الاسلامية بين المجتمع الاسلامي .

اضافة الى ذلك فقد بدأت مهمة السفارات والقنصليات تعمل عملها في الأقطار الاسلامية ، لحرب الوحدة الاسلامية ، وبث الروح القومية بين المسلمين .

وقد برزت أعمالها بشكل واضح في اسطنبول وبيروت والقاهرة ودمشق واتخذت لها مركزين . الأول في اسطنبول لضرب الدولة الاسلامية في عاصمتها، والثاني في بيروت لضرب الدولة الاسلامية في قلبها العربي [2] .

ويلاحظ ذلك في نشوء الحركة القومية العربية ، فان المسيحيين قد لعبوا دورا كبيرا في اثارة الوعي القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي الذي شهد عددا من رواد الأدباء والمفكرين العرب الذين حملوا لواء النهضة الأدبية والفكرية ، وقد برز منهم نصيف اليازجي، وبطرس البستاني ، فاليازجي

---

(١) مصطفى صبري : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ١٤٤-١٤٦ .

استعان به الأمريكيون في تأليف الكتب التي تدرس بمدارسهم ، وأخذ يدعو العرب المسلمين والمسيحيين الى احياء الأدب العربي القديم . وأما البستاني فقد استعان به الأمريكيون أيضا في تدريس اللغة العربية في كلية المعلمين بعباي ، وفي تأليف الكتب واشترك مع ايلي سمث في ترجمة الانجيل ، ثم وضع سفريه ، قاموس محيط المحيط " ، ومختصره " قطر المحيط " ، ثم موسوعته العربية (دائرة المعارف) ، وقد تردد هذا النشاط الثقافي [١] على شكل جمعيات مثل " جمعية الفنون والعلوم " التي أنشأتها البعثة التنصيرية الأمريكية في سنة ١٢٦٤هـ/١٧٤٧م ، والتي تولى رعايتها العميلان الانجليزيان " بطرس البستاني ، وناصيف اليازجي " واشترك معهما في رعايتهما طائفة من أعضاء البعثة التنصيرية الأمريكية ، ولم يدخلها أحد من المسلمين ، وان ظهرت هذه الجمعية بمظهر نشر ا لعلوم والفنون واحياء اللغة العربية وآدابها ، الا أن الغرض الصحيح من انشائها هو اثارة النعرات القومية والحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية .

ثم بعد ذلك تبدأ مرحلة جديدة انتقل فيها النشاط الى يد الوطنيين العرب من نصارى ومسلمين ، وذلك عندما نشأت سنة ١٢٤٧هـ/١٨٥٧م (الجمعية العلمية السورية) وأدى هذا النشاط المتزايد الصليبي الى مذابح سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م . بين الدروز والموارنة في الشام كما سبق وأن ذكرت ، وأدت هذه الفتنة الى تقسيم الشام الى طوائف متحاربة ، وتسببت في وقف نشاط الجمعيات مؤقتا وهجرة بعض رجالها الى مصر ليقظة الدولة العثمانية ، الا أنها استأنفت نشاطها بقوة . وأخذت تجند أكثر الشخصيات العربية من المسلمين والمسيحيين على السواء من اسطنبول والقاهرة وبيروت والشام وغيرها [٢] .

---

(١) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية . ص ٦٤-٦٥.

(٢) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر . ص ١٤٦-١٤٧ .

هذه الأحداث دفعت البستاني الى محاولة تهدئة النفوس والقضاء على التعصب ، فأصدر في بيروت عام ١٨٦٠م (نفير سوريا) أسبوعيا وهي أول صحيفة سياسية نذرت جهودها من أجل الدعوة الى الوحدة ونبذ التعصب .

وبعد ثلاث سنوات أنشأ (المدرسة الوطنية) لكي تزود التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي ، وفي عام ١٨٧٠م أصدر (الجنان) وهي مجلة أدبية سياسية نصف شهرية كان هدفها – كنفير سوريا – محاربة التعصب ، والدعوى الى التفاهم والوحدة من أجل خير الوطن ، وكان شعارها : الوطنية من الايمان، ويعني ذلك أن اللغة العربية وآدابها وجدت مجالا حيويا لدى الارساليات التنصيرية المسيحية ، حيث كان التعليم في مدارسها يجرى باللغة العربية ، وهكذا أتيح للمسيحيين فرصة الاطلاع والبحث في تاريخ العرب ولغتهم وآدابهم [١] ، عن طريق نصارى العرب في بلاد الشام أمثال هؤلاء البستاني واليازجي .

فكانت أول جمعية أخذت شكل التنظيم السياسي هي : " جمعية بيروت السرية " هذه الجمعية تأسست عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م وقامت على أساس فكرة القومية العربية، وكانت في الظاهر تعمل للعرب والعروبة وتثير العداء للدولة العثمانية ، ولكنها في الواقع كانت تعمل على فصل الدين عن الدولة ، وجعل القومية العربية هي الأساس ، وتحويل الولاء عن العقيدة الاسلامية ليكون للأقليات المسيحية واليهودية في البلاد العربية وجود بل دول في المنطقة [٢]، وهكذا بدأت الحركة القومية كحركة أدبية تعمل على احياء اللغة العربية وآدابها، ثم تحولت الى دور العمل السياسي [٣] ، وهذا ماكان يخطط له في أروقة بريطانيا

---

(١) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية ، ص ٦٤-٦٦.

(٢) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر . ص ١٤٧ .

(٣) محمود صالح منسي : المرجع السابق . ص ٦٧ .

فعلا وقد نفذ فيما بعد بصدور وعد بلفور سنة ١٩١٧م لاقامة وطن يهودي في فلسطين . ففي تلك الفترة ظهرت دعوة جديدة تقول باقامة خلافة عربية مقام الخلافة العثمانية نادى بها عبدالرحمن الكواكبي(١٨٥٤-١٩٠٢م) في كتابه أم القرى الذي صدرفي سنة ١٣١٦هـ. حيث تناول مسألة الخلافة وألقى بذور الشك في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء للمسلمين ، وأوضح أن الكتب الفقهية الأساسية تذكر بين شروط الخلافة "النسب القرشي " ودعا الى ثورة العرب على الأتراك .وتلا ذلك أن أنشأ نجيب عازوري " عصبة الوطن " في باريس – وهو عربي نصراني – بهدف تحرير الولايات العربية من الحكم العثماني . ونشرت العصبة حوالي خمسين نداء موجهة الى العرب تدعوهم الى الثورة على الأتراك ثم نشر عام ١٩٠٥م كتابا بالفرنسية هو " يقظة الأمة العربية " دعا فيه الى فصل الولايات العربية عن الدولة العثمانية على أن تكون الحجاز مقرا للخلافة ، وأن تكون الشام والعراق دولة عربية موحدة عصرية [١] .

في هذا الوقت كانت جمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول تلعب دورا مهما في اسقاط حكومة السلطان عبدالحميد الثاني ، عندما تعاونت هذه الجمعية مع أوكار الصهيونية والماسونية التي انتشرت في البلاد العثمانية ، فعرضت البلاد للمحن والكوارث والثورات داخل البلاد حتى أصلت نار الفرقة بن الشعبين التركي والعربي الشقيقين [٢] .

وبعد اعلان المشروطيةالثانية في سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م اتسعت الحركة القومية في الدولة العثمانية ، فالتنصير لم يرض أن يوقظ الروح القومية ولا اخمادها ولكنه أراد أن يحولها الى خدمة أهدافه[٣] . عندما استقبل العرب كغيرهم

(١) على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب ، ص ١٣٣-١٣٤ .
(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٤٣.
(٣) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشر والاستعمار ، ص ١٧٢.

من شعوب الدولة العثمانية الدستور العثماني بفرح وسرور وحماسة ، فاندفعوا وراء جمعية الاتحاد والترقي التي تضم عددا كبيرا من كبار الضباط العرب . إلا أنه بعد انقلاب سنة ١٩٠٩م رأى الاتحاديون في العرب خطرا على سيادة العنصر التركي ، فسلكوا فيهم طريق الشدة والعنف في معاملتهم. فأصيب العرب بخيبة أمل ازاء هذا الموقف من الاتحاديين ، فلجأ العرب الى انشاء الجمعيات السرية ، وكان من أهدافها أن تحول الدولة العثمانية الى مملكة ثنائية من العرب والترك ، وأن تؤلف الولايات العربية مملكة لها برلمانها وحكومتها ولغتها العربية ، وأن تؤلف مع الدولة العثمانية دولة عربية تركية ، لكن عقب الحرب العالمية الأولى أصبح العرب يسعون الى تحرير البلاد العربية من الحكم التركي واستقلالها التام[١] .

لذلك شجع أهل الغرب الحركات الانفصالية داخل الدولة بين الترك والعرب وحركوا الثورة العربية بواسطة عملائها لورنس العرب وجلوب حين أثاروا فتنة القوميات العربية بغرض تقويض أركان الدولة العثمانية [٢] .

وفي هذاالصدد يحدد لورنس العرب أهداف انجلترا ودول أوربا في تقرير سري رفعه الى المخابرات البريطانية في شهر كانون الثاني ١٩١٦م بعنوان " سياسة مكة " وهي أهداف بريطانيا الرئيسية والغرب نحو المسلمين ، فيقول فيه : " أهدافنا الرئيسية : تفتيت الوحدة الاسلامية ودحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها..."[٣].

وفي هذا العام قامت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين للتخلص من

---

(١) على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب ، ص ١٣٥، ١٣٩، ١٤٢.

(٢) مصطفى صبري : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ، ص ٢٦-٢٧.

(٣) زهدى الفاتح: لورنس العرب . (الطبعة الأولى ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٦٤.

حكم الأتراك ، واستقلال البلاد العربية، وكانت تدفعها أطماع بريطانيا وحلفاؤها، وكانت هذه الثورة وبالا على العرب والأتراك لصدور وعد بلفور في سنة ١٩١٧م ، حول منح اليهود حق انشاء وطن قومي لهم في فلسطين .

لذلك نجح الاستعمار الشرقي والغربي بالغزو الفكري في تفتيت الجسد الواحد أو التضامن الاسلامي ، وحوله الى دول ودويلات لكل منها حاكم وعلم ونشيد وحدود جغرافية مصطنعة ، وغزاها بالأفكار القومية والوطنية ، فأصبح ولاء الأمة اما للأشخاص الزعماء ، أو القادة ورجال الحكم والسياسة ، أو للأفكار والمذاهب والفلسفات الواردة ، وبذلك حولت الشعوب الاسلامية عن الولاء الوحيد الذي ينبغي أن تخضع له دون سواه ، وهو الولاء لله الواحد القهار ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم (١) الى الولاء لهؤلاء الأشخاص ، وأصبحوا مطالبين بما أمرهم به سبحانه وتعالى في قوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون با لله ﴾ (٢) .

وعلى الرغم من أن الغزو الفكري الذي عم أرجاء الدولة العثمانية الا أن الدولة السعودية قامت على أسس إسلامية سليمة ، مكنتها من أن تصد التدهور عن شبه الجزيرة العربية ، حيث ظهرت الدعوة السلفية في نجد وشبه الجزيرة العربية بكاملها ، ثم انطلقت خارجها نحو شمالها وجنوبها الى السودان والهند وسومطرة وشمال أفريقيا وخاصة بعد أن ضم الإمام سعود بن عبدالعزيز مكةالمكرمة سنة ١٢١٨هـ الى الدولة السعودية ، فانتشرت هذه الدعوة خارج نجد في الدول الاسلامية المجاورة عن طريق الحجاج الذين رأوا في الدعوة السلفية انها ليست دعوة جديدة كما روج ضدها أعداؤها كما سيأتي بيانه .

---

(١) مصطفى صبري : الأسرار الخفية ... ص ٢٩-٣٠.

(٢) سورة آل عمران : آية رقم (١١٠).

ب – دعوة التوحيد والاصلاح في الجزيرة العربية :

منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي بدأ الضعف يدب في كيان الدولة العثمانية ،نتيجة لفساد الكثير من الأنظمة الداخلية ، وبالتالي أحدث هذا خللا في السياسة الخارجية أيضا ، رافق ذلك كثرة الحروب التي شنتها كل من روسيا والنمسا ضدها ، وذلك بغية تصفية ممتلكاتها في أوربا أولا ، ثم القضاء عليها ثانية ، وقد انعكس هذا الضعف على البلاد العربية الخاضعة للحكم العثماني .

فأمسى الحجاز بصورة عامة ونجدوالاحساء بصورة خاصة من جملة تلك المناطق والأقطار التي لم تجد من الدولة العثمانية الحماية والعناية المطلوبة ، حتى كادت أن تقع الاحساء فريسة للاستعمار الأوربي المتربص بها والطامع في موقعها وثروتها (١) .

لهذا قامت دعوة التوحيد والاصلاح في شبه الجزيرة العربية التي نادى بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وكان الباعث الأول من قيامها هو ماوصل اليه العالم الاسلامي في عصره من تدهور وفساد على كافة الأصعدة الدينية والسياسية، والاجتماعية والاقتصادية (٢) ، ومايهمنا هو الوضع الديني والسياسي .

وعلىأية حال فقد كان هذا امام الضعف الذي سيطر على الدولة العثمانية، وعجزها عن دفع الضرر عن رعاياها وبلادهم (٣) ، حيث بدأت تتجه

---

(١) عبداللطيف عبدالله بن دهيش : أحوال شبه الجزيرة قبل قيام الدولة السعوديةالأولى ، (مجلة العرب. الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ج ١ ، ٢ ، س ١١ ، رجب وشعبان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ، ص ٢٢ .

، محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٢٨٤.

(٢) محمد عبدالله السلمان : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، (الطبعة الأولى ،القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٤٠١هـ) ص ٧ .

(٣) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢١١.

الى أوربـــــا لتستمد منها قوتها ظنا منها أنها تستطيع النهوض بدولتها وشـعوبها اذا ماقلدت الغرب في أنظمته ، صارفة النظر عن الدين وتعاليمـه فانقسـم الشـعب الى فئتين فئة تنادي بالرجوع الى الشريعة الاسلامية ، والفئة الأخرى تدعو لاعتناق المبادئ الأوربية ، وفات الفريق الثـاني أنهـم جهلـوا الحقيقـة وهـي أن الاحـوال في الغرب كانت غير الأحوال في البـلاد الاسـلامية سياسـيا ودينيـا واجتماعيـا ، وأنـه ليس كل مايصلح للغربيين في نهضاتهم يصلح للمسلمين ويساعدهم.

ولهذا نشأت حركات الاصلاح ، هدفها الأساسـي احيـاء تعـاليم الشـريعة الاسلامية التي أصبحت نسيا منسيا للتخلـص مـن الاسـتعمار ، وكـانت أولى هـذه الدعوات كما ذكرنا دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الاصلاحية السـلفية والـتي تعتبر أول حركة اصلاحية سلفية في العصر الحديث ، وأولى الحركـات الاصلاحيـة التي ظهرت في الدولةالعثمانية [١] تدعو الى نقاء العقيدة الاسلامية مـن كـل البـدع والخرافات والرجوع الى أصول الاسلام الصحيح [٢] .

لذلك عملت دعوة التوحيد والاصلاح نوعـا مـن التـوازن لمواجهـة الغـزو الفكري الذي تسرب الى داخل الدولـة العثمانيـة وعاصمتهـا .وهـذا عندمـا ركـن قادتها الى سياسة العزلة ، وعملوا على عدم ادخال أي اصلاحات جوهرية تتمشـى مع التعاليم الاسلامية سياسية كـانت أو دينيـة ، مما أدى الى قيـام عنـاصر متطرفـة تساندها عناصر غير اسلامية من اليهود وأحزابهم تطالب بفـرض قوانـين وضعيـة ، واصلاحات بعيدة في معظمها عن الروح الاسلامية ، وقد ساعد ذلك على ضعـف مركز السلطان الذي أصبح ألعوبة في هذه الفئات المتطرفة ، وهـذا بـدوره أضعـف أيضا قبضة الدولة على السلطة في داخل العاصمة والولايات التابعـــة لها في أوربا

---

(١) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢١١.

(٢) محمد بن ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٣٩ .

والبلاد العربية ، ونتيجة لذلك طمع الغرب المستعمر رويدا رويدا في البلاد والبحار العربية من أجل حماية مصالحه وتجارته القادمة من الشرق ، فاستغل الامتيازات التي حصل عليها في الدولة العثمانية ، وزاد عليها معاهدات أخرى تجارية ودينية واسعة ، كما زادت أيضا في الوقت نفسه البعثات التنصيرية الى البلاد العربية وخاصة في بلاد الشام .

كما استبد الولاة وكثرت البدع والخرافات ، وابتعد الناس عن تحكيم كتاب ا لله وسنة رسوله صلى ا لله عليه وسلم .

وفي هذه الظروف السياسية والدينية المتدهورة أصبحت شبه الجزيرة العربية في حالة سيئة من الناحية الدينية والسياسية (١) .

فلقد تنازع الحكام فيما بينهم على السلطة ، فتعددت السلطات وعمت البدع والخرافات ، ولكن شاءت ارادة ا لله أن ينقذ دينه وينصر من ينصره فظهر في منطقة نجد المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبدالوهاب خاصة بعد أن نسى الناس الطريق الصحيح ، وتعاهد مع الامام محمد بن سعود على توحيد الأمة ،والعمل على تحكيم كتاب ا لله والسنةالنبوية المطهرة ومحاربة البدع والخرافات (٢) .

فكانت هذه الدعوة فكرا مضادا لحركة الغزو الفكر ي التي عمت الدولة العثمانية في تلك الفترة .

أولا : ان قيام قيادة سياسية واعية مؤمنة بهذه الدعوةومبادئها ومرتبطة بها وحارسة لقيمها ومدافعة عنها بدلا من الفرقة والتمزق الذي كانت تعيشه منطقة نجد وماجاورها في قلب شبه جزيرة العرب واشعارها بمسؤوليتها عن هذه العقيدة ومقتضياتها ، كل هذا الأمر يجعل الدولة العثمانية تخشى من أن تتحول

---

(١) محمد بن ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٣٩-٤٠.

(٢) حسين بن غنام : تاريخ نجد ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، (الطبعة الثالثة ، الرياض ، مطابع شركة الصفحات الذهبية ، ١٤٠٣هـ) ج ١ ، ص ١٠ .

بعض الولايات والأقاليم التابعة لحكمها والمجاورة لهذه الدولة الجديدة الى هذه الدولة ، وخاصة أن الدولة العثمانية بدأت تنحرف من خلال الفساد الذي عمها ، والذي كان من أهم أسبابه الغزو الفكري للدولة العثمانية .

ثانيا : أن الغزو الفكري قد ساعد على انتشار المبادئ الهدامة والعقائد الفاسدة التي تصرف الناس عن جوهر دينهم ، كما ساعدعلى فساد الأخلاق ، بينما ساعدت الدولة السعودية على ابطال البدع والخرافات بمختلف مظاهرها في العقيدة والسلوك والأخلاق والآداب والمعاملات واحلال القيم الصحيحة والأصول السليمة والآداب الاسلامية محلها ، وعلى هذا فدولة قائمة على هذه القيم والمبادئ ستمنع من دخول الفساد والانحراف في الدين والأخلاق ، وبالتالي لايتمكن الغزو الفكري بسمومه ومبادئه الهدامة من التأثير على هذه الدولة ، والذي يخشى منه هو أن يمتد نفوذ هذه الدولة او الدعوة السلفية الى الأرجاء التي تقع تحت حكم الدولة العثمانية والتي أصبحت بواسطة الغزو مرتعا لهذا الفساد والانحراف وبالتالي توجهت الدولة العثمانية لمحاربتها .

ثالثا : ان انتشار الدعوة السلفية كما أسلفنا في كثير من البلدان التابعة للحكومة العثمانية قد أدى الى شعور هذه الدولة بأن هذه الدعوة قد تؤدي الى تفكيك هذا الحكم فلابد من محاربتها في موطنهاالأصلي ، والشعور بأن هذه الدعوة قد تؤدي الى تفكيك هذا الحكم مرده الى المبادئ الفكرية الوافدة على أمتنا الاسلامية .

رابعا : ان الغزو الفكري بماحمله من ثقافات مختلفة أثر في كثير من المسلمين مع الأسف وخاصة في الذين لم يتمكن الاسلام في قلوبهم ، فانبهروا بها، وأخذوا بها ، وذهلوا بما فيها ، وخاصة المستغربين من حكام و أمراء الدولة العثمانية مما دفعهم الى محاربة الدولة السعودية التي تحتضن الدولة السلفية لأنها ستكون في نظرهم ضد استمرارهم في النشوة التي يعيشونها مع هذه الثقافات الوافدة.

أما كيف كان ظهور الدعوة السلفية ، فقد كانت الحالة الدينية عند فئة كبيرة من عامة الناس خلال النصف الأول من القرن الثاني عشرالهجري الموافق لأوائل القرن الثامن عشر الميلادي ، قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد انصرفت عن طريق الحق ليس رغبة في ذلك وانما لجهلهم بأمور دينهم ودنياهم ، وقلة الدعاة لإرشادهم الى الطريق السليم ، والنهج القويم وضعف السلطات الحاكمة في المنطقة من شيوخ القبائل وأمراء المدن ، وتنازعهم مع بعضهم حتى كثرت البدع والخرافات ، وحكمت العادات والتقاليد مكان الشرع الحكيم ، حتى أصبح بعض أولئك العامة يرون في الجمادات كالأحجار والأشجار القدرة على تقديم النفع ودفع الضرر ،وقد زين لهم الشيطان أنهم ينالون بهذا العمل ثوابا يقربهم من الله تعالى . فعظموا أهل القبور ، وصرفوا النذور اليهم والابتهال بالدعاء لهم وجعلوا لغيره عز وجل مالايجوز صرفه الا اليه سبحانه وتعالى .

ولم يكن هذا الأمر مقصورا على نجد وحدها ، بل ان هذا كان هو حال معظم ديار المسلمين [١] معنى ذلك أن الضلالات والبدع والخرافات والأساطير حلت محل القيم الاسلامية الصحيحة ، واضمحلت في نفوس معظم الناس تعاليم الاسلام وتنظيماته الحكيمة ، ولكن ليس بالصورة المبالغ فيها حسب التعميم الصادر من حسين بن غنام ومن بعده عثمان بن بشر عن سوء الحالة الدينية في تلك الفترة ، لأن شبه الجزيرة العربية كانت خلال القرن الثاني عشر الهجري تعج بالعلماء الذين تحلوا بالصفات الحميدة والعلم الوفير، وكانت لهم مؤلفاتهم في كثير من العلوم ،وبخاصة في علوم القرآن ، والحديث ، والفقه والتوحيد ،وعلم الآله، والسيرةالنبوية ، والتاريخ الاسلامي ، وكانت المساجد تؤدي دورها في التعليم والارشاد وخاصة المسجد الحرام في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي

---

(١) حسين بن غنام : تاريخ نجد ، ج١ ، ص ١٠.

الشريف في المدينة المنورة ، وبعض المساجد في المدن الرئيسية في نجد والقصيم وحائل [١] .

أما البيئة التي عاش فيها الشيخ محمد بن عبدالوهاب فقد كانت بيئته علمية محافظة ، تتميز بالجد والاستقامة ، والحرص على الأصول الاسلامية والمحافظة عليها [٢] . وقد كانت الحالة السياسية في الجزيرة العربية وبالتحديد خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري - الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي ، أي قبيل دعوة الشيخ بقليل مضطربة يسودها الانقسام ، وتعمها الفرقة وعدم الاستقرار لتعدد الأمارات والمشيخات.

فاتسمت بالتفكك السياسي والصراع الدائم حول السلطة بين حكام المنطقة من أمراء مدن وشيوخ قبائل ، فلم يكن فيهاعند قيام الدولة السعودية وظهور الدعوة الاصلاحية دولة قوية توحدها وتجمع شملها [٣] .

وكانت نجد في تلك الحقبة مقسمة الى عدة امارات ، كل إمارة مستقلة عن الأخرى يحكمها أمير ، ومن أهم هذه الامارات :

١- أمارة آل سعود في الدرعية .
٢- امارة آل دواس في الرياض .
٣- امارة آل معمر في العيينة .
٤- امارة آل علي في حائل .
٥- امارة آل حجيلان في القصيم .

---

(١) عبداللطيف عبدا لله بن دهيش : أحوال شبه الجزيرة العربية قبل قيام الدولة السعودية الأولى ، (مجلة العرب ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ج ١ ، ٢ ، س ٢٣ ، رجب وشعبان سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ص ٢٧ .

(٢) عبدا لله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، (القاهرة ، الناشر مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٩٢هـ) ح ١ ، ص ٣ .

(٣) عبداللطيف عبدا لله بن دهيش : المرجع السابق ، ص ١٥ .

٦- امارة آل شبيب في شمال نجد وجنوب العراق .

٧ - امارة آل زامل في الخرج .

بجانب شيوخ القبائل الذين هم السلطة على قبائلهم المنتشرة في ربوع الجزيرة العربية ، وكثيرا ما كانت الحروب والخصومات والفتن تشتعل بين أمراء المدن وشيوخ القبائل على أتفه الأسباب [١] .

وليس هناك قانون ولا شريعة يحكم بها هؤلاء الأمراء ، الا ماقضت به أهواء الأمراء وعماهم وليس على حسب أحكام الشريعة الاسلامية .

أما كيف يصل هذا الحاكم الى سدة الحكم ، فهناك طرق مختلفة منها ماكان سلميا ، ومنها ماكان عن طريق ا لقوة ، وكثيرا ماكانت الامارة وراثية الا اذا حدث خلاف داخل الأسرة ذاتها [٢] . فزعيم القبيلة كان يختار حسب مؤهلاته القيادية الذاتية . لاتصافه بالكرم والشجاعة والحلم وسداد الرأي من قبل عشيرته بكامل بطونها [٣] .

والجدير بالذكر أن الصراع حول السلطة ، واللجوء الى القوة أحيانا لحل النزاعات ليسا من الأمور الخاصة بنجد خلال تلك الفترة ، وانما هما أمران لم يخل منهما تاريخ أية أمة على مختلف العصور والأزمان [٤] .

وكان معظم الناس متفرقين ليس فيهم ملك أو امام ، ولايسودهم شرع

---

(١) عبدا لله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٣ .

(٢) عبدا لله الصالح العثيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره ، ص ١٤، ١٥ .

(٣) عبداللطيف بن دهيش : أحوال شبه الجزيرة العربية قبل قيام الدولة السعودية الأولى (مجلة العرب الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ج ١ ، ٢ ، س ٢٢ ، رجب وشعبان ١٤٠٧هـ) ص ١٦.

(٤) عبدا لله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص ١٥ .

يقتل بعضهم بعضا ،ويأكل قويهم ضعيفهم، لاينهون عن منكر فعلوه ، ولا فرض تركوه ، ولذلك كان لابد من ظهور عالم يجدد لهذه الأمة معالم دينها ويوقظها من أدران البدع والخرافات التي انغمسوا فيها [١] .

لأن البلوى قد أعمت قلوب بعض عامة الناس فانحرفوا عن الطريق المستقيم ، واتبعوا بعض الأمور التي من أعظمها الاشراك با لله بالتوجه ا لى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء ، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ،التي لايقدر عليها الا رب السموات والأرض ، وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التي لاتصح الا لله .

وصرف شيء من أنواع العبادة لغير ا لله كصرف جميعها لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ولايقبل من العمل الا ماكان خالصا كما قال تعالى : ﴿ فاعبد ا لله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم الا ليقربونا الى اللّه زلفى ان ا لله يحكم بينهم فيماهم فيه يختلفون ان ا لله لايهدي من هو كاذب كفار ﴾ [٢] .

فافتتن بعض عامة الناس بهذه الأمور والخرافات وظنوا فيها النفع والضرر والعياذ با لله [٣] ، حتى قيض ا لله لذلك العالم الجليل المجدد للدين الشيخ محمدبن عبدالوهاب ، الذي نادى بالتوجه الى ا لله في كل الأمور الدينية والدنيوية في المعاملات والعبادات [٤] ونبذ البدع والخرافات .

---

(١) محمد عبدا لله بن عبد المحسن عبدالقادر الاحسائي : تاريخ الاحساء (الطبعة الاولى ، الرياض ، مطبعة الرياض ، ١٣٧٩هـ) ص ١٢٤-١٢٥.

(٢) سورة الزمر : اية ٢ ، ٣ .

(٣) عبدالعزيز زيد الرومي وآخرون : أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب . القسم الخاص للرسائل الشخصية . (طبع جامعة الامام محمد بن سعود) ص ١١١-١١٢.

(٤) محمد عبدا لله بن عبدالمحسن آل عبدالقادر الاحسائي : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

ولقد ولد ونشأ صاحب هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في العيينه في بلاد نجد شمال الرياض سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م ، فترعرع في كنف والده عبدالوهاب بن سليمان ، الذي كان يعمل قاضيا لامارة العيينة ، فقرأ الشيخ رحمه الله على يد أبيه القرآن الكريم وتعلم الكتابة حتى حفظ القرآن وعمره لم يتجاوز الثانية عشرة ثم أخذ في قراءة كتب الحديث والتفسير وتتبع من خلالها كلام العلماء في أصل الاسلام (١) .

فشرح الله تعالى صدره لمعرفة التوحيد ومعرفة نواقضه المضله عن الطريق في وقت كانت فيه الضلالات قد فشت وانتشرت في نجد وغيرها من البلدان المجاورة ، حيث كثر الاعتقاد في الأحجاروالأشجار والقبور فأخذ الشيخ محمد يعارض وينكر على من نهج هذا المنهج من الضلالة والبدعة من أهل نجد (٢) .

فضاق صدره ذرعا من هذه الأفعال ، لذلك استأذن والده وسافر من بلده العيينه الى الحج لبيت الله الحرام ، وكان ذلك في حوالي عام ١١٣٦هـ/١٧٢٣م ، ساعيا كذلك في طلب العلم ، فالتقى مع العلماء في مكة المكرمة أثناء موسم الحج،وأدى مشاعره وقام بمناسكه ، وأخذ عنهم (٣) ، وهذا يعني أنه درس في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ولكن عدم ذكر المصادر لأي عالم درس عليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب في مكة المكرمة يرجح أنه لم يدرس فيها مدة

---

(١) السيد محمود شكري الألوسي : تاريخ نجد ، تحقيق بهجت الأثري (القاهرة ، المطبعة السلفية بمصر، ١٣٤٣هـ .)، ص ١٠٦ .

(٢) عثمان بن عبدالله بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، تحقيق عبدالرحمن عبدالله آل الشيخ ، (الطبعة الرابعة ، الرياض ، من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٢هـ) ج ١ ، ص ٣٣.

(٣) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ج ١ ، ص ١٨ .

تستحق البحث والعناية [1].

وفي هذا الصدد يذكر صالح بن عبدا لله بن عبدالرحمن العبود أنه وجد في بعض المصادر أن الشيخ درس في مكة المكرمة على يد الشيخ عبدا لله بن سالم بن محمد بن سالم بن عيسى البصري أصلا المكي مولدا ومدفنا ، الشافعي مسند الحجاز عمدة المحققين .

ويعتبر هذا الشيخ الثالث للشيخ محمد بن عبدالوهاب بعد شيخه الأول أبيه وشيخه الثاني عمه ابراهيم بن الشيخ سليمان بن على علامة نجد [2] ، ثم رحل قاصدا المدينة المنورة. فنزل بها وأخذ العلم فيها على يد ا لشيخ عبدا لله بن ابراهيم بن سيف من آل سيف رؤساء بلد المجمعة المعروفة في ناحية سدير من نجد. وكان عالما في الفقه والحديث الشريف [3] . وأخذه هذاالشيخ الى الشيخ محمد حياة السندي المدني فناقشه وأخذ من علمه الواسع وبعد أن أقام في المدينة ماشاء ا لله له ، خرج منها قاصدا نجد ، لأنه كان ينوى السفر الى الشام ، فتجهز من هناك مواصلا رحلته العلمية الى البصرة والشام فلماوصل الى البصرة نزل فيها ، وقرأ فيها على يد العالم الجليل محمد المجموعي ، فمكث هناك عدة أعوام يقرأ على يد الشيخ المجموعي وينكر على أهل البصرة أشياء من البدع ، فأحدثت المناقشات

---

(١) عبدا لله اصالح العثيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، حياته وفكره ، (الرياض ، الناشر دار العلوم ، مطبعة نهضة مصر) ص ٣٣ .

(٢) عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الاسلامي ، (المدينة المنورة ، الناشر : الجامعة الاسلامية ، ١٤٠٨هـ) ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٣) عبدا لله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

التي تمت بينه وبين أصحاب البدع والضلالات خصوصا ماكان منها في العقيدة [1] بعض الخلاف .

ولما أعلن الشيخ أنكاره الشديد لتلك الضلالات والبدع ضاق به أهل البصرة ، فآذوه وأخرجوه في وقت الهجيرة من البصرة . فقصد بلدة الزبير ، ولما توسط الشيخ الطريق مابين البصره والزبير ، سقط في الطريق مغميا عليه وكاد أن يهلك من العطش لشدة الحر، ولأنه قطع تلك المسافة مشيا على الأقدام ، ولكن مشيئة ا لله ، شاءت أن يدركه رجل من أهل الزبير فسقاه وحمله على دابته الى بلد الزبير [2] . وبعد ذلك قرر الشيخ أن يغادر الزبير ويتجه الى نجد ، فاتجه في طريق عودته من البصرة الى صوب الاحساء ، ونزل في الاحساء عند الشيخ عبدا لله بن عبداللطيف الشافعي الاحساني فاستفاد من علمه الواسع ، ومن الاحساء اتجه الى بلدةحريملاء ، التي كان أبوه قد انتقل اليها من العيينه في سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، نتيجة لوفاة أميرها عبدا لله بن معمر ، فتولى بعده ابن ابنه محمد بن حمد الملقب بخرفاش ، فوقع بينه وبين عبدالوهاب خصومة عزل عن القضاء على اثرها فانتقل بعدها الى حريملاء .

ولماوصل الشيخ محمد بن عبدالوهاب الى حريملاء ، حيث والده ، واستقر بها ، أخذ يقرأ على والده ، ويدعو ا لناس الى اخلاص العبادة لله وحده في الأقوال والأفعال في عقائدهم وكل أعمالهم حتى حصل بينه وبين عامة الناس في بلد

---

(١) أمين الريحاني : تاريخ نجد (الطبعة الأولى ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ م)، ج ٥ ، ص ٣٧ .

(٢) الآلوسي : تاريخ نجد ، ص ١٠٧.

، ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٥-٣٦.

،عبدالكريم الخطيب : الدعوة الوهابية (الطبعة الثانية ،جده،دار الشروق ،١٣٩٤هـ)، ص ٦٣.

حريملاء كلام كثير حول هذه المسائل واستمر هذا النقاش لمدة سنتين [١] .

وقد تدخل والده ينصحه بترك هذه الدعوة والعدول عنها خوفا عليه من عامة الناس ، الذين كانوا يهددونه وبعد أن شكوه مرارا الى والده ، فتردد الشيخ محمد احتراما لوالده حتى توفى في سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م [٢] ، ولكن عبدا لله العثيمين يؤكد أن وصول الشيخ محمد بن عبدالوهاب الى الاحساء كان مابين عامي (١١٤٧-١١٤٨هـ) ولم تطل اقامته بالاحساء حيث غادرها الى والده في حريملاء التي وصلها في عام ١١٤٩هـ[٣] ، والباحث يرجح هذا القول لأنه من غير المعقول أن يمكث الشيخ في حريملاء حوالي (١٤) سنة أي من (١١٣٩-١١٥٣هـ) ، لذكر ابن بشر أنه بقي مع والده في حريملاء مدة سنتين [٤] .

وحين توفى أبوه سنة ١١٥٣هـ أعلن الشيخ دعوته المباركة من حريملاء التي تدعو في مضمونها الى العودة الى توحيد ا لله بالعمل والعبادة ، فجدد ماكان قد اندرس من أصول الملة ، وقواعد الشريعة الاسلامية عند بعض عامة الناس ، ودعا الى التمسك بكتاب ا لله وسنة رسوله الكريم صلى ا لله عليه وسلم وبمذهب السلف الصالح والأئمة الأربعة [٥] .

---

(١) ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٧.
، الألوسي : تاريخ نجد ، ص ١٠٧ .

(٢) أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية (الرياض - مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز)ج١ ، ص ٣٥.

(٣) الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، حياته وفكره ، ص ٤٤ .

(٤) عبدا لله الصالح العثيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره ، ص ٤٤-٤٥.
،عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٧ .

(٥) عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ : مشاهير علماء نجدوغيرهم ، (الطبعة الأولى ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٢هـ) ، ص ١٦ .

فتبعه من حريملاء أناس وعارضه آخرون ، وكان في حريملاء قبيلتان من أصل واحد تتنازعان على الإمارة ، والكل منهما يدعي الامارة لنفسه وليس لأحد على الآخر من سلطان ، وليس هناك سلطة أو حاكم قوي يوحدهما .

وكان لإحدى القبيلتين عبيد يسمون آل حمين من أهل الفساد والضلال فأراد الشيخ أن ينصحهم ويمنعهم عن هذا الفساد ، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر والفساد ، فأضمروا له شرا وعزموا أن يفتكوا به خفية فلما جنح الظلام ، تسوروا عليه جداره ، يريدون قتله ، فشعر بهم بعض المجاورين فصاحوا عليه فهربوا[١] .

وبعد هذه الحادثة خاف الشيخ على نفسه فغادر حريملاء الى العيينه مسقط رأسه ،وكان رئيسها في ذلك الوقت عثمان بن معمر بن حمد بن معمر فتلقاه بالقبول الحسن ، لأنه يميل الى دعوة الشيخ ، وزوجه عمته الجوهرة ابنة عبدا لله بن معمر ، وقام الشيخ بشرح دعوته الاصلاحية القائمة على الأسس الاسلامية الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة المطهرة للامير عثمان بن معمرالذي شرح ا لله صدره لهذه الدعوة وقام في الحال بمساندتها وأعلن الشيخ دعوته الى ا لله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وشدد في التذكير على من خالف كلمة لا اله الا ا لله، فأخذ رحمه ا لله في بلد العيينه ، يعيد اقامة الحدود المعطلة ، وكان الأميرعثمان بن معمر يعاونه في كل الأمور لاعادة هذه الحدود[٢] .

وكان في العيينه وماحولها بعض الأشجار والأحجار التي يعظمونها

---

(١) ابن غنام : تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٧٧-٧٨ .
، ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٧-٣٨.
، الألوسي : تاريخ نجد ، ص ١٠٨.
، محمد عبدا لله آل عبدالقادر الاحسائي : تاريخ الاحساء ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٨-٣٩.

ويتبركون بها كشجرة قريوه ، وكذلك يوجد بها قبة على قبر الصحابي الجليل زيدبن الخطاب رضي الله عنه في بلد الجبيله ، فخرج الشيخ ومعه عثمان بن معمر، وكثير من أتباعه الى تلك الأماكن بالمعاول، فقطعوا الأشجار ، وهدموا القبة المبنية على قبر زيد بن الخطاب وسويت النصب التي وضعت على بعض القبور من العامة عملا بالسنة المحمدية والتوجيهات الاسلامية .

وهكذا أقام الشيخ الحدود وأزال شكوك الناس بازالة البدع والخرافات والضلالات احياءا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأسيا بسيرة خلفائه الراشدين [٢] .

ولم يزل مقيما في العيينه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعلم الناس أمور دينهم ويزيل البدع ويقيم الحدود ، حتى جاءته امرأة واعترفت عنده بالزنا ، وبعد أن عرف أنها محصنة، وتكرر منها الاقرار ، وسأل عن عقلها ، فوجدها صحيحة العقل ، فحاول درء الحد عنها ، عندما قال لها لعلك مغصوبة ، فأقرت واعترفت بما يوجب الرجم ، فأمر برجمها ، فرجمت فعظم أمره من تلك اللحظة وكثر أنصاره، وفشي التوحيد في المجتمع النجدي ، وتناقلت الركبان أخباره ، لما اشتهر أمره وخاصةً بعد رجم الزانية ، وانتهى الأمر الى سليمان بن محمد بن عزير رئيس الاحساء وبني خالد ، حيث شوه الرواة دعوته ، وقيل لسليمان أنه ظهر في بلد العيينه وأيده أميرها عثمان بن معمر ، ونادوا بالويل والثبور لسليمان ، شارحين له الأخبار مبدين أن انتصار هذه الدعوة معناه القضاء على ملكه ، وأن الشيخ تعمد إثارة الناس عليه لتبديد ملكه ، وأنه يسعى الى قطع المكوس والعشور التي تدفع اليه من القبائل والتجار ، لأنها من الأمور المنافية للدين [٢] وتعليماته التي أمرت بدفع

---

(١) ابن غنام: تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٧٨-٧٩.

(٢) حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ،(الطبعة الأولى ، بيروت ، مطابع دار الكتاب ، ١٩٦٨م) ، ص ١٤١.

الزكاة لبيت مال المسلمين وحددت موارد الدولة وطرق الانفاق منها .

لهذا ضاق صدر سليمان بن محمد ، وأرسل كتابا في الحال يهدد فيه عثمان بن معمر أمير العيينه لمناصرته لدعوة التوحيد ويأمره بقتل الشيخ أو على الأقل اخراجه من العيينه . والا اضطر الى الاستيلاء على ريع بساتين ابن معمر التي في الاحساء والاستيلاء على تلك الأملاك كما أنه سوف يمتنع عن تقديم أي مساعدة لعثمان بن معمر .

فعظم على عثمان بن معمر مخالفة سليمان بن محمد رئيس بني خالد والاحساء ، ويظهر أنه فضل الناحية المادية على مناصرة الدين ، وغاب عن ذهنه عظمة رب العالمين وأن الله سوف ينصر من ينصره . ومما يؤسف له أن عثمان بن معمر رضخ لتهديدات حاكم الاحساء فاستدعى الشيخ وأخبره بكتاب رئيس بني خالد ، وأمره بالخروج من العيينه ، ولم يفد فيه وعظ الشيخ ونصحه ، بأنه لابد للداعي والمصلح أن يناله الأذى وفي النهاية تكون العاقبة للمتقين ، ولمن يحمي دينه من التمكين في البلاد والعباد ولكنه أعرض عن ذلك كله [١] .

وقال عليك أن تترك العيينه وتختار أي بلد شئت سنة أو سنتين حتى نرى ماذا يفعل الله ثم ان مرجعكم الينا [٢] .فقال الشيخ : أريد الدرعية ، فأمر ابن معمر فارسا يقال له الفريد الظفيري وخياله معه لمرافقة الشيخ الى الدرعية فسار ومعه الفرسان حتى وصلا الى الدرعية [٣] ، فنزل الشيخ ضيفا عند عبدالله ابن سويلم وكان ذلك في أواخر عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م ثم انتقل بعد ذلك في اليوم التالي الى تلميذه أحمد بن سويلم ، الذي خاف على نفسه من الأمير محمد بن سعود

---

(١) أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، (الطبعة الثالثة ، الرياض ، شركة مطابع الجزيرة) ، ص ٢٨ .

(٢) حسين خلف خزعل : المرجع السابق ، ص ١٤٢.

(٣) ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٤١ .

أمير الدرعية ، لأنه كان يعلم حال الناس والمعارضين لهذه الدعوة الذين لايقبلون على ما أتى به هذا العالم، فخاف خوفا شديدا ، وضاقت عليه داره ، ولكن الشيخ هدأ من روعه وسكن جأشه ووعظه بأن الله سيجعل لنا ولكم مخرجا . فعلم بالشيخ بعض الخواص من أهل الدرعية فزاروه خفية ، فشرح لهم معنى التوحيد ، ولكن الأمير محمد كان له اخوان (مشاري وثنيان) وكانا على صلة بالشيخ وهو في العيينة وقد اشتركا معه في هدم بعض القبور والقباب ، اضافة الى أن زوجة الامير محمد كانت امرأة عاقلة،فبين الأخوين لأخيهما ، وساندهما عى ذلك زوجة الأمير ، على أن الشيخ محمداً نازل ضيفاعند تلميذه أحمد بن سويلم وأن هذا الرجل غنيمة قد ساقه الله اليك ، فاغتنم ماخصك الله به ، ورغبوه في زيارة الشيخ في بيت ابن سويلم [١] .

فسار محمد بن سعود اليه ، فرحب به وقال : ابشر ببلاد خير من بلادك وبالعز والمنعة قال الشيخ : وأنا أبشرك بالعز والتمكين والنصر المبن والغلبة على جميع بلاد نجد ، وهذه كلمة لا اله الا الله من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهي كلمة التوحيد وأول ما دعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم .

وبتركها ترى نجدا كلها وأقطارها أطبقت عن الشرك والجهل والفرقة والخلافات الدائمة ، وقتال بعضهم بعضا جورا وعدوانا ، وقال الشيخ : أرجو من الله أن تكون اماما يجتمع عليك المسلمون وعلى ذريتك من بعدك [٢].

---

(١) أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٢٩ .

(٢) ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٤٢.
، أحمد عبدالغفور عطار: محمد بن عبدالوهاب (الطبعة الثانية ، بيروت ، منشورات مكتبة العرفان ، ١٣٩٢هـ) ، ص ٦١-٦٢.
، الألوسي : تاريخ نجد ، ص ١٠٩-١٠٠ .

ولما تحقق للامام محمد بن سعود صدق قول الشيخ محمد وشرح الله صدره لهذا القول قال له : يا أيها الشيخ ان هذا دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذي لاشك فيه ، فأبشر بالنصرة لما أردت وبجهاد من خالف هذا الدين فتمت المبايعة على ذلك [1] .

وهذا اعتبر بعض المؤرخين وصول الشيخ محمد بن عبدالوهاب الى الدرعية في أواخر عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م ، وعقد هذاالاتفاق مع أميرها محمد بن سعود هو تاريخ نشأة الدولة السعودية الأولى ويوم ظهور ميلادها حتى يومنا الحاضر [2] .

• • •

---

(١) ابن بشر: المصدر السابق . ص ٤٢ .

(٢) ابن سعيد : تاريخ الدولة السعودية الأولى ، ج ١ ، ص ٤١ .

١- أهميتها في مواجهة الغزو :

ومن هنا بدأ ا لشيخ والأمير محمد بن سعود يعدان العدة للخروج بالدعوة الى خارج حدود الدرعية الى الامارات النجدية ثم الى بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية، سائرين بكل جد لنشر هذه الدعوة السلفية ، على أسسها الصحيحة كما كانت عليه في عهد الرعيل الأول من السلف الصالح ، لايقاظ الأمة والرجوع بها الى أصولها الأولى [(١)] الى الدين الصحيح ، ونبذ الاعتقادات الباطلة في الأحجار والأشجار والقباب والأولياء ، وجعل هذه الأمور كلها لله ولاشريك له ، ومواجهة كل غزو وافد الى شبه الجزيرة العربية ومحاولة صده مهما كان نوعه .

فالحالة الدينية في العالم الإسلامي ، حالة العقيدة الإسلامية في نفوس أتباعها ومدى تمسكهم الصحيح بها ، ولما كان الاسلام عقيدة ومنهج حياة ، فقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، تبعا للاسلام وايقاظا لمن غفل عن هذا الدين . عندما انتشرت الفوضى والجهل والاستهانة بالدين في العالم الاسلامي على طول النصف الأول من القرن الثاني عشرالهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي . وخاصة عندما دخلت الدولة العثمانية عصرالانحطاط في ذلك العصر ، ازدادت الحالة الدينية سوءا بين المسلمين وذلك لجهود علماء ا لمسلمين ، وعدم سعيهم للاصلاح السائر على أسس اسلامية وفتح باب الاجتهاد ، ذلك لأن الاسلام صالح لكل عصر فامتنعوا عن ايجاد أي اصلاح سليم ، وقد شجعهم على ذلك بعض أصحاب السلطة في تلك الفترة ، لمعارضة الاصلاح أيا كان نوعه .

وكثيرا مايعدون صاحبه كافرا ، كما فعلت الدولة العثمانية مع دعوةالشيخ محمد بن عبدالوهاب ، حينما عدوا حركته السلفية خارجة عن

(١) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : الدولة السعودية الأولى ،، (الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ، ١٤٠٢هـ) ، ص ٨ .

الدين [1] . واتهموها بالوهابية ، في الوقت الذي أطلق فيه أصحاب السلطة العثمانية العنان لأهل البدع المتصوفين البلهاء حتى علا شأنهم عند العامة ، واعتقدوا فيهم الولاية ، حتى كان لأصحاب الطرق الصوفية عند الناس منزلة عظيمة فنشروا بدعهم بين الناس ، ومن البدع التي أصابت عقيدةالتوحيد وانتشر في البلاد الاسلامية المختلفة الاعتقاد الأعمى في القبور والأولياء والصالحين ، فبنيت عليهم القباب ، وقدمت لهم الهدايا والقرابين فصرفوا أنواعا من العبادات التي لايجوز صرفها الا لله وحده كالدعاء والاستعانة والذبح والنذر والشفاعة الى غير ذلك من الأمور الباطلة التي انتشرت في كل بقاع العالم الاسلامي .

وهنا نرى كيف ضاعت عناية السلطة العثمانية بدين الاسلام في هذه الأمور من البدع دون اهتمام الدولة بها ، أو النصح في عدم اتباعها [2] .

وقد بدأ الامام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب بالدعوة لتوحيد الأمة فأرسلوا الرسل من العلماء الى المدن والقرى المجاورة لدعوتهم لتأييد هذه الدعوة الاصلاحية وتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكذلك دعوة شيوخ القبائل الى الانضمام لوحدة الأمة ونظرا لأن أبناء نجد قد سئموا من حالة الفوضى التي كانوا يعيشونها فانهم لم يترددوا في اتباع الدعوة السلفية التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، والامام محمد بن سعود بتأييدها ونصرتها بالمال والسلاح [3] فزاد عدد أنصار الدعوة وأعلن الكثير من حكام المدن والقرى وشيوخ القبائل انضمامهم للوحدة السياسية التي دعا اليها الامام محمدبن سعود كما أيدوا تطبيق الأحكام الشرعية على الفسقة والجناة ومحاربة البدع والخرافات وأطلق على الأمير محمد بن سعود لقب الامام لاتساع امارته

---

(١) محمد كمال جمعه : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ص ١٤-١٨ .

(٢) محمد عبدالله السلمان : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٢- ١٦ .

(٣) أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية الأولى ، ج ١ ، ص ٤٢ .

حتى أصبحت تضم معظم بلدان نجد خلال أربعين سنة من انطلاق الدعوة المباركة من قاعدتها الأولى الدرعية .

ويمكن القول أن هناك قاعدة تاريخية وهي أن مبادئ الدعوة السلفية كانت تسبق الجيوش السعودية وتمهد لها مما ساعدها على ضم هذه الامارة بمساعدة أنصار الدعوة في تلك الامارات فأصبحوا عونا للدعوة وأهلها.

وهكذا قامت الدعوة السلفية واتسع نطاقها وأنصارها ، وفي عام ١١٧٩هـ توفى الامام محمد بن سعود فخلفه ابنه الامام عبدالعزيز الذي ضم نجد بكاملها لدولته ، واخذ يتطلع لضم الاحساء لأنها المنفذ الوحيد لبلاده ، ولأن اقليم الاحساء يشكل اقليما خصبا يحقق لنجد الاكتفاء الذاتي وعلى ممر مائي هام هو الخليج العربي فضلا عن أنها نافذة تطل منها نجد على العالم الخارجي ، حيث الحركة الدائبة والمصايد التي تشكل موردا كبيرا للؤلؤ وللأسماك الجيدة في ذلك الوقت وبهذا يتوفر للدولة موردا جديدا من موارد الصرف على المرافق المختلفة اضافة الى ذلك فان ضم الاحساء سيجعل من نجد دولة خليجية ، وتكون قاعدة سعودية برية وبحرية تنطلق منها الجيوش السعودية نحو بلدان الخليج لنشر الدعوة السلفية دعوة التوحيد والإصلاح [١] .

لهذا شن الامام عبدالعزيز بن محمد هجومه الحاسم ، حتى تمكن من ضم الاحساء للدولة السعودية وذلك منذ عام ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م [٢] .

والحقيقة أن الدولة العثمانية وقفت منذ بداية عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م ضد هذه التطورات والأحداث في الدولة السعودية الأولى ، ففتحت جبهة العراق

---

(١) محمد عرابي نخله : تارخ الاحساء السياسي ، (الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، ١٤٠٠هـ)، ص ٣١-٣٢ .

(٢) محمد عبدالله آل عبدالقادر الاحسائي : تاريخ الاحساء ، ص ١٣٥ .

ممثلة في واليها سليمان باشا ، حين رأت هجوم الدولة السعودية الخاطف على الاحساء تمهيدا لضمه الى نجد ، فساعدت كل تحرك يهدف الى تدمير الدولة السعودية في مهدها ، ومن ذلك مساعدتها لبني خالد في تحركاتهم الهجومية على نجد . كما أن الدولة العثمانية سعت على تحريض الموالين للدولة السعوديةعلى نقض ولائهم لها ، الا أن الدولة العثمانية لم تهتم بادئ ذي بدء اهتماما كبيرا بهذه الدولة الناشئة، حينماكانت مجرد امارة داخلية ، ولكن حينما قامت هذه الدولة تتطلع الى ضم الإحساء ، رأت الدولة العثمانية أن هذا يعد تهديدا لها ،ومن تلك اللحظة بدأت تحس بوجود الدرعية [1] .

وعندما كانت السلطة في جنوب العراق في تلك الفترة في أيدى أمراء المنتق ،كانت الدولة العثمانية تساير هذه القبيلة خوفا من تعدد غاراتهم في وقت كان الخلل قد تسرب الى جسم الدولة العثمانية وكان رئيسهم هو ثويني بن عبدا لله آل شبيب يتخوف أيضا من انتشار الدعوة السلفية في جنوب العراق بين المنتفق ويخشى من خطرها . فاستمالته الدولة العثمانية وجعلته في جانبها ، وأخفت عنه ماتكنه له من عداء . وأثارت مخاوفه من توسع الحكم السعودي . عند ذلك أظهرت له الدولة العثمانية استعدادها ومساعدتها في حربه مع أهل الدرعية، وبمده بالمال والسلاح [2] .

وعندما ضم آل سعود الاحساء أثار هذا العمل الدولة العثمانية وتجسم لديهم خطر قوة آل سعود بشكل مثير [3] .لأنها أصبحت بضمها هذا الجزء دولة خليجية تطل على الخليج العربي، ولم تكن كما كانت دولة داخلية ، وكذلك تسمية أمرائها بلقب امام المسلمين أثار غضب خلفاء الدولة العثمانية واعتبروه

---

(١) خلف دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري . ص ٣٥٠ .

(٢) حسين خلف خزعل : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب . ص ٣٣٠.

(٣) محمد سعيد المسلم : ساحل الذهب الأسود . ص ١٧٩-١٨٠ .

تحديا لسلطتهم لأن السلطان العثماني كان يعتبر نفسه خليفة لبلاد المسلمين عامة.

وهذا ما أزعج الدولة العثمانية حتى باتوا يخشون من خطرها وتهديدها للسلطة العثمانية ، وزوال حمايتهم للحجاز ، لذلك صمم العثمانيون على مقاومة الدولة السعودية الأولى ، ففتحوا جبهة العراق (١) ، وكأن الأمر مجرد البحث عن الألقاب والتفاخر بها دون النظر الى مصلحة الدولة العثمانية فقد أهملت البلدان والولايات التابعة لها وخاصة في شبه الجزيرة العربية ولما قامت الدولة السعودية لم تسع لوضع يدها معها وتأييدها بالمال والسلاح من أجل خير شعوبها . وانما وضعت أمام عينها البحث عن الألقاب من خليفة أو سلطان وما علمت أن الخليفة والسلطان مسؤول أمام ا لله قبل كل شيء عن شعبه وأمته . وهكذا سعت الدولة العثمانية الى تجريد حملة ثويني بن عبدا لله ومساعدته لحرب الدولة السعودية من أجل تفتيت وحدة تلك الشعوب وجعلها تعيش حياة الفقر والجهل والقتل من أجل أن يستعيد السلطان لقبه . وهكذا جمع ثويني العساكر والجنود اللازمة وتحرك من البصرة واتجه صوب الاحساء لمحاربة السعوديين هناك بعد أن انضوى تحت شوكته كل العناصر المناوئة للدولة (٢) حتى وصل الشباك ، الماء المعروف في الاحساء ، ونزل به ، وكان في جيشه عبد من موالي الجبور من بني خالد ، موال للدعوة السلفية يسمى " طعيس " ، فلما جلس ثويني في خيمته المعدة لجلوسه وكان خدمه وخاصته منشغلين عنه في بناء خيامهم ، فرأى طعيس أن ثويني خال من الحرس وكان معه حربة يخفيها ، فاستطاع في غفلة الحرس أن ينقض بها على ثويني فطعنه في صدره ، فلقي ثويني مصرعه في تلك الساعة ، وكان ذلك في

---

(١) محمود شاكر : البحرين (الطبعة الأولى . بيروت . المكتب الاسلامي ، ١٤٠١هـ) . ص ٧٥ .

(٢) خلف دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر . ص ٣٥٠ .

يوم ١٢١٢/١/٤هـ الموافق ١٧٩٧م . وقتل العبد في الحال [1] فاضطربت قوات ثويني بموت قائدها ،وتراجعت عن تحقيق هدفها ، وانهزمت مولية الأدبار الى البصرة [2] ، وذلك لأن القوات السعودية التي أرسلها الامام عبدالعزيز قد وصلت الى الموقع فتتبعت فلول قوات ثويني فولت هاربة الى داخل الأراضي العراقية فاصبحت أسلحة ومدافع وذخائر قوات ثويني غنيمة للقوات السعودية [3] ففشلت بذلك حملة ثويني بموته .

وقد كانت نتيجة فشل معركة ثويني وموته صدمة شديدة على سليمان باشا والي العراق دون أن يحقق مايرجوه . وكان أمير مكة الشريف غالب بن مساعد قد فتح هو الآخر جبهة أخرى ضد آل سعود للقضاء على حكومة الدرعية وعلى الدعوة السلفية ، وقد جرد لهذه المهمة عدة حملات ، وكانت أولى هذه الحملات في سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م [4] .

لكن هذه الحملة فشلت. وهكذا لم يتوف الشيخ محمد بن عبدالوهاب الا وقد شهد من علامات قوة الدولة التي قامت على دعوة التوحيد بدء رجحان كفتها على كفة أمراء الحجاز .

---

(١) ابراهيم بن صالح بن عيسى : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد (الرياض . من منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) ص ١٩ .
. خلف دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر . ص ٣٦٠

(٢) خلف دبلان الوذيناني : المرجع السابق . ص ٣٦٠ .

(٣) محمد بن عمر الفاخري : الاخبار النجدية . تحقيق عبدالله يوسف الشبل. (الرياض . من مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود) . ص ١٢٨ .
. ابن عيسى : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد . ص ١٢٩ .

(٤) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية ماضيها وحاضرها (بيروت . منشورات مكتبة الحياة) . ج ١ . ص ٥٢ .
. حسين خلف خزعل : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب . ص ٣٨٠ .

ومن المعروف أن الدولة السعودية استمرت في توسعها بعد وفاة الشيخ سنة ١٢٠٦هـ [١] .

ومهما يكن فقد توالت حملات الشريف غالب على الدرعية في ١٢١٠ – ١٢١١هـ/ ١٧٩٥– ١٧٩٦م ، فكان الامام يتصدى لهذه الحملات ، ويبادل الاشراف الهجمات حتى دانت لآل سعود معظم المدن والقبائل الحجازية التي أدركت حقيقة الدعوة الاصلاحية السلفية في محاربة البدع والخرافات وتطبيق الشريعة الاسلامية على الفسقة والجناة ، فدخل في طاعة آل سعود ابن ربيعان العتيبي وجماعته ، ومن معه من قبائل أهل الحجاز ، ودخلت تربة وأهلها البقوم ولحقتها رنية وبيشة [٢] .

ففي سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨ م ، استغل أمير مكة غالب بن مساعد انشغال الامام عبدالعزيز وابنه الأمير سعود في حروبهم ضد القبائل الخارجة عن طاعته وظن أنه سيلحق بالدرعية الدمار ، فسار بنفسه على رأس قوة أنصاره فقصد الدرعية حتى نزل الخرمة ، فدارت ا لمعركة بين القوات السعودية بقيادة هادي بن قرمله والشريف غالب بن مساعد ، انهزم على أثرها الشريف غالب وجنوده ، وعاد الى بلاده ، فجنح بعد هذه المعركة الى الصلح على شرط أن يسمح لأهل نجد بالوفود الى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة [٣] .

كان سليمان باشا الوالي العثماني في بغداد يتابع هذه الأحداث على ملل ، ولما سمع بالصلح بين الشريف غالب بن مساعد ، والامام عبدالعزيز زعيم الدولةالسعودية لم يرق له بال ،وهو مايزال ينن من موت ثويني وفشل حملته. فقام

---

(١) عبدالله الصالح العثيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٧٨ .

(٢) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية ،ماضيها وحاضرها ، ج ١ ، ص ٥٢ .
، حسين خلف خزعل :تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٣٨٠.

(٣) صلاح الدين المختار : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

باعداد حملة من الجنود النظامية في سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م لمحاربة واخراج الدولة السعوديةمن الاحساء ، فأوكل قيادتها الى نائبه علي باشا كخيا ، وسانده في هذه الحملة فرسان بني ا لمنتفق تحت رئاسة حمود بن ثامر الشبيب ، فاجتمعت له قوة هائلة تفوق حملة ثويني بن عبدا لله فسار علي كخيا بهذه الجموع وقصد بهاالاحساء ، فأخذ في حرب أهلها حتى انضم اليه أهل المبرز والهفوف ، وأهل القرى الشرقية نتيجة للقوة الكبيرة والاستعداد العظيم الذي كان مع على كخيا ولكن قصر المبرز (صاهود) وحصن الهفوف ،امتنعا عن التسليم للقائد علي كخيا فزحف القائد العثماني الى كوت المبرز لحصاره ، فحاصره ستين يوما ، وقد وجه اليه المدافع ولكنه لم ينل منه شيئا ، لذلك عمد علي كخيا الى كل حيلة للاستيلاء عليه ولكن كل محاولاته باءت بالفشل طوال هذه المدة . ولما طال المقام على علي كخيا وقواته دب الملل والخوف في نفوسهم فارتحلوا من الاحساء الى العراق،ونزلوا الشباك ، الماء المعروف قرب ثادج في طريقه الى بلاده .

وعندما علم الامام عبدالعزيز بتقدم القوات العثمانية للاحساء جهز قوة كبيرة وأرسلها بقيادة ابنه الأمير سعود الذي سار بأهل نجد وقصد ناحية الاحساء لنجدة أهلها ،ونزل ماء ثاج بين الاحساء والبصرة .

لهذا اجتمع الجيشان على غير موعد ، والتقى الفريقان ،ودارت بينهمامعارك ومناوشات لعدة أيام مما أرعب على كخيا ، ووجد أنه واقع وقواته لامحالة في قبضة القوات السعودية ، فلجأ الىطلب الصلح على أن ترجع قوات الطرفين الى مواقعها دون قتال ، وألا يتعرض على كخيا لأحد من رعايا الدولة السعودية، فقبل الأمير سعود بذلك وعاد على كخيا الى بلاده ،كماعاد الأمير سعود الى الاحساء لضبطها وشكر أصحاب الحصون وقام بترميمها [1] .

---

(١) خلف بن دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، ص ٢٦٤-٢٦٦ .

ولما رأت الدولة العثمانية فشل بغداد ، أوكلت المهمة الى والي الشام ، الذي لم يكن بأفضل حال من زميله والى العراق [1] .

وفي عام ١٢١٨هـ/١٨٠٣ م دخل الامام سعود بن عبدالعزيز مكة المكرمة بعد أن قام الشريف غالب بنقض العهد الذي قطعه على اثر مقتل الامام عبدالعزيز وعندما دخل مكة كتب رسالة الى السلطان سليم الثالث هذانصها :

من سعود بن عبدالعزيز الى سليم

أما بعد. فقد دخلت مكة المكرمة في اليوم الرابع من محرم سنة ١٢١٨هـ ، وأمنت أهلها وأرواحهم وأموالهم بعدما هدمت ماهنالك من أشياء وثنية والغيت الضرائب الا ماكان منها حقا ، وأثبت القاضي الذي وليته أنت طبقا للشرع .

فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور الى هذا البلد المقدس ، فان ذلك ليس من الدين في شيء ، وعليك رحمة الله وبركاته . الواثق بالله المعبود - سعود [2] .

ويظهر أن السلطان لم يصغ لذلك حيث انه في عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥ م خرج عبدالله العظم والى الشام بالمحمل الشامي ، فحدث صدام بينه وبين السعوديين . وقد قام الامام سعود بن عبدالعزيز في العام التالي بمنع عبدالله العظم والي الشام من ادخال المحمل الى مناطق الحج وذلك لاصطحابه المحمل بالزمور والطبول . لتحذيره في السنة السابقة ، ولم يمنع الامام دخول حجاج العراق من الحج [3] .

---

(١) أحمد عسه : معجزة فوق الرمال ، (الطبعة الثانية ، لبنان ، مطابع الاهلية اللبنانية ، ١٣٨٦هـ) ، ص ٢١ .

(٢) خيرالدين الزركلي : شبه الجزيرة في عهد السلطان عبدالعزيز ، (الطبعة الثانية ، بيروت / ١٣٩٧هـ) ، ج ١ ، ص ٣٧-٣٨ .

(٣) أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث ، ج ٥ ، ص ٧١ .

وانما منع الامام سعود بن عبدالعزيز أن يغزو أرض الحرمين ماصاحب الحج من البدع التي افتتن فيها العثمانيون بالأفانين فيما تتعلق بالمحمل وجمال المحمل ، وطقوس المحمل ، تسير خلفها قوافل الحجيج القادمة من مصر أو الشام أو العراق.

وكل ذلك بدعة في الاسلام، وكان حكام الولايات العثمانية يحتفلون رسيما ودينيا بوداع المحمل وباستقباله . كما أن الأشخاص الذين لم يحجوا يقومون بلمس بدن " جمل ا لمحمل " ويتبركون به أما القوة العسكرية التي تصاحب الحجيج فهي اعلان عثماني عن سلطان " حامي الحرمين " في البلد الآمن الذي يجب أن تبتعد الجيوش عنه [(١)] .

وعلى الرغم من أوامر السلطان وتكرارها لعبدا لله العظم أو خلفه يوسف كنج بالقيام بحرب آل سعود ، فان هذه الأوامر لم تجد أذنا صاغية ، وقد انصرف يوسف كنج لجمع المال ، كعادة الولاة العثمانيين في ذلك العصر ، واكتفى برده على السلطان سليم الثالث ، بارسال الخطط الحربية لكيفية القضاء على الدولة السعودية ثم اقترح تظافر جهود مصر والعراق لتحقيق هذاالهدف ، فأخذ يماطل الدولة العثمانية حوالى أربعة أعوام [(٢)] . وفي خلال هذه الأعوام قام الامام سعود بن عبدالعزيز في سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م بجمع جنوده وقصد بلاد الشام لاخماد تحركات بعض قبائل أهل الشام وعربانه ، الذين كانوا يتحرشون بحدود الدولة السعودية الشامية ، وقد تمكنت القوات السعودية من هزيمتهم ففروا الى داخل الشام ، وطاردهم الامام الى عمق الأراضي الشامية ونتيجة لذلك قام

---

(١) عبدالحليم الجندي : الامام محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٦٧ .

(٢) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، اقتراحات يوسف كنج الخاصة بحرب آل سعود ، محفظة (١) بحربرا وثيقة (٨) بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٢٣هـ - ١٦ ابريل سنة ١٨٠٨م .
نقلا عن (عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : تاريخ الدولة السعودية الأولى ، ج ١ ، ص ٥٧٤) .

السلطان سليم الثالث بعزل يوسف كنج والي الشام واسناد الولاية الى صاحب عكا سليمان باشا [١] .

فكانت هزائم والي العراق وعجز والي الشام مظهرين من مظاهر الشلل الذي أصاب الدولة العثمانية منذ فترة طويلة .

ومن هنا وقع الشك في مقدرة السلطان العثماني سليم الثالث على الاضطلاع بمهمة حامي الحرمين الشريفين تلك التي كانت تفرض احترام الدولة العثمانية بين الشعوب والممالك الاسلامية ، وبهما لقب السلطان العثماني بحامي حمى الحرمين الشريفين [٢] .

ومما زاد في غضب سلطان الدولة العثمانية هو اطلاق اسم الامامة في بيت آل سعود منذ عهد الامام محمد بن سعود [٣] .

وما علموا أن الدولة السعودية منذ تقدمت لضم الحجاز كان أولا بسبب تحرش الشريف غالب بالدولة السعودية ورعاياها وتسيير عدة حروب ضدها وقيامه بعد ذلك بمنع رعايا الدولة السعودية في نجد والاحساء من أداء فريضة الحج أحد أركان الاسلام . وهذا العمل أثار غضب حكام الدولة ورعاياها وثانيا أن الحجاز في تلك الفترة كاد أن يتعرض للغزو الصليبي الجديد عندما قدم نابليون واستولى على مصر في عام ١٢١٢هـ/ ١٧٩٨م ، ولم تستطع الدولة العثمانية وسلطانها حماية مصر من ذلك الغزو ، كما أنها لم تساعد أحمد باشا الجزار والي عكا ضد حملة نابليون حتى كادت الشام أن تقع أيضا في قبضة الغزو الصليبي الفرنسي مما أثار غيرة الامام عبدالعزيز آل سعود تجاه الأماكن الاسلامية في مكة

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، ص ١١٩ .
، صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية ماضيها ، وحاضرها ، ج ١ ، ص ١١٠.

(٢) محمد عبدالله آل عبدالقادر الاحسائي : تاريخ الاحساء ، ص ١٣٩ .

(٣) خير الدين الزركلي : شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ، ج ١ ، ص ٣٥ .

المكـــــــرمة والمدينة المنورة وخشيته مـن وقوعهـا في يـد الغـزاة الصليبيـين ، مـع علمه بضعف الشريف غالب وعدم مقدرتـه علـى حمايـة تلـك الأمـاكن مـن الغـزو الصليبي ، ولذلك قام بضم الحجاز للدولة السعودية لكن سلاطين الدولـة العثمانيـة بالرغم من ذلك كانوا قد أصروا على محاربـة الدولـة السـعودية بحثا عـن الألقـاب وليس لإسعاد أهلها، فأوكلت هذه المهمة الى محمد على الأرناؤوطي فأصدر البـاب العالي أوامره الى محمد علي والي مصر ، بأن يتولى حرب آل سـعود ، وكـان ذلـك في سنة ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م ، فامتثل محمد علي والي مصر لأمر سـلطانه ، وجهـز حملة عسـكرية كبـيرة وأسـند قيادتهـا الى ابنـه طوسـون ، فسـار بهـا في سـنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م ، بعد الحاح من السلطان محمود الثـاني ، ولكـن هـذه الحملـة باءت بالفشل الذريع أمام قوات الدولة السعودية ، وقـد انكسـر الجيـش العثمـاني عدة مرات ، وجنح طوسون الى الصلـح بعـد تعثره أمـام القـوات السـعودية سـنة ١٢٣٠هـ/١٨١٤م ، على الشروط التالية : ان يرفع العثمانيون أيديهم عن نجـد ، ويرفع السعوديون أيديهم عن الحرمين وكل منهم يحج آمنا [١] .

ولكـن لم يلبـث محمـد علـي أن نقـض العهـد أو الصلـح مـن أجـل مطـامع شخصية له ، ولتنفيذ أوامر سلطانه بوقف نمو الدولـة السـعودية السـلفية الفتيـة ، جهز حملة بربرية ، وأسند مهمتها في هذه المرة الى ابنه ابراهيم للقضاء على الدولـة السعودية حسب أوامر السلطان محمود الثاني [٢] .

واستطاع بعد عدة معارك قاوم فيها السعوديون مقاومة الأبطـال أن يصـل الى الدرعية في سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م ، فضرب عليها الحصار ، حينها فوجئت

---

(١) ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٧٨.
، احمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدلوهاب ، ص ٦٣-٦٤.

(٢) الفاخري : الاخبار النجدية ، ص ١٤٧ .
، ابن عيسى : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ص ١٤٢-١٤٣.

القوات السعودية بالسلاح الحديث المتطور الذي زود به الجيش العثماني ولكنها لم تأبه به فقد رتب الامام عبدا لله بن سعود الدفاع عن الدرعية من كل جهاتها ، واستمرت الدرعية في المقاومة ضدجيوش ابراهيم . وبعد حصار دام ستة شهور أبلى فيه أهل الدرعية وعلى رأسهم امامهم عبدا لله بن سعود بلاء حسنا ، صمم فيه علىحرب ابراهيم حتى الموت ، ولكن لما رأى الامام كثرة الضحايا ، وتصميم الغازين استجاب للصلح مع ابراهيم بن محمد علي ، وتم الصلح ، ودخل ابراهيم الدرعية فى ذي القعدة سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م [١] ، ويظهر أن السلطان محمود الثاني أراد حرب الدولة السعودية وذلك لأنه اعتبر قيام الدولة السعودية ، وانتشار الدعوة السلفية بمثابة تهديد خطير ليس لحدود أو نفوذ ، ولكنها الدعوة السلفية التي تدعو الى العودة الصحيحة لكتاب ا لله وسنة رسوله صلى ا لله عليه وسلم ،ونبذ البدع والخرافات التي كانت منتشرة في أنحاء العالم الاسلامي ، هذه الدعوة شكلت تهديدا خطيرا للدولة العثمانية حين ضمت الدولة السعودية الحجاز في سنة ١٢١٨هـ ، وخاصة عندما أخذت هذه الدعوة تنتشر في أجزاء أخرى من العالم الاسلامي .

وقد تأثر بالدعوة السلفية كثير من علماء الأقطار ،ونقلوها الى بلادهم ، مماهدد النظام العام للدولة كلها [٢] ، وكأن هذه الدعوة أيقظت العالم الاسلامي لاعادة النظر في أنظمة الدولة العثمانية ، فظن العثمانيون أن هذه الدعوة تطالب بالخلافة العربية .

اضافة الى ذلك فان هناك عامل سياسي مهم هو أن السلطان محمود الثاني كان يرى أن انتصار الدعوة السلفية بقيادة أئمة آل سعود خروج على طاعة

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، ص ١٤٩ .
، محمد عبدا لله آل عبدالقادر الاحسائي : تاريخ الاحساء، ص ١٤٤ .

(٢) خلف بن دبلان الوذيناني : الاحساء في القرن الثاني عشر ، ص ٣٨٠-٣٨١.

الخليفة ، وانفصال عن الدولة العثمانية ، في الوقت الذي كان يرى في محمد علي انفصاليا آخر ، لعله قد يضعف الدولة العثمانية حتى يستقل بمصر ، ثم يغزو الشام والعراق .فوجد السلطان نفسه أمام خصمين : السعوديين ومحمد علي ، فاستطاع السلطان أن يضرب بعضهما ببعض حتى يتخلص من أحدهما أو من كليهما، وكان يريد هزيمة محمد علي أكثر من هزيمة السعوديين ، لهذا اقتنع محمد على بالسير للقضاء على الدرعية [1] ، ولاننسى مطامع محمد علي وحلمه في بناء دولة مستقلة تشمل معظم البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية .

لذلك يجدر بنا أن نقول أن اليقظة الاسلامية دعوة التوحيد والاصلاح واجهت تحديين خطيرين :

التحدي الأول : العسكري الذي وجهته الدولة العثمانية اليها فقضى على نهضتها الأولى كما رأينا .

التحدي الثاني : الغزو الفكري والاستعمار عن طريق المستشرقين وأعوانهم المنصرين ، وكذلك عملاء الغرب من المسلمين الذين شوهوها فوصفوها بأنها حركة رجعية للعودة الى الحياة البدائية ، فقاموا بخلق حركة موازية لها هي حركة التجديد الغربي الذي أخذ رجاله يحملون لواء الخصومة الواضحة للفكر الاسلامي ومقوماته وأسسه . واثارة الشبهات للانتقاص من اللغة العربية والاسلام والتاريخ والتراث الاسلامي ، وكان هذا التحدي هو أخطر ماواجهته الدعوة نظرا لأن الاستعمار والمستشرقين أعطاهما امكانية الذيوع والانتشار بفضل وسائل اعلامهم لبذر الخلافات المذهبية والعرقية بين المسلمين لهدم الخلافة الاسلامية تمهيدا لاستعمارها [2] . وهذا ماكان يخطط له نابليون منذ احتلاله لمصر والشام .

---

(١) رئيس التحرير : الوثائق تتكلم (العدد الثاني ، السنة الأولى ، دارة الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٥هـ) ص ١٦٣-١٦٤ .

(٢) مصطفى محمد رمضان: العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ١٦٥-١٦٦.

٢- استمرارها في أدوار السعودية الثلاث :

ولئن كانت الدولة السعودية قد عرض لها ماعرض فقد بقيت الدعوة السلفية شعلة تضيء داخل شبه الجزيرة العربية على الرغم من اشتداد حلكة الظلمات ، بل تجاوزت اشعاع هذه الدعوة فانتشرت في خارج شبه الجزيرة العربية[١] . والتي مازالت ماثلة في أذهان الناس داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، وظل المجتمع يكن الولاء للأسرة السعودية [٢] .

فبعد أن قضى ابراهيم بن محمد علي على الدولة السعودية الأولى في سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م ، عاد الى مصر في سنة١٢٣٤هـ/١٨١٩م، وترك الحاميات من الجيش المصرى التركي في الرس وشقرا وبريدة وعنيزة تحت أمرة بعض قواده، وقد ساءت الأحوال في نجد وغيرها وعاد القتل والنهب فاضطرب الأمن وانتشرت الفوضى ذلك لأن القادة الأتراك لم يقوموا بتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية على الفسقة والجناة ، بل شجعوهم على الجريمة رغبة منهم في نشر الفوضى والدمار . فاستنجد أهل نجد بالامام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود الذي كان موجودا في جنوب نجد فاستجاب الامام تركي لرغبة سكان نجد ، وتقدم الى الرياض ، واستولى عليها ، واتخذها عاصمة للدولة السعودية ، وذلك لتهدم الدرعية وعدم صلاحيتها لأن تكون عاصمة للدولة السعودية ، ومنذ عام ١٢٤٠هـ عادت الدولة السعودية من جديد في دورها الثاني .

(١) عبدالله الحقيل : الدعوة الاصلاحية في مواجهة التحديات (مقال منشور في كتاب السنوي الثالث ، طبع مركز الوثائق التاريخية ، الحلقة السابعة ، المنامة ، ١٤٠٤هـ) ص ١٢٥ .

(٢) مديحة درويش : تاريخ السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين (الطبعة الثانية ، جدة ، دار الشروق ، ١٤٠٣هـ) ، ص ٥٧ .

وقد واصل ابنه الامام فيصل بن تركي السير على نهج والده في حكم الدولة السعودية خلالها لفترتين لم تخل كل فترة منهما من المناوشات والحروب مع أعداء الدولة أو الخارجين عن طاعتها [١] .

ولكن بعد وفاة الامام فيصل بن تركي دب الشقاق في البيت السعودي بين الاخوة والأعمام ، وتنازعوا على السلطة ، فثار سعود بن فيصل على أخيه عبدالله بن فيصل ، ودارت بينهما حرب طاحنة كانت سجالا بين الطرفين ، وانتهت تلك المعارك بخروج آل سعود من نجد الى الكويت واستيلاء محمد بن رشيد على السلطة في حائل ونجد .

وفي عام ١٣١٩هـ/١٩٠١ م استطاع الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود استرداد الرياض مبتدئا بذلك أول خطواته نحو حكم مملكته المترامية الأطراف [٢] ، واعادة بناء الدولة السعودية في دورها الثالث ، وقد خيل للناس قبل ذلك أن الدور السعودي في حمل رسالة الدعوة السلفية قد انتهى برحيل الامام عبدالرحمن الفيصل واحتلال ابن الرشيد للرياض ، ولكن التاريخ يعيد نفسه من جديد بأن آل سعود لايزالون يعون دورهم القيادي والريادي التاريخي المهم في احتضان الدعوة السلفية والعمل على نشرها .

وهذا بالفعل ماحدث عندما كرر الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن المحاولات لاسترداد الرياض حتى تمكن في سنة ١٣١٩هـ/١٩٠١ م من استردادها وانتزاعها

---

(١) محمد جلال كشك : السعوديون والحل الاسلامي (الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ) ، ص ٢١١.

(٢) محمد المانع : توحيد المملكة العربية السعودية ، ترجمة عبدالله الصالح العثيمين (الطبعة الأولى ، الدمام ، مطبعة شركة مطابع المطوع ، ١٤٠٢هـ) ص ٣١، ٣٥٤.

من يد آل الرشيد [١] ، ومن الرياض انطلق نحو بناء دولة موحدة واضعا أمامه تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية ومحاربة البدع والخرافات .

وقد استطاع الملك عبدالعزيز ضم القصيم والاحساء والقطيف الى امارته ، ثم تمكن من ضم حائل والمناطق الجنوبية والشمالية وقامت بينه وبين حكام الحجاز حروب طويلة استطاع ضم الحجاز ، وبهذاتمت خريطة المملكة على الصورة التي هي عليها اليوم ، وعرفت باسم المملكة العربية السعودية منذ أن أطلق عليها مؤسسها الملك عبدالعزيز هذا الاسم في عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م [٢] .

وهكذا فاننا نلمس صدق استمرار هذه الدعوة السلفية في أدوار الدولة السعودية الثلاث ، كما أننا رأينا خلال ذلك تصميم آل سعود على تطبيق الشريعة الاسلامية والتعمق في تأصيلها لتكون القاعدة التي تسير وتنطلق منها سياسة الدولة ونظمها ، كما لاحظنا حرص الملك عبدالعزيز على السير في الطريق الذي سار عليه أسلافه من آل سعود بانتصاره وتأييد للدعوة السلفية التي تنادي بالعودة الىالتوحيد والالتزام بالعقيدة الصافية وماكان عليه السلف الصالح من تحكيم لكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم [٣] .

---

(١) ابراهيم جمعه : الأطلس التاريخي للدولة السعودية ، (من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٢هـ) ، ص ١٢٢-١٢٨ .

(٢) أحمد القطان وآخرون : امام التوحيد محمد بن عبدالوهاب ، (الطبعة الأولى ، الكويت ، مكتبة السندس ، ١٤٠٧هـ) ص ٧٣ .

(٣) محمدا لمانع : توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ١١٠ .

٣- تقديم نموذج للدولة الاسلامية العصرية :

بدأ الملك عبدالعزيز منذ استرجاعه لمدينة الرياض يفكر في بناء دولة اسلامية عصرية ، خاصة وهو يعلم بتناحر القبائل وخلافاتها ومطامعها ، فكيف السبيل الى جمع هؤلاء وتضامنهم . لهذا قام الملك عبدالعزيز بغرس وتعميق الشريعة الاسلامية وتطبيقها وبتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحاربة البدع والخرافات وارشاد الناس الى العودة الىالدين الصحيح وأدرك أنه لن يساعده في تحقيق ذلك وهو قيام الدولة النموذجية الا تكوين مجتمع موحد يؤمن با لله رباً وبالاسلام دينا ، يسوده الأمن والعدل ، وان أهم مايجب عليه عمله هو أن يحول العربي البدوي الذي يهوى الترحال وعدم الاستقرار الى شخص مستقر داخل مستقرات أطلق عليهااسم الهجر ، وهي دليل هجرهؤلاء البادية حياة التنقل والاعتداء على الغير الىحياة الاستقرار مع تعميق الايمان الصحيح في نفوسهم[١] .

وطُلب منهم أن يتحولوا من رعاة الى مزارعين يقومون بزراعة مايمكن زراعته داخل تلك الهجر ويكون ذلك موردا ثابتا لرزقهم وأولادهم ،كما يعملوا على استصلاح الأرض الى جانب المحافظة على مواشيهم ،والاعتماد في كسب رزقهم على أنفسهم ، مع العمل على تأصيل العقيدة الصحيحة في نفوسهم .

وقد أدرك الملك أن تلك الهجر حينمايتم تأسيسهابصورة جيدة فانها ستوجد لدى سكانها كل الأسباب التي تجعلهم يؤيدون حكومة قوية ثابتة ، وبهذه الطريقة يمكن للحكومة القضاء على الفوضى التي كانت سائدة في تلك الحقبة ، وكان الملك عبدالعزيز يأمل أن يغرس الدعوة السلفية دعوة التوحيد والاصلاح في تلك الهجر حتى يرتبط سكانها برباط العقيدة الاسلامية الصحيحة .

---

(١) محمد المانع ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ١١٠-١١١.

وكانت لكل قبيلة موارد مياه تعتبرها ملكا خاصا بها . وقد شجع الامام زعماء هذه القبائل بالهبات والمنح ليبنوا بيوتا سكنية حول تلك الموارد،مماجعل رجال القبائل يقبلون ببناء تلك الهجر .

وكانت هجرة الأرطاوية أول تلك الهجر والتي تأسست في عام ١٣٣٠هـ/١٩١٢م وبعدها انتشرت الهجر في وسط شبه الجزيرة العربية وخاصة في نجدوتسمى من سكن هذه الهجر باسم الاخوان [١] . وكان الهدف من هذه الحركة هو توحيد القبائل وجعلهم في خدمة الدولة ونشر الدعوة السلفية بينهم .

وهكذا وجه الملك الطاقات القتالية عند القبائل العربية في دولته الى خدمة الاسلام والدعوة السلفية ثم خدمة الملك والدولة الاسلامية ومنعوا من اثارة أعمال النهب والسلب ، واتجهوا الى تنفيذ تعاليم الاسلام متحابين في ا لله . فكانت هذه القبائل العون للملك عبدالعزيز في حروبه [٢] في الاحساء والحجاز وعسير والقصيم وحائل .

ولكن هؤلاء الاخوان بعد أن دانت للملك عبدالعزيز نجد والحجاز اعترضوا على استخدام بعض الوسائل المدنية التي أدخلهاالملك عبدالعزيز الى حكومته ، فاضطر الملك عبدالعزيزالى عقد المؤتمر العام بالرياض لتوضيح هذه الأمور التي كانوا يظنون أنها حرام وبدعة ، ونجح الملك عبدالعزيز في شرح مالبس عليهم وتوضيحه لهم ، لأن الأغلبية الساحقة من الاخوان كانوا يؤمنون بصدق ايمان الملك عبدالعزيز . وهم يعلمون أنه لايأمر بمعصية كمايعرفون اقتداره واخلاصه للعقيدة الاسلامية [٣] .

---

(١) محمد ا لمانع :توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ١١٠-١١١.

(٢) محمد جلال كشك : السعوديون والحل الاسلامي ، ص ٥٥٩-٥٦٠.

(٣) عبدا لله الحقيل : الدعوة الاصلاحية في مواجهة التحديات (مقال منشور في الكتاب الثالث بمركز الوثائق التاريخية ، بدولة البحرين ، ١٤٠٤هـ) ، ص ١٢٧-١٢٨ .

وهكذا نرى المنهج السلفي يقيم الدولة العصرية ، وقد خطب الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة عند ضمها الى مملكته خطبة بين فيها ماهو مقبول من مدنية العصر وماهومرفوض ، نقتطف منها مايلي :

(ان التمدين الذي فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا " مرحبا به وأهلا " وأما التمدين الذي يؤذينا في أدياننا وأعراضنا وشرفنا فوا لله لن نذعن له ، ولن نعمل به ولو قطعت منا الرقاب) .

وفي غرة ذي الحجة سنة ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٢٩/٥/١١م خطب الحجيج بمكة ليعلن التزامه بالمنهج السلفي ويحدد ابعاده فقال : (يسموننا بالوهابيين ويسمون مذهبنا الوهابي باعتبار أنه مذهب خاص .. نحن لسنا اصحاب مذهب جديد او عقيدة جديدة ، ولم يأت محمد بن عبدالوهاب بالجديد فعقيدتنا هي " عقيدة السلف ا لصالح " التي جاءت في كتاب ا لله وسنة رسوله صلى ا لله عليه وسلم .ونحن نحترم الأئمة الأربعة ، ولافرق عندنا بين مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة ، كلهم محترمون في نظرنا ، اننا لانبغي التجديد الذي يفقدنا ديننا وعقيدتنا..) .

ومن خطبه أيضا تلك التي ألقاها في حجيج سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م أي بعد توحيد المملكة بسنة تقريبا قوله :

(وقد جعلنا ا لله مبشرين بالكتاب والسنة وماكان عليه السلف الصالح ، لانتقيد بمذهب دون آخر ، ومتى وجدنا الدليل القوي في أي مذهب من المذاهب الأربعة رجعنا اليه وتمسكنا به ، أما اذا لم نجددليلا قويا فنأخذ بقول الإمام أحمد).

وكما صنع هذا الملك العظيم بالعقيدة السلفية – صنع بالمسلك السلفي الذي يهب للمسلم كل القوة ، اذ يدرك معنى الشهادة ومنطق العبادة ان ا لله

اكبر. وان من كان ا لله معه فهو منصور [1] .

وهكذا أقام الملك عبدالعزيز وخلفاؤه بالمنهج السلفي الدولة العصرية على أسس الشريعة الاسلاية ، مع الأخذ بوسائل المدنية التي لاتتنافى ولاتتعارض مع الدين الاسلامي القويم كما قالها بنفسه .

لذلك رأى العالم المسلم منهم وغير المسلم كيف قامت دولة عصرية حديثة يتوفر فيها كل وسائل الرخاء والأمن وكل متطلبات الحياة الحديثة دون أن ينسى الناس ولو لحظة واحدة انتماءهم للشريعة الاسلامية التي تحرص فيها الدولة قبل الفرد على تنفيذ أوامر ا لله واجتناب نواهيه في كل أمور الدين والدنيا .

ولاغرو في أن الدعوة السلفية التي تدعو الى الرجوع الى ا لله والتي دعا بهاالشيخ محمد بن عبدالوهاب ، قد نجحت بحمد ا لله في تأسيس دولة سلفية منذ اتفاق الدرعية سنة ١١٥٧هـ بين الامام محمد بن سعود الذي ناصرها بالمال والرجال والنفس والنفيس والشيخ محمد بن عبدالوهاب حتى يومنا الحاضر [2] .

---

(١) عبدالحليم الجندي : الامام محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٨٣ .

(٢) عبدا لله الخيل : الدعوة الاصلاحية في مواجهة التحديات (مقال منشور في الكتاب الثالث بمركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، ١٤٠٤هـ) ص ١٢٧-١٢٨ .

٤ - صد التدهور عن شبه الجزيرة العربية :

كان تاريخ ارساليات التبشير في شبه جزيرة العرب ،بوجه خاص هو تاريخ ارسالية التبشير العربية التي هي الابنة الممتازة لكنيسة الاصلاح الامريكية ولها فروع اربعة اقدمها عهدا " جمعية تبشير الكنيسة " التي تفرع عنها فرع آخر في فارس في سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢ م ، وقد استقلت هذه الجمعية بأعمالها باسم "جمعية التبشير العربية العثمانية " ولها في بغداد اربع ارساليات وفي الموصل واحدة.

وفي سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م ذهب الى عدن " ايون كيث فالكونز " فأسس هناك ارسالية تبشير اسكوتلندية وهي مؤلفة من طبيبين منصرين ، وتبعتها " ارسالية التنصير العربية " التي أسست في سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م وهي تابعة لكنيسة الاصلاح الأمريكية ، فانتشرت في البصرة والبحرين ولها في البحرين خمسة منصرين اثنان منهم طبيبان واثنتان امرأتان ، ولها في البصرة أربعة مبشرين أحدهم طبيب . فكان المرضى يشدون الرحال من أصقاع بعيدة الى مستشفيات المنصرين في الموصل ، وبغداد والبصرة والبحرين وعدن . فعندما يرحل المنصرون الأطباء يجوبون البلاد كانوا يغرسون في النفوس بذورا استطاع المنصرون بعد ذلك جني ثمرها سياسيا وتنمية غرسها ثقافيا ، فعني المنصرون بالتعليم المدرسي والتربية اللذين أسفرا عن نتائج مستهجنة وأثمرا ثمرات ضارة في الأطفال والمراهقين على السواء ، فكانت المحاضرات التي يلقيها المنصرون حول ارتقاء الممالك النصرانية وانحطاط ممالك الاسلام ، فكان من نتائج ذلك أن اقتطفوا ثمرات أعمالهم في كل منطقة من مناطق التنصير باظهار التسامح والاهتمام الحقيقي بالتعاليم النصرانية(١).

الا أن دعوة التوحيد والاصلاح قد لعبت دوراً مهماً في تجنيب الدولة

(١) ل . شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

السعودية الآثار المدمرة للغزو الفكري ، والتي اتضحت آثاره في محاولات التنصير للتخوم المجاورة للدولة في الشام ومسقط والبحرين وبغداد والموصل وفارس وعدن عن طريق التعليم والعلاج الطبي لتخفيف الآلام البشرية ، وخاصة عندما ضمت الدولة الاحساء وأصبحت نجد دولة خليجية وقاعدة سعودية برية وبحرية تنطلق منها جيوش الدعوة السلفية الى داخل بلدان الخليج لنشرها هناك .

ازدادت أهمية صد التدهور عندما ضم الامام سعود بن عبدالعزيز مكة المكرمة في سنة ١٣١٨هـ حين انتشرت هذه الدعوة الى الدول المجاورة خارج نجد، لذا هزت هذه الدعوة الركود الذي أصاب العالم الاسلامي ومهدت لظهور الدعوات الاصلاحية في البلدان المختلفة والمجاورة كما سيأتي .

مما تقدم يتضح لنا أن الدولة السعودية قد قامت على أسس اسلامية سليمة، وعملت كل مافي وسعها من أجل رفعة هذا الدين وخدمته دون أن يمنعها ذلك من اللحاق بركب الحضارة في العصر الحديث .

اذا فقيام هذه الدولة الاسلامية على أسس سليمة مكنها من أن تصد التدهور الذي عم أرجاء الدولة العثمانية ، وتمنع أي تسرب للغزو الفكري عن شبه الجزيرة العربية وخارجها لدورها الفعال في نشر النهج الاسلامي السليم في الأقطار المجاورة لشبه الجزيرة العربية ، وبث الصحوة الاسلامية بين ربوعها لتقف سدا منيعا للأفكار الهدامة التي خيمت على بلدان وأقطار اسلامية عديدة تتاخم الدولة ودعوة أهلها الى الرجوع الى الله ونبذ كل بدعة وقول لاينفع والتمسك بتطبيق أحكام كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فهذه المبادئ الاسلامية لاتحل في مكان وتنتشر فيه الا ويكون من آثارها أن تشعر شعوبها بالأمن والاستقرار والعدل ، فلقد ظهرت الدعوة السلفية في شبه جزيرة العرب بكاملها ، ثم انطلقت الى شمالها وجنوبها الى السودان والهند وسومطرة ، وشمال أفريقيا ، ولقد تصدت هذه الدعوة لدفع التدهور عن أحوال

العالم الاسلامي التي كانت تتشابه في كل هذه الأقطار وقت ظهور الدعوة السلفية في قلب نجد الى حد بعيد من حيث اعتناق أهلها للخرافات والبدع وانصرافهم عن تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية وتحديد موارد الدولة على أسس اسلامية .

وعلى كل حال فقد وجدت هذه الدعوة السلفية ميدانا للعمل واستطاع الدعاة المصلحون في كل تلك الأقطار أن يشعروا سكانها بحاجة الاصلاح الديني ، وبضرورة اتباع مبادئ الدعوة السلفية للنهوض ببلدانهم ضد الغزو الفكري ، والتيارات الاستعمارية المعادية للاسلام والمسلمين التي تريد غزو الاسلام في عقر داره لانحصار حدوده بعد أن كانت ممتدة في العمق الأوربي .

وبفضل من الله استطاعت هذه الدعوة ايقاظ العلماء فوقفوا أمام الهجوم الشرس الذي جاء به الغزو الفكري للعالم الاسلامي.

• • •

ج - تأثر حركات الاصلاح في العالم الاسلامي بها :

لم يقتصر أثر الحركة السلفية القائمة على دعوة التوحيد والاصلاح على شبه الجزيرةالعربية بل امتد هذاالأثر الى خارج حدودها وذلك عن طريق الحجاج الذين كانوا يفدون الى بيت ا لله الحرام لأداء فريضة الحج ، وكان الحجاج القادمون من الخليج والعراق يمرون في طريقهم على الدرعية عاصمة الدعوة السلفية حيث يلقون الضيافة والاكرام من حكام الدرعية وتلقى عليهم أيضا دروس في أصول الدعوة وأسسها لمدة ثلاثة أيام [١] .

وكان موسم الحج ميدانا صالحا، وفرصة سانحة لعرض الدعوة على كبار حجاج بيت ا لله الحرام، واستمالتهم لقبول مبادئها التي تدعو الى الرجوع الى الكتاب والسنة ، فاذا عادواالى بلادهم دعوا اليها[٢] . وخاصة بعد أن ضم السعوديون الحجاز ودخلوا مكة المكرمة سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م فأعطى الفرصة لسائر الحجاج من مختلف البلاد الاسلامية للتعرف على أصول الدعوة السلفية فالتقوا بالعلماء وناقشوهم فيما يدعون اليه [٣] ، ويستمعون الى خطبهم ومواعظهم وارشاداتهم القيمة وتوجيهاتهم السديدة [٤] .

وبهذا الانطباع انتشرت الدعوة السلفية خارج نجد الى الدول الاسلامية[٥]، وتأثر بها بعض الحجاج لما رأوا في هذه الدعوة التي دعا اليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب أنها ليست دعوة جديدة كماأعلنها خصوم الدعوة ، فهي

---

(١) أحمد القطان وآخرون : امام التوحيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٣.

(٢) أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصرالحديث (بيروت ، الناشر دار الكتاب العربي) ص ٢١.

(٣) محمد عبدا لله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٦٢-٦٣.

(٤) عبدا لله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٧٦.
، محمد عبدا لله ماضي : المرجع السابق ، ص ٦٣.

(٥) عبدا لله بن سعد الرويشد : المرجع السابق ، ص ١٧٦.

تعتمد على أسس ثلاثة : الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، تحارب البدع والخرافات والخزعبلات الشائعة بين الناس من تبريك وتقديس الأحجار والأشجار والقبور والبناء عليها ،وبدعاء العلماء والأولياء والصالحين ،فأخذ كل منهم ينشر في بلاده التوحيد ويحارب هذه الخرافات الموجودة في بلاده [١] .

ومع مرور الزمان انتقلت أصول هذه الدعوة الاصلاحية الى كل من القواسم ، الذين جاهدوا في سبيل هذه الدعوة الانجليز في الخليج العربي ودانوا للدولة السعودية الأولى ، كماانتقلت الى السودان وسومطرة والهند والعراق والشام ومصر والجزائر وجاوه وعمان .

وكان هدف دعاتها في كل مكان حلوا به هو محاربة البدع والفسادوالقضاء عليها ، وتصحيح العقيدة بما علق فيها من أدران الشرك للرجوع الى ماكان عليه السلف الصالح في القرن الأول للهجرة [٢] .

لذلك قامت هذه الحركات الاصلاحية ، ودعاة الاصلاح ضد الأوضاع السائدة في البلاد [٣] .

ففي اليمن ظهرت مجموعة من العلماء تأثروا بالدعوة السلفية ، ودعواالناس الى مبادئها ، وكان على رأسهم العالم الجليل محمد الشوكاني ، وصار لهم أتباع ووقعت بينهم وبين خصومهم من العلماء الآخرين مناقشات ومنازعات ولكن ذلك لم يتعد الحرب الكلامية [٤] .

---

(١) أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٣ .

(٢) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٧٦.
. أحمد بن حجر آل بوطامي : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٣) أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ص ٢١-٢٢ .
. محمد عبدالله السلمان : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٨٣ .

(٤) عبدالله بن سعد الرويشد : المرجع السابق ، ص ١٧٧.

أما في ا لسودان ، فقد قامت هذه الدعوة على يد الداعيـة الشيخ عثمـان ابن فودي ، أحد أفراد قبيلة الفولا ، فانـه بعـد التقائـه بعلمـاء الدعـوة السـلفية في موسم الحج ، اقتنع وأيد الدعوة السلفية التي دعـا اليهـا الشيـخ محمـد عـن طريـق العلماء في مكة المكرمة ، فعاد عثمان الى بلاده وأخـذ يحـارب البـدع الشـائعة بـين قومه وعشيرته ، ويعمل على القضاء علىبقايا الوثنية وعبادة الأموات الـتي كـانت لاتزال سائدة ويؤمن بها بعض أهل تلك الديار ، فاستطاع بهـذه الدعـوة أن يجمـع حوله قبيلته في وحدة متماسكة مرتبطة برباط الديـن ، بعـد أن كـانت منقسـمة الى عدة فرق وشيع ضعيفة متخاذلة [١] .

لذلك بدأت حروب سنة ١٣١٨هـ/١٨٠٢م ضـد قبـائل الهوسـا الوثنيـة وقضىعلى مملكة جبير ، التي كانت تقع على نهر مجرى النيجر .

ولم تمـض الا سـنتان حتـى أقـام عثمـان بـن فـودى مملكـة (سـوكوتو) في السودان على أنقاض مملكة جبير ، على أساس دعوة التوحيـد والاصـلاح ، دعـوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي امتدت الى جميع الأقطار الواقعة بين تمبكتو وبحـيرة تشاد ، وبقيت هذه المملكة محافظة علىاستقلالها ووحدتها في تلك الفترة [٢] .

وكما غزت الدعوة السلفية منطقة السودان فقد نشطت في القرن الثـالث عشرالهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي حركة الدعوة للاسلام في البنغال

---

(١) محمد كمال جمعه : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٥ .
، محمد عدا لله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٦٥-٦٦.
،لوثورب ستورارد: حاضر العالم الاسلامي ، ج ٣ ن ص ٢٣.

(٢) محمد عبدا لله ماضي : المرجع السابق ، ص ٦٦ .
، أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٣-١٠٤.
،عبدا لله سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٧٧.
، لوثورب ستورارد : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

بنشاط ملحوظ . حيث قام دعاة هذه المقاطعة من البنغال ينتقلون في البلدان المجاورة لتطهير البلاد من بقايا العقائد الهندوكية القديمة عن طريق الوعظ ليوقظوا الحماس الديني وينشروا العقيدة الاسلامية بين الناس هناك [1] ، كان ذلك بواسطة أحد الحجاج الهنود السيد أحمد ، وكان هذا الرجل من أمراء الهند ذهب الى الحجازلأداء فريضة الحج بعد أن اعتنق الاسلام في سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م . وحين وفد الى مكة المكرمة التقى بدعاة الدعوة السلفية في مكة المكرمة واقتنع بصحة أصول الدعوة السلفية فأصبح من دعاة التوحيد . ولما عاد الى وطنه في سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠ م في الهند باقليم البنغال وجد صعيدا صالحا للدعوة بين سكان تلك المنطقة من الهنود المسلمين الذين اختلطت عقيدتهم الدينية بالكثير من عقائد الهندوس هناك . فبدأ بدعوته في مدينة (بتين) . ودعا أولا اخوانه المسلمين بترك البدع والعقائد الهندوسية التي كانت شائعة بين الناس ، واتباع مبادئ الاسلام الصحيحة ، وبعد مرحلة من الجهاد استطاع هؤلاء المسلمون أن يقيموا الدولة الاسلامية على أساس دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في البنجاب وما حولها تحت حكم الداعية السيد أحمد [2] ، فاتسعت هذه الدولة في نفوذها حتى شملت منطقتي السند وبولخستان وجزءا من أفغانستان ، ثم أعلن الشيخ السيد أحمد الجهاد الاسلامي على كل من خالف مذهبه السلفي ، لكنه هزم قرب مدينة بشاور ، اذ تعرض لمقاومة عنيفة من الانجليز والمتعاونين معهم في محاولة

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام . ص ٣١٥ .

(٢) عبدا لله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٧٦-١٧٨.
، أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٤-١٠٥.
، أحمد بن عبدالغفور العطار : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٢٠٨ .
، أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ص ٢١.

للقضاء على الاسلام ،حتى استشهد في عام ١٢٤٦هـ/١٨٣١م [١] .

هذه الدعوة التي قامت على الأصول السلفية ، لازالت قائمة هناك على يد خلفاء السيد أحمد من بعده،ولم يستطع المستعمرون أن ينالوا منها شيئا ، ولايزال هناك الكثيرون من سكان هذه المناطق يدينون بالاسلام على المذهب السلفي متبعين في ذلك أصول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

وفي سومطرة ابتدأت الدعوة السلفية في سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م على يد أحد الحجاج من أجل اسعاد أهل الجزيرة، والذي عاد من الحج في السنة نفسها بعد أن التقى بالدعاة السلفيين ، واطلع على ماكانوا يدعون اليه ، حيث اقتنع بصحته ، ولما عاد الى وطنه ابتدأ بالدعوة ثم تطورت هذه الحركة في بلاده حتى أدت الى حروب طاحنة بين المسلمين السلفيين في سومطرة وبين غير المسلمين من سكانها ، حتى رأت حكومة الاستعمار الهولندية سنة ١٢٤٧هـ/١٨٢١م أن تناهض هذه الحركة القوية محافظة على كيانها ونفوذها هناك ، واستمرت المناوشات والحروب بين المستعمرين الهولنديين وبين المسلمين السلفيين في سومطرة حوالي ست عشرة سنة انتهت بتغلب قوى الاستعمار علىالقائمين بالدعوة والحركة السلفية [٢] .

أما الحركة السنوسية فقد بدأت في الجزائر في أواسط القرن الثالث عشر الهجري الموافق لأواسط القرن التاسع عشر الميلادي ، ثم غزت طرابلس ،بعد ذلك انتشرت في شمال أفريقيا ، ثم مدت رواقها نحو الجنوب حيث تمكنت في السودان،

---

(١) محمد عبدالله السلمان : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٨٥-١٨٦.

(٢) محمد عبدالله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٦٨ .
، أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٦ .
، عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٧٨-١٧٩.
، أحمد عبدالغفور عطار : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٢٠٩-٢١٠.

فالحركة السنوسية قاومت وناهضت الاستعمار في كل مكان حلت به، والتي كانت ولازالت مدرسة تربية وتهذيب للشعب السنوسي آنذاك ، هذه الدعوة تأثرت بالدعوة السلفية ، فالسيد محمد على السنوسي مؤسس الحركة السنوسية كان في مكة يطلب العلم وقت ضم السعوديين لها ، فتتلمذ على علماء الدعوة السلفية الذين قدموا الى مكة المكرمة ،وتأثر بمذهبهم، ثم عاد الى الجزائر . ونادى بحركته الاصلاحية على ضوء تعاليم الدعوة الاصلاحية الاسلامية السلفية التي أشعل نارها في شبه الجزيرة العربية الشيخ محمد بن عبدالوهاب [(١)] .

وكما انتشرت هذه الدعوة بواسطة الدعاة السلفيين ، فقد انتشرت هذه الدعوة المباركة في حضرموت ، وجاوة بواسطة السيد رشيد رضا الذي قام بتأليف جمعية الارشاد في تلك البلاد لتطبيق مبادئ الدعوة السلفية دعوة التوحيد والاصلاح التي نادى بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

وللحقيقة فقد تأثر بهذه الدعوة كثيرون من أهل حضرموت ، وعدن ، وجاوة وبالجملة لقد كان لهذه الدعوة الأثر العظيم في العالم الاسلامي من نواحي مختلفة ، وقد كانت هي الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الاسلامي كله ، حيث تأثر بها زعماء الإصلاح في سائر الأقطار الاسلامية .

لهذا تأثرت كل الحركات الاصلاحية بالدعوة السلفية . ويمكن تحديد الصلة بينها وبين كل هذه الحركات ، اما عن طريق الاقتباس او المحاكاة أو مجرد التأثير[(٢)].

---

(١) محمد عبدالله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٦٨ .
، عبدالله سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٧٩.
، أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٦ .

(٢) أحمد بن حجر آل بوطامي : المرجع السابق / ص ١٠٧-١٠٨.
، عبدالله سعد الرويشد : المرجع السابق ، ص ١٧٩-١٨٠.

كما أن تأثير أي دعوة بالأخرى ، لايعني الاتفاق في جميع مبادئها الأساسية والفرعية . الا أن هذه الحركات الاصلاحية تأثرت بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الدعوة السلفية ، واتفقت معها في أهم المبادئ التي تدعو الى اخلاص التوحيد لله ، والدعوة الى الاجتهاد ، أما المسائل الفرعية فقد كان هناك خلاف معها [1] .

ولكن هدف هذه الدعوات من الاصلاح هو العمل لسيادة مبادئ الاسلام الصحيحة ، ثم بعد ذلك القضاء على البدع والخرافات ومحاولة بناء دولة اسلامية تحكم بتعاليم الاسلام وتطبق أحكامه في المعاملات والعبادات واقامة الحدود الشرعية ، وهذا ماكانت تهدف اليه الدعوة السلفية في الدولة السعودية في مراحلها الثلاث باستمرار ، وتحرص على ذلك وتؤكد عليه في كل مناسبة ومحفل ، بالحث على التمسك بالعقيدة السمحاء والعمل بها والحفاظ عليها .

لذلك يتضح لنا الدور المهم الذي حققته دعوةالتوحيد والاصلاح والدولة السعودية في صد خطر الغزو الأوربي عن شبه الجزيرة العربية ،وما أعقب ذلك من تأثر حركات الاصلاح في العالم الاسلامي بها ، وهذا يعني امتداد صد خطر الغزو الفكري عن أقطار عديدة من العالم الاسلامي التابع للدولة العثمانية وغيرها من الدول الاسلامية.

فانتقال تأثير دعوة التوحيد والاصلاح في بعض أقطار العالم الاسلامي هي احدى الركائز التي واجهت وصدت الغزو الفكري الأوربي في معظم أقطار الدولة العثمانية والممالك الاسلامية الأخرى ، حيث حارب علماء الاصلاح في تلك المناطق الاستعمار الذي أخذ ينفث سمومه في الأراضي الاسلامية ، في كل ميدان حلت به هذه الدعوة ، ويفرض نظمه الأوربية ، ويشجع حركة التنصير في البلاد

(١) محمد عبدالله السلمان : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٨١.

الاسلامية عن طريق نشر المبادئ والأفكار الهدامة والتي تعتبر من مقـــومات حركة الغزو الفكري في العصر الحديث .

وهذا العمـل كفيـل بصـد الغـزو الفكـري بمختلـف ألوانـه وتياراتـه لتبقـى العقيدة سليمة وصافية من كل الشـوائب والمعتقـدات الفاسـدة الأخـرى في مقـابل نشر العقيدة الاسلامية في أنحاء الدول الأخرى تطبيقا عمليـا في الأحكـام والحـدود والمعاملات كما كانت تطبق في عهد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم والتابعين.

الخاتمة والنتائج

الدولة العثمانية والغزو الفكري من الموضوعات الكبيرة والهامة التي كان لهاتأثيرها السياسي والحضاري على الأمة الاسلامية في العصور الحديثة ، ذلك لأن الحكم العثماني استمر فترة طويلة وشمل حكمه معظم البلاد الاسلامية في ثلاث قارات هي أوربا وآسيا وشمال أفريقيا وبذلك تأثرت الأمة الاسلامية بالتغيرات السياسية والحضارية التي عاصرت الدولة العثمانية .

ومما يلاحظ على تلك التغيرات السياسية والحضارية أن الدولة العثمانية كانت غازية فكريا وسياسيا في عصرها الأول ، عندما طبقت النظم الاسلامية تطبيقا شاملا ، وهذا ماتعرضنا له في الفصل الأول . فتقدمت في فتوحاتها وأجبرت أعداءها على احترامها في عصر استقرار نظامها الذي ترتب على صلاح عناصرها القيادية التي ارتكزت عليها الدولة في عصرها الأول وهي : السلطان والشيخ والجندي ، وقد وصلت الدولة بهذه العناصر الى قوة ضاربة أرهبت بها أوربا، وشقت طريقها داخل أوربا لنشر الاسلام والحضارة الاسلامية في ربوعها ، فلقد نشأت الدولة العثمانية من امارة صغيرة على أنقاض دولة السلاجقة الروم بعد وفاة آخر ملوكهم السلطان علاء الدين في عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م والذي هزم على يد المغول .

ولاحظنا ماصاحب نشأة هذه الامارة وجهادها ضد البيزنطيين لايقاف الحركات الصليبية ضد البلاد والأمة الاسلامية وكانت قوتها التي تحركها هي روح الجهاد الاسلامي في الأجزاء الغربية من بيزنطة ، كما كان جند الدولة يسحقون الأحلاف التي تقف ضدهم من النصارى ، حتى تم هم فتح أهم المدن البيزنطية النصرانية في آسيا الصغرى وشرق وجنوب أوربا ، وقد اتصف آل عثمان بالتسامح ، فعندما أراد عثمان بن أرطغرل نشر الاسلام بين المسيحيين البيزنطيين في آسيا كان يخيرهم بين الاسلام أو الجزية أو الحرب . وذلك قبل حربه معهم كما كان يفعل الرعيل الأول في الاسلام .

فكان بعضهم يختار الاسلام طوعا ، أما الفئة الثانية فقد اختارت دفع الجزية ، الا أن القسم الآخر قد امتنع ورفع راية العصيان رغبة في القتال ، مما دفع العثمانيين الى خوض هذه الحرب المقدسة واعتبار ذلك العمل كجزء من واجبهم الاسلامي نحو الجهاد في سبيل ا لله ، لاحبا في القتال ولكن لنشرالدين واعلاء كلمة الحق .

وهكذا تدرجت هذه الامارة في النمو والاتساع ، وبفتح بروسة أصبحت دولة وزاد تعمقها في أوربا حين فتح السلطان مراد الأول أدرنة ، فأصبحت الدولة بعد ذلك آسيوية أوربية .

وفي مقابل ذلك كانت أوربا تتكتل في شكل أحلاف صليبية ضد الدولة العثمانية في مراحلهاالأولى لضربهاوسحقها قبل استفحالها ، ولا ستخلاص الأراضي التي فتحتها الدولة العثمانية في أوربا ، وقد حاولواخلال أربع حملات حربية والخامسة كانت في عهد مراد الثاني ، الا أن محاولاتهم باءت جميعا بالفشل لقوة وصلابة ووحدة الدولة العثمانية وتسلح رجالها بالايمان واستبسالهم في طلب الشهادة والجهاد في سبيل ا لله واخلاصهم في الدفاع عن راية الاسلام ، لأنهم يعلمون أن هذه التجمعات والتكتلات يدفعها الحقد الصليبي الدفين منذ أن استرد صلاح الدين منهم بيت المقدس . فكانت هذه الأحلاف والتجمعات ، أو الغزو الصليبي للدولة العثمانية انما هو امتداد للحملات الصليبية السابقة في العصور الوسطى .

ولذلك كان الهدف من وراء هذه الحملات هو اخراج العثمانيين من أوربا كلها . ثم من آسيا ليستمروا في الزحف حتى يصلوا الى بيت المقدس الشريف ، وهو الهدف الذي رسمت من أجله هذه الحملات ، بل انه أهم أهدافها ، يضاف اليه العامل الاقتصادي الذي لايقل أهمية عن الهدف الأول .

ويظهر لنا من هذه الدراسة حماس الدولة العثمانية في الجهاد ونشر الدعوة الى الله نحو الغرب دار الحرب . وهو العامل الأساسي الذي كان يدفع الدولة منذ بدايتها .

وقد أكدت الدراسات أن العثمانيين أمة حرب وقتال من أجل خدمة الاسلام ونشره ، وقد اعترف ببسالتهم الهجومية والدفاعية الأعداء قبل الأصدقاء. لذلك انطلقت الدولة في جميع حروبها مع أوربا من منطلق اسلامي بحت ، وتحت راية الجهاد الاسلامي ، ومما يدل على ذلك المنطلق وصايا عثمان لابنه أورخان ،وهو على فراش الموت ، حيث أوصاه بنشر الاسلام ، وهداية الناس لهذا الدين مع الالتزام بحماية أعراض المسلمين وأموالهم ، وقد حثه على الجهاد لنشر الاسلام وعدم تركه وتحكيم شريعة الله ،والتقرب من العلماء وتقريبهم واستشارتهم في الأفعال والأعمال التي يقومون بها .

لذلك اعتبر العثمانيون أن نشر الاسلام في الأرض وهداية الناس به هو من أهم أعمالهم وأزكاها عند الله . ومن واجباتهم الأساسية التي نشأت الدولة العثمانية من أجلها ، وبالاضافة الى تلك العوامل والمقومات نرى العثمانيين يفتحون قلوبهم لمن اعتنق الاسلام في أوربا ، ومن أشهرهم الأمير خوسيه ميخائيل الذي أسلم في زمن عثمان بن أرطغرل ، فأصبح هذا المسلم من خيرة المسلمين وارتقى بهذا الاسلام حتى كان من قادة المسلمين المرموقين في الدولة العثمانية ، ثم القائد افرينوس حاكم بروسه ، وغيرهم من الشخصيات الأوربية الذين أسلموا وحسن اسلامهم ، فأخلصوا والتزموا في اسلامهم ، فخدموا الاسلام والمسلمين ضد أوربا النصرانية .

فاتضح لنا أمانة التزام السلاطين أنفسهم بهذه النظم الاسلامية التي كانوا يطبقونها في عصر الدولة الأول على أهل الذمة، كما كانت تطبق في عهد الخلافة الراشدة من حسن معاملة صادقة ، وهذا مما أدى الى انتشار الاسلام بين الدول

الأوربية ، اذ أسلم بعضهم ، ودفع بعضهم الجزية مقابل حمايتهم ، وبعض المسيحيين أسلموا نتيجة لتسامح المسلمين ، وباسلامهم سقطت عنهم الجزية .

الا أننا يجب أن لا ننسى دور الانكشارية في بناء هذه الدولة ،وقد كان للحصانة الفكرية التي تربوا عليها الدور الواضح في حروبهم تحت قيادة السلاطين،وخاصة في عصر الدولة الأول لتشبع الجندي الانكشاري بالروح الجهادية واخلاصه لعقيدته أولا ثم لوطنه ثانيا ، فكانوا يؤمنون بالاسلام عقيدة ومنهجا.

لذلك كان الانكشاريون كتلة واحدة تشعر بواجبها الاسلامي العظيم وبالمهمة التي أعدوا من أجلها ، وهي أن السيف سلاحهم في سبيل الحق ونشر الاسلام، ودعوة الحق شعارهم ، والرحمة والشفقة تملأ قلوبهم ، ذلك لأن الإسلام دينهم والسلطان ولي أمرهم ، قد أصبحت هذه الفئة عونا للدولة علىأعدائها ، حتى صار السلطان لايعول إلا عليها ،ولذا كانت الانكشارية من أهم عوامل بناء الدولة وامتدادها حيث رافق هذا الجيش تكوين الدولة وكان سببا وعونا في انتشار الاسلام وتقدمه في أورباخلال عصر عظمة الدولة .

ومنذ أن فتحت القوات العثمانية القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ، أصبح اسمها اسطنبول كماأصبحت عاصمة الدولة العثمانية ، وبسقوطها قضى محمد الفاتح على آمال ومستقبل أوربا التي كانت تهدد العالم الاسلامي ، ومن هذه المدينة انطلق فاتحها لمواصلة الجهاد لنشر الاسلام في الدول الأوربية .

أما موقف أوربا ، فقد انتابهاالخوف والقلق حيث تجسم أمامها خطر الإسلام ،وماكانت البابوية لتهدأ أو يخلو لها بال بالرغم من كراهيتها وخلافها المذهبي للأرثوذكس في القسطنطينية . فهي لاتسمح بقضاء المسلمين على الامبراطورية البيزنطية . ولكن قوة المسلمين في ذلك الوقت أوقفت أوربا عاجزة لاتستطيع أن تقدم يد العون الى القسطنطينية لخوفهم الشديد من العثمانيين لأنهم

لازالوا يتذكرون معركة نيكوبلي (نيكوبوليس) الشهيرة التي أذهلت ملوك أوربا وشعوبها نتيجة للفشل الذريع الذي حل بالجيش المسيحي الأوربي ، فلم يعد من السهل استثارة الأوربيين للدولة العثمانية ، وقد أنهت هذه المعركة الحملات الصليبية كحركات صليبية منظمة ضد الاسلام كمامر بنا في الفصول السابقة .

ومن ذلك الوقت سجلت أوربا تراجعا عكسيا ، خصوصا عقب سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين ، فتوقف نهائيا التهديد الصليبي بغزو المقدسات الاسلامية في البلاد العربية ، وركز الأوربيون الطاقات الدفاعية عن مقر البابوية في روما ، خوفا من سقوطها في يد المسلمين العثمانيين كما سقطت أياصوفيا مقر البابوية الشرقية وأعظم معاقل الديانة المسيحية الأرثوذكسية . وزاد السلطان محمد الفاتح أوربا ارتباكا وحيرة عندما أقسم أن يربط فرسه في كنيسة القديس بطرس في روما ، لذلك أصبحت روما تحت التهديد العثماني، وظن النس أنها لامحالة ستسقط كما سقط المعقل الشرقي الأرثوذكسي . فهز هذا القول أوربا وارتعدت خوفا أمام القوة الاسلامية التي تطبق الاسلام بكامل حدوده وشعائره .

وحين عزم السلطان محمد الفاتح على ذلك جهز قواته وسار بها نحو شرق أوربا طلبا للجهاد في سبيل ا لله ، فاما النصر أو الشهادة ، ونتيجة لذلك أصبحت الامارات الأوربية البلقانية تسقط في يده الواحدة تلو الأخرى وهو سائر في طريقه الىروما تحف به عناية ا لله وتوفيقه .

وحين رأت أوربا تصميمه على ذلك قررت التخلص منه عن طريق طبيبه اليهودي الذي اعتنق الاسلام على مذهب يهود الدونمة ، فدس له السم في الطعام تدريجيا حتى قضى عليه غدرا كما هي عادة اليهود ، وبموته زال الخطر عن أوربا حيث عبرت عنه باقامة الأفراح في كل مكان،ولكن كان ذلك الفرح مؤقتا حيث واصل خلفاؤه من بعده السير على خطاه في الجهاد ونشر الاسلام

ولذلك اعتبرت أوربا أن فتح الدولة العثمانية للقسطنطينية هو مولد المسألة الشرقية التي أشغلت أوربا منذ ذلك الوقت . ولاتزال قائمة تشغلها واضعة أمامها الأسئلة التالية : كيف تستطيع أوربا ايقاف تقدم الاسلام ونشره في الأقطار والممالك الأوربية ؟ وكيف تعمل أوربا من أجل تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ؟ ولماذا عاد الاسلام مرة أخرى ينطلق من الديار الشرقية ؟ ولم تستطع أوربا أن تحقق مآربها أو أن تصل لغاياتها العدوانية ضد الأمة الاسلامية . وذلك لأن الدولة العثمانية كانت قوية ذات مركز عال مهابة الجانب ، والسر في ذلك أنها كانت تطبق شرائع الاسلام قولا وعملا كما أن جندها كانوا متشبعين بروح الجهاد في سبيل نشر الاسلام. ومن أجل ذلك تحقق للدولة العثمانية كل أمانيها وأيدها ا لله بنصره لأن ا لله تعهد بأن ينصر من ينصره .

وهكذااتسعت رقعة الدولة العثمانية حتى وصلت الى أقصى اتساعها مما جعل ملوك أوربا يطلبون ود الدولة العثمانية ، ويستنجدون بهاعلى أبناء جلدتهم، ومن ذلك قيام فرانسوا الأول ملك فرنسا بالاستعانة بسلطان الدولة العثمانية السلطان سليمان الأول لمساعدته ضد شارلكان ملك النمسا الذي كان يحيط بأملاكه كالسوار بالمعصم ، وقد حالفه السلطان سليمان على ذلك لحمايته وصد الظلم عنه .

ونتيجة للانتصارات العظيمة التي حققتها جيوش الدولة العثمانية فان كثيرا من النصارى دخل في الاسلام تطوعا ، فانضموا الى الجيش الانكشاري ، فعندما تم ضم البوسنة دخل أكثر شبابها الاسلام ، وقد ساهموا مع الجيش العثماني في فتح المدن الأوربية الأخرى ،وهذا يعود لسماحة السلاطين وتطبيقهم للاسلام .

ومن خلال استعراضنا للأحداث التاريخية خلال العصر العثماني الأول نجد أن الدولة العثمانية كانت غازية فكريا ودينيا كماأنها كانت ملتزمة بالاسلام قلباوقالبا ، فطبقت النظم الاسلامية تطبيقا شاملا مما لايختلف فيه اثنان .

وحين انتقلناالى الفصل الثاني تحدثنا عن الدولة في عصرها الثاني فقد كانت غير ذلك ، فاتساع رقعة البلاد وامتدادها على القارات الثلاث ، أوجد لها مشكلات غير عادية في مجال الدفاع الخارجي والتنظيم والتماسك الداخلي ، أوصلت الدولة الىعوائق ، وكان من الواجب على سلاطين الدولة الذين جاءوا بعد السلطان سليمان الأول العمل على اجتياز تلك المشاكل الداخلية والخارجية.وايجاد الحلول الكفيلة لها ، ولكنهم تقاعسوا عن ذلك وتقاعس معهم العلماء والقادة ، فانصرفوا الى حياة الترف واللهو مما زاد من تفاقم المشاكل الداخلية والخارجية ، وعندما أرادوا ادخال بعض التعديلات و الاصلاحات في النظم الداخلية لجأوا الى محاكاة الغرب المسيحي في تنظيماته،فانصرفوا عن الاسلام، فضلوا الطريق ،وأصبحوا ألعوبة في يد بلدان الغرب يعقدون معهم المعاهدات والاتفاقيات ويمنحونهم الامتيازات داخل أراضي الدولة العثمانية . وقد نتج عن هذا الاهمال من سلاطين الدولة زيادة المشاكل وصعوبة حلها مما أثر على وحدة الدولة وتماسكها، وفتح الطريق أمام تسرب الخلل في جميع أجهزة الدولة ، وقدأدى وجود قوميات وأديان متعددة في الدولة الى اضطراب كيانها فكثرت الثورات الداخلية ، فانتشرت أعمال الفوضى ، واضطرب الأمن ومنيت الجيوش العثمانية بهزائم كبيرة ، فكان هذا مبررا لتدخل الدول الأوربية في شئون الدولة العثمانية بحجة رعاية القوميات والأقليات الدينية في الدولة . ومن أجل تفاقم ذلك الخطر فان الدول الأوربية لم تتردد في تقديم المعونات المالية والعسكرية بل والبشرية لاشعال تلك الثورات وتشجيعها على المطالبة بالانفصال حتى ينتهي بها الأمر الى الانفصال عن كيان الدولة الكبير أو حصول الدول الأوربية على معاهدات وامتيازات لرعاية تلك القوميات والديانات. وهذاكله ناتج عن انغماس أغلب سلاطين الدولة في حياة اللهو والمجون والاسراف وتفشي سوء الادارة وقبول

الرشوة بين حاشية السلطان وعماله حتى أصبح ذلك شريعة سائدة في جميع أرجاء الدولة وأقطارها .

كان ذلك بعدالانتصارات الباهرة التي أحرزها العثمانيون عندما حملوا راية الاسلام وساروا بفتوحاتهم صوب الغرب . ولما داخلهم الغرور جنحوا الى الكسل. وتهاونوا في تطبيق أصول الاسلام الداعية للعمل والجهاد وتطبيق النظم الاسلامية بكل معانيها ، فانشغالهم تبعا لشهواتهم شغلهم عن الغرب وتخطيطاته لهدم الملة الاسلامية ، فاستغل الغرب هذه الغفلة وأخذ يخطط لمافيه خدمة مصالحه التجارية والسياسية والدينية في المنطقة ، فكان ذلك عن طريق الغزو الفكري منذ حملة نابليون تنفيذا لوصية لويس التاسع ملك فرنسا ورائد حركة الغزو الفكري والذي كاد أن يذهب ضحية الحملة الثامنة لولا قيامه بدفع مبالغ من المال كفدية لفكه من الأسر ،وهكذا تحولت المعركة من ميدان السلاح الى معركة في ميدان العقيدة والفكر بهدف تشويه عقيدة المسلمين التي تحمل معنى الجهاد . وكان من أهم عوامل الغزو الفكري حركة التنصير. وقد اتضحت معالم هذه الحركة من خلال الهجمة الصليبية على الدولة العثمانية التي قامت بها الدول الأوربية منذ بداية القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي بواسطة قناصل وسفراء تلك الدول الأوربية ، ومن خلال نشاطات الجمعيات والارساليات التنصيرية المدعومة من الدول والجمعيات المسيحية والمتمثل في بناء المؤسسات التعليمية والعلاجية في اسطنبول وبلاد الشام وأصبحت الدول الأوربية تتصارع على الزعامة لحماية الأماكن المقدسة في فلسطين .

وعن طريق هذه الخدمات استطاعت هذه الدول الأوربية أن تغزو العالم الاسلامي فكريا ودينيا وسياسيا وتعمل ماتريد لخدمة مصالحهم . كما حاولت أن تشكك المسلمين في دينهم وعلمائهم ،وبالتالي يتبعون الغرب ويصدقونه في كل مايقول . وكان الغزو الفكري من العوامل المهمة التي ساعدت على تفتت الدولة

الاسلامية لأنه غرر بشعبهاالمسلم عندما شككه في دينه وعلمائه الأفاضل ، وأصبح مغرما بتفاهات الغرب وحضارتهم المادية ، ثم أطلق الغرب على الدولة العثمانية تعبيرا لايليق بدولةكبرى خدمت الاسلام والمسلمين وهو تسميتها (بالرجل المريض).

وقدلاحظنا في الفصل الثالث نشأة حركة الغزو الفكري الأوربي حيث نشأت معها الأفكار العلمانية والقومية والحركة الدستورية ، وتسربت هذه الأفكار عن طريق الثورة الفرنسية التي استطاعت أن تخترق الحياة السياسية والدينية وأن تؤثر في أوربا ،وتعمل علىتغيير النظم القديمة في أوربا . فشجعت تلك الأفكار اليونان على المطالبة بالاستقلال ،كذلك شجعت من ثار بعدهم على طلب الاستقلال لبلادهم سواء ضد النظم القديمة الأوربية أو الانفصال عن الدولة العثمانية ، ويعني ذلك أن هذه الأفكار تسربت الى ممالك الدولة العثمانية الأوربية وكان أثر ذلك أن فقدت الدولة اليونان .

والدولة العثمانية نفسها لم تنج من تسرب هذه الأفكار اليها ، فأصابت هذه الأفكار كثيرا من هيئات المجتمع العثماني ، ولئن كان التأثير في بادئ الأمر ضعيفا إلا أنه أصاب الطبقات المسيحية التي تعيش داخل الدولة أكثر من غيرهم،وكان ذلك تمهيدا للحركة الدستورية التي اضطربت بأفكارها دول البلقان والصرب والافلاق والبغدان والجبل الأسود التابعة للدولة العثمانية طلبا للاستقلال ، فأخذت الدولة العثمانية تتصارع معها ، وأخذت روسيا تساند هذه الثورات وتحدث القلاقل حتىنالت هذه الدول استقلالها في معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ م .

وكان لتطورات التاريخ الأوربي الحديث الأثر الكبير على المناطق والشعوب في تغيير فكر المجتمعات الى علمانية وقومية جديدة ، ثم لم تلبث أوربا أن نشرت هذا الفكر في المدن الاسلامية،وكان شعارها المعلن (العدل والاخاء

والمساواة) وهي نفس الشعارات التي تدعو لها الماسونية ورددها أتباعهم ، ويؤكد ذلك ارتباط العلمانية بالماسونية . كما أن ذلك يعني القاعدة التي تنطلق منها هذه المذاهب الهدامة ، وان اختلفت في الأسماء والمسميات ، فهي في الحقيقة مؤسسات سرية يهودية أريد بها هدم الإسلام وتفتيت الأمة الإسلامية ، وبهذه الشعارات والدعوات والمذاهب الهدامة تغلغل سلطان اليهود ، وأخذت سماته تبرز للعيان منذ مطلع القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي . وساعد في انتشار هذه الأفكار أكثر تطور الثورة الصناعية واتساعها وتطور وسائل المواصلات في العالم ، مما أتاح لهذه الجمعيات والمؤسسات امكانية الانتقال والانتشار بأعضائها من مكان الى آخر لنشر مبادئهم وتعاليمهم التي تتعلق بأهدافهم وأمانيهم وأطماعهم ،والعمل على توجيه هذه الجمعيات والمؤسسات الفرعية التي تسيطر عليها لتحقيق الهدف الذي تعبر عنه الخطة الكبرىللجمعيات والمؤسسات السرية العالمية المنتشرة في جميع بلدان العالم والتي تقوم بكل عمل ماسوني في خدمة الأطماع اليهودية ، فالأفكار المستقلة التي تعارض الأفكار الماسونية ،كانت تتعرض دائما للنقد اللاذع والعداء من قبل الماسونيين وأذنابهم . وكثيرا ماستخدم هؤلاء التصفية الجسدية كما هي عادتهم ضد من يقف في طريق مخططاتهم وأهدافهم العدوانية .

ولقد أدت حياة الركود والتراجع التي كانت تعيشها الدولة العثمانية الى تغير موقفها من الهجوم الى موقف الدفاع عن النفس . ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل بدأت الدولة تفقد في كل حرب مع أوربا أو روسيا ولاياتها الواحدة تلو الأخرى ، لذلك بدأت الدولة في محاولات الاصلاح التي شملت النواحي العسكرية والسياسية والثقافية وحتى النفسية . قي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تسيطر على الطرق العالمية الكبرى ، ولكن عندما آثر السلاطين سياسة العزلة والانصراف عن مواجهة المشاكل والانكفاء خلف شهواتهم اتسعت المشكلة ،

فانتهزت الانكشارية يساندهم في ذلك العلماء هذه الفرصة، وقامت بقتل كل فكرة اصلاحية جديدة حتى ولو لم تتعارض مع الشريعة الاسلامية ، مما زاد في طمع الغرب ، ففكر في تقسيم ممتلكات الدولة أكثر من مرة ، ولكن خوفهم من الخلاف فيما بينهم على تقسيم الدولة واشتعال الحرب فيما بينهم جعلهم يؤجلون هذا الأمر ، ويرسمون الخطط لنشر الفوضى والاضطرابات داخل ولايات الدولة ومدنها الكبرى .

وحين انتقلنا الى الفصل الرابع بينا فيه الاضطرابات ودعوات الاصلاح في الدولة حتى اتجهت الى الاصلاح العسكري أولا وقد واجه تحقيق ذلك سلسلة طويلة من العراقيل نتيجة للضعف الذي أصاب السلاطين والعلماء والانكشار ية والتدهور ا لشامل في سياسة الدولة الداخلية والخارجية ، والتهاون في ادارة الدولة حتى بدأ سلاطين آل عثمان يتطلعون الى معرفة أسباب ضعف دولتهم وايجاد الحلول لذلك الضعف ، فقام السلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ/١٧٨٩-١٨٠٧م) وبدأ الاصلاح في الدولة .

ولكن الانكشاريين لم يمهلوه ، فقد عارضوه ، وكان ضحية هذا الاصلاح بعد أن وضعوامكانه السلطان مصطفى الرابع الذي كان يميل لهذه الفئة ولكن القائد مصطفى علمدار في روسجك الذي كان يؤيد الاصلاح ومن مؤيدىالسلطان سليم الثالث استطاع أن يقضي على السلطان مصطفىالرابع بجيشه وأن يولي محمود الثاني عرش الدولة العثمانية ، هذه الأحداث تعكس بجلاء ضعف الدولة وانهيارها وسوء ادارتها مما مهد الطريق لعوامل الغزوالفكري أن يتسرب داخل البلاد . وعندما تسلم السلطان محمود الثاني السلطنة بعد ثورة دموية أدرك أنه لاسبيل الى الاصلاح الا بالتخلص من الانكشارية . ولكن كيف يتم ذلك ؟ ففكر وراح يخطط للوصول الى كيفية يتخلص بها من هذه الفئة الباغية والخارجة عن طاعة ولي الأمر . وخاصة أنه عقب حرب اليونان اتضح لديه عدم جدوى الجنود

الانكشارية ، وأعجبه تنظيم الجيش المصرى على الطريقةالحديثة وانتصاراتهم الباهرة التي حققها ابراهيم بن محمد على في المورة ، كما كانت محل اعجاب أوربا نفسها ، لذا زاد من اصراره على القضاء على الانكشارية ، ولكنه في هذه المرة قبل البدء استحصل على فتوى شرعية تنص على وجوب التخلص من هذه القوة . ويظهر لنا من هذه الفتوى أنه استطاع اقناع العلماء وجعلهم الى جانبه بعد أن شرح لهم مشاكل الانكشارية ، وأنها أصبحت من أسباب ضعف الدولة العثمانية ، بعد أن كانت قبل ذلك احدى عوامل بناء الدولة وقوتها . فأعلن ذلك للملأ وسعى الى ايجاد انقسام بين صفوف الانكشارية فأحدث هذا النبأ حول الغاء تشكيلات الانكشارية صدى في جميع أنحاء العالم كما خصصت الصحف الأوربية عناوين كبيرة لهذا الحدث ، وسمى الأتراك العثمانيون هذا الحدث باسم " الواقعة الخيرية ".

لهذا اعتبر المؤرخون أن السلطان سليم الثالث رائد حركة الاصلاح ولكنه مات وهي في مهدها ، أما السلطان محمود الثاني فيعتبر بهذاالعمل قدوضع حجر الأساس للاصلاح العسكري في الدولة . ولذلك شرع في تكوين جيش جديد على الطراز الأوربي واستدعى لتدريبه ضباطا ومهندسين فرنسيين وألمان ويعني ذلك العمل أن الاستغراب قد زاد في عهد السلطان وتوسع نحو الغرب بعد مذبحة الانكشارية .

ومن استعراضنا للأحداث التي كانت تمر بها حركة الاصلاح نرى أن القوة العسكرية كانت أولى عناصر الاصلاح التي اهتمت بها الدولة ، ومن خلال ذلك دخل الاستغراب الى أنظمة الدولة العسكرية وذلك عن طريق المدربين والفنيين الذين تم استقدامهم من أوربا، وكان هدف الدولة من ذلك بناء جيش قوي تستطيع الدفاع به عن نفسها، ومن ثم تسترجع مافقدته من ممتلكات .

ومن أجل ذلك سعى السلطان محمود الثاني الى زيادة عدد الطلاب المبتعثين الى المعاهد والمعسكرات الأوربية للدراسة والتدريب هناك حتى بلغ عددهم الآلاف ، وقد تأثر هؤلاء ا لمبتعثون من خلال دراستهم بما كان يموج في أوربا من أفكار ثورية ، مما أدى الى ظهور طائفةجديدة من أبناء المسلمين في الدولة العثمانية لم يستطع المجتمع العثماني تقبلهم لتأثرهم بالأفكار الهدامة ، وقد أطلق عليهم "الشبيبة العثمانية " تشكل منهم عناصر استوطنوا بعض المدن الأوربية ليقوموا بدور المعارضة بأفكارهم المخالفة للشريعة الاسلامية .

وهنا تجدر الاشارة الى أنه عندما توفى السلطان محمود الثاني في سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م كانت الدولة العثمانية على مشارف السقوط عقب الأزمة مع محمد علي ، وقد توفى السلطان قبل أن يعرف هزيمة جيشه من قبل قوات محمد علي باشا بحوالي ثمانية أيام تقريبا، ولكن خوف دول أوربا من محمد علي على مصالحها بعد أن عرفت قوته في حرب المورة جعلتهم وخاصة الانجليز وعلى رأسهم بالمرستون يدبرون له المكائد لحماية اسطنبول .

وكان بالمرستون يعرف أطماع محمد علي وأحلامه في اقامة دولة عربية من مصر الى الخليج العربي ، وهناك سبب آخر أيضا وهو تحالفه مع فرنسا ، مما يعني بالنسبة للانجليز تعرض مصالحها في الهند للأخطار .

وعقب وفاة السلطان محمود الثاني تولى من بعده السلطان عبدالمجيد سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ، فقام بعدة تنظيمات مما يعتبر خروجا عن الأصول الأولى التي سارت عيها الدولة خلال عصرها الأول . وأهم ذلك استبعاد العمل بالشريعة الاسلامية حيث بدأت الدولة في طور غريب تتبع فيه التنظيمات الغربية في الحياة والتقنين .وفي قيام المؤسسات على أنماط غربية . ويبدو لنا أن صغر سن السلطان عبدالمجيد جعله يخضع لتأثير وزيره رشيد باشا ، الذي قضى معظم حياته في الغرب بين باريس ولندن، والذي وجد في الغرب مثله الأعلى وفي الماسونية فلسفته المثلى ،

لذلك استطاع جر الدولة الى هذا المنزلق الخطير طول فترة حكم السلطان عبدالمجيد.

مع العلم أن السلطان عبدالمجيد عقب توليه للسلطة أراد تسوية الأزمة مع محمد علي ودياً دون تدخل الدول ، وقد وافق محمد علي ، الا أن روسيا وانجلترا والنمسا وغيرها من الدول لم تترك هذه المسألة دون حلها تحت نظرهم لذلك تدخلت هذه الدول اجباريا للتسوية بين محمد علي والسلطان عبدالمجيد فقررت بالاجماع دون فرنسا الزام محمد علي بمعاهدة لندن سنة ١٢٥٥هـ/١٨٤٠م ، والتي كان من أهم شروطها:

١ – يمنح لمحمد علي مصر وراثية وولاية عكا طوال حياته .

٢ – ترسل الدول أساطيلها للدفاع عن اسطنبول ان هددها محمد علي .

٣ – اذا رفض محمد علي هذه الشروط في ظرف عشرة أيام تسحب منه ولاية عكا ، ويبقى له مصر فقط ، واذا رفض ذلك في مدة عشرة أيام أخرى ينظر السلطان في الأمر من جديد مع استشارة الحلفاء .

وقد كلفت الدول الأوربية الانجليز بتنفيذ هذه المهمة .

وعندما علم محمد علي بالاتفاقية رفضها واستدعى قواته من شبه الجزيرة العربية لمواجهة هذا الحلف ،ولكن المعركة بينه وبين الانجليز انتهت باعطائه فقط وراثة مصر . لذلك أصدر السلطان عبدالمجيد مرسوما سلطانيا ينظم امتياز حكم القطر المصري . وينظم وراثة محمد علي بمصادقة الدول الأوربية فتوجه محمد علي الى اسطنبول لعرض طاعته وتقديم خدماته للسلطان .

وبهذا المرسوم أسدل الستار على أحداث محمد علي ، وعاد الى طاعة السلطان كما كان سابقا لاحول له ولا قوة ، مرغما.

وهنا السؤال الذي يفرض نفسه ماذا كسب محمد علي من هذه الحرب ضد السلطان محمود الثاني ؟ حتى أرهق الدولة العثمانية بشأن مطامعه ؟ وماذا

فعلت له فرنسا ؟ التي دفعته لحرب الشام . وهانحن نراها تتخلى عنه في أول أزمة يمر بها ، ولم تعمل على مساندته كما وعدته ، وكما هي عادتها فقد تحالف فرانسوا ملك فرنسا من قبل مع السلطان سليمان الأول ضد النمسا وعند التنفيذ أخل بوعده .

ومن خلال هذا البحث يمكن أن نقول انه لايمكن أن يتحالف نصراني مع مسلم ضد نصراني على دينه ومذهبه مهما ضحى المسلم ونفذ أوامر حليفه ولو كان على حساب دينه كما فعل محمد علي ، نرى هذا الحليف يتخلى عنه، اذا كان هذا العمل ضد مصالحه ومصالح بني جلدته كما فعلت فرنسا مع محمد علي.

أما السلطان فقد أخذ في مواصلة تنظيماته عقب أزمة محمد علي فأصدر أول مرسوم من مراسيم التنظيمات خط كلخانه سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م مستهلا حكمه وعقب هذا الخط أصدر الخط الهمايوني عندما افتعلت الروس الأسباب لحربها ضدالدولة العثمانية في سنة ١٢٧٠-١٢٧٢هـ/١٨٥٣-١٨٥٥م ، من أجل كسب أراضٍ جديدة وايقاف حركة الاصلاحات التي بدأت تخشى منها روسيا، والتأكيد على قضية الامتيازات التي حصل عليها قساوسة الكاثوليك بموجب الامتيازات التي منحت لفرنسا في عصر السلطان سليمان الأول (القانوني) وهذه الامتيازات هي التي خولت للفرنسيين امتلاك الكنائس في فلسطين ، وكان الروس يسعون جاهدين لبسط نفوذهم على تلك الكنائس كما هو معروف وسلب فرنسا تلك الامتيازات واعطائها للأرثوذكس الموالين لهم لتتولى الزعامة بسبب حمايتها لهذا المذهب ، ولأجل نشر نفوذها في الدولة العثمانية عن طريق تحريك رعاياهم لهذا المذهب لضرب الدولة بهم . ونتيجة لانشغال فرنسا في حروبها مع نابليون فقد سيطر الروس على مركز النفوذ الذي كان لفرنسا ، وعندما حاول نابليون اعادة هذا النفوذ اختلف مع روسيا ، ولفض هذا الأمر تحاكموا الى الدولة صاحبة الأمر ، فقررت أولوية النفوذ للكاثوليك ، فعارض الروس في هذا القرار ،

وهددوا الدولة العثمانية بالحرب لو صممت على هذا القرار فكانت الحرب الروسية العثمانية التي انتهت بتوقيع معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م .

ونتيجة لهذه المعاهدة التي أعقبت الحرب بين الدولتين فقد أوقعت الدول الأوربية الدولة العثمانية في المنزلق الخطير واجبار الدولة على المزيد من التنظيمات، وأصدر الخط ا لهمايوني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م عقب حرب القرم .

جاء هذان الخطان خط كلخانة والخط الهمايوني نتيجة لتدخل الدول الأوربية مما أدى الى انحراف مسيرة الدولة العثمانية عن الطريق الصحيح والخروج عن جادة الشريعة الاسلامية من أجل ارضاء الدول الأوربية بحجة تحسين أحوال رعاياها في الدولة العثمانية .

والحقيقة أن معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كان من بين بنودها ماامهد لتمزيق الدولة العثمانية حيث أدخلتها هذه المعاهدة تحت كفالة الدول الأوربية ، والتدخل في شئونها بقصد حماية رعاياها مستغلين في ذلك الامتيازات الممنوحة لهذه الأقليات غير المسلمة داخل الدولة العثمانية والتي كانت تثيرها روسيا وغيرها من الدول الأخرى ، وأهم بنود هذه المعاهدة هو البند التاسع الذي يعد المسيحيين بحرية ليس لها حدود ولا ضوابط ، والغريب أن ممثلي روسيا والنمسا هما أول من تنبه الى خطورة هذا البند أكثر من مندوبي الدولة العثمانية نفسها ، لأنهم خشوا من سريان هذه الحرية الفوضوية الى بلادهم . وهذا البند أدخل الدولة أيضا تحت كفالة الدول الأوربية ويمكن للقارئ أن يتساءل : كيف يكون ذلك ؟ فنقول : ان تعدد القوميات داخل الدولة كانت تساندها أوربا بهدف تفتيت الدولة العثمانية من الداخل مستغلة الأقليات غير المسلمة النصرانية واليهودية . وهذه من السياسات الخطيرة التي فرضتها معاهدة باريس ، دون أن تتنبه لها الدولة العثمانية ، ولكن الذي حدث بعد هذه المعاهدة أن الدولة العثمانية أصبحت في حالة الدفاع عن النفس .

ونتيجة لذلك تم انشاء المحاكم المختلفة والمحاكم التجارية ، وكانت هذه التنظيمات التي أدخلت في نظام أو بنية الدولة هي بداية انهيار التشريع الاسلامي في الدولة فظهرت المدارس والمعاهد والارساليات التنصيرية علنا في الدولة العثمانية.

وكان هذان الخطان أيضا ارهاصات ومقدمات لمحاولة تطبيق الدستور في عهد السلطان عبدالعزيز من قبل مدحت باشا وزملائه من الأشرار والمغرورين الذين رأوا أن الدولة لايخرجها من أزمتها هذه الا تطبيق الدساتير الوضعية الأوربية، ونسوا أو غفلوا أن تطبيق الشريعة الاسلامية هو العلاج الناجح لاصلاح الدولة اذا أرادوا اصلاحا . ولذلك حاول السلطان عبدالعزيز رفض ذلك، وصرح بأن هذه الأمور لاتصلح أن تطبق على المجتمع الاسلامي ، فأصدر مجلة الأحكام العدلية المعروفة ، فكان ذلك ردا على مدحت باشا وزملائه الذين لم يرق لهم الرجوع الى تطبيق النظم الاسلامية ، لذلك دبروا المكيدة لخلعه ثم قتله ، بتخطيط وتحريض من الانجليز الذين ساندوا هذه الفئة لاحلال الدستور محل الشريعة الاسلامية ، فكان هذا السلطان ضحية مدحت باشا وزملائه لعدم تطبيق المشروطية . ومما يؤسف له أن السلطان عبدالحميد الثاني قام بتطبيق المشروطية ربما لارضاء مدحت باشا وزملائه حيث أعلن المشروطية .

ومن خلال هذه التطورات عين السلطان مدحت باشا صدرا أعظم للدولة ولكنه لم يلبث الا شهورا حتى عزله السلطان عبدالحميد الثاني لعدم كفاءته لأنه أقحم وأربك الدولة العثماية في حربها مع الروس سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٨م ، هذه الحرب التي تبلورت فيها مرتكزات الغزو الفكري وأطماع الدول الأوربية وخاصة روسيا التي اتضح في مسلكها بانها لايهمها اعلان الدستور أو تعطيله بقدر مايهمها الحصول على أكبر مساحة ممكنة من أراضي الدولة العثمانية المجاورة لها. ويبدو واضحا أن اتجاه روسيا الى هذه الحرب هو عدم تحقيق آمالها ومقاصدها التي لم

تتحقق في حرب القرم الماضية ، لهذا نراهـا تسـعى الى التحـرش بالدولـة العثمانيـة لتقودها للحرب معها ولو لأتفه الأسباب .

ولقـد انتهـت هـذه الحـرب بهزيمـة الدولـة العثمانيـة ووصـول الـروس الى مشارف العاصمة اسطنبول ، ولولا تدخل الدول الأوربية لدخلت روسيا اسطنبول فتوقفت الحرب . وفي الوقت نفسه أرغمت الدولـة العثمانيـة علـى توقيـع معـاهدة سان ستيفانو في سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م بالشروط التي أملتها روسيا منفردة دون تدخل الدول الأوربية الأخرى . الا أن الدول الأوربية ثارت ثائرتها ، لأنهـا لاتقـر سياسة روسيا التوسعية ، فأجبرت روسيا على الغاء معاهدة سان ستيفانو في معاهدة برلين سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨ م . وتعديل شروطهاحتى تتفق مع مصالحها وانتهـت هذه المعاهدة بتفتيـت وتقسـيم الدولـة بـين الـدول الأوربيـة الاسـتعمارية ، فرنسـا وبريطانيا وروسيا والنمسا .

ولما رأى السلطان عبدالحميد الثاني عـدم جـدوى اعـلان الدسـتور ، وأنـه عديم الفائدة لأن تطبيقه لم يمنع من تدخل الدول الأوربية في شئون الدولة الداخليـة والخارجية ولم يمنع مطامعهـا ، وأن المسـألة ليسـت كمـا يدعـون وهـي ايجـاد نظـام دستوري للشـعب ، بـل المسـألة تعـدت ذلـك ، وأصبحـت مسـألة أطمـاع . لهـذه الأسباب قام السلطان عبدالحميد الثاني بالغاء الدستور لعدم اقتناعه من قبل بتطبيق أنظمة غير اسلامية على بلد اسلامي ، وأعلن الجامعة الاسلامية وكان يهدف منهـا الى توحيد العالم الاسلامي تحت مظلة الشريعة الاسلامية لتوحيد صفوفه ولصد هذه الهجمة الاستعمارية الشرسة التي كان همها ابتلاع العالم الاسـلامي ومحـو الشـريعة الاسلامية ، منذ معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كما أسلفنا .

وبعد الغاء الدستور أو المشروطية تشتت الدسـتوريون الى أمصـار الممـالك الأوربية ، فأسسوا جمعية الاتحاد والترقي في باريس ثم في سلانيك وفي آخر المطـاف توحدت هاتان الجمعيتان للعمل على اعادة الدسـتور متحديـن . وكـانت الأنشـطة

الماسونية آنذاك تقوم ببعض التحركات السرية ، حيث بدأوا أنشطتهم في كل الجبهات لتقويض أركان الدولة العثمانية ومن تلك النشاطات ماقامت به الصهيونية بقيادة هرتزل الذي حاول استعطاف واغراء السلطان عبدالحميد لايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين ولكن السلطان عبدالحميد الثاني وقف موقفا مشرفا نبيلا ازاء نشاط الصهيونية فرفض مطالبهم وأصدر أوامره بايقاف هجرة اليهود الى فلسطين. لذلك ومنذ تلك اللحظة ناصب اليهود السلطان عبدالحميدالعداء ، فقرروا الوصول الى أهدافهم عن طريق خلعه بالوسائل السياسية والمكائد الدولية .

لذلك نرى اليهود يستخدمون الماسونية . والماسونية ماهي الا واجهة من واجهات الصهيونية وجدت لخدمتها وخدمة اليهودية ، وهذه المسميات وجوه لعملة واحدة ، فالصهيونية الاسم الجديد لليهودية ، والماسونية أيضا صارت اسما جديدا للصهيونية ، فقد تتغير الأسماء لكن الهدف لايزال واحدا هو خدمة اليهود في كل مكان ، ولذلك اندس الماسون في صفوف الدستوريين لتوحيد مساعيهم ، وتنظيم حركتهم في سلانيك حيث المركز الرئيسي للماسونية التي يترأسها قراصو اليهودي ، وقد عقدوا هناك عدة مؤتمرات تحت رئاسة قراصو رفيق درب هرتزل،والذي فوضه اليهود للاطاحة بالسلطان عبدالحميد . فاتفق الدستوريون والماسونيون في هدف واحد وهو خلع السلطان عبدالحميد واعادة الدستور ، وقد تم لهم ذلك بالتعاون مع الماسونية والجيش الثالث في سلانيك ، فعادت المشروعية الثانية في سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م التي قبلها وأعلنها السلطان على مضض ، بقصد احباط السياسة الانجليزية التي تساند حزب الاتحاد والترقي منذ نشأته لاحلال الدستور الوضعي محل الشريعة الاسلامية ، لأن بريطانيا احدى الدول المعادية للاسلام ، فالغزو الفكري يعني محاربة الشريعة الاسلامية ومحاولة تنصير أهلها كما هو معروف .

وبهذا نقول نجح الغزو الفكري في تهيئة أنصار له من أبناء الدولة العثمانية المسلمة ، سواء كانوا يعلمون أو يجهلون ذلك الغزو ، حتى انتهت الدولة بخلع السلطان في سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ونفيه الى سلانيك بحجة اشتراكه مع الحزب الاسلامي الذي رأى في المشروطية خروجا عن الشريعة الاسلامية ، فثار لمقاومتها، وخصوصا عندما اجتمع البرلمان الجديد ، وبجانبهم حزب الأحرار أو الاشرار الذي يدعو الى اللامركزية ويترأسه صباح الدين ابن محمود باشا والذي كان أكثر أعضائه من المسيحيين .

وبتأييد من الانجليز دخل اليهود الى هذه الجمعيات واندسوا داخلها فزادوها اشتعالا ، واتهموا السلطان بتدبيرها للتمهيد لخلعه كما سبق حتى يخلو لهم الجو فيما بعد ، ويتمكنوا من تطبيق النظم والدساتيروتحقيق أهدافهم ومطامعهم في فلسطين ، وجعل الدولة تسير على خطى العلمانية .

وهكذا يمكن أن نجيب على الشق الثاني من السؤال الذي فرضناه وهو أن الدولة العثمانية كانت غازية فكريا في عصرهاالأول ذلك العصر الذي طبقت فيه الدولة النظم الاسلامية تطبيقا شاملا ، ولكنها كانت في عصرها الثاني غير ذلك لأنها تهاونت في تطبيق النظم كما رأينا . وهذه نتيجة حتمية لمن سار على هذا الطريق ، وأصبحت حقلا للغزو الفكري الأوربي حتى انتهى بها المطاف الى العلمانية .

وقد أدرك الكثير من العلماء صعوبة تطبيق حكم نيابي أو حكومة مقيدة السلطة كما هو واضح عبر عصور التاريخ الاسلامية. وهذه الصعوبة تتمثل في استحالة قيام نظام دستوري وضعي في دار الاسلام . وان أخذ نظام سياسي جاهز من حضارة غير اسلامية وفرضه على مجتمع اسلامي أمر خطير ولايمكن قبوله .

والحقيقة المرة أنه عندما شكل الحكم البرلماني في اسطنبول كانت تديره وتسنده أقلية وهي حزب الاتحاد والترقي الذي لم يتنبه الى انغماسه في اللعبة

اليهودية التي استخدمت الماسونية لتعمل في الخفاء من خلال تدخلها في الأحزاب والبرامج الدبلوماسية لفرض الدستور الوضعي . وكان الشعب المسلم يراقب بخيبة أمل تلك الأحداث والتي كان من نتائجها قيام نظام غريب لاصلة له بماض أو حاضر الاسلام والدولة العثمانية الاسلامية . لهذا كان الغرب صانعا وموردا لهذا النظام الذي نفذه الشباب المغرور من الأشرار الذين لايعرفون أنهم يتم تحريكهم بواسطة اليهودية العالمية .

ونعود للقول بأن اللجنة التي خلعت السلطان عبدالحميد الثاني كان قراصو اليهودي الماسوني هو رئيسها الذي أبلغ السلطان بخلعه وهو رفيق درب هرتزل في طلب وطن قومي لليهود في فلسطين . وكأن لسان حاله يقول : هانحن وصلنا الى مانريد، وهانحن أيضا خالعوك ، ولهذا غضب السلطان لما سمع قرار الخلع من أسعد طوبطاني عندما قال : ان الأمة خلعتك ، وقال تقصد أن الامة هي التي خلعتني ، لابأس ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي الى مقام الخلافة . يعني ذلك أن اختيار هذا اليهودي ضمن الوفد اهانة للسلطان كما ذكرنا .

وبهذا الخلع اقتربت الدولة العثمانية من نهايتها وأصبحت ألعوبة في يد الاتحاديين .

ولقد برهنت الحوادث على أن الاتحاديين لم يفعلوا شيئا سوى اضافة مصائب جديدة على مصائب الدولة . فقد كان مطلعهم شؤما على الاسلام والمسلمين وعلى الدولة اذ أنهم منذ ثورتهم الأولى في مقدونيا سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م فقدت الدولة نهائيا البوسنة والهرسك وبلغاريا .

أما البوسنة والهرسك فقد وضعهما مؤتمر برلين في سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م تحت الادارة النمسوية ، على أن تبقى هاتان المقاطعتان تابعتين اسما للسلطان العثماني . ولما نشبت ثورة الاتحاديين ضد الدولة رأت النمسا أن الفرصة سانحة لانشغال الدولة عنها ، فقامت بضم المقاطعتين بصورة نهائية في سنة

١٣٢٦هـ/١٩٠٨م لأن النمسا كانت ترسم بسياستها تحقيقا لأطماعها المتزامنة مع أطماع الدول الأوربية .

أما بلغاريا فقد جزأها مؤتمر برلين هي الأخرى الى ثلاثة أجزاء بلغاريا الأصلية التي تمتعت بالاستقلال الداخلي ، والروملي الشرقية التي أعيدت الى السلطان على أن يحكمها حاكم نصراني وتتمتع بادارة خاصة ومقدونيا التي ألحقت بالدولة العثمانية في مؤتمر برلين بدون قيد ولاشرط .

ومنذ ذلك الوقت وبلغاريا تسعى لتوحيد المقاطعتين الروملي الشرقية ومقدونيا كما كانت في معاهدة سان ستيفانو، وقد نجحت في عام ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م في ضم الروملي الشرقية ، ولكنهم لازالوا تابعين للسلطان ، فأخذوا يتطلعون الى الاستقلال ، وقد أتتهم هذه الفرصة اثر ثورة الاتحاديين حيث أعلن مليكهم (فرديناند) استقلالهم ودعا نفسه باسم (قيصر البلغاريين) وكان ذلك في سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م أيضا .

وبتفاقم الغزو الفكري سقطت الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى وتحقق وعد بلفور بايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٧م وهذا ماكان يسعون اليه . وبمشيئة ا لله سينتزعه المسلمون قريبا من هذاالعدو الغاشم المحتل على يد اخوانهم المجاهدين الفلسطينيين واخوانهم من المسلمين .

لذلك أخذت مظاهر الغزو الفكري تتفاقم حتى سقطت الدولة بسببه بعد أن أعيت أوربا الحلول العسكرية بسبب القوة والتماسك اللذين أكسبهما الاسلام للدولة العثمانية .

أما الفصل الخامس والأخير فقد استعرضنا فيه دعوة التوحيد رالاصلاح ومقاومتهما لصد هذا الغزو عن شبه الجزيرة العربية ، والتي قامت وانطلقت من قلب نجد، والتي دعا اليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وهذه الدعوة حثت الناس

على العودة الى الدين الصحيح والى العقيدة الصافية التي أطلقها الشيخ بعد رحلاته العلمية من حريملاء وبعد أن ضيق أهلها عليه غادرها الى العيينة . وفي العيينة أقام الحدود ، وهدم القبور بمساندة أميرها عثمان بن معمر . فشاع ذكره بعد رجم الزانية ، حتى وصلت الأنباء الى سليمان بن محمد حاكم الاحساء آنذاك فهدد أمير العيينة بحبس ريع مزارعه عنه والتي كانت في الاحساء اذا لم يقتل هذا الشيخ أو يخرجه . فاستقر الرأى على خروج الشيخ لخوف عثمان بن معمر من تهديدات حاكم الاحساء ، فخرج الشيخ وقصدالدرعية ، حيث تم الاتفاق المشهور في سنة ١١٥٧هـ على نصرة هذا لدين مع الامام محمد بن سعود، وباتفاقهما نشأت الدلة السعودية الأولى ، قامت على أساس الكتاب والسنة المطهرة والدعوة للتوحيد وانطلقت هذه الدعوة حتى وحدت امارات نجد تحت لواء الدرعية ، وكان ينظر اليها الولاة العثمانيون في أول الأمر على أنها حركة داخلية ، وبعد أن ضمت الاحساء أهاج هذا العمل الدولة العثمانية ، وترتب على ذلك نمو الدولة السعودية الأولى ، فأصبحت دولة خليجية تطل على الخليج العربي ، ولكن بعد ضمها للحجاز هاجت الدولة العثمانية ، ورأت أن مركزها في اسطنبول قد اهتز مما جعلها تكلف ولاتها في العراق والشام بصد توسعها ، لكن تلك الجبهتين لم تستطيعا فعل شيءأمام الدولة السعودية التي تدعو الىالاصلاح والرجوع الى ماكان عليه السلف الصالح وتحكيم كتاب ا لله وسنة نبيه صلى ا لله عليه وسلم .

لهذا اتجهت الدولة العثمانية إلى واليها على مصر محمد علي ، وأسندت اليه حرب الدولة السعودية الأولى ، فأخذ محمد علي يعد العدة ويستعد استعدادا عظيما ، فأرسل ابنه طوسون بجيش جرار للقضاء على الزحف السعودي ولكن هذه الحملة باءت بالفشل أمام القوات السعودية ، وأرسل له والده حملة أخرى مددا للأولى فاستطاعت القوات السعودية احباط قوات طوسون بعد عدة معارك ،

فجنح طوسون بعدها للصلح مع الإمام عبدا لله بن سعود .ولكن هذا الصلح نقض لأسباب دينية وأخرى سياسية . وكانت هذه الحرب التي وجهت للدولة السعودية الدولة الاسلامية كانت في الواقع تنفيذا لأوامر السلطان محمود الثاني آنذاك الذي كان يشك في نوايا محمد علي وولائه للدولة ، لهذا كان هدف السلطان محمود بتلك الحرب ضرب القوتين السعودية وقوات محمد علي بعضهما ببعض لينهك بعضها بعضا ، وكان كما قيل انه يريد انتصار الدولة السعودية لبعدها عن الأراضي التركية ،ولكن العكس حدث ، وكما توقع السلطان محمود حدث ماكان في باله . فقد طالب محمد علي السلطان بعد حرب المورة مباشرة باعطائه الشام ، وحدث ماحدث في حرب الشام الأولى والثانية التي انتهت بوفاة محمود الثاني وحصر محمد علي في ولاية مصر فقط وجعلها وراثية ، وكان المستفيد من ذلك كله دول أوروباالتي سيطرت بنفوذها على الدولة العثمانية ، وتدخلت بشأن هذه الحروب في شئونها الداخلية والخارجية .

وقد انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بسرعة في أجزاء أخرى من العالم الاسلامي ، وقد تأثر بها بعض علماء الأقطار ونقلوها الى أقطارهم فأدى هذا الى يقظة العالم الاسلامي ، لهذا خاف السلطان محمود من تغلب هذه الدولة ودعوتها على أملاكه في آسيا وتأليب العالم الاسلامي ضد الدولة العثمانية خاصة وهناك من كان ينادي بأن الخلافة لابد أن تكون للعرب ، ولهذا زادت ظنونه وتخوفه من تزعم الدولة السعودية لهذه الفكرة الهادفة الى تقويض دولته . والا لماذا سير جيوشه على الرغم من أن الامام عبدا لله قد أرسل خطابا تاريخيا أشار فيه الى طاعته ؟ ولكن اصرار العثمانيين على انهاء هذه الدولة أعمى بصائرهم عن الحق .

ولهذا فقد سير محمد على ابنه ابراهيم للقضاء على الدولة اثما وعدوانا فأخذ يهاجم المدن النجدية الواحدة تلو الأخرى حتى تم له حصار الدرعية خلال ستة شهور ، وقد ضرب أهلها أروع الأمثلة في البسالة والبطولة حينمادافعوا عن

الدرعية ، وكان على رأسهم إمامهم الإمام عبدا لله بن سعود الذي أبلى بلاء حسنا مع أهلها أمام أسلحة فرنسية متطورة من مدافع وقنابل مع خبراء فرنسيين ومشورة فرنسية يبدو أنها تدفعه الى شبه الجزيرة العربية لتحقيق حلمه في اقامة دولة عربية من مصر الى الخليج العربي .

وبالرغم من هزيمة الدرعية عسكريا فانها قد ظلت قاعدة الدعوة السلفية في العصور الحديثة، وسوف تظل الى أن يرث ا لله الأرض ومن عليها . وقد أشرت في هذا البحث الى قوة واستمرار هذه الدعوة في أدوار السعودية الثلاثة لحرص آل سعود على استمرارها والحفاظ عليها .

وقد استطاع الامام تركي بن عبدا لله أن يعيد بناء الدولة السعودية الثانية ولكن في هذه المرة جعل عاصمتها الرياض حيث استمرت معها الدعوة السلفية التي أخذت تنتشر أيضا في عهد الامام تركي ثم من بعده ابنه الأمير فيصل بن تركي حتى وصلت الى الخليج العربي، ولكن كان هناك فاصلة ، فبعد موت الامام فيصل بن تركي دب الخلاف بين الأسرة السعودية وقد استغل ابن الرشيد هذه الفرصة واستولى على الرياض ، ورحل الامام عبدالرحمن بن فيصل وابنه عبدالعزيز، وظن الناس أن حكم آل سعود قدانتهى ولم يلبث الحق أن عاد الى أصحابه . فقد استعاد عبدالعزيز بن عبدالرحمن في سنة ١٣١٩هـ حكم الرياض من ابن الرشيد ، وقام بتوحيد شبه الجزيرة العربية باسم المملكة العربة السعودية ، وكون دولته الاسلامية الحديثة على دعائم الدعوة السلفية التي تدعو الى الرجوع الى الكتاب والسنة وآثار علماء السلف الصالح ، وكان منهجه واضحا منذ دخوله مكة المكرمة .

وقد صدت هذه الدعوة الغزو الفكري عن شبه الجزيرة العربية فانتشر الأمن والأمان والاسلام في ربوع مملكة عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود حيث اتبع خلفاؤه الميامين سيرته العطرة متمسكين بهذه الدعوة المباركة التي تدعو الى :

(١) الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، وتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية .

(٢) محاربة البدع والخرافات . ومعاقبة الجناة وقطاع الطرق في اقامة الحدود.

(٣) تحديد موارد الدولة المالية وجعلها تسير حسب الأسس الشرعية كالزكاة والخراج طبقا للنظم الاسلامية .

وهنا بدورنا نتساءل : ماذا كسب محمد علي وماهي الفائدة التي جناها للسلطان محمود الثاني في حروبه داخل شبه الجزيرة العربية ضد الدولة السعودية الأولى ؟ وماهو المبرر في ذلك؟ وماهي الحاجة التي تدعو الى محاربة ومصارعة جيوش أخرى مسلمة واهدار الطاقات الاسلامية ؟ كان من الأجدر أن تتوحد هذه القوة ضد أعداء الاسلام والمسلمين بدلا من انهاك قواها مما أدى الى انفساح المجال أمام بريطانيا لزيادة أطماعها ونفوذها في منطقة الخليج العربي في الوقت الذي كان فيه المسلمون يتصارعون فيما بينهم لأتفه الأسباب ، والاستعمار يحيط بهم من كل جانب ويتربص بهم للانقضاض عليهم وابتلاع مايمكن ابتلاعه من الممالك الاسلامية . فرنسا تدفع محمد علي والسلطان محمود تدفعه بريطانيا . وكان من الأصح أن يتعاون المسلمون ويصبحوا يداواحدة لصد الغزو العسكري الاستعماري والفكري عن ديار الاسلام الذي يهدد المصالح الاسلامية في كل مكان لا للقضاء على الدول الاسلامية كما فعل محمد علي ، لأنه ليس هناك سبب مقنع يبرر به هذا الخطأ الجسيم وهو ضرب الدعوة السلفية التي تساندها الدولة السعودية الأولى .

هذا الخطأ ترتب عليه أخطاء أخرى وهو أنه عندما انقض محمد علي على الدولة العثمانية نفسها ساعد بحروبه هذه في القضاء على الدولة وجعلها لقمة سائغة للاستعمار.

وفي النهاية ماذا فعلت معه حليفته فرنسا . لقد تخلت عنه في أحلك الأمور، ورضخ لأوامر أوربا وخاصة انجلترا التي تعرف مطامعه .لقد قامت هي

الأخرى بسحب البساط من تحت قدميه في الوقت المناسب وقلبت له ظهر المجن ، وأرغمته كما أسلفنا بحصر وراثته على مصر فقط وسحبت قواته من شبه الجزيرة العربية في سنة ١٢٥٦ هـ/١٨٤٠م ، فذهب الى السلطان عبدالمجيد يقدم له فروض الطاعة بعد أن كاد يستولى على عاصمة بلاده ، وظل عبدالمجيد هو الآخر ألعوبة في يد أوربا ، وأرغموه على اصدار خط كلخانه لتحسين أحوال المسيحيين من رعاياه ، وبهذا الخط - كما سبق الحديث عنه - انزلقت الدولة في التنظيمات التي كانت ضد دينها وتقاليدها حتى سقطت في أحضان أنصار الماسونية التي قادتها الى النهاية .

أما كان من الأولى أن يوحد محمد على طاقاته القتالية والتكتيكية مع الدولة العثمانية للحرب في اليونان حينما طلب منه ذلك ضد دول البلقان الثائرة على الدولة العثمانية لطلب استقلالها التي تساعدها في ذلك الروس ،وخاصة أن محمد على كان يملك قوة هائلة أزعجت أوربا في ذلك الوقت ، ولكنه للأسف سخرها دون أن يدري في خدمة أوربا لانهاك الدولة العثمانية بدلا من الوقوف بهذه القوات الى جانب السلطان . ولوحصل ذلك أعتقد أنه كان سيغير مجرى التاريخ لصالح الدولة ا لعثمانية . وفي هذا الوقت نرى السلطان محمود يعد العدة لحرب محمد علي لاخراجه من الشام ، ويوجه قواته الى أرض الاسلام بدلا من توجيهها الى أوربا كما كان يفعل أسلافه ،ولكنه محق لو أمعنا النظر قليلا لأنه يريد أن يرد أملاكه التي استولى عليها محمد علي بالقوة في حرب الشام الأولى ، فمحمود الثاني هو الذي أثار حرب الشام الثانية ، والتي كادت أن تقضي على عاصمته بموته وهزيمة جيشه لولا لطف ا لله ثم تدخل الدول الأوربية .

كما كان موقف محمد علي والسلطان محمود مع الدولة السعودية الأولى موقفا خاطئا كما أسلفنا ، ولو تركاها الى حين تكملة مشوارها في صراعها متحدة مع القواسم السلفية ضد شركة الهند الشرقية الانجليزية وغيرها من الشركات

الاخرى لكان للتاريخ شأن آخر ، ولو اتحدت الدولة العثمانية مع الدولة السعودية والقواسم التابعين للدولة السعودية في ذلك الحين لكان أجدر بالمسلمين أن يكونوا يدا واحدة ضد الاستعمار ،بدلا من ضياع جهودهم وهدر طاقاتهم دون جدوى ولافائدة تذكر ، فقد أضعفوا بصراعهم قوتهم المالية والمعنوية حتى صاروا لقمة سائغة لأوربا كلها ، مع العلم بأن الدولة السعودية عادت كما كانت . وحلت الخسارة الفادحة بالدولة العثمانية التي كان الأجدى بها أن توجه هذا الجيش الى أوربا والى الصليبية والماسونية ، وأن تطلب من السعوديين المساعدة ضد العدو المشترك واعتقد أنها لن تتخلى عنها وانها سترسل اليها المدد لجهادها ضد العدو لأن نجد أو شبه الجزيرة العربية لم تشهد غزوا فكريا ، فدعوة التوحيد والاصلاح صدت هذه التيارات المعادية بفضل من ا لله ، ثم بحكمة أئمة آل سعود التي نشأت دولتهم على أسسها ، فانطلقوا بها حتى عمت أرجاء شبه الجزيرة والمناطق الاسلامية المجاورة ، ولازالت الدولة السعودية حصنا من الحصون المنيعة لصد أي تيار فكري يقصد به هدم هذا الدين القويم بكل جهودها ومساعيها لتبقى القاعدة المتينة التي تنطلق منها الدعوة السلفية الى أنحاء العالم .

وفي ختام موضوعي هذا أؤكد أن الدولة العثمانية كانت قوية بفضل تطبيق النظم الاسلامية تطبيقا كاملا في عصرها الأول .

ولكنها حين تساهلت في أمر هذا الدين في عصرها الثاني رأينا الغزو الفكري يتغلغل كما لمسناه أثناء دراستنا لموضوع الدولة العثمانية والغزو الفكري ، وهو المعول الذي هدم الدولة العثمانية وفتت ممتلكاتها الاسلامية أمام القوى النصرانية، وهذا يعود لتنازل الدولة عن الخط القويم الذي قامت عليه وهو دستورها الشرعي المستمدة أحكامه من الشريعة الاسلامية بتحولهاالى الدستور الوضعي الذي طبق فأصبح من أسباب انهيار وانزلاق الدولة عن مسارها الأول

لتسقط في الحرب العالمية الأولى وهي مثخنة بجراحها لتفاقم الغزو الفكري وانحدارها في هاوية العلمانية .

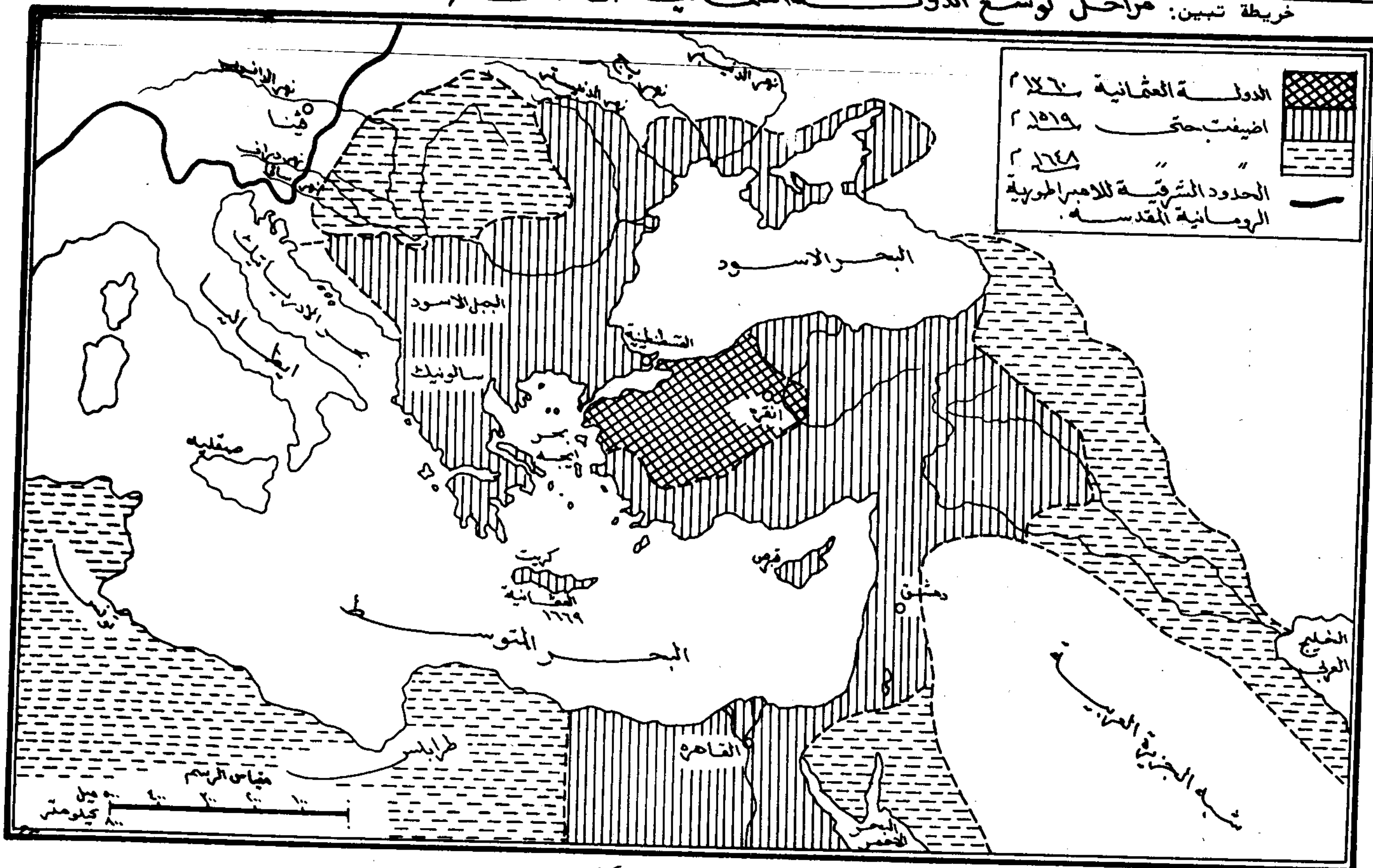
واذا كانت أوربا في يوم من الأيام قد تخلت عن الروح الصليبية والحل العسكري واتجهت الى الغزو الفكري فان العالم الاسلامي في أزمانه المعاصرة ينبغي أن يركز على غزو فكري اسلامي مضاد ، وفتح عقلي بكل الوسائل التي يتيحها التقدم الصناعي والتقني ، وأن تسير الرغبة والمطالبة بتطبيق الشريعة الاسلامية ، كحركة داخلية جنبا الى جنب مع الفتوحات الفكرية والغزوات العقلية كجهد خارجي مبعثه العقيدة الاسلامية .

• • •

الملاحـــــق

فهرس الملاحق

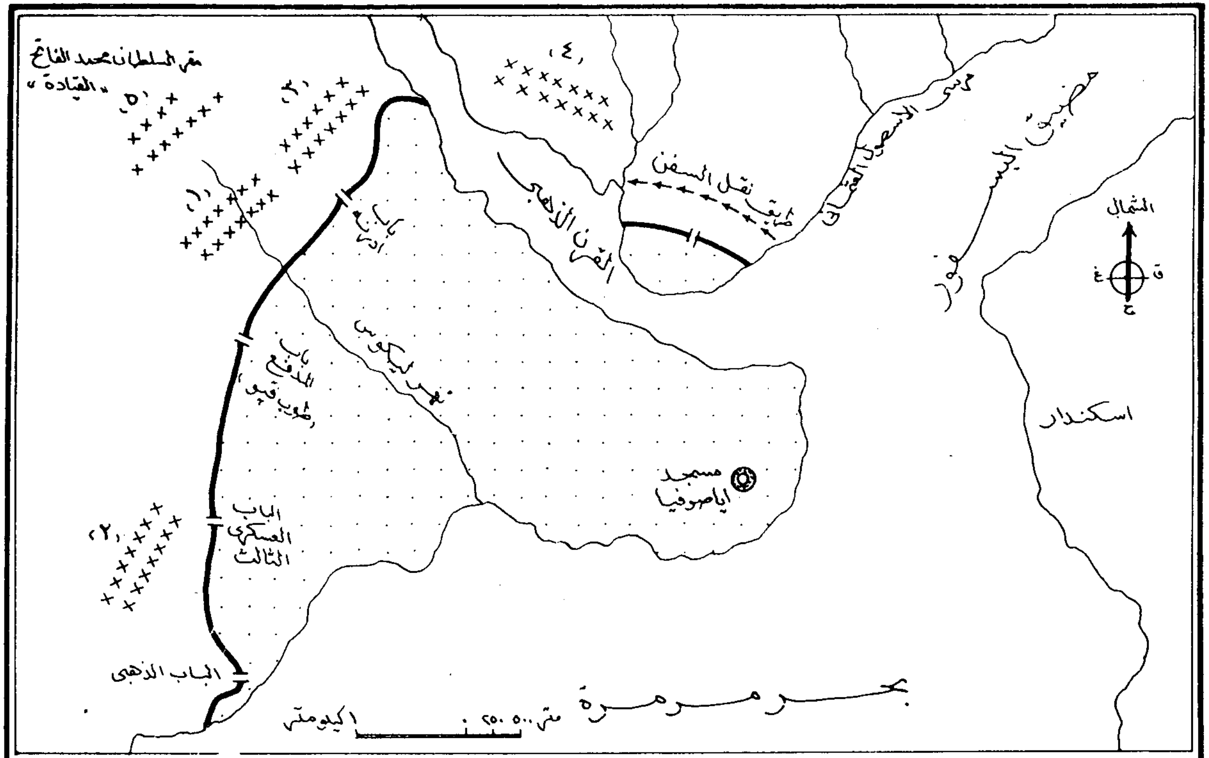
ملحق رقم (١):
خريطة تبين: مراحل توسع الدولة العثمانية الى سنة ١٦٤٨م



١- احمد عبد الرحيم مصطفى - فى اصول التاريخ العثمانى . شكل (١)

ملحق رقم (٢):

خريطة تبين: فتح القسطنطينية « اسطنبول »



مواقع اقسام الجيش العثماني حول مدينة القسطنطينية

(١) القلب (الجنود الانكشارية المختاره) (٢) الميمنة (جنود الاناضول)

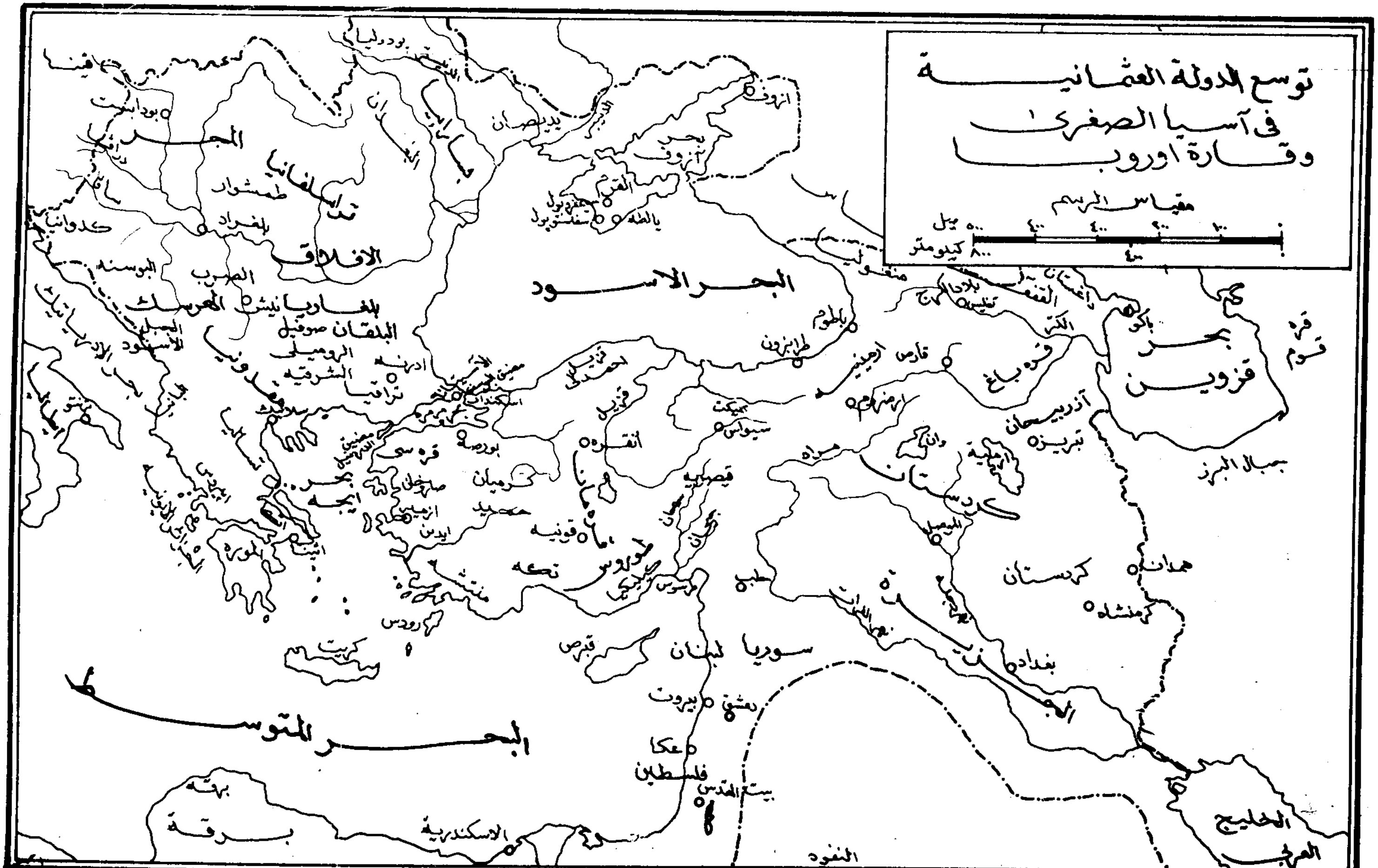
(٣) الميسرة (جنود الروملي والمتطوعون الجدد) (٤) فرقة زغنوس باشا (احتياطي ضارب)

(٥) القيادة وبها مقر السلطان الفاتح.

شكل (٢)

١- عبد اللطيف عبد الله بن دهيش - قيام الدولة العثمانية.
٢- عبد السلام عبد العزيز فهمي - فتح القسطنطينية.
٣- Robert Maxwell - Pergamon world atlas Oxford 1968.

ملحق رقم (٣) :



مشكل (٣)

١- احمد عبد الرحيم مصطفى - في اصول التاريخ الاسلامي .
٢- هارى وآخرون - اطلس التاريخ الاسلامي .

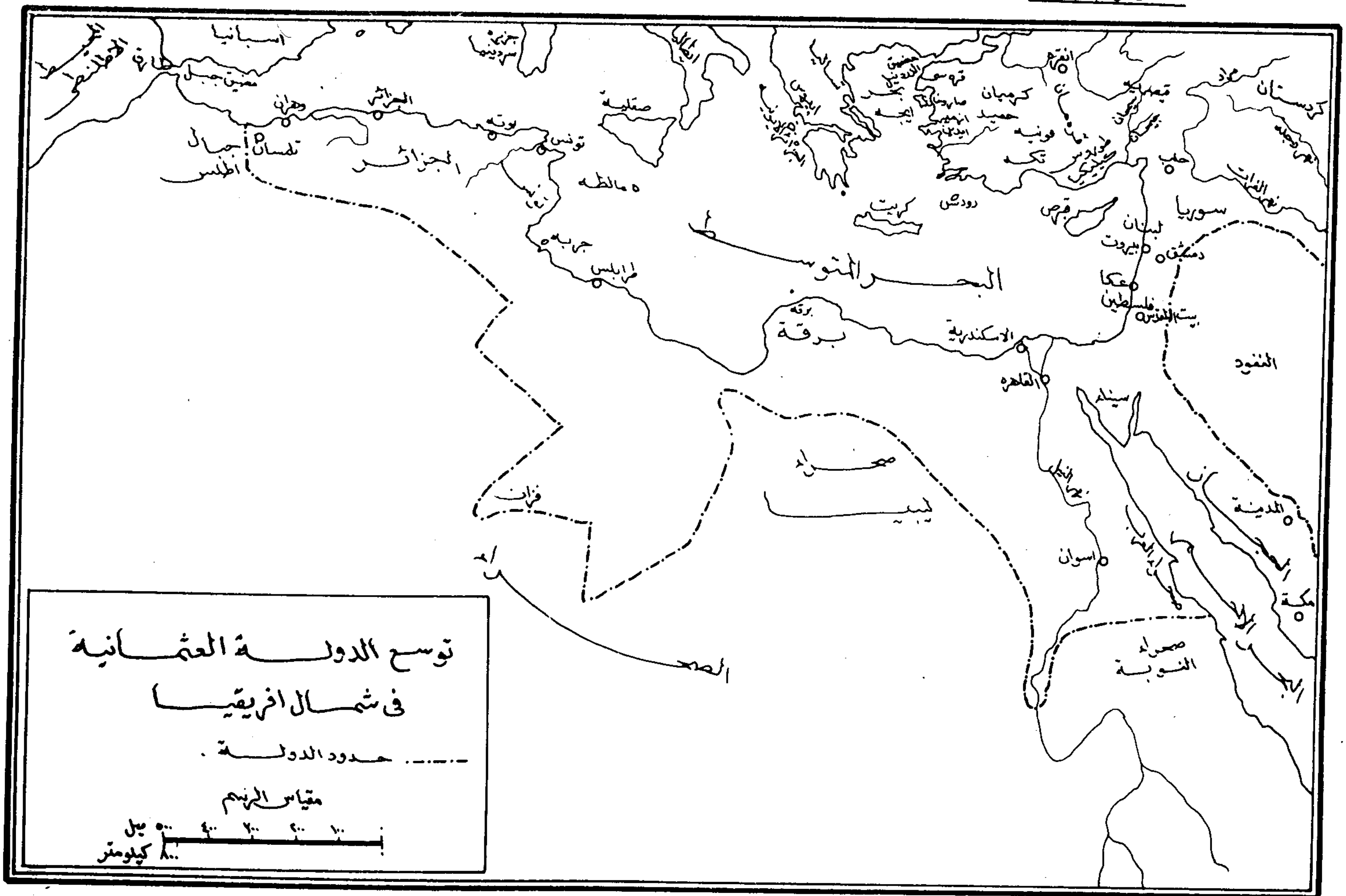
ملحق رقم (٤) :



١- هاري وآخرون - اطلس التاريخ الاسلامي .

شكل (٤)

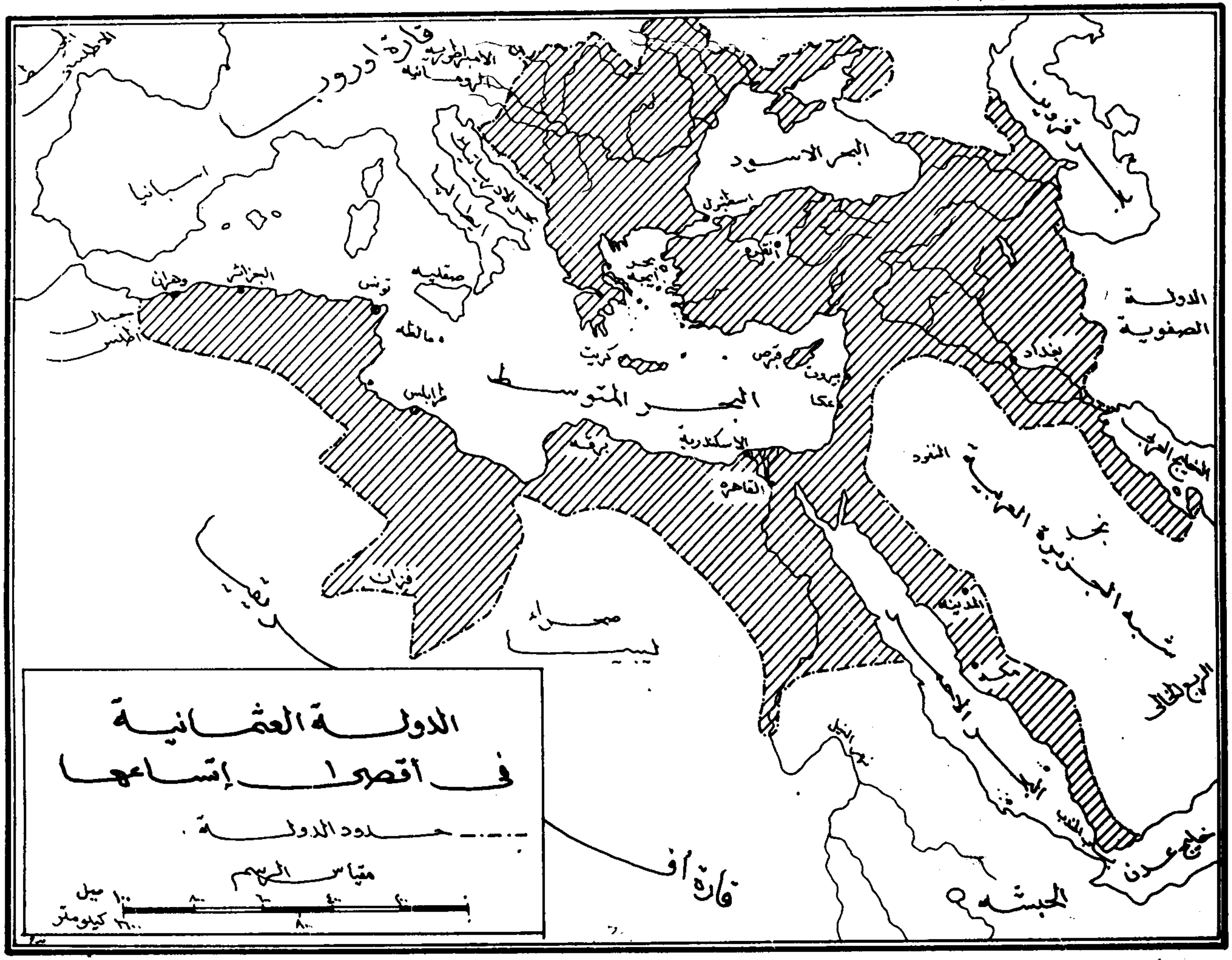
ملحق رقم (٥) :



مشكل (٥)

١- هاري وآخرون - اطلس التاريخ الاسلامي .

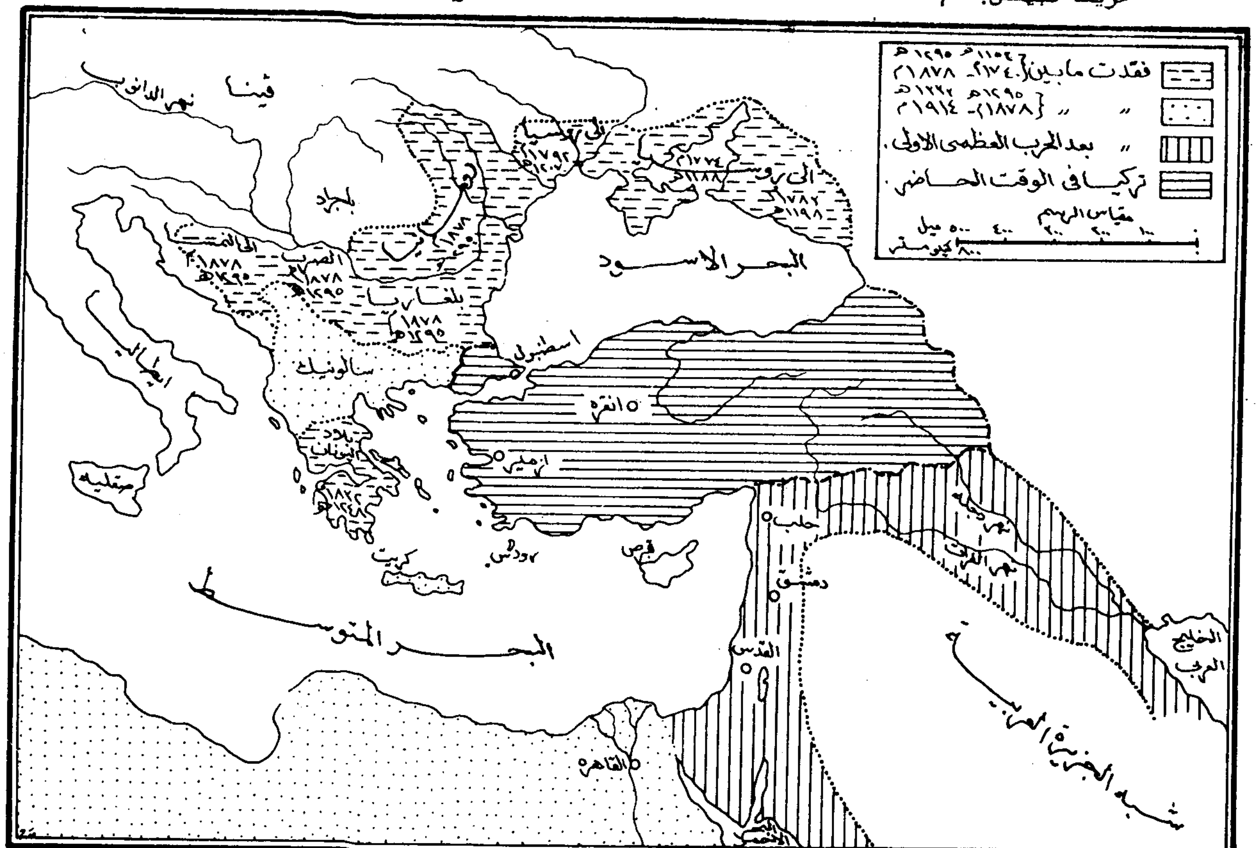
ملحق رقم (٦) :



شكل (٦) ١- هاري وآخرون - الملس التاريخ الاسلامي .

ملحق رقم (٧) :

خريطة تبين: ضعف الدولة العثمانية



١ـ احمد عبد الرحيم مصطفى ـ في اصول التاريخ العثماني .

شكل (٧)

ملحق رقم (٨)

ترحمة وصية (بطرس الاكبر)

نقلا من : ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية

في تاريخ الدولة العلية . (من ص ٢٣٩– ٣٤٣)

﴿ ترجمة وصية بطرس الكبير ﴾

من بطرس الاول الخ الى كل من يخلفني على تخت الروسية التحية فان الله سبحانه وتعالى لم يزل منذ بداية الابد فى اعانتنا وأسدل فضله علينا بما حملني على الاعتقاد بان الامة المسكوبية تتسلط (لا قدر الله) اذا شاء الله على الممالك الاوروباوية والدليل على ذلك أن الامم الاوروباوية قد هرم أكثرهم و اخذ البعض منهم

فى الثلاثى فان أدركت الروسيا تمام قوتها لا شك أنها تتغلب على سائر الممالك لمالها من شوكة الشعوبية وعندى أن هجوم الامم الشمالية على أوربا من أحكام القدرة الالهية التى لابد من نفوذها كما وقع سابقا عند هجوم الامم المذكورة على مملكة الرومانيين فاحيتها بعد اضمحلالها وأنا وجدت روسيا جدولا صغيرا فتركتها نهرا كبيرا وأرجو أنه باعتناء من يخلفنى تصير بحرا عظيما يغطى بمياهه أوربا باسرها ولايتعرض لسيلانه عرمرم فحملنى هذا الاعتقاد على ان أقرر هنا الاصول التى لا بد من اتباعها نظرا الى ادراك هذا المقصد المعتبر وهى

{ أولا }

على ملوك الروسيا ملازمة الحرب لتكون جيوشهم دائما على حال الرياضة والاستعداد فلايكفوا عن الحرب الا لاصلاح شأن المالية وجبر مانقص من العساكر وتربص فرصة الهجوم على الاعداء فالحرب والصلح يتناوبان حسبما تقتضيه الحاجة نظرا الى توسيع دائرة شوكتنا وفلاح البلاد

{ ثانيا }

عليهم أن يجلبوا من سائر الاقطار الاوروباوية العارفين بالفنون الحربية مدة الحرب أما مدة الصلح فعليهم جلب من اشتهر من العلماء لتنتفع الروسيا بما للامم الاخرى من دون خسارة مالها طبيعة

{ ثالثا }

عليهم التداخل فى سائر أحوال الممالك الاوروباوية خصوصا المانيا لقربها الينا

{ رابعا }

التداخل فى أحوال بلونيا وفى انتخاب ملوكها حتى لا تنتخب الا المحب للروسيا وادخال جيوشنا بها لحماية هؤلاء الملوك الى أن يتيسر التسلط على البلاد رأسا فان تعرضت الدول الاخرى تجب الاجابة الى مطالبهم الى أن نقدر على استرجاع ماسلمناه

{ خامسا }

نأخذ من مملكة السويد مايمكن أخذه ونجعل بينهم وبين الدانيمرك عدوانا دائما

{ سادسا }

لايتزوج أهل بيتنا الا بنات ملوك ألمانيا لتأكيد المحبة بين روسيا والمانيا وتكثير وسائل المواصلة بينهما

{ سابعا }

يجب الاعتناء بمحالفة انكلترا لما لها من الحاجة الى أشجارنا لسفنها ولما نستفيده منها نظرا الى اصلاح شأن أسطولنا فضلا عن فائدة تبديل مالنا من الخشب وغيره من النتائج بذهب انكلترا أوما ينشأ منه من كثرة المواصلة بين تجارنا وتجارها

{ ثامنا }

نمتد بقدر الامكان من جهة الشمال وعلى شواطئ البالتيك كما يجب السعى بالامتداد من جهة المغرب وعلى شواطئ البحر الاسود

{ تاسعا }

نقرب الى القسطنطينية والهنود بقدر الامكان فمن ملك القسطنطينية فقد ملك الدنيا فبناء على ذلك ينبغى ملازمة الحرب مع الترك ومملكة الفرس وجعل ترسخانه بشواطئ البالتيك والبحر الاسود وهذا من اللازم لنجاح ماقصدناه وينبغى أيضا تعجيل مملكة الفرس بالاضمحلال وتنشيط التجارة التى كانت بين الشام وجبل قاف فنتقدم الى الهند التى هى مخازن الدنيا وان تحصلنا على ذلك فلا حاجة لنا بذهب انكلترا

(٣١)

{ عاشرا }

يجب السعى فى تأكيد المحبة مع دولة النمسا باسعافها ظاهرا على ماقصدته من التسلط على ألمانيا مع اننا نحرض عليها ملوك ألمانيا سرا

{ حادى عشر }

نشارك النمسا فيما قصدناه من اخراج الترك من أوربا فان ظفرنا بالاستيلاء على القسطنطينية وأظهرت دولة النمسا شيأ من الغيرة لاجل ذلك فاننا نحث دولة من دول أوربا على محاربتها أو نسلم لها جانبا مما تحصلنا عليه ونسترجعه فى أول فرصة

{ ثانى عشر }

نجمع سائر الاغريق ببولونيا وبممالك النمسا ونسعفهم بقدر الامكان بالحماية والدفاع عنهم حتى يكونوا لنا أحباء مابين الاعداء

{ ثالث عشر }

بعد الاستيلاء على مملكة السويد وغلبة الفرس وبولونيا والتسلط على الممالك العثمانية وجمع جيوشنا ودخول أساطيلنا بالبالتيك والبحر الاسود نشرع فى المفاوضة السرية مع فرنسا ودولة النمسا فى قسمة الدنيا بيننا فان ارتضت احدى الدولتين ما نعرضه عليها نستعين بها على قهر الاخرى ثم نهجم عليها ونغلبها ولا يصعب علينا ذلك حينئذ حيث يكون بيدنا ملك المشرق ومعظم أوربا

{ رابع عشر }

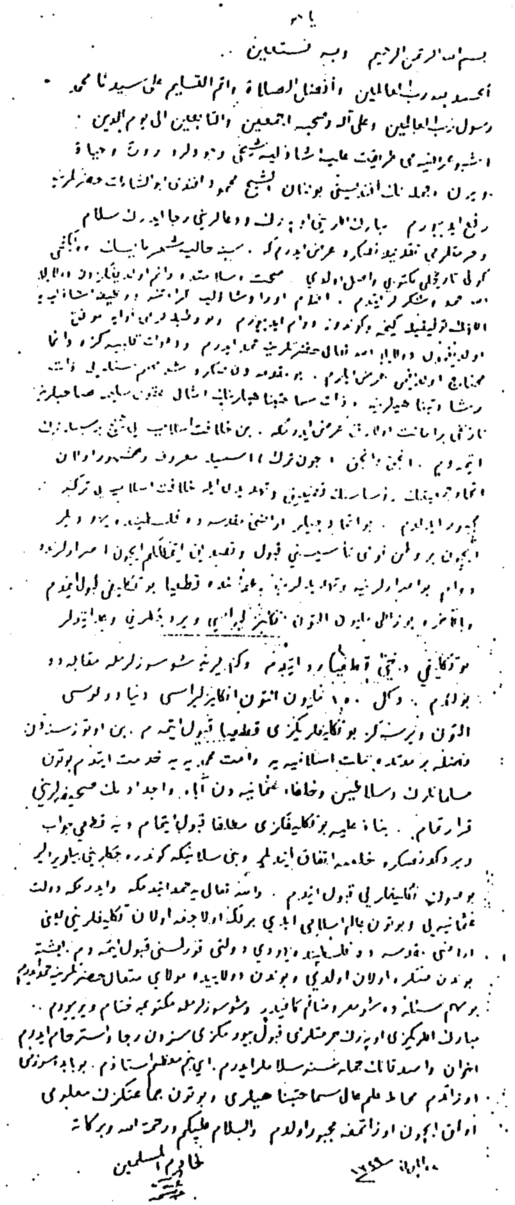
اذا امتنع كلتا الدولتين المذكورتين عما نعرضه عليهما وهذا مما يبعد وقوعه يجب السعى بتحريض احداهما على الاخرى فنتربص الفرصة ونهجم على المانيا بجيوش عظيم وتوجه اسطولين الى البحر المحيط والبحر الاوسط للاستيلاء على

فرنسا وبعد قهر فرنسا والمانيا لايصعب الاستيلاء على باقى أوربا. اه

هذه هى تصورات هذا الامبراطور المشهور فى عصره انه من أهم الرجال من منذ مائتى سنة تقريبا ولقد اهتم خلفاؤه اهتماما زائدا حتى تحصلوا على بعض ماكان يتمناه بتمزيق مملكة بلونيا والاتفاق المستمر مع دولة النمسا والاستيلاء على بعض من ممالك ايران ومن ممالك كانت تحت سيادة الدولة العلية كالقريم والداغستان ولكن كل هذه الامور كلا شئ بالنسبة لهذه الوصية والحمد لله فالدولة العلية التى كان ينظرها بالتأثر الزائد وقرب الاضمحلال موجودة وهى أقوى بضعفين عما كانت عليه اذ ذاك ونسأل الله تعالى أن يمن علينا بتأييدها واستمرار تزايد قوتها انه على كل شئ قدير آمين

وحيث قد أتت الاحوال والظروف بما لم يكن فى الحسبان حتى وجدت دولة ضخمة من أمم ضعفاء فى نظر بطرس الاكبر وهى دولة المانيا فضلا عن نمو دولة انجلترا التى ما كان يحسب بطرس الكبير لها حسابا غير أخذ ذهبها فلذا خلفاء بطرس الكبير قطعوا آمالهم بتنفيذ هذه الوصية ويئسوا منها بالمرة

ملحق رقم (٩) :



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين الى يوم الدين

رسالة السلطان عبدالحميد الثاني من سلانيك الى الشيخ محمود ابو الشامات في دمشق ، يؤكد له سبب خلعه من العرش لرفضه موافقة اليهود على اقامة وطن قومي لهم في فلسطين (نقلا عن : حسان على حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية) ص ٢٥٩.

المصادر والمراجع

أولا: الأرشيف العثماني في اسطنبول:

- الوثائق والمعاهدات :

OSMANLI ARSIVI ISTANBUL:

1- Osmanli Arsivi,Yildiz Esas, Evrākl, Zarf. No.313.
(الخطاب السلطاني لاعلان المشروطية الأولى سنة ١٢٩٤هـ) .

2- Osmanli Arsivi, Yildiz, Esas,Evrakl,Zarf,No.314.
(الخطاب السلطاني في اعادة المشروطية الثانية ١٣٢٦هـ)

3- Osmanli Arsivi,Yildiz Tansnifnamesi, Muahede Name,Namarsi, No.19, 1878

4- Osmanli Arsivi, Yildiz Tansnifnamesi, Muahede Name, Namarsi, No. 171, 1878.

ثانيا: وثائق باللغة الانجليزية :

GREAT BRITAIN PUBLIC RECORD:

5- F.O.: 424/197. No. 91.
Sir, N. O'coner to the Marquess of Salisbury, 24-12-1898.

6- F.O.: 424/198. No. 76.
Sir N. O'coner to M. Salisbury. 25-4-1899.

7- F.O.: 424/199. No. 3/1
From Consul General Drummond Hay to Sir, N. O'conor., 21-6-1899.

8- F.O.: 424/199. No. 3/2 .
From Consul General Durmmond Hay to Sir.,N. O.conor., 15-5-1899.

9- F.O.: 424/200 No.:33 Consul Richards to Sir N.O'conor , 19-2-1900.

10- F.O.: 424/200. No. 55. Sir, N.O'conor to Marguess of Salisbury, 22-5-1900.

11- F.O.: 424/200 No. 55/2. Consul General Drummond Hay to N. O'conor, 1900.

12- F.O. : 424/200. No. 55/3. Consul General Drummond Hay to No. O'conor, 7-5-1900.

13- F.O.: 424/222. No. 2. Mrmarling to Sir. Eduard Grey, 3-1-1910.

14- F.O.: 78/374. No. 247. From Campbell to Palmersston, 21-3-1833.

15- F.O.: 424/37. No. 210. The Marguis of Salisbary to the Earl of Derdy, 13-1-1877.

16- F.O.: 424/39. No. 572. Sir., H., Elliot to the Earl of Derby, 20-11-1875.

ثالثا : الرسائل الجامعية :

١٧- رضوان : نبيل عبدالحي : جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس واستردداه. رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة أم القرى ، تحت الطبع ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٨- الروقي: عايض خزام : حروب محمد علي في الشام ، وأثرها في الجزيرة العربية ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى ، لم تنشر ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

١٩- الوذيناني : خلف دبلان : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى ، لم تنشر ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

رابعا: المصادر العربية :

٢٠- القرآن الكريم .

٢١- آصاف : يوسف . تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبدالوهاب الحابي ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، دار الطباعة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٢٢- ابن بشر: عثمان بن عبدالله . عنوان المجد في تاريخ نجد ، تحقيق عبدالرحمن عبدالله آل الشيخ ، الطبعة الرابعة ، الرياض ، من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٢٣- بك : محمد فريد . تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقي ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٢٤- التونسي : خير الدين . أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، الطبعة الثانية ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٦م.

٢٥- التونسي : محمد بيرم الخامس ، صفوة الاعتبار بمتسوع الأمصار والأقطار ، بيروت ، دار صادر ، طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر ، ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م.

٢٦- الجبرتي : عبدالرحمن : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بيروت، دار الجيل .

٢٧- جوهر : حسن محمد ، عمر دسوقي ، السيد ابراهيم سالم : لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ج ٤ .

٢٨ - حليم : ابراهيم بك : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، الطبعة الأولى ، مطبعة عموم الأوقاف ، ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م.

٢٩- خانكي : عزيز بك : ترك وأتاتورك ، القاهرة ، المطبعة المصرية ، الفجالة .

٣٠- ابن حنبل : أحمد : مسند الامام ، بيروت ، المكتب الاسلامي .

٣١- سركيس : سليم : كتاب سر مملكة ، طبع مصر ، ١٨٩٥م .
٣٢- سرهنك : اسماعيل : حقائق الاخبار عن دول البحار ، الطبعة الأولى ، مصر ، طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١٢هـ.
٣٣- صبري : مصطفى : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ، تقديم مصطفى حلمي ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ، دار الدعوة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٣٤- طوسون : عمر : الجيش المصري ، مصر ، المستقبل ، الاسكندرية ، ١٣٥٥هـ.
٣٥- علي : محمد كرد : خطط الشام ، الطبعة الثانية ، بيروت .
٣٦- بن عيسى : ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ، الرياض ، من منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر .
٣٧- بن غنام : حسين : تاريخ نجد ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، الطبعة الثانية ، الرياض ، مطابع شركة الصفحات الذهبية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٣٨- الفاخري : محمد بن عمر : الأخبار النجدية ، تحقيق عبدا لله يوسف الشبل، الرياض ، من مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود.
٣٩- لبيب : حسين : تاريخ الأتراك العثمانيين ، القاهرة ، مطبعة الواعظ بمصر ، ١٣٣٥هـ/١٩١٧م.
٤٠- المناوي : محمد المدعو بعبدالرؤوف : فيض القدير شرح الجامع الصغير ، الطبعة الثانية ، لبنان ، دار المعرفة للطباعة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

خامسا : المراجع العربية :

٤١- أحمد : ابراهيم خليل : تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، الموصل ، مديرية مطبعة الجامعة .

٤٢- أنيس : محمد : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٥م.
٤٣- أمين : أحمد : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، بيروت ، الناشر : دار الكتاب العربي .
٤٤- البحراوي : محمد عبداللطيف : فتح العثمانيين عدن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٤٥- البحراوي : محمد عبداللطيف : حركة الاصلاح العثماني في عصر محمود الثاني ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٤٦- البطريق : عبدالحميد: التيارات السياسية المعاصرة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٤م.
٤٧- آل بوطامي : أحمد بن حجر : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الثالثة، الرياض ، شركة مطابع الجزيرة ، ١٣٩٣هـ.
٤٨- بيهم : محمد جميل : فلسفة ا لتاريخ العثماني ، الكتاب الثاني ، صدر في ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.
٤٩- بيهم : محمد جميل : العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، بيروت ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
٥٠- التل : عبدالله : جذور البلاء ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٥١- التونسي : محمد خليفة : الخطر اليهودي ، بروتوكولات صهيون ،القاهرة مكتبة دار التراث ، ١٩٥١م.
٥٢- جريشة : على محمد وآخرون : أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي ، دار الاعتصام .

٥٣- جمعه : ابراهيم : الأطلس التاريخي للدولة السعودية ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
٥٤- جمعه : ابراهيم : جداول تحويل السنين الهجرية الى مايقابلها من التواريخ الميلادية . مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
٥٥- جمعه : محمد كمال : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الرياض ، من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
٥٦- الجندي: عبدالحليم : الامام محمد بن عبدالوهاب ، القاهرة ، دار المعارف.
٥٧- الاحسائي : محمد عبدا لله بن عبدالمحسن آل عبدالقادر ، الطبعة الأولى ، الرياض ، مطبعة الرياض ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٩م.
٥٨- الحصري : ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية ، مطبعة الرسالة، ١٩٥٧م.
٥٩- حسن : ابراهيم شحاته : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الاسكندرية ، الناشر : منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨١م.
٦٠- حسون : على : العثمانيون والروس ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٦١- حسون: على: تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٦٢- حسون : على : العثمانيون والبلقان ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
٦٣- حمادة : عابدين : تاريخ الشرق والغرب ، الطبعةالثالثة , دمشق ، المطبعة الجديدة ، ١٩٥٧م.
٦٤- الحوالي : سفر عبدالرحمن :العلمانية ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، دار مكة للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م.

٦٥- حلاق : حسان علي : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، بيروت ، الناشر جامعة بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٦٦- حلاق : حسان علي : دور اليهود والقوى في خلع السلطان عبدالحميد عن العرش ، بيروت ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، ١٩٨٢م.

٦٧- خالدي : مصطفى وفروخ : التبشر والاستعمار ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٣م.

٦٨- خزعل : حسين خلف : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الأولى ، بيروت ، مطابع دار الكتاب ، ١٩٦٨م.

٦٩- الخطيب : عبدالكريم : الدعوة الوهابية ، الطبعة الثانية ، جدة ، دار الشروق ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٧٠- دحلان : أحمد زيني : الفتوحات الاسلامية ، القاهرة ، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.

٧١- درويش : مديحه : تاريخ الدولةالسعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين ، الطبعة الثانية ، جدة ، دار الشروق ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م.

٧٢- الدسوقي : محمد كمال : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٦م.

٧٣- الدسوقي : محمد كمال : تاريخ أوربا الحديث ، القاهرة ، مطبعة النهضة الجديدة .

٧٤- بن دهيش : عبداللطيف عبدالله : قيام الدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٧٥- الرافعي : عبدالرحمن : عصر محمد علي ، الطبعة الرابعة ،القاهرة ، دار المعارف ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٧٦- رجب : عمر الفاروق السيد : دراسات جغرافية المملكة العربية السعودية،الطبعة الأولى ، جدة ، دار الشروق ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٧٧- رمضان : مصطفى محمد : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، دار الوفاء للطباعة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.
٧٨- الرومي : عبدالعزيز زيد وآخرون : أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، القسم الخاص للرسائل الشخصية ، طبع جامعة الامام محمد بن سعود .
٧٩- الريحاني : أمين : تاريخ نجد ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠م.
٨٠- الريس : محمد ضياء الدين : الشرق الأوسط ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٦٥م.
٨١- الرويشد : عبدالله بن سعد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، القاهرة ، الناشر مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
٨٢- الزركلي : خير الدين : شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
٨٣- أبوزهرة : محمد : محاضرات في النصرانية ، الطبعة الرابعة ، الرياض ، طبع الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والدعوة والارشاد ، ١٤٠٠-هـ/١٩٨٠م.
٨٤- زيدان : جورجي : تاريخ الماسونية العام ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٤م.
٨٥- زين : زين نورالدين : نشوء القومية العربية ، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ، الطبعة الثالثة ،بيروت ، ١٩٧٩م.

٨٦- زين : زين نور الدين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النهار للنشر ، ١٩٧٧م.
٨٧- السبكي ، آمال : أوربا في القرن التاسع عشر ، الطبعة الأولي ، جدة ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٨٨- سعيد : أمين : الثورة العربية الكبرى ، بيروت ، دار الكتاب العربي .
٨٩- سعيد : أمين : تاريخ الدولة السعودية ، الرياض ، من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز.
٩٠- سعيد: عبدالستار فتح الله ، الغزو الفكري ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار الوفاء ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٩١- السلمان : محمد عبدالله : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتباتها ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٩٢- سنقرد : داود عبدالعفو: القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية ، الطبعة الأولى ، عمان ، دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٩٣- سليمان : أحمد السعيد : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ، الناشر دار المعارف ، ١٩٧٢م.
٩٤- شاكر : محمود : التاريخ الاسلامي ، العهدالعثماني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٩٥- شاكر : محمود : البحرين ،الطبعةالاولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٩٦- الشناوي : عبدالعزيز محمد : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترىعليها ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٠م.

٩٧- آل الشيخ : عبدالرحمن عبداللطيف : مشاهير علماء نجد وغيرهم ،الطبعة الأولى ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٩٨- الصغير : محمدحسين : المستشرقون والدراسات القرآنية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، مج. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٩٩- صفوت : محمد مصطفى: فتح القسطنطينية ، الرياض ، منشورات الفاخرية .

١٠٠-الصولي : أنيس : أسباب النهضة في القرن التاسع عشر ، حققه وقدم له : عبدالله الطباع ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار ابن زيدون ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٠١-عباس : ابراهيم فؤاد ، الماسونية تحت المجهر ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار الرشاد ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٠٢-عبدالرحيم : عبدالرحيم عبدالرحمن ،ا لدولة السعودية الأولى ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، الناشر دار الكتاب الجامعي ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٠٣- العبود: صالح بن عبدالله بن عبدالرحمن : عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي. الطبعة الأولى ، المدينة المنورة ، من مطبوعات الجامعة الإسلامية ، ١٤٠٨هـ.

١٠٤-العثيمين : عبدالله الصالح : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، حياته . وفكره، الرياض ،ا لناشر دار العلوم ، مطبعة نهضة مصر .

١٠٥-عسه : احمد : معجزة فوق الرمال ، الطبعة الثانية ، لبنان ، المطابع الأهلية اللبنانية ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

١٠٦- عطار : عبدالغفور : محمد بن عبدالوهاب ،الطبعة الثانية ، بيروت ، منشورات مكتبة العرفان، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

١٠٧- عطا : زبيده : بلاد الترك في العصور الوسطى ، الناشر دار الفكر العربي .

١٠٨- عفيفي : نجيب : المستشرقون ، الطبعةالرابعة، القاهرة ، دار المعارف .

١٠٩- عنان : محمد : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ، دار البنين للنشر .

١١٠- علي : أورخان محمد : السلطان عبدالحميدالثاني ، حياته ، وأحداث عهده ، الطبعة الأولى ، الكويت ، دار الوثائق ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

١١١- عليان : محمد عبدالفتاح : أضواء على الاستشراق ، الطبعة الأولى ، الكويت ، الناشر دار النشر للطباعة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١١٢- عمر : عمر عبدالعزيز : تارخ المشرق العربي، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١١٣- غربال : محمد شفيق : منهاج مفصل لدروس في العوامل االتاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم ، القاهرة ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦١م.

١١٤- غربال : محمد شفيق : محمد علي الكبير ، القاهرة ، دار الهلال .

١١٥- الغنام : سليمان محمد : قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ، الطبعة الأولى ، جدة ، منشورات تهامة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١١٦- ابوغنيمة : زياد : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، الطبعة الثانية ، عمان ، دار العرفان للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١١٧- أبوغنيمة : زياد : السلطان المجاهد الفاتح ، فاتح القسطنطينية ، الطبعة الثانية ، عمان ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١١٨- الفاتح : زهدي : لورنس العرب ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
١١٩- فرج : السيد أحمد : جذور العلمانيية ، الطبعة الثالثة ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٢٠- فهمي : عبدالسلام عبدالعزيز : فتح القسطنطينية ، دار الكاتب العربي ، الهيئة العامة للتاليف والنشر ، ١٩٦٩م.
١٢١- القطان: أحمد وآخرون : امام التوحيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الأولى ،ا لكويت ، مكتبة السندس ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٢٢- قطب ، سيد : المستقبل لهذاالدين ، الطبعة السابعة ،القاهرة ، دار الشروق ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٢٣- قطب : محمد ، واقعناالمعاصر ، الطبعة الرابعة ، جدة ، الناشر: مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٢٤- قطب : محمد علي : يهودالدونمة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دارالقلم ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٢٥- كشك : محمد جلال : الغزو الفكري ، الطبعة الرابعة، المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
١٢٦- كشك : محمد جلال : السعوديون والحل الاسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٢٧- كيلاني : اسماعيل : فصل الدين عن الدولة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
١٢٨- ماضي : محمد عبدا لله :النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، الطبعة الثانية ،ا لقاهرة ، الناشر دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

١٢٩- محمود : علي عبدالحليم : الغزوالفكري والتيارات المعادية للاسلام من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الاسلامي الذي عقدته جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، عام ١٣٩٦هـ . مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٣٠- المختار : صلاح الدين : تاريخ المملكة العربية السعودية ماضيها وحاضرها ، بيروت ، منشورات مكتبة الحياة .

١٣١- مداح : أميرة : العثمانيون والامام القاسم بن محمد بن علي في اليمن ،الطبعة الأولى ، جدة ، من مطبوعات تهامة ،١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٣٢- بن المرجه : موفق : صحوة الرجل المريض أوالسلطان عبدالحميد الثاني والخلافة الاسلامية ،ا لكويت ، مؤسسة صقر الخليج ، ١٩٨٤م.

١٣٣- المسلم : محمد سعيد: ساحل الذهب الأسود ، الطبعة الثانية ، بيروت ،من منشورات درا مكتب الحياة ، ١٩٦٠م.

١٣٤- مشهداني : عبدالكريم :العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، الطبعة الأولى ، منشورات المكتبة الدولية ، الرياض ، ومكتبة الخافقين ، دمشق ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٣٥- مصطفى : أحمد عبدالرحيم : في أصول التاريخ العثماني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الشروق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٣٦- مكاريوس : شاهين : تاريخ الماسونية العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٨٩٧م.

١٣٧- منسي : محمود صالح : حركة اليقظة العربية ، الطبعة الثانية ، ملتزم الطبع والنشر ، دار الفكر العربي، ١٩٧٨م.

١٣٨- المودودي : أبوالأعلى : نحن والحضارة الغربية ، بيروت ،مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٣٩- مؤنس : حسين : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، نشر لجنة الجامعيين لنشر العلم .
١٤٠- ملا : محمد قربان نياز : ا لسلطان عبدالحميد الثاني :الطبعة الأولى ، مكة . مكتبة المنارة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
١٤١- نخله : محمد عرابي : تاريخ الاحساء السياسي ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
١٤٢- الندوي : أبوالحسن : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الطبعة الثالثة،الكويت ، دار القلم ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٤٣- النعيمي : أحمد نوري : أثر الأقلية ا ليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، بغداد ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٢م.
١٤٤- نعنعي : عبدالمجيد : أوربا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣م.
١٤٥- نوار: عبدالعزيز سليمان : الشعوب الاسلامية ،بيروت ، دار النهضةالعربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٣م.
١٤٦- نوار: عبدالعزيز سليمان ، وعبدالحميد نعنعي : التاريخ المعاصر أوربا من الثورة الفرنسية الى الحرب العالمية الثانية ، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
١٤٧- هريدي : محمد عبداللطيف : الحروب العثمانية الفارسية ، الطبعة الأولى، القاهرة ،دار الصحوة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
١٤٨- وحيده : صبحي : في أصول المسألة المصرية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٠م.
١٤٩- وجدي : محمد فريد : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة " تنظيمات " الناشر جهان .

سادسا : المصادر الأجنبية المترجمة :

١٥٠-اتلخان : جواد رفعت : أسرار الماسونية ، ترجمة نورالدين رضا الواعظ وآخرون . ا لقاهرة ، الناشر مجلة الأزهر ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٥١-ارنولد : سرتوماس . و . أ. الدعوة الى الاسلام : ترجمة حسن ابراهيم وآخرون . الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠م.

١٥٢-اوزتونا : يلماز : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : عدنان محمود سليمان ، تركيا ، استانبول ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، ١٩٨٨م.

١٥٣-الثاني : السلطان عبدالحميد : مذكراتي السياسية ، الطبعة الثانية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٥٤-مذكرات السلطان عبدالحميد : ترجمة محمد حرب عبدالحميد ، الطبعة الأولى ، الكويت ، دار الوثائق، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٥٥-جودت باشا : أحمد : تاريخ جودت : ترجمة عبدالقادر أفندي الدنا ، بيروت ، طبع مطبعة جريدة بيروت ، ١٣٠٨هـ.

١٥٦-ستودارد : لوثر ، و ب : حاضر العالم الاسلامي ، ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب ارسلان ، الطبعة الرابعة ،بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م.

١٥٧- طوران : مصطفى : أسرار الانقلاب العثماني ، ترجمة كمال خوجه ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ،دار السلام ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٥٨-المانع : محمد : توحيد المملكة العربية السعودية ، ترجمة الدكتور عبدالله الصالح العثيمين ، الطبعة الأولى ، الدمام ، طبع في شركة مطابع المطوع ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٥٩- مذكرات مدحت باشا : تعريب يوسف كمال بك حتاته ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة هندية بمصر ، ١٣٢١هـ/١٩١٢م.

سابعا: المراجع الأجنبية المترجمة :

١٦٠- انطونيوس : جورج : يقظة العرب ،تعريب على حيدر ، دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

١٦١- بروكلمان : كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي ، الطبعة السادسة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٤م.

١٦٢- بوكاي موريس : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، الطبعةالرابعة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧م.

١٦٣- توينبي : أرنولد : تاريخ البشرية، نقله الى العربية نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م.

١٦٤- جب : هاملتون : المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبدالرحيم مصطفى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م.

١٦٥- جرانت : أ.ج: وهارولد تمبرلي : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ١٧٨٩م-١٩٥٠م ، ترجمة بهاء فهمي ، مراجعة الدكتور احمد عزت عبدالكريم . القاهرة ، الناشر مؤسسة العرب ، ١٩٨٥م.

١٦٦- دوفرجيه : موريس : دساتاير فرنسا : ترجمة أحمد حسيب عباس ، القاهرة، الناشر: مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية ، الحلمية الجديدة .

١٦٧- رامزور : ارنست . أ. : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، بيروت ، نيويورك ، نشر مع فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ، ١٩٦٠م.

١٦٨- شاتليه : أ.ل. : الغارة على العالم الاسلامي ، ترجمة محب الخطيب ومساعد الباقي ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
١٦٩- شيني .ل.ج .: تاريخ العالم العربي ، ترجمة مجدالدين حنفي ناصف ، القاهرة ، الناشر دار النهضة العربية .
١٧٠- لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية ، ترجمة عفيفه البستاني ، موسكو، دار التقدم .
١٧١- لويس : برنارد: استنبول ، تعريف سيد رضوان على ، الطبعة الثانية ، جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٧٢- لويس : برنارد : الغرب والشرق الأوسط ، تعريف الدكتور نبيل صبحي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، المختار الاسلامي للطباعة والنشر ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
١٧٣- عزالدين : نجلاء : العالم الغربي ، ترجمة محمد عوض ابراهيم وآخرون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، الناشر دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٢م.
١٧٤- وتلن : الما : عبدالحميد ظل ا لله على الأرض : ترجمة راسم افندي ، القاهرة ، ١٩٥٠م.
١٧٥- ولز:هـ.ج.: معالم تاريخ الانسانية ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٧م.
١٧٦- هازارد : هاري وآخرون : أطلس التاريخ الاسلامي ، ترجمة ابراهيم زكي خورشيد . القاهرة . مطبعة برنستون ومكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٤م.

ثامنا : المصادر التركية :

أ- باللغة العثمانية :

١٧٧-باشا : كامل : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، تأسس دولت عليه دن جنتكمان سلطان عبدالحميد خانك اواخرسلطنته قدر كذران ايدت زمانه عائدر . مطبعة احمد احسان ، ١٣٢٨هـ.

١٧٨-راسم : أحمد : رسمي وخريطة لي عثمانلي تاريخي . برنجي طبع استانبول ، وناشري اقبال كتبخانسي ، صاحبي حسين ، شمس مطبعة سي ، ١٣٢٨هـ.

١٧٩-هارد : أ.د. انكه : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي ١٨٢٦-١٨٨٢ مترجمي : على رشاد . طابع وناشري :صاحبي الياس . اسطنبول ١٣٢٨هـ.

ب - باللغة التركية :

180- GEVAT : ALI : Ikinci Mesrutiyetin ilani ve ctuzbir mart Hadisesi Abolu ehamid in son mabeyn Baskatibi Ali cevat bby'in Fezlekasi Yayina Hazi,Layay: Faikresit Turic Taria Kurumu Basimevi,Ankara,1985.

181- Develliogla : Ferit: Osmanlica Turkce Ansiklopedik Lugat . مادة (استانة) .

182- SHAW : Stanford . J. Ezolkural Shaw. Osmanli Imparatorlligu ve mobern turkiye Stunkcsi: Mehmet Har Manci e yeyiular, I Baski, Istanbul . 1983.

تاسعا ": المصادر والمراجع باللغة الانجليزية :

183- Davison Roderic . H. : Turkey , A Short History , The Eother Press, Walkington , Beverley , England, 1981.

184- Davis : Willam Stearns : A Short History of the Near East .

185- Inalcin : Halil: The Ottman Empire. Weiben Fel and Nicolsor , Lonson .

186- Morely : John : The Life of Willim Ewart Glad Stone. Vol.1. 1809-1859, London , 1903.
187- Maxwell : Robert , Pergamon Worldatlas, Oxford, 1968.
188- Parry : V.J. A History of The Ottoman Empire , Cambridge University Press, Camridge , London, New York , Mel Bourne.

عاشرا : الدوريات والمجلات العلمية :

١٨٩-البحراوي : محمد عبداللطيف : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، العدد الثاني ،السنة الحادية عشرة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
١٩٠-البحراوي : محمد عبداللطيف : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، العدد الرابع ، السنة الثالثة عشر ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
١٩١-الحقيل : عبدالله : الدعوة الاصلاحية في مواجهة التحديات ، مقال منشور في الكتاب السنوي الثالث ، طبع الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٩٢-الدسوقي: محمد كمال : أهمية الحجاز في مطلع العصور الحديثة ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، العدد الثاني ، السنة الثانية ١٣٩٦هـ/١٣٩٧هـ.
١٩٣-الدسوقي : محمد كمال : العثمانيون وقراصنة رودس ، مجلة البحث العلمي ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة ، العددالثاني ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٩٤-ابن دهيش : عبداللطيف عبدا لله : أحوال شبه الجزيرة العربية قبل قيام الدولة السعودية الأولى ، مجلة العرب ، تصدر عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ج١ ، ٢ ، س ٢٢ ، رجب /شعبان ١٤٠٧هـ.
١٩٥-رئيس التحرير : الوثائق تتكلم ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، العدد الثاني، السنة الأولى ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
١٩٦-المقدسي : روحي بك الخالدي : الانقلاب العثماني ، مجلة الهلال ، القاهرة ، الجزء الثاني ، السنة السابعة عشر ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.
١٩٧-نورس: علاء موسى كاظم : مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ، العدد ٢٥،٢٦، ١٩٨٢م.
١٩٨-هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، مجلة الهلال ، القاهرة ، الجزء الثامن ، السنة السابعة عشرة ، ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م.
١٩٩-هيئة الأخبار :الرجل المريض دعاية يهودية ، مجلة التضامن الاسلامي ، السنة الرابعة والأربعون ، الجزء السادس ، ذي الحجة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٢٠٠-هيئة التحرير : سليمان الكبير ، مجلة الهلال ،ا لقاهرة الجزء الثاني من السنة الأولى ، ١٣١٠هـ/١٨٩٢م.
٢٠١-هيئة التحرير : عبدالحميد الثاني في أول شبابه قبل توليه الملك ،القاهرة ، مجلة الهلال ، الجزء التاسع ، السنة ا لسابعة عشر ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.
٢٠٢-هيئة التحرير : مجلة الدعوة السعودية ، العدد ٥٧٠ ، ٢٥ شوال سنة ١٤٩٦هـ/١٩٧٦م.

فهرس الموضوعات

بَيْدَ أنّ أوروبا لم تعرف شيئاً عن الإسلام فكانت في هذا ضحيّة رجال الدين من جهة، والشعراء والمؤرخين من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة تقصير المسلمين في الجانب الدعوى الذي يتطلب أول ما يتطلب معرفةً بلغات القوم ودراسة علمية للأساليب المناسبة في التعامل معهم.

وقد ظل موقف أوروبا يتذبذب بين الدعوة إلى القضاء عسكرياً على المسلمين وعدم إضاعة الوقت في أي أمر يمكن أن يعرقل هذا الهدف والدعوة إلى حربهم حرباً ثقافية، وقد امتد هذا الأمر من بعد الحروب الصليبية إلى بداية ما اصطُلح عليه بعصر النهضة الأوروبية، ويرىٰ «سوذرن» أنّ النصف الثاني للقرن الثاني عشر كان بدايةً لمرحلة التعقل، ومن الداعين لهذا الاتجاه «أوتو فون فرايزنغ Otto Von Freising الذي صَحّح بعض المعلومات الخاطئة في أذهان الأوروبيين عن الإسلام فقرر خطأ المزاعم اللاهوتية التي تدّعي أنّ رئيس أساقفة «سالزبورغ» قتلة المسلمون في القاهرة عام ١٠٠١م لأنه أقدم على تدمير الأصنام التي يعبدها المسلمون في زعمهم فقال: «إن المسلمين يعبدون إلهاً واحداً ولا يَذمّون المسيح.. وأما عيبهم ـ في نظره ـ فهو أنّهم يُنكرون أُولهية المسيح ويؤمنون بأنَّ محمداً رسول من الله...

وقد أشرنا من قبل إلى أنّ «فلهلم» قد أفاد من اتصاله بالمسلمين ومناظرتهم في عام ١٩٥٤م، فعرف أن المسلمين لا يَعْبدون محمداً ﷺ، بل يَعْبدون إلهاً واحدا، وأن وجه الشّبه بينهم وبين النصارى قائم من وجه كثيرة[٢٤].

الاهتمام الأوروبي بالعربية بعد مؤتمر «فينا» ١٣١٢م:

ولما جاء القرنُ الثالث عشر أدرك «روجر باكون Roger Bacon» ضرورة الاتصال ثقافياً بالحضارة الإسلامية وضرورة تعلم اللغة العربية بل التسلح بأفكار المسلمين وطرائقهم في المحاجة للردّ عليهم وقد ظل هذا الاتجاه يَتنامىٰ إلى أن عُقِد مجمع

(٢٤) انظر «فوك» (الدراسات العربية) ص ١٢٠ـ١٢٨.

فينا عام ١٣١٢م الذي أوصى أنْ تُدَرّس العربيةُ في كُبرى المراكز العلمية الأوروبية: باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينون وسلامنكا وتُعَدّ هذه الخطوة بداية المحاولات الأوروبية رسمياً للاهتمام بالعربية وفضلاً عن ذلك فيمكن أن يُعَدَّ هذا المَجْمع نقطةَ تحوّلٍ أو انتصاراً للاتجاه الأوروبي الداعي إلى حرب المسلمين ثقافياً.

ولكن هذه المحاولات بدأت متعثرة، إذْ بَيْن الحين والآخر كان بعضهم يقرع طبول الحرب والدعوة إلى إبادة المسلمين، ومن هؤلاء لول Lull ويعقوب الفيروني Jakop Von Verona والفلورنسي ريكولدو دا مونتي كروتشي Recoldo de montecroce في أواخر القرن الخامس عشر زاد الجهل بالمسلمين ولغاتهم وفكرهم حتى أن يوحنّا السيغوفي Johannes Von Segovia ، بحَث هو بنفسه في أوروبا طُولاً وعَرْضاً لكنّه لم يَعْثر على أحد يعرف لغة القرآن ليراجع ترجمته له، وهكذا بَقِيَت دون مراجعة أخيرة»(٢٥).

وعلى أيّ حال فإن تفكير السيغوفي في ترجمة القرآن كان جزءاً من مُخَطَّط يُراد من خلاله أن تَتَجاوز الحربُ الثقافية ضِدّ المسلمين صورتها التقليدية القائمة على الانفعال الخيالي، والاستعاضة عن ذلك بالاتصال بالأصول الإسلامية.

دواعي الاهتمام بالعربية في عصر النهضة الأوروبية:

ولكن حاجة الأوربيين إلى الخروج من دائرة وسائلهم الثقافية التي لم تَخْرج بهم كثيراً من قبل عن اللغة اللاتينية وبعض لهجاتها قد ازدادت بل أمْلتها عليهم ثقافتهم النصرانية ذاتُها، فقد تصدّعت الوحدة الأوروبية التي كانت الكنيسة الكاثوليكية رَمْزاً لها. . وكان من أسباب تصدعها في القرن السادس عشر اختلافهم في صحة النصوص التي تتشبث بها الكنيسة الكاثوليكية. . وكان البروتستانت

---

(٢٥) «سوذرن»، ص ١٣٤، وانظر «دانيل» ص ٢٧٨.

بزعامة مارتن لوثر الألماني، في منتصف القرن السادس عشر، من أهم الثائرين على الكنيسة، وقد رأى هؤلاء أنّه لا بُدَّ لهم من العناية باللغات السامية التي وردت فيها النصوص النصرانية المقدسة كالعبرية والسريانية والحبشية. . ولَمَّا كانت هذه اللغاتُ مُندثرةً غامضةً في كثير من مفرداتها وتراكيبها فقد بات لزاماً عليهم أنْ يستعينوا على معرفة ألغازها وغوامضها بالاستئناس بالعربية، وهكذا أصبحت العربية ـ لغة عدوهم الإسلامي ـ مُعيناً لهم في معرفة نصوص كتبهم المقدّسة، وقد كانت إلى ذلك الوقت لغة مُهمة علمياً ـ فقد كانت وعاءً لعلومٍ مختلفة كالطب والكيمياء. . وأهمُّ من ذلك بالنسبة للأوروبيين أنّها حَفِظت لهم الفلسفة اليونانية التي تُرْجمت إلى العربية، وفي هذا يقول «آربري»: «كان من فخارها (أي: العربية) أنّها صارت الواسطة التي نُقِلَ بها أرسطو وجالينوس اللذان كانا قد آلا إلى النسيان»[٢٦].

وقد خَبا الصوت العسكري الداعي إلى إبادة المسلمين بالقوة في عنفوان قوة المسلمين إبان الحُكم العثماني، فأقصىٰ ما يُمكن أنْ يَطمح فيه بلد أوروبي كالنمسا أن تفكّر في الدفاع عن عاصمتها «فينا» التي حاصرها الجيش العثماني مرتين سنة ١٥٢٩م وسنة ١٦٨٣م. وقد كان سبيل النمساويين في تعاملهم مع الأتراك أن يلتمسوا سُبل المواجهة الثقافية، وفي هذا المعنى تقول المستشرقة الألمانية أنّي ماري شمل Anne marie Schimmel ولذا وجب على النمساويين الاهتمامُ بعادات جيرانهم الأقوياء (تعني الأتراك) وبطرق حياتهم وكذلك بلغتهم، فحُفرت حروفٌ عربية في خشب لأجل الطبع ـ لأول مرة ـ في سنة ١٥٥٤م في فينا»[٢٧] وقد أكد «ألبرت ديتريش» الظروف التي أمْلت على الأوروبيين ضرورة المواجهة الثقافية التي استلزمت معرفة اللغة بوصفها سلاحاً مهماً في هذا المجال، حيث قال: «وعندما تَوَغّل الأتراك حاملو لواء الإسلام وقتذاك، في قلب أوروبا، شعرت أوروبا

(٢٦) «آربري»، ص ١٢.

(٢٧) «شمل»، ص ٢٧.

بضرورة دراسة لغات العالم الإسلامي، لتلك الأسباب السياسية»[٢٨]، كيف لا وقد أحْكم المسلمون قبضتهم على البلقان وبلاد الصرب، وقد وصلوا في ١٤٦٠م إلى تخوم أوروبا الغربية.

وفي الوقت الذي كان فيه الأوروبيون يستعدون استعداداً متنامياً للمواجهة الثقافية مع المسلمين ظلّ المسلمون يُمْعنون في الاعتزاز بقوتهم العسكرية دون أنْ يَستعدوا الاستعداد الكافي من الناحية الثقافية، لا لنشر دعوتهم، ولا لتلقّي الخطر الذي يحيق بهم. وقد حقّقت اللغات الأوروبية في العصر الحديث مكاسب كبيرة إذ أخذت تستوعب الحضارة العلمية المادية المتفجرة في أوروبا وتنتشر حيث امتدت الكشوفات الجغرافية[٢٩] والشركات الاستعمارية في أمريكا وأفريقيا وآسيا واستراليا، وأخذت الأسباب المختلفة تتسابق في خدمة هذه اللغات حتى خرجت عن أُطرها المحلية لتصبح حية عالمياً.

ومما ترتّب على هذا أن بَدأ يَتقلّص نفوذ اللغة العربية، بَعْدَ أن كانت كما قال عنها المستشرق الإنجليزي «وليام بدويل W. Bedwell» (١٥٦١-١٦٣٢م) «إنها لغة الدين الوحيدة، وأَهَم لغة للسياسة والعلم من الجزائر السعيدة إلى بلاد الصين»[٣٠].

وقد ازدادت حاجة أوروبا في القرن السابع عشر إلى أن تَعْرف العربية معرفةً أوثق، تتناسب ومصالحها في الشرق، فقد آن الأوان للاتجاهين السابقين أن يمارسا نشاطهما بطلاقة. الاتجاه الذي كان يدعو إلى استخدام القوة العسكرية في التعامل مع الشرق، وقد تمثل هذا في الاستعمار. والاتجاه الذي يدعو إلى الحرب الثقافية ويتمثل هذا في التنصير، وقد واكب الاتجاهين رغباتٌ في تحقيق المكاسب

---

(٢٨) «ديتريش». ص ٨.

(٢٩) «آربري»، ص ١٠.

(٣٠) «لويس» (تاريخ اهتمام الإنجليز) ص ٩.

التجارية التي تصارَع عليها في هذا القرن كلٌّ من البرتغال والروس ثم الإنجليز والفرنسيين وغيرهم من الدول الأوروبية، وقد أصبح الاستشراق في هذا القرن مدعوماً بالمصالح السياسية الاستعمارية، بل إنّ «بعض رواده كانوا من الدبلوماسيين الذين استفادوا من إقامتهم في الشرق الأدنى، ليعمّقوا معرفتهم بالعربية والتركية»[٣١] وأضف إلى ذلك المنصرين ورجال الاقتصاد، يقول «آربري»: «فبينما التاجر يَسعى في تحصيل النفع المادي من علاقاته بالشعوب الشرقية إذ بالمبشر الإنجيلي يسبقه تارة أو يَتْبعه حثيثاً تارة أخرى، وقد امتلأ حماسة شريفة لأنْ يُحَقِّق أمر معلمه المسيح . . وقد وجد أن مما يساعده على تحقيق ما يرمي إليه في الخلاص الروحي أن يتعلّم ما للجماعة التي سيلقاها من لغة وطرق تفكير»[٣٢].

حاجة أوروبا للعربية في العصر الحديث لاقتحام الشرق عسكرياً وثقافياً:

وهذا يَعْني أنْ تصالحت وجهات النظر الغربية ـ رغم ما بينها من خلاف ـ على اقتحام الشرق عسكرياً وثقافياً ـ بل أصبح مَن كانوا يختصمون عبر القرون الطوال الخوالي على أُسلوب التعامل مع المسلمين يَعْضُد بعضهم بعضاً. وأمَّا الخلاف بينهم فلا يتجاوز أن يكون خلافاً على المصالح الذاتية لكل قطر أوروبي وبخاصة بَعْد أن تقطَّعت عُرىٰ الوحدة الأوروبية القائمة على الدِّين، وحلَّت محلها الوحدة القائمة على أساس قوميٍ، سياسياً، دينيٍ، عقيدةً. وهذا يعني أنّ التنافس بين دولة أوروبية وأُخرى يمكن أن يُفَسَّر سياسياً، ولكنّ من وراء هذا التنافس تعاوناً في مجال آخر، وهو الشعور الديني والحضاري الذي يُفَسر لنا مثلاً كيف انتشى رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٧٩٩م طرباً لانتصار أَلَدِّ خصومه نابليون بونابرت، فإنَّ نابليون استطاع أن يَغْزُو مصر وبلاد الشام، تلك المعاقلَ الإسلامية التي استعصت على

(٣١) «بلاشير»، ص ١٧.

(٣٢) «آربري»، ص ١٤.

أوروبا قروناً طويلة، وقد ربط المؤرخ الإنجليزي «هربرت فيشر» إعجاب بريطانيا بما حَقَّقه نابليون في الشرق بأهداف الحروب الصليبية، قال «فيشر» بعد أن وَصَف العداء المستحكم بين فرنسا وبريطانيا بسبب انتصارات فرنسا في أوروبا: «ولقد أتاحت له (لنابليون) الحربُ التركيةُ فرصةً نادرة غيرَ مرتقبة كانت ذاتَ أثر في مجرى حياتـه، ذلك أنّه إذا عُدَّ غزو مصر عَمَلاً فروسياً أخّاذاً فإن السحر الذي صحب الحملة السورية كان أعْظَم وَقعاً وأكثر خيالاً وروعة، فإن الفرنسيين في أرض الوطن - مهما كان مَبْلغ سخريتهم بالبابا واستهزائهم بالقساوسة كانوا يطالعون في نَشْوة وفَخار بلاغات القائد الفرنسي الشابّ الذي استولى على فلسطين واتّخذ مركزاً له دَيْرَ الناصرة وقرأ على ضباطه التوراة تحت سماء سوريا، في تلك المواطن التي قَدّسها المسيح وحواريوه.. ومجدتها في عيون الفرنسيين فِعالُ الحروب الصيليبية الأولى ومغامراته، فإن استرجاع فلسطين من الأتراك - هذا الحادث الذي طَرب له حتى رئيس وزراء بريطانيا قُبيل نهاية الحرب العالمية الأولى اسْتُقبل استقبالاً حافلاً من مواطني القديس لويس الخاضعين لنير حكومة الإدارة الصارم الخسيس»(٣٣).

إنّ في هذا النص معاني كثيرة، منها: الإشارة إلى الخلاف الحادّ بين السلطة الحاكمة في فرنسا «حكومة الإدارة» في باريس - ورجال الدين في فرنسا وروما، ولكن هذا الصراع يَذوب أمام نَشوة الانتصار على المسلمين، ومنها الإشارة إلى الـروح النصرانية التي تَقْبع في صدور أصحاب الاتجاه العلماني القومي، وهذا يتمثل في سلوك نابليون الذي قرأ التوراة استشعاراً بالبهجة لأنّه «استرد» فلسطين، ومن المعلوم أن نابليون هذا هو الـذي كان يصـطحب معـه فريقـاً ضَخْمـاً من المستشرقين الذين كان لهم الأثر الأكبر في إنجاح مقاصد الحملة(٣٤).

---

(٣٣) «هربرت فيشر»، ص ٥٥.

(٣٤) انظر في هذا ما كتبه «رئيف خوري» في كتابه: «الفكر العربي الحديث» حول الحملة الفرنسية وما أُعِدَّ لها ودَوْرها الخطير في الشرق.

إن في وسع المرء أنْ يُفَسِّر كثيراً من خصائص المدارس الاستشراقية في العصر الحديث في ضوء وقوفه على مسيرة الخطَّين المتباينين اللذين واكبا مسيرة الظاهرة الاستشراقية عبر تاريخها الطويل: الخط الذي يَدعو إلى الحرب العسكرية، والخط الذي يَدعو إلى الحرب الثقافية، ونقاط الافتراق والالتقاء بينهما، فالجامع بين جوهري الخطين أنهما يتجهان نحو «الحرب» والانتصار للروح النصرانية، ويتمثل هذا أكثر ما يتمثل في الاستشراق الألماني الذي سَعى منذ عصور سحيقة إلى التركيز على الجوانب العقدية والأصول النصيّة، دراسةً ونقداً، أكثر من سواها.

وأما الخط الثاني فيمثله الاستشراق الأسباني والاستشراق الإيطالي أكثر من سواهما، وإن كان المَرْء لا يَعْدم وجودَ شواهد لكلّ نَوع من أنواع الاستشراق مبثوثةً فيما اختص به النوعُ الآخر، فليست الخطوط هنا خطوطاً هندسية بل هي خطوط تُمَثِّل مسيرة تصرفات بشرية، والاتجاهات البشرية يصعب أن تُحَدَّ حدوداً لا تترك مجالاً للتداخل.

ولعل ممارساتِ المدارسِ الاستشراقية السابقة على سبيل المثال: الألمانية، والاسبانية، والإيطالية، تعكس لنا بوضوح ما بينها من فوارق تَبْدو آثارُها في نوع اهتماماتها، وفي طبيعة ممارساتها في البلاد الإسلامية، وأمّا الاستشراق البريطاني، والفرنسي فقد تمثَّل فيهما أكْثر من غيرهما خصائص الخطَّين العريضين، ولذا فإنَّك ترىٰ أن الاستعمار البريطاني ـ وهو في هذا أكثرُ من الفرنسي وضوحاً ـ يُعمل سيْفي الحرب الثقافية والعسكرية معاً، وقد كانت الظاهرةُ الاستشراقية على أيّ حال تُمَثِّل الجذور الأيديولوجية للاستعمار الحديث بكل دوافعة النفسية كالسيطرة الاستعلائية، والرغبة التنصيرية، والمصالح الاقتصادية.. وغيرها.

فالمدارس الاستشراقية قد تَفْتَرق افتراقاً توضِّح حدوده المصالحُ السياسية لكلّ

بلد أوروبي. ولكنّ هذه الحدود تكاد تُلْغى حين نجدُ أنَّ الروح النصرانية تجمع القَدر الأكبر من المستشرقين الغربيين، وقد فسَّر لنا هذا من قبل كيف ابْتَهج البريطانيون بانتصارات خصمهم نابليون، وهو يُفَسر أيضاً هذا التكامُل بين المدارس الاستشراقية رغم ما بينها من اختلافات سياسية أو قومية أو سوى ذلك، وقد أشار إلى هذا المفهوم المستشرق الأمريكي «بيتر غران» حيث أكَّد أن وراء التنسيق القُطْري أو الوطني الذي يُنظِّم أعمالَ المستشرقين أهدافاً تجعل الاستشراق عالمياً، بل تجعل المستشرقين جَبْهة واحدة متلاحِمَة تلاحماً يفوق تلاحُم من انصبّت جهودُهم في البلد الواحد على دراسة تاريخ ذلك البلد، قال: «بيتر غران»: «ويَظْهر لأول وَهْلَة أنّ مدارس البحث الاستشراقي تَنْتَظم وَفْقاً للقطر أو المنطقة التي يقع فيها القُطر وأنَّه تربط هذه المدارس ـ على نحو سائب ـ العديدُ من المجالاتِ المغمورة والمؤتمرات السنوية. وتُرِيْنا نظرة أدق على كل حال أنّه ليس ما يُوحّد أو يفرّق الأفراد أو المجموعات الصغيرة هو الخطوط الوطنية على وجه التخصيص. وبالمقارنة بباحثي العديد من فروع التاريخ الأخرى فإن المستشرقين أكْثرُ عالمية منهم. وفضلاً عن ذلك.. يعرف الكثير من الباحثين (يعني المستشرقين) بعضهم البعض عن طريق التدريب اللغوي أو عن طريق المدرسين والطلبة المشتركين ـ وتستمر هذه العلاقات مدى العمر وهي أكثر أهميّة من الروابط المشابهة التي تَنْشأ بين الأساتذة والطلبة الذين يتخصصون في تاريخ الولايات المتحدة وأوربا»[٣٥].

وربما لا تكون الروح النصرانية وراءَ كل هذا التنسيق الذي يجمع المستشرقين، فقد تَعدَّدت مدارسُهم الفكرية وأوطانهم ومناهجهم وأساليبهم، بَيْدَ أنّهم في حاجة ـ مَهْما بلغ هذا التعدُّد والتسابق ـ إلى التنسيق الذي يرمي إلى إرغام الشرق الإسلامي على التغيير فكرياً، والتبعية الاقتصادية التي تَخْدم الغَرْب بالدرجة الأولى.

(٣٥) «بيتر غران»، ص ٦٤.

ولا يتنافى هذا التحليل في عمومه مع وجود حالات فرديّة تَبْدو غير واعيةٍ على هذه الأهداف والمرامي، أو قد تبدو ـ ولو أمامَ نفسها على الأقل ـ محايدةً مُتجرِّدة ولكنّها قد لا تَسْلَم ـ ولو في بعض مصادرها ـ من تأثير التيار الاستشراقي العام الذي يُحاول هو بدوره أن يُفيد حتى من هذه الفئة بُطرُقه الخاصة.

وعلى العموم بات الاستشراق بجميع تياراته واتجاهاته الفكرية النفعية والحيادية في حاجة ماسّة إلى تَعَلُّم اللغة، فالذي اتّصل منهم بالدوائر الاستعمارية بشكل مباشر أو غير مباشر. احتاج إلىٰ العربية ليتمكن بها من التفاهم مع أهل المنطقة ولقراءة عاداتها وتقاليدها.. ورسم خططها.. وإعادة صياغتها في ضوء المصالح الاستعمارية.. وكذلك من كانت لهم أغراض ثقافية دون أن تكون لِدُولهم طموحاتٌ عسكرية بارزةٌ بروز الأهداف التنصيرية، فقد احتاجوا إلى معرفة العربية للوقوف على معاني القرآن، والحديث النبوي، والسيرة والتاريخ الإسلامي، ثم لمعرفة واقع المجتمع الإسلامي نفسياً واجتماعياً، وأفضل السُّبل لإدخال الثقافة البديلة إليه.

ولذا فقد بات لزاماً أنْ تُنْفَق الأموالُ الحكومية والكنسية في سبيل إجراء الدراسات العربية الصارِمة الجادّة في جميع المجالات، وقد غَدت العربية سلاحاً أساسياً لجُلّ المتخصصين في الدراسات الإسلامية، هذه هي السِّمات العامّة للاستشراق التقليدي الجاد. وقد عرَفتْ بعضُ الدول التي لا تُعَدّ عريقةً في مجال الاستشراق ـ كأمريكا ـ نَوْعاً من المراكز التي تَهْتَم بتجميع المعلومات وبخاصة ما يَتَعلّق منها بتزويد وزارة الخارجيّة بتقاريرَ عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والحركات الفكرية في البلدان الإسلامية. ولذا كان المجال مفتوحاً أمام جيش من الموظفين الذين يُستعان بهم في سبيل توفير هذه المعلومات دون أن يكونوا على معرفة بالعربية أو بغيرها من اللغات الشرقية(٣٦)، وقد انْتشرت هذه الظاهرة في روسيا

---

(٣٦) انظر «بيتر غران»، ص ٦٣-٧٠.

وكثيرٍ من الدول الغربية، وهي شَكْل من مُسْتَلْزمات التطور الذي أسْفر عنه تاريخ الظاهرة الاستشراقية وإن كان كثير من المستشرقين يُنْكرون أنْ يكونَ هذا التطوّر وَليعد الحركة الاستشراقية.

وأحسب أنّ المستشرقين سيظلّون في حاجة إلى العربية ما دامت لهم أهداف ومصالحُ من أيّ نوع: تنصيرياً كان أو اقتصادياً. . . أو سوى ذلك، وإنك لتلمس مظاهـر هذه الحـاجـة في المشاريع اللغوية (كتأليف المعاجم العربية الأوروبية وبخاصة ما يخدم مجال الإعلان والتجارة) التي تَدْعمها الشركات الأوروبية. . في المعـاهـد اللغـوية التي تُمَوّلها الحكومات. . وفي الكُتب والنشرات والمجلات التنصيرية التي تغذّيها الكنائس الأوروبية.

وبَعْــد، فأحسب أن القــارىء قد أخــذَ فكـرة كافية عن تاريخ الصِّلة بَيْن المستشرقين والعربية مُنْذُ أقدم العصور. . . وأحْسَب أنّه قد أدرك أهميّة أنْ تُبحث الظاهرة الاستشراقية من جذورها التاريخية والثقافية حتى يَتَسَنَّىٰ لنا أن نَتَفَهَّم واقعها ومستقبلها. وقد كان من مرامي هذا البحث أن يُبيِّن كيف أنّ بَحْث هذه الظاهرة يَنْبَغي أنْ يَتِمّ في سياق الإطـار التـاريخي لعـلاقة الإسلام بأوروبا منذ كان هذا الاتصال إلى يومنا هذا. . كل هذا في سياق التوصّل إلى أسباب سوء التفاهم سَعْياً وراء صيغة أفْضَل للكشف عن الحقيقة التي تمثل الهَدَف المنشود الذي تَسْعى إليه البشرية شَرْقاً وغَرْباً وفي كلّ اتّجاه.

المراجــع

١ـ آربري:

أ. ج. آربـري، المستشرقون البريطانيون، تعريب محمد الدسوقي النويهي، لندن ١٩٤٦م.

٢ـ باريت:

رودي باريت، الـدراسات العربيّة والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، القاهرة (بدون تاريخ).

٣ـ بلاشير:

ريجي بلاشير، القرآن، ترجمة رضا سعادة، بيروت ١٩٧٤م.

٤ـ بيتر غران:

بيتر غران، الاستشراق المعاصر في الولايات المتحدة، مقالة منشورة في عدد الاستشراق (٢) من سلسلة الثقافة المقارنة، بغداد ١٩٨٧م (ص ٦٣ـ٧٠).

٥ـ دانيـل:

Norman Daniel, Islam and the westm Edinburgh - England 1980.

٦ـ ديتريش:

ألْبـرت ديتـريش، الـدراسـات العربية في ألمانيا: تطورها التاريخي ووضعها الحالي، فرانز شتاينز، فيسبادن ١٩٦٢م ـ ١٣٨٢هـ

٧ـ رئيف خوري:

رئيف خوري. الفكر العربي الحديث، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٣م.

٨ـ رينـو:

جوزيف رينـو، الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون: الثامن والتاسع والعاشر الميلادي، تعريب إسماعيل العربي، الجزائر ١٩٨٤م.

٩ـ ســوذرن:

ريتشارد سوزذن، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة رضوان السيد، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٤م.

١٠ـ شمــل:

انظر الترجمة التي قامت بها «أنّي ماري شمل» لحياة «يوسف فون هامر»، وهي منشورة في كتاب: «المستشرقون الألمان»، جمع صلاح الدين المُنَجِّد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٢م (ص ٢٧-٣٨).

فروينـد:

Michael Fruund, Deutsche Geschichie Von den Anfagen bis Zur Gegenwart, München 1979.

١٢ـ فــوك.

Johann Fück, Die Arabischen Studien in Europa Von 12. Bis in den Anfang des 19. Jahrhundrets in:

Beitrage Zur Arabistik Semitistik und Islamwissenschaft. Leipzig 1944.

١٣ـ فيشــر:

«هربرت فيشر»، تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠م) تعريب أحمد نجيب هاشم، ووديع الضّبع، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة.

١٤ـ لويس (تاريخ اهتمام الإنجليز):

برنارد لويس، تاريخ اهتمام الإنجليز بالعلوم العربية، ست مقالات نشرت في «المجتمع العربي» الطبعة الثانية.

١٥- لويس (الغرب والشرق الأوسط):

برنادر لويس، الغرب والشرق الأوسط، تعريب نبيل صبحي (لم يذكر الناشر ولا تاريخ النشر).

مع المستشرقين: قراءة في النص[1]

أوّلاً: موقف «بروكلمان» من السيرة النبويّة

ثانياً: المنابع الثقافيّة لشبهات «جولد زيهر» حول الحديث النبويّ.

كثرت بحوث المستشرقين في مجال الدراسات الإسلاميّة، فهي تعدّ بالآلاف، على مدى زمنيّ يتجاوز ثلاثة قرون من الزمان. وقد نُشر كثير منها باللغة العربية دون أن تُدْرس أو أن يُعلّق عليها؛ حتى بات خطرها أمراً واقعاً، بل يتفاقم خطرها في كل يوم.

ولذا كان لزاماً أن تتخصص فئة في دراسة هذه الأعمال وأن تُنبِّه إلى مناهج المستشرقين، ووسائلهم، وإعلامهم، ومؤسساتهم... ومخاطر ذلك كلّه، في كل تخصص من التخصصات. وسأقف في هذا المقام على الموضوعين السابقين، راجياً أن تتاح الفرصة لمزيد من الوقفات، بتناول موضوعات أخرى، مما اعتدنا أن نبحثه مع طلبة الدراسات العليا، في قسم الاستشراق بالمدينة المنورة، فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة.

تعريف موجز بـ «كارل بروكلمان»:

- كارل بروكلمان Carl Brockelmann علم من أعلام المستشرقين الألمان عاش فيما بين (١٨٦٨-١٩٥٦م). اشتهر بكثرة نتاجه الذي وقفتُ منه على أكثر من (١٢٠) بحثاً. قال «يوهان فوك» في ترجمته لحياة بروكلمان: «إنه كان منذ طفولته

---

(١) قرىء هذا البحث في ندوة من ندوات النادي الأدبيّ بالمدينة المنورة عام ١٠٤٥ هـ، ١٩٨٥م، وهو قبل ذلك محاضرة من محاضراتي في طلبة قسم الاستشراق (دورات عليا) التابع للمعهد العالي للدعوة الإسلامية (جامعة الإمام محمد بن سعود) المدينة المنورة.

يتمنّى أن يكون مُنَصّراً أو مترجماً أو طبيباً»[1].

صورة «بروكلمان» لدى بعض الكتّاب العرب:

-عدّه معظم الباحثين العرب، من المستشرقين المنصفين قال أحدهم: من المستشرقين المنصفين قال: «وهؤلاء أصحاب الاتجاه الإيجابي في الاستشراق، وقد عملوا على دراسة حضارتنا دراسة جادة، متخلصين شيئاً فشيئاً من الهوى والتعصب؛ فكشفوا عن حقائق عامة، وفتحوا السبيل أمام دراسات جديدة، وشهدوا لحضارة العرب بأصالتها وسمّوها ورفعتها (. . .) ومن هؤلاء: العلامة الألمانيّ بروكلمان (١٨٦٨-١٩٥٦) الذي اشتهر بنشاطه، وغزارة إنتاجه وموضوعيته، وعمق أبحاثه وشموليتها وجدتها: مما جعله مرجعاً للمؤلفين في التاريخ الإسلامي والأدب العربي»[2].

وقال مترجما كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» -وهما نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي- في مقدمة الترجمة: «ليس بين المعنيين بالدراسات العربية والإسلامية من يجهل الأستاذ كارل بروكلمان؛ المستشرق الألماني الشهير، وكتابه تاريخ الأدب العربي؛ ذلك الأثر القيم الذي لا يَسْتغني عنه باحث في هذه الناحية من التراث الإسلامي»[3]، ثم قالا: «والواقع أن لبروكلمان كتاباً آخر لا يقل عن كتابه ذاك شأناً وقيمة، إن لم يَفُقْه، ذلك هو: تاريخ الشعوب الإسلامية الذي أخرجه للناس عام ١٩٣٩ . . .».

---

(١) مقالة يوهان فوك عن حياة كارل بروكلمان، وهي منشورة في كتاب: المستشرقون الألمان لصلاح الدين المنجد ص ٢.

(٢) من مذكرة بعنوان «الاستشراق» للدكتور عبد الله الشحّام. محاضرات ألقاها في الجامعة الأردنية ص ٢.

(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، مقدّمة المترجمين: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي ص ٥.

إلى أن يقولا: «ولعلنا لا نعدو جانب الحقيقة إذا قلنا: إن أحداً من المؤرخين؛ من شرقيين ومستشرقين، لم يسبق العلامة بروكلمان إلى مثل هذا الكتاب الجامع الذي يستغرق بين دفتيه، تاريخ العرب والمسلمين منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا»[1].

وقد أثنى عليه «عبد الرحمن بدوي» ثناء عظيماً في كتابه «موسوعة المستشرقين»[2] وأثنى عليه كثيرون، ووصفوه بالموضوعية، والتجرد، والبُعْد عن الهوى. ونحن لا ننكر أن لأعمال «بروكلمان» فوائد كثيرة. ولكننا نحب أن نُنَبِّه إلى الجوانب الخطيرة التي أساء فيها للإسلام ونبيّ الإسلام ﷺ مُمَثَّلة في شبهاته التي تفتقر إلى الموضوعية.

موقف «بروكلمان» من السيرة النبوية:

شبهات بركلمان حول الإسلام من خلال حديثه عن سيرة الرسول ﷺ في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية»[3].

أولاً: الشبهة المتعلقة بمولد الرسول ﷺ:

إن موقف «بروكلمان» من المصادر الإسلامية هو الموقف الاستشراقي المعتاد، من المصادر الإسلامية بوجه عام؛ فهو لا يسعى من ورائها إلى تكوين الصورة الحقيقيّة عن الإسلام، وإنّما يستقي منها بمقدار ما يحتاج إليه لإثبات فروضٍ يُبَيِّت النية السابقة المقررة في نفسه، على صحتها. وقد تجلّى هذا الموقف من «بروكلمان» في حديثه عن مولد النبي ﷺ.

فبروكلمان يستخدم المصادر الإسلامية في معرفة شيء عن حياة النبي -ﷺ- قال

---

(١) المرجع السابق ص ٥.
(٢) انظر: بدوي: موسوعة المستشرقين ص ٥٧.
(٣) ترجم الكتاب إلى العربية كل من نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م.

«والمشهور أن ولادته كانت حوالي سنة ٥٧٠»[١] ولكنه نفى هذه المعلومة: فقال: «ولكن الذي لا شك فيه أنها متأخرة بعض الشيء»[٢] فما هو مصدره في نفي هذا الشك؟

إنه يحيل إلى «الأب هنيري لامانس اليسوعي» فما هو غرض «بروكلمان» و «لامانس اليسوعي» من هذا التدقيق في تاريخ مولده - ﷺ - يقول الدكتور عمر فروخ في تعليقه على نص «بروكلمان»: «والأب هنري لامنس اليسوعي قد حاول أن يؤخر ذلك » (أي مولد النبي) عشر سنوات (عن ذلك التاريخ) حتى ينقض القول الشرعي الذي يقول إن محمداً بُعثَ على رأس الأربعين عاماً، ومحمد[٣] قد صَدَع بالدعوة على رأس الثلاثين؛ فمحمد ليس نبياً. و (لامنس) غير ثقة في البحوث الإسلامية لأن غايته الدسّ، لا البحث عن الحقيقة. ويلام بروكلمان على الأخذ برأي لامنس؛ فلامنس معروف في أوروبا بهذه النزعة»[٤].

وإذا كان «بروكلمان» يستحق اللوم على اتخاذ «لامانس» مرجعاً يأخذ به، فإن الأمر يتجاوز مجرد اللوم حين نراه ينفي الحقائق التي وصلت عن الرسول ﷺ عن طريق المصادر الإسلامية الموثوقة التي وردت في كتب الحديث النبوي وفي كتب السيرة النبوية وغيرها.

وقد اقتصر «بروكلمان» من بين النصوص التي تصور حياة الرسول - ﷺ - على ما ورد في سورة الضحى، قال «بروكلمان»: «ولسنا نملك بينة موثوقاً بها عن حياة النبي الأولى إلا هذه الآيات القرآنية من سورة الضحى»[٥].

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٢.
(٢) المرجع السابق ص ٣٢.
(٣) الإشارة هنا إلى حديث البخاري (مناقب الأنصار، ٤٥) الذي يقول «بُعث رسول الله لأربعين سنة»
(٤) ورد هذا التعليق للدكتور عمر فروخ في حاشية كتاب بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٢.
(٥) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٣.

فأين «بروكلمان» من كتب السيرة وكتب الحديث؟ لقد أغمض عينيه عنها ولم ير إلّا ما قاله «لامانس» المعروف بتعصبه الشديد ضد الإسلام[١].

ثانياً: الشبهة المتعلقة بمفهوم الألوهية عند الرسول - ﷺ -:

يبدو «بروكلمان » وكأنه يريد أن يربأ بمفهوم الألوهية عند اليهود والنصارى عن مفهومها عند المسلمين. فقد رد مفهوم الألوهية عند المسلمين إلى الوثنية. فهو عنده منقول عن الشعوب البدائية. أما مفهوم الألوهية عند النصارى واليهود فهو في نظره وحي من الله؛ قال: «اعتقد العرب القدماء ككثير غيرهم من الشعوب البدائية بإله هو خالق الكون. هذا الإله هو «الله» الذي لم ينقل العرب فكرته عن اليهود والنصارى كما يظن كثير الباحثين»[٢].

ومما لا شك فيه أن مفهوم الألوهية عند العرب سابق على اليهودية والنصرانية تاريخياً، ولكنه ليس كما يدعي «بروكلمان» بأنه مأخوذ عن الشعوب البدائية، من هنا كان «بروكلمان» حريصاً على قطع الصلة بين مفهوم اليهودية والنصرانية من جهة والإسلام من جهة أخرى. ومما هو ثابت - تاريخياً - أن الأنبياء والرسل لم يبدأوا باليهودية والنصرانية: فالوحي قد رافق مسيرة البشرية منذ آدم - عليه السلام - والتوحيد معروف منذ آدم - عليه السلام - ولكن انحرافات العقل البشري هي التي تضل به عن هذا المفهوم؛ فيأتي الأنبياء بين زمان وآخر لكي يصححوا هذه المفاهيم.

أما «بروكلمان» فقد رأى أن مفهوم الألوهية عند العرب القدماء قد تطور مع الزمن، كأي مفهوم بشري قابل للتطور، فخالطته الوثنية، وعُبِدَت الأوثان.

قال: «حتى إذا أوشك فجر الإسلام أن يبزغ لم تبق هذه العبادة قادرة على أن تملأ وجدان العرب الديني بكامله (يعني عبادة الأوثان) وهكذا انحط شأن هذه العبادة، وانحطت دلالتها انحطاطاً متواصلاً، كان يرافقه أبداً تعاظم في أهمية

---

(١) انظر بدوي: موسوعة المستشرقين ص ٣٤٧، وانظر عقيقي: المستشرقون ٣/ ٢٩٣.
(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٦.

الشعور الديني العام. القائم على أساس الإيمان بالله. وفي مكة أخذ «الله» يحتل شيئاً فشيئاً محل «هبل» الإله القمري القديم كرب للكعبة»[١]. تعالى الله عما يصفون!

وهكذا يكون مفهوم الألوهية في الإسلام في نظر «بروكلمان» مفهوماً تمخض عن التطور التاريخي للفكر البشري البدائي، وهو بهذا ينأى به عن مفهومه الحقيقي الذي حدده الله وحياً من عنده.

وأمّا دور اليهوديّة والنصرانيّة في تحديد مفهوم الألوهية عند العرب: فهو لا يتجاوز في نظر بروكلمان - كونه عاملاً؛ كأي عامل، في معادلة التفاعل الحضاري المادي عند العرب. أي ليس هو من جنس العلاقة التي تربط اليهودية بالنصرانية بوصفهما دينين سماويين.

قال «بروكلمان»: «لقد ساعدت الأديان السماوية التي كان لها منذ زمن طويل، أنصار وأتباع في بلاد العرب على استعجال هذا التفسخ في الوثنية العربية واستفحاله»[٢].

إذن «قَصّرت العبادة الوثنية عن إرواء ظمأ العرب الروحي»[٣] على حد تعبير «بروكلمان» ثم جاءت العوامل الخارجية بتأثير من اليهود والنصارى. والعرب كما يقول «بروكلمان»: «يمتازون بحساسيتهم البالغة للانطباعات الخارجية»[٤] وهكذا تكون فكرة الألوهية على زعمه قد نضجت عند العرب.

ولما كان هذا النضج نَبتاً مربوط الجذور بالوثنية - في نظر بروكلمان - فقد راح يربط بين شجرته وجذورها المزعومة في عقيدة الرسول - ﷺ -.

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٦.
(٢) المرجع نفسه ص ٢٧-٢٨.
(٣) المرجع نفسه ص ٣٤.
(٤) المرجع نفسه ص ٢٨.

قال: «ولكنه (يعني الرسول - ﷺ -) على ما يظهر اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله. ولقد أشار إليهن في إحدى الآيات الموحاة إليه بقوله: تلك الغرانيق العُلى وإن شفاعتهن ترتضى»[١]

لا يخفى أن هدف «بروكلمان» من هذا كله أن يصل إلى نتيجة مفادها أن العقيدة الإسلامية جاءت نتيجة تطور في ثقافة الرسول، كأي تطور فكري في حياة أي مفكر عادي.

ولما كان الفكر البشري يستقي عناصره من الوسط الثقافي المحيط بالإنسان زماناً ومكاناً، فقد راح «بروكلمان»، الذي ينفي أن يكون الوحي مصدر العقيدة الإسلامية، راح يُثبت جذور هذه العقيدة في تربة الثقافة الجاهلية، وكيف مرت هذه العقيدة في حياة الفرد الواحد - أي الرسول- ﷺ- بأطوار ومراحل حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

فكيف اعترف الرسول - ﷺ - بآلهة الكعبة الثلاث؟ إن هذا باطل لم يوضحه «بروكلمان» إلا من خلال الإشارة إلى قصة الغرانيق التي أشار إليها «بروكلمان»[٢] دون أن يشير إلى سند هذه القصة، التي ردّها العلماء أصلاً؛ لأنها موضوعة. وإنما يذكرها مثل «الواقدي» - وهو ساقط الرواية عند أهل الحديث-[٣] و «الطبري»[٤] وهو معروف بإيراد ما يروي سواء أكان صحيحاً أم غير صحيح, وذلك اعتماداً على السند الذي يُروىٰ به.

ويَدّعي «بروكلمان» أن هذا هو موقف الرسول في بداية الدعوة من الأصنام التي حول الكعبة. وقد اتّخذ هذا الموقف بعد أن اشتدت دعوته، فهاجم الأصنام وأفرد

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤.
(٢) تكررت الإشارة إلى هذه القصة لدى بروكلمان، انظر مثلاً ص ٣٤، ٣٥، ٧٠.
(٣) انظر ترجمته لدى الذهبي: ميزان الاعتدال ٣/ ٦٦٢.
(٤) انظر الطبري: جامع البيان ١٧/ ١٣٢.

الله بالعبادة.

ولنا على هذه الفرية وبخاصة قصة الغرانيق، ملاحظات نذكر منها ما يأتي:

١- ليس لقصة الغرانيق أصل صحيح سنداً ومتناً[(١)].

٢- إنها تناقض ما عليه الإسلام جملة وتفصيلاً: فالإسلام دعوة إلى التوحيد الخالص (قل هو الله أحد....)، (الله لا إله إلا هو)... والآيات، في هذا المعنى، أكثر من أن تُحصى. فكيف نَتَشَبَّث برواية موضوعة يناقض متنها نصوص الشريعة ومقاصدها بوضوح وجلاء.

أليس من اللجاجة والعناد أن يرتضي «بروكلمان» رواية متهافتة ليَبْني عليها حُكماً، ويتجاهل النصوص والحقائق الثابتة التي لا شك فيها؟!!

إنه لأمر عجيب أن يدع «باحث» النصوص والحقائق التي لا تُحصى، وكلها تؤيد الحقائق الواضحة عن الإسلام، ويتشبث بقصة مختلقة لإثبات أمر غريب عن هذا الدين كل الغرابة.

٣- يقول «بروكلمان» في حديث الغرانيق: «ثم ما لبث أن أنكره وتبرأ منه (يعني الرسول ﷺ) في اليوم التالي»[(٢)].

فأي تطور سريع هذا الذي يحصل بين يوم وليلة، ثم تُبْنى عليه عقيدة التوحيد التي ما عرفت البشرية أنقى ولا أفضل منها؟ قبل ليلة يعترف بالأصنام آلهة -حاشا لله ولرسوله- ثم يطلع الصباح فيأتي بعقيدة التوحيد التي تهاجم الأصنام، وجميع أشكال الشرك. أليس هذا مما كان ينبغي أن يستوقف «بروكلمان» في تصوراته لعقيدة التوحيد عند رسول الله -ﷺ-؟ وهل يجهل «بروكلمان» تاريخياً أن النبي -ﷺ- أول ما دعا إليه «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»؟ وأنه بقي

---

(١) انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٢/٧٩ وما بعدها، وانظر الألباني: نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق.

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٥.

في مكة بضع عشرة سنة يدعو إلى هذه الشهادة، لأنها مفتاح الدخول إلى الإسلام، وقومه يرفضون الاستجابة لها، لأنهم يعلمون دلالتها التي تتعارض مع مصالحهم الدنيوية الزائفة المرتبطة بآلهتهم الزائفة؟.

ولا ننسى - في الرد على هذه القصة المختلقة - ما أورده عمر فروخ في تعليقه على نص «بروكلمان» الذي ورد في حاشية النص، وهو تعليق يعود إلى العالم الهندي مولانا محمد الذي قال: «على أننا لو رجعنا إلى رواية محمد بن إسحق، أو صحيح البخاري، وهو الذي لم يغادر من حياة الرسول شيئاً إلا ذكره، لم نر لقصة الغرانيق أثراً، وأن محمد بن إسحق جاء قبل الواقدي بأربعين سنة وقبل الطبري بنحو مائة وخمسين سنة أو تزيد. أما البخاري فقد كان معاصراً للواقدي ومع ذلك لم يذكر هذه القصة، ثم إن الواقدي معروف عند المُحَدِّثين بأنه يضع الأحاديث، وأنه غير ثقة فيما يروي، كذلك لم يذكرها أحد من الرواة. . .».

ويتابع مولانا محمد قائلاً: وإذا عدنا إلى قراءة الآيات نفسها وجدناها (أفرأيتم اللات والعُزّى، ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذن قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى).

ويقول د.عمر فروخ: «فليس من المعقول أن تُحْشَر بين هذه الآيات المتتالية آية مناقضة لها في أصل العقيدة وصلب دعوة محمد - ﷺ -»[1].

إنه منهج عند كثير من المستشرقين، منهج يقوم على تتبع الضعيف الواهن، بل المردود، والبناء عليه، إن هذا المنهج ليذكر بالمثل الأوروبي القائل: «كمن يتصيد في الماء العكر».

---

(١) ورد هذا التعليق لعمر فرّوخ في حاشية كتاب بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلاميّة ص ٣٥.

ثالثاً: تفسير بروكلمان للوحي:

رأينا -فيما سبق- كيف أن «بروكلمان» ينظر إلى الإسلام على أنه عمل فكري بشري لا علاقة له بالوحي. فقد تطورت - على زعمه- أفكار الرسول في نفسه من واقع البيئة الثقافية التي يحياها. وهي بيئة وثنية اعترف بها النبي على زعم «بروكلمان»، ثم تبين فسادها مع الزمن ثم حاول أن يقلد الشعوب الأخرى النصرانية واليهودية، في تبنّي فكرة يدعو إليها على أنها وحي من الله.

لقد عبر «بروكلمان» عن هذه التخيلات التي بناها عن الإسلام، قائلاً على لسان حال الرسول - ﷺ - : «إلى متى يمدهم الله في ضلالهم ما دام هو عز وجل قد تجلى، آخر الأمر، للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة، رسالة النبوة»[1].

إذن فهي فكرة بدأت وثنية ثم نضجت في نفسه كما تتطور أفكار البشر عامة، وتنضج، ولا علاقة للوحي بها، على زعمه. أما الوحي الذي نزل على الرسول -ﷺ - في غار حراء فيعده «بروكلمان» وهماً تخيله، ثم «أعلن ما ظن أنه قد سمعه كوحي من عند الله»[2].

ثم راح «بروكلمان» يفسر ظاهرة الوحي في ضوء الثقافة الجاهلية فربط بين الوحي والجّني، الذي يصاحب الكاهن، الذي اعتقد الجاهليون أنه يُوْحي إلى الكاهن ما يريد أن يقوله بكلام مسجوع. ثم قرن «بروكلمان» بين السجع والقرآن، فقال في آيات القرآن: «إنها كانت كنفثات الكهان الوثنيين، قصيرة جداً في العادة ومُقَدَّم لها بصيغ قسمية غير مألوفة»[3].

ولنا على تفسير «بروكلمان» للوحي ملاحظات:

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلاميّة ص ٣٦.
(٢) المرجع نفسه ص ٣٦.
(٣) المرجع نفسه ص ٣٧.

١- إن «بروكلمان» شأن كثير من المستشرقين، لا يعرض من أنباء الوحي إلا المقدار الذي يلزمه في نفي النبوة عن النبي -ﷺ- ويسكت عن الجوانب والتفاصيل التي لا يستطيع تفسيرها. ولا أريد أن أبحث - في هذا المقام- في تفاصيل هذا الموضوع؛ تجنباً لتكرار ما قيل فيه، ولكني أحيل إلى بعض الدراسات ككتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي[1].

٢- لو مشينا على منهجهم الموسوم بـ «العلمي»- في إثبات الظواهر الغيبية كالوحي والملائكة والجن - لكان من حقنا أن ننفي أن تكون رسالة الأنبياء السابقين الذي يؤمن بهم النصارى واليهود إيماننا بهم، وحياً من الله.

إن لوسائل البحث العلمي الذي يستخدمه هؤلاء الناس فوائد لا نشك فيها، ولكن الذي لا نُسَلّم به أن تكون هذه الوسائل كفيلة بإثبات كل شيء، فإذا لم يثبت فلا ينبغي أن يكون نصيبه النفي. وهل استطاع البحث العلمي أن يُفسّر كل شيء في عالم الشهادة حتى نطلب منهم أن يفسّر كلّ شيء في عالم الغيب؟

وهنا نتوجه إلى «بروكلمان» وأمثاله بالسؤال: كيف تستطيع أن تثبت نبوّة من آمنت بهم من الأنبياء كإبراهيم، وموسى وإسحق... اعتماداً على وسائل البحث العلمي الحسيّة؟.

و «بروكلمان» رجل نصرانيّ، ولا شك، بل كان يتمنّى منذ طفولته -كما مر بنا- أن يكون «منصِّرا» يعمل على نشر نصرانيته.

٣- فسر «بروكلمان» نزول الوحي على الرسول ﷺ في تلك الفترة المتأخرة من حياته على أنه كان يخجل من طرح عقيدته على الناس. فهل مثل هذه المسائل الكبيرة يمكن أن تفسر بهذا اليسر؟ فأي «حياء فطري» هذا؟ ثم كيف يزول هذا الحياء مرة واحدة، وما تفسير ذلك؟

لو كان «بروكلمان» يؤمن بأنه الوحي من السماء، كما حدث لسلاسل من

(١) انظر مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص١٣٩ وما بعدها.

الرُّسل والأنبياء، لعلم أن لا دخل للرسول - ﷺ - في ذلك. إنما هي إرادة الله التي حددت هذا الوقت دون سواه فما كان على الرسول إلا أن يصدع بأمر ربه. ثم كيف يفسر «بروكلمان» ذلك الاضطراب الذي اعترى الرسول عند نزول الوحي[(١)]؟

٤- إن شبهة الربط بين النبوة والكهانة شبهة قديمة وهي مردودة من جانبين:

(أ) اختلاف الوحي بأشكاله التي تنزّل عليها. وقد كانت في معظمها مادية مجسدة في صورة صلصلة، أو في صورة رجل... ولم تكن هذه الأشكال المادية مقتصرة في استشعارها على الرسول - ﷺ - وحده فقد أحس به كثير ممن حوله من أهل بيته وأصحابه. أما «صاحب» الكاهن، أو الشاعر، فذلك أمر آخر، قائم على التوهّم الذي لا يتجاوز الكاهنَ نفسه.

(ب) ثم إن ثمة فرقاً كبيراً بين كلام الكهان والشعراء من جهة، والقرآن الكريم من جهة أخرى. وقد شهد بهذا الفرق عتاة[(٢)] أهل الجاهلية من خصوم الدعوة الإسلامية وقد رد القرآن الكريم هذه الشبهة القديمة في حينها.

وهذا يعني أن التنبه إلى الخلط بين كلام الكهان وأسلوب القرآن الكريم مردود من أصله، وفي حينه.

ثم إن القرآن معجز، وقد تحدى بإعجازه الكُهّان والشعراء، والإنس والجن، ولم يأت أحد بمثله ولن يأتي.

٥- وعلينا أن نتذكر أن نُبُوّة الرسول ﷺ وحي من الله، وقد قامت عليها أدلة كثيرة، لم تنحصر في الإعجاز القرآني، بل شهد بها أهل زمانه من الثقات. وفي هذا ما

---

(١) يشار في هذا الأمر إلى السياق الذي تنزلت فيه سورة القلم، وسورة المدثر، وسورة المزَّمِّل.

(٢) يشار هنا إلى قصة الوليد بن المغيرة التي رواها ابن هشام في «السيرة النبوية» ١/ ٢٧٠، وهي التي تنزل فيها قول الله تعالى: «ذرني ومن خلقت وحيدا».

يؤكد أن النبوة وحي؛ وليست فكرة بشرية تتطوّر في نفس صاحبها كتطور الأفكار البشرية.

رابعاً: حادثة الإسراء:

ربط «بروكلمان» بين حادثة الإسراء وأحلام العرّافين. قال «وأمثال هذه الرؤى في أثناء تهجد العراف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية»[1].

ولنا على هذه الشبهة ملاحظات:

١) لا ينبغي - إذا أردنا أن نحترم أنفسنا مع المصادر التاريخية- أن نكون مزاجيين في الأخذ منها، وبخاصة إذا أجمعت هذه المصادر على الخبر. أما أن نصفها بصفة «الأساطير» فينبغي أن نتحرى في ذلك ونتروى، حتى لا نناقض أنفسنا، ونحن نعب منها مُسَلّمين بها، فيما تخدم فيه ما نريد الوصول إليه.

٢) إذا كانت حادثة الإسراء - على ما يزعم بروكلمان- مجرد أحلام ورؤى عرّافين، ورؤى العرافين معروفة لدى الشعوب البدائية، والعرب كانوا أمة بدائية- فلماذا لم يحملوا هذه الحادثة على أنها حلم عرّاف. ولِمَ استهجن الناس هذا الحلم وأمثالُه مألوفة في تلك البيئة؟

٣) لا ينبغي أن نفسر كل أمر خارق تفسيراً عقلياً، وإلا لكان أمراً عادياً. كما لا ينبغي أن نقرّب كل أم خارق بالضرورة إلى ما يبدو مقارباً له حتى يصبح مفهوماً عقلياً. ولا أحسب أن «بروكلمان» نفسه ينكر الخوارق والظواهر التي لا يستطيع أن يفسرها عقل بشري. فهل إذا عجز العقل عن تفسير شيء جاز له إنكاره؟ ونكرر السؤال السابق: هل يقبل «بروكلمان» من أحد أن ينكر معجزات الأنبياء السابقين الذين يؤمن هو بهم؟!

إنها إذن قضية الإيمان بنبوة الرسول - ﷺ - فإن أُنكرت ترتَّب على ذلك إنكار أشياء كثيرة.

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٤.

«الألوهية». ولكننا أردنا أن نكشف عن موقع الإسلام في نظر «بروكلمان » من الأديان السماوية، إنها تبتعد عن الإسلام في المنبع والأصل، فهي سماوية، أما الإسلام فهو عنده أرضي وهو بشري. ولَمّا كان - في نظره - كذلك، فقد راح «بروكلمان» يبحث عن استقاء الإسلام من هاتين الديانتين بوصفهما مصدرين يمكن أن يتأثر بهما أي فكر بشري ما داما قد سبقا الإسلام زمناً. و «بروكلمان» - من هذا المنطلق - لم يدع فرصة لإثبات تأثر الإسلام بهاتين الديانتين إلاّ أتى على ذكرها، مع حفاظه باستمرار، على دفع أي اعتبار يمكن أن يترتّب عليه، أن يكون ذلك التقارب بين هذه الأديان، نابعاً من كونها من أصل واحد، وهو الوحي.

وفي محاولاته لإثبات مظاهر التأثر البشري بهاتين الديانتين قال «بروكلمان»: وتذهب الروايات إلى أنه اتّصل في رحلاته (يعني: النبي - ﷺ -) ببعض اليهود والنصارى. وبذا ينفي «بروكلمان» أن يكون الإسلام صالحاً لأن يكون مرجعاً يوثّق منه الفكر النصراني أو اليهودي قال: «وليس من شك في أن معرفته لمادة الكتاب المقدس كانت سطحية إلى أبعد الحدود وحافلة بالأخطاء»[1] وهو بهذا يسوغ الاختلاف الذي حصل بين الإسلام وهاتين الديانتين.

وقد رد «بروكلمان» ما زعمه «أخطاء» إلى أن النصارى الذين اتّصل بهم في مكة كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل ضعيفة. قال: «أما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حد بعيد»[2] إنه يفصّل هذه الدعاوى والافتراضات، دون أن يقدّم أي دليل عليها!.

ويعود هذا - أيضاً - في نظر «بروكلمان» إلى أنه كان يستقي معلومات من التلمود. والمعروف أن التلمود مصدر يهودي، و «بروكلمان» نصراني، ولذلك كان موقف «بروكلمان» من التلمود واضحاً في أنه كتاب حافل بالأخطاء. قال:

«وقد يكون (يعني: الرسول - ﷺ -) مدينا ببعض هذه الأخطاء للأساطير

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٩.
(٢) المرجع نفسه ص ٣٤.

خامساً: تفسير «بروكلمان» للمفارقات التي بين التوراة والإنجيل من جهة والقرآن الكريم من جهة ثانية:

يحرص «بروكلمان» على أن ينفي أي صلة بين أصل النصرانية واليهودية والإسلام. فهذه الأديان كلها - في الأصل - وحي من الله سبحانه.

ومن الطبيعي أن يعترف «بروكلمان» بالوحي أصلاً لليهودية والنصرانية ويجيء اعترافه بهذا الأصل على أساس إيماني خالص، وإلا فهو أعجز من أن يستطيع إثبات نبوة موسى عليه السلام بطرق البحث العلمي القائمة على الحواس وما تدركه. ولكن «بروكلمان» يحاول أن ينفي أي صلة للنبوة المحمديّة بالوحي. وأبعد من ذلك يحاول «بروكلمان» أن ينأى بالنصرانية واليهودية عن أدنى شبهة تجعل من الإسلام استمراراً لهاتين الديانتين في الدعوة إلى الله؛ ولذا كُنّا لا نستغرب تصديه لمن يذهب إلى أن الإسلام يلتقي مع هاتين الديانتين في هذه الدعوة التي تشكل أصل الأديان السماوية، ومنبعاً، وغاية، قال «بروكلمان»:

«وبالإضافة إلى جميع هذه الآلهة اعتقد العرب القدماء ككثير غيرهم من الشعوب البدائية بإله هو خالق الكون، هذا الإله هو «الله» الذي لم ينقل العرب فكرته عن اليهود والنصارى كما يظن كثير من الباحثين»(١).

وهكذا تكون الألوهية «مرحلة من مراحل تطور العبادة البدائية» ثم قال: «وفي مكة أخذ «الله» يحتل شيئاً فشيئاً محل هبل الإله القمري القديم كرب للكعبة»(٢) حاشا لله!

إذن، فإن «بروكلمان» ينفي أي صلة يمكن أن يلتقي فيها الإسلام بمنبع الديانات السماوية. ولا نريد أن نناقش هذه القضية. فقد مررنا بها من قبل عند حديثنا عن

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٦.
(٢) المرجع نفسه ص ٢٦-٢٧.

اليهودية التي يحفل بها القصص التلمودي».

وقد عدّ «بروكلمان» الرسول تلميذاً للنصارى منذ طفولته، وقد حمّل هؤلاء تبعة ما خالف فيه الرسولُ المصادرَ المسيحية واليهودية، قال: «ولكنه مدين بذلك (يعني: تلك الأخطاء) دينا أكبر للمعلمين المسيحيين الذين عرفوه بإنجيل الطفولة وبحديث أهل الكهف السبعة وحديث الإسكندر...»[1]

إن لنا على مزاعم «بروكلمان» هذه ملاحظات منها ما يأتي:

١- إنّ ما وصل إلينا من مصادر العصر الجاهلي وعصر النبوّة، من شعر، وقصص، لم ترد فيه أي إشارة لقصّة أهل الكهف، أو ذي القرنين. أم تُرى أن الرسول -ﷺ- كان التلميذ الوحيد الذي اختاروه لتلقينه هذه القصص، حتى جاءت قصراً عليه؟!

٢- إن تفسير التوافق الذي يجمع بين الإسلام وما ورد لدى كل من اليهود والنصارى مرده أن مصدرها جميعاً واحد، هو الوحي. وأما ما خالفهم فيه الإسلام من حقائق تاريخية أو قصص فهو من باب تصحيح الوحي لما داخل أفكار هاتين الديانتين من أفكار بشرية على مر العصور. أمّا «بروكلمان» فيعد ذلك من باب الخطأ في النقل عن هذه الديانات. وهذا يعني أنه ينطلق من اعتبار صحة ما ورد في النصوص الحالية التي جاءت عليها كتب هاتين الديانتين.

٣- إن مما يؤيد صحة منطلقنا ذلك، أن الديانتين السابقتين لم تعرفا ثبوتاً ولا استقراراً في أفكارهما أصلاً. فكم يختلف إنجيل عن إنجيل، ومذهب نصراني عن مذهب نصراني آخر. إنها خلافات تخرج بهذه النصوص عن إطار الدين الواحد، لأنها خلافات تضاد وتصادم جعلت الفرقة المتنصِّرة تنظر إلى الإخرى نظرة المارق عن الدين، الخارج من الملة؛ فقد عرف تاريخ النصرانية أكثر من مائة إنجيل اضطهدت جميعها، ولم يبق معترفاً به منها سوى أربعة، هذا غير

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٩.

«الرسائل» التي اختلفت المجامع النصرانية اختلافاً بيّناً في الاعتراف بها؛ فقد يُنكر مجمع كنسي بعض النصوص، ثم يأتي مجمع آخر فيعترف بها، ثم يأتي ثالث لينكر بعض ما أقره المجمع الثاني أو الأول، ويُقِرّ بعضه. بل إن الأناجيل الأربعة الباقية لتتشابه وتتعارض، وما يزال من كُتّابهم من يَدْرس هذه الأناجيل ليرى التناقض - أحياناً - على صعيد الإنجيل الواحد[1].

فهل من المستغرب -بعدئذ- أن يأتي دين جديد ليصحح المفاهيم الخاطئة في هذه الأديان، فإذا كان ذلك كذلك، وهذا هو الشأن بالنسبة للإسلام، فهل يصح أن يوازَن بين الإسلام وهذه الأديان التي تتشتت مفاهيمها بتشتت الفرق والمذاهب اليهودية والنصرانية؟ فإذا ما أسفرت المقابلة - على نحو ما هو منهج بروكلمان - عن تباين بين المعلومات الواردة في الإسلام، وما ورد في تلك الأديان والمذاهب قيل: لقد أخطأ الإسلام في النقل عن هذه المصادر لأن معرفة الرسول - ﷺ - بهذه الأديان كانت لديهم سطحية؟ أي منطق هذا؟!

وهنا نتساءل: ما الذي يمنع أن يكون ما جاء مخالفاً - مما أورده الإسلام عن النصرانية التي يعرفها بروكلمان - موافقاً لما جاء في غيرها من الكتب النصرانية المنبوذة؟[2].

ألم تختلف فرق النصارى في أمور جوهرية تتعلق بطبيعة المسيح عليه السلام؛ فكان الناسوتيون الذين يثبتون طبيعته البشرية، واللاهوتيون الذين ينكرون طبيعته البشرية ويقولون هو «إله»؟

ألم تختلف الفرق النصرانية في زمن تدوين الأناجيل؟ فالمعروف أنه ظهر بعد سنة ١٤٠م بعض الكُتّاب من النصارى، ادّعوا أنهم يعرفون مجموعة من الرسائل

---

(١) يمكن العودة في هذا إلى مراجع متعدّدة أذكر منها على سبيل المثال: موريس بوكاي في كتابه التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، وكتاب «إظهار "الحق» لرحمة الله الكيرواني.

(٢) ومن هذه الكتب المنبوذة إنجيل «برنابا» الذي جاء لام في كثير من الأمور الجوهرية.

المنسوبة لبولس، وقد اعترفت الترجمة المسكونية للتوراة والعهد الجديد المطبوعة سنة ١٩٧٢ - وقد عمل على إعدادها أكثر من مائة مختص كاثوليكي وبروتستنتي - بأنه لم يكن قبل سنة ١٤٠م ما يشهد على وجود المجموعات الإنجيلية. وقد جعلت هذه الترجمة المسكونية من سنة ١٧٠م بداية للاعتراف الشرعي (القانوني) بالأناجيل الأربعة.

ألم يختلف النصارى في اعتبار كُتّاب الأناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا، من الرسل أي من تلاميذ المسيح عليه السلام؟

ألم يختلف النصارى في كون يوحنا الذي ينسب إليه الإنجيل المعروف هو يوحنا الذي كتبه؟ فقد ذهب بعضهم إلى أن يوحنا الذي كتب هذا الإنجيل شخص آخر يحمل الاسم نفسه. وقيل هو أحد طلاب مدرسة الإسكندرية. وقد قالت «دائرة المعارف البريطانية» في هذا الكتاب: «إنه لا مراء في أن هذا الإنجيل مزوّر. وقد أراد المزوِّر أن يظهر التضاد بين اثنين من الحواريين: «يوحنا» و «متّى». ولكن هذا المزوِّر ادعى أنه هو يوحنا فأخذت الكنيسة هذه العبارة على علاتها وجزمت بأن كاتبه هو يوحنا الحواري، مع أن صاحبه ليس يوحنا بالتأكيد».

وقد اختلفت المصادر النصرانية؛ فضلاً على ذلك في إنجيل مرقص، وهل هو من وضع مرقص أصلاً؟

ثم ألا يكفي اختلاف الترجمات الكثيرة إلى لغة واحدة - فضلاً على اللغات المتعددة التي تُرجم إليها كل من التوراة والإنجيل - لإظهار التباين في الحقائق التي اشتملت عليها هذه الترجمات التي فُقِدَ أصلُها أو تعرَّض للتحريف؟

قال «موريس بوكاي» بعد أن نقل اعترافات «الأب كننغسر» عن تحريفات الإنجيل «فيا له من اعتراف لا عِوَج فيه على وجود الممارسة البشرية في نصوص الكتابات المقدسة تقدمه لنا هذه الأفكار من عالم كبير في اللاهوت»[١]

---

(١) موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٦٨.

فإذا كان «بروكلمان» سيجعل من روايات الإنجيل والتوراة المعروفة لديه حَكَماً على صحة ما قاله القرآن الكريم عن النصرانية واليهودية، أفَلَيس من حقنا أن نقول: وهل هذه الكتب التي تَحْتكم إليها ثابتة ومُعْتدّ بها لدى جميع النصارى وطوائف اليهود؟

لقد جاء القرآن الكريم وحياً يُبَيِّن أن ما وقعت فيه النصرانية واليهودية من خلاف مع الإسلام إنما مرده في الغالب ما تعرضت له كتبهم من تحريف. وأما ما التقى فيه القرآن مع هذه الكتب فتفسيره أن هذه الكتب ترجع إلى منبع واحد هو الوحي الإلهي. فليس غريباً - بعدئذ - أن تتشابه.

سادساً: شبهة تقديس الحجر الأسود واعتباره رمزاً وثنياً:

تحدث «بروكلمان» عن الحياة الدينية عند العرب في الجاهلية ووصفها بأنها «في مستوى بدائي إلى أبعد الحدود»[1] ولمّا كان العرب شعباً سامياً، والساميون القدامى أمم بدائية عبدت الأشجار والكهوف والحجارة واعتقدوا أن لهذه الحجارة أرواحاً فقدّسوها ، فقد عبد العرب الحجارة وقدّسوها في «سلع» وغيرها من بلاد العرب... هكذا يرى بروكلمان، وهو استنتاج يقوم على مقدمات تاريخية يمكن قبولها في هذه الحدود.

أما الذي لا يمكن قبوله فهو الحُكْم الذي بناه على أساس ذلك الاستنتاج، فقد عَدّ بروكلمان الحجر الأسود من بقايا تلك الحجارة التي كان العرب يقدّسونها قال «ولعله (يعني الحجر الأسود) أقدم وثن عُبِدَ في تلك الديار»[2].

وفي موضع آخر يربط «بروكلمان» ربطاً واضحاً بين تقديس الساميين للحجارة ومكانة الحجر الأسود عند المسلمين. قال: «ولعل هذا الحجر أقدم الأوثان التي عرفتها مكة قبل الإسلام، وهو يشبه الحجارة المقدسة الأخرى التي كثيراً ما نجدها

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلاميّة ص ٢٤.
(٢) المرجع نفسه ص ٣١، وانظر أيضا ص ٢٥.

عند الساميين»[١].

أما بداية اتخاذه حجراً ذا مكانة عند المسلمين فقد رد «بروكلمان» ذلك إلى بداية فتح مكة. قال: «وعندما بلغ محمد الكعبة طاف بها سبعاً على راحلته ملامساً الحجر الأسود بعصاه في كل مرة، وبذلك ضم هذا الطقس الوثني إلى دينه»[٢].

هذه هي الشبهة، أوْرَدَتها بنصوصها كما أوردها مثيرُها. ولنا على هذه الشبهة ملاحظات:

١- يعرف «بروكلمان» جيداً موقف الإسلام من الأصنام، سواء ما كان منها حول الكعبة أو في بيوت المكيين. قال «بروكلمان»: «ثم إنه (يعني الرسول ﷺ) أمر بإزالة ما في الكعبة من الصور والتماثيل وتحطيمها، وطلب إلى المكيين أن ينزعوا ما قد يكون في بيوتهم الخاصة من صور وتماثيل، ويسلموها إلى المسلمين، على الرغم من أنه لم يعتبر قبول مواطنيه الإسلام أمراً واقعاً بعد»[٣].

فبروكلمان، إذن، يعرف موقف الرسول - ﷺ - من الأوثان، وقد كان هذا منذ البداية، ولو كان الأمر فيه شيء من البشرية لكان المنطقي أن يُمْهِل أمر هذه الأصنام إلى أن يتمكن الإسلام من قلوب أقوام يعبدون هذه الأصنام منذ زمن، ولكن الأمر أمر الله ولا سبيلَ إلى التواني في تنفيذه.

٢- ثم إن المرء ليتساءل كيف يحطم الرسول - ﷺ - الأصنام، وهي الحجارة التي خرجت عن صورتها «الخام» إلى أشكال فنية لا تخلو من الجهد المبذول في تجميلها، وتحسينها، وإضفاء صفة التفوق والقوة في أشكالها، ثم يُبْقى - بعد ذلك - على القداسة الوثنية لمادة خام غير مصنعة كالحجر الأسود؟ لو كان

---

(١) المرجع نفسه ص ٣١.
(٢) المرجع نفسه ص ٦١.
(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٦.

الأمر يتعلق بالروح الوثنية لكان الأولى أن يُبقي على الأصنام أو أن أن يختار منها ما دَلّ على قوة، أو جمال، أو رهبة، على نحو ما هي الحال في أوثان اليونان والجاهليين وغيرهم.

٣- أين الوثائق التي تدل على أن الحجر الأسود كان في يوم من الأيام داخلاً في صناعة وثن أو هو بقية من وثن؟ إن التاريخ والواقع يثبتان أن الحجر الأسود لبنة من بناء الكعبة، وهو رمز لتاريخ هذا البناء الديني الذي يرمز - في جملته إلى التوحيد، وترك عبادة ماسوى الله - سبحانه وتعالى - وقصة إبراهيم عليه السلام التي ارتبطت بالتوحيد وتحطيم الحجارة التي اتُّخِذَت آلهة من دون الله قصة معروفة وقد ظل هذا الحجر الذي لمسه إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - رمزاً لتلك القصة.

هذا هو الكلام الموثق تاريخياً، فماذا عسى أن يكون زعم «بروكلمان» التخميني القائم على «لعل» الافتراضية - ماذا عساه يكون أمام هذه الحقائق التاريخية؟

وهل يعقل أن يكون «بروكلمان» لم يطّلع على ما كان يردده النبي - ﷺ - وهو يكسّر الأصنام، من توحيد خالص؟ ولماذا يتجاهل «بروكلمان» ذلك من رسول الله - ﷺ - وهو يردد: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا... الخ» وقد قرأ في ركعتي الطواف، في الأولى (قل يأيها الكافرون) وفي الثانية (قل هو الله أحد). إنها آيات تدل على المفارقة الوضحة النهائية بين التوحيد والوثنية منذ البداية.

٤- إن الحجر الأسود - في اعتقاد المسلم - حجر من الحجارة لا يضر ولا ينفع كما وصفه عمر - رضي الله عنه - حين وقف عنده، وهو خليفة، ثم قال: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله -ﷺ- يقبّلك ما قبّلتك». وهو ليس مقدساً في ذاته وإنما هو رمز مادي كالمسجد وكبقية شعائر الحج المجسّدة كالصفا والمروة والكعبة، بل كسائر الشعائر

الإسلامية التي تظهر في صورة حسية مجسدة ومنها حركات الصلاة والوضوء... ليست قداستها في ذاتها بل هي شعائر، أي رموز نعبِّر بها عن مشاعرنا التعبدية إلى الله سبحانه وتعالى، وفقاً لما أُمِرنا به، وحاشا أن تكون هذه آلهة مع الله.

والإسلام معروف بين الأديان أنه دين التوحيد الخالص لله تعالى، فإن اتخذنا مسجداً متعبّداً، فلا يعني أن المسجد أو حجارة المسجد أصبحت آلهة عندنا من دون الله، بل هي شعائر نتوجه إلى الله من خلالها، ونعظمها من تعظيم الله، قال تعالى: ﴿ومن يُعَظِّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾[1].

ولسنا بِدْعاً في هذا، أليست النصرانية واليهودية أدياناً بشعائر؟ فهل من حقنا أن نقول بعدئذ -إن الأرواح المقدسة عند النصارى في «بيت لحم» من آثار عبادة الكهوف عند الوثنيين، وأن حائط المبكى عند اليهود، أو الهيكل، هو من آثار الديانات الوثنية، ناهيك عن شجرة الميلاد[2]. وخاتم الزواج؟ فهل نقول إنهم يعبدون شجرة؟ أو معدناً؟

إني على يقين بأن «بروكلمان» سوف يرفض هذا المنطق لو قيل في حق هاتين الديانتين.

٥- مر بنا في عبارة «بروكلمان» التي يقول فيها عن الحجر الأسود: «وهو يشبه الحجارة المقدسة الأخرى التي كثيراً ما نجدها عند الساميين»، فأي شبه يعني؟ وما وجه الشبه؟ فهل هذا الحجر يمثّل صورة قدم أو رأس أو يدٍ لتمثال مهشم؟ أي افتئات على الحقيقة هذا؟ إن الحجر الأسود حجر من حجارة الكعبة، حجر بناء ليس إلّا.

---

(١) سورة الحج، الآية ٢٢.

(٢) أصبحت الشجرة في عيد الميلاد عند بعض النصارى رمزاً دينياً مع أن جذور هذه العادة وثنية.

وبعد، فهذه نظرات ألقيتها على واحد من كبار المستشرقين الذين تصدّوا للنصوص الإسلامية في أصولها وكل همهم أن يشككوا في دين الله. وقد كانت كتاباته التي نشرت بلغات عديدة تحمل أفكار الضلال التي وقع فيها كثير من خلق الله. على أنني لا أنكر ابتداء وانتهاء مقدرة بروكلمان، وجلده، وعمق النتائج التي وصل إليها في مجال الدراسات اللغوية بخاصة. غير أنّ الإنصاف يقتضي أن ينبّه إلى النزعة السلبيّة في موقف بروكلمان من الأصول الإسلاميّة.

لقد نفّر كثير من المستشرقين أبناء قومهم من الإسلام فصوروه ديناً مُلَفّقاً. وخلعوا كثيراً من أبناء المسلمين من دينهم، ولا أدل على ذلك من أن أفكارهم تنتشر دون رَدّ، بل يكال لأصحابها المديح وصفات «البحث العلمي» والموضوعية الجادة، حتى بات كثير من الباحثين يوثقون آراءهم بالعودة إلى دوائر المعارف الإستشراقية.

لا بدَّ لنا من أن ندرس هذا التراث الإستشراقي ونرد عليه بلغتنا العربية وباللغات العالمية الأخرى. وهذا فيما أرى فرض كفاية لا يسقط إلاّ أن تقوم فئة لسداد هذه الثغرة.

ثانياً: المنابع الثقافية لشبهات جولد زيهر حول الحديث النبوي(١)

ينطلق المستشرقون بعامة في دراستهم للحديث النبوي من خلال ثقافتهم السابقة: بأفكارها ومعاييرها؟ وهو لا ينظرون إلى الحديث النبوي على أنه كلام رسول الله في كثير من الأحيان، بل ينظرون إليه على أنه «مادة خام» تكدست فيها أشتات عناصر فكرية مختلفة، ثم يحاول المستشرق التعرف على هذه العناصر ليرد

(١) سأستعرض في هذا المقام مقالة «جولد زيهر» التي ترجمها عبد الرحمن بدوي، ونشرها في كتابه «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية» وعنوان هذه المقالة «العناصر الإفلاطونية المحدثة والغنوصية» دار القلم لبنان، ١٩٨٠. والنصوص المشار إليها عن «جولد زيهر» مأخوذ عن هذه المقالة.

- وفقاً لمقاييسه -[1] كل عنصر إلى مصدره. وللنظر إلى ما يؤكد هذا التصور الذي ينطلق منه المستشرق «جولد زيهر» حيث يقول:

«لسنا في حاجة إلى إجهاد أنفسنا في البحث كثيراً من أجل أن نسلم تَوّاً بإمكان وجود عناصر أفلاطونية محدثة وغنوصية في داخل هذه المادة الخصبة الغنية التي رويت على شكل أحاديث عن النبي».

ويتمادى «جولد زيهر» إلى درجة يرى معها أن توفّر العناصر الأجنبية في «وثائق الإسلام الدينية» أمر طبيعي لا يثير الدهشة. وزعم أن ما يثير الدهشة والعجب أن يتصور الإنسان خلو «وثائق الإسلام الدينية» من تأثير الأفكار التي غزت المناطق التي امتد إليها الإسلام وانتشر فيها. تلك الوثائق التي أخذ أصحابها الكثير من الثروة للوسط الذي هُم فيه وجعلوه على صورة أحاديث للنبي كما زعم.

وسنقف - فيما يأتي - على أنموذج لأهم المصادر، أي المنابع - التي كانت حاضرة في ذهن هذا المستشرق، وهو يدرس الحديث النبوي وسيصحب حديثنا هذا بيانٌ آخر لتصور السياق الثقافي الذي تسللت من خلاله الأفكار الأجنبية لتبني لُحْمة النص الإسلامي. ثم لتشكّل - فيما بعد - العقلية الإسلامية والمواقف التاريخية التي صُنع منها لاحقاً، نسيج الحضارة الإسلامية، ثم نناقش هذه الأمور بمقدار ما تستحق.

إن قَصْدَ المستشرق من وراء ذللك لا يخفى، وهو إظهار الحضارة الإسلامية على أنها أرضية، شأن أي حضارة أرضية أخرى، ولا علاقة لمبادئها بنور الوحي في زعم «جولد زيهر» والنظرة الإستشراقية بعامة.

وثمة قصد آخر وهو تفسير الذبذبات التي مرّت بها هذه الحضارة، قوة وضعفاً،

---

(١) يقول «روري باريت» في هذا المعنى ما نصه «ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا، وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن».

مَدّاً وجزراً، على أنه جزء من التباين الكبير بين العناصر الثقافية البشرية المزعومة التي شكلت نصوصها الدينية.

أمّا النموذج الذي سوف أتناوله هنا فهو قراءة «جولد زيهر» للحديث النبوي في ضوء ثقافته المستقاة من الفكر اليوناني؛ إذ يذهب هذا المستشرق إلى أن «الغنوصية والأفلاطونية المحدثة تشكلان مراجع أساسية لكثير من الأحاديث التي عليها أهل السنة والجماعة».

قال: «وكان التصوف خصوصاً هو الذي عُني بتصوير الكثير من الأفكار الأفلاطونية المحدثة والغنوصية في صورة إسلامية. فعن دوائر الصوفية صدر الكثير من الأحاديث الموضوعة التي قُصِد بها تبرير قواعد هذا الاتجاه الديني وهو التصوف...».

ويرى «جولد زيهر» أنه يدخل في عداد المتصوفة «الفلاسفةُ الدينيون الذين من نوع «إخوان الصفا» وأصحاب المذهب الإسماعيلي «فمن هذه الدوائر كلها صدرت ثروة ضخمة من الأحاديث صُوّر النبي فيها بصورة ترجمان للأفكار الأفلاطونية المحدثة والعنوصية» انتهى.

ولو اقتصر كلام «جولد زيهر» في حديثه على إبراز مصادر المتصوفة، والفلاسفة، وأهل المذاهب المنحرفة، لهان الأمر ولصدّقناه في كثير من مما قال؛ ولكنه قد تجاوز أولئك إلى أهل السنة والجماعة حيث عَدَّهم متأثّرين بالغنوصية.

قال «جولد زيهر»: «هناك عنصر أجنبي أُدخل في تكوين نظرية أهل السنة في النبي. ولكن على الرغم من أنه أجنبي فقد ظهر أنه ملائم وقابل لأن يهضمه أهل السنة. وذلك العنصر هو تصوير محمد (ﷺ) باعتبار أنه كان موجوداً قبل أن يوجد على الأرض. وهذا التصوير لا يبدو كنظرية قالت بها المدارس الغنوصية والصوفية، وإنمايبدو في صورة أحاديث موثوق بصحتها منتشرة في البيئات السنية على اعتبار أنها قول قال به النبي نفسه».

ويرد «جولد زيهر» اعتقاد المسلمين بأن الرسول ﷺ آخر الأنبياء إلى المواعظ المنسوبة إلى «كليمانس» ثم يَخْلُص إلى القول: «ومن هنا نستطيع أن نَحْكم إلى أي حدّ كانت الأحاديث، حتى القديمة منها، قابله للتأثر بسهولة بالأفكار الغنوصية».

يتضح مما سبق كيف يرتكز «جولد زيهر» في دراسة الحديث النبوي الشريف على ثقافته المستقاة من الفكر اليوناني.

وسأقف فيما يأتي على الأحاديث التي يُرَكِّز عليها هذا المستشرق الذي يُعدّ مَعْلماً بارزاً في تاريخ الدراسات الاستشراقية.

نوعية الأحاديث التي يركز عليها «جولد زيهر» ومنهجه في ذلك:

حسبي في هذه العجالة أن أقف على أنموذج من الأحاديث التي يدرسها «جولد زيهر» وسيكون مثالي - هنا - مركزاً على الأحاديث المتعلقة بالعقل الإنساني وتمجيده: فقد استدل «جولد زيهر» من خلال هذه الأحاديث على أن التحريف قد وصل إلى عقائد أهل السنة، وعمّ الحديث النبوي عن طريق الأفكار الفلسفية اليونانية وغيرها.

وقد ركَّز «جولد زيهر» في سبيل إثبات مزاعمه بفساد صحة الأحاديث بعامة، على ما زعمه من آثار الأفلاطونية المُحْدَثة والغنوصية في أحاديث العقل، فذكر الحديثين الآتيين:-

الحديث الأول، ونصه «أوّلَ ما خلق الله العقل، فقال له أقبل. فأقبل، ثم قال: أدبر، فأدبر، ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خَلْقاً أكرم عليّ منك، بِكَ آخذ، وبك أُعطي، وبك أُثيب وبك أعاقب».

والحديث الثاني هو: « رُوِيَ أن عبد الله بن سلام سأل النبي في حديث طويل، في آخره وَصْفُ عِظَم العرش، وأن الملائكة قالت: ربنا هل خلقت شيئاً أعظمَ من العرش، قال: نعم، العقل».

وأود هنا أن أنبه إلى ما يأتي:

١- أن «جولدزيهر» يعلم أن هذين الحديثين رواهما الغزالي في «إحياء علوم الدين» على أنهما عن النبي -ﷺ-، ويعلم أيضاً أن مرجع «الغزالي» في هذه الأحاديث التي تمجد العقل هو كتاب «العقل» لداود بن المُحبّرْ البصري (٢٠٦هـ). وأكثر من ذلك أن «جولدزيهر»، يعرف موقف علماء الحديث من كتاب العقل هذا، وعلى رأسهم الإمام «أحمد بن حنبل». أما كتاب العقل فحَكَم عليه أهل العلم بأنه موضوع[١]. وقد أورد الذهبي في كتابه «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» ما يشير إلى أن كتاب «العقل» ليس أصلاً لداود بن المحبّر، بل لقد سرقه داود عن «ميسرة بن عبد ربه»، ثم ركّب له أسانيد غير أسانيد ميسرة، ثم سرقه «عبدالعزيز بن أبي رجاء»، ثم سرقه «سليمان بن عيسى السنجري»[٢].

٢- إن علماء الحديث كانوا بالمرصاد لمثل هذه الكتب الموضوعة يتعقبونها، وينقدون سندها.

٣- إن الحديث ينبغي أن يؤخذ من الكتب التي تخصصت في رواية الأحاديث بأسانيدها الصحيحة المعتمدة عند المحدثين، وليس عن أي كتاب آخر، ككتاب إحياء علوم الدين، للغزالي. فعلى مكانة «أبي حامد» في مجال تربية النفس والنشء في كتابه «الأحياء»، فإن الأمر سيكون مختلفاً إذا نظر إلى كتابه من جهة تثبّته في الرواية. وقد نبه علماء السلف إلى هذا، كابن تيمية وغيره - رضوان اللهعنهم أجمعين-.

٤- إنّ الأحاديث المتعلقة بالعقل ومكانته قد نبّه إليها علماء الحديث أصلاً، وعدّوا أغلبها موضوعاً. لكن «جولدزيهر» يهتم بهذا النوع من الحديث ليعمّم الحكم، والزعم بأن ما اعترى هذا النوع من الحديث من وضع قد اعترى الحديث كلّه.

---

(١) قال الحافظ الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال ٢/ ٢٠ في ترجمته لداود بن المحبَّر: «صاحب (العقل) وليته لم يصنّفه... قال أحمد: لا يدري ما الحديث...».

(٢) انظر الذهبي: ميزان الاعتدال ٢/ ٢٠.

٥- إنّ إنكار كثير من الأحاديث المتعلقة بإعلاء مكانة العقل لا يعني الانطلاق في ذلك من المبدأ الذي يقره «جولد زيهر»، وهو التماس موافقتها أو مخالفتهما للإفلاطونية المُحْدَثة أو الغنوصية. فلا شك في أن للعقل مكانة كبيرة في النصوص الإسلامية، نصّ على ذلك القرآن الكريم في عدد من المواضع وجعل الإنسان به مناطَ تكليف، ومَعْنّياً بالخطاب من بين كثير من المخلوقات.

٦- وأود هنا أن أنبه إلى مكامن الخطر في منهج «جولد زيهر» في تناول النص الإسلامي بعامة. فجولد زيهر لا يقف عند حدود الأحاديث التي تمجّد العقل ليطعن فيها، بل يتجاوز ذلك إلى أمور يلجأ إليها كلّما تعرض في بحثه للحديث النبويّ في سبيل تأكيد فكرة الشك المطلق في الحديث كله، وفي سبيل إرجاع الحديث النبوي إلى عناصر فلسفية أو بشرية مختلفة.

أظهر معالم منهج «جولد زيهر» في الشك

ولعل من أبرز معالم منهجه في ذلك ما يأتي:

أ- التماس أدنى شبهة بين معنى النص الإسلامي وما ورد في الفلسفات القديمة، ليؤكد بذلك أن النصوص الإسلامية التي تحمل هذا القدر من الشّبه، مأخوذة من المصادر والفلسفات القديمة.

قال: «جولد زيهر» في تفسير مبدأ الوسطية، بمعنى أن الأمة الإسلامية أمة وسط، «إن نظرية الوسط (القائلة بأن كلّ فضيلة وسط بين رذيلتين) التي قال بها «أرسطو» في الأخلاق قد صِيْغت في عصر متقدم على صورة حديث عن النبي».

وغني عن البيان أن هذا مُرْتَكَز واه، فثمة معان مشتركة تلتقي عليها الطبيعة البشرية كتحديد معنى الوسطية، فالشجاعة هي التوسط بين الجبن والتهور، والكرم توسط كذلك. وليس شرطاً أن تكون هذه المعاني منقولة أو مقتبسة.

ب- الطعن في سند الحديث واعتبار الإسناد أمراً ميسوراً. قال في معرض كلامه عن أحد الأحاديث: «ولم يكن من الصعب أيضا، أن يجد له إسناداً». وقال

أيضاً في معرض كلامه عن هذا الحديث «فإن ابن أحمد بن حنبل جعل له مكانا بين الإضافات التي أضافها إلى كتابه «الزهد» الذي ألفه أبوه (واسم هذه الإضافات زوائد الزهد، والطبراني جعل له إسناداً ينتهي عند أبي هريرة الذي كان قادراً على أن يتحمل كل إسناد)»ً.

فانظر هذا الزعم الذي يحاول أن يطمس جهود العلماء في تمحيص الحديث. ومن المعلوم أن أمة من بين الأمم لم تُعْنَ بنقد نصوصها، سنداً ومتناً وغربلتها، كما عُنيت بذلك الأمة الإسلامية التي أرست دعائم عِلم جديد لهذا الغرض هو علم «الجرح والتعديل».

ج- زعمه أن نُقّاد الحديث كانوا يعتمدون على المعايير الخارجية الظاهرية في قبول الحديث.

قال: «ومع أن المتشددين من نقدة الأحاديث رفضوا صوغ هذه النظرية تبعا لمعاييرهم الخارجية الظاهرية التي يعتمدون عليها في معرفة صحة الأحاديث»ً.

ولا يخفى على من لديه بصر بعلم الحديث - أدنى بصر - مدى عناية العلماء بنقد الحديث سنداً (النقد الخارجي)، ومتناً (النقد الداخلي).

د- اتهام المُحدّثين بـ (التحايل) من أجل إثبات صحة الحديث. وقد استخدموا على زعمه التأويل النحويّ من أجل استبعاد الاتجاه الأفلاطيني منه. قال: «وليس أدل على تَوَطُّن الحديث الممنوع في العلوم الدينية الإسلامية، على الرغم من احتجاجات أهل السنة وعلى الرغم من تحايلات رجال الحديث، ليس أدل على هذا من أن واحداً من أكثر أهل السنة تشدّداً وتعصباً، رأى نفسه مضطراً إلى الالتجاء إلى أن يؤول الحديث تأويلاً نحوياً من شأنه أن يسلب الحديث اتجاهه الأفلوطيني». وهو يعني بذلك المتعصب في نظره (ابن تيمية) رحمه الله. ولست أدري على أي أساس يحذر على عالم الحديث الاستئناس بالوجه اللغوي في التفسير وتوجيه النصوص. ولا أحسب هذا المنطلق إلا

صالحاً للنظر في نقد النص من الداخل لدى كل الأمم، فما وجه الغرابة في أن يعود إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، أو سواه؟!

وبعد، فهذه وقفة مع مستشرقين كبيرين من أعلام الاستشراق الألماني تَتْبعها، إن شاء الله، وقفات أخرى مع مستشرقين آخرين، من خلال ما نُشر لهم من نصوص استشراقية.

مراجع

الألباني=

ناصر الدين الألباني: نصب المجانيق لنسف قصّة الغرانيق، دمشق ١٩٥٢.

بدوي =

عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م.

برنابا =

إنجيل برنابا،إنجيل برنابا، ترجمه عن الإنجليزية خليل سعادة، مطبعة المنار، مصر.

بروكلمان =

كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمه نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م.

الذهبي =

محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ): ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الفكر.

رحمة الله الكيرواني =

رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرواني: إظهار الحق، المكتبة العصرية.

الشحّام =

عبد الله الشحّام: الاستشراق (مذكرة مكتوبة على الآلة الكاتبة ومحفوظة في

مكتبة الجامعة الأردنية، عمان - الأردن).

الطبري =

ابن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، بولاق ١٣٢٨هـ.

العقيقي =

نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة.

مالك بن نبي =

مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

موريس بوكاي =

موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، دار الكندي، بيروت - لبنان ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

ابن هشام =

عبد الملك بن هشام المعافري: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م.

يوهان فوك =

يوهان فوك: مقالة له عن كارل بروكلمان، منشورة في كتاب «المستشرقون الألمان» دراسات جمعها وشارك فيها صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت - لبنان.

نظرة تأصيلية
في مفهوم الأدب الإسلامي
وعلاقته بالآداب الأخرى[1]

من الصفات التي يُوصف بها الإسلام أنه «دين الفطرة». والفطرة «ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به»[2] قال تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفاً، فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»[3] وقال رسول الله ﷺ: «كُلَ مَوْلودٍ يُولَدُ على الفِطْرة فأبواه يُهَوِّدانِه أوْ يُنصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه»[4].

والفطرة «نوع من الجِبِلّة والطَّبع المَتَهَيء لقبول الدِّين: فلو ترك عليها لاستمرّ على لُزومها ولم يفارقها إلى غيرها. وإنّما يَعْدل عنه من يَعْدِل لآفة من آفات البشر والتقليد»[5].

والأدب الإسلامي- كالخُلُق الإسلامي - هو: الجبلّة والطّبع المُتَهيء لقبول الدِّين القويم وما يَنْطوي عليه من خُلُق سليم، وأدبٍ إنساني طيِّب.

ولما كان «الأدب» بمعناه الاصطلاحي - يتضمَّن فيما يتضمّن: التعبيرَ الفنّي، والقُدْرةَ على نَقْل الخَلَجات النَّفْسية والأفكار والمشاعر، فإنّ ما يمِيْز الأدب

(١) هذه السطور مهداة إلى الدكتور محمود إبراهيم عضو مجمع اللغة العربية الأردني وأستاذ الأدب الإسلامي بالجامعة الأردنية. وقد نُشرت هذه المقالة في المجلّة الثقافيّة، الجامعة الأردنيّة، عمان، العدد (٢٥) سنة ١٩٩١.

(٢) ابن منظور (اللسان: فطر ٥/٥٦).

(٣) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٤) رواه البخاري في «الجنائز» ٨٠، ٩٣.

(٥) ابن منظور (اللسان: فطر ٥/٥٨).

الإسلامي عن غير الإسلامي، أنّ الأدب الإسلامي يجمع إلى التعبير الفنّي الجميل، المعنى الإسلاميّ، أو قل هو يجْعل التعبير الفنّي وعاءً للمعنى الإسلاميّ.

وانطلاقاً من هذا، فإننا لا نستطيع أن نعُدَّ المعنى الإسلامي في ثَوْبٍ غيرِ فنيّ أدباً إسلامياً، وإنْ كان هذا لا يُخرجُه عن إطار الشّكل اللغويّ الذي يَحْمِل مَعنىً إسلامياً. ولكنْ ليس كلّ نصٍّ لغويّ يُعَدّ نصّاً أدبيّاً، ولو حمل مضْموناً سليماً. وإلاّ لكان كلُّ نصّ يعبِّر عن معنى إسلامي أدباً، ولَدخل في باب الأدب الوصفُ العاديُّ المجرد الذي ربما لا يتضمّن قيمةً فنيّةً تذكر، ولاستوى الأديبُ وغير الأديب.

وانطلاقاً من هذا - أيضاً - فإننا لا نستطيع أن نعُدَّ كل نصّ فنّي جميل أدباً إسلامياً حتى لو كان قائلُه مسلماً.

وعلى هذا فالنّص الذي يدعو إلى الفجور - مثلاً - أو يدعو إلى أيّ نوعٍ من أنواع الرذيلة، لا يُعَدّ فنّاً إسلاميّاً، مهما ارتقى شكلاً، ولكننا - والحالةُ هذه - لا نستطيع أن ننفي عنه صفة الفن، فالنَّص الذي توافرت له الصيغة الفنية هو نوع من أنواع الأدب، ولكنّه ليس بالضرورة أدباً إسلامياً، وعلى هذا كان من حقنا أن نُبْعد عن الأدب الإسلاميّ الشعوبيّ والأدب المُتَحلّل، الذي قد نجده حتى في بطون كتب التراث وفي العصور المتلاحقة إلى عصرنا.

والسؤال المطروح، هنا: ما الأدبُ الإسلامي؟ ألا يمكن أن يُطمأن في تعريفه إلى أنّه الأدبُ الذي يدعو بأسلوب فنّي إلى قيمة إسلاميّة؟ ثم، ألا يمكن أن نَصِف القيمة الإسلامية بأنّها كلُّ ما دعا إليه الإسلام ويخدم تعاليمه؟ ثم أليست تعاليمُ الإسلام تتناسب والفِطْرة السَّليمة في الإنسان؟

فالمُسلم يعتقد أنّ تعاليم الإسلام هي الأسمى بحكم كونها ربَّانية، وما هو ربَّاني في تنظيم حياة الإنسان أسمى مِمّا هو بشريّ، وذلك لِما لا يخفى من أنّ «الربّ» الخالق أعلمُ من المخلوق بالخلق؟! ومن هنا تأتي ميْزة الأدب الإسلاميّ التي تميزه عن غيره من الآداب، وذلك لأنه يستمد قِيَمه من التعاليم الربانيّة.

والأدب نوع من أنواع السلوك النفسيّ والاجتماعيّ، شأنه في ذلك شأن أيّ سلوك أخلاقي يعبّر عن واقع نفسيّ أو اجتماعيّ. وكما أنه ليس كل سلوك يصدر عن المسلم يُعَدّ تجربة ناجحة في ترجمة القيم الإسلاميّة - وإلا لكان المسلم، والحالة هذه، مَلاَكاً أو مَعْصوماً - فإن السّلوك الذي لا يُمَثّل قِيْمة إسلامية لا يُعَدّ إسلامياً، سواء أكان هذا السلوك أدباً أم أيّ تصرُّف من التصرفات.

والمسلم، كأيّ إنسان، يُخْطىء ويصيب، فإن صدر عنه أدَب لا يتّفق والقيمَ الإسلامية فلا يؤدي هذا الطبع، أو هذه القابلية فيه إلى اعتباره غيرَ مُسلم، فـ «كلّ ابنِ آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون»[1] ولكنّنا لا نَعُدّ ذللك الذي صدر عنه أدباً إسلامياً أو تَصَرّفاً إسلاميّاً.

والشيء نفسه يُقالُ عن تصرف غير المسلم، فالسلوك الذي يسلكه غيرُ المسلم مما يتفق فيه مع القيم الإسلاميّة، كالبرّ، والصدق، والأمانة، يُعَدّ تجسيداً لقيمة إسلامية، وإن كان صاحبه غيرَ مسلم.

وعلى هذا يكون من حقنا أنْ نوظف الأعمال الأدبيّة التي تجسّد قِيَماً إسلاميّة بوصفها نماذج من الأدب الإسلامي.

هَبْ أنّك وقَفت أمام قِصّة لا تَعْرف صاحبها، وهي تَنُصّ على قيم إسلاميّة، كتقوى الله، أو خَفْض الصوت، وغض البَصَر، والابتعاد عن الزّنا، وإكرام الضَّيْف والجار، وأداء الأمانة إلى أهلها، فإنك سوف تَحْكم عليها بأنّها أنموذج من الأدب الإسلامي.

ثم هَبْ أنّك قرأت قصَّة تَحْمل عكْس كثير من تلك القيم، كأنْ تكون أمام قِصة غرامية بَيْن جار وحليلة جاره، فَهَلْ تَعُدُّ ذلك نصّاً إسلامياً، بناءً على عِلْمك بأنّ الكاتب مسلم؟!

وعلى ذلك كان من حقنا - نحن المسلمين - أن نُترجم إلى لغاتنا ما يمكن أن يكونَ انتصاراً لقيمنا الإسلاميّة من آداب الأمم الأخرى.

---

(١) رواه الترمذي (القيامة ٤٩)، وابن ماجه (الزهد ٣٠).

ولا يقال. - هنا - إن السّمّ يختلط بالدسم، وإن هذه الآداب لا تخلو من قيم تخالف قيمنا.

لا يقال ذلك لأنني أتحدّث - هنا - عن النّص الذي لا يتعارض مع قيمنا. أمّا ذلك النوع من الأدب الذي ينطوي على الورد والشّوك، فلِكُتّابنا أن يتصرّفوا إزاءه بشيء من التخطيط، والتدبُّر، كأنْ يُنقل أدبُ الأطفال، مثلاً، لأطفالنا بشيء من التصرف.

فالقصص البوليسية - مثلاً - قد تُمَثَّلُ مَسْرحيّاً، في بلدها، على نحو ما وَرَدت عليه في الأصل، فإذا مُثِّلَت في بيئة أخرى أُجريَ عليها من التعديل بالقَدر الذي يتناسب مع البيئة المستضيفة، وهذا ما عملته الآداب الأخرى حين أفادت من آدابنا نحن، وبهذا تُصْبح الخبرة البشرية والتراث الإنساني كلّه ملكاً للجميع.

وعلى هذا فإن التخطيط الأدبي يمثِّل منْهجاً حيَويّاً، ووسيلة مهمة من وسائل خدمة الأدب الإسلامي، لتحقيق هذا الهدف النبيل الذي يُعدّ واجباً حضارياً وأدبياً على الأمة، ولا سيما في عصرنا الحاضر، يقوم به ذوو الكفاءة الأدبيّة والتصور الإسلامي.

أليس من لوازم الأدب، لينمو ويزدهر، أن يتلاقح بالآداب الأخرى، وأن يستفيد من تجربتها؟ أو ليس هذا أيضاً، من مهمة الأديب في عصره؟!

لا ينبغي أن يُتعامل مع الأدب الإسلامي كما يتعامل مع الإنسان الذي يعاني من مرض نَقْص المناعة، يُخشى عليه من أيّ احتكاك حتى لا يصبح هذا الاحتكاك صدمة قد تؤدي إلى نزيف لا يُوقف، بل ينبغي أن يُتعامل معه بوصفه شجرةً مَرِنة تتثنّى بطلاقة أمام الريح، ولكنّها ليست هشّة حتى تُحْبَس في بيوت زجاجية. إنّ الأدب الفنيّ الواثق يشبه في احتكاكه بالآداب الأخرى، شاباً فتياً لا يزيده التّجوالُ والضَّرْبُ في المشارق والمغارب إلاّ حكمة الشيوخ وحِنْكة المجرِّبين.

وما دام الإسلام - ديناً - هو دينُ الفطرة، فإن الأدب الإسلامي - أدباً - هو

أدب الفطرة، والفطرة إنسانية. وقد مر بنا أن الإنسان يُولد على الفطرة، فالفطرة التي يُولد عليها تشكل مَصْدراً من مصادر الخير فيه.

وقد تنطمس معالمُ هذه الفطرة بمؤثرات خارجية مكتسبة ولكنَّها تظل -بحسب كمية المؤثرات الخارجيّة، وبحسب نوعية هذه المؤثرات، وبحسب التفاوت الفرديّ الفطريّ الذي يتمايز به الناس من شخص إلى آخر- قابلةً لأن تُطلّ من وراء سحب هذه المؤثرات، لتتجلّى في الأفق فيصدر عنها إشعاعُ القيم الإنسانية التي فُطرت عليها النفس البشرية.

وهذا ما يفسر لنا كيف يلتقي معنا الناس في كثير من قيم الخير، بل هذا ما يمكن أن يمثل قاسماً مشتركاً من السلوك المُتَقَبّل ولغة مشتركة يفهمها البشر جميعاً.

وعلى ذلك فإنه ينبغي أن نبحث مع البشر عن الكلمة المفهومة بيننا وبينهم. وهذا ما فَعَله الإسلام حين أمرَ المسلمين أن يبحثوا عن الكلمة السَّواء، لينطلقوا منها في التفاهم مع الآخرين «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم»[1].

فإذا رأينا أنّ أيَّ أمَّةٍ من الأمم تلتقي معنا في بعض القيم، كان علينا أن نُركّز على هذه «المسلّمات» بيننا وبينهم لنجعل منها أرْضاً ثابتة نَبْني عليها عند التعامل مع هذه الأمة.

أمّا أنْ نقف متنكّرين للأمم، وللمقدار المشترك بيننا وبينهم - بحُجّة ما نختلف معهم فيه-. فإن هذا يترتَّب عليه مزيدٌ من العُزْلة، وقد يُخيَّل إلى هذه الأمم أنَّنا نخالفهم في كل شيء. وقد يظنون أن ما يمكن أن يكون قيماً مُقرِّبة بيننا وبينهم كالإيمان بالله، وبرّ الوالدين، والإحسان... صفات لا تتوافر فينا، لأننا قد نكون أسهمنا من طرفنا، كما أسهموا هم من جانبهم، في سوء فهمنا، وأننا نفترق عنهم

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

افتراقاً، لم تبْق معه أيّ أرض مشتركة من القيم.

ولطالما حَدَث مثل هذا فعلاً، فقد ظلّ الأوروبيّون، عصوراً طويلة، يحسبون المسلمين وثنيين أو هراطقة، يتعطشون للدماء، ويستسيغون تَعذيب البشر، بل لقد أخرج بعضُهم المسلم من دائرة البشر، فتوهموا أنّهم من نسل «الشيطان». وما تزال عقابيل هذه النظرة راسخة في سلوك كثير منهم.

لا شكّ أنَّ الشجرة الجافَّة تُحْدثُ أوْراقُها الصفراء حفيفاً مُرعباً حين تهب العاصفة، فتراها تتساقط مَرّة واحدة، وهذه هي حال من يُغالي في خَوْفه من أدْنى احتكاك بآداب الأمم الأخرى، فتراه يعتريه الفَزَع، ويَدبُّ في أوصاله الرعب، حين يُدْعى إلى التأمّل في الآداب الأخرى، فضلاً على أن يأخذ منها، وهو ينأى بنفسه عنها، جملة وتفصيلاً. ويفرّ منها فراره من الطّاعون.

ولو بحثنا في تاريخ الحضارة الإسلامية لوجدنا أنّ شجرة الأدب الإسلامي قد أظلّت بظلها الوارِف آداب الأمم الأخرى. وقد أخَذَتْ من تلك الآداب أشياء، وأقرتها في أخرى، وخالفتها في ثالثة، ومع الزمن أصبحت آداب الأمم الأخرى، غذاء يغذّى جُذور الشجرة الوارفة بَعْد أن تمثّلتْه وهَضَمَتْه دون أن يؤثر في جِبِلّتها الطيبة، أو أنْ يُحيلها إلى شجرة خبيثة.

لقد أخذ الأدب الإسلامي من أدب العصر الجاهلي ما تخيِّره واتَّسق مع قيمه، شكلاً ومضموناً، وأخذ من آداب الفُرس، والسريان، واليونان، والهنود والإسبان، والأفارقة، ولو خاف أهله عليه، وحجبوا عنه النّورَ لَحَرموه بذلك من أهم مقومات الحياة.

إنّ علينا أن نقف على هذا المصدر الثّر من تراث البشرية، في تخطيطٍ منهجيّ مُبَرمج، تُوضَع له الضوابطُ والأسس اللاّزمة التي تمكننا من اتّخاذ هذا التراث الإنساني خادماً لأهدافنا، وبُعداً من أبعاد قيمنا الإسلامية وهمزةَ وصل تُعَزِّز صِلَتنا بشعوب الأرض.

وبذا - وعن طريق التخطيط النقدي المبرمج- يمكن أنْ يكون وَجْه الشبه بين أدبنا الإسلامي وآداب الأمم الأخرى بمثابة اللغة المشتركة، أو هو كلمةٌ سواء ندعوهم من خلالها إلى مزيد من كلمات سواء بيننا وبينهم. وبذا يكون الأدب الإسلاميّ وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية الإنسانية.

وثمة تحفّظ لا بُدَّ من الإشارة إليه، وهو أنّ القدر المشترك بيننا وبين البشر، من القيم السليمة التي يُقرها الإسلام ولا تتعارض مع تعاليمه، لا يَنْبغي أنْ نبالغ في تصويره فيدخُلَ إلينا مع هذا القدر المشترك ما لا يُقِرُّه دينُنا، ثم يُقال - بعدئذ - هذا من القَدْر المُشترك!

إنّ الأدب سلاح ثقافيّ عالميّ، إنه خطاب حضاريّ يخاطب به الأديب الذي ينتمي إلى بيئة ما، وزمان ما، أهل كلّ بيئة، وكلّ حضارة، وكلّ زمان. فلو تنبّه رُسُب الثقافة من الغرب والشرق، مثلاً، إلى أهميّة الأدب في جوهر رسالته مضموناً، وجمالها شكلاً، لكان ذلك من خير الوسائل لإقامة سُبل التعاون، بدل التباين، ولحلّ الإقبال بدل الإدبار. ولو أخذنا العبرة من القرآن الكريم لأدركنا أن هذا الكتاب كان رسالة ثقافيّة في إطار فنيّ بديع. ولو أخذنا العبرة -في المقابل- من الخطاب الاستشراقي الذي أرسله الغرب إلينا، من خلال الحركة الاستشراقية، مثلاً، لرأينا أن هذا الخطاب لم يعط، في الغالب، إلاّ ثماراً مُرّة، لأنه يقوم في مجمله على البحث عن الفوارق، دون التماس يُذكر لمواطن الجمال، أو للكلمة السّواء، أو للفطرة التي فطر الله الناس عليها.

المراحل الزمنية للغة العربية الفصحى

بقلم المستشرق فولف ديتريش فيشر[(١)]

ترجمة عن الألمانية

المشكلةُ التي نطرحها هنا عن التصنيف الزمني لمراحل اللغة العربيّة الكلاسيكية سبق أن رآها من قبل هيرمان ريكندورف Herrman Reckendorf في كتابه «النحو العربي» المنشور سنة ١٩٢١م، وهو يتطلّع إلى مزيد من البحث فقال: «إنّ النظرة التاريخية إلى النحو العربي هي الآن من المهام الملحة في الدراسات العربية». وتتجلّى أهميّة هذا المتطلّب، الذي لم يتأتّ إنجازه بعد إلى يومنا، في أن هذا الأمر لا يتعلق بالمشكلات اللغوية للعربيّة، وإنّما مناطُه الشروط المتَّبعة في تفسير دقيق للنصوص. فالمعرفة الدقيقة بخصائص الاستخدام اللغويّ الذي كان سائداً في المحيط الزمني لنصّ ما، هي وحدها القادرُة على اتّخاذ قرار بتفسير مُعَيَّن لحالات الغموض النحوي في ذلك النص. ولدى محاولة ترتيب المراحل الزمنية لتاريخ العربيّة الكلاسيكية، فإننا نصطدم بعقبتين جوهريتين:

١- العقبة الأولى، وتتمثل في نشوء القواعد والمعايير المدرسية النحوية

---

(١) المستشرق الأستاذ Wolfdietrich Fischer من المستشرقين البارزين، وهو يشغل منصب أستاذ كرسي ورئيس معهد اللغات الشرقية بجامعة Erlangen Nürnberg بألمانيا. وقد نُشرت هذه الترجمة في المجلة الثقافيّة، الجامعة الأردنية، العددين ١٢-١٣، سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م. وأما الأصل فقد نشره المؤلف في مجلّة «عبر النهرين».
Abr-Nahrain 12 (1971), Leiden

بعنوان:

Die Perioden des Klassischen Arabisch.

التي أرْسَت دعائم النظام النحوي على نحو Grammatische Schulnorm لا يقبل التبديل. ووفقاً لهذا النظام أصبح يُنظر إلى كلّ تغيير باعتباره خطأ أو انحرافاً بتأثير من اللغة العربية الدارجة Volgarismus لا على أنه تغيير في طرائق الاستعمال اللغوي.

٢- العقبة الثانية، وتتمثّل في استمرار ثبات اللغة، الذي هو ثمرةٌ تَمخضت عن المعايير المدرسيّة النحويّة. وهذا الركود يمهِّد إلى احتمال أن تَعامل النصوص القديمة المُنْبَثّة في النصوص الأحدث منها، باعتبارها لم تتغيّر، في حين أنّ النصوص القديمة المقتبسة هي في الغالب غيرُ مكتوبة بطريقة تميّزها عن النصوص التي تضمنتها. وبذا كانت الاستفادة من نصوص فترة زمنيّة بذاتها أمراً في غاية العُسْر.

والحقيقة أن نشوء الأنظمة المدرسية النحويّة، أي النحو العربي، يعطينا الحق في أنْ نعتبر اللغة العربيّة - ابتداء من شواهدها النصيّة القديمة كالشعر العربي القديم، وحتى ظهور مرحلة متأخرة، وهي العربيّة المكتوبة المعاصرة- لغة واحدة، وأن نطلق عليها اسم «العربية الكلاسيكية» Klassisches Arabisch ؛ لأن الالتزام بالمعيار المدرسي التعليمي باعتباره ذا حُرمة، ومثلاً يُحْتَذى، هو الذي يَمِيزُ المثقفين من غير المثقفين، ومَن لَقِنوا العربيّة في المدرسة من الذين يقتصرون في حديثهم على لغة الحديث اليومي ولكنهم يحيدون في كتاباتهم عن أشكال المعايير المدرسيّة. ولذا كان ينبغي أن ينظر إلى مُصطلح «العربية الكلاسيكية» ليس باعتباره اصطلاحاً دالاً على تاريخ اللغة، بل بوصفه إشارة إلى واقع اجتماعي لغوي. وفي مقابل اللغة العربيّة الكلاسيكيّة تقف جميع الأشكال الأخرى للعربية بوصفها لهجات دارجة Vulgararabisch، ولا يسري هذا الفهم على العاميّات العربيّة Arabische Dialekte فحسب. وإنما أيضاً على ما يُسمَّى بالعربيّة المتوسطة Mittelarabisch (وهي مرحلة بين الفصحى والعامية) التي كانت في العصور الوسطى النمط الرائج للعربيّة المكتوبة والمتداولة بين اليهود والنصارى خاصة.

لقد استتبّ التأثير المعياري للمدارس النحويّة العربيّة في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، ولذا كان وَضْعُ كتاب سيبويه في مرحلة هي الحدُّ بين مرحلتين. وقد أصبحت العربيّة لغة الثقافة في العالم الإسلامي، حتى أنّ غير العرب تعلموا طرائق استخدامها، وقد أسهموا إسهاماً جوهرياً في تحقيق وحدة اللغة التي أرسى دعائمها النحاة. فقد كانوا يكتبون متحررين من التأثر بعوالق الأشكال اللغوية الدارجة.

وهكذا بلغت اللغة في القرنين التاسع والعاشر مرحلة جوهرية في تحقّقها، ولذا أردنا أن نشير إلى هذا الزمن على أنّه المرحلة الكلاسيكية للعربيّة، وهي المرحلة التي أُعطيت فيها اللغة العربية هذا الاسم[١]، وقد توافق فيها المعيار النحويّ المدرسي والتحقُّق الأدبي. إن المصطلح العربي «اللغة الفصحى» وهو ما يوافق في التسمية مصطلح «الكلاسيكية العربية» Klassisch - Arabich لم يكتسب معناه هذا إلاّ في هذا الوقت. فقد كانت كلمة فصيح (من قبل) تعني ببساطة الناطق بالعربيّة، على العكس من الأعجم وهو الذي لا يستطيع التحدث بالعربيّة[٢].

إنّ القوّة المعياريّة للمدارس النحوية قد اتّضحت حدودها: فلم تُصَغ كل الظواهر اللغويّة في قواعد، وليس كل القواعد لها ذات القيمة. كما أن الاجماع في مجال اللغة قد تجاهل المعايير، فاستحسن بعض التراكيب. أمّا الشروع في مواصلة التغيّرات بالنسبة للعربيّة الكلاسيكية فقد كان بطبيعة الحال قد بدأ في وقت مبكر، وقد استوت التغييرات على سوقها في القرن العاشر الميلادي فنشأت صور تركيبيّة جديدة متعددة للعربيّة الكلاسيكية. وقد ظلّت هذه الأشكال تستخدم إلى أن تكوّنت لغة الكتابة المعاصرة. ومن هنا كان لنا أن نتحدث عن فترة ما بعد الكلاسيكية، التي هي بطبيعة الحال لا تتصف بالتوحُّد. وإلى هذه اللغة ينتمي العلماء والنحاة أنفسهم وقد أخذت البدع اللغوية المضافة إلى الصورة المثالية للمرحلة الكلاسيكية

---

(١) انظر J. Fück في كتابه «العربية» Arabija ص ٧٣ وما بعدها.

(٢) انظر للمؤلف Farb - und Formenbeteichungen der ص ١٣ altarabische Dichtung.

تختلف بالتدرج من كاتب إلى آخر، وذلك بمقدار تأسّيهم بالنماذج القديمة.

إن المقام من جهة، وعدم وجود بحوث مناسبة من جهة أخرى، لا يسمحان بأن يؤتى على التنوعات الدّاخلية، والتفاصيل الجزئية لمرحلة «ما بعد الكلاسيكية»[١]، Nachklassiche Periode ، وبودي بدلاً من ذلك أن أنصرف إلى الحديث عن المرحلة التي تقع قبل التأثر بالنظام المدرسي للنحاة العرب، وهي التي نُشير إليها بـ «ما قبل الكلاسيكية». فرغم أن النحاة العرب استخرجوا بطبيعة الحال مادة عملهم النحوي من لغة المرحلة السابقة عليهم، ورغم أنهم وفي حالات متتالية، اقتصروا على القصائد العربية القديمة التي تنتمي إلى «مرحلة ما قبل الكلاسيكيّة»، في شواهدهم على الظواهر المجزّأة- إلّا أنّ لغة ما قبل الكلاسيكيّة قد اختلفت اختلافاً بيّناً عن المرحلة الكلاسيكية، أي المرحلة التي تشكلت فيها المدارس النحويّة.

وتبدو هذه التغيّرات أوضح ما تكون في أشكال الأفعال. ونحن نتذكر هنا باختصار الفرق بين الاستعمال الكلاسيكي وما قبل الكلاسيكي للغة:

- أصبح شكلا الفعلين الماضي والمضارع في المرحلة الكلاسيكية يستخدمان في الإشارة إلى مراحل زمنيّة محدّدة. أي أن الفعل الماضي يشير إلى الزمن الماضي.

- بصرف النظر عن صيغ الماضي الدال على التمنّي، وهي من بقايا الصيغ المنحدرة من المراحل القديمة - فبدون ارتباطه بـ «قد» يدل على الماضي التاريخي historische Vergangenheit وبارتباطه بـ «قد» يعرض واقعاً تَمَّ حدوثه في

---

(١) هنالك عدد وافر من الأعمال التي عالجت موضوع وصف لغة ما بعد الكلاسيكية، انظر مثلاً ما عمله H.L. Fleischer Beitrage Zur arabischen Sprachkunde «محاضرات في علم اللغة العربية» (منشورة ضمن مجموعة أعماله Kleinere Schriften المجلد الأول).

الحاضر أو الماضي ضمن إطار زمنيّ محدّد.

ويشير الفعل المضارع إلى الحاضر، سواء أكان الحاضر الدال على آنية الحدث aktuelle Gegenwart (الكلب ينبح الآن في التو) أم الحاضر الدّال على ديمومة الحدث Allgemeingultige Gegenwart (الكلب ينبح، أي الكلب حيوان نابح)، وباستعمال السين يدل الفعل على المستقبل، وهي حالة غنيّةعن التمثيل. وعلى ذلك يميّز النحاة العرب بين: الحال، والماضي والمستقبل، فيصفون وظائف أشكال الفعل مُستعينين بهذه المصطلحات وفقاً لاستخدامات اللغة في المرحلة الكلاسيكية بوصفها دالة على الحاضر والماضي والمستقبل. إنّ الأمر مختلف تماماً بالنسبة إلى مرحلة ما قبل الكلاسيكية من حياة اللغة العربية الكلاسيكيّة. صحيح أن بوسع المرء- كما هي الحال في الكلاسيكية- أن يستعمل الفعل الماضي باعتباره ماضياً تاريخيّاً، والفعل المضارع باعتباره دالاً على التو أو الديمومة وعلى المستقبل باستخدام السّين، بيد أنّ ثمّة سيلاً من المخالفات الحاسمة في الحكم على تميّز نظام الأفعال في مرحلة ما قبل الكلاسيكية. فجلّي أن نظام مرحلة ما قبل الكلاسيكيّة يركّز على الوجهة Aspektsystem فالفعل الماضي يشير حتى دون «قد» على واقع منتهٍ abgeschlossenen Tatbestand، و «جُعْتُ» لا تدل على «أنني كنت جائعاً» وإنما على «أنني جائع». ومن ذلك أيضاً القول القرآني المعروف: «كان الله رحيماً» فليس المعنى أن رحمته تقتصر على الماضي فحسب وليست هذه الصياغة وليدة اشتراطها بالفاصلة القرآنية، وإنما جاءت من وجهة الفعل الماضي[1]. فالفعل المضارع يشير إلى جانب دلالته على آنية الحاضر وديمومته، أيضاً على استمرارية الحدث أو تكرّره، سواء أكان ذلك في الحاضر أم الماضي. وبذل فإن الفعل «يَنْظُر» لا تعني فقط: «ينظر الآن» وإنّما أيضاً «ينظر دائماً وباستمرار» أو «نظر دائماً وباستمرار» حين

(١) انظر ما كتبه W.Reuschel في memoriam Caroli Brockelmann Studia Orientaliaص ١٤٧ وما بعدها.

تكون ثمّة قرينة تضْمَن الدلالة على الماضي. ويغلب أن الأداة الفعلية «قد» في لغة مرحلة ما قبل الكلاسيكيّة تشير إلى الماضي فقط، وذلك حين تكون مقرونة بالماضي، وهي تدل على الماضي عندما تكون مقرونة بالمضارع، فمثلاً «قد يَنْظُر» لا تعني فقط: «ربما يَنْظُر إليه» وإنما أيضاً: «تعهده بالنظر أحياناً».

وتجدر الإشارة إلى أنّ ثمّة عدداً كبيراً من التغيّرات التي تميز لغة ما قبل الكلاسيكيّة من الكلاسيكيّة. فالأداة «إلاّ» المكونة من: إن +لا استُعملت فقط في لغة ما قبل الكلاسيكية بوصفها أداة شرط نافية. فتعبير المرحلة الكلاسيكيّةعن: إن لا تقم نذهب، هو: إن تقم نذهب. أمّا «إلاّ» فكان احتمال استعمالها مُقْتصراً على اعتبارها أداة استثناء.

هذه الأمثلة القليلة ينبغي أن تكون كافية لإبراز الفروق المهمة بين مرحلتي العربيّة الكلاسيكيّة: مرحلة ما قبل الكلاسيكيّة، والمرحلة الكلاسيكيّة، ولم يتكتم النحاة العرب على مثل هذه الحالات في استخدام لغة ما قبل الكلاسيكيّة، فهم يوردونها في العادة مصحوبة بشواهد شعريّة على أنها حالات خاصة لم ترق إلى المستوى المعياري.

إن من يعتقد - كما كان يحدث غالباً في الماضي- أن النحو العربي كان وصفياً في تناوله للغة العربيّة الكلاسيكيّة، يكون قد استسلم إلى خطأ جسيم. فإن النحويّ العربي -مع احتمال استثناء سيبويه- لم يكن على درجة كبيرة من الوصفيّة للغته، وإنما كان بالدرجة الأولى مُشكّلاً Gestalter معيارياً لها.

الجُمَل المُصَدَّرة بـ (أنْ) و (أنَّ)[1]

للمستشرق : فولف ديتريش فيشر

ترجمة عن الألمانية

ملاحظة (للمترجم):

نُشر هذا البحث في الأصل بعنوان: أنّ Dass- Sätze mit أنْ und

في المجلّة الألمانيّة: Zeitschrift für arabische Linguistik

مجلّة لدراسات اللغة العربيّة، وهي تصدر عن دار النشر Otto Harrassowitz في مدينة Wiesbaden بألمانيا الغربية، العدد (١) لسنة ١٩٧٨ ص ٢٤-٣١.

أما صاحب البحث فهو المستشرق الألماني Wolfdietrich Fischer أحد المستشرقين البارزين، وهو أستاذ كرسي اللغات الشرقيّة ومدير معهد اللغات والحضارات غير الأوروبيّة في جامعة إيرلنجن- نورنبرج Erlangen-Nürnberg بألمانيا الغربية.

لقد عُرف هذا المشتشرق بدراساته اللغويّة، وبتبنّيه لفكرة تقسيم العربيّة تاريخياً إلى مراحل، فصّل القول فيها في مقال سابق ألقاه سنة ١٩٧١ في المؤتمر الثامن والعشرين ليوم الاستشراق العالمي في كانبرا سنة ١٩٧١، ونشر في مجلة:

Abr- Nahrain 12 (1971)15-18, Leiden

بعنوان Die Perioden des klassischen Arabisch

---

(١) نُشرت هذه الترجمة في مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني، العدد ٢٧ سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

وقد تَرجمتُ مقاله هذا بعنوان: «المراحل الزمنية للعربية الفصحى». وقد أكّد المستشرق «فيشر» فكرته هذه بمقالات أخرى نشرت في كتاب من مجلدين، اشترك فيه مجموعة من المستشرقين الألمان، وقد حرّر «فيشر» المجلد الأول من هذا الكتاب، وقد صدر بعنوان: «الأساس في اللغويات العربية»

Grundriss der Arabischen Philolgie, Band I,

Herausgegeben von Wolfdietrich Fischer, 1982 Wiesbaden

ونظراً لما لآرائه- التي وجدت اهتماماً في الوسط الاستشراقي- من أهميّة وخطورة، تستدعي لأخذها أو ردّها مزيداً من الدراسات الإحصائية والتاريخيّة اللغويّة، فقد رأيت أن أترجم له هذا المقال الذي هو مَثَلٌ تطبيقي على نظريته في تقسيم اللغة العربيّة تاريخياً إلى مراحل.

النص

الجمل العربيّة المصدّرة بـ «أنْ» و «أنّ»

تأتي الأدوات «إنْ» و «أنْ» و «لكن» - تلك التي تتصدر الجملة العربية - على نمطين: مخففة (إنْ، وأنْ، ولكنْ)، وثقيلة (إنّ وأنّ. ولكنّ).

أمّا «لكن» فإنّ مجال الاختيار بين استعمالها مخفّفة أو ثقيلة منوط ببناء الجملة التي تليها. وأمّا «إنْ» و «إنّ» فإن الوظيفة الدلاليّة للجملة هي المقياس الحاسم في الاختيار بينهما؛ فـ «إنّ» تقع قبل الجملة الخبرية المستقلّة بذاتها، أما «إنْ» فهي حرف يتصدّر جملة الشرط Vordersatz في التركيب الشرطي[(١)].

بيْد أنّ «إنْ» قد تصدّرت الجملة الخبريّة، واستوت مع «إنّ» في وظيفتها

(١) من الواضح أن المؤلف يعتبر «إنْ» و «أنْ»- كما قال لاحقاً- ضربين من النطق لعنصر لغويّ واحد ثم ألحق بهما اختلاف المعنى إلحاقاً ثانوياً، من باب التطوّر التاريخي (المترجم).

الدلالية[1]، وقد حدث هذا- وإن كان نادراً- في مرحلة ما قبل الكلاسيكية[2] Vorklassische Periode، وفي ذلك إشارة إلى أنّ «إنْ» و «إنّ» - كما هي الحال في «لكنْ» و «لكنّ»- هما ضربان من النطق لعنصر لغوي واحد، ثم أُلحق بهما اختلاف المعنى إلحاقاً ثانوياً. وقد تميّزا دلالياً في فترة ما قبل التاريخ من حياة اللغة العربيّة Vorhistorische Periode.

أما الأداتان السالف ذكرهما- «أنْ» و «أنّ»- فيمكن ملاحظة ذلك فيهما من خلال مسيرة التطور التاريخي للغة العربيّة.

تتصدّر الأداتان «أنْ» و «أنّ» الجُمَل المصدريّة، وهما تناظران إلى حدّ بعيد كلمة dass الألمانية، ويتحدّث النحاة العرب عن «أنْ» المصدريّة، فهي التي تقوم مقام المصدر. والتعبير بـ «أنْ» والفعل قد يُعوّض عنهما بمصدر. بَيْد أن أحداً من النحاة العرب، أو من الأوروبيين المهتمين بنحو العربيّة الفصحى لم يقدّم تصوّراً واضحاً يجاب به عن هذا السؤال: متى ينبغي أن تُصدّر الجملة الاسميّة بـ؛ «أنْ» ومتى ينبغي تصديرها بـ «أنّ»؟

يبدو أن النحاة العرب إذْ ينطلقون من الاستعمال السائد للعربية الفصحى في زمانهم، يرون أن الوضع الطبيعي لـ «أنْ» هو أن تكون «أنْ» الناصبة. وهذا يعني أنها تتصدر جُمَلا تُعْرِب عن حدث يُؤْمل تحققه، بَيْدَ أنه لم يتحقق بعد[3]. أما الجمل التي تعبر عن حقيقة ثابتة فتُصدَّر في العادة بـ «أنّ»[4]، غير أن العربية قد عرفت حالات لجمل تتصدرها «أنْ» دون فعل منصوب، وهي حالات ليست نادرة

---

(١) انظر Fischer 339 Anm. 2.

(٢) يعني اللغة قبل عصر التقعيد اللغوي، كالعصر الجاهلي (المترجم).

(٣) قال المبرّد في المقتضب جـ٢ ص ٣٠ سطر ٤: «لا تقع (أن الناصبة) مع الفعل حالاً، لأنها لِما لا يقع في الحال، ولكن لما يُستقبل» وانظر أيضاً الزجاجي ص ٢٠٦ سطر ٨، والزمخشري ص ١٣٨ سطر ١٤.

(٤) قال المبرّد في المقتضب جـ٢ ص ٣٠ سطر ١١: ولو قلت: أَعْلَمُ أن تقومَ يا فتى لم يجز، لأنّ هذا شيء ثابت في عِلْمك. فهذا من مواضع (أنّ) الثقيلة.

في المرحلة الكلاسيكية، بل هي شائعة في مرحلة ما قبل الكلاسيكيّة، وهذا يتعارض والقاعدة الأساسيّة للنصب بـ «أنْ».

يلجأ النحاة العرب في تفسيرهم لهذه الحالات إلى استخدام المصطلحين الآتيين:

١ - «أنْ» المخفّفة؛ وتجيء من النص في موضع يصحّ أن تجيء فيه «أنّ».

٢- «أنْ» المفسِّرة؛ وقد قال فيها فلايش Fleisch إنها تقوم بدور علامة الترقيم (:)[١]. ومن النحاة من أدرجها في باب «أنْ» المخفّفة[٢].

إنّ تقديم مثل هذه المصطلحات المميّزة لِيَصِفُ مجال استعمال «أنْ»، ولكنه لا يُغْني كثيراً في حل مسألة التفريق بين «أنْ» و«أنّ». فالمذهب الذي يعتبر «أنْ» مخففة يطرح حلاًّ خاطئاً يقوم على أساسٍ من اعتبار «أنْ» ناصبة للفعل.

وعلى أي حال فإنّ النحاة العرب لا يذكرون أي سبب لوقوع «أنْ» في مقام «أنّ»، كما لا يقدّمون أي شرط يُجَوِّز إحلال «أنْ» محل «أنّ».

فالأمثلة المصنوعة التي يوردها النحاة على أنّها نماذج صالحة للعربية الجيدة، وكذا الشواهد التي تنتمي إلى نصوص مرحلة ما قبل الكلاسيكيّة، تدل بوضوح على أن استعمال «أنْ» لا يخضع بحال إلى أية قيود شكليّة. هذا إذا أخذنا العربيّة قبل الكلاسيكيّة[٣] في الحسبان. فسيبويه يعرض هذا الأمر من خلال النماذج الآتية[٤]:

---

(١) H.Fleish: Yaqtula cananéen et subjonctif arabe. in: Studia Orientalia in memoriam Caroli Brockelmann. Halle (Saale) 1968.S.72.

(٢) انظر حول «أنْ» المفسِّرة: سيبويه جـ ١ ص ٤٧٩ (في طبعة Derenbourg جـ ١ ص ٤٢٨) باب ما تكون فيه «أنْ» بمنزلة «أي»، وانظر الزمخشري ص ١٤٧ سطر ٥.

(٣) انظر حول مفهوم مرحلة ما قبل الكلاسيكية من حياة العربية المقالة التي كتبتُها بعنوان: Die Perioden des klassischen Arabisch المنشورة في مجلة Abr .Nahrain, 12, 1972 S.15-18

(٤) انظر سيبويه جـ ١ ص ٤٨١ (وفي طبعة Derenbourg جـ ١ ص ٤٣٠).

أ- أكتبُ إليه أن لا تقل ذاك.

ب- كتبتُ إليه أنْ لا يقولَ ذاك.

جـ- كتبتُ إليه أنْ لا تقولُ ذاك.

إنّ الشكل الذي يأتي عليه الفعل في هذه الجمل غير متوقف على «أنْ». فـ «أنْ» لا تؤثر في الفعل الذي يليها، إذْ بوسع المرء أن يصوغ الفعل في عدّة أشكال، لا بل إن تفسير «أنْ» أو قل جملة «أنْ» منوط بالشكل الذي يأتي عليه الفعل. أمّا تفسير الجُمل السابقة فهو على النحو الآتي:

كتبت إليه:

أ- لا تقل ذاك.

ب- أنه لا ينبغي له أنْ يقول ذاك.

جـ- أنّك لا تقولُ ذاك (أي: ليس من عادتك أن تقول ذاك).

وجَرْياً على مذهب النحاة العرب تكون «أنْ» هي:

أ- أنْ المفسّرة.

ب- أنْ الناصبة.

ج- أنْ المخفّفة.

فالحال الأخيرة هي الوحيدة التي يصحّ فيها أن يُستعاضَ بـ «أنّك» عن «أنْ». ولمّا كانت هذه الأمثلة المصنوعة تتضمّن أنواع المضارع مرفوعاً ومنصوباً ومجزوماً اتّضح أنّ استعمال المضارع بعد «أنْ» لم يكن مقيّداً، ويضاف إلى ذلك أن استعمال الماضي والأمر بعد «أنْ» كان جائزاً، وعليه شواهد كثيرة تدعمه. وهو على أي حال ليس موضع خلاف لدى النحاة العرب[1]، أمّا النماذج التي يطرحها سيبويه

(١) انظر Fischer s 414 وانظر المبرِّد جـ٢ ص ٣٠ سطر ٥ حيث يقول: «فإن وقعت (أن) =

فيمكن أن تستكمل الصورة هكذا:

د- كتبت إليه أن لم تقل ذاك.

يستخدم سيبويه جمل «أنْ» منفيّة فقط وهو يعرض الأشكال الممكنة التي قد يأتي عليها الفعل، لأنّ استعمال المضارع بعد «أنْ» غَيْرَ مقيّدٍ، يبدو له موضع شك.

وهذا راجع إلى أنّ العربيّة الكلاسيكية في زمنه لم تعد تستعمل «أنْ» المتبوعة بمضارع مرفوع. بينما يقدّم القرآن والشعر في مرحلة ما قبل الكلاسيكية، أمثلة واضحة على ذلك، وهي أمثلة لا يأتي المضارع المرفوع فيها إلاّ مقيّداً بالسين أو بالنفي[1]. غير أن بعض النحاة - كالزجاجي مثلاً- لا يعبأ بتقديم جُمل جاء فيها المضارع مثبتاً بعد «أنْ»[2] وبذا أمكن صَوْغ النماذج السالفة في صورة مثبتة على النحو الآتي:

أ- كتبتُ إليه أنْ قل ذاك.

ب- كتبتُ إليه أنْ يقولَ ذاك.

جـ- كتبتُ إليه أنْ تقولُ ذاك.

= على الماضي، نحو: سرّني أن قمت... كان جيداً».

(١) إن اعتبار مجيء المضارع بعد «أنْ» مرتبطاً بالضرورة بالسين، أو سوف، أو «لا» ليس سوى نتيجة للمذهب الذي يرى أنّ «أنْ» هذه هي المخففة، وأنّ هذه الأدوات إنْ هي إلاّ «عِوَض» عمّا حُذف من «أنّ حتى صارت «أنْ» انظر سيبويه جـ ١ ص ٤٨٢ سطر ٤ وما يليه (ومن طبعة Derenbourg جـ ١ ص ٤٣٠ وما يليها). وانظر المبرد جـ ٢ ص ٣١ سطر ١٠ وما يليه.

(٢) يقول الزجاجي ص ٢٠٦ سطر ١٠ وما يليه: فإن وقعت قبلها (أي قبل: «أنْ») الأفعال التي تدل على إثبات الحال والتحقيق ارتفع الفعل ههنا وكانت مخففة من الثقيلة، كقولك: «علمت أن تقومُ».

د- كتبتُ إليه أنْ قلتَ ذاك[1].

ولننظر فيما يأتي كيف يؤيد الاستعمال القرآني للغة، انسجام هذه النماذج مع واقع الاستعمال اللغوي[2] من خلال:

أ- سورة ص، الآية ٦:

«وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم»[3].

ب- سورة البقرة، الآية ٢٦:

«إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة».

جـ- سورة النساء، الآية ١٤٠:

«وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفرُ بها».

سورة المائدة، الآية ٧١.

«وحسبوا ألّا تكون فتنة» (وثمة قراءة بنصب تكون، وهي شائعة).

سورة المزمل، الآية ٢٠:

«علم أن سيكونُ منكم مرضى».

د- سورة النمل، الآية ٨:

---

(١) يحمل سيبويه هذه الأمر على نظرية العوض. بتخفيف «أنْ» من «أنّ» حتى بعد أن يلي «أنْ» الفعل الماضي، الذي يتطلّب «قد» تعويضاً عن المحذوف. (انظر سيبويه جـ ١ ص ٤٨٢ سطر ٤ وما يليه ومن طبعه Dernbourg جـ١ ص ٤٣٠ وما يليها) إلاّ أن هذه القاعدة تُعْوِزها الشواهد اللغويّة.

(٢) الشواهد المضروبة هنا قرآنية فحسب، وذلك لأنّ الشواهد الشعرية يمكن أن تتأثر بمتطلبات الوزن الشعري، وهي على أي حال تقدم الصورة عينها التي تقدمها الشواهد القرآنية.

(٣) انظر أمثلة المضارع المؤكد المنفي في Delectus 18. 12وبيت عمر بن أبي ربيعة:

أرسلـــــت إذ رأت بعـــــادي أن لا يقبلـــن بـــي مُحـــرِّشـــاً إن أتـــاهُ

«نودي أنْ بورك من في النار»

سورة المائدة، الآية ١١٣

«ونعلم أنْ قد صدقتنا»

سورة البلد، الآية ٧

«أيحسب أنْ لم يره أحد»

وفضلاً على ذلك فإنّ «أنْ» تتصدّر جملاً لا يتفق بناؤها تماماً وهذه النماذج. وهذا يعني أنّ الجملة بعد «أنْ» لا تخضع لقيود بنيوية[١]. قارن ذلك مثلاً بما ورد في :

-سورة الأعراف، الآية ١٨٥ :

«وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم»

سورة النجم، الآية ٣٩

«وأن ليس للإنسان إلا ما سعى»

سورة البلد، الآية ٥ :

«أن لن يقدر عليه أحد»

سورة الأعراف، الآية ١٠٠ :

«أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم»

سورة الصافات، الآية ١٠٤ :

«وناديناه أنْ يا إبراهيم»

---

(١) ليس في القرآن الكريم شواهد على «أنْ» متقدمة على الضمائر الشخصية. ومع ذلك فإن ارتباط «أنْ» بالضمائر المتصلة أمر ممكن (انظر الشواهد على ذلك لدى Wright 81 A).

سورة يونس، الآية ١٠ :

«وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين»[1].

يتضح من المثال (أ) من الأمثلة المستشهد بها،وهو الذي يسمّيه النحاة العرب «أنْ المفسِّرة» أنّ «أنْ» ليست جزءاً من الجملة الفرعية، وإنما هي تابعة للجملة الأساسية، وهي حلقة وصل تشير إلى الجملة التابعة التي قامت مقام المصدر، فـ «أنْ» لا تدخل في بناء الجملة التابعة ولا في معناها.

(انظر مثلاً سورة يونس، الآية ١٠).

وهذا يسري على الحالات التي ينبغي أن توضع «أنْ» فيها مقابل كلمة dass عند الترجمة إلى الألمانية، ويسري أيضاً على الأنماط الأخرى من الجمل. فالأمر لا يقتصر في «أنْ» - في مرحلة ما قبل الكلاسيكية- على مجرد كونها أداة تتطلب فعلاً منصوباً، بل يتجاوز ذلك. فالفعل المنصوب يُكسب الجملة الفرعيّة معنى غائياً finale Bedeutung انظر مثلاً:

- كتبتُ إليه أن يقول ذاك

(أي: كتبت إليه أنه ينبغي عليه أن يقول ذاك)

- كتبت إليه أن تقولُ ذاك

---

(١) انظر مزيداً من الشواهد على «أنّ» التي تسبق الجملة الاسمية لدى W. Fischer فقرة ٤١٤ الملاحظة ٢ وكذلك بيت الأعشى الذي يستشهد به النحاة وهو:

فـي فتيـة كسيـوف الهنـد قـد علمـوا أنْ هـالـكٌ كـل مـن يَحْفَـىٰ وينتعـل

وتعبير الشهادة عند المسلمين «أشهد أن لا إله إلا الله» التي أولاها A. Fischer مقالة خاصة بها بحث عنوانه:

Zur Syntax der muslimischen Bekenntnisformel.

وقد نشرت في مجلة Islamica العدد الرابع لسنة ١٩٣١ الصفحات ٥١٢- ٥٢١ وقد اقتصر فيها على معالجة استعمال «أنْ» التي تسبق نفي الجنس.

(أي: كتبت إليه أن من عادتك أن تقول ذاك)

وبينما لا تؤثر «أنْ» في بناء الجملة التي تليها، فإنّ «أنّ» ترتبط دائماً باسم أو ضمير، كما تحدِّد «أنّ» أيضاً شكل الكلمة التي تليها، فلا بدّ من أن يليها اسم منصوب أو ضمير متصل. فـ «أنّ» كما هي الحال في «إنّ» تثير الانتباه إلى الاسم التالي أو الضمير، وتبرزه إبرازاً بوصفه موضوع الحديث topic من خلال التعليق عليه comment[(١)]، فهي إذ تستوي مع «إنّ» من حيث الوظيفة التأكيدية تتميّز عنها بتصدر الجمل الفرعية لا الجمل الأساسية[(٢)]. انظر:

- إنّ أخاك ذاهب.

-أعْلمُ أنّ أخاك ذاهب.

فالخلاف، إذن، بين «أنَّ» و «أنْ» هو على الصعيد الوظيفي كالخلاف بين المؤكّد وغير المؤكّد، هكذا:

«إنّ»: «أنْ» (من غير سمة مميزة)

مؤكد: غير مؤكد

ويؤيد هذه العلاقة من ناحية الوظيفة الدلالية ما نراه من أنّ «أنْ»- وهي التي ليست لها سمة مميزة- لا تؤثر في بينة الجملة الفرعية، بينما تعبّر «أنّ» المؤكدة عن وظيفتها التأكيدية بشيء يلفت النظر تُحْدثه في الجزء الاسمي من الجملة، ولذا

---

(١) يمكن أن تبني الجمل التأكيدية Topik- Comment - Sätze في العربيّة الكلاسيكية. وذلك ببساطة من خلال تصدرها بما يتناسب والمقام من تعابير اسميه، فهي تدور إذن حول الجمل المؤكدة برابطة Kopolativsätze انظر Fischer ,s 368-370 وتعرف العربية مجموعة من الأدوات التأكيدية Topikalisierungspartikel من أبرزها «إنّ»، و «أنّ» و «لكنّ» ومنها أيضاً «أمّا».

(٢) وإلى هذا ذهب الزمخشري ص ١٣٥ سطر ٨ (فصل ٥١٧) بقوله: «إنّ» و «أنّ» هما تؤكدان مضمون الجملة وتحققانه، إلاّ أنّ المكسورةَ، الجملةُ معها على استقلالها بفائدتها، والمفتوحةَ تقلبها إلى حكم المفرد...».

كانت تستلزم بنية محدّدة للجملة الفرعيّة.

والتأكيد من خلال «أنّ» يرتكز في الغالب على إبراز الحدث في صورة يقينيّة أو محقّقة. وقد أثبت ذلك بعض النحاة العرب[1].

إذن، فالفيصل الذي يحسم بين استعمال «أنْ» و «أنّ» في مرحلة ما قبل الكلاسيكية يمكن أن يعبّر عنه على النحو الآتي:

تتصدّر الجمل الفرعية بـ «أنّ» حين يلزم أن يكون الاسم مؤكداً، وفي غير ذلك من الحالات تتصدّرها «أنْ».

وعلى النحو الذي أمكن فيه تحديد القاعدة التي تُفرّق بين «أنْ» و «أنّ» في مرحلة ما قبل الكلاسيكية، يمكن أن يسري ذلك أيضاً من الناحية البنيويّة على نظيرتيهما «لكن» و «لكنّ» إلى يومنا هذا.

وفي هذا يقول كانترينو V.Cantarino: تُعْنَىٰ «لكنّ» بإبراز جانب التباين الدلالي في وظيفة الاسم، أمّا «لكنْ» فتستعمل فيما عدا ذلك من الحالات، وذلك حين لا يسمح بناء الجملة النحوي باستخدام «لكنّ»[2].

لم تعد النصوص العربيّة في المرحلة الكلاسيكيّة منذ النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) تشير إلى اختلاف بين الفعل المضارع المرفوع والفعل المضارع المنصوب. فالمضارع المنصوب لم تعد له وظيفة دلاليّة مستقلة خاصة به، وقد أصبح استعماله متوقفاً على ارتباطه بأداة محدّدة من أدوات الجمل الفرعيّة، نحو: «أنْ»، و «حتى» و «كي»، فهذا يعني في الجمل الفرعية المصدّرة بـ«أنْ» أنّ: «أنْ» + فعل مضارع مرفوع، يجب أن يستبدل بها: «أنّ» + فعل مضارع مرفوع، ففي المرحلة الكلاسيكية بعد القرن الثاني لا يمكن أن تتم صياغة النماذج

---

(١) انظر أعلاه حاشية رقم (٣) فالمبرد يتابع هنالك قائلا: «وتقول: أظن أنك ستقوم، لأنه شيء قد استقر في ظنك».

(٢) انظر: Cantarino III 40 und 43.

التي ذكرها إلاّ على النحو الآتي:

أ- كتبتُ إليه أنْ قلت/ لم تقل ذاك.

كتبتُ إليه أنّك قلت/ لم تقل ذاك.

ب- كتبتُ إليه أنْ يقولَ/ لا يقولَ ذاك.

كتبتُ إليهِ أنّك تقولُ/ لا تقولُ ذاك.

وبذا فقد تحول الخلاف بين «أنّ» و «أنْ»، فبينما كان في الأصل يتمثل في التعبير عن «التأكيد» باستخدام «أنّ» مقابل «عدم التأكيد» باستخدام «أنْ» فقد أصبح خلافاً من نوع آخر وهو:

-على المستوى التركيبي:

«أنّ» مع المضارع المرفوع: مقابل «أنْ» مع المضارع المنصوب.

وعلى المستوى الدلالي:

حدث ثابت محقق: مقابل حدث منوي غير محقق.

لقد كان منتظراً في ظلّ هذه الظروف أن يمتد الخلاف في الوظيفة الدلاليّة بين «أنّ» و «أنْ» إلى استعمالهما مرتبطتين بالفعل الماضي، ثم يتبع ذلك استبعاد تدريجي للتعبير بـ «أنْ» مع الفعل الماضي وإحلال التعبير بـ «أنّ» بدلاً منه، بَيْدَ أنّ الواقع الحالي للغة المكتوبة - وربّما لفترات زمنيّة متقدّمة تفتقر إلى بحث- ما يزال يُبْدي استمرار هذا الاختلاف الدلالي، هكذا:

- تحتفظ الجملة التابعة التي لا تصف حدثاً يُنوى تحقّقه بـ «أنْ» مع المضارع المنصوب.

- تتصدر «أنّ» جملة فرعيّة تُعبّر عن حدث محقق أو حقيقة مثبتة. وعليه، فإن ثلاثة أنماط ما تزال متبقية في العربيّة المكتوبة المعاصرة من الأنماط الأربعة

المذكورة التي تُجوِّزها المرحلة الكلاسيكية، وهي:

أ- كتبتُ إليه أنّك قلت/ لم تقل ذاك.

ب-كتبتُ إليه أنّك تقولُ/ لا تقولُ ذاك.

جـ- طلبتُ منك أن تقولَ/ لا تقولَ ذاك[١]

أما التعبير بالفعل الماضي بعد «أنْ» فلم يعد يأتي إلّا في قوالب تعبيريّة ثابتة كما هي الحال بعد بعض الأدوات، نحو: «بعد أن»، و «منذ أن»، و «إلى أن»؛ وبعض التعبيرات، نحو: «سبق له أن فعل» و «لم يلبث أن فعل». فأمّا استعماله غيرُ المقيد فقد اختفى. فالتغيُّر الجوهري مقابَلاً بما هو حاصل في مرحلة ما قبل الكلاسيكية يتمثل في أنّ الجملة الأساسيّة هي التي تقرر ما إن كانت الجملة الفرعية ستتصدر بـ «أنْ» أو «أنّ»؛ ففي مرحلة ما قبل الكلاسيكية تُختار «أنّ» للتعبير بها حين تتضمّن الجملة الفرعية اسماً يتطلّب تأكيداً.

أمّا العربية المكتوبة المعاصرة فتختار «أنّ» حين تُعلن الجملة الأساسيّة عن شيء، ملحوظ أو مسموع أو مُوضح إيضاحاً ثابتاً أو ما شاكل ذلك؛ وتختار «أنْ» حين تعلن الجملة الأساسية عن أمنية أو طلب أو مقدرة أو موافقة على شيء.. إلى غير ذلك.

فالاختيار - إذن- بين «أنّ» و «أنْ» أمر متعلق بالبنية الدلاليّة للجملة المتبوعة، وبذا فإن استعمال «أنّ» أو «أنْ» في الأمثلة الآتية:

- من الممكن أن يقولَ ذلك

- من المعروف أنه يقولُ ذلك.

---

(١) إنّ التعبير بـ: كتبت إليه أن يقول ذاك. وهو من التراكيب الجائزة في عربيّة المرحلة الكلاسيكية، لم يعد له استعمال في العربيّة المكتوبة المعاصرة، ولذا اختير هذا المثال: طلبتُ منك... للتمثيل على «أنْ» + المضارع المنصوب.

أو:

- قرّر أنْ يقولَ ذلك.

- قرّر أنّه سيقولُ ذلك.

متوقف على الاختلاف الدلالي بين «الإمكان» و«المعرفة» في المثالين الأول والثاني، وهو متوقف على الاختلاف الدلالي الكامن في معنى الفعل «قرّر» في المثالين التاليين لهما.

المصادر

وقد ذكرت وَفقاً للاختصارات التي وردت عليها

CANTARINO, V.CNTARINO: Syntax of modern Arabic Prose. Vol. I-III. Bloomington / London, 1974-75 (Asian Studies Research Institute. Oriental series. no. 4).

J. NOELDEKE (ed.): Delectus Veterum Carminum Arabicorum. (Berolino 1890:) Wiesbaden, 1961. DERENBOURG, kitab le livre de Sibawaihi... publ. par H. DERENBOURG. Paris, 1881-1889.

FISCHER, W. FISCHER: Grammatik des klassischen Arabisch. weisbaden, 1972 (Porta linguarum Orientalium, N.S. xi).

مبرد - المبرد: كتاب المقتضب، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، الأجزاء ١-٥، القاهرة، ١٣٨٥-١٣٨٨هـ.

سيبويه، كتاب سيبويه، بولاق ١٣١٦هـ.

WRIGHT, W. WRIGHT: A Grammar of the Arabic language. 3rd ed., Vol. I-II, Cambridge, 1933. u.o.

زجاجي - الزجاجي: الجُمل، طبعة: الجزائر - باريس، ١٩٢٧م.

زمخشري - الزمخشري: المفصل، تحقيق: J.P.Broch، كريستيانا، ١٨٧٩م.

المحتويات